

الكتاب الثاني
المسّي
زبدة الصحائف في سياحة المعارف

تأليف

نوفل افندي بن نعمة الله بن جرجس
نوفل الطرابلسي

يا أيها القوم الذين تفتنوا في ضبط كرات الحروب وفرّها
هيا انشروا نعم البراع وحسبكم ان ترووا عن نعم الفراع وشرّها

بيروت ١٨٧٩

فهرست

صفحة

المقدمة في اقسام التاريخ	١
التسم الاول من التاريخ وهو القرون الاولى	٤
المعارف في بلاد الكلدان	٥
المعارف عند العبرانيين	١١
المعارف في بلاد الفرس	٢٥
المعارف في فينيقية	٢٥
المعارف في مصر	٤٢
المعارف في الصين	٧٨
المعارف في الهند	٩٣
المعارف في بلاد اليونان وفيه مقدمة واربعة فصول وخاتمة	١٠١
المقدمة	١٠١
الفصل الاول في كيفية تقدمات اليونان الى وقوع الانقسام بين اسبرطة واثينا	١١١
الفصل الثاني في كيفية سلوك اهل اسبرطة	١١٥
الفصل الثالث في كيفية سلوك اهل اثينا	١١٨
الفصل الرابع في خلاصة ما اشتهر به الفريقان من المعارف الخ	١٢٣
الخاتمة في احوال اليونان الاخيرة	١٣٥
المعارف عند الرومانيين وفيه مقدمة وبمجان في كل منها عدة فصول	١٣٩
المقدمة في اصل الرومانيين ومنشاهم	١٣٩

١٤٤ البحث الاول في حالة العلوم والفنون منذ قيام المشيخة الرومانية الى
انقسام المملكة واستيلاء البربر على القيصريّة الغربية سنة ٤٩٥ م
وفيه ٧ فصول وخاتمة

١٤٤ الفصل الاول في تقدمات الرومانيين منذ قيام المشيخة المذكورة الى
ان ظهر الامبراطور اوغسطس قيصر سنة ٥١ م

١٤٦ الفصل الثاني في ما حدث في زمن القياصرة الوثنيين لحد سنة ٢٣٠ م

١٥٢ الفصل الثالث في حالة المعارف من بداية المشيخة الى اخر مدة
القيصرية المذكورين

١٦١ الفصل الرابع في ماجريات القياصرة المسيحيين منذ تنصر قسطنطين
الكبير الى ان انقسمت المملكة في سنة ٣٩٥ م

١٧٢ القسم الثاني من التاريخ المعروف بالفرون الوسطى

١٧٢ الفصل الخامس في امبراطورة القيصريّة الشرقية منذ انفصالها عن
الغربية الى ان افتتحها آل عثمان سنة ١٤٥٣

١٧٦ الفصل السادس في المبادي الفلسفية العمومية منذ تنصر قسطنطين

الكبير الى ظهور الدولة العباسية بالمشرق وكرلوس الاكبر
في المغرب سنة ٨٠٠ م

١٨٧ الفصل السابع في حالة الاداب والفنون في القيصريّة الشرقية خاصة
منذ توطيد الديانة المسيحية الى نهاية القرن الثامن

٢٠٦ الخاتمة في حالة الاداب والمعارف في القيصريّة المذكورة منذ القرن
التاسع الى ان افتتحها آل عثمان سنة ١٤٥٣ م

٢١٤ البحث الثاني المعارف في الامبراطورية الرومانية الغربية منذ انفصالها
عن الشرقية الى نهاية الفرون الوسطى وفيه سبعة فصول وخاتمة

٢١٤ الفصل الاول في ما حدث على المعارف في هذه الامبراطورية منذ
انفصالها المذكور الى ان استولى عليها البربر سنة ٤٩٥ م

٢١٦	الفصل الثاني في بيان انواع ونسبة واخلاق وعمائد القبائل الهاجرة على الامبراطورية المذكورة
٢٢٠	الفصل الثالث في حالة المعارف منذ الفتوح وتملك الملك ثيودوريق الاستروغوطي الى وقت اختلاط الرومانيين بالجرمانيين
٢٢٤	الفصل الرابع في حالة العلوم والمعارف بعد اختلاط الرومانيين بالجرمانيين الى ان تولى الامبراطورية كراوس الاكبر
٢٤٠	الفصل الخامس في حالة العلوم والمعارف في زمن كراوس الاكبر المذكور
٢٦٠	الفصل السادس في حالة العلوم والمعارف منذ وفاة كراوس المذكور الى بداية وقوع الحروب الصليبية اعني نهاية القرن ١١
٢٧٢	نبذة في تفاصيل احوال جهالة الاعصر المذكورة
٢٧٧	دواعي الحروب الصليبية من سنة ١٠٩٦ الى سنة ١٢٧٠ م
٢٨٢	الفصل السابع في حالة العلوم والمعارف منذ اشهار الحروب الصليبية سنة ١١٠٠ الى نهاية القرن الرابع عشر
٢٩٠	العلوم
٢٩١	المدارس
٢٩٦	اللغات
٢٩٨	الفلسفة
٣٠٣	اللاهوت
٣٠٥	الجغرافيا
٣٠٦	قوائد التجارة منذ اشهار الحروب المذكورة الى نهاية القرن الخامس عشر
٣١٢	الصنائع والهنر منذ القرن العاشر الى نهاية القرن الخامس عشر
٣١٦	المنامة في امتيازات القرن الخامس عشر ويليهما قضيتان
٣١٩	القضية الاولى في خلاصة ما تقدمت تفاصيله عن كيفية استدرجات

الافرنج الادبية لحد القرن الخامس عشر وفيها مطلبان

- ٢١٩ المطلب الاول في خلاصة ما تقدمت تفصيلا لحد القرن الخامس عشر
٢٢٤ المطلب الثاني في تقدمات المعارف والاداب عند بعض الممالك
المذكورة في القرن الخامس عشر

- ٢٢٤ روسيا
٢٢٧ فرنسا
٢٢٢ انكلترة
٢٢٢ ايطاليا
٢٤٤ القضية الثانية في الاكتشافات الارضية وفيه مطلبان
٢٤٥ المطلب الاول في اكتشاف راس الرجاء الصالح
٢٥٠ المطلب الثاني في اكتشاف الدنيا الجديدة المسماة بامريكا
٢٦٢ القسم الثالث من التاريخ وهو المعروف بالقرون الاخيرة وفيه فصلان
٢٦٢ الفصل الاول في الكلام على المعارف في ممالك اوروبا الافرنجية
٢٦٢ القرن السادس عشر
٢٦٢ امتيازاته
٢٦٤ الفلسفة فيه
٢٦٥ استدراجات مدنية
٢٦٥ ايطاليا
٢٧١ فرنسا
٢٧٦ روسيا
٢٧٧ اسبانيا
٢٧٧ انكلترة
٢٧٧ دانمارك
٢٧٨ اكتشافات عليية وتقدمات صناعية

٢٨١ القرن السابع عشر

٢٨١ امتيازاته

٢٨٣ الفلسفة فيه

٢٨٨ استدرجات مدنية

٢٨٨ فرانس

٢٩١ روسيا

٤٠٠ انكلترة

٤٠٢ المانيا

٤٠٢ اكتشافات علمية وتقدمات صناعية

٤٠٦ القرن الثامن عشر امتيازاته

٤٠٦ الفلسفة فيه

٤٠٧ استدرجات مدنية

٤٠٧ اوستريا

٤٠٨ ايطاليا

٤١٧ فرانس

٤٢١ روسيا

٤٢٣ اسوج

٤٢٩ المانيا

٤٢٩ انكلترة

٤٤١ اكتشافات علمية وتقدمات صناعية

٤٤٤ القرن التاسع عشر

٤٤٤ امتيازاته

٤٤٤ الفلسفة فيه

٤٤٩ اصول شعوب الدول الافرنجية الحاضرة ومراكز تقدماتها الحالية

في القرن التاسع عشر وفيه مطالبان

٤٤٩ المطلب الاول في الكلام على دول اوروبا القديمة التي تأسست من

الشعوب المنهزمة الهاجرة على الامبراطورية الغربية

٤٤٩ ايطاليا

٤٥٤ فرنسا

٤٦٠ اسبانيا

٤٦١ البرتغال

٤٦٢ انكلترا

٤٦٤ المطلب الثاني في الكلام على الدول التي حدثت بعد ذلك في

الاقاليم الشمالية والشرقية التي كانت خرجت منها تلك القبائل

التي سبقت الاشارة اليها في تعريف المطلب الاول

٤٦٤ المانيا

٤٦٦ النمسا

٤٦٧ روسيا

٤٦٨ الفنلند

٤٦٩ بيلجيا

٤٧٠ الدانمارك

٤٧١ السويد

٤٧٢ اسوج ونروج

٤٧٣ روسيا

٤٧٤ اكتشافات علمية وتقدمات صناعية

٥٠١ تقدم الصناعة بالنسبة الى العلوم ومركزها في القرن التاسع عشر

٥١٩ الفصل الثاني في الكلام في المعارف في بلاد الدولة العلية العثمانية

منذ الفتوح الى القرن التاسع عشر

المقدمة

في اقسام التاريخ

يقسم الافرنج التاريخ الى ثلاثة اقسام الاول يسمونه القرون الاولى وهو تاريخ الزمان القديم المجهول ويبتدي من بدء الخليفة الى الزمن الذي فيه اغار البربر على المملكة الرومانية فزوها واستولوا على اقاليمها في سنة ٢٩٥ م فيكون محنوباً على وقائع ٤٤٠ سنة حسب التوراة العبرانية وتحتة ثلاثة فصول الاول من بدء الخليفة الى زمن قورش ملك العجم مؤسس الحكومة الملكية سنة ٥٥١ ق م واكثر وقائع هذا الزمن ماخوذة من الكتاب المقدس. والفصل الثاني من زمن قورش المذكور الى زمن اغسطوس قيصر الروماني الذي نقل الحكومة الرومانية من المشيخة الى الامبراطورية وهو يتضمن وقائع ٥٠٠ سنة من سنة ٥٣ الى سنة ٢٩٥٣ سنة للعالم (سنة ٥١ قبل الميلاد) والفصل الثالث من عصر القيصر المذكور الى زمن ثاودوسيوس الاكبر قيصر القسطنطينية الذي تولى المملكة في سنة ٢٧٢ م وقسمها بين ولديه في حال حياته الى قيصرتين شرقية وغربية فهو محنوبي على وقائع ٤٣٠ سنة

والقسم الثاني يسمونه القرون الوسطى وهو يتضمن وقائع نحو ١١٠٠ سنة ويقسمونه ايضاً الى ثلاثة فصول الاول من عهد ثاودوسيوس الاكبر المذكور الى زمن شرلمانيا او كرلوس مانوس اعني كرلوس الاكبر مؤسس الامبراطورية

الغربية في فرنسا سنة ٨٠٠ ب م والثاني من عهد هذا الامبراطور الى نهاية
الحروب الصليبية وابتداء التمدن في بلاد اوربا وذلك نحو ٣٠٠ ب م والثالث
من نهاية الحروب المذكورة الى الزمن الذي فيه اكتشف خرستوفورس
كولبوس الدنيا الجديدة المسماة باميركا سنة ١٤٩٢ ب م

والقسم الثالث يسمونه القرون الاخيرة ويشتمل ايضاً على ثلاثة فصول
الاول مجنوي على وقائع ١٥٦ سنة منذ كُشفت اميركا الى الزمن الذي فيه
صارت مصالحة وستفاليا ووضعت النظمات والقوانين الجديدة في اصول
الادارات الدولية سنة ١٦٤٨ ب م والثاني من هذه المصالحة الى الزمن الذي
فيه حصلت الفتن العظيمة في فرنسا سنة ١٧٩٨ ب م والثالث من ابتداء
الزمن المذكور الى سنة ١٨٥٢ ب م

ومن ثم لا يخفى بانة لا بد من ان تكون الناس في كل قسم من اقسام
التاريخ المذكور على طبقات متفاوتة في التمدن الناتج من وسائط المعاشرة
والاثتلاف وكل ما يتسبب عنه اتساع دائرة العلوم والمعارف بمقدار ما يكونون
مطبوعين عليه من الجراءة والاقدام او الوسواس والاهوام وهذا ايضاً ينشأ
طبيعاً من كيفية التصرف في استعمال العقل الموهوب من الله سبحانه وتعالى
خاصةً يتنازها الانسان عن باقي الحيوانات التي تشاركه في الطبيعة والسكن
واشتغاله بالبحث عن حقائق الامور الواقعة تحت حواسه مهما كانت من
الدقائق الخفية فان حسن هذا الاستعمال عند قوم او قبيلة نمت فيهم القوى
العناية فكثرت عندهم المعارف وزادت الاختراعات وظهرت الاكتشافات
ذات الفوائد الجليلة فترقي تلك الامة الى اوج المعالي في مقام المدنية واما ان
ساء هذا الاستعمال في اي شعب او ملة من الشعوب والممل فانه يهبط به الى
حضيض الوحش والبربرية وفي الحالة الاولى يبقى الذكر جيلاً متخلداً على
الدوام واما في الثانية فانه يكون حطيطاً خاملاً بين الانام غير انه في الحالين
قد قضى الله بعدم الامكان على الخوض في ادراك حقيقة ذاته الالهية وكمه صفاته

الاذلية وغاية مقاصده الربانية فليس للناس دليل على ذلك الا اعلاناته
الروحية ولا مرشد اليه غير ما جاد به عليهم من الكتب المقدسة السماوية فلا
ينبغي اذن ان نائف من معارف قوم وان وجد في اعتقاداتهم الدينية
اعظم الخرافات ولا نثق بآراء اخرين في مثل هذه المباحث
لكونهم من صحة العقيدة في اعلى الدرجات
بل اينما تظهر لنا اثمار العقول
ينبغي ان نتلقاها
بعين الاعتبار
والقبول

الفسر الأول

من التاريخ وهو القرون الأولى

قد ذكرنا في ما مرّ بان أكثر وقائع هذا الزمن ماخوذ عن الكتاب المقدس ولذلك لا يمكننا ان نتكلم عنه هنا شيئاً باكثر او اوضح ما بسطناه في صدر الفصل الثامن من المقالة الأولى من كتاب زبدة الصحائف في اصول المعارف وخصوصاً ما كان من هذه الوقائع مختصاً بالعالم القديم الذي كان قبل الطوفان الذي يخبرنا الكتاب المقدس بمحدثه بعد خلق آدم أول البشر بخو 767 سنة اعني سنة 2348 قبل الميلاد وعلى مقتضى الاصطلاح الشائع المعول عليه الان وهو ان ميلاد المسيح كان بعد خلق آدم بخو 4004 سنين حسب سلسلة تواريخ الآباء القدماء المستخرجة من التوراة العبرانية اما ما كان بعد الطوفان المذكور فقد ذكره المورخون بتفاصيل اجالية منها ما هو موسى على ما ورد في الكتاب المقدس ايضاً ومنها ما هو متحصل اما ما وصل بالنقل الشفاهي الى اوائل المورخين واما ما نتج عن الفحص في الآثار القديمة بواسطة جهد مدققي المتأخرين وخلاصة ما قاله القوم المحققون بالنظر الى احوال اهل هذا القسم التاريخي الذي نحن بصدده هو انه ليس كل امية قديمة تستحق ان يبحث عنها بخلاف اهل مصر والعبرانيين والصين والهند والحجم والسريان واليونانيين فانهم كانوا دون غيرهم في القرون الأولى يستحقون البحث عن احوالهم نظراً لما في ما لهم من الآثار الشهيرة المرغوبة التي تدل

الباحث عنها على ما كانت عليه في وقتها غير ان الاختلاف واقع بين المورخين في تعيين الشعب الذي ابدي قبل غيره من هذه الطوائف في ممارسة العلوم والفنون فمنهم من قال المصريون وأيد ذلك بقوله لكونهم كانوا اصلاً لكثيرين من القبائل والشعوب المتدنة ومنهم من يقول الكلدانيون ويؤيد ذلك بما يقوله ستانليوس بان سحرة العجم المعدودين بين العلماء اخذوا معارفهم عن الكلدان الذين هم اقدم جداً من المصريين وبما قاله شبشرون اوقيقرون اول فلاسفة الرومانيين ومورخهم ان شعب الكلدان شعب العلماء الكلي القديمة اه لكن اذا التفتنا للمبادي الماخوذة من الكتاب المقدس ايضاً نرى بانه بعد اندراس العالم القديم بيه الطوفان انطالق بنونوح بعد خروجهم من الفلك الذي بو نجانوح واولاده من الغرق دون سائر اهل الارض الى ارض شنعار الواقعة في جنوب جبل اراراط وبعد ان استوطنوا هناك وصاروا شعباً عظيماً اجمع رايهم على بناء برج عظيم لكي يلتجئوا اليه وقت الحاجة ويتخلصوا به من الهلاك والغرق اذا حدث طوفان آخر فشرعوا في بناء ذلك البرج ولا زالوا يرتفعون به عن وجه الارض الى ان بلبل الله السنتهم سنة ٢٢٤٧ ق م فكفوا حينئذ عن العمل وتفرقوا على سطح الكرة ولعل كل فرقة منهم كانت تكلم بلغة واحدة تجيحت وانضمت الى بعضها وذهبت الى جهة معلومة منها ودعي اسم ذلك البرج برج بابل الى يومنا هذا ولذلك كان لا يبعد عن العقل في كونهم هم اول من مارس العلوم والفنون في ارض شنعار المعروفة بارض الكلدانيين التي قصبتها كانت مدينة بابل عينها التي تُسب اليها البرج المذكور وبناء على هذا جميعاً نجعل بداية الكلام هنا على سكان هذه الارض فنقول

المعارف في بلاد الكلدان

الكلدانيون يقال لهم السريان والبابليون ايضاً وهم قدماء العراق

والاكراد يسكنون في الجزيرة التي بين نهري دجلة والفرات باقليم اسيا ويسمها اليونان ميزوبوتاميا وهي من اعظم اقطار الارض

قال ابن خلدون المغربي ان معنى الكلدانيين موحدون ومعنى سريانيون مشركون وقال اخرون ان الكلدان هم الذين يسكنون كالد يا قسماً من مملكة بابل وقد اخذوا هذه التسمية من كاسديم او كوسديم بن حام وهو كوش (تك ١٠: ١ - ١١) وانه حسب تواريخ القدماء هم اول من ابتدأ بالعلوم ولئن كان المصريون قد ارادوا ان يخصصوا هذا المجد لذواتهم فادعوا ان الكلدان عائلة من عائلاتهم

ولم يعلم المورخون شيئاً من امور غربية وقعت في تلك النواحي حتى ينصوا على غير ان بعضهم يذكر بان مدينة بابل الموضوعة على نهر الفرات قصبة بلاد الكلدانيين ونيوى الموضوعة على نهر دجلة قصبة بلاد الاشوريين كاتما اعظم مدن هاتين المملكتين ثم بعد قليل من الزمان صار الكلدانيون والاشوريون امة واحدة وصار الاسان يتواردان على مسمى واحد

اما مدينة بابل المذكورة قصبة بلاد الكلدان فقد بناها نمرود حفيد حام بن نوح سنة ٢٢٠٠ ق م وزادتها قوة ونظاماً سيراميس الملكة زوجة نينوس ملك الاشوريين والملوك المتداولة بعدها حتى قام بختنصر وابنة نتوكريس سنة ٦٢٤ ق م فجعلها في اعلى درجات العظمة والجلال بحيث صارت تعد من غرائب الدنيا فان هذه المدينة كانت قائمة في وسط سهل فسح وارض مخصبة جداً وكان نهر الفرات يخرقها جارية من الشمال الى الجنوب وهي محصنة بسور مربع يبلغ محيطه ٦٠ ميلاً وعرضه ٨٧ قدماً بحيث تجري فوقه ٦ عربات صنفاً واحداً وارتفاعه ٣٠٠ قدم وكان على جانب النهر من الناحيتين في وسطها رصيف وسور رفيع متين في الغاية وفوق النهر قنطرة عجيبة من حجر يعبر عليها من احد الجانبين الى الاخر وكان للمدينة ١٠٠ باب من نحاس عظيمة جداً وكان خارج المدينة ترعانان تجتمع اليها ماء النهر عند فيضه وينصرف منها

الى دجلة فلا يطغخ على المدينة وداخلها سدود عظيمة تمنع فيض النهر من جانبيه وكانوا يقطعون الحجارة لتلك الابنية من غربي المدينة فحدث من ذلك هناك حفرة عمقها ٣٥ قدماً ودائرتها ٤٥ ميلاً وعلى طرفي القنطرة القائمة فوق النهر قصران عظيمان بينهما قبة تصل احدهما بالآخر تحت النهر ودائرة الشرقي منها ٤ اميال وحولها ٣ اسوار حصينة وهو اقدم القصرين ودائرة الغربي ٨ اميال وفي داخله بساتين معلقة واحداً فوق واحد على هيئة درجات السلم الى مساواة اسوار المدينة وفيها اشجار كبيرة

وبقرب القصر القديم هيكل بعل اوبلوس اوبيلوس الذي بنته سبيرا ميس الملكة التي تقدم ذكرها لدفن ابيها بيلوس الآتي ذكره وهو مربع البناء ودائرتة ٣ اميال وفي وسط هذا الهيكل برج عظيم ارتفاعه ٦٠٠ قدماً وكان هذا البناء العجيب مركباً من ١٨ ابراج علوكل واحد منها ٧٥ قدماً وكان يُنزل منها بسلاسل مستديرة بها من خارج وفوق الهيكل تمثال من ذهب علوه ٤٠ قدماً وتمثيل اخر غيرة كثيرة وامتعة ثمينة لاستعمال العبادة الوثنية مما لا يحصى ثمنه ومن ذلك يتضح عظم غنى السلطنة البابلية وقوتها ولذلك كانت تدعى بابل المدينة الذهبية ومالكتها سيدة الممالك وقال فريق اخر من المؤرخين في كلامهم على بابل ومن غرائبها هيكل بلوس الذي ارتفاعه ٤٠ قدماً (يريدون حالته المحاضرة بعد ان خرب) وهو احد عجائب الدنيا السبع ^(١) ويسمى الان صومعة

(١) غرائب الدنيا السبع التي يتعجب منها الناس في عصرنا هذا هي مذكورة في كثير من كتب القدماء غير انه يوجد اختلاف في تعدادها اذ منهم من قال بانها ١ هي هيكل بلوس الذي نحن بصدده ٢ اهرام الجيزة ٣ منارة فاروس ببلاد مصر ٤ هيكل ديانة في افسس ٥ ضريح الملك موزول في اناطولي وهو قبر عظيم بنته له زوجته الملكة ارطيميزة بمدينة تسمى هاليكرناس وهي وطن هرودوتوس اول مؤرخي اليونان وكانت دار اقامته ملوك كاريا في شبه جزيرة صغيرة جهة جزيرة قوس المسماة الان استانكوي ٦ التمثال المشهور في رودس ٧ تمثال جوبيتر في اولمبة ومنهم من قال بانها هي ١ صنم رودس ٢ الاهرام المصرية ٣ القنوات التي يجري فيها الماء الى مدينة رومية ٤

بابل او برج بابل وفي الكتب العربية يسمونه برج نمرود وعدوه من غرائب الدنيا لعظم واستحكام بنائه العجيب وقد اندرس الان ولم يبق منه غير اسوار منهدمة في شكل مربع وهو البرج الذي شرع في بنائه بنونوح لينقوا به من طوفان اخر يحدث في الارض فيلبل الله السنتهم واما تسميته بهيكل بعل او بلوس فهو لكون بعض السواح زعموا نظراً لاعتبارهم ما كانت عليه هذه المدينة من الاتساع العظيم بانه هو هيكل بلوس اله الواقين وهو الشمس لكن لا يبعد الاجماع بين الرايين لانه يحتل بانه بعد ان شرع بنونوح في بنائه للعبادة المذكورة حوالة سكان البلاد هيكلاً لمعبودهم المذكور وقد بقي هذا الهيكل منتصباً بعد ابتداء التاريخ المسيحي وهو لم يزل متماسكاً الى الآن ومع انه صار نالة خراب لم ينقص ارتفاعه عن ٢٥ قدماً وعليه قطع عمارات من الطوب ترن كالزجاج دليلاً على انها لقيت حراً شديداً

ثم لما استولى قورش ملك مادي وفارس مؤسس السلطنة الملوكية الذي سبق ذكره على هذه المدينة في سنة ٥٥١ ق م اخذت وقتئذ في الانحطاط فهدمت اسوارها الشائخة حتى انتهت الى ربع ارتفاعها القديم وكذلك احد خلفاء هذا الملك اخذ كنوزها كلها واباد تماثيل الذهب والفضة فلما استولى عليها الاسكندر المقدوني سنة ٣٣٠ ق م اراد ان يعيدها الى عظمتها الاولى ويجعلها عاصمة البلاد لكنه في اثناء ذلك توفي فيبطل العمل وفي سنة ١٢٠ ق م قام جباراخر بارثياني وخرّب اعظم ما وجد منها وما زالت اخذة في الخراب الى القرن الرابع من الميلاد فتمّ خرابها وصارت تلالاً لكن السواح في هذه الازمنة الاخيرة قد عرفوا مكانها وهم يتفقون آثارها وخرائبها اذ انها بعد ان كانت

اللبرنث في مصر ٥ منارة الاسكندرية المعروفة بمنارة فاروس ٦ سور بابل ٧ هيكل ديانة في افسس وزعم اخرون انها ١ تمثال رودس ٢ اهرام مصر ٣ هيكل افسس ٤ جنائن بابل المعلقة ٥ قبر الملك موزول او هو ماوسوليوس ٦ كهف جزيرة اتي باتروس ٧ لغز كريت

اعظم المدائن صارت اعظم الخرائب وطفى ذكرها فاندرست بقاياها
 واما مدينة نينوى التي هي قصبة بلاد اشور فان الذي بناها هو اشور بن
 سام بن نوح وفي بعض الكتب العربية نينوس بن نمرود باني مدينة بابل الذي
 مر ذكره وهي نظير مدينة بابل بكونها من اقدم مدن العالم واشهرها وكان
 بناؤها سنة ٢٠٢٦ ق م والمورخون الوثنيون يصفونها بان ارتفاع اسوارها كان
 ١٠٠ قدم تجري فوقها ثلاث مركبات صفاً واحداً ودائرتها ٦٠ ميلاً وهي
 محصنة بالف وخمس مئة قلعة طول الواحدة منها ٢٠٠ قدم ويؤيد ذلك
 قول يونان النبي بان امتدادها كان مسيرة ٢ ايام قيل ان بناء اسوار المدينة
 وقلاعها تم بنحو ٨ سنين وكان عدد الذين اشتغلوا بذلك نحو مليون واربعمائة
 الف نفس وقيل ايضاً ان اهلها كانوا يبالغون في العدد ٦٠٠ الف نفس ثم ان
 خلفاء نمرود على هذه المدينة واظبوا على تحسينها واتساع بنائها الى ان جاء
 بختنصر الاول الذي جعل ملكة بابل مستقلة وخرّب مدينة نينوى المذكورة
 ومن ذلك الوقت اخذت في الدثار حتى ان مكانها بقي مجهولاً عند الاجيال
 المتأخرة زماناً طويلاً غير انه منذ بعض سنوات ذهب اليها ايضاً جماعة من اهل
 السياحة وكان بينهم رجل انكليزي مشهوراً بالنظر في مثل ذلك فصرف زماناً
 في التفتيش على خراباتها الكثيرة الاشكال وبعد الحفر في التلال والروابي انكشف
 هناك عن ابنية وصور ونقوش وغير ذلك من الآثار القديمة من ذلك صورة
 سناريب الملك وقد أخذت الى بلاد الانكليز مع بعض تماثيل وصور اخرى
 غيرها وهي الان محفوظة في بيت الآثار القديمة في مدينة لندن
 وكان اول من اشتهر بالعلوم بين اهالي هذه البلاد زرواسترة يُقال بانّه
 كان في زمن النمرود ويليّه المعلم بيلاوس معلم الفلك الذي كان سنة ٢١٣٠
 ق م فوضع بعد موته في صف الالهة وبنيت له بنته سمراميس قبراً في بابل الوسطى
 وهو هيكلكل بعلى على ما سبقت الاشارة الى ذلك في محاوره واخيراً ظهر المعلم
 بدروسوس الذي اشتهر بالتاريخ الذي قدمه الى بطليموس فيلادلف ملك

مصر سنة ٢٨٢ ق م وهو أول من استخرج العلوم الكلدانية الى اليونانية فكافاه
اهل اثينا بان البسوا تمثاله عندهم ذهباً وكان من المرمر
وكان العلماء الكلدانيون حكماء بابل يتقنون رصد الكواكب بغاية
الدقبة واخترعوا لها المزاويل وتقدموا جداً في هذا العلم وكانت الفنون
والصنائع عندهم عظيمة جداً واكثروا فيها من التناخر والتزين حتى وفي الاطعمة
ايضاً وكانت ابينتهم عظيمة كابنية المصريين مزخرفة بانواع النقش والحفر
والتصوير وكان لهم في علم الطب ايضاً باع طويل فكانوا ياتون بالمرضى
ويضعونهم في الازقة ومعاير الطرق بقصد انه اذا مر عليهم احد ممن قد اصاب
بذلك الداء المصاب به المريض براه فيعلمهم سبب شفاؤه من تلك العلة وبهذه
الواسطة مارسوا علم الطب جيداً حتى برعوا فيه واتقنوه غاية الاتقان وكانوا
يكتبون اسماء العلاجات المفيدة على الواح ويعلقونها في هيكل اله الطب
ثم آل امرهم اخيراً للتملق بامور كاذبة فزعموا معرفة الحوادث المستقبلية
من رصد الكواكب الذي يسهونه علم التنجيم حتى انهم عبدوا هذه الكواكب مع
معرفةهم الاله الحق فكانوا بذلك هم اول من ابتدع هذه الضلالة واستحالت
جميع علومهم الى الخرافات ككتايف باطلة عن المزمعات وتفسير الاحلام
والسحر ونقسمت علومهم هذه على بعض عائلاتهم حتى صار راس كل عائلة يفرغ
جهده في تهوية علمه وان يمتد الى بيته والذين يتغلفون بعده وكانت هذه
العائلات تتخذ اول الكراسي في الاقاليم وتكون معافاة من التكاليف العامة
ومن الخراج

وزعم بعض المؤلفين ايضاً بان نينوس باني مدينة نينوي الذي مر ذكره
كان صنع صنماً لاييه سنة ٢٠٥٩ ق م واظهره للناس وامر بعبادته فاقمدي به
الناس وصاروا يعبدون ملوكهم وامراءهم وشجعانهم بعد ان كانوا تاهوا قبل
ذلك عن عبادة الخالق وصاروا يعبدون الشمس والقمر وسائر الكواكب
فكانوا بذلك اول من انشأ مذهب الصابئة ايضاً يعني عبادة الاوثان وتاليه

الاسلاف ابي الاعتقاد بالرومية بعض افراد الرجال اذ قد اتخذوا اولاً لكل كوكب صنماً وبالتالي صنم بعل الذي اشرنا في ما مرّ بانّه بيلوس معلم الفلك وهو من اعظم معبوداتهم وسموه اله الارض الاكبر لانهم رمزوا به عن الشمس وكان من جملة آلهتهم نسروخ ومعناه نسرٌ عظيم ومنها ايضاً ما هو على صورة السمك وكانوا يعبدون الملكة سراميس المقدم ذكرها واقاموا لها تماثيل منقوشة بهيئة حمامة لرعهم انها تحولت الى هذا النوع من الطيور بعد موتها وبسبب ضلالهم هذا امر الله ابراهيم الاب الاول للشعب الاسرائيلي ان يخرج من تلك الارض ليحفظ هو ونسله من بعده عبادة الله الحقيقية في ارض كنعان اما هم فاستمروا على ما هم عليه الى ان فشيت بينهم الرذائل وكثرت المفاسد سيما حين كان قورش ملكاً على بابل قال بعض المؤلفين ولاغربة في ذلك لان الاعتقادات الفاسدة تولد المفاسد فان مفاسد الجهل المركب اشنع من مفاسد البسيط ولذلك ذهبت عفة نساءهم وحياء رجالهم

وكانت قد امتدت علوم هؤلاء القوم بمدة قصيرة الى بلاد فارس وفينيقية العربية ووصلت اليها مصحوبة بما ذكرناه من تلك الاضاليل والخرافات ايضاً غير انه ينبغي قبل الشروع في تفاصيل ذلك ان تتم حديث ما جرى لابراهيم الذي ذكرنا بان الله امره ان يخرج من تلك الارض ليحفظ هو ونسله عبادة الله الحقيقية في ارض كنعان

المعارف عند العبرانيين

لا يخفى بان ابراهيم المشار اليه في ما تقدم هو ابن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن قينان بن ارفكشاد بن سام بن نوح ولد لتارح المذكور بعد الطوفان بنحو ٢٠ سنة في بلاد الكلدانيين الواقعة في الجهة

الجنوبية من مملكة اشور وكانت تابعة لها على ما سبق ايضاحه في الكلام على الكلدانيين ومع ان اهل تلك البلاد كانوا وقتئذ مشهورين بالمعارف والفنون وبارعين في علم الهيئة والنجوم المزبا التي اوجبت اخيراً الرومانيين ان يستدعوم ويستخدومهم في الامور المهمة قد تركوا عبادة الله الحقيقية واصلوا بعبادة الكواكب اولاً ثم اردفوها باتخاذ الاوثان كما سبقت تفاصيل ذلك ايضاً اما ابراهيم فكان باقياً على عبادة الله الحقيقية وكان في اول امره يرعى الغنم في سهول تلك البلاد الى ان توفي ابوه ولما امره الله بالخروج من وطنه والذهاب الى الارض التي وعده ان يعطيها في المستقبل ملكاً لنسائه مثل ما امره به سبحانه وتعالى وتوطن اولاً في حاران وهي مدينة بين نهري دجلة والفرات وكان ذلك سنة ١٢١١ ق م ثم لانزال بجول هو وخدمته ومواشيهم من مكان الى مكان ساكنين في الخيام التي فيها رزق ايضاً ولده اسماعيل من هاجر واسمى من سارة الى سنة ١٧٠٦ ق م حيثما نزل سبطه يعقوب وجميع اهل بيته الى مصر بعد وفاته هو وزوجته اذ كان وقتئذ يوسف بن يعقوب المشار اليه متسلطاً على جميع هذه المملكة من قبل فرعون طوطميس الثالث احد ملوك الدولة الثامنة عشرة على ما حققه المحققون خلافاً لما قاله مارييت بك ناظر الاتيعة خاتمة المصرية في مولفه من ان فرعون يوسف كان من ملوك رعاة العرب الذين سوف ياتي ذكرهم في الكلام على المصريين ولا زال نسله مقيماً هناك الى سنة ١٤٩١ ق م عند ما اخرجته الله تعالى منها الى ارض كنعان بقوة الايات والعجايب التي اصطنعها عن يد موسى النبي على عهد الملك مينيما ابن رمسيس الثاني وخليفته على مملكة مصر من العائلة الملوكية التاسعة عشرة فتكون مدة اقامة هذا الشعب المسمى بالebraيين من نسل ابراهيم المشار اليه منذ خروجه هو نفسه من ارض الكلدانيين الى تلك السنة التي خرجوا فيها من مصر ٤٢٠ سنة وكان اهل بيت يعقوب المدعو اسرائيل حين دخلوا الى مصر ٧٠ نفساً (تك ٦: ٢٧) وخرجوا من هناك ٦٠٠ الف ماشٍ على الاولاد (خر ١٢: ٢٧) ثم بعد ان اقاموا

تأهين في البرية ٤٠ سنة ازال البداوة بها عنهم جبانة الذل والعبودية التي كانوا
 الفوها مدة اقامتهم في مصر افتتحو الاراضي التي وعد الله ابراهيم جداهم الاعلى ان
 يعطيها لنسائه واقتسموها بينهم بمساحة الحبل عن يد يشوع بن نون خليفة موسى
 سنة ١٤٥٠ ق م قال احد المؤلفين ان العبرانيين كانوا وقتئذ يبلغون نحو
 مليون ونصف من النفوس ومخبرنا الكتاب المقدس ايضاً بانهم لم يحنوا في
 مدة هذا التيه الى سعي في الحصول على المطاعم والملابس لانه جات قدرته
 كان بقيتهم باليمن والساموى ويستقيم من صحرة تابعة كانت تتبعهم حيثما حلوا
 واحذبتهم التي خرجوا بها من مصر لم تلب وكذلك اثوابهم لم تنهر ويقوم حر
 الشمس نهاراً بحماية من الغمام ويضي عليهم في الليل يعود من نار الى ان دخلوا
 ارض كنعان كما ذكرنا

وكان يقضي بينهم موسى النبي المشار اليه بحسبها يا مره الله جل شأنه مدة
 حياته الى ان توفي قبل ان دخلوا ارض الميعاد وبعد ذلك خلفه يشوع بن نون
 وهو الذي قادهم في اقتناح البلاد وقسمها بينهم بمساحة الحبل كما تقدم ثم بعد
 وفاة يشوع بن نون كان يتولى امرهم القواد الذين كان يختارهم الله لنصرتهم في
 حروبهم مع جيرانهم اهل فلسطين وكانوا يسعون بالقضاة حيث لم تكن لهم
 سلطة كسلطة الحكام الذين ينظرون الاحكام ويضعون القوانين بل كانوا يحامون
 عن الشرائع الالهية المترلة على موسى النبي ويحافظون على حقوق الشعب
 وينظرون اكليات مصالحة وينتقمون من المجرمين ولاسيما الذين يتوغلون في
 العبادة الاصنامية وكان عدد هؤلاء القضاة ١٤ رجلاً دامت احكامهم نحو
 ٢١٠ سنين من بعد موت يشوع بعشرين سنة الى ان تملك اول ملك في
 اسرائيل ومن ثم طلب الشعب من صوثيل النبي وكان يومئذ قاضياً ورئيساً
 عليهم ان يسمع لهم ملكاً كسائر شعوب الارض والحوا عليه بذلك حيث كان يبين
 لهم حقوق الملوك ليكفوا عن طلبهم هذا واخيراً استجاب سواهم وسمع لهم رجلاً
 يقال له شاول بن قيس من بني بنيامين احد الاسباط وهم قبائل اليهود الآتي

ذكرهم وكان جميل المنظر لكن لما لم يكن مستقيم القلب في الطاعة لاحكام الله لم
 يثبت الملك لبيته من بعده بل بعد موته اخنار الشعب رجلاً كان اعدّه الله لهذه
 الوظيفة ومسحه صموئيل النبي ملكاً برث شاول في حياة شاول المذكور وهو
 داود بن يسي من قبيلة يهوذا فتولى المملكة ١٠٥٥ ق م وكان نبياً جليلاً وملكاً
 مهيباً معاً وشاعراً فصيحاً وهو صاحب كتاب الزبور الذي لا يزال اكثر الناس
 يسبحون الله بنشائده الروحانية ولما تقرر ملكه جعل كرسي مملكته مدينة اورشليم
 المعروفة في الكتب العربية ببيت المقدس وهي مبنية على جبل يسمى موريا الذي
 كاد ابراهيم الخليل المقدم ذكره ان يقرب عليه ابنة اسحق ضحية لله سنة ١٧٨١
 ق م والقصة مشهورة (تك ٢٢: ١٤) وكان بناء هذه المدينة عند خروج هذا
 الشعب من ارض مصر بناها سكان البلاد الاولين وكان قبلها هذا الجبل قفراً
 ثم لما اقترع اليهود ارض كنعان عندما امتلكوها واقتسموها على ما ذكرنا
 اصابت قرعتها لسبط يهوذا وبنيامين لكن بعد ذلك احترقت ثم اعاد
 اليا بوسيون بناءها وحصنوها تحصيناً متيناً جداً حتى ظنوا ان العرج والعميان
 يقدر ان يجمعوها من داود المشار اليه لكنه امتلكها اخيراً وجعلها كرسي
 المملكة على ما ذكرنا وفي مدة ملكه وملك سليمان ابوه الآتي ذكره كانت في عز
 فخرها وفاضت بالخيرات والاموال ولم يكن للفضة فيها اعتبار يزيد عن اعتبار
 حجارة الارض ثم اخذ داود في اصلاح احوال المملكة فمذبحها وشيدها حتى صارت
 على جانب عظيم من العظمة والفخار والشوكة والاقنطار واعد بعد ذلك فيها
 كل ما يلزم من الادوات لبناء بيت الله اذ كان قد مضى على اليهود نحو ٤٨
 سنة منذ خروجهم من مصر ولم يكن لهم مسجد يقفون فيه فرائض ديانتهم لكن
 لم يتم هذا العمل العظيم الا في ايام ابنه سليمان على ما ياتي اما داود فانه لما سار
 امام الله بقلب سليم وعده الله بان يعطي الملك لنسبه من بعده وان المسح ياتي
 من ذريته وبعد ان توفي قام ابنه سليمان المقدم ذكره مكانه وكان له من الحكمة
 التي اعطاها اياها الله ما لم يكن لاحد قبلة ولا يكون بعده فاعني ببناء هذا

البيت المقدم ذكره فكان هيكلًا عجيبًا في العالم اشتهر باسم هيكل سليمان بناه في ٧ سنين واكمل عمارته سنة ١٠٠٤ ق م طوله ٦٠ ذراعًا وعرضه ٢٠ ذراعًا وسمكه اي ارتفاعه ٢٠ ذراعًا والرواق قدام الهيكل طوله ٢٠ ذراعًا حسب عرض البيت وعرضه ١٠ اذرع وله غرفات على الدائر وكان بناؤه بحجارة صحيحة متقنة ولم يسمع في بنائه منحت ولا معول ولا اداة من حديد (وان صنعت لي مذبحًا من حجارة فلا تبنى منها منحوتة اذا رفعت عليها ازميلك تدنسها خر (٢٥:٢٠) وبنى ٢٠ ذراعًا من موخر البيت والهيكل الذي امامه ٤٠ ذراعًا لثمة الستين وكان يستخر في كل شهر ١٠ آلاف رجل يرسلهم الى لبنان لاجل قطع خشب الارز والسرو ماعدا من كان معهم من قبيل ملك صور و ٧٠ ألفًا يحملون الاحمال و ٨٠ ألفًا يقطعون حجارة من الجبل وكانت وكلاؤه على هذا العمل ٢٢٠٠ رجل ثم انه زين هذا الهيكل من داخله بانواع النقوش والتماثيل الملبسة بالذهب بحيث لا يستطيع لسان القلم ان يصفه ويحصى قيمة نفقته وبنى ايضا قصر بيت الملك في اورشليم وقصرًا في بعلبك لزوجته ابنة فرعون ملك مصر ومدينة تدمر الى غير ذلك من الابنية والعمارات المشيدة وخصوصًا في اورشليم مدينة ملكه وجلب اليها الماء ثم بعد وفاته انقسمت المملكة الى قسمين في ايام تملك ابنه رجب عام سنة ٩٧٥ ق م القسم الاول مملكة يهوذا وكان كرسيه اورشليم المذكورة وبقي تحت تسلط سلالة داود واما القسم الثاني فسمي مملكة اسرائيل وكان كرسيه السامرة وقد تعاقب على هذا القسم الثاني ١٩ ملكًا اولهم يربعام بن نباط وكان تحت تسلطه ١٠ اسباط من بني اسرائيل فازاغهم عن عبادة الله حيث بنى لهم بيتًا على جبل سامرة ونصب لهم فيه عجلين ليعبدوها وبذلك صرف قلوب اكثر عاباه عن الصعود في كل سنة الى بيت الله في اورشليم كعادة اليهود لئلا تميل بذلك قلوبهم الى مملكة يهوذا وعلى هذا المنوال كان اكثر ملوك هذا القسم عبدة اوثان استمر ملكهم ٢٥٠ سنة الى ان زحف اليهم شلناصر ملك اشور سنة ٧٢١ ق م وحاصر السامرة وافتتحها واسر الاسباط

العشرة مع ملكهم ونفاهم الى بلاده واسكن عوضهم اقواماً من رعاياه الاصليين
 فكانوا هم اصل فرقة السامرة كما اوضحنا تفاصيل ذلك في النسـم الرابع من المقالة
 الثانية من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف وعلى هذه الصورة انقضت
 مملكة الاسباط العشرة وثلاثي ذكر شعوبها حتى لم يسمع لهم خبر بعد ذلك واما
 مملكة يهوذا فكان ملوكها كذلك ١٩ ملكاً على التعاقب من ذرية داود وكان
 بعضهم من اهل التقوى والصلاح الى ان كان صدقيا اخر ملوكهم زحف
 نبوخذ نصر ملك بابل بجيوشه وحاصر اورشليم وافتتحها واسر صدقيا المذكور
 وقاع عينيه واحرق المدينة والهيكل بالنار وسي كل شعب يهوذا ما عدا
 المساكين والفقراء الى بلاده وهكذا انقضت هذه المملكة ايضاً سنة ٥٨٨ ق م
 وكانت مدتها ٢٨٧ سنة بعد انفصال مملكة اسرائيل عنها ولا زال اليهود
 المذكورون في هذا السبي الى ان استولى قورش ملك بابل فاذن لهم في اواخر
 حكمه ان يرجعوا الى بلادهم بعد ان اخذ عليهم العهود والمواثيق ان يبقوا في
 طاعته والانقياد الى اوامر من يتخلفه فرجعوا وبنوا الهيكل تحت رئاسة عزرا
 الكاتب ومارسوا طقوس عبادتهم وبقوا خاضعين الى الفرس الى ان استولى على
 البلاد الاسكندر المقدوني وطرد الفرس منها سنة ٣٣٠ ق م قال يوسفوس
 المؤرخ اليهودي ان اسكندر الكبير لما قدم بجيوشه نحو الفرس ليفتحها انتقاماً
 لامدادهم اهل صور بالذخائر والعلوفات عند ما كان محاصراً المدينة ظهرت
 ملاك في الطريق وتهدده على ما كان قصده من خراب اورشليم فخاف
 الاسكندر وعدل عما كان مصمماً عليه وعلى رواية اخرى انه ابصر فيها الاستقف
 الكبير الذي كان براه في منامه قبل ذلك ببشرة بفتح اسيا فلما رآه ختر ساجداً
 لما راي اسم الله تعالى مكتوباً على الحجة الكهنوتية التي كانت عليه وعلى اية صورة
 كان الحال فان هذا الفاتح عند وصوله الى المدينة دخلها كزائر وسجد لاله
 اسرائيل في الهيكل وانحرف الكهنة بهدايا فاخرة ثم تحول عنها قاصداً داريوس
 ملك الفرس ثم بعد موت الاسكندر تغلب المصريون واستمرت شعوب اليهود

تحت تسلطهم مدة طويلة الى ان اتى انتيوخوس الرابع من ملوك الدولة السلوقدية وافتتح البلاد واسر الالهالي واذل امة اليهود وقتل منهم خلقاً كثيراً ولما رجع الى بلاده استناب عليهم رجلاً يقال له فيلكس وامره بان يلزمهم كرهاً على اكل لحم الخنزير والسجود للاصنام والامتناع عن الخنان وعن حفظ السبت والافقتل كل من خالف امره فكان من جملة من قتل وقتل الشهداء المكابيون السبعة المشهورون وفي سنة ١٦٦ ق م قام بين اليهود رجل جبار من المكابيين المذكورين يدعى متثيا بن يوحانان الكاهن فطرد السوريين من البلاد واستبد بالملكة ثم جرت بينه وبين نيكيروس احد قواد الرومانيين وقعة قتل فيها وبعد موته استولت ذريته على اليهودية وصاروا ملوكاً الى ان جاء بومبي القائد الروماني وافتتح البلاد سنة ٤٠ ق م واستناب عليها رجلاً من بلاد ادم يسمى انتيباتروس وكان من عظماء اليهود واشرفهم وسنة ٢٧ ق م عزله الرومانيون عن الولاية واقاموا عوضه هيرودس الكبير الذي في ايامه ولد المسيح في بيت لحم اليهودية ومن ثم دامت ملوك اليهود على الخضوع الى الرومانيين تارة والعصاة اخرى الى سنة ٤٠ م حينما افتتح تيطس اورشليم بعد حصار شديد مات به نحو ١١٠٠ الف من اليهود داخل الحصار واشتد الجوع على الالهالي المحصورين فاكلوا الجلود ولحوم الكلاب حتى اضطرت بعض نساءهم ان تاكل ابنتها واحترق الهيكل والمدينة بالنار وسي منهم ٩٧ الفاً استصحبهم تيطس معه عند رجوعه الى بلاده وكان باقي منهم في كل منزلة للسباع والوحوش الضارية التي كانت معه فتمزقهم والباقيون بيعوا عبيداً في رومية وكان قد بقي جانب من اليهود في اورشليم فاخذوا يرممون المدينة بعد رحيل الرومانيين عنها واقاموا منها جانباً عظيماً ولما بلغ ذلك الفيصر ادريانوس الروماني ادركهم حالاً وهم ما كانوا قد جددوه من اسوار المدينة وبيوتها وجعلها مساحة واحدة على الارض فليحها وزرعها ملحا وبذلك انتهت مملكة يهوذا وتم خراب اورشليم وتشتت ما بقي من اليهود في اقطار الارض

ويطلق على هذا الشعب عدة القاب منها عبرانيون وقد أطلق هذا اللقب على ابرهيم الاب الاول الذي سبق ذكره لما عبر وتعدى نهر الفرات ليسكن ارض كنعان فقبل له ابرهيم العبراني اما معنى ابرهيم فهو اب عائلته كبيرة ومنها اسرئيليون نسبة الى اسرئيل وهو اسم سى الله يو يعقوب حينئذ ابرهيم واما الاسباط (تك ٢٢: ٢٨) ومعناه امير مع الله ومنها ايضا يهود نسبة الى يهوذا بن يعقوب وكانوا يقسمون الى ١٢ سبطاً بعدد اولاد يعقوب المشار اليه وهكذا قسم يشوع بن نون ارض كنعان ووزعها على ١٢ سبطاً غير انه لما خصص الله سبط لاوي لخدمة الكهنوت ورتب له العشور والنذور على شعب اليهود وان يعيش من خدمة الهيكل منعه عن الاشتراك مع باقي الشعب في امتلاك قسم مخصوص وانما عين له بعض الثرى لسكنه فقط فقام مقامه في تكملة العدد نسل يوسف حيث قسم الى سبطين وهما افرام ومنسى بحسب ما طالب يعقوب الى ابنه يوسف المشار اليه عند ما زاره وهو مريض مرض الموت (انظر تك ٤٨: ٥) ثم لما انقرضت مملكة اسرئيل على ما ذكرنا في ما مر ثلاثي بانقراضها ١٠ اسباط من الاسباط المذكورة ولم يبق غير سبطي يهوذا وبنيامين

وبعد ان اسر يحننصر ملك بابل هذه البقية ايضا في سنة ٥٨٨ ق م واقامت في بلاده ٧٠ سنة ورجعت الى اورشليم حسب ما تقدم وشرعت في بناء الهيكل انقسمت الى فرقتين احدها تمسكت بالكتب المقدسة فقط وسميت صاد يكيم اي الصدقيين ويقال الصدوقيون وانفق معها السامريون الذين مر ذكرهم والآخرى اضافت الى ذلك تقليدات المشايخ وبسبب ما ظن فيها من الفلاسفة قتل لها خاسيديم اي التقيين ومنها اتسل الفريسيون والاسينيون وصادف ذلك امتداد الفلسفة اليونانية وقتئذ فتشعبت اليهود في آرائها الى فرق متعددة وطوائف شتى ذكرناها مفصلاً بقدر الامكان في البحث الرابع من المقالة الثانية من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف فلا نطيل الكلام عليها هنا

وكانوا في مبدأ أمرهم يتكلمون بلغة خاصة بهم تسمى عبرانية نسبة لهم وهي لم تنزل معتبرة ليس عندهم فقط بل وعند كل العلماء وخاصة اخبار الديانة المسيحية حيث بها كتبت كتب العهد العتيق الآتي ذكرها وهي احدى اللغات السامية من لغات اسيا وشهرتها تقني عن وصفها ويكتبونها بحروف مخصوصة يبتدئون بها من اليمن الى الشمال كالخط العربي الذي يفضلها بعدة حروف لا توجد فيها

اما قواعد ديانتهم فهي معروفة ومفصلة بقدر الامكان في القسم الرابع من كتابنا زبدة الصحائف الذي مر ذكره وهي الاساس الاصلي للديانات الكتابية وخاصة الديانة المسيحية

وعلماء هذه الامة هم اول علماء الارض واشهرهم فان موسى النبي الذي اخرج بني اسرائيل من ارض مصر كان تهذب قبل بعثته بكل حكمة المصريين ومنه تفقه جميع شعب اليهود بهذه العلوم والكتب التي كتبها هذا النبي العظيم بوحي من الله خمسة هي الاساس الوحيد الذي يبنى عليه اهم الامور من العلوم التاريخية والجغرافية وغير ذلك من المعارف العظيمة بالرغم عن كل مقاوميتها بل هم ذواتهم ياتزمون غالباً مع كل مكابراتهم الى الانقياد لما تضمنته من القضايا التي ذكرها مع انه لم يكن قصد هذا النبي تاليفاً من هذا القبيل وانما جاء ما جاء من ذلك معه بالعرض لقصد اظهار عظمة القدرة الالهية وكيفية اعنائها بخلق آدم اول البشر وسبب سقطة اول انسان وجد على الارض والوسيلة التي اعدتها الله عز وجل حالاً لمنغرة ذنوبه والتكفير عن سيئات نسله الذي فسد بفساد طبيعة آدم المشار اليه الى ان يتصل لافراز الشعب الاسرائيلي الذي نحن بصدده لان تمام ذلك القصد الالهي وكتبه هذه هي اقدم كتاب يوجد في العالم وتضمن ما على التعاليم الروحية اعجب تاريخ عن خلق السماوات والارض سنة ٤٠٠٤ قبل الميلاد بنص التوراة العبرانية وعليه يعتمد الرومانيون والفتنة اقلام المؤرخين ايضاً او سنة ٥٥٠٨ بنص التوراة السبعينية كما هو المعمول عليه

عند الروم وغيرهم من الطوائف الشرقية ثم وترتيب ما ابدعه الباري تعالى في الستة
 ايام اوهي الادوار العظيمة المعبر عنها بالايام حسب ما يرتبه الجيولوجيون في هذه
 الازمنة الاخيرة واخبار الطوفان الذي وقع سنة ٢٢٤٨ ق م وبليلة الاسن
 سنة ٢٢٢٤ ق م وكيفية توزيع الجنس البشري على سطح الارض وهذه الاخبار التي
 لا ريب في صحتها قد عرفها هذا النبي ليس من مجرد الوحي الذي قاده الى كتابتها
 وصان قلته في ضبطها فقط بل يستدل من نفس هذه الاسفار بانهارها وصلت اليه
 بالنقل الشفاهي ايضا عن خمسة اشخاص وجدوا بينه وبين آدم وهؤلاء الاشخاص
 كانوا من المعتبرين الذين لا بد من انه بواسطتهم قد تسلسل الخبر من آدم اليه
 بكل امانة فالاول منهم كان متوشالح وهو قد عاش معاصراً لآدم ٢٤٢ سنة
 والثاني سام وهو قد عاش معاصراً لمتوشالح ٩٨ سنة والثالث اسحق وهو قد
 عاش معاصراً لسام ٥٥ سنة والرابع لاوي وهو قد عاش معاصراً لاسحق ٢٤ سنة
 والخامس قهات بن لاوي وابو عمرام الذي كانت سنوحياته ١٢٢ سنة ويحتل
 انه عاصر موسى اوان اياه لاوي قد عاصر ابوه عمرام الذي قد عاصر موسى
 (انظر خر ١٦: ٦-٢٦) لانه كان من موت لاوي الى ولادة موسى ٤٢ سنة
 وكان بينها شخصان من طوال الاعمار وهما قهات المذكور الذي عاش ١٢٢
 سنة وعمرام ابنة الذي عاش ١٢٧ سنة قال بعض المؤلفين في كلامه على اول
 سفر من هذه الاسفار الخمسة المسمى سفر التكوين انه من هذا الخبر الالهي والعناية
 الربانية اللتين هما اجل الاشياء واعظيها اتخذ اكثر القدماء من الفلاسفة
 والمجتهدين والمؤرخين رواياتهم التي كتبوها وجميع التعاليم المتأخرة وابداع
 الصناعات والفنون العظيمة ^{الصحيحة} قد افادت اثبات الحوادث التي كتبها
 وشرحها موسى النبي فان واقعة الطوفان العظمى وتترك كل ما عداها لم تتحقق
 بواسطة بواقي الحيوانات الحفرية الكائنة في كل جزء من الكرة فقط بل يشتهر
 ايضاً مؤرخون كثيرون من الوثنيين القدماء والحاصل انه لو لم يوجد هذا
 التاريخ المحوي في العهد العتيق لكان العالم في اشد ظلمة لا يعرف من ابن اتي

ولا الى ابن يذهب وربما ان الانسان يتعلم من اول صفحة منه في برهة ساعة اكثر مما تعلمته بدون كل الفلاسفة بمدة ٤٠٠٠ سنة وكذلك نتضح صحتها بنوع فائق من مطابقتها كل المطابقة الحقائق المعروفة والاكتشافات الطبيعية والجيولوجية المستجدة فاذا نظرنا مثلاً الى علم الجيولوجيا نرى بانه يجب ان نتقهقرا جيالاً لآشتي لنصل الى بدء تاريخ خلق العالم ونجد هذه الاسفار لا تمنعنا عن ان نعوض في هذا الجرمها اردنا اذ تخبرنا عن هذه الحقيقة بانها قد حدثت في البدء وتترك ذلك البدء سرّاً مجهولاً ثم قد تقرر عند علماء هذا الفن انه بعد ايجاد مادة الارض توالت ٦ مدات حصلت فيها تغييرات معلومة استعداداً لخلق الانسان وتوطئة لجعل هذا العالم مسكناً مناسباً له وهذه الاسفار كذلك لا يوجد فيها ما يناقض هذه الحقيقة المقررة في هذا الفن البتة بل بالعكس اي بوجودها ما يؤيد ذلك ويثبته واما ما اعترض عليه بعضهم في قضية خلق الله النور في اليوم الاول والكواكب في اليوم الرابع لما فيه من التناقض فقد رد عليه كثيرون من العلماء منهم المعلم بوبيه الجيولوجي الفرنسي بجواب من نفس هذا الفن ادرجناه في القسم الثالث من المقالة الثانية من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف واما ما زعموه بخصوص عدم وجود الادي قبل الطوفان حيث لا توجد آثار من اعضائهم ولا من صنائعهم بين الراسب الطوفانية فالانتفات اليه يتوقف على اثبات كون الباحثين في مثل هذه الانار بحثوا في كل اجزاء الكرة الارضية ولم يبتى منها ولا جزء واحد لم يعرفوا خباياها وكذلك البحور التي يمكن انما حدثت بعد الطوفان وغمرت تلك المحلات التي كانت مهيماً للحيف البشر الذي كان موجوداً قبل الطوفان اذ ان الكتاب المقدس نفسه الذي منه وحده عرفت هذه الحقائق قبل ان يتكلم عليها حكماء العالم لا يخبرنا بان العالم اتشر على وجه الارض قبل ظهور هذه الحادثة واما ما يروونه من ان الطوفان لم يكن كلياً بل كان جزئياً يعني انه لم يكن شاملاً وجه الارض كلياً فانه وان لم تكن جزئية على فرض صحتها منافية كل المناقاة لانعام الغاية

المطلوبة منه التي هي فرض الجنس البشري المنحصر وجوده وقتئذيهما في ذلك
المركز فقط ما علا نوح وحده الا ان اسنادهم دعواهم هذه بما يميلون الى تصديقهم
من قدمية بعض الشعوب التي تنهقر تاريخها الى ما قبل آدم بالوف سنين
لا يمكن اتفاهة مع ما يراه غالب الجيولوجيين بشأن قرب عهد الدور الرابع
الذي فيه وجد الادمي حسب رايهم على سطح الارض فضلاً عن تقاليد نفس
الشعوب المذكورة التي يمكن اتفاهة دليلاً على ان الطوفان المذكور كان عموميّاً
وليس خصوصياً كما يزعمون وهي مدروجة في البحث الرابع من كتابنا زبدة
الصحائف في اصول المعارف فتراجع هناك واما ما ظنه غيرهم من عريضي
الدعوى بعدم لياقة بلبانة الله السن بني نوح بسبب يزعمونه ركباً وهو شروعهم
في بناء البرج اللوقاية من طوفان اخر يحدث على الارض والحال ان هذا السبب
الذي يزعمونه ركباً لم يكن كما زعموا بل هو من اعظم الاسباب التي ياتفت اليها
لخبر القوم لثلا بصرفوا اوقاتهم بالباطل وانعابهم بما لا طائل ثمة اذ لا ريب انه
بواسطة بلبانة السنهم ينصرفون عن هذا العمل المسبب عن اوهام فاسدة ولا
تفع لهم فيه الى التفرق على سطح الارض للغاية التي خلقهم الله اليها كما جرى ذلك
بالوقت نفسه حسبما يخبرنا الكتاب عنه وهناك بعض اعتراضات اخرى
يعترضونها منها ان الطوفان وقع بسبب حادثة طبيعية اصابت الكرة الارضية
وان قوس قزح كذلك هو ناشى عن انعكاس اشعة الشمس وانفلاق الحجر الموسى
كان بسبب المد والجزر فلم يكن شيء من هذه الامور ما يدل على معجزة
خصوصية من الله ولا تعلم ما هي البواعث العلمية التي تلجهم الى مثل هذه
الاعتراضات الامقاصد شخصية لتكذيب الكتاب مع ان الكتاب لا يعلمنا بان
نحكم على وجوب انفاذ مناصد الالهية بدون ان يستخدم لها الوسائط الطبيعية
فهل اذا كان وقوع الطوفان مثلاً بمحادث من الحوادث التي يظنونها يبطل
كون وقوع ذلك كان بامر الله سبحانه لغاية ابادة الجنس البشري الذي كان
موجوداً وقتئذيه كما تعلم من كتاب الله وهل يمنع تسبب قوس قزح عن انعكاس

الاشعة الشمسية صلاحية استخدام الله هذا القوس علامة على ميثاقه بعدم وقوع طوفان اخر مع كونه ربما كان ظهوره يتوقف طبعاً على عدم وقوع خلل يخشى منه في النواميس الطبيعية ثم نفرض ان عبور الاسرائيليين البحر الاحمر كان في وقت الجزر وتعقيب فرعون وجنوده اباهم بدخول هذا البحر كان وقت المد فهل يحتمل ذلك على معارف موسى وجهل فرعون وقومه بمهالة هذا البحر او يسند ذلك الى الصدفة ولا تكون على اية حالة ارادوها يد الله القوية في هذا الامر حتى انها اما اعمت قلب فرعون وحكائه واما حكمت بوقوع هذه الصدفة في ذات الوقت المناسب لاتمام ما حصل واما دعواهم بوجود قبر نفس الملك الذي في عصره خرج الاسرائيليون من ارض مصر بين الفيوم الملوكية الموجودة حتى الان بالصعيد في الجهة المعروفة بباب الملوك فاجابه سوف يأتي عند ذكر منغطا الثاني الذي تقرر الراي اخيراً على ان خروجهم كان في مدة سلطنته فليراجع في الكلام على ملوك المصريين وكافي بهاتف في ضميري يقول آنت مشتغل في حوادث ادبية او في مناقشات دينية ولكن بعد ان راجعت ما قد كتبت وجدت ذاتي لم اكتب الا ما ذكره الا القليل منه الافاضل خالو الغرض من المورخين لاثبات ما عرفوه وحققوه من فضل هذا النبي العظيم ثم اشتهر بعده ايضاً سليمان الملك الحكيم الذي تقدم ذكره وقد تولى المملكة بعد داود ابيه سنة ١٠١٥ ق م ذكر في التوراة (امل ٤: ٢٠) انه فاق في الحكمة جميع بني المشرق وكل حكمة مصر وكان صيته في جميع الامم حواليه وتكلم بثلاثة الاف مثل وكانت نشأته ١٠٠٥ وتكلم عن الاشجار من الارز الذي في لبنان الى الزوف والنابت في الحائط وتكلم عن البهائم وعن الطير وعن الديدان وعن السمك وكانوا ياتون من جميع الشعوب ليسمعوا حكيمته ويقول بعض العلماء من اليهود ان كتب هذا الحكيم المذكورة في ما يخص بالنباتات وغيرها قد اهلها احبار اليهود الى ان تلاشت نظراً لما فيها من الفوائد الفعالة في مداواة الامراض حذراً من ان يتكل اليهود عليها ويهلوا الاتكال على الله كما فعلوا في

الحكمة النحاسية التي كسرهما حزقيا الملك

اما معارف هذه الامة وعلومها الاصلية فكانت منحصرة في فرائضها الدينية وشرائعها السياسية والادبية وكانوا يحسنون الموسيقى ونظم الشعر حتى ان كثيراً من الاسفار المقدسة وجدت نظماً كسفر ايوب والزبور والامثال والجامعة ونشيد الانشاد ومرثي ارميا واقسام اخر من اسفار الانبياء وكان الفريسيون منهم لا يتخلون من علم الطبيعيات والهندسة واغلب حكماء السنة والكتبة الذين وظيفتهم نساخة الكتب المقدسة ويميلون الى مطالعة العلوم والفنون ويفسرون الشريعة ويهدبون الشعب كانوا منهم والاسينيون وهم فرقة تنسب الى الفيشاغورسيين او الى الكايبين كانوا يجهدون بدرس الادب وعلم الطب وتعليمه وفي الفحص عن القوة المواتدة للنباتات والحجادات

اما صناعاتهم فكانت منحصرة في زرع الحبوب وغرس الكرم والزيتون والتين وسائر الفواكه ويعرفون صناعة البناء والتجارة والخياطة والتطريز والنساجة وصياغة الحلي من الذهب والفضة والظاهر انهم كانوا يتعاملون بهذين المعدنين وزناً ولا يعرفون سك المسكوكات الى ان حكمهم الاجانب وقال بعض الكتبة ان الاسرائيليين كانوا يصورون على علمهم ازهاراً واشجاراً وغير ذلك مما ان دينهم كان لا يسوغ لهم تصوير الاشخاص وكانت آلات حروبهم السيوف والرماح والمقالع ويتمتعون بالعلم وسائر ملبوساتهم تشابه ملابس العرب

واما انبياءهم فكانوا رتبة من رجال الله قد قاموا خصوصاً بينهم وكانوا يخبرونهم بالوحي عن مقاصد تعالي في الازمنة المستقبلية ويعلنون لهم ارادته من جهة الواجبات المطلوبة منهم والحوادث المشهورة التي ستجري بينهم فكانوا بهنا الاعتياد كسفر الله لدى البشر وهم كانوا علماء هذه الامة واول من وضع التاريخ كان موسى النبي على ما سبقت تفصيله وهم ايضاً دونوا اغلب التاريخ اليهودية المنضحة الى الكتاب وكانوا يدرسون الشعب في اللاهوت ويهدبونهم في الدين

والفضيلة وكانوا معينين للكنية واللاويين بتعليم الديانة وخصوصاً في مملكة اسرائيل ويساعدون الملوك في الامور الشائعة التي تاول الى ازدياد التقوى والنضائل ولم مدارس اول ذكرها كان في ايام صموئيل النبي وهي مقامة في بعض مدنهم كجبعة ونايوت وبيت ايل والنجال واريجاح حيث كان الشبان يجتمعون لكي يتعلموا الامور الدينية ويستعدوا لتعليم الشعب وكان تلامذتها يُسمون بني الانبياء هذا ما كان من ذلك قبل المسيح واما بعد انقراض دولة اليهود وتلاشيها فكان بقي لهم مدرسة في طبريا وكان من معلمها حاخام يقال له يهوذا جمع تقليدات هذه الامة في كتاب سماه المشنة وذلك بين سنة ١٩٠ وسنة ٢٢٠ للتاريخ المسيحي وفي هذه المدرسة وضعت الحركات المستعملة الان في اللغة العبرانية وضبطت اسفار العهد القديم وابندي في المعتقدات حسب التفاسير التلمودية والتلمود عند اليهود اشبه باقوال الاباء عند النصارى وفي مراجعة الكلام على اليهود في القسم الرابع من المقالة الثانية من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف ما به الكفاية للوقوف على تفاصيل شرائع واداب واحكام هذه الامة وما آل اليها امرها

المعارف في بلاد الفرس

ويقال لهم العجم واذربيجان يسكنون وراء نهر دجلة فالعجم في الجنوب واذربيجان في الشمال وكانت مملكتهم في القديم منقسمة الى ثلاثة اقسام فكان القسم المسي بخوزستان جزءاً من مملكة بابل والقسم المسي بفارس الذي به سمت مملكة ابران مستقلاً واما الاجزاء الشمالية المسماة باذربيجان المذكورة فكانت تابعة لمملكة اشور ثم استقلت بذاتها في ايام الملك سردانبال الذي اضاعها بانها كوه في اللذات وتسمت بمملكة مادي

وبعد ان استقلت اذربيجان بخلعها نيرسرد نبال المذكور اقام اهاليها مدّة
بلا رئيس لهم ولا حكم عليهم حتى كان قبل الميلاد بنحو ٦٠٠ سنة جعلوا لهم
ملوكا يسمي اولم ديجوسيس فحكمهم في البداهة بما يقتضيه العدل والانصاف
لكن لما عظم شانه اراد ان يخوف رعيته فاحتجب في قصر منيع لا يدع احدا
يدخل عليه الا امراء دوائه وكان الضحك يحضره او البصاق بعد ذنبا
يستوجب فاعاة الموت

وهذا الملك هو الذي بنى مدينة همدان ليخذها دار مملكته وجعل لها ٧
اسوار بعضها داخل بعض بنوع ان كل سور من هذه الاسوار لا يعلو عن الثاني
الا بقدر شرايفة فقط وكانت هذه الشرايف تختلف في الالوان ما بين ابيض
واسود وازرق واحمر وارجواني وكان السادس من فضة والسابع من ذهب
وداخل السور السابع كانت سراية الملك وقد صنع لها محلا حصينا لحفظ
خزائنه وكنوزه واما الشعب فكان يسكن بين الاسوار ومن كان له دعوى
كان يعرضها على الملك بالورق فكان يقتضيها ويرسلها باتا الحكم عليها وكان له
جواسيس في كل اطراف المملكة يلاحظون اعمال الرعايا ويقررون له عن احوالهم
ثم لم تطل المدة حتى صارت بلاد اذربيجان المذكورة رعية للاعاجم الذين
بقوا محافظين على اخلاقهم القديمة لان الزهو الشرقي كان صير ملوك اذربيجان
ورعاياهم الى الرخاوة كما ان تربية اولاد الامراء التي كانت موكولة الى النساء
والنخصيان افشت فيهم التكسر بدلا عن اخلاق الرجولية ولا زال الحال على
هذا المنوال الى ان تزوج ملك فارس بابنة ملك ماد بى يعني اذربيجان التي
نحن بصدها وولد له ابن نحو سنة ٥٨٠ ق م تسمى بفورش وهو الملك المشهور
الذي استبد بالسلطة المستقلة وتوليت بيدي المورخون بالفصل الثاني من قسم
الفارنج الاول المسمى بالفرون الاولى كما سبقت الاشارة الى ذلك في مقدمة هذا
الكتاب

فجعل هذا الملك فارس وماد بى مملكة واحدة وصيرها مشهورة جدا

بالعظّة والشوكة لكن كثرة غزواته وفتوحاته انتجت اخيراً للاهالي المصائب بدلاً عن السعادة حيث سرت احوال اذربيجان الى فارس ايضاً وصار العجم ذوي رخاوة وتكسر بسبب الراحة والاموال بل ولحق الفساد الملك نفسه بسبب مبالغته في رفاهية اطعمته وملابسه الاذربيجانية واهل تربية اولاده وكان يتلقى خضوع الرعية بكبر وهو الذي اسس في هذه المملكة الحكم المطلق الذي هو عبارة عن عمل الملك بارادته ورايه لا بشريعة وقانون حيث كان يرى انه يستحق التصرف بحكمه في اموال رعيته واعمارهم حسب هواه فيعاملهم معاملة العبيد الحقيقيين وقد كمل الفساد لكل شيء على يد اوائل خلفائه حتى صار لاراذل الخصبان والعبيد كلمة نافذة في ديوانهم وكانت المرزبانان وحكام الاقاليم تكلف الاهالي فوق الطاقة ولا تقاصهم الملوك لاشتغالهم عن ذلك بشهواتهم

ومن جملة ما يحكى من الحوادث الدالة على رذائل ذلك العصر هو ان كبير بن قورش المتقدم ذكره كان متوحشاً في سلطنته وجملة غيرته على قتل اخيه سمرديس ونبأه القوانين ايضاً بزواجه لاخته شقيقة ولما استشار القضاة في هذا الزواج الفاحش اجابوه من الجبن بان القانون يرخص للملوك جميع ما يريدونه

وما لا باس بذكره هنا لكونه ينبي عن عوائد القوم واصطلاحاتهم ايضاً وهو انه لما تولى السلطنة دارا الذي حاربه الاسكندر المقدوني وظهر به وببلادهم كان قصد الهجوم على بلاد التتار فارسلوا له طائراً وفأراً وضفدعة وخمسة اسهم ففسر له ذلك بعض امرائه بان معناه اذا كان العجم لا يفترون مثل الطير ولا يخفون في الارض كالنار ولا يغطسون في الماء كالضفدع فلا سلامة لهم من سهام التتار قال بعض الموفين وان تكن بلاد المشرق من عادتها استعمال الكناية لكن الظاهر ان مثل هذا اختراع لا اصل له اختراع لشحن التواريخ بالامور المستحسنة

وبقيت بلاد فارس ومادي علي ما هي عليه من الاتحاد الى سنة ٣٣٠ ق م
لما انتصر الاسكندر المكدوني على دار المذكور ثم بعد وفاة الاسكندر صارت هذه
البلاد لسوقوس الى ان قامت قبيلة الفريثيين وطردت الروم واحدثت دولة
اخرى في بلاد مادي وفارس الى سنة ٢٦٠ م فابتدأت دولة فارسية اصلية
تُعرف بالساسانية نسبة الى ساسان وهي تعلة بـرو من بلاد خراسان وملوك هذه
الدولة هم آكاسرة العجم

ثم تغلب عليها المسلمون وكانت الواقعة الاولى بقرب قادسية الكوفة في
غربي العراق العربي وادخلوا فيها الدين الاسلامي على مذهب الشيعة قال
ابن خلدون المغربي انه بعد ما فتحت بلاد فارس بالاسلام في زمن خلافة
عثمان بن عفان وكانت الفرس تزعم وقتئذ انهم هم الاحرار والاسياد ويعدون
سائر الناس عبيدا لم رام البعض منهم كيد المسلمين بالمحنة فاظهروا التدين
بدينهم وكان رجل منهم يقال له عمار وبلقب بخدش وابو مسلم الخراساني
وشنفاد واشنيس والمنفع وبابك وغيرهم فاستمالوا اهل الشيع باظهار محبة اهل
البيت واستبشاع ظلم علي بن ابي طالب الى ان احنالوا على انقياد الناس الى
مذهب الشيعة والقول بالكلول وسقوط الشرائع وبهم تاسست هذه العقائد في
بلاد العجم

واستمرت هذه البلاد تحت ولاية الخلفاء الى ان قامت الدولة السلجوقية
بعد ان انقضت الدولة السامانية التي كانت اختلفت ما وراء النهر وقويت
الدولة الاسماعيليه في العراق العجمي ثم تساطت التتار على تلك البلاد في سنة
١٢٥٨ م (سنة ٦٥٦ للهجرة)

وكان هلاك اول ملوك التتار المذكورين مرصد ساطاني في مراغة من
اذربيجان اقام عليه العالم الشهير نصير الدين الطوسي وهناك صنع الزنج
المعروف بالزنج الخاني وكان يستعين بهويد الدين العرضي ومحي الدين المغربي
والطوسي نسبة الى طوس وهي قرية من بخارا

والدولة المستولية الان هي من التتار المذكورين وماوكمها يجاولون الان ان
 يفوا ويشيعوا لغة العرب والأتراك والفرس وعلوم البلاغة والعروض والعلوم
 الشرعية والطب والنجوم وارباب المعرفة هم الذين يحظون بالمناصب المهمة وعلى
 الخصوص ملكها الحالي نصر الدين شاه الذي تولى الماكة في سنة ١٨٤٨م فانه
 بوصف يحسن السياسة والتدبير والمحبة لرعاياه وقد انشأ عدة مدارس كلية
 لدرس العلوم والفنون واكتساب المعارف والآداب لنجاح الاهالي وفي سنة
 ١٨٦٣م اذن بادخال الشريط البرقي اي التلغراف الى اقطار بلاده وقد
 زار منذ بضعة شهور بعض عواصم اوربا بقصد ملاحظة احوالها وادخال تمدنها
 الى بلاده وحيث كان ذلك ما يوجب تغيير في الاخلاق والعوائد القديمة
 نفر البعض من اعضاء العائلة المملوكية وكثيرون من عطاء البلاد واضطروا
 الى عزل وزيره الاعظم لكونه هو الذي حسن له هذا الامر المنافي لارادتهم ولكنه
 اعاده بعد مدة جزئية وهو مصمم على انفاذ مقاصده مع سنوح الفرص المناسبة
 واما ديانة اهالي البلاد القدماء فكانت الديانة الجوسية وحيث قد
 ذكرت مفصلة بندر الامكان في البحث الرابع من المقالة الثانية من كتابنا زبدة
 الصحائف في اصول المعارف فلا حاجة الى تكرار ذلك هنا ويقال بانه الى الان
 يوجد منهم بقايا على هذا المذهب وهم نحو ٤٠٠ عائلة في نواحي يزد من جنوبي
 خراسان ولهم هيكل على راس جبل في تلك البلاد ويحفظون فيه النار المقدسة
 ويقال بان واضع زرداشت المشهور كان ظهوره بمدينته يقال لها ارمية من
 مدن هذه المملكة

وذكر مطربون ان في القرن التاسع من الميلاذ (الثالث من الهجرة) ظهر
 نصابري وهو رجل خارجي رئيس فرقة خوارج في خوزستان تدعي الاسلامية
 وتسمى الزابئة وهي غير الصابئة عبدة النجوم وكتب عبادته مولفة بعبارة لغة من
 اللسان السرياني تشبه لغة اهل بلاد الجليل وهي اقليم صغد ببلاد فلسطين
 وقواعد هذا المذهب تقرب من قواعد الاسماعيلية ويشوبها شيء من عقائد

الجوس واصحابه يسمون انفسهم اصحاب يوحنس ومعنى هذا الاسم على ما قاله علماء اللغات الشرقية النور وهم يتبركون بالصليب ويستعملون شيئاً يقرب من العباد ويتقربون بذبح الدجاج والغنم

وذكر العلامة الفاضل كرنيلوس فان ديك الاميركاني في جغرافيته انه يوجد في مكران احدى اقسام بلوخستان طائفة تسمى اللودية من عقائدهم ان الانسان لا غاية في خلقه الا ان يعيش ويموت وينسى ذكره فان كان في لذة عيش فله ان يطلب طول الحياة وان كان في ضيق فله ان يطلب الموت لذاته بل ان يقتل نفسه ايضاً ومتى مات احد هم يدفنون معه كل ما يخص به حتى ينسى ذكره ولا يتزوجون بل يعيشون في الزنا والفسق

وقال ايضاً ان في جبال هند كوش قسم يعرف ببلاد كافرستان يسكنه قوم كانوا قبلاً في بلاد قندهار ثم طردهم المسلمون من هناك فجاءت فرقة منهم وسكنت في هذه البقعة واستمروا على عبادتهم الوثنية وهم يغزون البلاد المجاورة لهم ويقتلون المسلمين وفي اعيادهم يضع الرجل منهم ريش الطير في عمامته دليلاً على عدد المسلمين الذين قتلهم لكل قبيلة ريشة

ثم في ايامنا هذه ظهر عندهم الرجل المسى بباب الله واعلمه يدعي الالوهية وتبعه قوم يسمون ذواتهم البابية يبلغ عددهم على ما قيل ٢٠٠ الف منهم من يظهر الاعتقاد به ومنهم من يبطنه ولما اخذ مذهب في الامتداد طرده الملك من البلاد فجاء ببعض جماعته الى البلاد العثمانية ثم آل امره الى الاقامة في عكا تحت الحفظ وفي ما ذكرناه عنه في البحث الرابع من المقالة الثمانية من كتابنا زينة الصحائف في اصول المعارف ما به الكفاية فليراجعه من شاء

والظاهر انه كان يحصل في هذه المملكة اضطهاد على سائر المذاهب وخاصة النصرانية حيث ذكر في بعض النشرات المطبوعة في سنة ١٨٦٧ م (سنة ١٢٨٤ للهجرة) ان شاه ايران اصدر امره برفع الاضطهاد عن شعب النساطرة وهم فرقة من النصاري وانعم عليهم بمبلغ من الدراهم لاجل عمار كنيسة ونصب

عليهم وآلآ من اهل مذهبهم فقد تمت ائمة دولة الانكليز بحرب برشكر على ذلك
واما لغات العجم فان اقدمها على ما قاله مطبرون لغة يقال لها زند وهي
لسان كتب دين الفرس المسماة زنداوستا وهي تشتمل على اخبار قديمة جداً
مجردة عما بوثق به واما اللغة البهلوية اي لغة المقاتلين والشجعان فكانت مستعملة
في العراق العجمي وفي ميديا الكبرى وعند البرثة وقيل انهم كانوا لا يستعملون
غيرها في ديوان الملوك من نسل قورش وترجمت كتب المجوس اليها وفي سنة
٢١٠ م ابتداء الملوك الساسانية الذين مر ذكرهم ان يرفضوا اللغة البهلوية
المذكورة وادخلوا الى بلاد العجم لغة اقليم فارس الذي هو اقليم بلاد العجم
الحقيقية لكن لما فتحت بلاد العجم بالاسلام في القرن الاول من الهجرة (السابع
من الميلاذ) بطل اللسان الفارسي من ديوان ملوك العجم وبقي الى سنة ٢٦٧
للهجرة (سنة ٩٧٧ م) فشرع حينئذ الديلمية في ان يعيدوا لهذا اللسان قوته
القديمة ومن ثم اتخذب الشعراء العظام وارباب الخطابات والانشا منه لغة كثيرة
الالفاظ والكلمات عذبة الاصوات واللغات وسموها باللغة الفارسية الجديدة
والان قامت مقام هذا اللسان اللغة التركية في شمال بلاد العجم بل في طهران
دار المملكة فلسان الفارسي الجديد والمحالة هذه لا يلغى بلغى الدرري يعني لغة
ديوان الملك الامجآرا

وكانوا يربون اولادهم تربية عامة يوهلونهم بها المشجاعة والفهم ومتى تم عمر
الولد ١٧ سنة سلموه لارباب المعارف ليحسنوا تربيتة بالتعليمات والآداب
خصوصاً ما يجب بالوطن وكان لا يتكمن احد منهم من وظيفة قبل تغذيه
بمعارف هذه المدرسة وكذلك اولاد ملوكهم ايضاً كانوا يستفيدون بحسن التربية
المعارف والآداب

وكان من قوانينهم المعاقبة على الرذائل والخيانة والبحث على العدل
وبغض البطالة والكذب وتشريف الزراعة حتى ان الامير منهم كان ياكل مع
المحراثين مرة في كل سنة وكان الكذب عاراً كبيراً عندهم

وكانوا يعاقبون اصحاب الجنايات بعقوبات خشنة فكانوا يسلمون عصاة
امر الدولة وهم احببوا او يقطعون بدن العاصي نصفين ويقفون اعين من يخشون
منه فتنة في الدولة واما قطع الاذان والانوف والايدي فهو من مسرات ملوكهم
المتقدمين والمتأخرين ومن جلد بامر الملك لا بد له من ان ياتي ويسجد امامه
على ركبتيه ويثني عليه خيراً حيث انه تذكره والى البال منه
ومن عادة ملوكهم ان ياكلوا على صوت المغاني والالات ورقص الراقصات
وكانت ولاية الاقاليم على عهد ملوك الفريثيين او البرثة وقد تقدم ذكرهم تنام
تحت الموائد الملوكية ليتلقوا مع غيبة الاحترام والتعظيم ما يفضل من الطعام
ويُرعى لهم وكانت الرعايا تحيي ملوكها بالسجود ويلة بونهم باخي الشمس والقمر
ويتفخرون بانهم هم اول من ابتدع خصي الادميين ليجعلوا لحرمتهم حراساً
جبابرة ليس في قلوبهم رافة وكان هؤلاء المخصيان في سراية ملوك اصطخر اكثر
عدداً وشوكة من ديوان ملوك العجم المتأخرين وهم الذين كانوا يربون اولاد
الملوك في الزمن القديم كما ذكرنا في ما تقدم وقد مدح افلاطون هذه التربية
عندهم

ولا زال من العوائد القديمة الموسم المسمى كلروز (يوم الورد) الذي يثارون
فيه الزهور

ومن آدابهم القديمة اتخاذ الشمسيات والكراسي المنقولة والسجاجيد
الصغيرة التي تُفرش تحت الكراسي ومنهم اتصل ذلك بالافرنج
وقد ذكرنا في كتابنا زينة الصحائف في اصول المعارف البعض من علمائهم
القدم كإني الشنوي وزرداشت اللذين وضعوا لهم اصول العبادات والمعلم
ايتنايوس واعلاء الذي سماه ابن خلدون المغربي كيستاسف والمعلم لستانوس
الذي نقل العلوم الفارسية الى اليونانيين وكذلك بعد الخلفاء العباسيين زهت ايضاً
بينهم العلوم والمعارف وكانت ذات رونق وبهجة في زمن دولة صوفية العجم فان
قصائد الفردوسي وسعدي وحافظ ترجمت الى لغات الافرنج واعجبت اهل

اوربا قال ، يطربون انها مع كونها خالية من المعاني كان ما اشتملت عليه من
التخيل الحاسي اليانع الزهور لا تشم منه الا رائحة الورد والمشور ولا يسمع من
الفاظها الا تغريد الهزار والشحور

وقد تقدم ذكر المرصد السلطاني الذي كان للسلطان هلاكو المشهور
الذي اخرب بغداد واقام عليه نصير الدين الطوسي وطوس قرية من بخارا
خرج منها الامام الغزالي هذا وقد خرج من بلاد العجم ايضا كثيرون من اكابر
علماء اللغة العربية وايتمها وادبائها وشعرائها حتى انه لا يمكن حصرهم منهم الامام
ابوزكريا يحيى التبريزي شارح ديوان الحماسة وابن خلوف الهدياني الشاعر
والشيخ احمد بن الحسين المعروف بديع الزمان الهدياني صاحب المقامات التي
عارضها المحريري والشيخ محمد الفزويني صاحب كتاب عجائب المخلوقات
وكتاب آثار البلدان وكتاب تلخيص المفتاح في البيان والشيخ محمد الدين
الفيروزبادي صاحب القاموس المحيط وسيبويه المشهور امام البصريين في
النحو وابواسحق الاصطخري صاحب المصنفات في الجغرافية

ومن مدينة مرو شاهجان التي قتل بها يزدجرد اخر ملوك الفرس ظهرت
دولة بني العباس وكانت مقام المامون العباسي لما كان بخراسان وفي دارجل
منها يعرف بابي النعم المعيطي صبغ اول سواد ايسنة المسودة وسوف ياتي توضيح
ذلك في كتابنا صناعة الطرب في تقدمات العرب وخرج من هذه المدينة
ايضا كتاب الخلافة وجماعة من الائمة

ويوجد في مدينة فرسيوليس التي هي مدينة الفرس الاصلية وكانت من
اعظم مدن العالم كثير من النقوش والاعدة والمياكل والقبور المنحوتة في الصخور
وتقول اليهود ان في مدينة همدان قبر الملكة استير ومردخاي الشهيرين في
الكتاب المقدس

ويوجد الآن في مدينة تبريز التي كانت اعظم مدن بلاد العجم في الغني
والتجارة وكان فيها نحو ٢٥٠ جامعا كثير من المدارس والمكاتب

اما ابنتهم فاتها وان تكن فاخرة ولم قصور عظيمة شاهقة من جمانها قصر
 عظيم في مدينة اصبهان يقال له (قرق ستون) يعني قصر الاربعين عموداً
 وكل عمود منها قائم على اربعة سباع من نفس المرمر وفيه من النقش البديع
 وانواع التحف والتصاوير المزخرفة ما يدهش النظر ويذهل الفكر ولكنها مع
 ذلك جميعها لا تقاس بتلك العائر والابنية الهائلة التي كانت في ايام الملك
 زركسيس بن داربوس الذي هو خامس ملك من ملوك مادي و فارس
 ويقال بان معامل هذه البلاد قد وصلت منذ القرن السابع عشر للبلاد
 (الحادي عشر الهجرة) الى درجة كمال بالنسبة للتطير على الفخاش والحريز
 والجاد وصناعة آنية الفخار العجيبي وفخار زرنج بساوي آنية الصين في الدقة
 والصفاء والشفافية وكانوا يشتغلون منه آنية جيدة تقاوم حر النار والضيبي
 الكرمانى المشهور بخفته ولا زالت معامل الجلود والصاغري والسخنيان منذ
 زمن قورش الى الان زاهية زاهرة وهم يحسنون شغل الخناس ايضاً وكانت القسي
 الفارسية اعظم الاقواس ببلاد المشرق ولا يمكن لارباب الصناعة ببلاد اوربا
 ان يقادوا السيوف العجيبة المصطنعة من الحديد والبولاد على منوال السيوف
 المشقية القديمة المسماة بالطبانات والموسى وباقي ادوات الفولاذ عندهم جيدة
 الصناعة ولا زال الى هذا الوقت تشتغل سيوف عظيمة في قزوين وخراسان
 وتعرف صنعة الفولاذ الجيد المصطنعة منه تلك السيوف اذا وجد عليها عروق
 متموجة تكون على شكل خيوط الحريز وبسقطون فولاذها بالذهب وهذه
 السيوف لانثني ابداً ويقال ان تيمورلنك الشهير اخذ الصنائعية من دمشق
 وذهب بهم الى بلاد العم وكانت سيوف دمشق من صنائع دقيقة مستطيلة
 نصب على التعاقب من الحديد والفولاذ ولهذا كانت آنية مرنة بحيث ان
 السيف ينثني الى مقبضه ويقطع في اصلب الاجسام وقد ذهب سر هذه الصناعة
 الان واما اقشة العم التطنية والصوفية التي يصطنعونها من شعر المعز ووبر
 الابل كشالات الكشبيروالبسطى الطنافس وكذلك حريزهم الذي يصطنعون

منه الخمل وغيره وقاشهم الخيش والمشجر فهذه كلها قد بلغت درجة عالية في الجودة ويعرفون الآن تبيض المرء وصفل الالماس وشغله وخلاصة الامر انهم لم يفقدوا فناً من الفنون التي كانت مستعملة في عنقوان تقدمهم بل اضافوا اليها اموراً جديدة كتفصيص الزجاج والمينا فانهم يعرفون ذلك الآن ويحسنون صناعته

المعارف في فينيقة

الفينيقيون هم سكان سواحل البحر الابيض الشامي غربي سوريا وارضهم تمتد من قرب جبل الكرمل جنوباً الى قرب مصب نهر العاصي شمالاً وكان تملكهم في ساحل البحر وبعض الجبال والسهول بين الجبل الشرقي والجبل الغربي ولكل مدينة شهيرة من مدنهم ملك مستقل

وقيل لهم الفينيقيون نسبة الى فينيقية قال بعضهم ان معناها الارض الواطئة المنخفضة فكانت قبيل بلاد النور والغور ما قابل النجد وذهب اخرون الى انها سميت بذلك نسبة الى فينكس اخي قدموس السوري الآتي ذكره وقال المحدثون ان فينكس التي نسبوا اليها هي اسم للنخل في اليونانية او بالحري للثروي تدل في الاصل على اللون لاهلي الجومراي على لون اسمر مائل الى الحمرة كلون ثمر النخل وهي ايضاً اسم ارداء ارجواني كان الفينيقيون يلبسونه وكان النخل في تلك الايام كثيراً في فينيقية حتى صارت صورة هذه الشجرة رمزاً على اهل البلاد فكانوا يصورونها على مسكوكاتهم فساهم بذلك اليونانيون وقد يسمون ايضاً بالصوريين نسبة الى صور احدى مدنهم العظيمة وسباني ذكرها وليس لكونهم من ولاية سوريا التي نسبت بهذا الاسم نسبة الى اقليم من

اقابها الثلاثة التي هي سوريا وفينيقية وفلسطين وكانوا يسمون ايضا كنعانيين
وبلادهم ارض كنعان لان اهلها القدماء هم اولاد كنعان بن حام بن نوح ويقال
ان الصيدونيين سكان صيدا هم اولاد صيدون بكر كنعان والعرقيين سكان
عرقا اولاد العرقى سادس ابنائهم والسنينيين سكان معاملة بالقرب من طرابلس
لعلها الضنية هم اولاد السيني سابع ابنائهم والارواديين سكان ارواد اولاد
الاروادي ثامن ابنائهم (تك ١٠: ١٩) وذهب قوم بان سكان فينيقية الاولين هم
من ذرية آرام الخامس من ابناء سام (تك ١٠: ٢٢) وان الكنعانيين المذكورين
اختلفوا معهم وقيل غير ذلك

ويقال ان اول مدينة عمرها الفينيقية هي مدينة صيدا اسسوها سنة
١٨٠٤ ق م نسبة الى صيدون بكر كنعان على ما تقدم ابراده وثانيها مدينة
صور التي صارت اشهر مدن فينيقية بالغنى والعظمة وسعة التجارة ومعرفة اهلها
بسلوك البحار ومهارتهم في الصنائع قال بعض المؤلفين ان البعض من اهلها
صيدون بنوا هذه المدينة قبل بناء هيكل سليمان في اورشليم بنحو ٢٤٠ سنة
فيكون ذلك سنة ١٢٥٠ ق م وصارت قاعدة للديار كثيرة الامل والزائرين
جزيرة العُدَد والعدَد واما الان فلا يوجد من آثار عظيمها القديمة الأعدَّة
اعمدة مكسرة منبثة في المدينة وآثار كنيسة فسجية وبقايا قنطرة ماء كان يجري
فيها الماء من راس العين على ما يُظن الى المدينة واما طرابلس فيقال بانها
رحل في تلك الايام القديمة من المدينتين المذكورتين اي صيدا وصور اناس
معهم جماعة من رواد وبنى كل فريق منهم محلة في الموقع الذي فيه الآن
الاسكلة ثم انضمت تلك الابنية الى واحدة ودعيت باسم طرابلس لان معناها في
اللغة اليونانية المدن الثلاث (واظن ان ذلك وقع عند ما حارب الاسكندر
المكدوني مدينتي صور وصيدا فهرب منها قوم اخنشا من الحرب وجاءوا الى
هذه البقعة وبنوا المحلات المذكورة وتوطنوا فيها لما انه لم يُعثر لها على ذكر ولا اسم
قبل هذا الاسم اليوناني ولئن قال اخرون غير ذلك) وقال بعض المؤلفين ان

هذه المدينة اشتهرت في الزمن القديم كسائر مدن فينيقية وكان فيها ديوان
للفينيقيين يتفاوضون فيه في الامور الاكثر اهمية في مملكتهم

وبعد ان عمر الفينيقيون المذكورون اول مدتهم التي هي صيدا على ما
ذكرنا باكثر من ٢ قرون اعني نحو سنة ١٥٠٠ ق م افتتح بلادهم سينوستريس
ملك مصر وكتب تاريخ فتوحه هذا على بعض الصخور عند نهر الكلب وكان
ذلك قبل خروج الاسرائيليين من ارض مصر ودخولهم في سنة ١٤٥٠ ق م الى
ارض الميعاد

ثم في سنة ٧٢٠ ق م استولى عليها سخاريب ويقال له شلناصر ملك اثور
وهو الاشوريون ونقش كذلك صورته وكتب اعماله ايضا على الصخور عند نهر
الكلب المذكور

ولما افتتحها الاسكندر المقدوني في سنة ٣٣٤ ق م بنى في عرفها هيكلًا للزهرة
جاء اليه تيطس القيصر الروماني بعد ان افتتح مدينة اورشليم وقدم فيه ذبائح
شكرًا لمعبوداته على انتصاراته وظهره بشعب اليهود. وفيه ولد اسكندر سفيروس
احد القياصرة الرومانيين ايضا

ولما انتقلت الى الرومانيين في سنة ٦٥ ق م عمروا بلادها وساقوا اليها
المياه وجلبوا اليها الاعددة العظيمة من مصروزينوها بهياكل عظيمة محكمة البناء
ومهدوا الطرق والى الآن يوجد على صخور نهر الكلب صخران احدهما مورخ
باللغة اليونانية والاخر باللغة اللاتينية يخبران بان عساكر هذه الامة اصلحوا
الطريق المذكورة التي لم تنزل الى الان تعرف بالطريق الانطوني نسبة الى
انطونيوس قيصر الروماني الذي افتتحها ويقال ان هذا الملك وقلوبارة
واغسطوس ونيرون وتربانوس سكوا في طرابلس عملة ووضعوا اسمها عليها ولم
يبقى منها شيء الا لان واما بيروت فان اغسطوس قيصر اعطاها حقوق المدن
الرومانية الاصلية وسماها على اسم بنته جوليا فيليكس وزينها الملك اغريفوس
الاكبر وبني فيها ملاعب واروقة وحمامات الى ان اشتهرت في الجيل الثاني

بعد المسح بدرسة علم الفقه واناها تلاميذ من بلاد اليونان والديار المصرية
 وكانت تاقب بمدينة العلماء وبرضة الفقه ايضاً
 ولا زالت هذه البلاد بيد الرومانيين المذكورين الى ان انقسمت المملكة
 الرومانية الى شرقية وغربية ومن ثم صارت تابعة القيصريّة الشرقية
 ولما افتتحها المسلمون في سنة ١١ للهجرة (سنة ٦٢٢ م) جمع في طرابلس
 القاضي ابوطالب حسن مكتبة عظيمة اوصل بعضهم عدد كتبها الى ٢٠٠ الف
 مجلد واستكثروا آخرون فقالوا لانما هي ١٠٠ الف مجلد في اللغة العربية والفارسية
 واليونانية

ولما جاء الصليبيون في سنة ٤٩٢ للهجرة (١٠٩٩ م) وتملكوا جميع شاطي
 البحر وبعض الاماكن في شرقي الجبل الغربي وشرقي بحر لوط احترقت المكتبة
 المذكورة في اثناء افتتاحهم لتلك المدينة ثم بنى ريموند من تونس الذي تولى
 عليها قلعها واقام فيها الايطاليون حارة مخصوصة لتجارهم ممنازة يحكمون
 فيها بقضى قوانينهم كما فعلوا في عكا وصور وغيرها ونالوا منها زراعة قصب
 السكر الى اوربا ثم زبوا في جميع البلاد التي استولوا عليها الترتيب الذي كان
 وقتئذ جارياً في بلادهم وجعلوا الفلاحين كالعبيد يبيعونهم ويشترونهم مع
 الارض وصالحوا الطائفة المارونية مع الكنيسة الرومانية وبقيت البلاد في
 ابادتهم الى ان رجعت الى المسلمين في سنة ١٢٧٠ للميلاد (سنة ٦٦٩ للهجرة)
 وفي سنة ٩٢٢ للهجرة (سنة ١٥١٦ م) اخذها السلطان سليم العثماني من
 يد الغوري ملك مصر ويوجد كذلك صخر اخر من صخور نهر الكلب محرر عليه
 باللغة العربية قيل انه تذكاراً لما فعله السلطان المشار اليه في هذه البلاد التي هي
 والحالة هذه من جملة ايالات الدولة العلية

وكانت ديانة اهالي فيزيقية في الازمنة القديمة صابثة نظير ديانا مجاورتهم
 من الامم اي انهم يعبدون النجوم والكواكب السماوية على ما ذكرنا في البحث
 الرابع من المقالة الثانية من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف وكانوا

يقدمون لبعل ويقال له مولوك ايضاً وهو احد معبوداتهم ذبايح بشرية من
الاولاد الصغار بطرحونهم احياء على ذراعيه المحامين بالنار وكان ذلك التمثال
مصنوعاً من نحاس وله راس عجل مكللاً بتاج ملكي وذراعه مدودتان كأنه
مستعد لاحتضان ما يقدم له فكانوا يضرمون تحته نارا الى ان يجتمعي ثم يلقون
الولد الذي يقدمونه له على ذراعيه فيموت حالاً لشدة الحرارة (يقول مولفه
جرت عادة الناس ان يقدموا القرابين ويندروا الندور لاهتهم رجاء بان
يحفظوهم هم وعبادهم واولادهم من المصائب والبلايا التي من اعظمها المصاب في
الولد فاذا كان هولاء يستعطفون آلهتهم بحرق اطفالهم احياء فا الذي يرجونه
اذا من شفقة تلك الالهة اما اذا كانوا يفعلون ذلك تكفيراً لسيئاتهم فيما لها من
حكمة غريبة بها يداون الامراض بذات العال عينها وبإالة من الهه ايضاً ياخذ
البري بحريرة المذنب ولا يعفو الا بعد ان يتشفي)

اما لغتهم فكانت على ما قيل كاللغة العبرانية قال بعض كتبة الافرنج انه
لم يبق لها اثر الا في خواتم جمع بعضها احد علماء جرمانيا وتعلم منها هذه اللغة
المائة

وحيث ان اراضي صور عقبة اضطر اهلها القدماء الى تعليم الصنائع
فانفادتهم التجارب والتفكرات والاتفاقيات معرفة امور كثيرة المنافع منها انهم
استنبطوا عمل الزجاج واشتهروا في حسن الصباغ ولا سيما الصباغ باللون
الارجواني ويقال بانهم استدلوا عليه من كلب لاحد الرعاة كسر معارة واكلمها
وتلون حنكه بهذا اللون فاستخرجوا هذه الصبغة وقتئذ من الحار الى ان صار
هذا اللون زينة للملوك وزاد مجدهم ايضاً باختراع حروف الهجاء عند ما كان
المصريون يصورون صورة الاشياء او يصطنعون لها علامات فاستنبطوا هم
الطريق الاسهل الدارجة وجعلوا علامة لكل صوت اصلي تسمى حرفاً وحروفهم
هذه صارت منشأ للحروف الافرنجية فان اليونانيين اخذوا حروفهم منها ومن
حروف اليونانيين استخرج اللاتينيون حروفهم التي هي حروف اهل اوربا

الآن^(١). ثم بواسطة اسفارهم الجبرية اخترعوا قسماً من علم الاوسترونومية اي
 الفلك او الهيئة وهو معرفة الاسفار الجبرية وانتخبوا النجمة الشمالية المدعوة بالمسار
 لتكون قائداً للنوتية في اسفارهم وجميع الامم افتدوا بهم في ذلك حيث كان لا
 زال ما ظهريت الابهرة وكانوا يسافرون حول اقرينية في الزمن الذي كان
 فيه سير السفن في وسط البحار من الامور المستحيلة والذي سهل عليهم ركوب
 البحر غابات جبل لبنان التي كانوا ينظّمون منها الاخشاب لانشاء سفنهم
 وكانوا يشتغلون بانواع كثيرة من الصنائع ايضاً كانواع الحلي من الذهب
 والفضة وغير ذلك من انواع النقوش والزينة والمعادن والعاج واجناس
 الاقشة فان الانسجة الفينيقية كانت ذات شهرة ورواج في كل العالم غير انهم
 كانوا يحبون الفخمة والترفة ويحقرون الغرباء
 واتسعت تجارتهم على وجه عجيب في الهند وفرانسا واسبانيا وانكثرة التي
 سموها مدينة القصدير ومنها اوصلوا تجارتهم الى الاوقيانوس الغربي حتى ان

(١) يوجد اختلاف كلي بين المؤلفين في هذا المعنى ولذلك قال احد المدققين بانه لا يعلم
 يقيناً من هو الذي اخترع هذا الفن قبل غيره لان البعض ينسونه الى مهنون المصري نحو
 سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد والبعض قالوا ان ظهور الفرائدة والكتابة كان سنة ١٧٢٢ قبل الميلاد
 وفي تواريخ الصينيين ان فوئي مؤسس مملكته سنة ٢٦٥٠ ق م عالم الاهالي عدة امور من
 جانبها الكتابة لكن ربما كانت ذلك بالنسبة الى الكتابة القديمة المعروفة عند المصريين
 بالهيروغليفية ونظايرها عند الصينيين ايضاً غير ان الكتابة بالحروف الاليجدية يقول المعلم
 اسحق نيوتون بانها من مخترعات الادوميين واكد آخرون بانها من مخترعات الفينيقيين ثم
 يصعب ايضاً تعيين الزمن الذي انتشرت فيه اذ بعض المؤرخين يقول بان قدموس
 الصوري الذي بنى مدينة طيوس ببلاد اليونان سنة ١٥٥٠ ق م علمهم ايضاً الكتابة بهذه
 الحروف والبعض يقولون ان اليونان كانوا لا يعرفون الكتابة حين محاصرة بلاد تروادة
 وان اشعار اومبروس المتعلقة بهذه المحاصرة وكان الملاحون ينشدونها من غير ان تكون
 مدونة ومن المعلوم بان ظهور هذا الشاعر كان في سنة ٨٨٥ ق م ولذلك قال آخرون ان
 دخول الكتابة الى بلاد اليونان كان في سنة ٧٥٤ ق م واما استعمالها في مصر فكان في سنة
 ٦٦٠ ق م وعلى ذلك اتفق الاكثرون

اهل ارلاندة التابعة لانكترة لازلوا يدعوا الى الان بانهم من نسل الفينيقيين
ولذلك دعوا انفسهم في هذه الايام بالفنيان ووصل الفينيقيون الى بلاد
الاندلس وكانوا جعلوا مدينة فارس ايضا مركزا لتجارهم وكانوا يستخرجون
من اقليم اتيكيا ببلاد اليونان مكاسب عظيمة الى ان صار عندهم جميع خيرات
الدنيا وكثرت في ايادهم الفضة حتى انهم استنقلوا حملها في بعض الاسفار
فانخذوها هلوبا للمراكب عوض الرصاص

وليس انهم عمروا بلادهم فقط بل عمرت نزلاتهم مدنا اخرى في غيرها
ايضا لان منهم خرج قدموس الصوري الذي ذهب الى اقليم بيوتيا من بلاد
اليونان وعمر هناك مدينة طيبة وعلم اهلها زراعة العنب وعمل المعادن وحروف
الهاء وذكر بعضهم ان قدموس المذكور مضى باقربائه واحزابه الى هناك بعد
مخاربة يشوع بن نون وافتتاحه عليه مدينة موطنه التي يُظن انها كانت في
نواحي حرمون الذي هو جبل الشيخ ثم خرجت ايضا ديدون اخت بغالبون
ملك صور لما قتل اخوها المذكور زوجها لياخذ امواله فجمعت امراته المذكورة
تلك الاموال وهربت بها الى افريقية وعمرت مدينة قرطاجنة ببلاد المغرب
بالقرب من المحل الذي فيه نونس الآن وكان ذلك في سنة ٨٦٠ ق م وقبل
تأسيس مدينة رومية بخمسة مائة سنة ثم بعد ذلك صارت قرينتها وفي رتبتهما
وخصيتهما بالعداوة والحروب ولما عمرت هذه المدينة وما حولها بقبائل من ارض
كنعان قيل وقتئذ لولا رومية لكانت قرطاجنة اول مدن العالم ولولا الاسكندرية
لكانت ثاني مدينة من مدن الدنيا وصارت بحسب وضعها مركزا للتجارة
وكان اهلها ارباب صنائع وفنون خصوصا علم الزراعة وركوب البحار لكنها اخيرا
خربت بحروب الرومانيين المتواصلة معها وذلك سنة ١٤٦ ق م ثم بني على
آثارها مدينة اخرى سميت بهذا الاسم لم تشتهر الا في زمن اغسطس قيصر
الروماني وصارت ثاني مدينة لرومية في العظم ثم خربت ايضا بحروب العرب
في صدر الاسلام حتى لم يبق لها اثر وعمر الفينيقيون ايضا في جنوبي اسبانيا

مدينة الفذيراني نسي كاذب وعروا مدناً اخرى في الارض المجاورة بحر الروم
والجزائر المنفرقة في ذلك البحر كرودى وقبرص ومالطة وغيرها وعروا في
بلادهم عمار اخرى حصينة ولما شرع سليمان ملك اسرائيل ببناء هيكل الله في
اورشليم استخضر لذلك بنائين من صور وهم الذين اسسوا مدينة بعلبك حيث
توجد حجارة طولها نحو ٣٠ ذراعاً وارتفاعها ٧ اذرع

ولانرى حاجة الى ذكر مشاهير علماء الصوريين هنا اذ قد تكلمنا بقدر
ما وصل اليها من ذلك في كتاب زبدة الصحائف في اصول المعارف ولم نفتنا
ممن وصلنا اخباره منهم هناك الأسيانكونيانون الذي يقال بانه ولد في بيروت
وهو مورخ شهير وله مؤلفات في ديانة الفينيقيين والمصريين ورسائل نافعة في
الطبيعيات وغيرها وقد ترجم بعضها الى اللغة اليونانية في الجيل الثاني بعد
المسيح ولم يبق الا ان منها البعض حواش طبعت على حديثها في سنة ١٨٢٦م وقد
ظن البعض ان هذا المورخ كان معاصراً للملكة سيراميس التي مر ذكرها في
الكلام على الكلدانيين وقال اخرون انه كان في عهد موسى النبي ومنهم من جعله
سنة ١٢٠٠ ق م وقيل بل قبل الميلاد بنحو ٦٠٠ سنة فقط وكان الذي ترجم ما
ترجم من كتبه هذه رجل من اهالي فينيقية ايضاً يقال له فيلون الجبيلي فزعم
بعضهم بان فيلون المذكور هو الذي ألفها وليس بترجمها

المعارف في مصر

جرت عادة أكثر الموفين ان يبتدئوا بذكر المصريين قبل غيرهم لظنهم
بانهم كانوا اصلاً لكثير من الشعوب والقبائل لكن البعض من المدققين يقول
بانه في العصر الذي ذهب فيه قدموس الصوري الى بلاد اليونان يجب ان
نعتبر مصر بانها دعيت أما للعلوم حيث ان العلوم امتدت اليها من فينيقية

وسميت مصر بهذا الاسم نسبةً الى بانيتها مينس او مينوس المسمى في الكتاب المقدس مصرايم بن حام بن نوح (تك ١٠: ٦) ويظنُّ بأنه هو اول ملوكها وكان ذلك سنة ٢١٨٤ ق م وأما مارييت بك ناظر الانتيفه خانه المصرية وغيره من الباحثين في الآثار القديمة فيزعمون بان انتشاء الحكومة الملكية فيها كان سنة ٥٠٠٤ ق م متعللين في ذلك بما عدوه من العائلات الملكية التي تسلطت عليها من ذلك الوقت الى ان استولى عليها المسلمون وعدد تلك السطاطات ٢٤ فرقة كبيرة ترجع كل منها الى عائلة ملوكية تنسب الى المدينة التي كانت تحت مملكتها وهم يستندون في ذلك على ما فهموه من الآثار القديمة التي لم تنزل فيها الى الان وبالتالي على مولفات مورخين سوف نذكرهم واما تسمية اهلها بالقبطه فهي نسبة الى مدينة قديمة في الصعيد تسمى قفط قال بعض المؤلفين ان ساحلها كان المدينة التي يقال لها الان قنا وينسب اليها الفخار المشهور بالقناوي يشربون به الماء لكونه خفيفاً ومتى قرب من بخار الماء فقد حرارته وقال مارييت بك ان المصريين اخذوا هذا الاسم الى قبطه منذ تركوا ديانتهم الوثنية وتدينوا بالديانة المسيحية عند ما صدر امر الفيصر ثيودوسيوس الاكبر بحو عبادة الاصنام وخراب الهياكل المصرية (سنة ٣٨١ م كما يتضح ذلك مما ياتي في محله)

وفي خرافات اهلها المتقدمين ان اول من حكمها كان الالهة وان اولهم يسمى بركان حكمها ٩٠٠٠ سنة وان كوكب الشمس المسمى اريزيس وزوجته القمر المسماة اريزيس واخاها عطارد المسمى هرمس آلهة اخترعوا اصول الشرائع والفنون والعلوم وهذا الزعمهم الوهية كل من اخترع امراً غريباً كارباب التصانيف العجيبة وامثالهم وهو احد الاسباب الاصلية في التمسك بعبادة الاوثان فان هرمس المذكور هو اشهر علماءهم ومنازلهم فلسفتهم قال صاحب تذكرة الحكم ان هرمس هذا كان يسكن في صعيد مصر ويسمى عند العبرانيين اخنوخ وهو عند العرب ادريس وهو اول من تكلم على الجواهر العلوية والحركات النجومية وعلم الفلسفة للناس

وبني الهياكل وعرف خواص الاشياء في المنافع الطبية ونظم قصيدة في الامور
 السماوية والارضية واخبر عن طوفان نوح انتهى كلامه لكن ما يعول عليه من
 جهة نقابات الاحكام فيها حسب رواية بعض المؤرخين هو انه بعد انقضاء مدة
 مينس المذكور مضت عدة قرون مجهولة تملك فيها على مصر ملوك كثيرون
 من اهلها ذكر عن واحد منهم يقال له اسومندياس او اوسيمانديروس انه كان له
 اخزانة كتب نقش على بابها حروف معناها هنا دواء الروح وقد ذكر في بعض
 الموفات ملك من ملوك مصر بهذا الاسم وانه تولى المملكة سنة ١٩٠٤ ق م ثم
 بعد الملوك المذكورين تولى عليها ملوك من رعاة العرب اولي المواشي واما
 ماريبت بك وغيره فيقولون لم تكن ملوك مصر جميعها متتابعة الواحد بعد
 الاخر بل كان منها كثيرون معاصرين بعضهم بعضاً منهم من كان مستقلاً باقليم
 ومنهم من كان منفرداً بمقاطعة اخرى ودعوا جميعهم فراعنة جمع فرعون وهي
 كلمة مصرية اصلها فاراه ومعناها نور الشمس وان مينس او هو منتراول ملوكها
 كان معتبراً بين شعبه ومهيباً عندهم حتى انهم قدموا له العبادة كاله وهي
 الذي بنى مدينة منفيس وحول النيل عن مجراه الاصيل واصلح احوال الرعية
 بتحسين الزراعة ونظم القوانين والاحكام وكانت مدة حكمه ٦٢ سنة ثم في ايام ابيه
 اثويس شرع بتزيين مدينة منفيس المذكورة وبني فيها الهياكل والتصور المشيدة
 وفي ايام حكم فرعون فينيس الملك الثاني من الدولة الثانية تدين الثور ايس الهما
 في منفيس وفي ايام خليفة بوسيريس بنيت مدينة ثيبة في بلاد الصعيد وهي
 المدعوة الان بقصر ابي الحجاج وجعلها تحت الملك اما الدولة الرابعة فكان
 سرير ملكها في منفيس وثاني ملوكها كان منفاري الذي بنى الهرم الثالث اي
 الاصفر في ارض الجيزة وخامس ملوكها شوفو واخوه نوشوفو اللذان كانا
 يملكان معاً وبنيا الهرم الاول اي الاكبر في ارض الجيزة ايضاً اما الهرم الثاني اي
 الاوسط فقد بناه الملك شافري الذي هو من ملوك الدولة الخامسة ولكنه
 نُسب الى سوفيس الثاني غلطاً وظن بعضهم من بعض ملاحظات فلأية ان

هذه الأهرام بنيت في الجيزة سنة ٢١٢٢ ق م لما كان الثنين هو نجم القطب وفي أيام الملك اوسيرطاسن الثالث من ملوك الدولة الثانية عشرة تأسست مدينة الكرنك في بلاد الصعيد ثم خلفه عامونثي الثالث الذي اقام الابنية العظيمة في اقليم الفيوم ورسم عليها اسمه وفي أيام الملك طباوس اخر ملوك الدولة السادسة عشرة كانت اغارة الملوك الرعاة الذين مرّ ذكرهم على مملكة مصر قال بعض المؤلفين انهم طوائف مختلفة جاءوا اليها من جهة اسيا ودخلوها من الجهة البحرية المسماة دننا واستولوا على جميع جهات مصر السفلى تحت راية الوليد بن دوفع وهو الذي يسمى عند اليونان باسم سلاطيس ولما استقر بالولاية احرق المعابد والهياكل وبنى القلاع والحصون وشيئها بالعساكر ومهمات الحرب خوفاً من هجوم المصريين وجعل مدينة منفيس تحت المملكة وكان المصريون يكرهون هولاء الرعاة وينفرون منهم لنفساوتهم وكثرة جورهم واحترامهم للديانة المصرية واستمرت احكام البلاد في ابادتهم نحو ٢٦٠ سنة وقيل ٥١١ سنة ولعلّ الاول هو الاصح الى ان استخلصها منهم فرعون اموسيس بعد حروب شديدة ثم بعد اموسيس المذكور تولى ابنة امنوفيس الاول نحو ١٨٠٠ ق م وهو راس الدولة الثامنة عشرة وفي ايامه وجد كثير من صور الخيول منقوشة ومرسومة على الحجارة والصخور ولذلك يُظنّ ان هذه الحيوانات لم يكن لها وجود قبل دخول الرعاة المذكورين الى مصر ولكن هم الذين ادخلوها لانها لو كانت موجودة قديماً لكان لابد من نقشها مع باقي الحيوانات التي كانت الاهالي تعني برسمها وقد كثر هذا النوع من الحيوان في تلك البلاد حتى صارت التجار تستجلبه من الدبار المصرية الى الاقطار الشامية في ايام سليمان بن داود ملك اسرائيل ومن اثار هذا الملك ايضاً الرواق الشهير الموجود في هيكل الكرنك وهو من ابداع الابنية القديمة ولم يزل الى الان اسمه مرسوماً على القناطر الفريدية التي بناها حي ثيبة وصورتها في قاعة التصاوير الملكية بالصعيد والى جانبه مملكة حبشية فاستدلوا من ذلك على ان المصريين كانوا يتزوجون بالسودان وفي ايام

فرعون طوطيس الثالث الذي تولى المملكة سنة ١٧٥١ ق م نقلت المسئلة المسماة
 بمسئلة فرعون الى الاسكندرية ومن آثاره ايضاً مسئلة اخرى موجودة الآن
 في القسطنطينية واخرى ثالثة في رومية مكتوب عليها اسمه ومنها الرواق الملكي
 الموجود في الكرنك حيث توجد صورته ايضاً ويظن انه في ايام هذا الملك بيع
 يوسف الى مصر وفسر له احلامه فتقدم في بايو وصار مسلطاً على ارض مصر
 كلها ولئن كان يوجد اختلاف في ذلك بين المؤرخين ومن ملوك هذه الدولة
 الثامنة عشر ايضاً امنوفيس الثالث الملقب عند اليونان بالممنون وكان قد
 ادعى لنفسه الاوهية وانشأ هيكلآ على ميسرة النيل تجاه ناحية ثيبة وقد تخرب
 الآن وانهدم ولم يبق من اثره الا الصنم الكبير وهو عبارة عن صورة هذا الملك
 وكان المصريون يعبدونه ويعتقدون انه كلما اشرقت الشمس يسمع منه صوت
 فكان الناس يتاثرون من ذلك لعدم معرفتهم سببه ولا زال السبب مجهولاً
 الى ان اتى الساركردنرويلكنسون الانكليزي وشاهد هذا الصنم فوجد في جوفه
 حجراً اذا ضرب به سماع له طنين وتكتكة ثم ظهر اخيراً الملك رمسيس الثاني
 ثالث فراعنة الدولة التاسعة عشرة المشهور عند اليونان باسم سينوستريس
 وبعد ان تولى المملكة في سنة ١٥٦٢ ق م اشتهر بالفتوحات واخترع القوانين
 يحكى عنه انه عبر البحر الاحمر وتوصل الى الهند وجهاز عمارة في بحر الروم وكانت
 سفينته التي ركبها وقتئذ اول سفينة ظهرت في بلاد اليونان واستولى على بلاد
 الشام وزعموا انه هو اول ملك عزم ان يوصل البحر الاحمر بالبحر الابيض وكانت
 جنوده نحو ٦٠٠ الف مقاتل مشاة و٢٤ الفاً خيالة و٢٧ الف عربية حربية
 وغزا الحبشة وانتصر عليهم ودخل ماوراء نهر الكنك (في الهند) ووصل الى البحر
 الهبط الاكبر وفتح بلاد اناطولي والبتار وكان كلما فتح قطراً شيد فيه هياكل
 واثاراً تدل على نصرته فلذلك كان يوجد في عدة مواضع مكتوباً ما معناه
 سينوستريس ملك الملوك وسيد السادات فتح هذه الارض بسلاحه وزعم بعضهم
 ان سينوستريس هذا كان يسمى سيساق ايضاً وخالف فيه اخرون حيث لم

تثبت حقيقة ذلك لان تاريخ مصر لم يظهر للوضوح الا من سنة ٦٧٠ ق م منذ عصر الملك ايزميتكوس الذي فتح ابواب مصر للغرباء وتعاشر المصريين مع اليونان وغيرهم كما يتضح ذلك مما ياتي غير ان ما كان من امثال هذه المزعومات ما ايقنت له محلاً التحقيقات الجديدة وما ربما نذكره منه هنا انما نذكره كيلا يخلو المقام من الاستغاطة بما قاله المؤلفون بشانه ثم ان سينوستريس المذكور اقام في مصر هياكل عديدة من اموال الغنائم التي سلبها من الامم حتى لا يكاد يوجد في وادي النيل اثر من الابنية القديمة الا وعاليه اسمه ورسمه وشيد ما يلزم من الجسور والقناطر والترع والخجان لمنفعة البلاد ورفع الاراضي المنخفضة التي يفسدها فيضان النيل وبالجملة قد وصلت مصر في ايامه الى اقصى درجات الرفعة والمجد وزهت ايضا بالعلوم والفنون وهو الذي قسم المملكة الى ٢٦ اقليماً واقام على كل اقليم نواباً لاجل جمع الاتاق وهو الذي رسم صورة الخارطة على ما قيل وصور فيها صورة المدن التي افتتحها ليعين لاهل مصر عظم مملكته وفي ايام ابنه منظط الثاني الذي حكم مصر سنة ١٥٠٠ ق م خرج بنو اسرائيل من مصر تحت رياسة موسى النبي سنة ١٤٩١ ق م ولئن انكر على ذلك بعضهم لزعيمهم بان فرعون الذي خرج هذا الشعب في ايامه ذكر عنه في التوراة بانه غرق في البحر الاحمر وهذا الملك يوجد له قبر بين قبور الملوك الباقية بالصعيد في الجهة المعروفة بباب الملوك لان ذلك ليس ببرهان قاطع لتأييد الاعتراض اذ من المحتمل ان يكون المصريون الذين يجهتدون في كتبهم هذه الواقعة الخفاة في شان ديانتهم وعظمة ملوكهم بنوا قبراً لهذا الملك بدون ان يدفن احد فيه ايزيلوا بواسطته هذا العار عنهم وما يويد ذلك تولية بنته طوسير على تخت المملكة بعده قبل اخيها الصغير لفصوره وزواجها برجل ليس من بيت الملك يقال له صفتا منظط ومعناه عبد النار على ان جدها سينوستريس المقدم ذكره كان له نحو ٢٠ ولداً من الذكور فلولم تكن وقعت تلك الحادثة الهائلة التي انقضت فيها ذكورهم لما تمكنت هذه البنت من الجلوس على سرير المملكة ولا تزوجت

برجل ليس من بيت الملك على ما ذكرنا اما سبتي الذي كان يُظنُّ بأنه هو
 سيروس تيس على ما ذكرنا في ما مرَّ فقد تحقق امره بأنه راس الدولة الثانية
 والعشرين تلك نحو سنة ٩٦٠ ق م وتاريخ فتوحه مدن يهوذا ونهب خزائن
 الهيكل وخزائن بيت الملك الى اخره لم ينزل مصورا على حيطان هيكل
 الكرنك العظيم ومكتوبا عليه يهوذا ملكي اي ملكة يهوذا تحت قبضة يدي ثم
 لما ملك طهراق احد ملوك الدولة الخامسة والعشرين وهي دولة حبشية زاد في
 تحسبن الهيكل الذي بنواحي جبل البركل في بلاد الحبشة وزخرفته وازضاف
 ايضا قاعة عظيمة الى هيكل مدينة آبو في ثيبة وبهذا الملك انتهت الدولة
 الحبشية المذكورة من بلاد مصر وقامت الدولة السادسة والعشرين وكان
 راسها الملك اساماتيكوس الاول الذي يسمى هيرودوتوس اساميس وفي
 بعض المؤلفات ايزميتيكوس وقد سبق ذكره بأنه هو الذي فتح ابواب مصر
 للغرباء وكان تملكه سنة ٦٦٤ ق م فجمع هذا الملك بلاد مصر تحت سلطته بعد
 ان كانت قد انقسمت قبلة بين ١٢ قائدا من عظمائها وكان رجلا حازقا
 محمود السيرة وتعتبر مدة ملكه هبة للغاية اذ في ايامه انتهى الالهام والاتباس
 التاريخي حيث درج استعمال الكتابة بالحروف الالمجدية وتركت الكتابة ذات
 النقوش والصور وجعل مدينة منفيس كرسيا لملكته وفي ايامه تقدمت بلاد
 مصر الى درجة سامية في التمدن والمعارف والغنى لانه اعنى بتحسينها وتنظيمها
 وبنى فيها الليرنث على شاطي النيل وهو بناء عظيم بعدد البعض من عجائب
 الدنيا السبع فكان يشتمل على ٢٠٠٠ مخدع و١٢ قصرا ملوكيا داخل باب
 واحد وكلها مسفوفة بالرخام المرمر بناء سنة ٦٥٠ ق م وجدد معاهدات تجارية
 بينه وبين اليونان واهل صور وسهل اسباب الاخذ والعطاء حتي صارت
 مصر مركزا لتجارة الامم ولما تولى بعده ابنه نخو ويقال نخوس اونييكوس سنة
 ٦١٠ وفي بعض المواضع سنة ٦٢٦ ق م كان كابيه له عناية واهتمام بتحسين
 احوال الرعية وتوسيع دائرة التجارة فشرع في ايبصال نهر النيل بالبحر الاحمر

بواسطة ترعة طولها ٤٦ ميلاً لكنه لم ينجح اما ماريبت بك فيقول ان اول من
 حفر هذا المخلج هو الملك سنبوس الاول من ملوك الدولة التاسعة عشرة الذي
 خلفه على المملكة سينوستريس المقدم ذكره ثم ان نخوس المذكور امر جماعة من
 الفينيقيين ان يكشفوا له حدود افرقية باسرها فساروا في البحر ثلاث سنوات
 من جهة بحر القانم وبعد ان جازوا راس الرجاء الصالح عبروا بوغاز جبل
 طارق وعادوا في اخر الثالثة الى مصب النيل ولما عصى امزيس او اماسيس
 الذي كان استخافه نيوخذنصر ملك فارس على مصر بعد ان حاربها وانزل
 بن نخوس المذكور عن كرسيها استقل هذا الخليفة بملك مصر سنة ٥٨٩ ق م
 وساعد التجارة فلذلك انجذب اليونانيون الى مملكته حتى جاء اليها الفلاسفة
 ايضاً مثل سولون وفيثاغورس ليتعلموا فيها بعض العلوم وهو كان اخر ملوك
 الدول المصرية الوطنية (تمت بذلك نبوة حزقيال ص ١٢:٣٠) حيث قد
 تسلط عليها بعده اكثر الدول القديمة ولم يعد يملك عليها ملك منها واول من
 استفتحها من الغرباء كان بختنصر ملك بابل ثم اضيفت الى مملكة فارس
 ومادي في عصر كمبر بن كورش وذلك سنة ٥٢٥ ق م وهو الذي استخلصها
 من يد اماسيس الذي مر ذكره واستمرت خاضعة للفرس الى ان استفتحها
 اسكندر بن فيلبس المكدوني سنة ٣٣٢ ق م وبني فيها مدينة الاسكندرية وسماها
 باسمه وجعلها على نسق المبانى المكدونية واذن لكثير من اهل بلاد اليونان
 واهالي المشرق ان يستوطنوا بها وفتح اهلها لجميع الناس واعدها مركزاً لتجارة
 اهل العالم كما هي الى يومنا هذا

ثم بعد وفاة الاسكندر تولى زمام مصر الدولة البطلمية وسية وكان اول
 ملوكها سوطير بن لانغوس تولى سلطنتها سنة ٣٢٣ ق م ويعرف ببطليموس
 الاول وكان حاذقاً عادلاً محباً للعلوم اتخذ الاسكندرية داراً لاقامته مع ابقاء
 منفيس على حالها اعني داراً للسلطنة رسماً ومقر سائر الاحتفالات الملكية لا يلبس
 الواج الملكي الا بها ووجد مدناً كثيرة وفتح الترع المردومة واعنى باتساع التجارة

واصلاح امور الفلاحة والزراعة وشرع في تهيم الهياكل والتصوير والمباني العظيمة
 ومنها ضريح للاسكندر المكدوني المذكور لا يعرف الا ان محل وجوده ومنازة
 الاسكندرية المعروفة بالفاروس وسوف يأتي الكلام عليها
 وهو الذي اسس مكتبة الاسكندرية التي جمع له كتبها النفيسة رجل يقال
 له ديمتريوس دو قالير قال بعضهم ان هذا الملك جمع في تلك الخزانة ما ينوف
 عن ٤٠ الف مجلد سماها بالام ثم جمع اخرى وسماها بالبنت ولا زالت تنزايد
 تلك الكتب حتى وصلت في العدد الى ٧٠٠ الف مجلد وقيل ٤٠٠ الف
 فامتلا كل من هيكل بروشيون وهيكل سربس كتباً لها اعتبار عظيم من
 كتب اليونانيين والمصريين والحبشة والكلدانيين والهنديين والفرس والسوريين
 والعبرانيين وكانت هذه المكتبة مشتتة على العلوم واللغات والاديان المختلفة
 وبهذه المكتبة تاسست تلك المدرسة العظيمة المشهورة التي عرفت عند
 العرب برواق الحكمة وصارت مقصداً لطلبة العلوم من سائر الاقطار حيثما
 رتب لها النفقات واحضر اليها المعلمين من كل الجهات ومن ثم صارت مدينة
 الاسكندرية مجعماً للذاهب والعلماء فتولد من هذا الاختلاط القول بالحلول
 اذ جلب اليها اليونان نظريات حكمائهم ودقائق سفسطيتمهم وعلم فيها كنه
 منف بعضاً من عقائدهم وعلم فيها اليهود ايضاً حقائق الكتب المقدسة وجاء
 اليها المجوس ليعلموا فيها علم التنجيم وعلم الكاذب المسمى باسمهم قال بعض
 المؤلفين ان اشهر مدارس علم الفلك عند القدماء مدرسة الاسكندرية التي
 انشاها الملوك البطلموسية فان فيها ابتدئ باستعمال الآلات الفلكية سنة ٣٠٠
 ق م وهناك اخترعت اولاً آلات لقياس الزوايا ومن اشهر معلميها الفيلسوف
 هيرخوس نحو سنة ١٥٠ ق م وبطليموس نحو سنة ١٤٠ ق م الف كتاباً في هذا
 الفن سماه المجسطي وكان عليه الاعتماد الى القرن الخامس عشر والسادس عشر
 بعد المسيح الى ان قام كوبرنيكوس من بروسيا وغيره فابطلوا احكامه (وسوف
 يأتي الكلام على ذلك في محاور) وقال اخرون انه لما تولى الملكة بطلموس

فيلادلف بن بطليموس سوطير المقدم ذكره في سنة ٢٨٣ ق م الفتى الى
توسيع دائرة العلوم والفنون وانواع الصنائع واكثر من تحصيل الكتب التي
اضافها الى مكتبة ابيه وحيث كان ماهراً في علم الفلك والهندسة اظهر حركة
القمر والف كتاباً في الجغرافيا وامر بترجمة التوراة من اللغة العبرانية الى
اليونانية لمنفعة اليهود الذين كان ابيه قد جلاهم من بلادهم واسكنهم مصر فترجمها
له ٧٠ نفر من اليهود ولذلك قيل لها الترجمة السبعينية يقال ان من جملتهم
كان سيمان الشيخ الذي حمل المسيح على ذراعيه في هيكل اورشليم ويظن ايضاً
بانته هو جد غمالاتيل معلم الناموس (اع ٥: ٢٤) ثم امر هذا الملك ايضاً مانيون
الكاهن المصري ان يكتب له تاريخ مصر باللغة اليونانية فجمع هذا الكاهن لها
تاريخاً من الدفاتر الرسمية والاوراق والاثار والرسوم القديمة الموجودة يومئذ
في ارض مصر وبعده واعلمه في القرن الثاني قبل الميلاد اخترع اكنزيوس في
هذه المدرسة ايضاً طلوبية او آلة لرمي السهام بواسطة قوة مرونة الهواء المتكاثفة
وساعة تدل على مرور الوقت بمرو كمية من الماء في انبوبة على قطر معلوم ثم
في القرن الخامس بعد الميلاد اخترع هيرون الالة المعروفة بالجر ويسيها
الجر يون بالعبارة ترقع بها الانتقال من الاحجار ونحوها وتكلم على تمدد الهواء من
الحرارة وهو صاحب النافورة الشهيرة بنا فورة هيرون وهي آلة ينضغط بها الهواء
من نفس تركيب الالة وفيها ايضاً ابتداء هرو فيلوس. وفيلبوس من اطباء

بتشرح الاجسام البشرية

ثم انعكف هذا الملك على عمليات ومشروعات ذات منافع وفوائد
كاستكشاف طريق البحر بالاسفار والوقوف على حقيقة منابع النيل وارسل
سفناً لاستكشاف سواحل الحبشة والبلاد السودانية وبالجملة قد زادت في ايام
هذا الملك المعارف والتجارات في ذلك القسم بخلاف غيره من الاقسام الاخر
التي تولاهما خلفاء الاسكندر وزادت تجارة الاسكندرية على بلاد قورنثة
وسيرا قوسة ببلاد اليونانيين وكان فيها خليج مبداء من اكينوس ونهايته الى البحر

الاحمر وكان معمولاً على شاطئيه خانات وفنادق يوضع فيها البضائع الآتية من اسيا الجنوبية وقال ابن خلدون المغربي ان بطليموس الارنبا (لا اعلم من هو الذي اراده بهذا اللقب من اعضاء هذه العائلة الملوكية) بنى ملجأ للخيل شهيراً في الاسكندرية اخترق في زمن القيصر زينون (الذي تولى الامبراطورية الشرقية سنة ٤٧٤ م) وفي ايام بطليموس الثالث ابن بطليموس الثاني الملقب بالكريم الذي تولى الحكومة في سنة ٢٤٦ ق م سرق من هيكل الزهرة شعر الملكة برنيقي زوجة هذا الملك وكانت قد نذرته لذلك الهيكل ليتنصر زوجها في حروب التي كانت جارية بينه وبين انطيوخوس ملك سوريا فبلغ خبره الى الملك فغضب واراد قتل الحراس فدخل عابو بعض المنجيين وكان متقدماً في بابو واخبره بان الزهرة هي التي اخذت الشعر ونفثته الى السماء ووضعت بين النجوم فسر الملك بذلك ومن ثم سمي شعر الملكة برنيقي بين الناس من جملة مجاميع النجوم

وبعد انقضاء الدولة البطلموسية بموت كليوباترا اخر ملوكها نحو سنة ٢٩٤ ق م دخلت مصر تحت سلطة القيصريّة الرومانية قال بعض المؤلفين ان الاسكندرية صارت حينئذٍ مصدراً جديداً الى الفلسفة في عصر اغسطوس قيصر الذي افتتحها فكانت جميع طلبة العلم في ذلك الزمان يتقاطرون الى هذه المدينة من كل جنس رغبة في تلك المكتبة التي لم يكن لها نظير في غيرها وكان المعلم بوتامون قد وضع فيها اصول الفلسفة المنتخبة التي سميت اصحابها اكلينسيكيين وهي انه لا يجب ان يتوقف الطالب على تحصيل العلم من معلم مخصوص بل ينبغي تحصيل الحقائق من تعاليم جميع الفلاسفة بشرط موافقتها للعقل والصواب وقبولها بعد البحث المستطيل ثم بعد ان خرب هذه المدرسة ثيودوسيوس الاكبر قيصر القسطنطينية بجملة هيكل الوثنيين باسباب معارضة امينوس سكاس واصحابه الديانة المسيحية على وجه التعمت والعناد وحرقت المكتبة ايضاً باغراء البطريرك ثيوفيلوس سنة ٢٩٠ م جدد هناك هذه الفلسفة المنتخبة جماعة من

الفلاسفة المسيحيين الذين كانوا قد تخرجوا فيها كما ذكر ذلك بتفاصيله في كتاب زبدة الصحائف في اصول المعارف ولا زالوا يمارسونها ما أمكن الى ان فتحت الاسكندرية وبلاد مصر بالإسلام سنة ٢٠ للهجرة (سنة ٦٤٠ م) قال العلامة رفاعه بك الطهطاوي نقلاً عن ابي الفداء ان عمرو بن العاص استشار وقتئذ الخليفة عمر بن الخطاب بشأن ما كان باقياً من الكتب فيها فامرهُ بحرقها وكانت نحو ٤٠٠ الف مجلد فإلا ان كانت موافقة للقرآن فنحن في غنية عنها وان كانت مخالفة فهي مضرّة لا حاجة لنا بها فاوقد بها المسلمون الحمامات ٦ اشهر وكانوا نحو ٤٠٠ حمام ونقول الا فرنج اذا كان هذا صحيحاً فيها لما من خسارة فاحشة لا يمكن جبرها وهنا ينبغي ان نلاحظ بانه نظراً الى عدد الكتب ونسبتها للحمامات يستبين بانهم جعلوا لكل حمام منها نصف كتاب تقريباً في كل يوم وليتهم ابانوا لنا عن مقدار جرم الكتاب لتعرف ان كان يكفي ذلك الحمام اولا يكفيهِ وهنا لا يخلو الامر من وقوع الغلط اما في مقدار الكتب واما في عدد الحمامات واما في كل الحكاياه من اصلاها

ولما اتصلت سلطنة مصر بالخلفاء الفاطميين وكان استخلاصها من العباسيين المعزاد بن الله ثالث الخلفاء المذكورين بعد موت كافور الاخشيدى على يد قائد جيوشه جوهر بنى هذا القائد مدينة القاهرة واسس مدرستها الكبرى الشهيرة بالجامع الازهر فنقل اليها المعز المذكور ما كان في قصره بالمدينة من الاموال والامتنع وسار اليها في سنة ٢٦٢ للهجرة (سنة ٩٧٢ م) وجعل هذه المدينة دار خلافته ولما تولى الخلافة بعده حفيده الحاكم بامر الله ابو علي منصور العبيدي صاحب ديانة الدروز التي تكلمنا عليها في اخر كتابنا المسي بسوسنة سليمان في اصول العقائد والاديان بما فيه الكفاية عن الاعادة هنا بنى في هذه المدينة مدرسة سماها دار الحكمة واجلس فيها القرا وحملت اليها الكتب من الخزان والقصور ودخل اليها الناس وجلس فيها الفقهاء والمنجمون والنحاة واصحاب اللغة والاطباء وحصل فيها من الكتب في سائر العلوم واجرى

على ما فيها من الختام والفتناء الارزاق وجعل فيها ما يحتاج اليه من الخبز والورق والاقلام والمحابر وذلك في سنة ٢٩٥ للهجرة (سنة ١٠٠٤ م) لكنه ابطها في ما بعد المأمون وزير الخليفة المستنصر العبيدي بسبب حميد بن مكي الاطفيحي النصر وغيره من تخرجوا فيها وادعوا الربوبية وقتل حميد المذكور وذلك سنة ٥١٧ للهجرة (١١٢٢ م) ومن اراد الاطلاع على هذه الحكاية بالتفصيل فعليه مراجعتها في كتابنا الثالث المسمى بصناعة الطرب في تقدمات العرب

وبعد ان انقرضت الخلافة الفاطمية المذكورة وتولى سلطنة مصر الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ابوب راس الدولة الكردية سنة ٥٦٧ للهجرة (سنة ١١٧١ م) بنى في القاهرة المذكورة قلعة الجبل والبئر المشهورة بها المعروفة ببئر يوسف وعمتها نحو ٢٠٠ قدم ومع ذلك يمكن النزول فيها الى العمق ولو ان نزل راكباً على حمار لما فيها من الدرج الدوار واقام لهذه المدينة سوراً ايضاً وكان في زمن الخلفاء العاطميين مبنياً بالبن

ثم بعد ان قرض السلطان سليم الاول العثماني الدولة الجركسية التي كانت خلفت الدولة الكردية المذكورة واستولى على هذه البلاد سنة ٩٢٢ للهجرة (سنة ١٥١٧ م) قويت فيها شوكة المالك الذين اضروا بها كثيراً بسبب عدم انقيادهم التام الى اوامر السلاطين العثمانية ولا زال الحال على هذا المنوال الى ان تولى وزارتها محمد علي باشا سنة ١٢١٩ للهجرة (سنة ١٨٠٤ م) فجلب اليها هذا الوزير الضباط الفرنسيين لاجل تعليم العساكر النظامية وبنى السفن الحربية وانشأ فيها المدارس لتعليم العلوم والفنون واللغات الاجنبية وادخل اليها معامل القطن والحبر والاصواف وغير ذلك من الصناعات الاوربية وانشأ قلماً مخصوصاً لترجمة الكتب وطابع لطبع ما يترجمه المترجمون من اللغات الافرنجية وامر باشا جريدة رسمية تسمى الوقائع المصرية وارسل عدداً وافراً من اهالي مصر الى اوربا لاجل تحصيل اللغات وانقان العلوم ونشرها في وطنهم ووضع

سلك الاشارة للخمارة بين مصر والاسكندرية وبنى عمارات وشيّد قصوراً وانشأ حدائق جميلة منها جنينة شبرا الشهبيرة ومهد الاراضي وفتح الخجان والترع واقام سدوداً لمنع اضرار زيادة فيضان ماء النيل وانشأ المعامل والورش لصبّ المدافع وعمل الباروت وغير ذلك من الادوات الحربية ثم حصل اخيراً على سماح الدولة العلية بان تكون حكومة مصر له ولخلفائه بطريق التوارث خلفاً عن سلف مع اعتبار هذه الولاية حصّة من المملكة العثمانية وخاضعة من كل الوجوه لاوامرها العلية وبعد ان توفي هذا الوزير وانتقلت الحكومة من بعد خليفته الاول الى حفيده عباس باشا وذلك في سنة ١٢٦٥ للهجرة (سنة ١٨٤٨ م) شرع هذا الوزير ايضاً باانشاء التلغراف والطريق الحديدية من مصر الى الاسكندرية ثم تولى بعده عمه محمد سعيد باشا في سنة ١٢٧١ للهجرة (سنة ١٨٥٤ م) وانشأ طريق المنشية بالاسكندرية وغرس فيها الاشجار وجعلها من احسن المنتزهات وكان قد شرع بوصول البحر الابيض بالبحر الاحمر ولذلك تسمت المدينة التي تاسست على معبر هذا الخليج ببورت سعيد اي باب سعيد نسبة له غير ان هذا العمل لم ينجز في ايامه بل تم في ايام خليفته وهو ابن اخيه اسماعيل باشا الذي تولى الحكومة في سنة ١٢٨٠ للهجرة (سنة ١٨٦٣ م) وسمعت له الدولة العلية العثمانية ان يلقب رسماً بالخدبوي وهو لفظ فارسي يشير الى استقلال صاحبه من بعض الوجوه في الحكم وقد كان هذا اللقب يطلق قبل الان في البلاد المصرية رسماً ايضاً على جده محمد علي باشا المشار اليه في ما تقدم لكن بدون ان تقره له الدولة او تجيزه عليه

اما ديانة قدماء المصريين فكانت من اشنع العبادات الوثنية لانه كما تغلبت العلوم والسلطة في بلادهم كذلك كانت عبادة الاصنام ايضاً وفي مطالعة ما كتبناه عنها في كتاب سوسنة سليمان في اصول العقائد والاديان غنى عن الاعادة غير انه لا بأس من ايراد بعض ما نقله الرواة من خرافاتهم المتعلقة في هذه العبادة الاصنامية

قال ابن خلدون المغربي في كلامه على المصريين بانه كانت لهم اليد الطولى في صناعة السحر وكان الملوك مصر عناية شديدة بذلك حتى كان من مباحاتهم موسى النبي وحشر السحرة له ما كان (يشير الى ما ذكر في التوراة خر ١٢:٧) وبغايا الاثار السحرية في برابي الخيم من صعيد مصر ما يشهد لذلك ايضا وقال صاحب تذكرة المحكم ان المصريين كانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة وكانوا يسمون من تعبد لها جميعا ٧ سنين بالماهر وكل من تعبد لكل واحدة منها ٧ سنين الى ان ينتهي في ذلك مدة ٤٩ سنة بالفاطر ويجلس الى جانب الملك فلا يعمل الملك عملاً الأبعد مشاورته فيو وكان معيناً لكل واحدة من هذه النجوم السبعة كاهن ياتي في كل يوم صباحاً الى الملك فيسأله الفاطر المذكور ابن صاحبك فيجيبه في البرج الفلاني وفي كذا درجة وكذا ثانية وهكذا الى ان يسأل السبعة وبعد ذلك يعمل الملك بحسب ما تقتضيه احكام هذه الكواكب في ذلك اليوم وعند ما يحدث امر من الامور المهمة يجلس الملك في قصره ويستدعي الكهنة جميعاً فكانت اهلالي مصر تجتمع في الاسواق للفرجة عليهم لان كل واحد من الكهنة المدعوين كان يجيب دعوة الملك ويجترأ اليه راكباً على شيء يناسب الكوكب الذي يكون متعبداً له والطبول تضرب قدامه وغير ذلك من انواع الملاهي فمنهم من يكون مستغرقاً في الانوار لا يستطيع بسببها النظر اليه ومنهم من يكون راكباً اسداً يسوقه بثعبان عوض السوط ومن هولاء الكهنة ظهر ٧ ملوك حكموا البلاد المصرية احدثهم يقال له صيلم وهو اول من اتخذ مقياساً لزيادة ماء النيل فعلم بركة من نحاس وعليها عقابان ذكر وانثى وفيها قليل من الماء وفي اوان زيادة النيل بكل سنة كانت تجتمع الكهنة وتتكلم بكلام فيصفر احد العقابين فان كان الذكر كان النيل زائداً وان كان الانثى فيكون ناقصاً والكاهن الثاني اسمه عشمش عمل ميزاناً في هيكل الشمس وكتب على كفة منه حقاً وعلى الثانية بطلاً ووضع الى جانبه حجارة فاذا حضر متخاصان في قضيتهم من الفضاي اخذ كل منها حجراً ووضعته في كفة فتثقل كفة

الحقّ ونخف كفة المبطل والثالث عمل مرآة من ٧ معادن وجعل في وسطها صورة امرأة جالسة وفي حجرها طفل فكان من نظر في تلك المرأة رأى الاقليم الذي اراده ووقف على ما هو جارٍ فيه من الحوادث واذا اصاب امرأة وجع في جسدها مسحت به موضعه من جسد تلك الصورة فتبرا من ساعتها والرابع عمل شجرة اغصانها من حديد عليها طيور متى قرب منها ظالم تمسكت به تلك الطيور فلا يتركوه حتى يفر بها فعل من المظالم وعمل صنما من التراب سماه عبد زحل فكانوا يتحاكمون اليه فمن كان زائعا عن الحق ثبت مكانه فلا يمكنه ان يتحرك ما لم يعترف بما عليه والخامس عمل شجرة من النحاس فكان كل وحش او طير اقترب اليها بقي مكانه غير متحرك الى ان يوخد وعمل على باب المدينة صنين الواحد عن يمين الباب والاخر عن اليسار فاذا دخل احد وكان من اهل الخير ضحك الصنم الذي عن يمين الباب وان كان من اهل الشر صرخ الصنم الذي عن يساره والكاهن السادس عمل وزنة فكان اذا باع احد شيئا وقبض ثمنه من اي نوع كان من المعاملة وضع الدراهم المقبوضة في كفة من الميزان ووضع تلك الوزنة في الكفة الثانية فاذا قابلتها كانت تامة العدد وصحيفة العيار والا فتكون ناقصة من اي نوع كانت من الدراهم او القطع او الفضة او الذهب والكاهن السابع عمل اعمالا عجيبة بطول شرحها واخيرا غاب مدة اقام فيها المصريون بلا ملك الى ان كانت الشمس في برج الحمل ظهر اليهم في السحاب وخاطبهم قائلا لا تطعموا في عودتي فاني لست برافع اليكم وانما اقبوا فلانا ليهكون عليكم سلطانا عوضي. انتهى

والظاهر انهم لم يتقنوا صناعة التصوير كما اتقنها اليونان حيث ان ايدي اصنامهم كانت ملتصقة باجسامها وكذلك اتقناها وارجلها ملتصقة ببعضها غير متحركة ولذلك كانت غير مالوفة لعدم اتقانها ولطفها وكانوا يصورون اوزريس الهم بصور مختلفة على حسب الاوقات فكانت اشكاله متنوعة عند غروب الشمس وعند الشفق وعند طلوع الفجر وشروق الشمس وفي وقت الظهور ومن

الاحباب والصيف والشتاء اذ تارة كانوا يصورونه على هيئة شاب لابس خرقه
 قماش ساترة لجميع بدنه اخذ بصليب الى جهة صدره وعلى راسه كرة سماوية
 وتارة على شكل احد رعاة فرجيا وعلى راسه قلنسوة ايضا وهو قابض على عصا
 والى جانبه كبش وطورا يجعلون تمثاله عند غروب الشمس على شكل سائق عربية
 بيده سوط جالسا على زهرة شجر الصدر وكانوا يصورون ابزيس وفي اشهر
 معبوداتهم بعد اوزريس المذكور حاملة على راسها اوراقا كبيرة او قدرا او
 دوالب او شرافات جدران او كرة او صورة هلال وكثيرا ما كانوا يصورونها
 ايضا واضعة طفلا في حجرها ترضعه ثديها وفي راسها قرون كقرون شاة او ثور
 او نيس او يصورونها قابضة بيدها على منجل وكانوا يصورون هورس احد الهتهم
 ايضا على نحو تسعة او عشرة تماثيل اشهرها ما كان على شكل شخص قابض على
 راس بازي وبيده صليب مربوط فيه حمار او على صورة طفل صغير بين
 اوزريس وابزيس اكونهم يعتقدون بانها ولدها وتارة يصورونه وراسه مطوق
 بذهبين من ذهب امام يديه ومدرة وهي الالة التي يذرون بها القمح وكانوا
 يصورون انوبيس على شكل شخص راسه كراس الكلب معلقا في ذراعه اناة ذوق
 حلقة وبيده اليمنى براع والى اجنحة في رجليه وخلفه صورة مجمع وسلخانة وكانوا
 يصورن كانوا بصورة اناة كبير على صورة راس امراة وبازي مرسوم عليه حروف
 هيروغرافية وكانوا يصورون ايبس بصورة عجل اسود على ظهره صورة حلقة
 (نوع من الطيور) وعلى لسانه صورة خنفساة (نوع من الحشرات) وشعر ذنبيه
 على نوعين وفي اضلاعه شكل هلال وكانوا يصورون سيريس بصور متعددة
 وسوا كل صورة منها باسم اما اسمه هو واما اسم اوزريس او ايبس اللذين تقدم
 ذكرها اكونهم يعتقدونهم واحدا وشوهد على بعض عماراتهم تمثاله على صورة
 شخص هرم في راسه 6 ضفائر مثل قرون السلانة وهي انثى الذئب مستورا بخرقه
 قماش طويلة عريضة منقوشة ببعض علامات من علامات منطقة البروج
 وقابضا بيده اليسرى المطلقة دون غيرها من سائر اجزاء جسمه على ثعبان

محيط بجميع جسده وأما اذنيه الذي كانوا يعتقدونه الخالق للدنيا وحده
فكانوا يصورونه على شكل شخص خارج من فيه بيضة لان البيضة كانت عندهم
علامة على العالم ويستبين من الاثار القديمة الموجودة في اراضي مصر الواسعة
بان هذه الامة المصرية كانت تعني بتصوير كل شيء من انواع الحيوانات
والالات الصناعية بل وعاداتهم المحلية ايضاً قال العلامة الفاضل رفاعه بك
الططاوي انه يوجد في ردم قرية يقال لها انسانة كثير من التماثيل والصور
تعقد العامة بمصر الان انها صور بشر حل بهم المسخ وان الكهوف القريبة من
مدينة اسيوط تحوي على تصاوير قديمة عجيبة محفوظة الى الان لم تذهب بهجتها
وكان في قرية يقال لها دندرة صورة منطقة البروج وهي حجر فيه صورة الفلك
اخذه الفرنسيون الى باريس ووضعوه في المتحف المملوكية كما جرت عادتهم
وعادة غيرهم من الافرنج الذين يعرون هذه البلاد وغيرها من مدن المشرق
وقد سلبوا اثاراً كثيرة كانت زينة لها وما ذلك الا لعدم اعتناء اهالي البلاد
وقلة معارفهم فلا يجدون لها مزية ولا يدركون لما قدرها بوجب اعتبارها
والمحافظة عليها (بل سوف يرد عليك هنا وفي كتاب صناعة الطرب في
تقدمات العرب كيف كان البعض من الحكام والاهلين يفعلون بما هو منفور
لدهم منها) وهذه المنطقة التي نحن بصددها تولع بها علماء امور الاقدمين في
فرانسا واستخرجوا منها نتائج كثيرة وكذلك يوجد بالقرب من قرية ارمنت
هيكل فيه كثير من الصور ومن جملتها صورة الزرافة التي هي الان ايسمت من
الحيوانات الموجودة في هذا الاقليم ثم هيكل اخر في مدينة اسنا وتصاوير كثيرة
ايضاً في كهفين بالقرب قرية يقال لها الطية يفهم منها كيف كان قدماء المصريين
يصرفون زمنهم ويشغلونه وكيف كانت آدابهم ومن جملتها صور آلات الفلاحة
المستعملة عندهم من قديم الزمان ولعل هذا هو الهيكل الذي اكتشف عليه المعلم
ماريات فقال ان هيكل الحديقة المصرية هو مشيد للثلاثة آله وهم (حسب
الاصل) هاتور وهورس وهورستو وهو على شكل غرفة ناووسية وهندسته

مناقبة اصول هندسة الهياكل لان كثرة نوافذه ترسل كمية وافرة من النور الى داخله ليظهر ما فيه من الزخرفة ووجود هذا الاثر الناووسي صار باعثاً على الدلالة عن ثلاثة اعصار مختلفة فانه دل اولاً على عادة اتخاذ الغرفات الناووسية ثانياً على كيفية دفن الموتى فيها ثالثاً وضع آثار قديمة على حدة من المدفون تكشف عن غوامض تاريخ المصريين القدماء وجدران هذا الهيكل من داخل مزينة بتصاوير منقورة في الصخر وكلها تنبي عن عوائد وانصرفات تلك الامة المصرية فيشاهد على تلك الجدران صور من يستحضر الخمر ومن يصطاد الوحش ومن يقتنص الطيور بالاشباك ومن يصطاد الاسماك ومن جهة اخرى تشاهد تصاوير ملاحين يتصارعون على الماء ومنهم من يمارس الترويض بالعاب مختلفة ومن يعتني في انقار عمل الاواني ومنهم من هو حامل على عاتقه احمالاً ثقيلة ومنهم من ينقر في الصخور ومن ينحت التماثيل ومن يبني السفن ومن يتنزل في اصناف التجارة ومن يعقد الابنية ومن يتروض في صناعة سفر البحار ومنهم من يصطاد فرس البحر والتساح ومن يستحضر طعام الاسمكة ومنهم من يصطاد السمك بالصنارة ومنهم من برى المواشي ومنهم من يحرث الاراضي ويلقي البذار ويعتني في نصب الكروم وبالجملة برى تاريخ مصر كله مسطراً على جدران هذا الهيكل وفي آثار مدينة كانت تسمى سابقاً امبوس يوجد هيكل فيه عدة تصاوير غير كاملة تدل على ان القدماء من اهل مصر كانوا يستعملون في الرسم طريقة المتأخرين المستعملة الان عند الافرنج بالهندسة المعنادة

وكانت لغة المصريين القديمة مجهولة جداً للمتأخرين وكان الظن بانها من اللغات المائتة ولم يبق لها اثر ولا سيما ان كل ما وجد من الكتابات على تلك الآثار الباقية من المباني القديمة كالاعمدة وحيطان الهياكل او مرسوماً على اللقائف التي كانوا يلفون بها الموتى المعطين كان من نوع الرسم والنقوش ايضاً ونسبي الهيروغليفية وهي عبارة عن اشارات مستعملة من صور الاشباح الطبيعية

وكانت على ما فهم اخيراً نوعين الاول يشير الى اصواتٍ نطقيةً يدل عليها
بعض النقوش المصاحبة لتلك النصوص والمختلفة والثاني تحت هيئة اشباح تدل
على جلٍ مخفصة ولم تدرج عندهم الكتابة بالحروف الابجدية الا في زمن تملك
الملك ايساماتيكوس الاول راس الدولة السادسة والعشرين كما سبقت الاشارة
اليه في ما تقدم وذلك سنة ٦٦٠ ق م ومن ثم انحصرت الكتابة الهيروغليفية
المذكورة في الكهنة فنقط حيث داوموا استعمالها لاجل اخفاء علومهم عن العامة
الى ان دخلت بينهم الديانة المسيحية ومن ثم ابطالوها لكونها كانت تذكرهم
باحوالهم الجاهلية وعباداتهم الوثنية واتخذوا بدلها طريقة الكتابة اليونانية فمع
مرور الازمنة تناسى امرها بالكلية وكان كل ما يتكلمه المتأخرون عما يبحثون فيه
من تلك الاثار يتكلمونه اما بطريق الحدس والتخمين واما اخذاً عن مورخين
اقدمهم لم يتجاوز ٤٥٠ سنة قبل التاريخ المسيحي كما يرودوتوس المورخ اليوناني
الذي كان زار هذه البلاد ووصفها في تاريخه ثم فعل نظيره ثيودور الصقلي وكان
وقد عليها سنة ٨ ق م واسترابون احد علماء الجغرافيا اليونانيين وكان معاصراً
لثيودور المذكور وبلوتاركة الذي الف سنة ٩٠ م رسالة باللغة اليونانية في
ما كان يعبده المصريون من الالهين اللذين هما اكبر آلهتهم المعروفين بايزيس
واوزريس وقد تقدم ذكرها وغير ذلك مما يتعلق بديانة المصريين القديمة
بحسب ما كان يتناقله المصريون جيلاً بعد جيل من الاحاديث واما التاريخ
الذي كان كتبه ماينتون الكاهن المصري بامر بطليموس فيلادلف في سنة
٢٥٠ ق م على ما اشرنا اليه في ما تقدم فقد صالت عليه يد الدهر واغمالته
الغوائل ولم يصل الى عصرنا منه الا بعض قطع رواها بعض المورخين لكن لما
اهتدى الى فك ذلك القلم الهيروغليفي المقدم ذكره احد حناق الفرنسيين
وهو المحقق الشهير المعلم شبوليون وكان ذلك في سنة ١٨٢٢ م تحقق الامر
وظهر بان لغة المصريين القدماء لم تعد بالكلية وليست هي اللغة التي لازل
الى الان يستعملها قبطة مصر في كتبهم الدينية ولم يازجها من الالفاظ الاجنبية

غير بعض كلمات من اللغة اليونانية احتاجوا الى اضافتها منذ اعتنقوا الديانة المسيحية

والذي ابنى تلك الآثار العظيمة التي اتخذها المناخرون ولا سيما الان مصدرًا لكثير من معرفة حقائق امور مصر التاريخية على ما ذكرنا هو اعتناء اهلها الاعتياد النام بالامور التي يتخذ ذكرهم بواسطتها كالأبنية المتينة الشاهجة العجيبة وغير ذلك من الاشياء الموهلة لا الظرفية بحيث لا يمكن للدهران يتغلب عليها كل التغلب ومبالغ فضلهم فيها انما هو اقتحام المشاق ومصادمة الموانع التي تعترضهم في عملها كالأهرام الثلاثة الموجودة في ارض الجيزة وهي تبعد اميالاً قليلة عن القاهرة وتعد من عجائب الدنيا السبع اعظمها مربع الشكل وكل ناحية من نواحي قاعدته ٧٤٦ قدماً فيكون محيطه ٢٩٨٤ قدماً وهي تغطي ١٤ جريباً من الارض (الجريب يفصل من ضرب ٦٠ ذراعاً في مثلها فيكون الخارج ٣٦٠٠ ذراع مربع ويكون مقدار الاربعة عشر جريباً المذكورة) ٥٠٤٠٠ ذراع مربع) وارتفاعه ٥٦٠ قدماً وقد اختلفت فيها آراء المؤرخين السالفين فمنهم من قال ان احد الملوك بناها واعد الاول لدفن زوجته والثاني لدفن زوجته والثالث لدفن ابنته وان زوجته وابنته دفنتا في ما اعد لها واما هو فلم يدفن في ما اعد لنفسه وبقي مفتوحاً الى الان لكن ابن خلدون المغربي يقول ان المنفذ الموجود الان في احد الأهرام الثلاثة حدث في زمن المأمون الخليفة السابع من بني العباس لما اراد هدم هذه الأهرام والسبب الذي اورده في ذلك سوف تذكره في كتاب صناعة الطرب في تقدمات العرب واخرون قالوا ان هذه الأهرام كانت هياكل لعبادة الشمس المسماة عندهم اوزيريس وانه لو عرفت الرسوم المنقوشة عليها بالخط القديم لامكن منها معرفة سبب بنائها وانه لم يتكلم عليها احد من علماء اليونانيين الا هيرودوتوس وحده وان سواد الافرنج المتأخرين لا زالوا لم يعرفوا هل هذا القلم هو القلم المصري القديم ذو التصاوير او قلم اخر لان القلم الاول هو قلم الاسرار والثاني قلم معتاد ذو حروف هجائية

وقال بعض العلماء النمساويين ان هذه الاهرام كانت نامية في كل الارض
فاصطنعها اهل مصر وقالوا ايضاً انه وجد اهرام تشاكلها في الرسم باقليم المكسيك
من بلاد اميركا ومنها استدلوا على تقدم اهل تلك البلاد لكونها مثل اهرام
مصر عظيمة البناء وذلك ظن بعض المشتغلين بأثار القدماء وان كان هذا
من قبيل الشذوذ ان اصل اهل اميركا من قبائل المصريين جاءوا اليها في زمن
الملك سينوستريس صاحب الفتوحات العظيمة وقد مر ذكره لكنه لما لم يفهم
صراحة من كلام المؤرخين ان هذا الملك ذهب الى بلاد اميركا كان قول من
قال ذلك هو بمجرد الفرض والتقدير وحيث كان يوجد ايضاً كثير من هذه
الاهرام على جهة منابع النيل بعضها من الأجر وهي منشورة على خط طولة
فراخ تسمى اهرام ابي صبر ترجح راي قوم بان هذه الاهرام كانت مذاقن للملك
مصر اول الثيران المقدسة التي كانوا يعبدونها تحت اسم ابيس لوجودها غالباً في
المحلات التي توجد بها قبور موتاهم وقد مر عليك في تقدم ما عول عليه المحققون
بعد ان فك المعلم شوبليون المقدم ذكره ذلك القلم الهيروغليفي على ما اشرنا
في ما سبق وهوان الهرم الأكبر بناء شوفو واخوه نوشوفو مدفنا لهما وقد تحقق
عندهم ذلك من كتابة اسمها المنقوشة على بعض حجارة الهرم المذكور واما الهرم
الاوسط فقد بناء الملك شافري والثالث الاصغر بناء الملك منقاري لكون اسمه
وجد كذلك محجراً فيه ويقال ان تايوته الان بين الآثار القديمة في مدينة
لوندرنا وقد ايد ذلك ما كتبه مارييت بك الفرنسي ناظر الاتيقة خانة
المصرية في مولفه ونصه ان الملك كيوبس من ملوك الدولة الرابعة ويسمى في
القيودات المسطرة على الآثار بذلك العصر خوفو كان مشغوقاً بحب ابناء
المباني وتشبيد العمارات فان اعظم الاهرام الموجودة في الديار المصرية كان قبر
هذا الملك وعلى ما قيل ان ١٠٠ الف عامل كانوا يتنابون العمل في عمارته
وكل ٣ اشهر يستبدلون بغيرهم مدة ٣٠ سنة وانه في الحقيقة ليس فوق طاقة
ارباب الصناعة المتأخرين ان يعملوا نظيرها وانما الذي يصعب ولو في ايامنا

هذه هوان بيني في داخلها حجرات بطرفات تصل بعضها ببعض ومع ما هو
محمول عليها من الاثقال الجسيمة تمكث مدة ٦٠ قرناً من الزمن على اتم حال
بدون ان يعتريها ادنى اختلال اه وكاننا قد ضمن مقالنا هذه كلها القاضي عبد
الرواب المصري بهذه الابيات اذ يقول

امباني الاهرام كم من واعظ	صدع القلوب ولم يفه بلسانه
اذكرني قولاً تقادم عهده	ابن الذي الهرمان من بنيانه
من الجبال الشامخات تكاد ان	تمتد فوق الارض من كيوانه
لو ان كسرى جالس في سفحها	لاجل مجلسه على ايوانه
ثبتت على حر الزمان وبرده	مدتاً ولم تأسف على حدثانه
والشمس في احراقها والريح عند	دهوبها والسيل في جريانه
هل عابد قد خصها بعبادته	حتى سميت في الجوف فوق عنانه
او قائل يقضي برجعة نفسه	من بعد فرقتي الى جثانه
فاختارها لكنوزه ولجسده	قبراً ليامن من اذى طوفانه
او انها للسائرات مراصد	يخار راصدها اعز مكانه
او انها وصفت بشوب كواكب	احكام فرس الدهر او يونانه
او انهم نقشوا على حيطانها	اعلا بجار الفكر في بنيانه
في قلب رائيها ليعلم نفسه	فكر بعض عليه طرف بنيانه

يشير بقوله ابن الذي الى اخر البيت الى قول ابي الطيب المتني

ابن الذي الهرمان من بنيانه	ما قومه ما بومه ما المصرع
تخلف الآثار عن اصحابها	حيناً فيصرعها الزمان فتتبع

هذا ولا باس ان نذكر هنا ما وصل اليها من اخبار بعض ما كان من هذا
القبيل من تلك الآثار ولئن طال الكلام في هذا المقام فمن ذلك ما يوجد

بالقرب من اهرام الجيزة المذكورة ويسمى الا فرنج بالسفنكس واما المصريون
الآن فيسمونه ابا الهول وهو تمثال كبيرة رأس انسان على جثة حيوان من
ذوات الاربع طولها نحو ١٢٥ قدماً واليها اشار بعضهم بقوله

تأمل هيئة الهرميت وانظر	وبينها ابو الهول العجيب
كعماريتين على رحيل	بمحبوبين بينهما رقيب
وقبض الحجر عندها دموع	وصوت الريح بينهما نجيب
وظاهر سجن يوسف مثل صب	تخلف فهو محزون كعيب

ومنها ايضا المسلات الغربية وهي حجارة عظيمة ارتفاع احدها ١٩٠ قدماً
قطعة واحدة ويوجد منها الآن واحدة في الاسكندرية ارتفاعها ٦٤ قدماً
والعرب يسمونها مسلة الاسكندرية ومسلة كليوباترا والعامية تقول مسلة
فرعون وعليها كثير من الكتابة بالفلم القديم وقد ذكرنا في ما مر بانها نقلت
في زمن فرعون طوطيس الثالث سنة ١٧٥١ ق م وقد نقل منها ايضا واحدة
الى رومية مكنوب عليها اسم هذا الملك وهي اعظم من المسلة التي كانت موجودة
هناك وتوجد كذلك واحدة ثالثة في التسطنطينية ومنذ مدة نقلت واحدة رابعة
الى انكلترا ايضا فوصلت الى المحل الذي عينوه لها في سنة ١٨٧٨ م

واما عمود السواري الموجود في الاسكندرية (السواري جمع سارية وهي
الاسطوانة) فقد قال الامام المقرئ عنة بانها لم يكن وحده بل كان حوله
نحو ٤٠٠ عمود كسرها قراجا والى الاسكندرية في ايام السلطان صلاح الدين
يوسف بن ابوب ورمها بشاطي البحر ليعر على العدو وسلوكه وان هذا الاعمدة
كانت نخل رواقا فيه خزانه كتب وان ارستطاليس كان اقام في هذا الرواق
يعلم الفاسفة ومنه اتخذ تلامذته اسم الزواقين وذكر ايضا ان طول هذا العمود
مع قاعدته ٧٠ ذراعاً وقطره ٥ اذرع وقال آخرون ان طولها ٦٣ ذراعاً وكسر
وذكره الناضل العلامة رفاعة بك الطمطاوي فقال انه مرتفع نحو ٨٨ قدماً
وانه كان من زينة هيكل قديم ثم نقل هذا الهيكل وصنعوه مدرسة كان فيها

خزانة كتب الاسكندرية لان الظاهر ان المدارس وميادين الرياضات كانت
بجوانبي المدينة الخارجة عن سورها ونقل آخرون عن المسعودي انه راي في
جبل اسوان اخا هذا العمود وقد هندس ونقروا وينصل من الجبل وقال ابن
خلدون ان الاسكندر المكدوني هو الذي اقام هذا العمود وبني رواق الحكمة
المذكور وقال المحققون من الماخزين بان هذا العمود يسمى عمود بونيبوس وهو
فائد من الفواد الرومانيين اقامه في سنة ٢٩٦ ب م تذكارا لملك ديوكليتيان
النيصر الروماني الذي كان حاصر الاسكندرية بهذه السنة كما يتضح ذلك في
عمله

اما منارة الاسكندرية التي ذكرنا في ما تقدم بان بانيتها كان بطليموس
ستير خليفة الاسكندر المكدوني على مصر نقلاً عما رواه بعض المؤرخين فقد يرى
آخرون بان بانيتها هو بطليموس فيلادلف ابن بطليموس المذكور وذلك في
سنة ٢٨٢ قبل المسيح وقد اكثر مورخو العرب ايضاً من ذكرها وجميعهم يتفقون
مع الاقدمين بانها معدودة من عجائب الدنيا السبع اقيمت للاضائة على
البحرين فكان ينظر نورها على بعد عظيم لان ارتفاعها كان ٥٠٠ قدم اكثرهم
يخالفون كذلك في من هو الذي بناها فمنهم من قال هو الاسكندر المكدوني
وبعضهم يزعمون ان ملكة يقال لها دلوكة جعلتها مرقباً من بلاد مصر
من العدو وقال ابن خلدون انغري ان دلوكة هذه ملكة التيظ عليهم بعد
غرق فرعون موسى لخوفهم من ملوك الشام وكانت من بيت الملك (اعابا)
طوسير ابنة منطاطا التي تقدم ذكرها في الكلام على فراعنة مصر وهي
التي بنت على ارض مصر الحماط الشهير بحماط العجوز لان عمرها طال وكبرت
جداً وانخذت البرابي ومقايس النيل وقال ايضاً نقلاً عن ابن العميد وغيره
من المؤرخين المسيحيين ان كليوباترا بنت بطليموس ديونيسيوس ومعنى
كليوباترا الساكنة على الصخرة وهي اخر الملوك البطليموسية بمصر في اثني حنرت
خليج الاسكندرية وبنيت بالاسكندرية هيكل زحل وبنيت مقياساً باختم واخر

بانصتا وبنيت ايضاً الفاروس بالاسكندرية وهي المنارة التي نحن بصدد ما وقد اشار آخرون الى تفاصيلها فقالوا ان طولها كان ١٠٠٠ ذراع في الهواء وان الوريد احد ماوك بني أمة بعث جيشاً هدم نصفها طبعاً في اموال يجدها فيها وذكر المقرئ ان بعضهم قاس هذا المنار فكان علوه ٢٢٢ ذراعاً وهو ثلاث طبقات الاولى مربعة والثانية مربعة والثالثة مدورة وان ابن جبير يقول ان هذا المنار يظهر من مسافة ٧٠ ميلاً وانه لما استولى احمد بن طواون على الاسكندرية بنى عليه قبة من الخشب فاخذتها الرياح وفي ايام الظاهر بيبرس سقط بعض اركان هذا المنار فامر ببناء ما انهدم منه في سنة ٦٧٢ للهجرة (سنة ١٢٧٤ م) وبنى مكان القبة مسجداً ثم هدم المسجد مجدوث زلزلة في سنة ٧٠١ للهجرة (سنة ١٣٠١ م) ثم بنى في سنة ٧٠٢ للهجرة (سنة ١٣٠٢ م) وبقي على حاله (ولم تنف بعد ذلك في تاريخ من التواريخ على شيء من اخبارها)

وقد بقي علينا ان نذكر اننا آخر ذكره الفاضل الملاية رفاعة بك الطاهطاوي منه يعلم محل قطع هذه الشجرة العظيمة وما كان يكابده المصريون في قطعها ونقلها نظراً لبعده الشاسع ليس عن محلات تلك الآثار التي ذكرناها في الاقليم المصري نفسه بل الى ما هو اعظم منها بعداً مع فوائد اخرى غير ذلك وهو انه في محل اصوان القديمة توجد آثار هذه المدينة من اعمدة الصوان وبناء مربع مفتوح الاعلا قال بعضهم ان بها كان مرصد الهيئة في قديم الزمان وانه يبذل الجهد في البحث يكتن الكنتف عن البئر المشهورة التي كانوا يرون في قعرها الشمس يوم الانقلاب الصيفي وبعض الافرنج اثبت عدم امكان ذلك الامروها ان هذه المدينة كانت مثل مقدمة الجيش للمصريين في عدة ازمته مختلفة تجدها مشتتة على آثار حكام مصر في الزمن القديم والمحدث فتري بها هياكل الفراعة والبطليوسية وقصورهم الخفية في الرمال وقلاع الروم والعرب واسوارهم وفوق هذه الآثار تجد كتابة فرانسواوية دالة على ان عساكر متاخري الافرنج وحكامهم جاءوا اليها وضربوها خيامهم ووضعوا فيها خطوطهم ورسومهم

وارصادهم وغير ذلك توجد بها العاللي الصوانية المرتفعة ذوات اللون الاحمر
 المغبر المنطوعة كالمسلات ومن هذه المقاطع الحجرية اخذ المصريون احجار بربابهم
 وهياكلهم وتمثالهم العجيبة وانتشرت الاعمدة العظيمة في جميع بر مصر وبلاد الشام
 وغيرها ولم ينزل حتى الآن هناك تلك المسلة او البرية التي اشار اليها المسعودي
 نائة في مقطعها ماسكة فيه تدل على بذل جهد القدماء وصبرهم وتجدد هم في
 شغل هذه الاشياء

ولنكتف بما ذكرناه والآن لو اردنا ان نستوفي ذكر كل ما يوجد في اراضي
 مصر من الآثار الشهيرة لاحتاج الامر الى مجلدات مخصوصة فان ما ذكره
 المؤرخون من ذلك يكاد يفوق التصديق اذ ان كل ارضيها مشحونة من الآثار
 العجيبة وخراب الهياكل والابنية القديمة التي صارت تاللا بعد ان كانت مشحونة
 باعمدة عظيمة شاهجة مرصوفة بكتابات ونقوش وصور، قال بعض السواح ان
 الانسان اذا مشى بين خرائبها يلهو التامل في الماضي عن ملاحظة الحاضر
 وتلهو قوة اهلها عن التفكير في فواحشهم اه، ومن اراد التوسع في معرفة ما احتوت
 هذه الآثار والكنوز من الاشارات والرموز التي تدل على ما كانت عليه هذه البلاد
 من الاحوال في ما مر من سالف الاعصار والاجيال فعليه بالكتاب المسني
 بقناصة اهل العصر من خلاصة تاريخ مصر تاليف اوغسطوس مارييت بك
 احد علماء فرنسا وبين وناظر مصلحة الاتيقة، خاتمة المصرية المطبوع في بولاق
 سنة ١٢٨١ هجرية (سنة ١٨٦٤ م)

غير انه لا بأس من ختم الكلام في هذا المقام بذكر ما ابداه اصحاب
 التدقيق من العرب والافرنج من الملاحظات على ما هو من قبيل هذه الابنية
 العظيمة التي اعدتها المصريون لمقاومة الدهر ونوال ما رزهم بواسطتها من تخليد
 الذكر، قال ابن خلدون المغربي انظر الى بلاط الوايد بدمشق وجامع بني امية
 بقرطبة والقنطرة التي على واديها وكذلك بناء الحنايا بلجاب الماء الى قرطاجنة
 في القناة الراكبة عليها واثار شرشال بالمغرب واهرام مصر وكثير من هذه الآثار

المائة للعيان تعلم منه اختلاف الدول في القوة والضعف واعلم ان تلك
 الافعال الاقدمين انما كانت بالهند واجتماع الفعلة وكثرت الايدي عليها
 فبذلك شيدت تلك الهياكل والمصانع ولا تتوهم ما تنوهه العامة ان ذلك لعظم
 اجسام الاقدمين عن اجسامنا الى ان قال ولقد وُكِّع في ذلك النصاص (اي
 في عظم اجسام الاقدمين الذي اشار اليه) وتغالوا فيه وسطروا عن عاد وثمود
 والعالقة في ذلك اخباراً عريقة في الكذب ومن اغربها ما يحكون عن عوج بن
 عناق رجل من العالقة الذين قاتلهم بنو اسرائيل في الشام زعموا انه كان لطول
 يتناول السمك من البحر ويشويه الى الشمس الى ان قال انما مثار غلظهم في هذا
 انهم استعظموا آثار الامم ولم يعلموا حال الدول في الاجتماع والتعاون وما
 يحصل بذلك وبالهند من الآثار العظيمة فصرفوه الى قوة الاجسام واما
 ما ذكره المسعودي نقلاً عن الفلاسفة مزعماً لا مستنداً له الى ان قال ونحن نشاهد
 مساكن الاولين وابوابهم وطرقهم في ما احدثوه من البنيان والهياكل والديار
 كديار ثمود المنهوتة في الصلد من الصخر بيوتاً صغيراً وابوابها ضيقة لا تزيد في
 جودها ومساحتها على المتماهد الان وقال غيره من العرب ايضاً في ملاحظاته
 على منارة الاسكندرية التي مر ذكرها يمكن ان يكون هذا المنار بينا لرصد
 النجوم مبني على اسلوب غريب وطرز عجيب بواسطة قوة جبرية على العمال
 كما يحكم على نظائره من الاعمال وقال وواتير المواقيت الفرنسية المشهور في
 بعض مولاته وياتزم ان يعترف الانسان بان تكاليف بناء اهرام مصر لم يتكاف
 على ماوكها سوى ما كان ياكله العلة من البصل
 وما يترجح في الفكر حجة على الغاية المذكورة ايضاً قضية تحنيط الاموات
 واثن قال بعض المواقيت ان المصريين كانوا يعتقدون ان حفظ رمة الميت
 تكون سبباً في سعادتهم ونشأ من ذلك اعتقادهم بتصوير الاموات وحنيطهم على
 وجه عجيب حتى انه الى الان يوجد في مصر رم القدماء ومن العجيب انهم كانوا
 ينفرون من تلك الرمم بعد تصيرها. قال ابن خلدون وصورة هذا العمل انهم

كانوا يدهنون الجثة بالباسان ويدفنونها في الكهوف والسراديب المنخوة في
الصخور على شاطئ النيل فمات شخص ساءوا جنته للمحيطين فكانوا يخرجون
احشاء الميت ودماعه على وجهه ثم ينعقون الجسد في مواد مصطكائية بها
خاصة حفظ الجسم قرناً متعاقبة ثم يلقونها في عصائب فتسمى موميا ويدفنونها
مع تابوت مزين او صندوق على صورة الموميا واما قبور الملوك والاكابر فانها
تكون في سراديب مخصوصة منخوة في الحجر منقوشة الظاهر بنقش يدل على
مرتبة الميت وعبادته وقد يلقى في بعض هذه المقابر اصنام موضوعة بقرب الميت
وقد يُطلى في بعض الاحيان في كهف الموميات على قراطيس من ورق شجرة
اوراق الكتابة مكتوب فيها تماثيل وصور دابة على معنى قيل ان فيها نبتة مفصدة
متضمنة حياة الميت وما عملة فيها ولكن لا احد الى الان يصل الى فهمها ويوجد
في هذه المومي ايضاً صورة خنفس مصنوعة من حجر اليشب او الصوان
والرخام الاحمر وفيها ايضاً فواكه ودواب مصبرة واذا كان الميت انثى غنية
زينوها ببهايا واليسوهما شيئاً تعزل فيه مناصلها فلا يدرجونها في ثوب سادج
بل على صورة الاحياء وصندوق الميت يكون من خشب الجوز ويزينونه
داخلاً وخارجاً ويضعون على التبرخانة معنونة باسم الميت ورتبته. انتهى كلامه.
وذكر بعض الافرنج صناعة التحنيط هذه فقالوا انها كانت باخراج دماغ القحف
من المتخزين واخراج الامعاء الالفاب والكابتين من ثقب في الخاصرة ثم
يفسارها بخير النخل ويردونها الى اجوافها ويملأون الراس واجواف الامعاء
بالمر والقرفة وكل انواع الاطياب والطور ودهنون الجسد بالزيت الطرية
ثم يوضع في ماء ناثرون ٤٠ يوماً ثم يلف بلفائف مغموسة بالمر
وتدهن اللثائف من خارج بماء الصغ للوقاية من الهواء ثم يوضع في تابوت من
خشب او من حجر ويدفع لاهله الذيب يبقونه في بيوتهم او يضعونها في مدفن
ومن هذه الاجسام ما هو باق الى ايامنا هذه فان اهل الميتوفة يستخرجون هذه
الاجسام من المدفن الكائنة نواحي الاهرام المسماة اهرام ابي صير ويبيعونها

للأطباء فهي المعروفة بالمومية الأدمية (بقول مواف هذا الكتاب اني لما رجعت من القاهرة الى طرابلس الشام وطني الاصيلي في سنة ١٢٤٧ للهجرة) سنة ١٨٣١ م) مررت في طريقي على الاسكندرية واقمت فيها مدة سنة دخلت في اثنائها احد المغازن وكان مملوا من هذه المومي يجمع انواعها فكان من جملة ما رايتُه امرأة شابة موضوعة ضمن صناديق بعضها داخل بعض وقد برح من ذاكرتي ان كانت تلك الصناديق اثنين او ثلاثة وكن صندوق من تلك الصناديق كان نظير الآخر في صناعتها وما هو مرسوم عابو من النقوش وعلى غطاء الصندوق صورة تلك الامراة التي كانت ضمن الصندوق الداخلي الا ان الصندوق الخارجي كان قد اسود وتبرأ اما الصندوق الداخلي المذكور فكان كانه مصنوع لوقته نظرا لياض اخشابو وحسن ما عليها من الصورة والنقش والصفال وكانت المرأة كالثامنة واون وجهها لم يتغير ذو بياض مشوب بحمرة غير متأثر من ذبول المرض والموت وكان هذب عينيها مسبلا على اجفانها المطبقة كانطباقها للنوم وشعر راسها وحواجبها لم تتلف منه واحدة وكانت اعضاءها وما تستبين كانها عريانة لشدة اندماج العصائب عليها وانقان لفها حتى ان اظفارها وثنيات عقد اصابعها الدقيقة كانت تلوح ظاهرة ظهورا بيوتا تحت هذه اللثائف المنيمة التي خرق طرفها احد اصحابي وكان متفرجا معي فسمع لها صوت وظهر منها غبار كما لو كانت ماخوذة لوقتها من حانوت بائعها) وكما ان ما ذكره المؤرخون عن كثرة مدن مصر واسيبتها يكاد يكون من المبالغات لولا تلك الآثار الباقية فيها الى الآن كذلك اما اليها الذين هم الان نحو ما يونين من البشر فثانته يقال بانهم كانوا في الزمن السابق ٢٨ مليوناً واكن مع ذلك قد حقق بعضهم انهم لم يزيدوا اصلاً على ٦ ملايين حداً وسطاً وارضعي هذه البلاد كلها مروية بنهر النيل الذي يجري في واديها ولا يوجد بها ماء يصلح لشرب غيره والى الان حتى عرف مخرجه وقبل دخوله الى مصر يتعرض لجر ياتو صخور فتحدث نوع من الشلالات تسمى جنادل النيل وهي

ثلاثة الاول منها في بلاد دنكله والثاني في بلاد النوبة والثالث عند دخول النيل الى مصر وهو يتدي في الزيادة عند الانقلاب الصيفي ويصل الى اعلا درجة الارتفاع عند الاعتدال الخريفي فيستمر على ذلك عدة ايام ثم ياخذ في التناقص الى الانقلاب الشتوي قال بعض الجغرافيين ان علة فيضه في ذلك الوقت هي وقوع الامطار الغزيرة في الجبال المجاورة لمخارجه وقد اشار الى ذلك الايرتيم بن المعز بقوله

اما ترى الرعد بكى واشتكى والبرق قد اومض واستضحكا
فانظر الى غيم كصبغ الدجى اضحك وجه الاوض لما بكى
وانظر لما النيل في مده كانه الصندل قد مسكا

ثم ان لم تنفق زيادة هذا النهر اذرع او فاقت ٢٤ ذراعاً فان مصر تقاسي القحط واذلك يقال عن بركة قارون او بحيرة قارون وتسمى بحيرة موريس ايضاً وهي في الفيوم بالقرب من القرعة التي يقال لها خليج يوسف انها مخففة بالايادي في الزمن القديم وان مياهها حفظت بواسطة سد في طرفها واستعملت لسقي الارض المجاورة لها . ومنه استظهر بعضهم بان المصريين هم الذين اخترعوا عمل الجبرات وانهم علموا هذه الحيرة واعدوها لصرف مياه النيل الزائدة عن الزوم واطلاقها عند الحاجة اليها وهي اعظم ما يستحق مخترعه ان يستمر ذكره ويدوم فخره . وعين بعضهم من علمها بانها كان في ايام ملوك العرب اولي المائتي الذين سبق ذكرهم ولما كانت اخبار اندماء ليست بمنفقة على ما يتعلق بها . قال بعض المدققين من الافرنج انها مجمع مياه عظيمة وجده سياح هذه الازمنة بين الجبال جهة الجنوب على غربي النيل تغيرات ماربيت بك يقول الان ان الذي علمها هو الملك عامونهي الثالث من ملوك العائلة الملوكية الثانية عشرة وقد مر ذكره انتهى وهي بحيرة متسعة جداً طولها نحو ٢٠ ميلاً وعرضها نحو ٦ اميال وقد ذكرت في الجزء الاول من تاريخ نابوليون الاول المترجم من اللغة الفرنسية الى التركية بمصر ولم يذكر في اسم المواقف الاصلية

وخلاصة ما قاله فيها مترجماً انه يوجد في وسطها جزيرة صغيرة كانت اهالي مدينة ارسينوه وتدعى الآن فوة يدفنون فيها موتاهم ولهم فيها مقابر معدة لكل بقدر حاله وفي وسط الجزيرة هيكل للمعبودة لازال موجوداً الى الان وهذه الجزيرة المجهولة مدينة للاموات هي اشبه بالمدن المسكونة بالاحياء غير انه لا يمكن العبور اليها من جهة لاحاطتها بالماء وكان خازن هذه الجزيرة رجل يقال له قارون فاذا مات رجل من الكبراء شيعه اهله باحتفال عظيم بعد تحنيطه (على الوجه المقدم ذكره) الى محل مبني على شاطئ البحيرة معداً لهذا الامر ويتركونه هناك بعد ان يجعلوا فوقه اعلاناً باسمه ودراهم ياخذها قارون اجرة له فياتي قارون وينقله في فلكه الى الجزيرة ويدفنه في المحل المعين له انتهى

وبعد انحدار ماء النيل من الاراضي تراها مكتسية بالطين الذي يرسب عليها منه وهو يدماها ويفودها على تغذية النبات والزرع وكلما زاد فيض النيل زاد الخصب وفي ذلك يقول ابو الحسين المعروف بابن الوزير

ارى ابداً كثيراً من قليلٍ وبدراً في الحقيقة من هلالٍ
فلا عجب فكل خليج ماءٍ بمصر مسببٌ للخليج مالٍ
زيادة اصبعٍ في كل يومٍ زيادة اذرعٍ في حسن حالٍ

وان ذلك جرت العادة الى يومنا هذا بان يكون لكل صنفٍ من اصقاع مصر وحرارتها منادٍ بطرف صباحاً على كل بيتٍ من البيوت مفرده وبعد ان يجي بنجمة الصباح كل ذكرٍ يوجد في ذلك البيت باسمه يبشرهم اجمالاً بتدار الزيادة المحاصلة في النيل ذلك اليوم ولا يزال على هذا مدة الفيضان حتى تنتهي فيجمع منهم جوائزهُ

وحيث ان هذا الفيضان لا بد ان يتسبب عنه اختلاط الحقول والمزارع والاراضي في كل سنة كما لا يخفى كان هذا الامر بخصوصه داعياً الى تقدم المصريين في علم الهندسة وبنوعٍ اخص المساحة والزامهم ان يبذلوا جهدهم الى

ان صاروا يسمون الارض مساحةً صحيحةً ويقسّون زيادة ماء النيل ويعرفون مقدارها وكانوا تلقوا هذين العلمين من رجل يقال له ابونيس وهو هرمس الذي سبق ذكره فنظموه في سلك الالهة على ما اشرنا هناك وكما علمهم ابونيس المذكور ذينك العلمين علمهم كذلك معرفة سيرا الكواكب باستعمال الآلات الهندسية الى ان صارت الجغرافيا وعلم النجوم مقصدهم الاعظم فقسوا سنتهم الى ١٢ شهراً اقرباً لان سنتهم كانت ٢٥٤ يوماً على حساب القمر ثم جعلوها ٢٦٥ يوماً وبعض ساعات على حساب الشمس وقيل انهم كانوا يتركون هذه الساعات الى ان يجمع منها في كل ١٤٦٠ سنة سنة كاملة فيكسونها دفعة واحدة وكانت اسما شهرهم في الزمن القديم تختلف عن الاسماء المستعملة عندهم الآن فكانت على ما رواه الامام القرظي نسي توت بوني اتور سواق طوبي ما كبر فامينوت برموتي باحوت باوني انيبي اييما فلما استعملوا الكبس ابدلوهما فقالوا توت بابيه هاتور كيهك طوبي امشير برمها ت برموده بشنس باورونه اييب مسري وحيث انهم جعلوا كل شهر منها ٣٠ يوماً فجعلوا الخمسة ايام التي تبقى من السنة البسيطة او السنة من السنة الكبيسة نظير شهر مستقل وسماهوا ايام النسي ويسمون اول يوم من توت وهو راس سنتهم يوم النيروز (والظاهر انهم اخذوا ذلك عن الفرس بعد ان استولوا على مصر ومعناه باخه فارس اليوم الجدي) وهو يقع دائماً في ٣٠ من شهر آب الرومي فتى عرفت ذلك عرفت مواقع اوائل شهور القبط كلها ويقال ايضاً انهم كانوا مثل اهل فارس لا يستعملون الاسابيع من الايام في الشهر واول من استعملها هم اهالي بر الشام وما حوالى ذلك عن اليهود الذين اخذوا ذلك من الكتاب المقدس حيث ذكر في سفر الخباينة ان الله خلق السماوات والارض في ستة ايام واستراح في اليوم السابع وانما كان المصريون يستعملون لكل يوم من الشهر اسماً كما هو العمل في تواريخ الفرس ودأبوا على ذلك الى ان اضطرم القيصر بولويس اغسطوس الروماني على كبس يوم في كل اربع سنين فتترك المصريون حينئذ

استعمال اساء الايام الثمانية لاحتياجهم في يوم الكبس الى اسم مخصوص له
 واستعمال الاسابيع . قال بعض المؤلفين ان هذين العلمين (اي الجغرافيا وعلم
 النجوم) قد سببا الفساد في علوم المصريين حتى الطب ايضا

وكان هناك رجل اخراسته اوزرليس نظمه المصريون في سلك الالهة ايضا
 لكونه اخترع آلة الحراثة والاجال يقال ان المصريين هم اول من استعمل
 المحديد والبار وكان ذلك مجهولا لغيرهم واخترعوا الخبز للطعام وصنع الزجاج
 بالوان متنوعة كالون الزرد والعقيق وغيرها

وكانوا يتقنون الطب اثنا عشر جيذا بحيث ان الطبيب كان لا يتفرغ عندهم
 الا لعامة مرض واحد من الامراض وهم اول من استعمل الضادات في سنة
 ١٤٩٤ ق م غير ان تعلمهم في علم الفلك وصناعة السحر قد افسد هذه الصناعة
 فزعموا ان للاجرام السماوية دخلا في امراض البشر وكانوا يتخاطبون مع الارواح
 في تطيب المرضى كما يفعل السبيرتزميون الآن في اوربا

وكانت الحرف والصنائع تتوارث بينهم فلا يرذن لاحد في غير حرفة ابيه
 وكانوا يعرفون الفنون العظيمة قبل اجتماع العبرانيين وصيرورتهم شعبا فكانت
 ترى في مصر الاقشنة الرفيمة واولاني النقش البديعة ولهم اليد الطولى في صياغة
 الذهب والنضة وكانوا يصطنعون منها خواتم نفيسة وقلائد ثمينة يبيعون
 ويشترون بها ويحسنون عمل كل شيء ملج غير ان غيرتهم كانت قليلة ولذلك
 كان ثمنهم بطيئا ولم يبلغ عندهم اثان الاشياء الغاية

واما تجارتهم فكانت منحصرة في غلاتهم ومحصولاتهم وكان لهم اتصال مع
 الهند براطة بلاد العرب فكانوا يرسلون الى تلك النواحي ما راج عندهم من
 الحبوب والماشى والفخار والزجاج ويستبدلون بذلك منهم العطر والبهار
 والياقوت وغيرها

والظاهر انهم ارشدوا بذات الطريقة التي ارشدها الصيدين الآتي ذكرهم
 الى الانتقاد للحكم الملوكي المسي سلطنة وهي حكم الاباء على ابناءهم فكان ان لكل

عشيرة رئيساً يحكمها وحدهُ انتخبوا السائر الادالي عندهم رئيساً يكون حاكماً عليهم
 يحكم الاب وهو الملك

وكانت القوانين في التي ترشد ملوك مصر الى الاحكام اما وضعها فكان
 مختصاً بالكهنة فقط ولذلك لما قسم سينوستريس الملك اراضي مصر الى ٢٦
 اقليماً على ما سبقت الاشارة اليه في سماعه قسم هذه الاراضي ايضاً بين الملك والكهنة
 والعساكر وترك الرعية يتعيشون من اشغالهم فنشأ من ذلك قوة الكهنة حتى
 صاروا وحدهم يمارسون العلوم وزادت شوكتهم الى ان استقلوا بوضع القوانين
 على ما ذكرنا وكان من وظائفهم ايضاً مسح الاراضي وتقسيم الخراج على الناس
 اما هم فلا يدفعون شيئاً عن املاكهم وكان لكلٍ منهم كل يوم قسم من الخبث
 المقدسة ومن لحم البقر والاوز غير انه لم يسمح لهم ان يأكلوا سمكاً وكانوا يحافظون
 جداً على نظافة اجسادهم وملابسهم وكانوا يحلقون شعر اجسادهم كل ٢ ايام ولا
 يلبسون الاثواباً من كتان وكانوا يغتسلون بماء بارد مرتين في النهار ومرتين في
 الليل ايضاً وكان كبير الكهنة يأتي كل يوم الى الملك ليخبره على استعمال النضائل
 الملوكة ويأمن من صرفه عنها وكانت الرعية تشم احوال الملك بعد موته
 كسائر افراد الرعية فمن كان من الملوك ساوكة ساوكة جوراً لا يدفنون جثته
 وقد جرى ذلك لكثيرين من الفراعنة الذين حرموا انقباطهم من واجبات
 الدفن الاحتمالية في قبورهم التي كانوا يصرفون زمناً طويلاً في تزيينها داخل
 الاهرام ولذلك كان انتخب الملك سينوستريس المذكور من نخوت مصر الثلاثة
 ٢٠ قاضياً تكونت بهم محكمة لها غاية الاحترام وجمال مصاريف المحكمة عليه نفسه
 وحائهم ان لا يطيعوه اذا امرهم بشيء فيه ظلم وكانت مذكرة النضايا تجري
 بينهم بالكتابة خوفاً من ان الفصاحة تستر الحق وكان لهم صورة يسمونها تمثال
 الحقيقة متى ظهر الحق بيد انسان امسكها رئيس النضاة وامر الحق ان يلبسها
 وكان لهم احكام غريبة وعوائد عجيبة تدونت في توارخهم ودفاتر شرائعهم
 منها انه اذا احتاج انسان الى اقتراض مبلغ يجوز له ان يتترض ويرهن في

نظير دينه جثة والده المدفون فيكون قبر ابي المديون تحت يد اللائن الى وقت
استحقاق المال فاذا لم يف المديون دينه ومات حرم من دفعه في مقابر والديه
وتحرم اولاده ايضا ما لم يوفوا دين والدهم واما فيما عدا ذلك فيكون محل توفية
الدين اموال المدين فلا تساط للدين على ذات المدين وكانوا يضربون الزاني
الف عصا واما الزانية فيقطعون انفها وينهبون العسكري الذي يجين في
الحرب بعلامة ظاهرة ومن كان يمكنه تخلص مقتول من يد قاتله ولم يخلصه
عوقب بالموت والقتيل الذي يوجد بين البلاد يلزم اقرب المدن لمحل وجوده
غل جنازة عظيمة له ذات مصاريف كثيرة وكانوا في كل سنة يسألون كل
انسان عن كسبه فان ظهر لهم انه تعيش على خلاف الجائز عوقب بالموت
وكانوا يبغضون الاجانب بغضا عظيما فلا يجالسونهم ولا يتناولون معهم طعاما
حتى ولا ياكلون طعاما قطع بسكاكين الغرباء واذا مات احد من الاشراف
ترغ نساء بيته واقاربه وجوهين بالوحد ثم يقرعن صدورهن ويطنن في المدينة
صارخات باكيات ويمكننا يفعل الرجال ايضا وبعد ذلك ياتون بالجسد الى
المحنطين ثم بعد التحنيط يصير القضاء على الميت وهو انهم ياتون بالجثة الى امام
كرسي القضاة فان كان الميت من اهل الصلاح والتقوى وجاء من شهد
بذلك برز القضاء بدفنه مكرما وان كان ذميا قبيحا دفن على خلاف اللائق
ولو كان من اعظم الاشراف

وخالصة ما قيل بحجهم على وجه الاجال هو ان ملكتهم من اقدم الممالك
واقواها اسطورة وان كانت ايسر منشأ للعلوم لكنها كانت حافظة لها حتى فاقت
اهل الازمنة القديمة وبدحون بكونهم كانوا ذوي معارف عظيمة وخصال صلحية
وبر بالدينهم ولا يجربون نقض العوائد الثابتة غير ان علومهم لم تبلغ درجة كمال
لكونهم ارباب جبن وبدع ومخترعون كل ما لم تجرب به عادتهم واذا صح ما قيل
من ان الصينيين هم في الاصل نزلة من نزلات المصريين هاجروا الى الصين
وتهم تاسست تلك المملكة فتكون هذه الخصال صاحبهم الى تلك البلاد ايضا

نظراً لهما يحيى بثباتها في اخلاق اهل الصين كما يعلم ذلك مما باتي بخلاف
العبرانيين واليونانيين الذين لم يكنسبوا من انصريين الا ما كان نافعاً ومنيداً

المعارف في الصين

ان هذه المملكة من اقدم مالک الارض واعظمها لكن تاريخها من اسقط تاريخ
الدينيا واطلمها فلا يعتمد تاريخاً نظراً لما يتضمنه من الخرافات والحكايات الغربية
البعيدة عن التصديق ولذلك كان في كلام محقق المؤلفين الذين تكلموا على
هذه المملكة اختلاف من جهة تاسيسها اذ منهم من يقول ان اصل الصينيين
فرع من المصريين لان هذه المملكة لم تحدث وتصير مملكة الا في سنة ١٩٧٢ ق م
لما عبرت من اهالي مصر الذين هاجروا اليها وتزاوا بها فاصلهم يكون من
قبائل مصر من قدماء القبطنة وذهب الاكثرون الى ما هو جدير بالتصديق
اكثر من ذلك فقالوا ان تاريخها يتد من سنة ٢٢٠٠ ق م وان الذين اسسوها
هم اولاد نوح وذلك عند تفرقهم تحت تدبير باهوان الذي خلقه كون وقيل ان
موسسها هو فوهي الذي يظنونه باهوان نوح نفسه ولكن يعسر البرهان على ذلك
اما اهله فيزعمون بانهم اقدم من ذلك بكثير

ولم تُعرف عند سكانها باسم الصين الى سنة ٢٥٠ ق م اذ كان ملكها
جيتنر يدعى تسين وهو من عاتقة مشهورة عندهم اما في غير محلات كالهند
والعرب والعجم وباتي مالک اسيا فلم تُعرف الا بهذا الاسم او ما يشبهه كجن او تشن
اوسن اوسينا وهلم جراً وربما اخذوا هذا الاسم من نبوة اشعيا ص ١٢:٤٩
حيث يذكر هنا ارض سينيم واما اهله فكانوا يسمونها باسماء كثيرة اشهرها
تيان هيا اي تحت السماء ومعناها الارض اوسزهاالي ومعناها الاربعة مجوراو
تشن كوه جن ومعناها المملكة المتوسطة

وهم بحسبونها افضل قسم في الدنيا وهي في الحقيقة اعظم قسم لان مساحتها تبلغ نحو ٧ ملايين ميل مربع وعدد سكانها يبلغ نحو ٢٦٧ مليوناً من النفوس وذلك يساوي ثلث البشرية منهم كل شهر نحو مليون واحد قال بعض كتابة الافرنج لو ان اهل الصين مروا امامنا صفوفًا خمسة خمسة نهارًا وليلاً بدون انقطاع وهم يمشون حسب المشي الاعتيادي لاحتاجوا الى ٧ سنين لتكميل هذا المرور

وحكومة هذه البلاد التي لها الحد الان أكثر من ٤ آلاف سنة على حاله واحدة لم تتغير وهي دائماً مملكة حاكمة واحد بالاجماع وقد عدّ المؤرخون دولها الى هذا اليوم فكانت ٢٢ دولة لكن لا يوجد بين اخبار ملوكها القدماء شيء يستحق الذكر الا الى زمن دولة تشين اوهي تشاو التي استولت على السلطنة من سنة ١١٠٠ ق م الى سنة ٢٤٩ ق م غير ان بعض المؤرخين يقول نقلاً عن تواريخ الصينيين بان فوهي مؤسس مملكتهم في سنة ٢٦٥٠ ق م عالم الاهالي تربية المواشي والكتابة وقسم السنة وقرر الزواج وحيث كانوا يستعملون في كتابتهم الحروف الهيروغليفية فكانوا يرسمون راس انسان مقروناً بجثة حيّة للدلالة على رئيس امتهم فوهي المذكور لما كان عابو من الحكمة والدراسة في سياسة المملكة وكانوا يرسمون راس ثور مقروناً بجثة انسان للدلالة على اول من ادخل صناعة الخراطة والزراعة الى بلادهم ووضع النير على اعناق الثيران ولم تبرح ملوك الصين يتقلد مملكتهم فوهي المشار اليه الى يومنا هذا ثم في زمن تملك دولة تشين المذكورة ظهر اول فلاسفتهم المعتبرين المسمى كون فونس او كون فوشو وهو معروف عند البعض باسم كونفوسوس وفي بعض التراجم العربية كنفزة وكانت ولادته في السنة التي ولد فيها قورش ملك مادي وفارس فيكون معاصراً لعزرا الكاهن الاسرائيلي وهيرودوتوس المؤرخ اليوناني وكانت وفاته سنة ٤٧٩ ق م فيكون عاش ٧٠ سنة وكتب جملة تأليف في الدين والآداب والسياسة لم تنزل موجودة الى هذا اليوم ويعتبرها الصينيون اعتباراً عظيماً كاساس ديانتهم

وآدابهم وفي ما ذكرناه عنها في البحث الرابع من المقالة الثانية من كتابنا زبدة
 الصنائف في اصول المعارف كناية عن تلخيص ما تضمنته هنا غير انه لولا هذه
 الكتب لما علم عند المتأخرين شيء من تاريخ الصين القديم وهذا الفيلاسوف هو
 اول من انعكف على اصلاح بلاده وشرائها واصطلاحاتها وانى فيها اسباب
 التجارة والزراعة وهو هيرودوتوس المذكور بحسبان عند العلماء ابوي التاريخ
 والاكثرون بفضالونه على الثاني لانه ما عدا كتاباته التاريخية ترك لبلاده تعاليم
 ادبية انت بفوائد كثيرة من وقت مات الى الآن ثم في مدة تملك الدولة الثانية
 وهي دولة تسن التي خلفت الدولة المتقدم ذكرها من سنة ٢٤٩ ق م الى سنة ٢٠٥
 ق م شرع في بناء سور الصين المشهور في سنة ٢٢٠ ق م بامر الملك سيهوانكي
 وقيل سين شاي وفي بعض المؤلفات لم يذكر اسمه بل مذكور بانه اول ملك
 من ملوك تسين وانه اكمل في ١٠ اسنين وبوجد في ذلك اختلافات بين المؤرخين
 انما المعول عليه هو ما ذكرناه هنا والعرب تسمي هذا السور بالسد الاكبر اوسد
 الاسكندر وهو ما يتعجب منه ومن الناس من يعده من عجائب الدنيا السبع على
 ما قد ذكرناه في الكلام على الكلدانيين وقد ذكرنا ان طول هذا السور مع
 تعاريفه نحو ١٥٠٠ ميل وارتفاعه ما بين ٢٠ - ٢٥ قدماً وسبكه عند اسفله
 نحو ٢٥ قدماً وعند اعلاه نحو ٢٠ قدماً وفي راس هذا السور درابزون على
 دائرته عاوه ٥ اقدام وفي مسافة كل ٢٠٠ ذراع برج عاوه ٤٠ قدماً وسبكه مثل
 عاوه وهو مبني من الحجارة المنخوة من الضوان ومن الفرميد المشوي وسطحه مصفح
 بالفرميد الكبير ثم داخل السور الاول سور ثانٍ مثله غير ان طوله ٤٠٠ ميل
 وقد زيد على الاول سور من الاخشاب طوله ٥٠٠ ميل لكنه ليس بقديم وهي
 برسم على المخارط الكبيرة العظيمة ويمر على الجبال المستوعرة ويحترق الاودية
 العميقة ويمتد من اقليم شنسي الى البحر الاصفر والسبب الذي اجأ هذا الملك الى
 بنائه هو ليرد عن بلاده مهاجات التتار انما اراد الله عكس ذلك لان الملوك
 الذين جاسوا على كرسي الحكومة الصينية منذ ٢٥٠ سنة الى الان هم من ذات

هؤلاء القنصلين الذين اراد منهم وقال بعض المؤرخين ان هذا السور لم يبق على
 بنائه القديم بل بني وهدم عدة مرات على حسب اقتضاء سياسة تلك المملكة
 فاذا الموجود الآن غير قديم فلا عجب من بنائه الى الان ويجكى ايضا عن هذا
 الملك الذي بناه بانه عند فراغه من بنائه ازداد تعجبا بنفسه وافتخر على من
 تقدمه من الملوك والسلاطين واخذ يعامل الناس بالقساوة والجبروت واذ
 كان يريد اطفاء خبر الاولين ومن سبقه من الملوك ويظهر للناشرين بانه هو
 اول سلاطين الصين لم ير سبيلا الى ذلك الا اعلام المؤرخين وانلاف قبود
 المملكة فامر احد الايام بدفن ٤٠٠ رجل من العلماء وهم في قيد الحياة ثم امر ايضا
 بحرق كل الكتب والتواريخ الموجودة في خزائن المملكة وكذلك بعد انتهاء هذه
 الدولة قامت دولة اخرى تعرف بدولة هان وذلك من سنة ٢٠١ ق م الى سنة
 ٢٦٤ ب م وهي التي من ملوكها الامبراطور قاني والبعض يقولون انه كوانك
 الذي كان على غاية من الخفة والطيش وكان يكره الموت ويود الحياة فاخذ
 يبحث ويفتش على طريقة تدفع عنه شرب كأس الموت وبعد ان صرف زمانا
 طويلا في الامتحانات المحالية كاستعمال المعاجين المقوية والمشروبات المنعشة
 ادركته المنية فخاب سعيه ثم جلس بعده ملك اخر وكان مغرما بطالعة التواريخ
 والاخبار ولذلك اهل مصالح المملكة وانعكف على الدرس والقراءة فبغضه
 وزيره وهج الشعب لقتله اما هو فبعد ان تحقق ذلك برأى العين عاد الى مكتبته
 واضرم بها النار فاحترقت وكان عددها نحو ٤٠ الف مجلد ثم هجم عليه الشعب
 وقتلوه وقال بعض المؤلفين ان في سنة ٥٢ ب م احدث قوة ملك الصين
 (وهو ولا بد من ملوك هذه الدولة) مذهبا مخصوصا يسمى دين قوة فاعتقد
 الصينيون بانه اله وبرونه منجي الناس من الذنوب وفي سنة ٦١٧ ب م جلس
 ملك آخر يدعى سيكوبن وبنى لنفسه قصرا عظيما من البهج القصور المزخرفة
 وانفته اتقانا خارجا عن حد العادة وطلب حيطانه بباء الذهب وفرشه بانواع
 المفروشات الثمينة والامتعة الفاخرة فلما مات دخل ابنة الى هذا القصر فاندش

من فرط حسنه وجماله وقال في نفسوان وجود هذا القصر ما يفسد عقول
الملوك ويزيدهم في التكبر والتخفة ومن ثم امر بحرقه فأحرق وفي سنة ١٠٠٠ ابيهم
جاس على كرسي الملائكة رجل شهير بالمعارف والآداب يدعى شوانكتسون
وكان على جانب عظيم من الزهد والوداعة وكال الاستقامة وكان ذا حكمة
وفراسته مطبوعاً على مكارم الاخلاق حريصاً وساهراً على جلب الراحة للبلاد
والعباد فاحبه رعاباه ومن جملة مزاياه الغربية انه كان ينام على بساط الارض
بدون فراش ويربط في عنقه جرساً بحيث اذا تحول من جهة الى جهة وهي
مستغرق في نومه يستيقظ بصوت الجرس معتبراً ذلك الوقت وقتاً مناسباً
لقيامه من النوم ثم في سنة ١٢١٠ ابيهم زحف جنكيز ملك التتار والمغول بجيوشه
واستولى على جانب عظيم من هذه الملائكة ولما اكل ابنة قوبلاي خان افتتاحها
اسس فيها مدينة باكين واستمرت البلاد تحت تسلط ذريته الى سنة ١٢٦٨ ابيهم
حين استخلصتها منهم العائلة المعروفة بدولة مينك التي في ايامها ابتداء دخول
الاجانب الى بلاد الصين واول من دخل اليها كان البورتغاليون وذلك في
سنة ١٥١٦ ابيهم وهم الذين فتحوا الباب لدخول باقي الدول الافرنجية ثم تبهم
الفلمنكيون سنة ١٦٢٤ ابيهم ثم الانكليز في ذلك القرن ذاته ثم المسكوب ثم
الفرنساويون والاميركانيون ولكنهم لم ياخذوا مركزاً ثابتاً في تلك البلاد نظراً
لبغض الاهالي مخالطة الاجانب ومن سلاطين هذه الدولة الامبراطور شنكتنا
الذي جالس على سرير الملك سنة ١٥٢٢ ابيهم وفي ايامه ظهر معدن من الحجارة
الكرمية في تلك البلاد واخذ الاهالي في حفره وتقطيعه فلما جاء احد الناس ذات
يوم الى هذا الملك ببعض قطع منه التفت الى من حوله بعد ان اخذها من يده
وعاينها وصاح باعلى صوته قائلاً لم اتظنون ايها الناس ان هذه الحجارة كريمة
قالوا نعم انها كريمة ونفيسة قال اذا كان الامر كما تزعمون فلا بد ان يكون لها نتائج
مفيدة فاخبروني اذا ما هي فوائدها تستطيع ان تشيع جائعاً او تكسو عرياناً ثم
امر بتعطيل ذلك المعدن وردمه وان يشغل اولئك الناس في عمل اخر اهم

وانفع ثم في سنة ١٦٤٥ م طردت هذه الدولة قبيلة من التتار المانشو المعروفة بدولة تانسينك وهي الباقية الى ايامنا هذه ومن ملوكها الامبراطور كنجي الذي في ايامه دخلت الديانة النصرانية الى البلاد بواسطة الرهبان اليسوعيين واذ كان عميل اليها اصدر امراً ملكياً في سنة ١٦٩٢ يمنع به عليها جنة امتيازات ثم قرب اليه احد الرهبان المذكورين وجملة مستشاراته فكان نفوذه عظيماً في البلاد واجتهد اليسوعيون في تهذيب القوم وتعاليمهم ونجحوا نجاحاً عظيماً وهم الذين افادوا العالم معرفة احوال الصين الداخلية اذ كانت قبل ذلك مجهولة لكن لما توفي هذا الملك في سنة ١٧٢٢ وتولى مكانه ابنه بون شينك مقت اليسوعيين المذكورين ولم يعاملهم معاملة ابيه وزاد على ذلك ان نفاهم من العاصمة اولاً الى كتون ثم الى مكاو وفقدت كل انعامهم وكان اول مشروع سنة وكلاء هذا الملك عند ما تسلم زمام الملك قاصراً هو منع الخصبان المتولجين بحراسة الحرم المملوكي عن الارتقاء والتوصل الى اية وظيفة كانت من وظائف البلاد مع انهم كانوا يرتفون قبل ذلك الى اعلى المناصب ونقشوا هذه السنة على الواح من حديد وزن كل منها نحو ٤٠٠ اقة فحصل من ذلك الوقت السلام والراحة في كل انحاء السلطنة غير انه منذ تولى الملكة تاو كوانك حفيده في سنة ١٨٢٠ الى ان تولى الملك الحامي تشي سيانك ومعناه المسعد قامت الحروب على ساق وقدم بين ملوك هذه البلاد والدول الاخرى وخاصة الانكليز بسبب حجب تجارة افقيون الى ان انتهت بهروب سلفه هيان فونك ووفاته بعد ذلك بسنة ومن ثم تمكنت المحبة بين هذا الامبراطور الحامي وسائر الدول وجعلوا بينهم روابط ومعاملات باقامة السفراء والنواب بين الطرفين ولذلك ترى الآن سفراء الممالك الاوربية وكلاءها منتشرين في اكثر المدن الصينية ولا سيما في الاساكن البحرية ولم يبق مانع لجولان رعاياهم في كل اقطار الساطنة وتخصصت مدن عديدة لتكون موانئها مفتوحة لتجارهم وان لا يصبراد في تعرض للديانة المسيحية ولا لبناء الكنائس والبيوت وغيرها وكذلك بطلت العادة القديمة التي

كان يحترمها الصينيون جداً وهي قتل من اراد الخروج من اهلها الى البلاد الى بلاد الاجانب او على رواية اخرى عدم استطاعة احد منهم ان يخرج من بلاده بغير اذن من الحكم على مدة معينة فان تجاوزها لا يعود يقبل في البلاد وطناً بل يحسب غربياً اجنبياً وصارت رسالهم الان تتناظر الى بلاد اوربا وغيرها ومنذ ١٠ سنين ذهب البعض منهم الى بلاد اميركا قاصدين اخراج الذهب من معادن كاليفورنيا قال بعض الكتاب انه يوجد الآن منهم نحو ١٥٠ ألفاً هناك يفلحون الارض ويزرعون الشاي وبربون دود القز ويسناجرون في غير ذلك من الاشغال ايضاً

اما ديانة اهل الصين فهي تشعب الى عدة فروع كلها وثنية كما لا يخفى لانهم وان كانوا عموماً يعتقدون بوجود اله غير منظور فهم يتخذون الاوثان ويتقربون بالذبايح للكواكب السماوية ويوجد عندهم من الاديان القديمة ايضاً دين السحرة الذين يعبدون الشياطين ويستعملون السحر والصينيون بالاجال يشبهون قدماء المصريين وغيرهم من عبدة الاوثان بكوشهم يولعون البعض من كبار فلاسفتهم ومشاهير علمائهم فان العلماء الذين يفتخرون بهم كبوداس (وهو بوذه رئيس الهنم) وجينوسوفينس وكونفوسيوس وقو (الذين تقدم ذكرها) واتلاس هم معبودون عندهم بمنزلة الهة وهنا يقول مواف هذا الكتاب ان اصحاب هذه الاسماء وامثالهم هم مذكورون في البحث الرابع من المقالة الثانية من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف عند الكلام على اديان اهل الصين وانما حيث كان لا يخلو الامر من وجود الاختلاف في صيغة بعض الاسماء سواء كانت هذه او غيرها في الكتب التي نقلنا عنها عبارات هذا الكتاب وغيرها وذلك اما من تصحيف اقلام الكتبة او من المترجمين الذين يتصرفون كما شاءوا في ما يقوم مقام الاحرف الغربية عن اللغة التي يترجمون اليها او في الاصطلاحات المخصوصة في الاصل المنقول عنه للاسماء الاعلام فاما ان يجدفوها واما ان يقولها بحسب ما ترشد اليه يوفظنتهم كما انه يوجد ايضاً خلاف ربما كان يعتمد به في تعيين سني

تاريخ بعض الحوادث فقد يعثر في كتبنا هذه على شيء من هذين النوعين
 لانزامنا غالباً الاصل المنقول عنه عند ذكر ما يلزم تكرار الكلام عليه في بعض
 المواضع اذ لا يمكننا البحث عن حقيقة الاصل في الاسماء لعدم معرفتنا اللغات
 الاجنبية ولا عن حقيقة سني التاريخ اذ يتشكى كثيرون من اعظم المؤلفين من
 صعوبة ادراكها بالتام ثم قد كان يلزمنا هنا ايضاً ان نرجع الى ما كنا بصدده
 من الكلام على اديان اهل الصين التي اعظمها الديانة البوذية نسبة الى رئيسها
 بوذاس الذي تقدم ذكره ويسمى كوتاما بوذه المولود في سنة ٦٢٤ ق م لولم
 تكن تفاصيل هذه الديانة وغيرها من الاديان الشائعة هناك مذكورة في البحث
 الذي تقدم ذكره من كتاب زبدة الصحائف في اصول المعارف مع باقي فروع
 الديانات الوثنية الحاضرة ولذلك نعدل عنها الى ما لا باس من الوقوف عليه
 من تاثير مناداة دعاة الديانة المسيحية هناك

لا يخفى بانها منذ القديم كان ممنوعاً على الاطلاق دخول اي اجنبي كان
 الى هذه البلاد وكانت حياة كل من دخل اليها منهم تحت خطر شديد واشدة
 مما حفظه ملوكها واهاليها على ذلك بنوا السور العظيم الذي سبقت تفاصيله في ما
 مرّ وذلك قبل التاريخ المسيحي بنحو ٢ قرون لكن كما انه لم يمنع هذا السور مهاجرة
 التتار واستيلائهم على كرسي الساطنة كذلك لم تمنع ايضاً تلك الصرامة
 والتشديدات على الاجانب من دخول بعض السياح خفية الى بعض اقسام
 هذه المملكة بل ان دعاة الدين المسيحي ايضاً كانوا يبشرون هناك بالديانة
 المسيحية في القرن الاول للميلاد وحسبك انه في سنة ٦٨٥ م عثر بعض الاهالي
 بالقرب من مدينة سنغفوه وهي بعد باكين عاصمة المملكة في الاتساع والحسن
 على لوح من المرمر تحت الارض مكتوب عليه بالخط الصيني كلمات سرانية
 فوقها صايب فاجتهد العلماء في البحث عن معرفة هذه الكلمات فوجدوها
 مشتتة على ٦٢ علامة منقوشة بالحروف الصينية فتاملوها فاذا هي عبارة عن
 رسالة تتضمن اصول دين النصرانية وعدة مسائل تتعلق بقوانين القسوس واسماء

الملوك الذين كانوا سبباً في نشر هذه الديانة التي اظهرها في تلك الجهة دعاءة من
 قسوس النساطرة سنة ٦٢٣ م وكانوا قد قصدوا هذه المملكة من بلاد العمم والشام
 وان المحقق بانة كان لهؤلاء الرعاة في بلاد الصين عدة كنائس كما هو محقق ايضاً
 بانة في سنة ٥٠٠ وقيل سنة ٥٢٢ م نقل راهبان من الرهبان اللاتينيين الذين
 كانوا موجودين وقتئذٍ هناك دود الفز الى القسطنطينية وكانا قد خباة في
 عكا زيتها حذراً من شريعة الصين لانها كانت تمنع اخراج مثل هذا الصنف
 من البلاد ثم من القسطنطينية نقل الى غيرها من بلاد اوربا واسيا واميركا وقال
 بعض المؤلفين في كلامه على صرامة هذه البلاد انه لم يكن هناك الا مينا واحدة
 مفتوحة للافرنج تسمى كتون ومع ذلك كانوا لا يدخلونها الا بشروط صعبة ولا
 يعرف ذلك الا قسوس الافرنج في هذه البلاد التي كانوا ينشرون الدين المسيحي
 فيها لكنهم طردوا منها اخيراً فلم يبق منهم الا القليل بوظائف معلمين للعلوم
 تحت حاية الدولة الصينية والظاهر انه اراد بذلك ما مر عليك ذكره من
 تقدم هذه الطائفة في ايام الامبراطور ككهي سنة ٦٩٢ م ونفيهم في ايام ابيو يون
 شيك في سنة ١٧٢٢ م ثم في بعض النشرات المطبوعة في اثناء تاليف هذا
 الكتاب ذكر ان في سنة ١٨٤٨ م قام رجل يقال له تي بن اون قيل انه عرف
 الديانة المسيحية من معايشة بعض المبشرين وادعى بان له نوعاً من الالهية وهج
 حركة عجيبة غريبة في تلك المملكة واخذ يتنقل من مدينة الى اخرى ومن قرية
 الى غيرها ويجرب اصحابه بعجبة لعاقبة لعبادة الاصنام ويظهر لهم فضل
 الديانة المسيحية فانضم اليه عدد عظيم واشهروا ديانتهم التي هي ان الله الحي
 الحق في هو موضوع عبادتهم وعبودهم واليه يلتجئون في الضيق ومنه وحده
 يطلبون المعونة ويعلمون الذين يتعازون اليهم حفظ السبب بكل تدقيق واتخاذ
 الوصايا العشرة لايانهم والتوبة عن الخطايا والايان بالمسح ومنع الاقيون
 والدخان مطلقاً الا انهم لم يقتصروا على هذه القواعد بل مزجوها ببعض قواعد
 وثنية فلما سمع الملك باخبارهم غضب جداً وحبس كثيرين منهم الى ان مات

البعض في الحبوس ومن جرى ذلك هاج الذين لم يفعلوا في يد الملك تحت
رياسة تي بن اون المذكور وضربوا الدولة واتصروا عليها وجعلوا يتقدمون من
بلد الى اخرى فكل بلاد اطاعتهم امنوها وضوا رجالها اليهم واكتفوا بكسر
اصنامها والآقتلوا رجالها ونساءها واولادها بدون شفقة وكسروا الاصنام
وطرحوها في الاسواق وهكذا تملكوا على اكثر البلاد وشيعوا كتابات كثيرة ضد
الحكومة حتى جعلوا الاهالي يكرهونها للغاية وفي نشرة اخرى مطبوعة في سنة
١٨٦٩ ذكر بان الصينيين قاموا على الاكايروس الروماني في ابالة سزخان
وقتلوا منهم ٣٠ نفرًا الكون الحكم الصيني اصدر امره بتجميع الاملاك التي كانت
للرهبان اليسوعيين المقدم ذكرهم وخسروها عند ما طردوا من البلاد بامر
الملك منذ ٢٠٠ سنة لانه لما تمت شروط المصالحة بين الملكين الصينية
والفرنساوية (وذلك في اثناء الحروب التي ذكرنا بانها كانت قائمة ساق على
قدم بين هذه الدولة الصينية ودول اوربا من سنة ١٨٢٠ م الى ايام الملك
الحالي) وعد ملك الصين اليسوعيين بتجميع املاكهم على شرط ان يبرهنوا
حقهم وياتوا بصكوكهم فارسلوا حالاً الى رومية واستحضروا رزماً من الصكوك
القديمة التي اثبتت حقهم باملاك عظيمة في اكثر مدن الصين وامتد هذا الامر
الى كل اقطار المملكة واخيراً اشاعت الجرائد ايضاً بان المبشرين بالانجيل
الآن يتواردون من كل الجمعيات الى هذه البلاد بكل همة ونشاط ويفتحون
مدارس ومطابع ويبنون كنائس وتيسر لهم الدخول الى كل اقطار المملكة بعد
ان كان لا يؤذن لهم ان يسكنوا الا في بعض المدن على شط البحر وزيادة على
ذلك اصدرت الحكومة من تلقاء ذاتها او امرتها عن مقاومتهم واضطهاد
تلاميذهم وتمنع ايضاً تصليح او ترميم الهياكل الوثنية التي خربت في المملكة الا
ما يختص بالفيلسوف كُن فوشو وفي احدى المقاطعات منعت الحكومة دوران
الاصنام جهراً بالاحتفال حسب العادة القديمة وقدمت النصيحة للاهالي
بتقابل مصاريفهم على الذبايح والاورقان

اما ما قيل في حكم هذه البلاد فهو على ما رواه بعضهم كان قبل تملك
 الملوك سياسة جمهورية لان كل ابي عائلة كان يجب ان يطاع بكل تدقيق لكونه
 كان حاكما مطلقا على عائلته وله الحق بان يقاص باي قصاص شاءه ما
 علا الموت ودام الحال على هذا المنوال الى ان تملك اول ملوكهم سنة ٢٢٠٧ ق م
 (وهو التملك الاول لعائلة ايتساء) ومن ثم صارت الاحكام بين الحكم الملكي
 المطلق والتقييد حيث صار لهم شرائع وقوانين مكتوبة وان يكن الملك له استنطاعة
 ان يغير شيئا منها غير انه لا يتجاسر في الغالب على خرق العوائد القديمة ويتحاشى
 نقض ما كان منها اصليا جرت عليه الاحكام زمانا طويلا وانما يعزل ويولي كما
 يشاء ويعين الخليفة بعده على الملكة وقال اخرون ان الملك الحالي اصالة من
 التتار وله السلطان المطلق على رعاياه وعلى املاكهم حتى لو اراد قتل احدهم منهم
 ظله او سلب امواله او عمل شيء ردي بدون حق لا يوجد شريعة ولا قانون
 يمنع عن ذلك وشعبه يسجدون له ويلقبونه بحاكم الانفس على الارض وابن السماء
 وحرسه السلطاني يبلغ ٤ الفاً وعند مقابله او وصول امرته الى رعاياه يخرجون
 جميعا سجودا له ماسين الارض ٩ مرات بجباههم وتاج الملك عندهم يوخذ
 بالارث فرما تولى تخت الملك ولد صغير يكون تحت تدبير الاوصياء الى ان
 يبلغ

وهذه الملكة المملوكة من السكان فيها اكثر من ٤ الاف مدينة محصنة على
 شطوطها البحرية باكثر من ٤٤٠ قلعة وقرى وقصبات لا تحصى ومدنها خاصة
 بالناس فان مدينة باكين قصبة الملكة يوجد بها نحو مائتين من النفوس وهي
 على شكل مربع مستطيل يحيطها سور ارتفاعه نحو ١٠ قدم وعرضه ٣٠ قدما
 بحيث تدور فوقه الحراس وهم راكبون خيولهم وفي جوانب هذا السور ١٢ بابا
 نعلوها ابراج لاقامة الحراس والمحافظة وتنقسم هذه المدينة الى قسمين جنوبي
 وشمالى فالجنوبي فيه اكثر مساكن العامة واما الشمالى ففيه سراية الملك وبساتينها
 وجنائنها التي هي في غاية البهجة والظرف وفي هذا القسم ايضا كثير من الجيبرات

المصنعة والزهور البهية والأشجار المختلفة وخالصة الامران هذه المدينة بالاجال هي في غاية البهجة وحسن النظام وتحتوي على كثير من النصور الملوكية والمدارس والقشلات والهاكل المرخرفة والابنية الفاخرة ويايها مدينة صوشو واهلها مليون ونصف وكتون واهلها مليون واحد وناكين التي كانت قصبة المملكة قبل بكين المذكورة واهلها نحو نصف مليون وفيها الهيكل المشهور الذي تكلمنا عليه بحجة هياكل الصين في البحث الرابع من المقالة الثانية من كتاب زبدة الصحائف في اصول المعارف. قال بعض المؤلفين ان اطرف الاماكن واشرفها عندم ثلاث مدن وهي صوشو وكتون ولايوشو ويقولون بان السعيد منهم هو من ولد في صوشو وسكن في كتون ومات في لايشو لانهم يزعمون بان في الاولى يوجد اطرف البشر وفي الثانية اغنى البشر وفي الثالثة احسن النوايب

ولا عجب في كون مدنهم هذه التي ذكرناها خاصة بهذا المقدار من النفوس لانهم لا يطلبون محلاً واسعاً للسكن بل يبنون بيوتهم من الخشب وتكون غالباً طبقة واحدة منقسمة الى عدة مساكن صغيرة وربما وجد اولاد وابوهم وخدمهم وابو خدمهم الى ثلاثة اجيال يسكنون في بيت واحد ويوجد قسم عظيم نحو ١٠٠ الف نفس يسكنون في القوارب في محل يقال له قرية القوارب حيث يوجد منها نحو ١٤٠ الفاً مرتبة في النهر صفوفاً متحاذاة وبين كل صفين شبه سوق عظيمة فكانها مدينة كبيرة سابحة على وجه الماء وشريعة المملكة لا تسمح لسكانها بالخروج للسكنى في البر وكل قارب يحوي على عائلة مشتملة على جدود واولاد واولاد اولاد كما ذكرنا

والغالب في اخلاق اهالي هذه البلاد الغش والخداع لكن يضرب بهم المثل في اكرام الوالدين وبروي عنهم احاديث كثيرة في ذلك منها ان ولداً صغيراً كان ابواه فقيرين وبيتهم صغيراً ووسخاً في الغابة حتى كثر فيه البرغش جداً فلما عيى اذى البرغش عن والديه خلع كل ثيابه ونام بلا غطاء لكي يحوم عليه البرغش ويلهيه عن والديه اما الوالد بن فليس عندهم من الخنق والشفقة

على اولادهم ما يتبادل ذلك لانه اذا كان احد الوالدين له عدة اولاد لا بقدر ان يقوم بمعايشهم يجوز ان يلقبهم في النهر ليتخلص منهم ولا يعارضه احد
واما طرق الزواج وشرائعهم عندهم التي منها سوانجية زواج كل الاخوة
بامراة واحدة تقوم بحق الزوجية لهم جميعا مهما كان عددهم فهي منفصلة في
البحث الرابع من المقالة الثانية من كتاب زبدة الصحائف في اصول المعارف
وهم على ما يوصفون قصار القامة قليلاً صفر الالوان مختلفوا الاشكال بحسب
اقابهم ومع ذلك فان ضخم الجسم عندهم من احسن الظرف واكابرهم بربون
اظافر ابادهم حتي تطول كثيراً ومتى طالت يعملون لها سنادات لكي لا تنكسر
ويستظرفون صفر ارجل النساء واذلك يعملون قوالب من حديد يضعون
فيها ارجل البنات في صغرهن حتى متى كبرن تكون ارجلهم صغيرة كارجل
المعزى فلا يقدرن على المشي كثيراً ولا على العمل ومن ثم كان ذلك محصوراً
في بنات الاكابر الذين يخصصون بنتاً من كل عائلة ليكسبوا هذا الحسن
الغريب ومن اعظم المعاسن عندهم صغر العينين وضخامة الشفتين ومن عوائدهم
ان يحلقوا شعر رؤوسهم ويتركوا منه خصلة في اعلى الراس حتى تطول فيجدونها
ويرخونها على ظهرهم

واكثرهم يلبسون اقصة طويلاً شبيهة بالمرابيل ويتنطقون باحزمة
حريرية وينقلون سكاكين او خنجر في احزمتهم ومن عاداتهم ان لا يسبح لاحد
منهم ان يلبس اللون الاصفر لان هذا اللون مختص بالمائلة الملوكية واما بقية
الالوان فيلبسون ما شاموا منها

ولا ياتفون من اكل حشرات الارض كالفار والجرذان بل يبيعون الكلاب
الفاطسة جهراً في الاسواق وفي ما ذكرناه من ولائهم ومادتهم في البحث الرابع
من المقالة الثانية من كتاب زبدة الصحائف في اصول المعارف ما هو كاف في
هذا الباب

اما لغتهم فهي من اقدم اللغات ولما تغيرت عن حالتها القديمة كما يحدث

في أكثر اللغات قال بعض الكتبة من المسيحيين ان دعاة الانجيل وجدوا صعوبات كلية عند ما ارادوا ان يشرحوا للاهالي حقائق الديانة المسيحية في هذه اللغة لانه من حيث لا توجد عندهم افكار صحيحة في قلوبهم من جهة الدين فكذلك لا توجد كلمات موافقة للتعبير عنها في لغتهم

وكتابتهم هي من اعلى الى اسفل ويستعملون عوض الحروف علامات واشارات منها اصلية ومنها فرعية وقد اُحصي عدد هذه العلامات الدالة على كلمات لغتهم فكانت نحو ٢٥ ألفا اما اذا حسبت العلامات القديمة التي هي الان مهلة عندهم الا نادراً فيكون عددها ٤٤٤٤٩ علامة ولذلك يعسر جداً علم القراءة والكتابة عندهم وقال بعض المؤلفين ان هذه العلامات والاشارات يبلغ عددها ٨٠ ألفاً وكل علامة تشير الى كلمة او الى جملة كاملة والارج منها الان ١٠ الاف علامة منقسمة الى ١٨ فرعاً وكل قسم يتكلم بفرع دون الاخر وفي الازمنة التي كانت فيها اوربا بربرية وعامة سكانها يلبسون الجلود او عراة كانت بلاد الصين بالنسبة اليها متمدنة وتماز من القديم بصنعة الفخفوري وقد تحقق الان انه ما عدا هذا الفخار الظريف الذي في كل العالم لم يزل يسي بالصيني لمحل اسنباطو ينسب اليها اختراع القبلة نامة اي بيت الابرّة المغناطيسية المعروفة بالحك وصناعة الطبع وعمل الباروت وزاد اخرون صناعة الزجاج وذلك قبل التاريخ المسيحي ولكن بقيت مخترعاتهم هذه ناقصة للغاية لانهم وصلوا الى درجة معاومة ووقفوا هناك وحسبك ان طريقة الطباعة عندهم هي بخفر الكتابة التي يريدون طبعتها في الواح من الخشب كل لوح على قياس جرم الكتاب الذي يخفرونه طولاً وعرضاً فيكون عدد الالواح اللازمة لطبع الكتاب كعدد صحائفه ومع هذا قد كثرت عندهم الكتب ورخصت وصار اكثر الناس يقدر على اقتنائها لكن اكثرها قصص واشعار وتواريخ قلما يوثق بها

وهم يحسنون صناعة النفوش والنصاوير ويصنعون ورق الكتابة او

الشرطاس من قشر شجر التوت ومن شرانق الحربر والنطن والقنب والتبن ولم
اليد الطولى في بعض الصنائع ولا سيما الحفر في العاج ويصطنعون من الصيني
الذي مر ذكره تماثيل لاهتهم في معامل مخصوصة ومن صناعاتهم ايضا اقمشة
الحربر والنطن والكتان والجوخ والبسط

ولا يجناجون الى شيء من محصولات البلاد الاجنبية لان بلادهم واسعة
حسبا ذكرنا في ما مر وهي مخصصة جدا وكونهم اصحاب اجتهاد ونشاط بمكثهم
ان يحصلوا فيها كل ما يجناجون اليه وكل اراضيهم تقريبا هي عامرة بالفلاحة
والزراعة حتى ان الجبال العالية صارت سهولا معتبرة مصلحة باهتمام عظيم وقد
بنوا حولها حيطانا عظاما لحفظ ترابها ومن عادة ملكهم انه بعد ان يخرج الى
المناج كل سنة ليمسجد ليوذه الهو ياتون اليه بشورين مزينين فيخلع عنه ابيسة
الملوكي ويحرق عايمها في الارض بعض انلام تشريفا لحرفة الزراعة وكثرة المياه
عندهم اصطنعوا طلمبات يستخدونها عند الحاجة لرش الارض بالماء كالمطر
وتجارهم متسعة جدا حتى انه يوجد في بعض مدينهم احيانا الوف
من المراكب التجارية من مالك مختلفة ترى للناظر كغابات ملتفة ساجحة على
مئن المياه ومن آثارهم ونشاطهم ايضا ترعة عظيمة حفرها في بلادهم لكي
بواسطتها مع الانهر التي تتصل بها تجري الزوارق في البلاد من كتون الى
باكين طولها نحو ٦٥٠ ميلا لكنها لم تصنع دفعة واحدة بل حفر بعضها في الجبل
السابع وبعضها في الجبل الثالث عشر بعد المسح وفي البلاد ترع اخرى غير
هذه يسهل بها نقل بضائع التجارة من مكان الى اخر ولاجل ذلك قل اعنائهم
بتمهيد الطرق في البرالاتهم قطعوا مناخج في بعض الجبال الواقعة في طريق
القوافل بين المدن الكبار

واعظم تجارهم في الشاي الذي هو من النباتات المعتبرة عندهم ويزعمون
ان اصل بذاره كان من اهداب جنون احد آلهتهم تقطع اغصانه وتوخذ اوراقة
وتجفف قليلا على نار لينة ثم تلف كل ورقة باليد ويوضع في صناديق مبطنة

بالرصاص ويرسل الى الجهات ويقطفون ورقه في السنة ٣ مرات يخرج منه في كل سنة نحو ٤٠٠ الف اقة وفي كتون ديوان للتجارة مولف من ١٢ عضواً من اعظم التجار تتوقف على تدابيرهم جميع صوايح المنجر
ولنختم كلامنا هنا بما اتفق عليه اكثر المؤلفين وهو ان اهالي الصين كانوا ذوي معارف عظيمة لكن حيث اشتهروا بالمصريين بكونهم لا يحبون نقض العوائد الثابتة ويحفظون كل ما لم تجر به عادتهم وما ذاك الا لكونهم اصحاب جبن وبدع فلم تبلغ علومهم درجة كمال وما يزيد الأسف انهم مع كون معرفتهم والحالة هذه بالعلوم قليلة جداً بالنسبة لما عند اهالي اوربا قد تسبب عن قلة مخالطتهم بقية الشعوب واطلاعهم على ما عند غيرهم غرورهم بانفسهم انهم احكم الناس وانهم قد بلغوا الغاية القصوى في المعرفة والهيئة الاجتماعية ويسمون ما عندهم برابرة

المعارف في الهند

يظهر ان بلاد الهند التي هي جزء اسيا الجنوبي كانت معمورة قبل غيرها بالسكان والآداب وتشتمل على قبائل عديدة منتشرة في كل اقطارها ولكل قبائله ولاية وحكام مستقلة بذاتها اشبه بدول اوربا غير ان اخبارها في الايام القديمة كاخبار الصين سقيمة جداً وتاريخها مشحون بالمخرافات والاقاويل البعيدة عن التصديق مما لا يهمل الفاري معرفته
وقد اختلف المعلومون من جهة تسميتها هندياً فزعم البعض انها تسمت هكذا نسبة الى نهر الهند والسند وهما كلمتان معناهما باللغة السنسكريتية الازرق نسبة الى لون مياههما وقال اخرون ان اسم هند ماخوذ من كلمة ايندو ومعناها قمر وذهب بعضهم ان هذه التسمية مقبسة من كلمة هندو بالفارسية ومعناها الاسود

نسبة الى سواد اهلها ولكن قلما يوثق في صحة هذا الاقتباس لانه يصعب
التصديق بان امة من الامم تتخذ لنفسها اسماً اولفياً اجنبياً والاجدر بها ان تطلق
على ذاتها لقباً ما خوداً من نفس لغتها والجغرافيون يقسمون هذه البلاد الى قسمين
وهما هندستان والهند الصينية اما الاول فهو الاعظم والاشهر وعليه مدار كلالنا
هنا واما الثاني فهو ما كان مجاوراً لبلاد الصين ويتضمن ثلاث ممالك صغيرة
وهي بورما وسيام وكوشين او كوشينيين

واشهر ما يروى عنها من الحوادث هو ان سيزوستريس ملك مصر كان
غزاهما ولا يعلم بالتحقيق ماذا جرى عند ذلك وكانت غزيتها قبيلة الملكة
سيراميس ونحو سنة ١٢٠٠ ق م اشتدت الحروب بين الاهالي في شان بعض
الهمم واخيراً استمكنت الفرس بعضها في عصر داربوس بن هستانب سنة
٥٠٠ ق م ثم اتاهما الاسكندر المقدوني بمئة وعشرين الف مقاتل واستولى على
جانب عظيم منها ولما لم ترض عساكره ان تبعد عن بلادها اكثر مما بعدت
عاد الى بلاد فارس ثم انعقدت شروط الصلح بين الملك سلوقس احد خلفائه
الذي تولى قسم سوريا ومالك قسماً من الهند نحو سنة ٣٠٠ ق م وبعده غزاهما
الملك انطيوخوس ايضاً ورتب على بعضها الجزية وبعد وفاته عادت الى
حالتها الاولى واستولى عليها ملوك من اهلها فانقسمت الى عدة ممالك مستقلة على
ما تقدم الى زمن خلافة الوليد بن يزيد الاموي وحينئذ استفتح المسلمون بعض
السند وفي ايام بعض الخلفاء قطعوا نهر الهند ونهبوا نواحي البلاد الشمالية ولكن
لم يملك فيها احد منهم ولما قام السلطان محمود الغزنوي استفتح جانباً من الهند
واضافه الى مملكته فلما انقرضت الدولة الغزنوية انقسمت املاكها في الهند الى
عدة اقسام واستولى عليها من استطاع ودامت الحروب قائمة بين ممالكها عدة
قرون وكان من اشهر ملوكها الملك اوزرب فانه ملك من سنة ١٦٦٠ الى سنة
١٧٠٧ م واتصر على اكثر ممالك الهند وجعلها مملكة واحدة لكن بعد وفاته
انقسمت املاكه بين بنيوه وانقرضت دولتهم بعد مضي نحو ٥٠ سنة ونحو سنة

١٧٢٩ م غزا الجهات الشمالية نادر شاه ابران ونهبها وعاد بغنيمة وافرة وفي
 اثناء تلك المدات كان اهل البورتغال قد كشفوا طريقاً الى الهند من جنوبي
 افريقية سنة ١٤٩٨ م باكتشافهم الراس الذي سموه راس الرجاء الصالح
 فكانوا بهذه الوسطة هم اول من دخل من الافرنج الى هذه البلاد وبقيت
 التجارة بين الهند واوربا في ايديهم الى انه في اقل من ٥٠ سنة صار لهم املاك
 واسعة ومدائن كثيرة في الهند ثم امتدوا الى اطراف السند وصار لهم عدة مراكز
 تجارية غير انه حيث لم يحسنوا السلوك مع الاهالي خسروا ذلك جميعه تدريجاً
 وفي بداية القرن السابع عشر للميلاد دخلها الفلمنكيون واستخلصوا منهم عدة
 مدائن لكنهم التزموا اخيراً ان يتنازلوا عنها هم ايضاً للانكليز الذين ابتدأوا في
 التجارة مع اهالي الهند في سنة ١٦١٤ م بواسطة شركة تجارية شكلوها لهذه
 الغاية وكانت اول اقامتهم في مدينة سورات وفي سنة ١٦٤٠ م سمح لهم احد
 الولاة بقطعة ارض تبلغ مساحتها ٥ اميال فابتنوا فيها لهم مركزاً ثم اشترى من
 والٍ اخر بعض اراضٍ واقاموا فيها عدة مراكز وكانت هذه المراكز شبه مخانات
 لوضع بضائعهم التجارية وذخائرهم الحربية لانهم كانوا دائماً على حذرٍ من بطش
 الاهالي وغزوات الافرنج الاجانب ثم حدث في اواسط الجيل السابع عشر ان
 احترقت ابنة الشاه جهان في مدينة دلهي وهي قريبة من ناري كانت موقودة
 فارسل الشاه المذكور يطلب طبيباً من الانكليز فارسلوا له جراحاً ماهراً عالماً
 حتى برئت فطلب اليه ابوها ان يقترح عليه ما اراد ليكافئته به على خدمته
 فالتبس منه امرآ باعطاء الرخصة للشركة المذكورة ان توصل تجارتها الى كل
 افطار الساطنة بدون ان تدفع عليها رسماً ثانياً خلاف المدفوع في سورات وان
 ياذن لها ايضاً بانشاء مراكز جديدة فصادف العاسه هذا مزيد القبول
 وصدرت الاوامر باجرائه من ذلك اليوم وسنة ١٦٦٢ م وهب الشاه جهان
 المذكور لكارلوس الثاني ملك انكلترة جزيرة بومي فتنازل عنها هذا الملك
 الى الشراكة تحت مبلغ معلوم فنقلوا اليها من سورات وجهاتها مراكزهم الاكبر

بعد ان اقاموا فيها حاكماً انكليزياً وكذلك كانت اهل فرانسوا وهولاندا تجر في جهات اخرى من البلاد الى ان تمكنت قوة الفرنسيين وازادت شوكتهم وقهروا الانكليز اكثر من مرة واخذوا منهم بعض املاكهم واستمر الحال على ذلك مدة الى ان انتصر عليهم الانكليز اخيراً في ١٧٦١ م واسروا حكامهم موسيولالي ومن ذلك الوقت اخذت شوكة الشراكة الانكليزية ان تنقوى شيئاً فشيئاً حتى استولت على الجاناب الاكبر من بلاد الهند وتعوضت بذلك عما اضاعته وقتئذ من املاكها في اميركا واستمرت حكومة البلاد في ابدي الشراكة الانكليزية المذكورة الى ١٨٦٠ م ومن ثم تنازلت عنها باسباب الى نفس الحكومة الانكليزية وهي الآن تحت تصرف احكامها وايرادها السنوي يعادل ايراد انكثرة الذي يجاوز ٢٠ مليوناً من الليرات الانكليزية

ثم ان اهل هذه البلاد الاصليين المعروفين بالهنود يقسمون الى اربعة اقسام الاول البراهمة ويقال لهم الكهنة ايضاً والثاني الجند ومن هذا القسم تكون الملوك والمحكام والثالث التجار والفلاحون والرابع اصحاب الصنائع والعمال من كل نوع وهذا القسم الاخير ينقسم ايضاً الى اقسام شتى باعتبار الصنائع والعمل وجميع هذه الاقسام لا تختلط ببعضها اصلاً ولا يمكن ان ولد في احدها ان ينتقل الى الاخر قال بعض المؤلفين ان الهنود منقسمون من قديم الزمان الى عدة طوائف متميزة عن بعضها شرقاً وخسة ادناها طائفة الباريا وهي تعيش منعزلة وحدها مبغوضة لغيرها

وديانهم وثنية على المذهب البرهي وهي تعلم بوجود الراضا بط الكل اقام ثلاثة آلهة نواباً عن نفسه وهم برهمة ووشنو وسيوي والظاهر انها اسماء لبعض العلماء الذين اشتهروا بينهم في الزمان القديم وتحت هولاء آلهة اخر كثيرة ذكر بعضهم انه حسب عددها ٤٠٠ الف وقال اخرون انها اكثر كثيراً جداً وبما ان هذه الديانة لم تنزل الى الآن متغلبة على جزء عظيم من الارض وهي فرع من فروع الديانة الوثنية التي والحالة هذه يتقاد اليها نحو ثلثي البشر ولذلك

تجسب من اصل الديانات الموجودة في العالم فقد تكلمنا عليها بتفاصيلها وكيفية طرق العبادة المستعملة عند اهلها وكل ما يتعلق بذلك بقدر ما وصل اليها في البحث الرابع من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف
 اما لغاتهم فهي نحو عشر لغات متفرعة من اصل واحد يقال له السنسكريت وهذه اللغة الاصلية لا يتكلمون بها الان ولكن كتب علومهم الروحية مكتوبة بها وفيها مشابهة غريبة لبعض لغات اوربا دالة على اشتقاق اللغات من اصل واحد واما اللغة الهندية الشائعة الآن في اكثر البلاد فهي ممزجة من لغات الهند والفارسية القديمة والغربية وغالبا تكتب بالخط العربي على شكل الخط الفارسي

والبراهمة او الكهنة الذين سبقت الاشارة اليهم هم امناء الدين واوائل طوائف هذه البلاد واشرف الشعب الهندي ويعلوشانهم على الجميع لاشتغالهم بالشرايع وسوا براهمة باسم براهي الذي يعتقدونه الها او عقلا عاليا وكان نساظهم ونفوذ كلمتهم كجوس العجم وكهنة المصريين وبعضهم يتعاطون اشق الاحوال لاجل تعذيب انفسهم فكانوا يرون في الشمس الحارة جدا ويعرضون اجسامهم للمولمات حتى ان كثيرا منهم من قتل نفسه ومنهم من لا ملبس له اصلا ولذلك يسمونهم فلاسفة متقشفين

وقال بعض المؤلفين انه كان من طوائف الهند ايضا طائفة معدة لاختبار الملك بسلوك رعيته اما طائفة الزراع فكانت تتمتع من حرفة الزراعة براحة عظيمة بينهم فا كان احد يقدر ان يخرج الفلاح عن اشتغاله لكي يستعمله في غيرها ولا يمس التعدي اموالهم ولا اجسامهم

وكان لهم علوم كثيرة منها انهم كانوا يعرفون الفلك ويعتقدون ان الارض سطح بسيط في وسطه جبل تدور حوله الكواكب ويتكلمون على ذلك بخرافات جميعها مفصلة في البحث الرابع من المقالة الثانية من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف لتعلقها بامور ديانتهم وانما لهم حسابات دقيقة في حركات

الاجسام السماوية واصابات زججية لا تخل عن الصحة الانادراً وكانوا يعنون
بالفلسفة والشعر وقد اجتهد بعض ملوك الفرس في نقل شيء من كتبهم الى
الفارسية ثم انتقلت من الفارسية الى العربية وكانت الفلاسفة اليونانيون ايضاً
يقصدونهم ليستفيدوا من علومهم ومعارفهم

والهم ينسب اختراع الارقام الهندية الحسائية وعندهم اخذها العرب
الذين اوصلوها الى الافرنج ايضاً ولعب الشطرنج قال ابن خلكان وغيره
من مورخي الاسلام ان رجلاً من حكماء الهند يقال له صصه بن داهر اخترع
لعب الشطرنج (وهو لعب تعتبره الامم المتقدمة فوق الالعاب بكثير ودون
العلوم بيسير) وانه وضعه لملك من ملوك الهند يقال له شهرام فلما اعرضه عليه
اعجبه وفرح به كثيراً وامر ان تكون آتة في بيوت الديانة وراها افضل ما علم
لانها آتة للعرب وقال لصصه المذكور اقترح علي ما تشتهي فاقترح ان يعطى
على اول بيت من بيوت رقعة الشطرنج حبة واحدة من الحنطة وبعد ذلك
يضاعف له في كل بيت يلبو القدر الذي يكون في البيت الذي قبله الى النهاية
وظريقة هذا الضعيف ان يكون في البيت الاول حبة واحدة وفي البيت الثاني
حبتان والثالث اربع حبات والرابع ثمان حبات والخامس ست عشرة والسادس
اثنتان وثلاثون حبة هكذا الى نهاية الاربعة وستين بيتاً فاستصغر الملك ذلك
وامر ارباب الديوان فحسبوه وقالوا ما عندنا قمع يفي بهذا فاستنكر الملك هذه
المقالة واحضر ارباب الديوان وسالم فقالوا اوجع كل قمع في الدنيا ما بلغ
هذا القدر فطالبهم باقامة البرهان ففعدوا وحسبوه امامه فلما ظهر له صدقهم
قال لصصه انت في اقتراحك ما اقترحت اعظم حالاً من صنعك الشطرنج.

انتهى

يقول مولفنا ان حساب ذلك ينتهي الى سبعة وعشرين الف الف وخمسة
وخمسة وسبعين الف وتسعمائة واربعين مخزناً وكسوراً لكل مخزن الف الف افة
وكل افة اربع مائة درهم وكل درهم اربعة وستون قحمة وزعموا ان السبب في

وضعه ان ازد شير بن بابك وقيل ارد شير ومعناه بالعربية دقيق وحليب لان
 معنى ارد دقيق ومعنى شير حليب او حلاوة وهو اول ملك من ملوك الفرس
 الاخيرة قد وضع الورد فسوه نرد شير نسبة الى واضعه المذكور وجعله مثلاً للدنيا
 واهلها فرتب الرقعة ١٢ بيتاً بعدد شهور السنة وجعل القطع ٣٠ قطعة بعدد
 ايام الشهر نصفها ابيض والنصف الثاني اسود اشارة الى الليل والنهار وجعل
 النصوص (الزهر) مثل القدر وتلقب باهل الدنيا فافتخرت الفرس بوضع هذا
 النرد وكان ملك الهند يومئذ يقال انه بلهيت فوضع له صصه الشطرنج كما ذكر
 ففضت حكاه ذلك العصر بترجمته على النرد والنرد هو المعروف في زماننا
 بالطاولة وهو نوع من الالعاب مفيد بحكم الزهر الرموز به الى القضاء والقدر
 او الدهر والشطرنج بخالفة في ذلك لانه منوط بتدبير العقل ووصل لعبة الى
 بلاد الافرنج بعد القرن العاشر من الميلاد وكان من العاب الرومانيين في
 القرون الوسطى وقد قال في بعض حكائهم مورياً بحال الدنيا يخرج الشاه
 والفرس والفلاح من كيس واحد يحظى كل بنصيبه ويمشي مع صاحبه على
 حسب قوته فاذا فرغ اللعب يرجع الكل الى ذلك الكيس

وكان عند الهنود البارود وبعض اسلحتهم قبل اكتشافه في اوربا ولم اليد
 الطولى في بعض الصنائع ولا سيما في عمل الموائد والالعاب والاسرة المرصعة
 بالعاج وعرق اللؤلؤ وفي مدينة كشمير قاعدة بلاد كشمير تصطنع الشالات
 المنسوبة اليها وينسجونها من زغب المعزى الذي ينبت عند اصول شعرها في
 ايام البرد وينثر منه في ايام الحر وفي مدينة المئان يصطنع كثير من اقمشة
 الحرير والبسط والطنافس وفي مدينة بنارس تصطنع حلي الذهب والفضة
 وهم يحسنون ذلك للغاية وكذلك يحسنون ترصيع وتقطيع الحجارة الكريمة وفي
 مدينة مدرس معامل القطن والزجاج وفي دكا وهي دوكا ورش الحرير والشاش
 والقماش المصبوغ

وتجارة هذه البلاد رائجة جداً خصوصاً في ملح البارود والافيون والحرير

والطن والقطيفة والصوف الخبز والمسك والراوند الذي يأتي من بلاد المغول
وفي ما يخرج من الارض وما بصطاد من الآلى على السواحل خصوصاً جهة
جزيرة سيلان وفي الماس الذي يوجد خصوصاً في اقليم غلكندة وشيلان الكثير
والشاش وغيره من الاقشة والاششاب الظرفية اللون والطيبة الرائحة

وسكان هذه البلاد الان هم ثلاثة اصناف هنود ومسلمون وفرس اما الهنود
فقد مر ذكرهم واما الفرس فهم من اصل فارسي طردت اسلافهم من بلاد
فارس وما زالوا على دينهم القديم اي عبادة النار واما المسلمون فمن اصل
عربي ورعا الخطا هذان الصنفان بالسكان الاصليين وذكر بعض الجغرافيين
ان الهنود يبلغون ٢٠٠ مليون منهم ١٥٩ مليوناً تحت نسط الانكائز و٤٤ مليوناً
في حالة الاستقلال ورعا كان في هذا العدد شيء من المبالغة اذ ان بعض
المحققين يقول في كتابه الذي الفه قبل ذلك بمدق قرينة لا يتفق معها ان يزيد
عدد اهالي الهند بهذا المقتران الهنود الاصليين يبلغون ١١٠ ملايين من
الانفس والاسلام ١٦ مليوناً والسيكة الذين عبادتهم مخلوطة بالاسلام والبراهمة
٤ ملايين وهناك يوجد ايضاً نحو مايون ونصف نصارى من طائفة النساطرة
لما اتى اهل البورتغال الى تلك البلاد على ما ذكرنا في ما تقدم الرمو جانباً
منهم ان يدخلوا في مذهب الكنيسة الرومانية فعلى هذا المعدل يكون عدد
الجميع ١٢٦ مليوناً ونصفاً

وقصبة هذه البلاد مدينة كلكتة وهي مقر الحكام الانكليزي تحوي من
السكان ٢٣٠ وقيل ٢٥٠ الفاً من النفوس وبها جمعية علماء شهيرة ومدرسة علوم
اسلامية ومن المدن الشهيرة التابعة لها مدينة دلي فيها كثير من الابنية الفاخرة
والجوامع والمساجد ومنارة عظيمة ارتفاعها ٢٤٢ قدماً ومدينة اغره فيها مسجد
عظيم يسمى تاج المل وهو مبني على قبر امراء الساطان جهان شاه وقد بالغ
السواح في وصف مجاسده

المعارف في بلاد اليونان

وفيه مقدمة وأربعة فصول وخاتمة

المقدمة

لا يخفى ان المعارف كانت في من ذكرنا من الشعوب كما بها طفلة لم تحصل على الشبيبة الا عند هذه الامة اليونانية ذات الشجاعة العجيبة والمحبة الغربية التي كل من حربتها وعظم شائها وانفان سياستها وهندسة هياكلها اوجب لها الاعتبار والشهرة العظيمة حتى صار الجاهل بما فعلته ونتائجها يعد عارا بين الناس وقد مية هذا الجزء اليوناني صاعدة جدا جهة الاولية فلم تكن معروفة وقلمها يوثق بكل ما رواه المؤرخون في شائها انما ما يقال من ان اصل اليونانيين من نسل ياوان بن يافث بن نوح فهو يقرب مما ذكره هيرودوتوس اول مؤرخهم في هذا المعنى وكانوا في مبدأ امرهم متوحشين عادمي التمدن يرعون المواشي ويعلمون الارض ويسكنون في الكهوف ثم تعلموا عمل الاخصاص ولبس الجلود فكان ذلك اول اختراعاتهم وكانوا يفتاتون بالقول والجذور. قيل انه لما علمهم فلاسفس اكل البلوط وضعوه في مصاف الالهة والسبب في ذلك هو انه بالقرب من عصر ابراهيم الاب الاول لبني اسرائيل كان هاجر الى بلادهم قوم من الفينيقيين يقال لهم التيتانيون واخططوا بهم فاخذ عنهم الالهة المعارف اخر جنهم نوعا عن هالنهم البربرية ومن ذلك عبادة الهة الفينيقيين كاورانوس

وساتورنوس ويقال ساترن وهو زحل عند العرب وزفس اوجويوتير وهو
المشري ومن المعلوم بان اصل هولاء الالهة اناس من البشر لكنهم اشتهروا في
بعض الامور فوضعهم شعوبهم في صف الالهة كما سبق القول عن امثال ذلك
وحيث ان ادخل اليونانيون فلاسغوس المذكور بحجة هولاء اليونانيين في مصاف الهتهم
ايضا اذ كانوا يقدمون لكل من اشتهر منهم اكراما عظيما بعد موته اقتداء بما
تعلموه منهم وهذا هو اصل خرافات اليونانيين من جهة ديانتهم التي تكلمنا عنها
تفصيلا بقدر الممكن في البحث الرابع من المقالة الثانية من كتابنا زبدة الصحائف
في اصول المعارف فلا حاجة الى اعادةها غير انه لا بد لنا من ان نذكر شيئا مما
قاله بعض المدققين من المؤلفين بشأنها نظرا لتوقف معرفة الاداب اليونانية
بل واكثر الافرنجية الحاضرة ايضا على مطالعتها وتسمى عند الافرنج علم الميثولوجيا
وخلاصة ما قالوه هو انه منذ اخذت بلاد اليونانيين ان تتلقي الغرباء تولعت
بسماع الخرافات حتى نظمتها في سلك الالهيات وادعوا ان اختراعها ليس الا
من منصب الالهية . الا انه قد يعثر الانسان من هذه الخرافات على امور
حقيقية ومهمة فانها حكايات ابتدعتها المتقدمون لتشريف ارباب العقول
عندهم وتاليه روسائهم او نظمهم في حين الاعوان والعتاة وهم ليسوا في الحقيقة الا
اشخاصا ارباب عقول كاملة او شجاعة فاضلة وبعض ما يحكى عنهم هو من باب
صحح التاريخ او هو من قبيل الرموز والاشارات التي ظاهرها من قبيل
الكفریات الصريحة بان ياخذ بظاهرها ويترك باطنها ولكن المقصود منها مجرد
الحقائق الباطنة لا الظواهر الباطلة بل منها ما يدل على كنايات ادبية ونكات
فلسفية ومنها ما هو محض اختراع شعراء جاهليتهم لاجل تحسين اشعارهم كاختراع
شعراء العرب في زمن جاهليتهم امورا كثيرة لا اصل لها يبنون عليها نظمهم فان
ساترن مثلا يريدون به في خرافاتهم الدهر يقولون ان الدهر هو ابن السماء
والارض واول حكمايتهم هو ان القدر اخبر الدهر المذكور ان احد ابنائهم ينزله
عن كرسي ملكه فكان الدهر ياكل اولاده حين وضع اهمهم لم فهمه حكاية

رمزية عن الزمن يفنك دائماً بانبائهم ثم يقولون ان زوجة الدهر ولدت ذات يوم وخشيت على مولودها من افتراس ابيها فقبطت حجراً مثلما يقبط الطفل واعطته لزوجها فابتلعته حالاً ثم انها فعلت ذلك لخلاص عدة اولادٍ منهم واحد يقال له جوبيتير يعنون عنه بانة اله الالهة والظاهر انه كان ملكاً بجزيرة اكريت طرد اياه من المملكة وقسمها بينه وبين اخويه وكان يقال لاحدهما نبطون والثاني ابوطون فابقي لنفسه جهة الشرق من الجزيرة واعطى ابوطون جهة الغرب منها واخذ نبطون شاطي البحر ومباشرة الصناعة البحرية ولذلك قالوا ان جوبيتير كان اله السماء اي الجزء الاعلى من الجزيرة ونبطون اله البحار وابوطون اله النيران التي معناها الجزء الاسفل ثم لما علم ساترن بحيلة زوجته ووجود اولاد له منها خاف على نفسه وهرب الى بلاد ايطاليا في زمن الملك ياتوس وهو ملك من ملوك ايطاليا عبده بعد موته كانه اله يعتقدون انه ذو وجهين ينظر باحدها المستقبل وبالآخر الماضي والمعني الاشاري الى ذلك انه ملك عظيم كان يعرف ما مضى وينظر في عواقب ما ياتي ويصورونه بصورة شخص في احدى يديه مفتاح والاخرى قضيب اما المفتاح فلانهم كانوا يعتقدون انه مخترع الابواب والاقفال واما القضيب فلانه يحكم به في الطريق ليامن به اهل السباحة وكانت ايامه تسمى ايام الهنلان حكمة كان خالياً من المكدرات وكانت رعيته في غاية الراحة وخالو الببال فعلم الدهر هذا الملك علم الفلاحة وتقوم السنين ثم انهم كانوا يصورون ساترن المذكور ايضاً بصورة شيخ هرم باحدى يديه منشار وفي الاخرى منكب او ساعة رمالية اشارة الى ان الدهر يفني كل شيء وانه يخرج ما عنده من الخبثات كحبوب الرمل وقد سمي اليونان باسم ساترن هذا نجمة زحل وسماوا باسم جوبيتير نجمة المشتري على ما تقدم وعليه فقس باقي القسم الاول من آلهتهم الذي جعلوه رتبتين الاولى تحتوي على الهة علويين كجوبيتير المذكور ونبطون ويونون وغيرهم وعلى الهة سفليين وهم الهة الارض والليل والنوم والالعب كبان وفونة والساتيرية وغيرهم وقد

ذكرناهم جميعاً في البحث الرابع من المقالة الثانية من كتابنا زبدة الصحائف في
 اصول المعارف الذي مر ذكره واما آلهة القسم الثاني الذي تركنا الكلام عليها
 الى هنا الكتاب وفيه انصاف الالهة يعني فحول الرجال الذين لهظم شجاعتهم
 اعتمد اليونانيون بانهم متولدون بين الباقي والفاقي اي بين الهويشرفان منها
 برشاوش الذي يزعمون انه ابن جويبتير مولود له من اينا بنت اكرربوس
 ملك ارغوس بدعواهم انه ركب فرساً ذا جناحين يسمى بيغازة وآل امره ان
 جويبتير نظمه هو وهذا الفرس في سلك صور الكواكب فان من جملة الكواكب
 المعروفة الان برشاوش والفرس ذا الجناحين ومن المعلوم ان الفلكيين استنبطوا
 اسماء الكواكب من هذه المخرافات ومنها هر قول وهو اسم فحول رجال الندماء
 يزعمون انه ولد لجويبتير ايضاً من الكهنة زوجة انقريون ملك طيوه وانه
 قطع الثعبانين اللذين ارسلتهما يونون زوجة ابيو جويبتير لاهلاكه ثم لما
 نصاحت معه اخيراً ارضعته فطار من لبنها شيء في السماء وانتشر فحدث عنه
 طريق اللبانة وهي الحجر ثم قتل ايضاً اسداً كان يخرب البلاد ويفترس اهلها في
 اجمة نيا وصار يابس جلدُه علامة على اول نصراته وقتل تينبا ذا رؤوس
 كان في بحيرة لرنه وقبض على خنزير وحشي كان يجبال اريمنه وقتل بقرة
 وحشية كانت تخرب البلاد التي حول جبل مينيا وكانت رجلاها من نحاس
 وقرونها من ذهب وطرده طيوراً ذات قوة خارجة عن العادة كانت بجيرة
 استنفاله باقليم اركاديا تقطع المارة بخنالبها وهزم النساء الحريبات المسترجلات
 المساة اما زونات بقرب نهر ترمدون وكذلك قتل ديوميدي وبوزريس وكانا
 مشهورين بالظلم وقتل جريون ملك اسبانيا وكان ظالماً وله ٢ اجسام ومسح
 اصطبلات اوجياس ملك اليدة وبهندسته الفاتنة نظفها من الروائح الرديئة
 التي كانت تجلب الطاعون وقتل ثوراً وحشياً كان ساطع نبطون اله الجمار
 ليفترس اليونانيين لما غضب عليهم ودخل بستان هسبردية بعد ان نوم الافعي
 التي كانت تحرسه وكان اطلس يمنع عنه السماء بكتفيه واتي من ذلك البستان

بتفاح الذهب (قيل هو البرتقال وقيل البطاطا) ونزل النار السفليات وانفذ منها سريرة واخرج معها حبيبة طيسة وانفذ ايطاليا من ظلم قافوس بن بركان وقطع السلاسل التي كانت ابروميته وهي المسماة عند الفلكيين بالمرأة المسلساة مربوطة بها في جبال قاف وانتصر على ائته بن الارض في محاربتها اياه وقتل ليفوس لكونه بعد ان تغلب على مدينة طيره قتل ملكها الذي هو زوج امه وادخل اوقيانوس (البحر المحيط) في الجزء الذي يفصل اوربا من افريقية عند ما فتح بوغاز جبل قادس المسي الآن جبل طارق وذكر العلماء ان هذه الامور المنسوبة الى هرقل هي تشبه الى حوادث اغلبها لم تكن له وحده بل كان هناك اناس غيره مسمون بهذا الاسم ايضا ولكل منهم فعل فنسبت جميع افعالهم له ومنها طيسة بن ايجنه ملك الاثينيين الذي كان معاصرا هرقل وكان من افاريه واحب الناس اليه كما ذكرنا في ما مر وكان مولعا بقتل الظلمة الذين منهم سيرون الذي كان يرعى المارة في البحر وبروكسته الذي كان يمدد الغرباء النازلين عنده على فراشه فان زادت اقدامهم عنه قطعها او جرهم باربع خيول وقتل ثورا عظيما كان يخرب ارياف مرثون وخنزيرا وحشيا كانت بعثته دبانة (احدى آلهتهم) الى اقليم ابطوليا حين غضبت على مدينة خالكيدونيا لاهالم في عبادتها وقتل منيطور الذي كان حيوانا نصفه على صورة رجل والنصف الاخر على شكل ثور ولدته بازيفا بنت الشمس من زوجها مينوس ملك اكريت وسوف ياتي ذكره وكان ابوه وضعه في مهواة وكان يغذيه لحوم الآدميين ولذلك كان اهل اثينا ملتزمين ان يرسلوا له في كل سنة ٧ صبيان بالقرعة لاجل غنائه واخططف هيلانة التي خالصها بعد ذلك اخواها كستور وبولكس وسباني ذكرهما وذلك بعد خراب تروادة بثمانين سنة وكانت معه في ذلك بيروتوس ثم شرعا في اخذ بروزريئة بنت ملك المولوسيين وكان يحرسها كلب عقور يسمى سرييرا او قرييرا فقطع بيروتوس ذلك الكلب وقيل بل نزل طيسة المذكور مع بيروتوس الى النار لاجراج بروزريئة المذكورة منها فقبض عليه

ابلوطن (اله النيران) وكبلة بالسلاسل فقطع الكلب المذكور بيرونوس واما طيسة فانقذه هر قول المقدم ذكره فكافاه على صنيعه هذا بذها يومه في محاربه النساء المسترجلات وانتصاره عليهن على ما تقدم. ومنها كستور وبولكس المذكوران هنا ويُعبّر عنها عند الفلكيين بالجوزاء او التوامين فاما كستور فكانت له اخت نسي اكلت منسرة وكلاهما اولاد تندر ملك ايباليا ببلاد اليونان واما بولكس فكانت له اخت نسي هي لانه وكانا كلاهما مولودين على ما زعموا لجوبيتير من ايدا زوجة الملك المذكور لكن جوبيتير تبني اخيرا كستور محبة في اخيه بولكس وامران كلاً منها يعيش مدة ويموت اخرى لكونه قسم الازايمة التي لبولكس ابنه بينه وبين اخيه كستور ثم صار كل منهما معدوداً في جملة الكواكب السماوية وكانا في المنزلة الثالثة من منطقة البروج وسيا برج الجوزاء ولم ينالاهن المنزلة الا بكونها خدما للناس لاسيما بقطع دابر اصوص البحر فلما كان البحر يوبن يحترقونها. ومنها يازون بن ايزون ملك تساليا الذي تمهب صوف الذهب من بلاد خلكيدونيا وهو صوف خروف يزعمون بان الالهة اهدت به الى اتماس ملك طيوه فذبحته واده افر كسوس لجوبيتير واعطى الصوف الى امير من تلك البلاد يسي اينا وضعه في اجرة منذورة للريح وحرسه بشعبان لا ينام اصلاً واثوار يخرج من انوفها النار وكان يساعد يازون على قصده هذا هر قول طيسة وكستور وبولكس واورفة ولنصة وتيفيس وغيرهم فتوجهوا جميعاً راكبين سفينة رئيسها الذي كان يقبض على دفتها تيفيس وكان لنصة لحدّة بصره يكشف ما تحتم الماء من الافات البحرية وكان اورفة^(١) يسلمهم بالغنا والالحان

(١) اورفة المذكور بسموته عقل العود ايضاً لانه لما كان في خرافاتهم لكل شيء عقل بعمهونه كاله كانت العقول عندهم اكثر عدداً من العقول العشرة التي يذكرها الفلاسفة وبما انه كان آتياً كان اذا ضرب العود هامت الاشجار والاحجار وتزحزحت عن محالها ووقفت مياه الانهار عن جريانها وانجذبت اليه الوحوش طرباً ويزعمون انه لما ماتت زوجته من لدغة افعى في يوم ابتناه بها دخلت النار فوسى اليها لياخذها بعد ان ادعش

والاورغونوطية يسبرون السفينة بالمجاديف وهرقول يعوقهم عن السفر اما لضخامته وثقل جسمه على السفينة او لكونه كان يأكل كثيراً وخالصة الامر انهم وصلوا الى خلكيدونيا واخذ يازون صوف الذهب وذكر علماء الازمنة ان هذه غزوة كانت سنة ٦٤ بعد تاسيس مدينة تروادة وقبل اخذها بتسع وسبعين سنة. ومنها اوديب بن ليوس ملك طيوه وولده ايتيوكل وبولينس ومن حديثه انه كان يوجد بقرب المدينة المذكورة السفنكس وهو غول ماهر راسه كراس المرأة وجسمه على هيئة كلب وذنبه كالثعبان واجنحته وصورة مخاليه ورجليه كالاسد وكان بلغز على كل من مر عليه فان اجابه والا فترسه الى ان صارت تلك المدينة كالصحراء الموحشة فامر حينئذ اكربيوت خال اوديب المذكور وكان يومئذ ملكاً عوض ليوس بانه كل من حل اللغز يعطيه المملكة وبزوجه باخيه يوكسته وكان لغز الغول المذكور هو هنا ما هو الحيوان الذي يشي في الصباح على اربع وفي الظهيرة على اثنتين وفي المساء على ثلاث ففسر اوديب هذا اللغز وقال هو الانسان فعند ذلك غضب السفنكس لكونه صار كالغلوب والتي نفسه في البحر واما اوديب فانه تزوج يوكسته واستولى على المملكة وكانت يوكسته التي تزوجها امه ارملة ليوس ابيه فلما عرف ذلك اخبراً فقما عيني نفسه وترك المملكة لولديه منها وهم ايتيوكل وبولينس فتقاسم هذان الاخوان المملكة وانفقا على ان كلاهما يحكمها سنة فكان اولها في الحكم ايتيوكل فلما مضت سنته لم يكن اخاه منها فكان ذلك سبباً في حرب طيوه المشهور الذي اصببت به هذه العائلة الملكية. وكذلك كانت عائلة طنطال ملك فريجيا مثل عائلة اوديب في سوء الحظ والمسكنة وكان طنطال المذكور من نسل جوبيتير الا انه كان كافراً فانه ذبح ولده بيلوبس ليمنحن بذلك جماعة من

بالمخاض خازن النار فانفق معه هذا الخازن على انه يسلمها له بشرط ان لا يلتفت الى خلف وهو خارج لكنه لما لم يحافظ على هذا الشرط والتفت اليها غابت عن بصروفهم قهره عليها لم يطق بعد ذلك رؤية النساء ابداً فلم يخالط مدة حياته الا الرجال

الالهة اضافة فلم يأكلوا منه شيئاً بل احيوه وانما كانت السنبلة لشربها اكلت
 كنفه فعوضوه عنه بكنف من العاج والقوا اياه طيطال المذكور في جهنم
 ليعذب بالجوع والظاء والمياه تجري حوله والاثار دانية منه وكان من اولاده
 نيوبا زوجة ايفنون التي مسخت صخرة بعد ان قتل ابولون وديانة اولادها لكونها
 كانت كافرة مثل ابيها . واما ابنة يلبوس فانه غلب اينومبوس ملك ايلاذة
 واستولى على مملكته وتزوج بنته هيبودايا وولد له منها ولدان وهما اطرة وطسقة
 اللذان حيث لم تنفق كلمتها وقع بينهما شقاق آل امره اخيراً الى ان نشأ عنه
 حرب تروادة المشهورة وكان باريس بن بريام احد ملوك تروادة ويسمى ايضاً
 اسكندر وولد له من امراته التي تسمى هيكوبه وكانت امه راث قبل ذلك في المنام
 وكانت حامله به كانه خرج منها مصباح اضرم النار في المدينة فاولوه انها تلد
 ولداً يخرب الوطن (قال بعضهم ان مثل هذه الاحلام كانت الجاهلية يخترعونها
 بعد حصول الشيء والأفاسي رابطة وعلاقة بين ما يقع وبين ما يتخيله النائم
 اوليس ان الحوادث التي تحصل في المستقبل انما تتعلق باحوال لارابطة بينها
 وبين حركات النائم وهي منصورة في التوقف على اسبابها والتاريخ الخرافي مشحون
 من امثال تلك الاحلام) فلما بلغت اباه بريام تلك الرويا امر بقتله لكن امه
 بعثته الى اثنين من الرعاة ربياه سرا فكان في حال تلك التربية الدنية تلوح
 عليه الصفات الملوكية حتى ان يونون (زوجة جوبيتير) وميروه (الهة الحكمة)
 ووينوس (الهة العشق) جعلته حكماً في المشاجرة التي وقعت بينهم حين كن
 في وليمة عرس طيطيس وبيلا التي لم تدع اليها الهة الفتنة فحصلت لها الغيرة من
 ذلك ودمت بينهم رمانه من ذهب مكتوباً عليها تخف بها الاجل منك فحكم
 باريس بانها للزهره فصار هو وعيانه مبعوضين ليونون وميروه ثم انه تسابق
 مع اخيه هينطور فغلبه فغضب هينطور من ذلك وعزم على قتله لكن لما ظهر انه
 من الفرائس انه اخوه وتمتق ذلك من الجواهر التي كانت معلقة عليه وكانت امه
 اعطتها الراعي وامرته بتعاقبها عليه فعرفها هينطور فنسي تعبير الرويا واعذته

وأواه اليو. ومنها ايضا اوليس او هو عولوس الذي كان ملكا على جزيرتي ايتاكة ودولكليوم التي نسي الآن طياكي وهو ابوتلماكوس صاحب القصة المشهورة المولفة من الاديب فتلون الفرناوي وسوف يأتي ذكره في محله وقد ترجمها من اللغة الفرناوية الى العربية العلامة الفاضل رفاعه بك الطمطاوي في مصر والآن تطبع في اخر صحائف حديقة الاخبار في بيروت. ومنها دردانوس بن جويتير من امرائه المسماة ايلفتراحا وكان له اخ يحكم معه اقليم نوسكانا ببلاد ايطاليا فقتله وذهب الى اقليم تروادة وتزوج بنت حاكم هذا الاقليم واسس معه مدينة تروادة المذكورة وكان ذلك قبل تاسيس مدينة رومية بخمسة و٧٠٠ سنة اي سنة ١٤٥٠ ق م وفي بعض التواريخ سنة ١٢٢٤ ق م ولما كان هرقول وقد تقدم ذكره اختطف هزيونة بنت بريام المذكور في ما مروا عطاها لبعض روساء عساكر اليونان في وقتما كان مشغولا بتخريب بلاد تروادة فعزم باريس على تخليصها لكونها عمته واذلك توجه الى منيلاس بن اطرة بن ييلوبس بن طنطال وهو اخواغا ممنون فالقت مينوس محبته في قلب هيلانة زوجة منيلاس المذكور فتولعت به وذهبت معه الى تروادة ففرح والده بذلك رجاء ان يفتدي اليونان هيلانة هك بينته فيردوها اليه لكن خاب اماله لان اليونان امتنعوا عن رد هزيونة وتجزوا جميعا وذهبوا الى تروادة في طلب هيلانة فحاصروا هذه المدينة عشر سنوات حتى اصبحت^(١) بالكلية وكان سبب طول مدة الحصار عدة امور اولها ان اهل اسيا جميعا ذهبوا الى معاونة الترواديين ثانيها شجاعة هيقطور ثالثها مشاجرة وقعت بين اغامنون المذكور واشيل وانتهى

(١) حيث ان اخبار هذه الحرب مستنبطة من اشعار اومبروس كان الاعتقاد عند الاكثرين بانها من جملة الخرافات اليونانية ودام ذلك الى ان ظهر العلامة هنري شليمن الجرمانى وايدها بولسطة كشيخ في سنة ١٨٧٦ م الكنوز الثمينة من غنائمها المدفونة بمدينة مسيني في قبراغامنون وغيره من الابطال الذين كانوا في هذه الحاربة كما سوف يرد في محله من هذا الكتاب

الحال بخراب هذه المدينة سنة ١١٨٤ ق م. وكان ونية بن وينوس وابوه انكيزة
احد امراء مدينة تروادة المذكورة فخاصته وينوس امه من هذا الحرب وذهبت
به الى المحل الذي اسست به ديدون (التي سبق ذكرها في الكلام على الفينيقيين)
مدينة قرطاجنة ومكث عند ديدون المذكورة عدة اشهر ثم ذهب بامر جوييتير
الى ايطاليا وتزوج لوينيا بنت الملك لاتينوس وخلفه على مملكته لكونها حتى
زوجته واسس فيها مدينة رومية قال بعض المؤلفين ان حوادث ابنة وديدون
هي محض اشاعات عند العوام ومحض تخيلات باطالة عند الشعراء (نظير
اوميروس وغيره اذ لا يخفى بان اشهر هذه الحوادث وغيرها من الوقائع
والحروب في زمن جاهلية اليونان هي ماخوذة عنهم ولا ريب ان كثيراً منها لا
يوثق بصحة وخصوصاً ما نحن بصدده من اخبار فحول شعبانهم المعتبرين
عندهم انصاف الهة او الهة من النسم الثاني على ما سبقت الاشارة اليه) والافقد
ذكر علماء الازمنة ان اينة كان قبل ديدون بثلاثماية سنة ولكن الشعراء لم
ينظروا الى ترتيب الازمان بل نظمو اشعارهم في هذين الشخصين على مقتضى
تخيلاتهم الباطلة وقد ذكر المورخون بان هذين الشخصين احدهما اول موسس
رومية والاخر اول موسس قرطاجنة وكانت كل واحدة من هاتين المدينتين
معاصرة للاخرى وخصبتهما بحيث لم تكن مشتغلة الا بالبحث عن تدمير عدوتها
ثم انتهى الامر ان صارت احدهما (قرطاجنة) تحت طاعة الاخرى (رومية)
ومن مراجعة حديث قرطاجنة المدرج في الكلام على الفينيقيين تعلم كيفية
ذلك انتهى

الفصل الاول

في كيفية تقدمات اليونانيين الى وقوع الانقسام بين اسبرطة واثينا

قد كان السبب في ايراد ما ذكرناه من اخبار انصاف الالهة المذكورين
التيثانيون الذين جاءوا من فينيقية وعلو اليونانيين جملة معارف منها اصول
عبادة آلهتهم ثم بعد ان انشاوا عند هم جملة مدائن صارت فيما بعد ممالك صغيرة
من اقدمها مدينة سيسيوم عند خليج ليبانتو وكان وضع اساساتها في عصر ناحور
جد ابراهيم الخليل الاب الاول للاسرائيليين ابي نحو سنة ٢٠٨٩ ق م ومدينة
ارغوس ايضا في اواخر ايام ابراهيم المشار اليه اعني سنة ١٨٥٦ ق م كثرت
غزواتهم وحرورهم فتلاشوا وانقضوا ومن ثم رجع اليونانيون الى حالتهم القديمة
وبقوا على ذلك نحو ٢٠٠ سنة الى ان وافي الى بلادهم رجل مصري يقال له قفرويس
وبعيتهم قوم من بلاد فاسسوا مدينة اثينا التي صارت اخيرا وطننا للمعارف
والعلوم وذلك في سنة ١٥٥٦ ق م وسموها قفرويا نسبة له ثم بنوا ارغوس
وسبارطة واسس قفرويس المذكور في اثينا محكمة اريوس باغوس ومعناها تل
المرنج نسبة الى التل الذي بناها عليه واعدا لمقاصد القاتلين وهذه المحكمة هي
التي استضاحت شهرتها في ما بعد (وكان من اعضائها دبونيسيوس الاربوباغني
المذكور في اعمال الرسل ص ١٧: ٢٤ وهو من اشهر علمائهم واول مسيحي تنصر
عن يد بولس الرسول الذي ادخل الديانة المسيحية بينهم سنة ٥٢ م) ثم اظهر
لم قفرويس المذكور ايضا الدين وسن لهم الزواج بعد ان كانوا لا يعرفونه كما
ان رجلا مصريا اخر يقال له دانيوس كان اول من ادخل عندهم علم الفلاحة

في ملكة ارغوس مع غيرها من الفنون وفي سنة ١٥٥٠ ق م اتى الى قسم من بلاد اليونان يدعى بيوتيا رجل من اهالي فينيقية يقال له قدموس وبني قلعة عظيمة ساءها كادمه حيث بني بعد حين مدينة طيبة اوثية اليونانية وادخل معه فن الكتابة بحروف هجائية كانت مستنبطة في بلاده قال بعض المؤلفين انه وضع منها ١٦ حرفا ثم اكملها اخيرا بلاميدس وسيمونيدس وكان اليونانيون اولاً يكتبون سطرًا من اليسار الى اليمين ثم سطرًا من اليمين الى اليسار وعلمهم ايضا زراعة العنب وعمل المعادن فانتشرت هذه الفنون في بلاد اليونان ومنها الى سائر بلاد المغرب وفي خرافاتهم ما ملخصه ان قدموس بن اجنور ملك الصوريين بعد ان حكم طيبة مدة اصيب بمصائب منها احتراق بنته سميلة حيث احبت ان ترى جوبيتير على صورته الاصلية وكان ذلك باغراء يونون زوجة جوبيتير اخبرتها منها فتشككت لها في شكل عجز واقنعتهما ان تطلب منه ان ياتي ازيارتهما على شكله الاصيلي كما ياتي ليونون فلما جاء اليها افترحت عليه ذلك وحلته في نهر في الجنة يقال له الستكس فاجاب سواها حرمة لهذا اليمين وظهر لها كما يظهر ليونون فاحترقت بصواعقه وكانت حبلي منه فاخذ جوبيتير الجنين من بطنها خوفا عليه ووضعته في فمخه الى ان جاء اوان وضعه فكان هو بنجوس الآتي ذكره الذي علمهم زراعة العنب واما جمهور المؤلفين فيعتقدون ان المراد بنجوس المذكور هو نوح الاب الثاني للبشر لانه هو اول من غرس الكرم بعد الطوفان العام واعصر النبيذ نك ٢٠:٩ وزعم اخرون انه هو النرود المذكور في التوراة لان كلمة نرود معناها باللغة العبرانية يكوس يعني بن كوش ومن مصائب قدموس المذكور ايضا غرق ابنته هينو عند ما هربت من زوجها اطلاس ومنها ان ابنته اغاوة قتلت ولدها المسما بنتا حين سخن من موسم الميناوية ومنها طرد انيفون له من ملكته فذهب هو وزوجته هرميون الى ايليريا واقاما بها مدة طويلة كئيبين حزنين الى ان رثي لحالها الآلهة فغيروها الى صورة ثعالبين . انتهى . وهناك رجل آخر يقال له اطر بطوليس خاطر بتقطع نفسه

أربا حيث علم صناعة الحراثة كما خاطر بخوس الذي مر ذكره لما علمهم زراعة العنب

ولما كانت حروب هذه الامة قبل ان تفتح بلاد تروادة التي مر ذكرها كثيرة جداً واضعفتهم عن مناومة الاعداء قام بينهم رجل يقال له امفكتيون او امفتطيون واضطروهم الى التحالف مع بعضهم فتعاهد اهل ١٢ مدينة من اعظم مدنها وتحالفوا على الاتفاق وكانت رسل هذه المدن تحضر كل سنة مرتين الى مدينة تيرموبوليس للذاكرة بمجلس رتيوه هناك للحكم في فصل الخصومات وسموه امفكتيون باسم واضعه المذكور

ثم بعد ان استولوا على مدينة تروادة المذكورة في التاريخ الذي اشرنا اليه وخربوها بعد ان كانت شهيرة في بلاد اسيا بالقرب من بوغاز كالمبولي ولا زالت اثارها باقية الى الان اسسوا هناك عوضها مدينة ثانية سموها باسمها ونزلت قبائل منهم بالجزائر التي بالقرب من شطوط بلاد اسيا الصغرى المسماة الان اناطولي واكثره راحتهم هناك مارسوا العلوم والفنون وكثرت عندهم المعارف والاف لهم مينوس ملك كريد الذي سماه شعراؤهم قاضي الديران وقد مر ذكره قوانين اغلبها الحث على الحرب ادعى انه اُلهم بها

وفي سنة ٩٢٢ ق م ظهر بينهم اول شاعر وكان اسمه هسيودور ولعله هزبودرس الذي ذكره بعضهم فقال انه كان معاصراً لاوميروس نشأ في ضيعة من ضيع بيوتيا ولم يصل للتأخرين من شعره الا قصيدتان احدها سميت نسبة الالهة موضوعها الميثولوجية التي مر ذكرها وما فصلناه منها هنا وفي كتاب زينة الصحائف في اصول المعارف لجهة توليد الهتهم وما جرى بينهم من الحوادث والثانية سميت الاشغال اليومية وموضوعها الزراعة ومتعلقاتها وله ايضاً قصيدة اخرى تعرف بترس هيراكليس (هرقول) وشعره جيد ومتبول لكنه لم يضا شعراوميروس الذي عرف بانه هو اول شعراء اليونان ظهر في سنة ٨٨٥ ق م وكان صاحب قريحة بدبعة وعقل فائق نشأ بمدينة ازيراى

جزيرة ساقص المسماة جزيرة المصطكى وساج في جميع بلاد اليونان وبلاد
 اناطولي وجزائر البحر الرومي وبر مصر وغيرها من البلدان فبرع في علم الجغرافيا
 والاداب والاخلاق والعوائد وشرف اليونانيين بقصيدتين حماسيتين تسمى
 احدهما الالبادة والثانية لودوسيا وهما تتعلقان بمدح حروب اليونانيين
 وخرافاتهم خصوصا حرب تروادة الذي مر ذكره ولشعره حاسة عظيمة شهيرة
 في كتب العلوم الادبية الافرنجية ومعروفة عند العرب ايضا واليه اشار ابن
 الصائغ بقوله مدكاني اوميروس لد بن محمد ، ويقال بانّه فقد بصره عندما
 ذهب من المورة الى كولوفون ببلاد اليونان ومن ثم لقب بالاعمى وكان يطوف
 متسولا وهو ينشد اشعاره قطعة قطعة في اثناء تطوفه وبعده اعثنى بجمعها
 بيزستراتوس المشهور خليفة سولون وسوف يأتي ذكره وزعم بعض المتأخرين ان
 اوميروس المذكور ليس هو الا شخصا موهوما متخيلا نسبت اليه اشعار اليونان
 المتفرقة كما نقول العرب في مجنون ليلى والظاهر ان الذي الجاهم الى هذا الزعم
 هو عين ما الجاه غيرهم الى قول ما قالوه بشأن لغة اليونان وسوف نورده في
 الكلام على كل من اللغة والشعر في محله

وكانوا قبل كل شيء اعدوا مواضع لانواع اللعب المختلفة كركض الخيل
 والمصارعة والجري والمقاتلة والملاكمة وسائر انواع الرياضات التي تصلح البدن
 وتفيد النشاط والخفة والعافية وتجعله مستعدا للاشغال الحربية وان كان
 شملها الفساد بعد مدة حتى صارت كانهما من السخريات حيث انحصرت
 خاصة بالمصارعين او بفخر الرجل منهم بسبق فرسه له وان كان راكبها غيره
 وفقدوا بسببها الاعناء بالمصالح العامة الى غير ذلك من الامور المضرة وكانوا
 يفيمونها في مواسم مخصوصة لاهلهم لان ذكر منها هنا الا الملاعب الاولمبية التي
 كانوا يشهرونها اكراما لجوبيتر في كل اربع سنوات مرة بالقرب من مدينة
 لمية ببلاد المورة ولذلك سميت الاولمبية وكان اعظم ما فيها راحة الخيل
 وكانت المسافة ما بين اللعين تسمى بالاولياد وبه كانوا يورخون وكان اول

اولياد عندهم سنة ٧٧٦ ق م واما باقي هذه المواسم فهو مذكور في البحث الرابع من المقالة الثانية من كتاب زبدة الصحائف في اصول المعارف فلا يلزم ان تكرر تعدادها هنا وكانوا في البعض منها كالمواسم الساترنالية اي المختصة بساترن يغلقون الدواوين والمدارس العامة وينهادون ويؤخرون عقاب المذنبين ويتقاعدون عن الحروب وكان السادات يخدمون خدمهم على الموائد وكان الرجل الغالب في هذه الملاعب التي يلعبونها فيها يلبسونه اكليلاً من اغصان الزيتون الاخضر ويتفونته بالتصفيق ويكرمونه اكراماً لا مزيد عليه وكان من اراد الدخول بحجة اللاعبين لا بد له من ان يعد نفسه لذلك بامتناعه عن الاطعمة الغليظة وانواع المسكرات وعن كل ما يضعف الجسم لئتمكن من نوال الغلبة والى هذا اشار بولس الرسول في رسالته الى اهل كورنثوس (ص ٢٤:٩ و ٢٧) وفي هذا العصر ايضاً بنوا الهيكل المشهور لابلون في المورة ثم انقسمت هذه الامة اليونانية الى فرقتين الاولى اهاالي اسبرطة وهي مدينة شهيرة من بلاد المورة كانت كرسي مملكة لاقونيا بينها وبين البحر مسافة قريبة وتسمى ايضاً لقدمونة وقد عدت مع الزمان فلا يوجد الان الا اثارها والثانية اهاالي اثينا كرسي ولاية اتيكة وذهب كل منها مذهباً خاصاً به كما يعلم ذلك من التفاصيل الآتية

الفصل الثاني

في كيفية سلوك اهاالي اسبرطة

اما اسبرطة فيزعمون ان اول ملوكها كان هرقل وقد مر ذكره وانها بقيت مدة ٩٠٠ سنة تحت حكم ملكين من ذريته ثم في سنة ٨٨٤ ق م

ظهرت اسباب اوجبت لكورغة بن الملك اونومة ان يسافر من بلاد اسبرطة
 الى بلاد اليونانيين وبلاد ابوتيا وبر مصر لكيما يتعلم شرائع تلك البلاد فعند
 رجوعه شرع في تنظيم الحكومة واقبمت لهم مشورة اسمت بالسنت وهي مركبة
 من ٢٨ رجلاً غير انه لما قويت شوكة ارباب هذه المشورة لكونهم كانوا مستميرين
 لا يتغيرون صارت اهل البلاد تنتخب كل سنة ٥ قضاة لاجل منع ارباب
 المشورة من تجاوز الحد وصار لهؤلاء القضاة كلمة نافذة حتى انهم يعاقبون ارباب
 المشورة ويجرون جزاءهم ولو بالموت ونفذت احكامهم على نفس الملك ايضاً
 وكانوا يسون ابغوريس وذهب بعض المؤرخين ان هذه المشورة تربت بعد
 لكورغة المذكور بنحو ١٢٠ سنة ثم مزج لكورغة الاحكام بالاداب وجعل اهل
 اسبرطة كعيلة واحدة متحدين في المصلحة العامة مقبلين على اصلاح اوطانهم فازم
 من ذلك استواء الناس غنى وفقراً حيث انهم قسم الارض بينهم بالسوية وابطل
 معاملة الذهب والفضة وكل زينة لا تتوقف عليها المعيشة وجعل المعاملة بينهم
 بقطع ثقيلة من الحديد وصار الملوك واهل البلاد ياكلون على مائدة واحدة
 وزهدوا في المآكل والمشارب وكانوا لا يتجادثون الا في الاشياء المفيدة النافعة
 مع بعض نكات دقيقة وملح ادبية للتسلية وبراعون في ذلك الادب لتهديب
 الاخلاق ايضاً ثم يتناولون للخطابات الجدية وللتريضات العسكرية والحركات
 البدنية والاعاب التي تقوي ابدانهم وتجلب لهم الفخار وكانوا ممنوعين من العلوم
 الدنيوية ومن الصنائع المزخرفة وانما يميلون الى الشعر لكونه يهيج النفوس
 ويزيدها شجاعة وحاسة

وكان من اعظم الاسباب التي نشأ عنها فحول الرجال وكبراء الابطال
 فيهم احكام تربية الاطفال فانهم كانوا يربونهم على طرف الجمهورية وكانوا
 يعودونهم على الشجاعة والقوة وكانت المرضعات لا تجعلن لهم قاطاً ويعودتهم
 على عدم الخوف من ظلام الليل وعلى عدم التشكي الا للحاجة لازمة ومتى بلغ
 الطفل ٧ سنين سلوه الى المعلم ليعلمه الاشغال والتجدد على المشاق والتعب

والاسراع بالطاعة وكان المعلمون يسوون بين الاولاد في التعامل بالمكاتب العمومية بلا تمييز لاحد في تعليم شيء وتقديمه على اخر بل يعلمون الكل مع بعضهم بطريقة واحدة وكانوا يجعلون كل من ظهرت نجابته في التعلم حاكماً على من عداه من لم تظهر له نجابة وكانوا يحضرون اولادهم معهم على المواعيد العمومية ليغتنموا فائدة تلك المجالس ويسالونهم عن الاشياء المهمة ويطلبون رأيهم ويحلمونهم على سرعة الجاوبة مع الاختصار والبلاغة. وانما كانوا يأمرهم باختلاس مؤونتهم ويعاقبون من يطلع عليه في هذا الامر ليعلموهم على الخيل والمكابد الحربية وعلى شدة التيفظ والاحتراس واقتراس الاخطار وليس في ذلك شيء من راحة السرقة لوجود الاذن المسموح له شرعاً في احكامهم وكانوا اذا راوا في اولادهم من هوزمن لا ينفع في الخدم المعتادة قتلوه وكانوا يضربون الاصحاء منهم بالقضبان ضرباً مبرحاً ربما افضى بهم الى الموت عند هيكل ديانة (احدي الهتهم) ليعودوهم على تحمل الآلام وبذلك وامثاله من العوائد الخشنية يستدل على انهم كانوا لا يعرفون في امورهم الرفق الدال على الحكمة والعقل

واول ما أسسه لكورغة في شرائعها هو تشجيعها الى اسبرطة وتصيبرهم محاربين لا ينجلبون فكانوا دائماً مستعدين للحرب كانهم في معسكر وكانوا يقدمون على الحرب فرحين مستبشرين وكان يعلمهم ان الحرب لا يقصد به الا الذب عن النفس فلا يؤخذ من قتل سلبه وان لا يتخذوا سفناً بحرية تخافة ان يجرم ذلك للاسفار البعيدة والفتوحات وكانوا يكسون اصنامهم ولا سيما صنم الزهرة بالزرديات تشجيعاً لانفسهم لانهم اذا راوا الهتهم مكسوة باثواب الحرب حصل لهم من ذلك حاسة واشتاقوا اليها واذا قدموا هذه الالهة هدايا او قرابين قدموا ما قيمته قابلة خوفاً من التبذير وكانت صلواتهم قليلة ولا يهتمون بشأن الجنائز دليلاً على عدم انزعاجهم من الموت وكانوا يتنازون عن غيرهم بحسب الفخار والوطن والشجاعة والانتیاد للشرائع الى ان صاروا بذلك محترمين عند من جاورهم ومحكمين في فصل الخصومات بسائر بلاد اليونان وبلغ من خصالمهم

المدوحة ان رجلاً منهم يسي بداريطس كان صاحب معارف ومع ذلك ابوا
ان يجعلوه من اهل مشورتهم التي كانت تحوي على ٢٠٠ نفر فلم يتاثر من ذلك
بل اظهر الفرح قائلاً بحق لي الفرح والشكر حيث ان سبارطة وجدت لها
٢٠٠ رجل خيراً مني

ونظم ايضاً لكورقة النساء في سالك تربيته حيث لمن اليد العليا على
قلوب الرجال فاكتسب من التعاليم فضائل الرجال وصحة الابدان واورث
ذلك لاولادهن حيث اوجب عليهن معاناة الرياضات الشاقة وكانت
البنات ايضاً مستهزات على اللعب والمصارعة واذلك حصل من النساء عندهم
عجائب مدة طويلة واحترمن الرجال حتى ان احدهن قالت لابنها وكان
قد جرح جرحاً بايغاً صار به اعرج يا بني لا باس عليك بذلك فانك لم تسر
بعد الان خطوة الا وذكّرت شجاعتك وقالت اخرى لابنها وقد ناولته ترسة
عند ما كان ذاهباً الى الحرب عداً ما به واما عليه تعني بذلك اغلب وارجع
اليّ يو اومت كريماً فياتيني بك قومك محمولاً عليه وعلى هذا المنوال تشيدت
جمهورية اسبارطة وقويت جداً وتماظمت ووقعت الرعب في قلوب جميع
مالك اليونان التي امست تخاف سطوتها مدة ٥٠٠ سنة

الفصل الثالث

في كيفية سلوك اهالي اثينا

واما اهالي اثينا التي هي من الاقطار المجذبة وزال عنها الجذب بسبب
نجابة اهليها حتى صارت معمورة فانهم كانوا يكثرون من زراعة شجر الزيتون
ويتمون بولائه اصل رزقهم ويعتقدون انه هدية اهدتها لهم الحكمة الالهية ثم بعد ان

مكثوا مدةً منفسين الى ١٢ قرية على ما ذكرنا في ما سبق وجاء زمن حرب
 طروادة الذي سببت الاشارة اليه جمعهم رجل يقال له تيزه وجعلهم جمهورية
 واحدة وكان كرسي مملكتهم اثينا وقسمهم الى ٢ مراتب الاولى اهل الشرف
 والثانية الفلاحون والثالثة اهل الحرف وكان حكمهم اولاً من نوع الملكي حتى
 زمان احد ملوكهم المسمى قودروس الذي كان معاصراً لساؤل ملك اسرائيل
 وفي ايام هذا الملك اعني بعد فتح طروادة بنحو ٨٠ سنة رجع الهيراكلدية وهم من
 نسل هرقل الى بلادهم المورة وكان قبل ذلك طردهم منها رجل يقال له
 اوريسي جداً اغاممنون الذي تقدم ذكره

ثم لما اتوا لمحاربة اثينا ايضاً استشاروا في هيكمل ابولون الفال فانباهم انهم
 يفوزون بالغلبة على الاثينيين ان لم يقتل ملكهم قودروس المذكور في الحرب
 واذ كانوا يرضخون لمثل هذه الاوهام احتسروا جداً من قتله اما قودروس فلما
 علم بذلك تزياً بلباس العامة ودخل بين صفوف الجنود الهيراكلدية وقتل في
 المعركة حباً بانقاذ وطنه ولما شعر الهيراكلدية بما فعل وراوا جثته مجندلة على
 الثرى بين صفوفهم يشسوا من الغاية وانقلبوا راجعين وكان ذلك في سنة ١٠٨٢
 ق م اما الاثينيون فلم يحبوا ان يولوا بعد قودروس المذكور ملكاً عليهم بل
 جعلوا جوييتير الههم ملكاً عليهم وقلدوا الحكم الى ٢٠٠ شخص من الاراكنة واول
 من تولى هذا المنصب كان ابن قودروس وخلفه بنوه من بعده واستمر الحكم في
 يد ذريته نحو ٢١٢ سنة كان منصب الاراخنة فيها متوارثاً من الاب الى الابن
 واخيراً جعلوا للقاضي مدة ١٠ سنوات ثم جعلوها سنة واحدة ثم جعلوا الحكم الى
 ٩ منهم فقط وقسموا الحكم بينهم لتقل هيبتهم بعد ان كانوا جميعهم يشتركون في
 مهام الدولة لزعيمهم بانه متى كثرت المحاكم قلت هيبة الحكومة وحيث لم تكن لهم
 وقتئذ شرائع اتخبوا رجلاً يقال له ادركون قيل انه كان رئيس الاراكنة
 المذكورين ليترتب لهم شرائع فرتب لهم شرائع بغاية التشديد حتى انه جعل
 الموت عقاباً لكل من ارتكب ذنباً واذلك اُهمت هذه الشرائع المبنية على سفك

الدماء وطلب فقراؤهم الحكومة الديمقراطية واغنياؤهم الارستوقراطية ومعنى
الديموقراطية الجمهورية التي يحكمها اهلها من غير ان يكون لهم ملك سواء كان
ذلك بمشورة منها او من اعيانها الموكلين عنها فان الحكومة التي يحكمها ملك
يسمونها مونرشيكية واما الارستوقراطية فهي حكومة الاشراف والاعيان والاصل
في هذا الاسم هو الجيد القوي وقد ذكرنا ذلك هنا تبعاً للاصل والآ في ذلك
الوقت لم يكونوا يعرفوا هذه القواعد بعد وانما حقيقة الامر هي ان اهل الجبال
كانت تريد بان الرعية هي التي تتكلم في المصالح لان اهل المدينة ليس مثلهم
في العدد واما اهل السهول فقالوا ينبغي ان توكل المصالح الى اهل الاعتبار
واما البحر يون فقالوا ينبغي ان يكون الحكم من الاهالي واهل الاعتبار واخيراً
استقر رأيهم على ان يطلبوا من رجل يقال له سولون وكان من ذرية ملكهم
قدروس ان يرتب لهم شرائع وكان سولون في اسوقاً معاصراً الى تاليس الملبطي
الذي هو اول فلاسفتهم حسبما يتضح ذلك من مراجعة الفصل الاول من
المقالة الاولى من كتاب زبدة الصعائف في اصول المعارف وكان مولده في
الاولياد الخامس والثلاثين اي نحو سنة ٦٤٠ ق م بمدينة اثينا وتوفي وعمره ٧٨
سنة وكان ذا عقل عظيم وقوة عظيمة مع صدق وثبات وكان شاعراً ماهراً
وخطيباً فنيهاً بالقوانين شجاعاً في الحرب شديد العيرة على حامية حرية وطنه
وعدواً كبيراً للظلمة وقليل الاعناء في علوم مراتب اهلهم ولم يكن يعتني بالبحث في
الاسباب الطبيعية بل كان يصرف همه بالكلية في علم الاخلاق والسياسة وانه
هذه الحكمة العظيمة وهي خير الامور اوسطها وكان صرف بعض زمان صباه في
السفر الى بر مصر ليتعلم فيها قوانين الحكم وجميع ما يلزم للشرائع وعوائد البلاد
وصادف رجوعه الى اثينا هذه الاحوال فوضع لاهلها الشرائع التي طلبوها منه
على ما ذكرنا وكان ذلك في سنة ٥٩٤ ق م وكانت تلك الشرائع التي وضعها
شرائع عادلة مناسبة لروح ذلك العصر واحوال البلاد وجعل السلطة
الاجرائية في جمعية من الشعب لا يدخلها الا من كان قد اتى عليه ٢٠ سنة ذكرها

بعض المؤلفين فقال انه كان لاهل اثينا ديوان مشورة عمومية تنذركر في الامور المهمة حتى ان اعضاءها كانوا يقيمون الدعاوي على ديوان السنن الذي كان مركبا من ٤٠٠ شخص ثم تزايد بعد ذلك الى ٥٠٠ وقيل ٦٠٠ وكانت هذه المشورة تجتمع كل ٨ ايام مرة وكان كل من كان عمره ٥٠ سنة ييدي رايه فيها وربما كانت فصاحة واحد من هؤلاء الخطباء ارباب الفتن تغلب حكمة ارباب السنن ولذلك قال انخرسيس الاثقوثي الى سولون المقدم ذكره اني لا تعجب ما عندكم فان العقلاء لهم حتى التشاور والمجانين هم الذين يحكمون . وكان انخرسيس المذكور معدودا من الفلاسفة اليونانيين السبعة الكبار المذكورة اسماؤهم في المقالة الاولى من كتاب زبدة الصحائف في اصول المعارف وهو تناري الاصل واخو قدوبنداس ملك بلاد التتار اكن امة يونانية جاء الى اثينا في الاولبياد ٤٧ اعني سنة ٥٨٨ ق م وقتل بعد ان رجع الى بلده بندق جزئية وكان فيلسوفا محترما بين الحكماء غاية الاحترام جامعا بين اللغتين اي لغته الاصلية ولغة اليونان وكان فصيحاً ذا نشاط في كل شيء يعانیه ويتعلق به وكان سريعاً في خطبه مع الاختصار دقيقا في الفاظه وعباراته بليغا سريعاً في الكلام حتى كان اذا ما ثلثة احد في النطق يقال ان فلانا يتكلم بعبارته تانارية وكان يحب نظم الاشعار ولذلك نظم جميع قوانين بلاد التتار وضم الى ذلك منظومة في علم الحرب وهو الذي اخترع طريقة عمل اواني الفخار بالدولاب وكان سبب قدومه الى بلاد اليونان لكي يتعلم اللغة والاخلاق وعوائد البلاد فلما رجع الى بلاده قتله اخوه لكونه اراد ان يعمل عبداً لام الآلهة كما تعمله اليونان ثم ان سولون جدد ايضاً محكمة اريوس باغوس وجعل اربابها من قدماء الاراكنة وكان يقيد فيها الامور العامة وتعليم الاولاد لمعرفة ان بقاء عز المملكة يكون بتربيتهم وكان من قوانينه التي وضعها لهم بان كل انسان ثبت عليه انه لم يشتغل بحرفة ولا صنعة وانهم بذلك ٣ مرات فانه يفضح على روؤس الاشهاد وكذلك من يبذر في امواله ويحرم ابويه من القوت الا اذا كانا لم يعلماه صنعة

واما الوالد اذا بخل بالانفاق على ولده فلا يعاقب وانه لا يجب ان تجهز
 المرأة الى زوجها باكثر من ٢ اثواب وامتعة قليلة الثمن وان كل من اجتمع
 بالنساء الزواني لا يكون من ارباب مشورة الوعظ وان كل من سكر من ارباب
 المشورة يعاقب بالقتل وقسم الشعب الى ٤ رتب بحسب وجاهتهم وغنائم
 وانتخب ارباب الوظائف من الثلث الرتبة الاولى واما الرتبة الرابعة فهي عامة
 الشعب وكانوا ينعون من حبس المديون ومن لم يكن له ذرية فله ان يوصي
 بجميع ماله ومن مات في الحرب وله ذرية فتربية ذريته تكون على الجمهورية
 واذا حصلت بينهم فتنة عظيمة كانت جميع الاهالي مامورين باشهار السلاح
 وحمله لاختاد نار الفتنة ثم اتهم ضيقوا المصاريف التي كانوا يعطونها لنسائهم في
 ذهابهن للجناز والاحتمالات الدينية وكانوا يقبلون جميع الغريباء غير انهم
 لا يكونون من الحكومة وفي القانون المسي استراسيمه ان كل من اتهم بنفوذ
 الكلمة والشوكة وانحط عليه راي ٦٠٠ الف من الاهالي فانه ينفى ١٠ سنوات
 واما السارق فجزاؤه القتل واهتم سولون ايضا بتوسيع دائرة المنجر وترقية
 اسباب المعامل والصنائع والفنون وتكثيرها والزم كل انسان ان يباشر عملا ما
 من الاعمال لتحصيل ضروريات المعيشة على ما ذكرنا وحرص الناس على
 العفة وطهارة السيرة والافلاج عن استعمال الكلام المخل في الاداب او غير
 اللائق ومن خالف ذلك عوقب اشد العقاب

وبعد ان مهد هذا الرجل العظيم الامور واشهر شرائعها واخرجها من خبز
 القوة الى الفعل على ما ذكرنا قصد السياحة خارج بلاده فساخر واتى منازل
 اليونان في اسيا الصغرى ثم ايدى اليها التي كان ملكها كريسوس المشهور بالغنى
 واختلفت الاقوال بعد رجوعه الى بلاده فمنهم من قال ان اهل اثينا ارادوا
 ان يصبروه ملكا فلم يقبل ومنهم من قال انه وجد جميع ما كان نظمه ورتبه قد
 فقد نظامه ورأى عوضه فتنا قائما لم يستطع اخذ نارها وذلك لان رجلا
 يدعى بيزسترانوس كان قد اختلس الحكم من الاراكنة فبذل سولون جهده

عينا لتخليص بلاده من يد هذا المغتصب ولم ينجح وخلاصة الامر تولى المملكة
 بيزنترانوس المذكور في سنة ٥٨٠ ق م اما سولون فبعد موته رسم الاثينيون
 صورته من نحاس اصفر وجعلوه ماسكا كتاب القانون الذي الفه بيده وعليه
 ثياب مثل ثياب امير الرعية واما اهل مدينة سلامينا فصوروه مثل خطيب
 يتكلم ويامر وينهى العالم ويدها موضوعتان في طي ثيابه واما بيزنترانوس
 المذكور فنجح باستمالة الشعب اليه وبمعاملته اهل اثينا باللطف والاحسان ثم عين
 سكان القرى لزراعة الارض ليتباعوا عن المخاصات والتعصبات ابا كان
 عند اهل اثينا المذكورين من الطيش والخفة فكانوا اذا وجدوا شخصا منهم
 صاحب معارف وفضائل حماهم الغيرة منه على نفيه ثم بعد ذلك بشتاقون اليه
 فيردونه ويعطون له منصبا او وظيفة ثم بعد قليل يرجعون لهما كانوا عليه
 فيعاملونه بالظلم وينفونهم فلما عين بيزنترانوس سكان القرى لزراعة الارض كما
 ذكرنا احيوا موات الاراضي وكان الفلاح منهم يدفع العشر الى بيت المال
 وسهل عليهم هذا الامر بما حصلوا عليه من الراحة وحل اهلها الى المملكة على الرغبة
 والميل للعلوم والفنون ورتب لهم خزانة كتب وكان يجتبط به اشهر حكماء ذلك
 العصر وكان بلاطه كمدسة للعلماء وهو اول من اعنتى بجمع اشعار او بروس
 كما سبقت الاشارة الى ذلك وامرهم ان يتعلموها واقام لهم بنيانا عظيما في المدينة

الفصل الرابع

في خلاصة ما اشتهر به الفريقان من الحرف والصناعات والفنون
 والآداب واسباب ذلك

ثم لما وقعت اخيرا بعض اسباب سياسية اوجبت الخصام بين اهل

سبارطة واهل اثينا وتمكنت العداوة بين الفريقين شرع كل من جمهورية اثينا وجمهورية اسبارطة في اكتساب الشهرة العجيبة مخافة ان يفوق بعضهم بعضاً فيها مع كون ان كلاً منها يخالف الاخر في الطباع والاداب بحيث لا يمكن تصادقهما في الالفة والاجتماع ومن ثم حصلت من كل منهما اشياء عجيبة وامور غريبة فكان من شان اهالي سبارطة ان لا يتموا بشيء سوى الحرب ولا يشتغلوا في مدبنتهم الا بصنائع الاسلحة العامة وكانوا فقراء الحال بخلاف اهالي اثينا فانهم كانوا يشتغلون في مدبنتهم بالصنائع والحرف ومواعين باكتساب المعارف حتى صاروا اغنيا وكانوا يحبون الفخر والوطن واذا احتاجت الجمهورية للحرب تركوا الشغالهم وصاروا كلهم عساكر وكانت عقولهم كاملة بقدر ما فيهم من الشجاعة وما زالت هذه الاوصاف في هاتين الجمهوريتين حتى اشتهرتا ببلاد اليونان وشاع ذكرها ولو اتفقنا على العمل بالقوانين لكاتنا اصلاً نافعاً لجميع العالم وانما كانت اهالي سبارطة هي التي تعمل بها دون اثينا وهاك خلاصة ما قد اشتهرتا به من الحرف والصنائع والفنون والاداب على وجه الاجمال وهي

كان اليونانيون في مبادي امرهم وزمان توحشهم يكرهون الفلاحة والزراعة فلما اشتغلوا بالمعارف تعلموها حتى انه اعنى بها الملوك والفلاسفة وكانت اهالي اثينا تزرع الزيتون خاصة لان اراضيهم لا تقبل زراعة غيره وياخذون الحبوب التي يبتاعون بها من قبائلهم

ثم عرفوا ايضا بان التجارة ربحاً اغنت عن الزراعة اذا وقع تبادل جيد فذلك نص اغزيفون المورخ اليوناني في هذا الباب على هذه الحرفة في بعض مؤلفاته السياسية قائلاً انه ينبغي معاملة ارباب التجارة باللين والرفق ودفع الاثمان لهم قبل المبيع واعطاهم سفناً يجعلون فيها عروض التجارة اذا علمت امانتهم سواء كانوا من اهالي الوطن او غربا اجانب ومن المعلوم انه كلما زادت اموال احاد الناس كثرت اموال الماكنة فصارت بلاد قورنثية وسيراقوسة عامرة بسبب التجارة

ثم لما تولى ملكة اثينا بيركليس الخطيب اليوناني تلميذ انكسفوراس
 الفيلسوف في سنة ٨٨٦ ق م وكان ذا فصاحة وقراسة بحيث لم يكن احد من
 معاصريه مساوية له حل اليونانيين على الاشتغال بالحرف المهمة والصنائع
 العظيمة فاشتغلوا بها مدة ٢٠٠ سنة كانت عمارات اليونان فيها على ٢ انواع نوع
 ينسب الى دريد والثاني الى ابونيا والثالث الى قورثية ولم تنزل هذه الانواع
 موجودة بصفتها لم تتغير وكانوا كلما حسنوا ابتنتهم وزادوا في اتقان البناء اشبهوا
 الاقدمين في عدم التزين وقد نص بعض قوانين افسس المشهورة في الكتب
 العربية بمدينة اهل الكهف^(١) على منع الاسراف في بناء الميادين العامة وترك
 المغالاة في ذلك وانه ينبغي ان المهندس يعين مقدار ما يلزم صرفه من الاموال
 في العمارة التي يريدون انشاها ويبرهن امواله على ذلك فان لم يزد ما صرف
 فيها على ما عينه العمل عليه باعطاء جائزة وان زاد مقدار الربع دفعوه فاذا
 كثرت الزيادة عن ذلك اخذوا الزائد من امواله وفي هذه المدينة التي لم يبق
 منها للآن الا بعض اثار بني اليونانيون سكان اسيا الصغرى هيكل ديانة
 ونسب ايضا ارطاميس وهي الالهة التي كان يعبدها اهالي البلاد وهو معدود
 من عجائب الدنيا السبع طوله ٤٥٠ قدماً وعرضه ٢٠٠ قدماً وكان مشتملاً على
 ١٢٦ عموداً ارتفاع الواحد ٧٠ قدماً واشتركوا في ما انفقوه عليه واهدوه لهنك
 الصنعة ثم بعد ان استمر ٢٢٠ سنة عامراً أحرقت يوم ولادة الاسكندر المكدوني
 فزعم الافسسيون ان النار لم تتمكن من احراقه الا لكون ديانة المذكورة كانت

(١) سميت مدينة افسس بهذا الاسم في الكتب العربية لان اهل الكهف عند المسلمين
 هم التتية السبعة المشهورون عند بعض طوائف النصارى بهذه الاسماء وهي مكسيه بيليانوس
 وبسلفيس ومرتينيانوس وديونيسيوس وانطونيوس واكسكوسنديانوس وقسطنطينس
 ويعتقدون انهم رقدوا في مغارة من هذه المدينة على عهد داكيوس الملك سنة ٢٥٠ ب م
 فناموا ١٨٤ سنة الى ان تملك القيصر ثاودوسيوس الصغير فاستيقظوا ثم خامرهم النعاس
 ثانية فناموا سنة ٤٢٤ ب م واما عند المسلمين فاسماؤهم بيلنجا مكشيلينا مثيلينا وبرنوش
 شازنوش مرتونش طنشطيطو قطهير ومدة نومهم كانت ٢٠٠ سنة شمسية

مشغولة في ذلك اليوم بولادة اوليبياس ام الاسكندر والذي احرقه رجل يقال
 انه ارستراط كان حامل الذكر فاراد ان يجعل له شهرة بحرقه ولذلك نهى
 اهل افسس عن ان ينطق احد باسمه جزاء له وعقابا لكن ضرب المثل عندهم
 بقولهم ان الاحق الذي لا يقدر على اصطناع قفص حديد قدر على خراب
 هيكل عظيم ولم يبق من هذا الهيكل الا الآن الا بعض القناطر التي كان مبنيا
 عليها ولم تزل اصحاب السياحة يجثون عن اثاره في محله مع ان هذه المدينة
 كانت عامرة في الزمن القديم بالعلوم والفنون وخاصة بالاهل والسكان حتى
 وفي مبادي القرن الاول للتاريخ المسيحي وفيها كانت واقعة بولس الرسول مع
 ديمتريوس الصائغ واهل حرفته المذكورة في اعمال الرسل (ص ١٩: ٢٤-٤١)
 وكانت اصنام اليونانيين على هيئة اصنام المصريين اباديها ملتصقة
 باجسامها وكذلك اخذاها وارجلها ملتصقة ببعضها غير متحركة ولا ما لوفة
 لعدم انقائها واطنمها الى ان ظهر رجل يقال له فدياس فبالغ في انقائها وحسن
 صنعتها على حسب علوه ومعارفه وكان هذا الرجل صور صنفا يوضع على
 عمود فضاهاه رجل مخاصم له يقال له الكامين وصور صنفا مثله فنظر الناس
 لكل منهما فوجدوا صنم فدياس قبيح المنظر وصنم الكامين بالعكس فعرف
 فدياس علة ذلك وهي عدم وضع الصنم في محله فامرهم ان يجعلوه في الموضع
 الذي عينه له فلما وضعوه في محله وجدوا الامر بخلاف ما نظروه قبلا واقروا
 بالخطا في ما كانوا اعتقدوه ثم اشتهر غيره من الذين يصنعون الاوثان منهم
 ميرون وليزيب وايركسنييل وشاع ذكرهم بحسن صناعتهم ومن جملة ما اتفق
 لاحدهم ايركسنييل المذكور ومدح عليه هو انه صور صنمين على صورة الزهرة ثم
 اعطاها لاهل بلاد كوس ليخاروا منها واحدا فاخاروا واحدا لا يعادل
 الاخر في الحسن وذلك لان الذي لم يخاروه كان مستورا بپراقع واما الذي
 اخاروه فكان مكشوقا مع انه لم يكن عند اليونانيين وقتئذ من الالوان الا
 اربعة فقط ثم اشتهر ايضا في هذه الصناعة بوليبيوت وابولدوز وزكسيس

وبرهسيوز وتيمنت وايبيل وبرنجين وغيرهم
 وكان اهم ما عند اليونانيين من الاشياء العظيمة العزف بالآلات الموسيقية
 فكان اكثر تعلقهم واهتمامهم به وكانت الحانهم واغانيتهم ظريفة ونشأ عن ذلك
 رقة مزاجهم وحسن طباعهم وتحلمهم افتخام الممالك في القتال وكانوا يدخلون
 منها في تربية الاطفال ما هو ضروري لكن كانت قوانين اهل سبارطة تمنع
 الاختراع والزيادة فيها والظاهر ان الموسيقى لم يكمل حستها وظرافتها الا في
 زمن المتأخرين

وكانوا في زمن اوميروس يجهلون العلوم الحربية والقوانين العسكرية فلما
 جربوا امور القتال اشتغلوا بالعلوم المتعلقة بالحروب حتى تعلموها وتهوروا فيها
 فصاروا ينصبون عراضهم على وجه عظيم وبرتبون العساكر ترتيباً حسناً ومن
 اطلع على تاريخ محاصرتهم سراقوسة وصور عرف مقدار درجتهم في ذلك وكان
 اكثر عساكرهم مشاة وخيالتهم يركبون من غير ركابات وسروج وكانوا يقاتلون
 في المركبات ايضاً ثم تركوها لعدم نفعها وكانوا اذا نزلوا للقتال تلبس اهالي
 سبارطة ثياباً حمراً الوانها كلون الدم لئلا يظهر من جرح منهم وكانوا ينعمون
 على شجيمان عساكرهم ويعاقبون الجبان وكان من قوانينهم ان كل واحد من
 الاهالي عليه ان يحمل السلاح ما لم يبلغ عمره ٦٠ سنة

وكانوا يوصفون بالاداب العظيمة كالذوق السليم وقوة الادراك واتساع
 اللغة وحسنها بحيث نالها الاسماع ولا تعجزها فسادوا بعلومهم الادبية على من سواهم
 من الامم وصاروا قدوة لغيرهم في المعارف وكانت لغتهم لا نظير لها في الفصاحة
 والحسن في كل شيء ولا سيما في زمن اوميروس فكانت جامعة اللطف
 والظرافة والحماسة والقوة ولذلك استدلل بعض المتأخرين على ان هذه الاوصاف
 الجبيلة والحماسن العظيمة كانت موجودة قبل اوميروس ناشية من كتب مولفة
 في علوم الادب لانه لا يمكن استنباطها وانتشارها الا من الكتب المولفة في تلك
 العلوم وقال اخرون غير ذلك وعد بعض الوعاظ من المسيحيين من جملة

اسباب تاخير مجي المسبح الى العالم مدة هذا مقدارها من بدء الخبايعة الى الزمن الذي جاء به استكمال لغة اليونان هذه الصفات التي ذكرناها لتقدير ان تقوم بخدمة بشرى الانجيل الذي لم تكن في تلك الاعصر لغة لتقدير ان تقوم بتبليغ مقاصده نظيرها

وكان لم اعناء عظيم في الشعر حتى ان الخشنيين منهم كانوا يشعرون وكانوا يبيلون بالطبع الى جعل حظوظهم واغانيتهم متعلقة بالآلهة التي يعبدونها وبالشجمان الذين يمدحونهم وبالوقائع التي يعانون حفظها وقصيدة او بروس المسماة اليادة حيث فيها اليونانيين على ترك الفتن بينهم وعلى الشجاعة والحماسة ولم يتعرض فيها لذكر الفضائل ومكارم الاخلاق لغائتها في ذلك الوقت وقصائد هذا الشاعر هي التي نشأ على منوالها القصائد الحزنية وكان من عادتهم ان يلعبوا في الميادين العامة العاباً مسائية يحكون فيها السير والقصص والوقائع فاما كانت قصائد اشيلس المعاصر للملك اكرسيس الذي تولى مملكة فارس سنة ٤٨٥ ق م نشأ عن انشادها والاطلاع عليها بعض الظلم اخترع شاعر اخر يقال له اسقلوس ابداع منها وكان في زمن هذا الشاعر شاعر آخر يسمى اوربيدس فنظم القصائد الحزنية المقدم ذكرها التي كانت توثر في القلوب لهما فيها من النكات الادبية وكان في عصر الحكيم سولون اخترع شاعر يقال له طسيس فن القصائد الالعبية المسماة درماتيقية وهذه القصائد كانت هزليات قبيحة ولم يكن لها فائدة الا التهيئة لطرق العفل وتحسين التريجة ثم بعد ان كانوا معتادين على مواضع الاشعار الحزنية استحسنوا تلك الاشعار المشتملة على السخرية والمجون الفاقدة للحميا التي نظها الشاعر ارسطوفان ولا يعلم كيف كانوا يرخصون له في العاهم الاستهزاء بالالوهية وارباب الدولة والحكام واصحاب سقراط احد الفلاسفة ومن خلل هذه الالعب انهم كانوا يوذون الناس بها بالمبالغة في ذمهم وهجوهم ثم في زمن حكم الثلاثين ظالمها الذين حكموا سنة ٦٢٤ ق م وكانت مدتهم نحو ٣٠ سنوات ازليت تلك الالعب القديمة وحدثت العاه مشتملة على

ذم الناس وهجوم لكن من غير تصريح باسمهم كالسابقة ثم في زمن الاسكندر
المكدوني زالت هذه القصائد بابطال اياها وتجددت العباب اخر مشتقة علي
ذكر اوصاف الناس من غير ان يتأذوا منها واعنى بها الشاعر ميناندر حتى
جعلها تفوق ما قبلها لكنها لم تدم بل ذهبت ايضا قال بعض المؤلفين انه يحق
التأسف والحزن على تعبه الذي ضاع وحسن افعاله التي نفعت المورخ ترنس
الروماني وسوف ياتي ذكره في تاسيس تواريخها عليها ثم بعد ذلك اشهر جماعة
من الشعراء وشاع ذكرهم حيث ابتدعوا في قصائدهم انواعا شعرية وهم هزيبود
المولود في مدينة كومة وهو اول من نظم في علم الزراعة وكان معاصرا الى
قيقرون فانه اشار عليه بان يامر تلامذته بحفظ تلك المنظومة وانه عدة تأليف
نفسية والفيه وسافة وينداروسميند وانقريون وتيغريد وغيرهم وكانت قصائدهم
مشتقة على اشعار الاغاني واشعار الرعاة والشعر التعليمي والهجو فتلقاها الافرنج
عنهم وزاد الرومانيون في تحسين تلك الاشعار والغوا في تنقيحها

واشهر هيرودوتوس ويقال هردوط الهاليكرناسي بانه اقدم المورخين
واقرب باي التاريخ وكان مولده بعد غزوة اكرسيس ملك العجم بسنين قلائل
وكان يعتني بالامور العجيبة والاهوام الخرافية وقد الف كتابا في الالعب
الاولمبية وغيرها من المواسم والاعياد فاكسب عندهم الرفعة والشرف
بذلك وكان توسيد يد وقتئذ صغير السن فلما سمع ما في هذا الكتاب سالت
دموعه حتى كانه سمع اشعارا حزينة فبشر هردوتوس اهله بان هذا الشاب
مولود مع غاية الاستعداد للعلوم والمعارف ثم لما انضم هذا الشاب بجملة الحاربيين
في غزوة المورة جمع فيها تذكرات صحيحة الف منها كتابه المتعلق بهذه الغزوة وهو
كتاب عظيم من كتب التاريخ ثم بعد هذا المورخ يبسير ظهر المورخ زنفون او
هو اغزنيفون الذي كان من الفلاسفة تخرج على سقراط واخذ عنه علم السياسة
ايضا وكان في ابتداء امره مشتغلا بال عسكرية واعان قورش ملك العجم في
محاربتة اخاه ارتكزسيس وبعد ان مات قورش في هذه الحاربة عاد اغزنيفون

الى بوغاز كالبيوبولي وارخ تلك الواقعة ثم تعلق باجيلاس ملك لقد مونة وبعد
ان اظهر شجاعته في معاونة اهل سبارطة ذهب الى قورنثية واشتغل فيها بالامور
العقارية النفيسة وكان مولده بمدينة اثينا سنة ٤٥٠ ق م وتوفي نحو سنة ٣٦٠ ق م
وله عدة مؤلفات سياسية لكنه امتاز في صناعة التاريخ بسبب كتاب الفقه يسمى
قوروبوديا وهو في الحقيقة حكايات ادبية وحكم سياسية اغلبها واقعي فلا ينبغي
نظفه في سلك التاريخ ثم ان اشهر مورخي اليونانيين بعد من ذكروا هم بوليب
ودانوس الهاليكرناسي وثيودور الصقلي وبلوتاركة

واما اختراع النصاحة الحقيقية التي تضم قوة العنل الى قوة الاحساسات
فينسبونه الى بيركليس الخطيب لانه قيل هذا الخطيب الفصيح لم يكن عندهم الا
خطباء لافصاحة عندهم ولا بلاغة وهناك رجل اخر يقال له دمستين كان
مستوليا على عقول الناس بمعارفه العجيبة حتى ان ايشين الذي كان معاصرا
له وكان من الباغاء لم يمكنه ان يقاومه وغلب بشدة فصاحبه حكمة فوسموا بالحكيم
وكان ايزقراط ايضا فصيحاً بارعاً في الخطابة لكن دمستين المذكور لم يتعلم عليه
لكونه كان على ما قيل فقيراً وكان ايزقراط ياخذ على التعليم اموالاً عظيمة
واذلك تلقن دمستين على معلم اخر وكان اغلب فصحاء ذلك العصر
سوفسطائية يقيمون الادلة على الشيء حقاً كان او باطلاً وكانوا يعطون الشيء
الباطل صورة الحقيقة ويكسون الكذب ثوب الصدق فلذا كانت قواعدهم
واصولهم وادابهم لانسائي اذاب مدح دمستين المقدم ذكره في الملك فيلبس
فان الفصح العظيم الخطابة انما هو من حاز المعارف والرياضة والتمرن والاشتغال
والانوذجات العظيمة

وبجرد ما حلت الرغبة والشوق والمساغبة وغير ذلك من الاسباب
الامة اليونانية على التفكير والمطالعة للبحر دخلت عندهم الفلسفة فكان اوائل
الفلاسفة هم حكماء هذه الامة الذين استقلوا اصالة باصول البولينية والتدابير
واجبات الجمعية وقد كانوا وقتئذ لا يعرفون التدقيق في الكلمات ولا المجادلة

في الانفاظ ولم يكن لهم مذاهب مضادة لبعضها ولم يضلوا في الآراء المخرافية
 والمذاهب الهذرية كما حصل أخيراً منذ ظهر تاليس الميليطي الذي كان معاصراً
 للحكيم سولون الذي مر ذكره حيث اتهم صاروا يتعقلون ويبرهنون على اصل
 العالم ومبدئيه وعلى العلل الاولى وعلى جميع الاشياء التي يعسر على العقل معرفتها.
 يحكى ان تاليس المذكور كان ذات يوم يرصد النجوم فوق في هوة فقالت له
 عجوز كيف تعرف السماء مع انك لا تنظر ما تحت رجلك قال بعض المؤلفين
 في الواقع ان سير النجوم وان امكنت معرفته الا ان كلام هذه المرأة معقول لان
 معناه انه لا ينبغي للانسان ان يتأمل في ما هو فوق طاقته ومعرفته وكان
 مولد هذا الفيلسوف سنة ٦٤٠ ق م وهو اول الفلاسفة الذين اخذوا في التعقل
 والبرهنة على ما اشرنا وكان رئيس القسم الاول منهم المعروف باليوناني ومن
 اشهر تعاليمه ان الماء هو اول الكائنات وعنه وجدت سائر الصور والمواد وان
 الله اوجد كل شيء من الماء وهو راي قديم ذهب اليه قدماء المصريين وعندهم
 اخذ هذا الفيلسوف لانه تعلم في مصر وهو ما زال مقبولاً ومعولاً عليه عند
 كثيرين من علماء هذا العصر ثم اخترع نظم الاشعار المسدسة وهو اول من
 اخبر عن كسوفات الشمس والقمر قبل وقوعها واظهر الكهربية بالحك وعرف
 طريقة مقياس ارتفاع الاهرام والقلاع ونحوها من ظلها الجنوبي حين تكون
 الشمس في زمن الاعتدال وهو الذي قال ان السنة ٣٦٥ يوماً ورتب قواعد
 الفصول وحدد الشهور ورصد الدب الاصغري بنات نعش . والثاني
 فيثاغورس رئيس القسم الثاني المسمى بالابطالاباني وكان ظهوره سنة ٥٣٦ ق م
 وهو اول من تلقب بالفيلسوف وكان يعتقد تناسخ الارواح واول من علم عن
 استدارة الارض وقال بوجود المتقاطعات ووضع جدول الضرب للارقام
 الحسابية واخترع اصول الاحمان والانغام ومن تلامذته ارخيتاس اواركيانس
 تاريتينيوس الذي اخترع البكرة والبرمة فكان بذلك هو المؤسس الاول
 للعلم الطبيعي الميكانيكي ومن ثم تشعب هذان القسام الى فرق متعددة

بضاد بعضها بعضاً كالفرقة السقراطية التي كان رئيسها سقراط ومن
 تعاليمها المعنويات ووحداية الله والفرقة الفيروانية التي وضعها ارستيب
 تلميذ سقراط وزعمت بانه لا يوجد فرق اصلاً بين الخير والشر وحشرت سعادة
 الانسان في اللذات الزمنية فقط والفرقة الاشراقية التي وضعها افلاطون الذي
 يقال انه غار على كتب موسى النبي واخذ عنها اشياء كثيرة اضافها الى فلسفته
 وقد سماه قيقرون بالفيلسوف الالهي ويصح ان يقال عنه ما قاله بولس الرسول
 بانه كان من الذين لما عرفوا الله لم يعبدوه او يشكروه كاله (رومية ص ١: ٢١)
 ومن تلامذته ارستطاليس رئيس جمعية المشائين الذي اشتهرت تعاليمه جداً
 واعتمتها العرب وتشبث بها اهل اوروبا زماناً طويلاً وما زالوا يعولون على بعضها
 الى الان وهو اول من شرع بشرح الحيوانات لمعرفة طبائعها وخصوصياتها
 وكان ذلك بامر الاسكندر المكدوني ونفقت والفرقة الكليية التي اسمها
 اتيشينيوس وديوجينيس اللذان رفضا العلم كانه شيء لا نفع فيه واتبعنا عن
 معاشره الناس ولا مآهم والجمعية الرواقية التي وضعها زينون الذي كان يعلم بان
 سعادة الانسان تقوم في الفضيلة وحدها . والفرقة الهيرقاييسية التي كان رئيسها
 هيرقايطس الافسسي الذي كان رجلاً متكبراً يمتنر الناس ويعيش في الجبال
 والفرقة الايباتيكية المنسوبة الى اليا او فيليبا الايطالياني الذي زعم بان العالم
 ازلي ولا يمكن ان يكون من العدم ومهد بذلك الطريق الى سبه نوسا الذي
 انكر الاوهية والفرقة البيرونية التي اهلها بيرون منكر الحقيفة والفرقة الايبفورية
 التي كان رئيسها ايبفور الذي من قواعد تعاليمه انكار عناية الله وخلود النفس
 ووجود الارواح وانه يانم رفض كل شيء غير التمتع باللذات وافراح الدنيا
 وخلاصة الار ان الفلسفة صارت اخيراً منبعاً للاوهام الباطلة والمجذبات
 الخطرة واهمال حقيفة الاداب والمواعظ وقواعدها واصولها وعلى هذه الصورة
 اخذها الرومانيون عن اليونانيين حتى ان كثيراً من تلك القواعد الفاسدة
 كانت سرت الى العبرانيين ايضاً ومن اراد الانساع بمعرفة تفاصيل ما ذكرناه

بأكثر ايضاحٍ فعليه بمراجعة المقالة الاولى من كتاب زبدة الصحائف في اصول
المعارف

وقد اشتغل اليونانيون بعلم الفلك والجغرافيا والهندسة ونجحت امالم في
هذا الفن الاخير كل النجاح وذكر صاحب تذكرة الحكم اقليدس الصوري
صاحب الهندسة بجملة فلاسفة اليونان على ان لقبه يدل على انه كان من
الفيثيقين وليس من اليونان وقال ابن خلدون المغربي ان اقليدس صاحب
كتاب الاصول في الهندسة كان نجاراً وكذلك ابلونيوس صاحب كتاب
المخروطات وميلاوس وغيرهم

ومن اليونانيين نشأ ايضاً علم الطب وكانوا يتداولونه لساناً لا كتابة حتى
ظهر بقراط فكتب عدة فصول فيه شرحها ابن النفث وكان ظهوره سنة
٤٦٠ ق م قال بعض المؤلفين انه ينبغي ان يكون بقراط اول من اخترع
الطب الموسس على النظر في احوال المرضى والتجربات وقد اخترع لذلك
المارستانات اعني بيوت الصحة وذكره صاحب تذكرة الحكم فقال انه كان
يسكن مدينة حمص من بلاد الشام وله تاليف في الطب ترجمت في عهد
المأمون الخليفة السابع من بني العباس الى اللغة العربية وبعده ظهر جالينوس
من برغامس وذلك في مبادي القرن الثاني للميلاد وله تاليف كثيرة وتصانيف
جليلة فمرسها على ماروته العرب يتجاوز المائة وظهر معه روفس وغيره فوسعوا
دائرة هذا الفن وكان من اعتقادهم فيه هو ان الاجرام السموية دخلا في امراض
البشر وتأثيراً في اجسامهم ولذلك قال بقراط ان الطبيب الذي لا يعرف علم
النجوم لا يعتمد عليه لكونه ما زوماً ان يتجرى اصلح الاوقات لاعطاء الدوا وكذا
قال جاليناوس من بعده وكانا يزعمان ان بجران المريض ياتي في اليوم السابع
والرابع عشر والحادي والعشرين وهي الايام التي ينتقل فيها القمر من حال الى
حال بل جعلوا ايضاً جسم الانسان بمنزلة عالم صغير فنزل القلب فيه منزلة
الشمس في الافلاك والدماع بمنزلة القمر وزعم ان المشتري يتولى الرئة والبرنج

يتولى الكبد وزحل يتولى المرة والزهرة تتولى الكالكينيت وعطارد يتولى الات
التناسل والظاهر ان هذه الالهة سررت اليهم من المصريين الذين اخذوا عنهم
كثيراً من معارفهم ومن الشفاء ان الاطباء اليونانيين كانوا كالفلاسفة ايضاً في
نسبهم الى عدة مذاهب بعضها عدو لبعض واختلفهم في اصول العلوم او صلهم
الى عجايب متناقضة فكان الانسان منهم يشغل مدة حياته في الرد على غيره
وتأييد مذمعيه ولذلك حتى ان يقال بانه نعم لا ينكر فضل هذه الالهة اليونانية
على المتأخرين في كثير من انواع العلوم والفنون ولكن المتأخرون فاقوا عايبها
في اغلب الامور بالطرق المستحسنه والاستكشافات النافعة

غير انه ما يستحق الاعتبار في فضائلها ايضاً هو شوكه معارفها التي لم تبح
وقتنه ساطية على دواة التبرير والجهل في حالتي قوة اسلحتها وضعفها لانها لما
نسلطت تحت راية الاسكندر المكدوني وتغلبت على كثير من الممالك في الارض
كافآت مصر على ما كان لها عليها من الايادي قديماً باعادة ما كان لها من
رونق العلوم وبهجة المعارف وقد كان ضاع منها ذلك مدة نسلط العجم عليها فانه
لما كان من عادة هذا الفاتح ان يعمر مدناً في المواقع الملايئة للتجارة في شطوط
الاقاليم التي يفتتحها ويسببها باسمه بنى كذلك في اقليم مصر بعد ان انتزعه من
يد الفرس المذكورين مدينة على شاطي بحر الروم سماها اسكندرية ثم لما خلفه
بعد موته على مملكة مصر بطليموس سببر احد قواد عساكره اعاد في هذه المدينة
ما كان اندرس في تلك البلاد من انواع العلوم والفنون بل زاد عليها اموراً
لم تكن تعرفها من قبل فتجددت شهرتها ثانية في زمنه وزادت رونقاً وبهجة في
زمن خلفائه من بعده وكذلك لما آل امر الالهة اليونانية ان تدخل تحت حكم
اخوتها الرومانيين سنة ١٦٦ ق م نشرت لهم ايضاً علومها ومعارفها وما كانت
وقتنه متصفة به من المتأخر التي هي اعظم ما كان متولعاً به اولئك القوم الذين
كانوا غير موصوفين الا بالفنوحات فقط نظراً لكمال عقولها ومعارفها وادابها
وتعليمها لم خفيفة الشعر ومحاسنه والبلاغة وعلم التاريخ والادب كما يشهد لها

بذلك تأليف الذين اخذوا هذه العلوم عنها واشتهروا بها من الرومانيين انفسهم
 كترانس وقيفرون وورجيل وهراس وغيرهم ولم تقتصر معهم في هذا الفعل
 الحسن على هذه المرة فقط بل امتدت به اعقابهم ومن خلفهم في ايطاليا وجاورهم
 في سائر بلاد اوربا مرة ثانية ايضاً وهي في حالة الجلاء والالنجاء اليهم لما هجر
 بعض علمائها مدينة القسطنطينية وقت ما افتتحها آل عثمان كما يعلم ذلك من
 التفصيلات الآتية في القرون الاخيرة فكان ذلك داعياً الى اكرامها وتعظيمها
 حيث كانت قدوة لغربها في الشيم الجميلة والفضائل الجميلة

الخاتمة

ثم لازال اليونانيون نحت حكم الرومانيين من ذلك الزمان الذي اشرنا
 اليه الى سنة ٢٦٤ ب م عندما انقسمت المملكة الرومانية الى قيصرية شرقية
 وغربية ومن ثم صارت بلادهم المسماة بهيلاس جزءاً من القيصريّة الشرقية ولما
 افتتح آل عثمان المشار اليهم هذه القيصريّة في سنة ١٤٥٣ ب م صارت كذلك
 جزءاً من المملكة العثمانية الى سنة ١٨٢١ ب م ثم استقلت وتحرر جانب كبير منها
 انضم اليه في ما بعد الجزائر اليونانية السبع التي كانت باقية تحت تسلط او حياجة
 الانكليز لحد سنة ١٨٦٨ ب م

وكان اول من ترأس على هذه المملكة الجديدة رجل يقال له كابودواستريا
 قتل سنة ١٨٢١ فانخبت دول اوربا العظام اي انكلترة وروسيا وفرنسا واثون
 ثاني اولاد ملك بافاريا ملكاً نوذي باسمه رسمياً في ١٨ اب سنة ١٨٢٢ وفي
 سنة ١٨٣٥ نقل كرسي المملكة من نوبليا الى اثينا ومن هذا الوقت بيتدي تاريخ
 هذه المدينة كمركز للتمدن الحديث في ذلك القسم
 ولما استمرت هذه المملكة تحت ساطق الملك المشار اليه سلطنة استبدادية لحد

سنة ١٨٤٢ ساء ذلك اهالي البلاد جداً لانهم كانوا يتوقعون حكومة ملكية
مقيدة وحينئذ قام الجنرال كالرجيس قائد العساكر المقيمة في اثينا بمواطاة
الشعب واحاط ليلة ١٤ ايلول بقصر الملك وطلب اقامة جمعية نواب من
الامة اوضع دستور نظامات للبلاد فرضي الملك بذلك وترتبت وزارة جديدة
وطأبت نواب الامة فجرى انتخابهم من احسن رجال البلاد وكان عددهم ٢٢٥
عضواً وللحين شرعوا في الاعمال وقُبلت النظامات التي وضعوها في ١٦ اذار
سنة ١٨٤٤ فكانت من اهم قواعدها ضمانه حقوق الاهالي السياسية والشخصية
ومساواة جميع التبعة لدى الشريعة وحرية الاديان والمطبعة واقامة مدارس
على نفقة الدولة وعدم انتهاك حرمة المراسلات وعدم سجن احدٍ من دون محاكمة
وتحويل الدعاوي الى محكمين يعرفون بالجوري واستقلال القضاة في احكامهم
ونفويض سن الشرائع الى الملك ومجلس نواب ينتخبه الشعب الى ٢ سنين ومجلس
شيوخ (سنا) ينتخبهم الملك الى مدة حياتهم وينتخب ايضاً الوزراء الا انهم يكونون
خاضعين لنظامات البلاد اذا اخلوا بما مورياتهم الى غير ذلك من النظامات
التي لا يحل هنا لذكرها وقد سلكت البلاد بحسب هذه النظامات من حين
قبلتها الى الان غير انه بقيت هناك اسباب اخرى اوجبت اخيراً خلع او ثون
الاول المشار اليه سنة ١٨٦٢م فتولى الملكة بعده جورج الاول ابن ملك
الدانمارك وبعد جلوسه ببرهة جزئية تزلت ملكة الانكليز عن الجزائر اليونانية
السبع التي كانت تحت حكومتها وازافتها الى مملكة هذا الملك الجديد
على ما سبقت الاشارة اليه

وكان عدد اهالي اثينا لحد الوقت الذي جلس فيه هذا الملك على التخت
نحو ٢ الف نفس ومن ثم اخذت تتقدم في ايامه نفدماً بطيئاً في الثروة وعدد
الاهالي الى ان صارت اهاليها في سنة ١٨٧١ (٤٨١٠٧) انفس وهي الآن
قضية مقاطعة اثينا وبيوتيا وعاصمة مملكة اليونان على ما تقدم وهي لا تزال
آخذة في استرجاع ما فقدته من سمو المقام بين عواصم العالم اذ شرع الاغنياء

من الاهالي بينون في القسم الشرقي منها بيوتاً جميلة وتراهم حيثما توجهوا ينظرون اليها بعين الحب والاحترام كما صفة الامة اليونانية هذا علما بها من الابنية الفاخرة التي لا يوجد مثلها في غيرها وخاصة البقية الباقية من تلك الهياكل التي كانوا يبنيونها لاصنامهم وهي مما يذهل الناظرين واما بيوتها العمومية المحالية ففيها قصر الملك وهو ظريف ذو ثلاث طبقات موقعة بالقرب من جبل ليكاتبوس ومجاس النواب ومنازل العساكر والمرح وبناء عظيم أقيم لاجتماع اكااديمية الامة ولعرض الاثار والمدرسة السياسية ونحو ١٠٠ كنيسة بعضها من انحر الابنية واعظها كنيسة القديس نيفوديموس بنيت في القرون المتوسطة على نسق بينرطي وفيها ايضا شوارع كثيرة متسعة وساحات مرتبة نظيفة وما يدل على ذلك دكاكتها وقها وبها ومنازل الغربا فيها وغير ذلك

وكانت هذه المملكة في الزمن القديم العلوم والفلسفة ومنها ظهرت الفلاسفة المشاهير الذين نشروا العلوم والمعارف في سائر اجزاء القارة على ما سبقت تفاصيها ولا زالت حتى الآن تجذو حذوا اسلافها اذ انه ما من مدينة فعلت بقدر ما فعلته اثينا بعد ان اخذت حربها فان فيها مدارس حسنة النظام ولها معلمون ماهرون لادارتها والتعليم فيها ومن جلتها مدرسة كبرى معتبرة تشتمل على ٤٢ معلماً و ٦٠ تلميذ قد حدث في نظامها حذو مدارس المانيا الكبرى وهي تعلم الطب والشرائع واللاهوت ولها مكتبة عظيمة تخوي على ٩٠ الف مجلد من احسن المؤلفات وكان انشاء هذه المدرسة في سنة ١٨٢٦ م ولها ١١ مدرسة اعدادية ونحو ٧٠٠ مدرسة للعموم من ذلك مدارس كثيرة لتعليم البنات كل ما يلزمهن من المعارف والصنائع

والمطابع حررة في اثينا كمطابع انكلترة وامريكا يخرج منها سنويا كتب شتى وللاهالي عموماً رغبة شديدة في العلوم والفنون واتقانها وترى اليونان في الخارج يفتخرون بدارسهم ويرسلون اليها المساعدات والامدادات من كل الجهات فان احد اليونان الموسرين تبرع بمبلغ نصف مليون من الفرنكات

لاقامة مدرسة عالية للصنائع والعلوم ورجالاً اخر من تساليا يُسمى بلاتيجيس تبرّع كذلك بمبلغ ٢٠٠ الف فرنك للمدرسة الكبرى حتى ان محبّيها للسكاكين خلف ٦٠ درخمه جمعها من صناعتهم فتبرّع منها بما ية درخمه لتلك المدرسة وفي وقت طبع هذا الكتاب قد نشرت الجرائد خبر وفاة بواكيم الثاني بطربرك التسطنطينية وتبرّع بمخلفاته النقدية وقدرها ٢٠٠ الف ليرا عثمانية الى المدارس اليونانية في هذه المملكة ومن هنا تُعلم رغبة هذه الامة وبذلها الاموال في سبيل توسيع دائرة المدارس وتقوية المكتبة في بلادها حتى انها تزداد قوة سنة فستة وقد أُقيم في اثينا مدرسة للصنائع تؤذن بالنجاح واخذ اليونان في الالتفات الى الصنائع المستظرفة والمهارة فيها

واما الى البلاد جميعاً نحو ملبون ونصف تقريباً وهم مشهورون بمجال الصورة والوانهم في الغالب سمر نقية واعينهم سود كبيرة ولم نباهة وذكاء وحدة في الطباع ومحبون الحروب والغنائم وكانوا في الزمن القديم يعبدون الاوثان التي منها صنم رودس المعدود بمجاعة عجائب الدنيا السبع وكان من نحاس قائماً فوق مينائها والسفن تمرّ من بين رجليه وقد سبى الكلام عليه في محله واما الان فانهم مسيحيون حسب مذهب كنيسة الروم الارثوذكسية ويوجد بينهم ٧٠ الفاً كاثوليك وقليل من الارمن واليهود والحرّية مباحة لكل الاديان والحكومة من نوع الملكي المفيد والتجارة المحايمة في هذه البلاد ذات رواج ونشاط واما الخارجية فضيقة الدائرة وقليلة الاهمية ولذلك ترى التجار اليونانيين منتشرين في اكثر المدن الشهيرة بقصد التجارة التي لهم ولع عظيم وبراعة زائدة فيها

المعارف عند الرومانيين

وفيه مقدمة ومبحثان في كلٍ منها عدة فصول

المقدمة

يقال ان ايطاليا عرفت سنة ١٩٠٤ قبل الميلاد وانها كانت تسمى قديماً ساتورينا ثم غلب عليها اسم ايطاليا نسبة الى ايطاوس احد ملوكها عندما الذين وفدوا اليها من اركاديا (قسم من المورة ببلاد اليونان) في الجيل الرابع عشر قبل الميلاد وقيل بل كانت اول ملوكها يُسمى بيكوس وانه حكمها سنة ١٢٤٩ ق م ولذلك تسمى يونانية الكبرى ايضاً لكون سكانها المشهورين قديماً باسم الكيتم هم فرقة من اليونانيين على ما ذكر قال ابن خلدون المغربي ان اليونانيين يتشعبون الى فرقتين احدهما الاغريقيون الذين اخصوا اخيراً باسم يونانيين (وهم الذين كنا بصدد الكلام عليهم) والثانية لاتينيون الذين اخصوا كذلك اخيراً باسم رومانيين وقال ايضاً ان يونان هو المذكور في التوراة باسم يافان او باوان (والاخير اصح على ما تقدم في الكلام على اليونان) من ولد يافث (تكوين ص ١٠ : ١) ففرقة العرب يونان وكان له ٣ اولاد احدهم اغريقس ابوالاغريقيين وثانيهم رومي ابوالروم وثالثهم

لاينوس^(١) ابو اللاتينيين (اي الرومانيين الذين نحن بصددهم) وفي بعض المولفات ان لاينوس الاول اعني المذكور تولى المملكة سنة ١٢٢٦ ق م وهو اول ملوك هذه الامة ولا زالت ايطاليا تحت حكم ذريته الى ان بنى رومولوس مدينة رومية واتخذها كرسيا له وذريته من بعده ومن ثم اتخذ اللاتينيون اسم رومانين نسبة له او الى عاصمة مملكتهم التي سميت باسمه

وكان رومولوس هذا على ما قيل شيخ جاعة من قطاع الطريق وكان له اخ يسمى روموس اوروس ابنيا على ثلثة هناك تسمى اللاتين على نهر تير تبعد عن البحر ٦٠ ميلا بعض الكواخ واقاما حولها حائطا لمنع مهاجمات الاعداء وكان ذلك سنة ٧٥٢ ق م قيل ان ذلك الحائط كان واطنا حتى ان روموس اخا رومولوس احتره لوطوه وقال لآخره يوما اتظن هذا السور سور مدينة فغضب رومولوس من كلامه وطعنه بجرية كانت في يده فاماته وكان ذلك اول دم سفك وانتظمت به اسوار هذه المدينة واستقل هو وحده في تلك الاكواخ وكان قد اجتمع اليه وقتئذ نحو ٣٠٠ نفس ما هب ودب جعل نفسه كبيرا عليهم ولا زال يسارع في تكثير رعيته وبأوي اليه ارباب الشرور الذين ارتكبوا الذنوب في بلادهم ولم يمكنهم المكث بها وصاروا يهرعون اليه من كل جانب لاجل الحماية وهو يحمي كل من التجأ اليه الى ان تجمع عنده نحو ٣ آلاف نفر بدون نساء

وكان من جملة القبائل الساكنة بلاد ايطاليا في ذلك الوقت قوم يقال لهم الصاييون او الساييون ساكنين في ولاية قريبة من ولايتهم فطلب من اهل هذه الولاية ان يزوجوا بناتهم برجال مملكتهم فابوا ذلك فاحتمل عليهم بان صنع عيدا في بلدهم مشتملا على العاب ودعاهم للفرجة والوليمة التي اعدوا فجاهوا

(١) بظن بعض العلماء من النصارى ان لاينوس هذا هو المرموزة بالوحش الذي

عدد حروف اسمه ٦٦٦ في سفر الرويا (ص ١٨:١٢) لانهم يحسبونه هكذا

٦٦٦ جملة ذلك $\frac{L}{٣٠} \cdot \frac{\alpha}{١} \cdot \frac{\tau}{٣٠٠} \cdot \frac{\epsilon}{٥} \cdot \frac{\iota}{١٠} \cdot \frac{\nu}{٥٠} \cdot \frac{o}{٧٠} \cdot \frac{\varsigma}{٣٠٠}$

مع نسايتهم وبناتهم ولما كانوا ملتئين في الفرجة واذا المآكل وقد اعجبهم براءة
الرومانيين في الرقص واللعب اظهر رومولوس لاصحابه اشارة كان انفق معهم
عليها فسلوا سبوفهم وجمعوا على ضيوفهم وقتلوا اكثرهم وبهذه الطريقة سلب بناتهم
قهرًا عنهم وزوجهن لجنوده فلما بلغ هذا الفعل القبيح سائر طوائف الصابيين
غضبوا وانضم بعضهم الى بعض وجماعوا لمحاربة الرومانيين فالتقاهم رومولوس
بجاءته لكن قبل ان انتشب القتال بين الفريقين دخلت النساء اللواتي
اسرهن الرومانيون الى ساحة الحرب وفرقن بين الطرفين صائحات باعلى
اصواتهن ارجعوا ولا تضرروا بعضهم بعضًا فآية فرقة منكما انتصرت على الاخرى
لانجلب علينا سوى الحزن والاسف لاننا بنات الفرقة الاولى ونساء الفرقة
الثانية فائز كلامهن في قلوب الفريقين وتصالحا بدون قتال

ومن ثم انتخب القوم رومولوس حاكمًا عليهم فساهم احسن سياسة واخذ
في تقوية مملكته بالتدابير المتقنة وتسليح العساكر وقسم جاعته النازين معه على ٢
قبائل وجعل كل قبيلة ١٠ التزامات وقسم الارض التي معه ٢ اقسام القسم
الاول اوقفه على العبادة الدينية والثاني ابقاه لمصالح المملكة والثالث وزعه على
اهالي المملكة فكانت حصة كل واحد منهم نحو فدائين طين لا غير ورتب لهم
السنة ايضًا لكنه جعلها ٢٠٠ يوم فقط مقسمة على ١٠ شهور كل شهر ٢٠ يومًا
ثم احدث مجلس مشورة مؤلفًا من قضاة ونواب وجعل اربابه نحو ٢٠
شخص فكانت وظيفتهم تنظيم احوال البلاد وفض المشاكل وتنفيذ الاحكام
والتشاور في الامور ثم يعرضون ما يتشاورون فيه الى الرعية ليقبوا اراهم فيه
او يحكمون بما يقتضيه نظرهم وجعل وظيفته هو نفسه رياسة العسكر وقيادته
ورتب مجالس مشورة للرعايا اما المشورة العظمى فكانت للدعوي والوقائع
المهمة ورياسة الدين ثم انه اذن لكل واحد من العامة ان يتخذ له مولى من
ارباب المشورة ليحصل الاتحاد بين ارباب المشورة والرعية حيث نصير الموالي
من اهالي المشورة نحايم عن محسوبيهم من الرعية

واقترضت خشونتهم ان جعلوا اول احكامهم انه يجوز تطليق الزوجة اذا
 فعلت ذنباً ولو ينفخو شرب الخمر من غير ان يجوز للمرأة ان تنفترق من زوجها
 باية علة كانت وثانيها ان الأب هو مطلق التصرف بالنسبة الى اولاده فله ان
 يبيع ابنته الى ٢ مرات في اي سن كان وان يحكم بتثليل ابنته وان يتركه في الازقة
 اذا كان سبيء التركيب بشرط ان يستشيره اشخاص من جيرانه في امر الذكور
 واما البنات فلا يحتاج الى مشورة احد فيهن بمثل ذلك

وكانت ابطالها في ذلك الزمان مثل بلاد اليونان في بدايتها القديمة
 منتسمة الى عدة امم وطوائف صغيرة واكثرهم اشبه بالوحوش ولا رابطة بينهم
 من انواع الائتناس والاتحاد ولا محبة فكانت رومية في حروب دائمة معهم
 وكان رومولوس في تلك الحروب منصوراً عليهم دائماً حتى مات وكانت مدة
 حكمه ٢٧ سنة وقد اختلفوا في موته فمنهم من زعم انه خطف بغنة الى السماء
 وقال آخرون انه كان قد صم على ان يجعل نفسه ملكاً مستقلاً فخلاه الشعب
 ومزقوه ارباباً وهذا يوافق ما رواه بعضهم بانته مات قتيلاً في مشورة جمعها سنة
 ٧١٥ ق م

وبعد موت رومولوس المذكور قام ملك تازي على رومية يدعى توما
 فنفيادوس وكان رجلاً حازماً حكيماً محباً للسلام فسكن شرائع عديده حسنة وعلم
 رعاياه الزراعة وعدة صنائع نافعة وضم الى السنة التي كان رتبها سلطنة رومولوس
 على ما ذكرنا في ما مر شهرين آخرين لابلاغها الى ٢٦٠ يوماً وكانت مدة
 تملكه ٤٢ سنة ويقال انه في مدة تملك احد خلفائه المسي تركوين الثاني او
 المتكبر الذي تولى سنة ٥٥٢ ق م دخلت عليه امرأة في ذات يوم الى الديوان
 وفي يدها ٩ مجلدات من الكتب واعرضتها عليه للبيع وطلبت في ثمنها مبلغاً
 فاحشاً واذ كانت الكتب المذكورة مجهولة عنده استعظم ثمنها وامتنع عن
 مشايرها فرجعت المرأة بالكتب الى دارها واحرقت منها ٢ ثم قصده في اليوم
 الثاني واعرضت عليه المئة الباقية بنفس الثمن الاول فامتنع ايضاً فتركته

ورجعت اليه في اليوم الثالث ومعها ٢ كتب فقط واعرضتها عليه بالثمن الاول فتناثر الملك وتعجب من هذا الامر وصم على ان يشتري الكتب منها ابرى ما فيها واذا بالمرأة القتهم بين يديه واخفت في الحال فانذهل الملك وجميع الحاضرين من الاكابر والاعيان ثم فتشوا الكتب وطالعوها فوجدوها رسائل واشارات تتضمن على حكم ونبوات مولفة من بعض النساء (ولعلمن المعروفات بالسبليات) فاحترمها الرومانيون غاية الاحترام واعتبروها كآيات منزلة وحفظوها في خزائهم وكانوا يتلونونها بكل خشوع واعتبار كلما وقعوا في شدة او ضيق معتقدن بانها تنبئهم بما يحدث في الازمنة المستقبلية

وخالصة الكلام هي انه برومولوس المذكور وجماعته تولدت اخيراً ملكة عظيمة بعد ان حكمها اولاً خلفاؤه نحو ٢٢٠ سنة وطردها منها على عهد سبطورة التي هي اخر ملوكهم في سنة ٥٢٢ ق م ومن ثم صارت مشورة ديموقراطية الى ان تملك رومية يوليوس الذي صار قيصر ودعي اسمه اغسطوس سنة ٥١ ق م وجعلها دار قيصرية الرومانيين وكانت وقتئذ صارت اعظم بلاد الدنيا ومزقت اعظم الممالك الكبيرة ثم اخيراً انقسمت الى قيصرية شرقية وغربية بعد وفاة القيصر ثيودوسيوس الاكبر سنة ٢٩٥ ب م فصارت قيصرية امبراطرة القيصرية الغربية فقط الى ان طردهم منها اليربر سنة ٤٩٥ ب م واستولى عليها الملوك الغوطيون ثم بعدهم الملوك اللونجبارديون الذين قرضهم كرلوس مانوس اعني الاكبر وهم انقرضت منها الشوكة الملوكية غير انها بقيت حافظة استقلالها القديم بكونها صارت مركز شوكة الكنيسة اللاتينية تحت رياسة الباباوات الذين ابتدأوا بممارسة الحكم الزمني منذ زمن البابا استفانوس الثاني سنة ٧٥٢ ب م ودام الحال على هذا المنوال الى ان استولى على رومية الملك فيكتور عمانوئيل وضماها الى مملكة ايطاليا وجعلها قسبة بلاده وذلك في سنة ١٨٧١ ب م

المبحث الاول

في حالة العلوم والفنون منذ قيام المشيخة الرومانية الى انقسام المملكة
واستيلاء البربر على الفيضية الغربية في سنة ٤٩٥ م
وفي ٧ قصول وخاتمة

الفصل الاول

في تقدمات الرومانيين منذ قيام المشورة الديموقراطية المذكورة وتسمى
المشيخة ايضاً في سنة ٥٢٢ وقبل سنة ٥٠٩ ق م الى ان ظهر
الامبراطور اوغستوس قبصر الذي تولى السلطنة
سنة ٥١ ق م ونقل الحكومة من المشيخة الى
الحكومة الملكية

بعد ان طرد خلفاء رومولوس وذراريه من رومية على ما تقدم استلم زمام
الحكومة اثنان من النضاة وتلقب كل واحدٍ منهما بلقب قنصل اي منفذ الاحكام
وكان الشعب ينتخبون هؤلاء القناصل في كل سنة واول من تعين تلك الوظيفة
رجلان يقال لاحدهما بروتوس والثاني كولانيوس وكان بروتوس عادلاً مهيباً
محباً للوطن حتى انه حكم بالموث على ابنيه الاتيين بسبب جنائيه ارتكباها ولم
يشفق عليها وكان سكان رومية يومئذٍ منقسمين الى حزبين الاول من

الاشراف والثاني من العامة وكان جميع ارباب المجلس العالي واكثر الاكابر
 والعد من القسم الاول وكان انتخاب الفناصل منوطاً بهم فقويت شوكتهم
 وعظمة سطوتهم وصاروا اصحاب المحل والربط فنشأ عن ذلك فن ومشاخرات
 بين الطرفين الا انه مع كل ذلك انتظم حال الدولة مع نمادي الزمان وتعاظم
 امرها وقويت شوكتها في الداخل والخارج وازداد عدد اهلها وقويت في
 زهوتها ورونقها الى ان دهمها جيش الغاليين سكان فرانس سنة ٢٨٩ ق م
 وافتتحوها تحت قيادة الجنرال برنوس بعد ان دافعت عن نفسها مدة طويلة
 لكن اخيراً فتك بهم كاملوس احد ابطال الرومانيين حتى انه لم يرجع منهم
 احد الى بلاده ومن ثم اخذ الرومانيون في محاربة الدول والممالك الاجنبية
 فبرعوا في فن الحرب واستولوا على بلاد اليونانيين في سنة ١٦٦ ق م ودمروا
 قرطاجنة التي كانت الداعية لهم في سنة ١٤٦ ق م على ما سبقت الاشارة اليه
 في محلاته وبعد ان احرق قائدهم المدعوسيبو مدينة قرطاجنة المذكورة ورجع
 الى رومية بالغنائم والاموال البسوة عند وصوله اليها اكابيل الغلبة والانتصار
 التي هي من اعظم جوائزهم وساروا به الى الكايبنتول بوكب عظيم بحسب العادة
 التجارية عندهم في مثل ذلك وسوف تاتي تفاصيلها في الفصل التالي وما زالوا
 يفتحون البلاد والممالك الى ان استولوا على اسبانيا ومملكة نوميديا المعروفة الان
 بجزائر الغرب واخضعوا ولايات ايطاليا وانتصروا على متريداتس ملك بنطس
 في اسيا الصغرى بعد ان حاربوه ٤٠ سنة واخيراً ظهر في رومية قائدان احدهما
 يدعى بومي والآخر بولبوس وكان بومي اكبر سنًا واشهر لانه كان قد افتتح ١٥
 مملكة واخذ ٨٠٠ مدينة اما بولبوس فلم يكن اقل شهرة وشجاعة منه فانه هو ايضاً
 اثار حروباً كثيرة على فرانساجرمانيا وبريتانيا ويقال بانه انتصر في حروبه
 على ٢ ملايين من الناس وقتل نحو مليون منهم فجزت بين هذين القائدين
 حروب سببها الحسد آل الامر فيها الى انتصار بولبوس وهرب بومي الى مصر
 واخيراً قتل وجيء برأسه الى بولبوس المذكور فخنن عليه ولم يرد ان يراه ولما بلغ

اتضاء المجلس الروماني هذا الانتصار قدموا تها لبل الفرح لاهلهم ومنحوا بوليوس
السلطة المطلقة فكان ذلك بداءة نقل الحكومة الرومانية من المشيخة الى
الامبراطورية ويعتبره المؤرخون فصلاً ثالثاً به ينتهي القسم الاول من اقسام
التاريخ

الفصل الثاني

في ما حدث في زمن النياصرة الوثنيين اعني منذ تولية بوليوس قيصر
ونقل الحكومة الرومانية من المشيخة الى الامبراطورية الى ان
تنصر الملك قسطنطين الكبير ونقل الكرسي القيصري
من رومية الى القسطنطينية في سنة ٣٢٠ م

ولما منح اعضاء المجلس الروماني السلطة المطلقة الى بوليوس قيصر المذكور
على ما اشرنا كان ذلك مقصوراً على مدة حياته فقط واقبوه بقيصر وحكوا له
بالقداسة فصنعوا له تمثالاً واقاموه بين تماثيل الهتهم وابطالم في الكابيتول
بالقرب من تمثال جوبيتير وكتبوا عليه هذا تمثال قيصر نصف الاله ولما رأى
بوليوس ذاته في هذه الرفعة والمكانة عند الشعب لم يبق عليه ما كان يشتهر به الا
ان يستي نفسه ملكاً فوجه كل افكاره وقواه الى استمالة الناس وارضاء العساكر
بواسطة عمل الولايم والضياقات وانواع الافراح والمناات التي كان يعلمها لهم
ومن ذلك ولية دعي اليها الجيش الروماني جميعه فكان ممدوداً في اسواق
رومية ٢٢ الف مائة حاوة بالاطعمة اللذيذة والمشروبات الفاخرة ولم يمنع احد
من الجلوس عايبها والمناولة منها سواء كان غنياً او صعباً كما فسروا جميعاً بذلك
ونسوا حريتهم واقتنعوا بمشاهدته في هذه الولايم العمومية جالساً على عرش من
الذهب وعلى راسه اكليل مرصع بالجواهر النفيسة لكن اخيراً قتله رجل من

محيي الحربة يقال له بروتوس وقال لفيقرون الفيلسوف الروماني الشهير (١)
 وكان احد ارباب المجلس ومحباً لوطنه تمهل واقرح يا ابا الوطن لان رومية قد
 تحررت الآن وكانت ذلك في سنة ٤٤ ق م غير انه قبل موته بنحو سنة كان
 احضر من الاسكندرية احد مشاهير الفلكيين يسمى صوصيجان واصلح حساب
 السنة الشمسية بزيادته فيها ٦ ساعات وكانوا يحسبونها قبل ذلك ٣٦٥ يوماً
 فقط فجعلها هو ٣٦٥ يوماً و٦ ساعات ورتب لاجل هذه الزيادة ان تكون كل
 سنة رابعة كبيساً اعني ٣٦٦ يوماً واشدة كبرياه وزيادة جبروته وضع اسمه في
 شهرين هما اعظم شهور السنة نظراً الى شدة حرارتها وطول النهار فيها فسمى شهر
 تموز يوليوس وشهر اب او غسطوس وجعل كل واحد منها ٣١ يوماً ومع ذلك
 بقي في علمه هذا خلل اصلحه البابا غريغوريوس الثالث عشر كما يتضح ذلك
 في ما ياتي . ثم بعد قتل يوليوس المذكور حدث خلل عظيم في رومية حيث
 كان لهذا القيصر ابن اخت اسمه اوكتافيوس كان صغيراً لما مات ابوه فتبناه
 خاله المذكور واعنى بتربيته وارسله الى بلاد اليونان التعليم والتهديب ولما
 قتل خاله كان عمره ١٨ سنة فعندما بلغه الخبر جاء الى رومية ليستولي على
 ميراثه فاعطاه مرقس انطونيوس احد رؤساء الجمهورية جزءاً عظيماً من
 الميراث وتزوج باخيه او كطاوة واشركه معه في رئاسة الجمهورية واشركا اميراً
 ثالثاً معها يقال له لبيدوس وكانوا جميعاً يكرهون الجمهورية ويميلون الى الملكية
 فانفقوا على تشتيت شمل مخالفينهم واخذوا في قتل كل من ظنوه مفاوماً لهم
 واغروا الناس بالاموال حتى ان البعض كانوا يقتلون اباؤهم واعز الناس اليهم
 لمخالفتهم اوكتافيوس وشركائه ثم في ما بعد آل الامر الى عمل هؤلاء الثلاثة على

(١) كان فيلسوفاً عظيماً واديباً ماهراً من اعظم مشاهير الرومانيين ولد بمدينة اربنيوم
 سنة ٦٤٧ بعد تاسيس رومية فيكون ذلك سنة ١٠٧ ق م وتلقن علومه بمدينة اثينا الى ان
 فاق اقرانه حتى قال فيه احد معلميه واحسنه على بلاد اليونان قد هزمت مجند الرومان
 وكان ينسب الى الاكاديبين ونظراً لبلاغته خطاباً كان يجذب الكل الى رايه بقوة كلامه.

تدبير بعضهم بعضاً وجرت بينهم امور بطول شرحها اعتبها بقاء او كنافيوس
وحده بدون مقاوم ولا منازع فاستقل بنفسه في الاحكام ولقب ذاته بالامبراطور
واشتهر باسم قيصر ونسب ايضاً اوغسطوس ومعناه الموقر وهي القاب ثلاثة
مترادفة على معنى واحد تطلق عند الرومانيين على كل ملك من ملوكهم وكان
المجلس العالي اعطاه ايضاً لقب باترباتريا ومعناه ابوطنو وغير ذلك من
اللقاب على سبيل التظيم والتعظيم ومن ذلك الوقت تم تحويل الجمهورية
الرومانية الى دولة ملكية

وكان اوغسطوس هذا من افراد الملوك عادلاً حليماً رتب قوانين عادلة
لراحة الامالي وكان يبذل الى العلوم والاداب قال بعض المؤلفين ان هذا
القيصر كان من اعظم الخطباء وابرع الكتبة وقد ترك جملة مولفات نفيسة
ولما استولى على بلاد مصر اعاد الى المدرسة البطلموسية التي سبق ذكرها في
الكلام على المصريين رونقاً زائداً عما كانت عليه فكانت جميع طلبة العلم تتقاطر
اليها في ايامه . وكان مع سطوته وابهته ودبعا انيساً وكانت رومية في مدة حكمه
بغاية الهدوء والسلام

وفي ايامه عاش ورجيل ويقال له فيرجيل ايضاً وهوراس واوفيد وغيرهم
من مشاهير الشعراء وحازوا على انعامه وشملهم بانظاره ولذلك مدحوه في
اشعارهم واطببوا في وصفه

وكذلك وجد تيتلوس الذي اختلف في منشأه فنيل مدينة بندو وقيل
ابونة وله تآليف مفيدة من اشهرها التاريخ الروماني وهو يتندي به من تاسيس
رومية الى وفاة القصر درصوص في بلاد النمسا وكان ذلك في سنة ٢٢ ق م
وبالحمله والتفصيل ان في ايام هذا القيصر اخذت البلاد الرومانية في

فصبروه اول قنصل مع انطونيوس في رومية ولقبه العساكر امبراطوراً ومعناه قائد
الجيش ثم غلب هذا اللقب عند الافرنج على سلطان السلاطين وكان منبهاً بانه لا يعرف
ابوه مات قتيلاً سنة ٤٣ ق م ويوجد له الآن مولفات جسيمة صحيحة

التقدم الى اعظم درجات المعارف والفنون وقد عاش عمراً طويلاً ثم توفي في سنة ١٤ ب م وله من العمر ٧٦ سنة بعد ان حكم ٤١ سنة حكومة ملكية فضلاً عن مدة رياسته الجمهورية وكان العامل على اليهود من قبله في اورشليم هيرودوس وفي مدة حكمه صار الاكتتاب العمومي المذكور في لوقا ص ١٠٢: ١ وبسببه ذهب يوسف ومريم الى بيت لحم حيث ولد المسيح

وبعد وفاته تولى الفيصرية طيباريوس قيصر الذي في ايامه صاحب السيد المسيح في اورشليم بامر نائبه عليها المدعو بيلاطس البطني والى هذا الفيصر تُنسب مدينة طبرية التي بناها هيرودوس انتيباس بن هيرودس الكبير وكان عاملاً له على اليهودية وسأها باسمه ثم بعد موت طيباريوس المذكور خلفه كليغولا الذي من غريب اعماله انه اصطنع اصطيلاً من المرمر لفرس له كان يعزها وعل لها حوضاً من العاج ورضع سروجها باللؤلؤ والجواهر وقيد اسمها في دفتر الكهنة بزعمها انها ستضير ذات يوم حاكمة على الرومانيين

وبعد خلفه كلوديوس سنة ٤١ ب م وكانت له مشاركة في الاداب والمعارف فالف تاريخ رومية وقرطاجنة وغير ذلك من الكتب التي فقدت وضاعت

ثم خلفه في سنة ٥٤ ب م نيرون الذي كان يبغض المسيحيين وقتل الذين تنصروا من اهالي رومية ثم قتل بولس وبطرس ومرقس الانجيلي الذي كان وقتئذ بالاسكندرية وذلك في سنة ١٢ من ملكه وقتل ايضاً امرأته واخاه ومعلمه الفيلسوف سينيكا وامر بحرق جانب عظيم من رومية لجرد نزاهته وكان ينظر اليها وهو على احد السطوح بعزف بالعود ثم اتهم المسيحيين بذلك واجرى عليهم قصاصات صارمة وبعد موته تخلفه ملوك منهم فسپاسيانوس الذي تولى المملكة سنة ٦٩ م وكان وقتئذ يحارب اليهود في اليهودية فلما باغته موت سالفه وكانت العساكر الموجودة معه تناديه باسمه قيصرًا سار الى رومية واقام ابنة

تيطس مكانه فافتتح اورشليم واحرق الهيكل وبدد شمل اليهود وازال ملكهم
الزوال الاخير وذلك في سنة ٧٠ ب م

وفي ايامه وايام ابنته تيطس المذكور الذي تولى المملكة بعده في سنة ٧٩ ب م
وجد ناسيت المورخ المشهور الذي كان اعظم اهل عصره ولكثرة معارفه وصل
الى اكبر مناصب الامبراطورية وقد اثنه بذلك هذان القيصران وله تأليف
عديدة مفيدة منها كتابة الذي اودع فيه اخلاق الجرمانيين ومنها تاريخ القياصرة
وعدة نوارخ اخرى شهيرة اضاع بعضها صروف الزمان وبعضها باقى ومرغوب
فيه الى الان

ومن القياصرة المذكورين دوميتيانوس الذي خلف اخاه تيطس المذكور
سنة ٨١ ب م وكان متعظماً متكبراً مولعاً بقتل النفوس حتى قتل الذبان بيده
ايضاً ولقب ذاته الهاً وسيداً وكان يبغض اليهود والنصارى ويامر بقتلهم وحبس
يوحنا الانجيلي في بطس وما يحكى عنه انه استدعى ذات يوم ارباب المجلس
وطلب منهم ان يتناكروا مع بعضهم عن الذلاطعة وافضلها وان يعطوا اقرارهم
عن احسن الاواني المناسبة لطبخ نوع من انواع السمك

وفي ايامه وجد استاس الشاعر الروماني المشهور فاغدى عليه بالخيرات
ولهذا الشاعر قصائد مشهورة احسنها القصيدة المسماة برتبوس واخرى تسمى
تبيثيد ترجمت الى الفرنسية ترجمت حسنة توفي بمدينة نابلي سنة ١٠٠ ب م
ثم بعد دوميتيانوس المذكور خلفه نرفا سنة ٩٦ ب م وفي ايامه امر برد من
كان منفياً من المسيحيين وابعاح لهم التمسك بدينهم وارجع يوحنا الانجيلي الى
افسس ثم خلفه تراجان وكان على جانب عظيم من الحكمة والنظنة وشدة
الباس فحفف المكوس واهتم بحلب كل ما من شأنه راحة الرعية فانشأ القناطر
واصلح الطرق وجدد المواقي البحرية لتكثير التجارات والمعاملات وبنى في رومية
ملعباً لسباق الخيل وجدد مكتبة عظيمة واقام العمود الرخامي الابيض المسمى
التراجيان ورسم عليه الحروب التي وقعت بين الرومانيين وباقي الدول غير انه

كان يضطهد المسيحيين فامر بقتل سمعان بن كلاوبا اسقف اورشليم عند زيارته انطاكية سنة ١٠٧ م وامر بطرح اغماطيوس اسقف تلك المدينة في جب الاسود

ولما خلفه ابن عمه ادريانوس سنة ١١٧ م قتل كذلك خلفا كثيرا من اليهود والنصارى ورمم مدينة القدس وبنهاها بعد ان كانت مهذومة منذ حصار تيطس على ما ذكرنا في ما مر فرجع اليها اليهود وزادوا في تحسينها وتحصينها لكن لما بلغه انهم يريدون الخروج عن طاعته ارسل اليهم العساكر وقتل اكثرهم وخرّب المدينة حتى صارت قاعا صافصفا وكان هذا الخراب بعد ٥٢ سنة من خراب تيطس ثم خلفه تيطس انطونيوس سنة ١٢٨ م وفي ايامه حصل المسيحيون على تمام الراحة حيث رفع عنهم تلك الاضطهادات السابقة واعطاهم حريتهم

ثم خلفه مرقس اوريليوس انطونيوس سنة ١٦١ م وكان متمسكا بذهب زينون الحكيم احد الفلاسفة اليونانيين وقد تقدم ذكره في ما مر فكان هذا القيصر من المنقشين وانعكف على المطالعات والدروس واكتساب العلوم والفنون

واعقبه ابنة كومودوس سنة ١٨٠ م ولما مات استصوب الشعب ان يضعوا المنصب القيصري في المازد ايناله من يدفع فيه مالا اكثر من غيره فاستقر البيع على بوليانوس لكنه لم يثبت في الملك الا ٢٦ يوما وقتل ثم بعد وفاة سفيروس الذي قتله ايضا خلفه ابنة كاراكلا وكان رجلا دمويا قتل كثيرين من اكابر الناس وكان يتزني بزى اسكندر المكدي في اللبس والعوائد ثم عانى تمثال اسكندر المذكور على الهياكل والمعابد وسى نفسه اسكندر لتكون هذه التماثيل رمزاً له وقام بعده كوربسيانوس هليوكوبالوس سنة ٢١٨ م وكان غلاما بديع الحسن والحجال قيل له بسيانوس يعني الشمس الحسن وجماله وكان في اكثر الاوقات يتزني بزى النساء فيضع في عنقه قلادة وفي يده اساور

من الذهب وينشر في قصره انواع الزهور والرياحين فقتله الاهالي
وتولى بعده ابن عمه اسكندر سيفروس سنة ٢٢٢ م وهو الذي ولد في
هيكل الزهرة بعرقا من اعمال طرابلس الشام على ما ذكر في الكلام على
النيقيين وكانت امه مسيحية يقال لها مامة وهي من بنات الضنية ايضا وكان
يستشيرها في جميع اموره ويعمل براياها ولذلك ابطال عبادة الاوثان واخرج
الاصنام من رومية ودعا الناس الى الدين المسيحي وكان كثيرا ما يجمع الاهالي
ويعظم بخطايات مفيدة ويدارك بحسن ملاحظته ما يقع من الخلل والفساد في
اقطار المملكة وكان ينعم على اهل الفنون والصنائع بالجوائز السنوية لترغيبهم
وتنشيطهم ولم يكن يقبل في ديوانه احدا من ارباب الملاهي والآلات من المغنين
كسائر اسلافه وكان يامر بدفع اجور العساكر في اوقاتها ويزور المرضى من
الجند في خيامهم

ثم بعد وفاة هذا الفيصر تعاقب على الكرسي القيصري عدة ملوك وثنيين
لم تكن ايامهم الا ايام حروب وقتل واضطرابات وسرت هذه الاحوال في اكثر
الولايات الرومانية وتحرك الغوثيون الذين تسببهم العرب الغوط في سنة ٢٥١
ب م من الاقاليم الشمالية وخرجوا من بلادهم واجتازوا نهر الطونة وحاربوا
الولايات الرومانية واستولوا عليها ونهبوها ولازال الحال على هذا المنوال الى
ان تولى القيصرية ديوكليان في سنة ٢٨٥ ب م وهو الذي يقال بانته في ايامه
نصب عمود السواري بالاسكندرية تذكارا لما حاصرت اياها في سنة ٢٩٦ ب م
وكان ذا هم ونشاط ومدة حكمه ابتداء نظام جديد اكمل في حكم قسطنطين
الكبير الذي سوف باقى ذكره في الكلام على القياصرة المسيحيين لكنه اثار
اضطهادا عظيما على النصارى في كل اقاليم سلطنته قصد به ان يحول اثرهم عن
وجه الارض ومن جهة ذلك انه امر يوما وهو بمدينة نيكوميديا بحرق ٦٠٠
نفس منهم كانوا مجتهدين للصلاة في يوم عيد الميلاد سنة ٣٠٣ ب م وكانت هذه
النكبة العاشرة والاخيرة التي اضربها الرومانيون الشعوب المسيحية

الفصل الثالث

في حالة العلوم والمعارف التي كان عليها الرومانيون منذ ابتداء
شوكتهم اعني من بداءة المشيخة الى اخر الفياصرة الوثنيين
الذين مر ذكرهم

لا يخفى بان ادارة احكام الرومانيين وعلو همتهم قد يسرا لهم ما لم يتيسر
لغيرهم من الفتوحات والانتصارات فان السلطنة الرومانية في ايام اوكتافوس
قيصر الذي تقدم ذكره كانت في اعظم واعلى درجة من الزهو والغنى وكانت
متسطة على جميع شعوب اوربا ما عدا بعض القبائل في الجهات الشمالية منها
استمر^ت ومحافظين على استقلاليتهم فكان تحت سلطنتها انكلترا وفرنسا واسبانيا
والمانيا وجميع ولايات ايطاليا واليونان وتركيا في اوربا واسيا واكثر ممالك
افريقية كمصر ومراكش والحبشة وغيرها وكان لهم في كل ولاية ومملكة من هذه
الممالك المذكورة ولاه وحكام وعساكر رومانية لسياسة الاحكام وادارة الامور
ومحافظة البلاد

ومن اعظم الاسباب التي استخدموها لتضمية العساكر نفوسها في سبيل هذه
الفتوحات هو تلك العادة التي كانوا يجرونها مكافاة للقواد المنتصرة عند
عودتها ورجوعها الى رومية اذ انهم كانوا يوقفون الفائد قليلاً في ساحة يقال
لها ميدان كيبوس مارتوس خارج المدينة وهناك يلبسونه ثوباً ارجوانياً
منسوجاً بالذهب ويضعون على راسه نسراً من ذهب ثم يدخولونه الى المركبة
المعدة له محاطة باصحابه واقاربهم وهم في الملابس البيضاء ووراهم القناصل
وارباب المجلس في ملابسهم الرسمية وكان الجيش المنصور يمشي من ورائهم لابساً

خوناً مكثرة بنصون الدفل وحاملو البيارق فيؤرفعون في ابادهم نسوراً من
 الفضة مطاية بالذهب عوضاً عن البيارق ثم ياتون بالثبران التي يكونون قد
 اعدوها للذبح فيطلون قرونها بالذهب ويضعون على رؤوسها اكاليل مختلفة
 الاشكال وبعد ذلك ياتون بالغنيمة المأخوذة من العدو مع تاج او اسلحة الملك
 او الفائد المغلوب ويسبرون بها امامهم كما حصل عند دخول تيطس ظافراً الى
 رومية بعد غلبته على اورشليم فانه حُبلت امامه المنارة الذهبية وتابوت العهد
 وباقي الغنيمة التي اخذها من الهيكل وفي اثناء الحروب التي اُقيمت على
 انطيوخوس ومتريدانس وغيرها من الملوك الشرقيين كانوا يفودون في المواكب
 جمالاً وافيالا وغوراً واسوداً وغيرها من الوحوش الضارية واحياناً كانوا ياتون
 بها الى المرايح حيث كانوا يتعمون احتفالات الفرح بانواع شتى من الملاعب
 ثم بعد الغنائم المذكورة كانت تمشي فرقة من الاسرى وبينهم الملوك والرجال
 الماسورون والنساء والاولاد وجميعهم مفيدون بالسلاسل الثقيلة وقد كانوا
 احياناً يزدرون بهم ويتملونهم بلا رحمة واحياناً يبقونهم باقى ايام حياتهم في حالة
 العبودية ويسلمونهم لبعض الاشخاص ممن فقدوا اصحابهم في الحروب لينتقموا منهم
 ويعذبوهم ثم خلف هذه الفرقة كانت تضرب آلات موسيقية بنغمت مرتفعة كيلا
 يُسمع تنهد وصراخ اولئك الاسرى المنكودي الحظ وامامهم جماعة من الرقاصين
 واصحاب الساخر ينطنطون ويهرولون وهكذا كانوا يتقدمون بالفائد المنتصر

مازين في جميع اسواق رومية الى ان يصلوا بواى الكايتول

وقد اجمع المؤرخون بان هذه الامة لم تخرج من حيز الخشونة الى التمدن الا
 منذ افتتحت بلاد اليونانيين وسادت عليها ولم يبارحها ظلام الجهل والغباوة
 الا بواسطة اختلاطها بهم ومع كل ذلك لم تبلغ الى درجتهم لكونها اولاً عندما
 كانت مشغولة بتلك الفتوحات العظيمة كانت نفوسها تاتي العلوم والمعارف
 ازعمها بانة لا يمكنها ان تحصل بواسطتها على ما تؤمل ان تناله بواسطة الاسلحة
 ولذلك لم يكن في زمان قدما الملوك الرومانيين من حاز على شيء منها ثم بعد

هذا الاختلاط ايضاً اعني في زمن القناصل الذي ولئن وجد فيه قليلون من مارسوا العلوم كان البعض من الرومانيين مثل سيللا وفلامينوس وغيرها يمنعون ترويض اخلاق الشعب نظراً لميلهم للحروب وحبهم لاهراق الدماء ويظهر ان اول شيء رغب الرومانيون فيه وقتئذ كان ادخال فن الالعاب التياترية الى رومية في سنة ٢٦٢ ق م ولم تكن في البداية الا الرقص على انغام الناي اما الروايات فلم تُعرف عندهم الا بعد ذلك بنحو قرن كامل عندما ادخلها بينهم رجل يسمي بلاتوس وقيل ان اول مرشح بُني لهذه المناظر كان يسع ٤ الف شخص من المتفرجين

ووجد فيه كذلك جماعة من المؤلفين ايضاً اشتهر منهم ترنسبوس ويقال انه ترنس بدقة تاليفه وفيبوس ويكتور المورخ الذي هو اول من كتب تاريخ وطنه من الرومانيين وكان موجوداً في سنة ٢١٦ ق م لكن في زمن التياصرة وجد فيهم كثيرون ممن خدموا العلوم واستجتموا الاتناء اليها حيث ان رومية وقتئذ اقتدت في البلاد اليونانية وصارت ترسل شبانها لمكاتب اثينا لتكتسب علوم فلاستها

وكان اليونانيون وقتئذ معتبرين عند اكثر العلماء في الدرجة الاولى من العلوم والفلسفة وكان بينهم وخاصة في اثينا اناس فصحاء وحاذقون يعلمون قواعد الفلسفة كما كانت عند الاولين اعني التي اسسها افلاطون وزينون وايقور او هو ابيكوريوس ويعلمون ايضاً مبادئ النصاحة والفنون الادبية ولذلك كان يقصد هذه البلاد كل طامعي العلم من اية جهة كانوا كما ان كثيرين منهم كانوا يترددون الى اسواق العلم في اسكندرية ومصر وروديس لوجود فلاسفة وعلماء منطلق من اليونانيين المذكورين بكثرة فيها وحيثما التجأ العالم الشهير اشين بعد نفيه من اتيكا

فتهدب الرومانيون قبل دخول القرن الاول من التاريخ المسيحي في كل فرع من العلوم والفنون وكان ابناء العمال المعروفة منذ حدائهم يدرسون

باعتماد علوم اليونانيين وفصاحتهم ثم بدرسون الفلسفة والشريعة المدنية ثم
 يذهبون الى بلاد اليونان ليكملوا علومهم ومع ذلك لم يكن الذين ساعدوا
 وقتئذ في توسيع دائرة المعارف في البلاد الرومانية المذكورة الاعيان فقط بل
 كان بينهم من عامة الشعب ايضاً وضم الى الجميع القائد مريوس الذي
 كان عظيم الميل للحروب وسفك الدماء لانه لما نجح برأيه في الحكومة الجمهورية
 بالاشتراك بين الاعيان ووجه الشعب اراد ان يتم مقصده بنشر المعارف بين
 العامة ليكونوا قادرين ان يتعلموا وظائفهم الدولية ودام الحال على هذا المنوال
 الى نهاية القرن الاول من التاريخ المسيحي ايضاً

ثم في القرن الثاني وجد اشخاص من ذوي العقول الثاقبة في ما بين
 اليونانيين والرومانيين كتبوا كتابات جيدة في كل فن رائج سوقة في ذلك
 الوقت الذي اشتهر فيه بين اليونانيين بنوع خاص بلوتاركة الذي تقدم
 ذكره في ما بين مورخيه وكان ذا علوم كثيرة لكنها عديمة الترتيب وكان ايضاً
 ملطفاً ببادي الاكاديميين وكان يوجد في كل المدن الشهيرة من المملكة
 الرومانية مدارس للبلغاء والبيانين والسفستيين والنحاة يدعون بانهم يربون
 فيها الشبان ليكونوا اهلًا لترقي المعارف بواسطة الرياضات والنخطب المتنوعة
 غير ان الذين تعلموا فيها كانوا معجبين بانفسهم ومهاذير ومعارفهم انما
 هي الظاهر اكثر مما هي للبلاغة والفصاحة والحكمة والاهلية لانما ذلك العمل
 الذي زعموه ولذلك ازدرى العقلاء الرازنون بتعليم هذه المدارس لكن كان هناك
 مدرستان كلتيهما للجمهور احدهما في رومية اسمها ادريانوس قيصر تدرس فيها
 كل العلوم ولا سيما الفقه والثانية في بيروت من بلاد فينيقية

وكذلك لم يكونوا متفقيين في الاراء الفلسفية ايضاً اذ انهم اسسوا لها جمعيات
 مختلفة منذ اخذوها عن اليونانيين الذين كانوا قدوة لهم فيها اذ منهم من انقاد
 الى التعاليم الاكاديمية وهم مكسيوس بروطو الاول ومكسيوس تارنتيوس
 وقارون ومانيوييسو ومكسيوس وتوليوس وشبشرون او هوفيفرون ومنهم من

انتسب الى الجماعة الفيثاغورية وهم كاد بنوس وبنجيد بوس وفيكولوس ومنهم من ذهب المذهب الاسطواني وهم شيببون الافريقي وموثيوس وتيسنولا وكانى الاوتيشاسي وتوايثوانه اوس وسبنا كورد وفينسي معلم تارون واييكناتوس الايرابولي المواد في فرجيا ومنهم من اتبع اراء المشائين وهم تيرانو واندرونيكوس اللذان في عصرها ظهرت كتب ارستطاليس صاحب هذه الطريق واستخرجت من المغارة التي كانت مدفونة فيها تحت الارض وكتب ثاوفراستو والاكسندر الافروديتي الذي شرح كتب ارسطو وكان اول من علم في رومية تعليم المشائين بواسيو الذي كتب كتبه الخمسة الشهيرة في شرف الفلاسفة

ومنهم من انتهى الى تعاليم ابيقور وهم لوكراسيوس الذي نظم هذا التعليم باللغة اللاتينية وپاينوس ولوكيانوس ولاراسيوس ومنهم من اتبع قواعد افلاطون وهم تراسيللوس والشينوس ونياروس بتريسيوس وابولايوس وانيكوس ونوسينيوس مكسيوس بتريوس بلوطرخس القرنتي الذي علم الفيصريف تريانوس وادريانوس

ففي القرن الثاني الذي نحن بصدده بزغ كذلك فلاسفة كثيرون من كل الشعب الفلسفية المذكورة وقام بين الرواقيين عالمان ساميان وهم مرقس انطونيوس (وقد تقدم ذكره) وابيكتيوس انما اكثر الذين مدحوها كانوا من جماعة الرواقيين فقط اذ انه لم يكن في هذا القرن اعتبار زائد لهذه الفرقة بل كان تلاميذ مدارس الافلاطونيين اكثر عدداً لاسباب منها ان الافلاطونيين كانوا اقل صرامة من الرواقيين وتعاليمهم اكثر مطابفة للافكار الشائعة عن معبوداتهم ومع ذلك لم يكونوا في كثرتهم كالابيقوريين الذين كانت تبعهم وجوه الشعب لكي يتمتعوا بلذات المعيشة بدون خشية ولاخجل

وكانت بلاد مصر وخاصة مدينة الاسكندرية التي اشتهرت بتلك المدرسة التي اقامت زماناً طويلاً مركزاً للعلوم والفنون لازالت في حال زهوها وكان المعلم بوقامون قد وضع فيها اصول الفلسفة المتخبة التي سبقت الاشارة اليها في

الكلام على المصريين وهي انه لا يجب ان يتوقف الطالب على تحصيل العلم من معلم مخصوص بل ينبغي تحصيل الحقائق من تعاليم جميع الفلاسفة وقبولها بعد البحث المستطيل والظاهر ان السبب في ذلك هو استنباح هذا المعلم ذلك النزاع الذي كان يقع في الفلاسفة نظراً لان كل طالب علم كان ملتزماً بان يجتنب على انه يكون اميناً في الحاماة عن قواعد معلمه ووافقه على ذلك محبو الحق اجمعين

وكان قد تخرج في هذه المدرسة جماعة من الذين قد اعتنقوا الديانة المسيحية فحولت بهم الى ان صارت كاتبا مدرسة مسيحية فاستحسن هذه المبادي قوم من الذين كانوا يرغبون في ان يضلوا الى مسيحيينهم الترددي باثواب الفلاسفة والتمتع بالقباب اربابها وهراتبهم ومنهم اثيناغورس (وفي بعض المؤلفات سي سيديتا الاثيني) وبتينوس واكليمندوس الاسكندري وغيرهم واعتقدوا ان الفلسفة الكهنوتية هي هبة الله العظمى الشافية لكتبا متثرة فيما بين جميع شيع الفلاسفة اذن يجب على كل عاقل ولا سيما المعلم المسيحي ان يجمع هذه النثر من كل الجهات ليحامي بها عن الديانة دحضاً للفجور ومن ثم اخناروا الفلسفة الاسطوانية في قواعد الاداب والذمة وفلسفة ارستطاليس في الجدال والقياس والبراهين وفلسفة افلاطون في ما يختص بالله وبالارواح والنفس الناطقة وباقي الاشياء غير المادية وجعلوا هذا الفيلسوف في الرتبة الاولى دون غيره لانهم احسبوا قواعد تعاليمه تتفق مع الديانة المسيحية وقواعدها الجهورية اكثر مما تتفق معها تعاليم غيره من الفلاسفة فكان ذلك سبباً الى ظهور تلك الشيعة الفلسفية التي بنيت على هذا الاساس وظهرت في القرن الثالث بغتة وانتشرت في جزء عظيم من المملكة الرومانية وكادت تتلحح كل ما علاها من الشيع الاخرى وليس ذلك فقط بل اضرت بالدين المسيحي ضرراً بليغاً ايضاً كما يتضح ذلك مما يأتي

وذلك ان في القرن الثالث المذكور تغيرت هيئة هذه الفلسفة الاكاستيكية

منذ فتح امونيوس سكاس الذي تقدم ذكره في الكلام على المصريين مدرسة في الاسكندرية نحو سنة ٢٠٠م بافتخارٍ عظيم واسس الشيعة التي تسمت بالافلاطونية الجديدة وهذا الانسان ولد من والدين مسيحيين وتمذهب مسيحياً ويحتمل انه ادعى بالمسيحية كل ايام حياته ولئن كان في حقيقته الامر رجوع الى ديانة اجداده الوثنية وكان ذا عقلٍ ثاقب وافكارٍ سامية كما انه كان فصيحاً ايضاً واخذ يولف بين الفلسفة والدين او بتغيير العبارة اخذ يعلم فلسفة بها يتحد وينال كل الفلاسفة واصحاب الاديان معاً حتى الدين المسيحي وهنا بنوع خاص تنازع الشيعة الحديثة عن الفلسفة الاكسنيكية التي ذكرناها قبلاً لان الاكسنيكيين اعتقدوا ان في كل الاصول الفلسفية مزيجاً من الخير والشر والحق والبطل فاخترنا ومنها كل ما ظهر لهم انه مطابق للعقل ورفضوا البقية اما امونيوس المذكور فاعتقد بان كل الشيع اعترفوا ببداً واحداً من الحق وانما يخالفونه قليلاً في التعبير وفي ادراكهم اياه فاذا توضح كما ينبغي يمكنهم ان يتحدوا معه بسهولة واعتقد ايضاً ببداً اخر جديد غريب وهو ان كل الاديان الشائعة وكذلك المسيحية يجب ان تفهم وتشرح بموجب هذه الفلسفة المشتركة بين كل الشيع وان خرافات عامة الوثنيين وكهنتهم وكذلك تفاسير رسل المسيح يجب ان تفرز عن ديانة كل منها بمفردها

ان غاية امونيوس العظيمة في ان يولف بين كل الشيع والاديان الجمائة ان يحرف عبارات كل الاحزاب سواء كانوا فلاسفة او كهنة او مسيحيين واراهاهم وان يزيح كل العثرات الكثيرة التي اعترضته بواسطة التفاسير الاستعمارية والتشبهية واعتقد ايضاً بان غاية المسيح الوحيدة هي ان يضع حداً لهذه الخرافات المتسلطة ويصلح الاضاليل التي شابت الديانة وليس ليبطل كل الاديان القديمة وما زاد او هامة هذه تعاليم المصريين المشتركة وكان قد تربى وتعلم فيما بينهم على ما ذكرنا وهي ان الكون واللاهوت كلاهما جزآن من كل واحدٍ عظيم اي الكل هو الله وازلية العالم وطبيعة النفس والعناية وسياسة هذا العالم بالارواح

الى غير ذلك من التعاليم الجارية عندهم فاحسبها كلها حنيفة لا ينبغي ان
يشك في صحتها

والى هذه الفلسفة الانطاونية المصرية اضاف هذا الانسان المخترع التخيل
نظاما ادي التهديب يظهر انه سام في طهارته وصرامته لانه وان يكن سمح
فيه للامة ان يعيشوا حسب قوانين بلادهم وما تقتضيه الطبيعة لكنه طلب من
الحكام ان يرفعوا بتاملاتهم انفسهم التي هي نسل الله فوق كل الاشياء الارضية
وان يضعفوا ويهزلوا اجسادهم التي تقاوم حرية انفسهم بالجوع والعطش
والتعب وغير ذلك من المشقات لكي يحصلوا في هذه الحياة على معايشة الاله
الاعظم ويصعدوا بعد الموت منسطين وغير منهكين الى الاب العارم ويتحدوا
معه الى الابد وبما ان هذا الانسان ولد وتعلم فيما بين المسيحيين قد اعتاد ان
يجعل لتعاليمه رونقا وسموا باستعمال عبارات منبسة من الكتب المقدسة
فصار تابعوه يذكرونها ايضا في كتاباتهم واطاف الى هذا التمرين الصارم
صناعة تنقية القوة التصورية وتحسينها حتى يمكنها ان ترى الارواح وتصنع
بمساعدها امورا كثيرة غريبة فسعى تابعوه هذه الصناعة ثيورجى اى علم الالهة
وكيفية معايشة الارواح لكن لم يستعملها احد من فلاسفة مدرسة امونيوس
المذكور الا الراسخون كما يتضح ذلك مما باقى

ولملا يابى اهل الاديان العامة ولا سيما المسيحيون مبادية هذه حول كل
تاريخ المعبودات الوثنية الى تشابيه واستعارات ليثبت بان الذين يكرمهم العامة
والكهنة بالفاب آلهة انما هم خدام الله الذين يابى بنا ويجب علينا ان نقدم لهم
الوقار حتى لا يبعدوا عن الوقار الاعظم الملائق بالله عز وجل وان المسيح لم
يكن الا انسانا خارق العادة وحييا لله وعارفا بهل الله بنوع مدهش وانه لم
ياخذ في ان يلاشي بالكيفية عبادة الارواح خدام العناية الالهية بل ان ارادته
وطا به ازال ما قد تلطخت به الاديان القديمة فقط انما تلاميذ قد افسدوا
ودنسوا مبادى معلم على ما تقدم هذا ما كان من امر الفلسفة عند الرومانيين

خاصةً لحد الزمان الذي تنصرف فيه القياصرة وغلافة ماجرياتها سوف نورد في الفصول الآتية

أما الشعوب الباقية من ملحقات تلك المملكة وتوابعها فقال بعض المؤلفين ان الجرمانيين والسلتينيين والبريطانيين لم يكونوا خالين من اناس مشهورين يجذبتهم ونباهتهم ففي الغال اشهر سكان مرسلينا بالانتباه الى العلم ولا ريب بانهم وزعوا بعض المعرفة بين القبائل المجاورة لهم وبين السلتينيين اذ ان الدروديون الذين كانوا كهنة وفلاسفة ومتشرعين اشتهروا بحكمتهم ولكن لم يصل الى الافرنج الا اخبار غير كافية في معرفة حقيقة فلسفتهم واخيراً ادرج الرومانيون العلوم والفلسفة في كل البلاد التي تغلبوا عليها بقصد ان ياطفوا اخلاق سكانها الوحشية ويمدنوهم

واما باقي الفنون فقد قال بعض المؤلفين ايضاً ان معاناتها في مدة تسلط اوغستوس قيصر كان في غاية الاعجاب كالنظم والتصوير والنقش والحفر ولكن بعد موته انصبّ خلناؤه على صناعة الحروب اكثر مما على صنائع الصلح والامان فاهلكت هذه الدروس

ووصف اخرون ما كانت عليه هذه المملكة في الوقت الذي تملك فيه هذا القيصر فقال ان في ايام سلطته كانت تحسنت صنائع البناء والنقش والتصوير وتوصلت الى درجة سامية من الكمال وامتدت في جميع اطراف السلطنة وكانت المدن والبلدان مزينة بالهياكل المبهجة والتصوير المرمرية المزخرفة المأثورة من التماثيل الجميلة والصور الثمينة واقيم في جميع البلاد التي افتتحتها الرومانيون ابنية عامة كثيرة النفع كتحسين الطرق وقيام الجسور الثمينة وبناء الاقنية لجلب المياه والى يومنا هذا يوجد في كثير من تلك المدن بقايا من اثار تلك المشروعات العظيمة مع انها اقيمت منذ الف سنة تقريباً

واما مدينة رومية نفسها فكانت من اعظم مدن العالم وانهبها وكانت دائرتها ٥٠ ميلاً وعدد سكانها ٤ ملايين وكانت محاطة باسوار عالية متينة

الينا نظير باقي المدن القديمة وكان لها ٢٠ باباً وكانت من عجائب الزمان
منظراً واهجة حتى يكاد الواصف يعجز عن وصف زخارفها وحسن رونقها وزينتها
لان الفواد الذهب افتتح الممالك الاجنبية كانوا ياتون بجميع الامتعة والتحف
النيسة العجيبة التي يجوزون عليها في مغازتهم ويضعونها في قصور هذه المدينة
وهي كلها زينة لها فكان فيها تماثيل جاهدوا بها من بلاد اليونان واعمد من
مصر وامتعة مجسة غريبة عجيبة من اسيا وغير ذلك من الذهب والفضة
والحجارة الكريمة التي كانوا يجمعونها من اقطار المسكونة وكان فيها قصور جميلة
وهي اكل ظريفة اكثرها من المرمر المنقوش نقشاً جميلاً ومراح ومحلات مدهشة
ان يشاهدها والملاهي العمومية وغير ذلك من الابنية الفاخرة وكانت مشحونة
بغنائم الدنيا بأسرها

وتقتصر اسباب هذا الغنى العظيم في الفتوحات التي افتتحوها والغنائم التي
اكتسبوها من الممالك التي استولوا عليها بواسطة قساوتهم البربرية وقتل اعدائهم
وسلب اموالهم بدون ادنى رحمة ولا شفقة نعم لا ينكر انهم كانوا نظير الفرس
والمصريين واليونانيين وغيرهم من الامم القديمة يتصورون تصورات من جهة
الفضيلة ولذلك كانوا يعاون احياناً اعمالاً تستحق المدح ولكنهم كانوا نظيرهم
ايضاً فاقد بن الاداب الحقيقية التي تستدعي معاملة الناس على احسن اسلوب
بل تفوقوا عليهم في غرور الكبرياء حيث زعموا بان لهم اصلاً ساوياً وانهم سوف
يحكمون كل العالم وان كل ما يدخل بايديهم بواسطة السلب والنهب
والغارات هو ملك شرعي لهم وانهم هم واليونانيون فقط الناس المتمدنون
وما عداهم من سائر الامم برابرة ومتوحشون

وقد ذكرنا في ما سلف بانهم كانوا يقسمون الى قسمين اشراف وعوام ثم بعد
ذلك اضيف الى هذين القسمين قسم ثالث يُعرف بحزب الاسياد وهو في درجة
وسطى بين الاشراف والعوام وكان يحدث بينهم من جرى ذلك منازعات
ومخاصات كثيرة

واما روساء ديانتهم فكانوا ينتخبون من اعيان الاهالي وكانت وظائف روساء الكهنة ذات اهمية سياسية عظيمة لانهم كانوا مولجين بتقديم الذبائح البشرية للالهة ثم ان اعنتاهم بالطقوس الدينية والتنجيم^(١) وغير ذلك من الامور التي كانوا يستندون عليها في تفليكاتهم كتفسير الاحلام وهيئة امعاء الحيوانات والطيور وحرق الموتى^(٢) والذبائح الحيوانية والبشرية التي كانوا يقدمونها على قبور الاموات فهي مدرجة مع اصول ديانتهم التي اتخذوها عن اليونانيين ايضا كعبادة جوبيتير وغيره من الالهة في البحث الرابع من المقالة الثانية من كتاب زبدة الصحائف في اصول المعارف فلا حاجة لتكرار تفاصيل ذلك هنا

وكانت ملابسهم الاعتيادية قيصا واسعا من صوف بغير اكمام وثوبا اخر ابيض ضيق يلبسونه تحت القميص وقت الخروج من البيت الى السوق وعند رجوعهم الى بيوتهم بنزعون القميص وكانت الرجال منهم غالبا مكشوفى الرووس يلبسون في ارجلهم نارة احذية مكشوفة مربوطة بالرجل بواسطة شرائط ونارة جزمة قصيرة

اما لغتهم الاصلية فهي اللسان اللاتيني وسوف يرد في مواطن عديدة من هذا الكتاب كلام يتعلق في هذه اللغة يعني عن تفاصيل كثيرة هنا واما الزواج فكان عندهم من الامور الضرورية وقد عاقبوا من امتنع عنه باشد القصاصات الصارمة وفي بعض الاجيال فرض قضائهم وقتا مخصوصا لزواج الشبان ياتهم من بلغ السن المعين ان يتزوج فيه وجعلوا ذلك فريضة

(١) ذكر بعض المؤلفين بان كانوا وقيفرون المعدودين من افراد رجال رومية في العلم وذكارة العقل كانا من جملة اولئك المنجمين مع انها لم يكونا يعتقدان في تلك الحيل والخرافات الكاذبة اذ يقال بان كانوا المذكور قال يوما لاحد اصحابه كيف يمكن ان ينظر منجم الى وجه منجم اخر ولا يضحك

(٢) هذه العادة التي طالما شنع عليها اهل الذوق السليم وانكروها هل اهل الاديان الوثنية من العالم القديم والجديد قد رجع اليها اهل اوربا الان واخذوا من مدق قريية في بناء مواقد خصوصية في كثير من عواصم بلادهم لهذا العمل المكروه

شرعية وكان اوغسطوس قبصر يشدد التصاصات على الذين يتوقفون عن
 الزيجة ويخ كثرى النسل عطايا كثيرة وكانوا يخطبون البنات مدة طويلة
 قبل عقد الزواج الذي يجوزته باحتفال عظيم بحضور الكهنة والمنجيين
 ويجردون شروط الزيجة بمحضر جمهور من اليهود وكان القرينان يثبتان تلك
 الشروط بثقتهم يكسرانها امام المحاضرين وبعد ذلك يهدى العريس عروسه
 خاتما تلبسه في الوسطى من يدها اليسرى لاعتمادهم انه يوجد عرق يتد من
 تلك الاصبع الى القلب ثم يخضعون احتفالهم بضيافة يقيمها ابو العروس . وعند
 تشييط العروس وقت الزفاف كانوا يرقون شعرها بسنان رخ اشارة بانها
 ستكون عن قريب قرينة رجل مقاتل ثم يتوجونها باكليل من زهور ويضعون
 على راسها مندبلا يلقى بها وعند نهاية لبسها يرافتها الى بيت العريس ٣ صبيان
 من كان والدوهم احيا ويحمل امامها مشاعل ومردن ومغزل وعند وصولها
 الى البيت تربط جوانب الباب بحبال من صوف مغمسة في شمع مذوب لاجل
 منع قوة السحر وبعد ذلك يجاونها ويدخاون بها الى الغرفة اذ لم يكن يسمح لها
 ان تدوس العتبة برجليها ثم يتقدم العريس ويهدىها مفاتيح البيت مع اناءين
 فيها ماء و نار ثم يصنع ضيافة عظيمة لجميع اهل العرس مصحوبة بالآلات الطرب
 والرقص وكان المدعوون ينشدون مدائح العريسين

وكانت صنائع قدماء الرومانيين منحصرة في حراثة الارض وبعض من
 بسطة متعلقة بها وكانوا يعتبرون امهر الحراثين كافضل الناس وكان الحراثون
 يجاون الى الخرافات فكانوا يمتنعون عن الاشغال كافة في خامس يوم من الهلال
 وفي السابع والعاشر منه كانوا يزرعون الدوالي ويضعون التبر على صغار البقر
 لاجل التطبيع وفي العاشر منه يباشرون في السفر وكانوا ياتون بحجبة حمار
 ويعاقونها على حدود الحقول لاعتمادهم بان ذلك مما يحسن تربتها ويمنع عنها
 الخلل . وفي زمان المشيخة الاولى لم يكن في بساتين الرومانيين سوى قليل من
 انواع البقول واشجار الفاكهة واما التفاح والكرز وغيرها من الاثمار اللذيذة

والزهرة الجبيلة فقد استجلبوها من بلاد العجم واسيا الصغرى بعد مدة طويلة وكانت العادة عندهم ان يظلموا مصاطب جنائهم وماشيتها باغصان الدوالي ويعانقون فيها التماثيل ويحيطونها بسياجيات مرتفعة من الشوك والعليق والمرج ان الرومانيين اكتسبوا معرفة زرع الكروم واستخراج الخمر من اليونانيين ايضا فكانوا وقت استخراجهم يبنهجون وينرحون ويصبون من الخمر الجديد على الارض اكراما للمشتري والزهرة

وكانت لهم اليد الطولى في الابنية والنش على الحجر والمرور وفي اقامة الجنائن المستظرفة ومن اشهر ابناتهم في تلك الاعصار قصر الفيلسوف بيليني صاحب الثروة العظيمة وكان له املاك عديدة من جملتها القصر المذكور الذي لشهرة هندسته ورونق بناؤه فجاد ذكره في بطون التواريخ قال بعض المؤلفين ان الصنائع اللطيفة والرياضية لم تعرف عند الرومانيين الا بعد الجبل السادس من تأسيس رومية اي نحو ١٠٥٠ سنة قبل الميلاد حيث اكتسبها وقتئذ جنودهم من الاعم الذين افتحوا بلادهم وادخلوها الى رومية وعندها ابتدا الاغنيا ان يتقنوا دوزهم ويزينوها بانواع النساوير والنقوش

وكان في مساكن الاشراف مخادع جميلة فيها مكاتب مباحة لمن يرغب في الاطلاع عليها من الادباء والعلماء وكانت الكتب نادرة الوجود لسبب كلفتها وصعوبة نسخها اذ كانوا يكتبونها على الرقوق وبعضها على الورق المصنوع من اوراق النبات المصري المعروف باسم بايبروس فكانوا يصلون اطراف الاوراق بعضها مع بعض ويلفونها درجا ويحفظونها ضمن لفافة من الجلد او الحرير وكان جل انتباه اشهر رجال الرومانيين منصرفا نحو الترتيبات العسكرية والاستعدادات الحربية وقد حكمت شريعتهم وقشده على كل رجل من احرارهم ان يخدم في العسكرية رغما عنه في اي وقت كان من سن ١٧ سنة الى سن ٤٦ وكانت عساكرهم مفسومة الى فرق ومواكب كل فرقة تشتمل على ٢ الاف من المشاة و ٣٠٠ من الخيالة ثم زادوا عددها بعد ذلك فجعلوها ٧ الاف وكان

يبرق الفرقة نسرًا من فضة بجملته ضابط من ذوي الرتب على ربح اما الخيالة فكانوا يحملون علامات من شريط منقوش عليها باحرف ذهبية الاحرف الاولى من اسم الامبراطور وعدد الفرقة. ولم يكن عندهم من آلات الموسيقى العسكرية سوى النفر وكان البعض من العساكر يتسلحون بمجربات خفيفة والبعض بمجربات ثقيلة ويتقلدون الانراس والبلطات على اليمين وتدرعون بدرع من نحاس او فولاذ وتحت الدرع ثوب احمر واصل الى الركبة وعلى رؤوسهم خوذ من نحاس بشراريب من شعر الخيل واما القواد فكانوا يلبسون قمصانا مدرعة بخشفات من النحاس او الفولاذ مصفحة احيانا بالذهب وتحتها اثواب ضيقة واصالة الى اواسط الساقين وكانوا يركبون الخيل بدون ركابات وكانت سروجهم قطع قماش ملفوفة بحسب رغبة الراكب وكان تدير العساكر ونظامها متقنا غاية الاتقان وقوانينهم في غاية ما يكون من الصرامة

اما مراكبهم الجرية فكانت شبيهة بمراكب قرطاجنة غليظة وضعيفة البناء عالية الموخرو الجوانب ومع انها كبيرة لم تكن تصلح لمصادمة الانواء والارياح العاصفة وكان لها صفان او ٢ صفوف من المجاذيف بحسب عدد طبقاتها واما مقدمها فكان مدرعا بالحديد على هيئة راس حيوان وعلى ظهرها الاعلى برج غير ثابت تستخدمه العساكر كتراس لاطلاق الاسلحة وفيه جسر يستعملونه وقت العبور والهجوم على مراكب الاعداء وقبل اكتشاف الحلك او هوبيت الابرة التي بواسطتها استؤمن السبر في وسط الجاركان سير المراكب منحصرا في الشطوط. وبحسب المراكب كبيرا اذا كان محمولا نحو ٢ الاف كيلة

وكان تجار الولايات الجرية التي على شواطئ البحر الرومي يجلبون الى رومية جميع انواع محاصيل الشرق غير ان تلك التجارة انحصرت فيما بعد باهل رومية بعد ان فتح اوغسطوس البلاد المصرية وصارت حينئذ مدينة الاسكندرية مركزا لتلك التجارة

وكان للرومانيين مرايح كثيرة قد شبدوها لاجل الفرجة على الوحوش

الضاربة وعلى مصارعة الابطال وانواع اللعب بالسيف وكانوا يخططون الوحوش البرية في اوجرة حول الفسحة الوسطى من المراسح ويصونون تلك الفسحة تصويبا متينا ويحيطونها بقناة من الماء لاجل صيانة المتفرجين وعند اجتماعهم في هذا المرسح يطلقون الوحوش بعضها على بعض فكانت تضر ببعضها ويقتل منها كثير يقال انه قتل منها ١١ الفاً في مشاهد الاشهر الاربعة التي اقيمت فيها الافراح لاجل انتصار الرومانيين على اهل داسيا وقتل ايضاً في حادثة اخرى نظيرها ٥٠٠ اسد في برهة وجيزة وكثيرون ايضاً من المسيحيين الاولين امامهم الرومانيون بطرحهم ايام الوحوش في تلك المراسح التي لم يكن تشييدها مقصوداً على مدينة رومية بل وفي اية مدينة ارادوها من البلاد الكائنة تحت ساطنتهم ولم يزل حتى الان يوجد في جبلة من توابع لواء طرابلس الشام اثار ملعب من هذه المراسح يعرف بالتياترو وهو على شكل قوس دائرة مفاعة صفوف حول الساحة المتوسطة كل صف منها مرتفع قليلاً عما تحته ونصف الدائرة نحو ١٥٠ قدماً والمحيط من خارج نحو ٤٥٠ قدماً وتحت المفاعة مرابض لوضع الوحوش التي كانوا يستحضرونها لتلك الملاعب. وكان من ملاحظتهم التي يفخرون بها ايضاً المصارعة بالسيف اي لعب الحكم وهذا النوع من اللعب حدث في رومية على ما قيل في اواخر الجبل الخامس من تأسيسها اي نحو سنة ٢٥٠ ق م وكانوا قد استعملوه في اول الامرامام جنازة بقصد الاحتفال والتعظيم ومن ثم صار استعماله في الجنازات عموماً وبعد ذلك حسبوه ضرورياً وواجباً للاحتفالات الرسمية التي كانت تقام في ايام المواسم والاعياد وكانت الاسلحة التي يستعملونها في تلك المصارعات مضررة وقاتلة وكثيراً ما كان يقع عدد وافر من اوائك المصارعين قتلى على الارض لاجل نزاهة المتفرجين وكانت في اول امرها مخصصة للخبيرين والاسرى ثم للمعيدين فكانوا يتصارعون بالسلحة مخنفة تارة بالاسلحة الكاملة واخرى بحربة ذات ٢ شوكات وشبكة بواسطتها يجتهد احد الخصمين ان يعرقل خصمه ويشبكه بها فيتمكن من قتله وكان الامبراطور كومودوس

الذي تولى القصرية سنة ١٨٠ ب م وقد مر ذكره يشترك احياناً كثيرة في تلك المصارعات متخفظاً على نفسه باعترافه الاسلحة الكثيرة واستمرت هذه العادة دارجة ومستعملة عندهم الى الجيل الرابع حينما ابطها الملك قسطنطين الكبير الآتي ذكره في الفصل التالي واقام عوضاً عنها ملاعب اخرى من شأنها ان تنشظ الجسد وتقوية لان تهدمه

الفصل الرابع

في ماجريات القياصرة الرومانيين المسيحيين منذ تنصر قسطنطين الكبير المذكور الذي نقل كرسي الامبراطورية من رومية الى القسطنطينية الى ان انقسمت المملكة الى قيصريتين شرقية وغربية في سنة ٢٩٥ ب م

كان الملك قسطنطين الكبير المقدم ذكره عظيم الهامة صحیح البنية لايبالي بالمشقات والاطهار ولا ياكل من الانعام والاسفار نودي باسمه فيصراً سنة ٣٠٦ م وكان مشهوراً بالشفقة والرافة منفرداً بالاصناف الجميلة والآراء السديدة وقد امتازت ايامه عن ايام باقي القياصرة بامر من مهين عظيمين اولها اعتناقه في سنة ٣١٢ م الديانة المسيحية وثانيها نقل كرسي السلطنة من رومية الى مدينة القسطنطينية التي بناها في سنة ٣٣٠ م

وقد تمسك هذا الملك بالديانة المسيحية اشد تمسكاً حتى انه لم يكن احد من الملوك اشد حمية منه عليها فجملاً ديانة الولاة والمحكام وهدم هياكل الاصنام واذ لم يكن في ذلك الوقت اسقف عام على جميع الكنائس فكان هو في واقع

الامر صاحب القول عليهم وفي ايامه ظهر الاعتقاد الاربوسي الذي قاومه
 اثناسيوس رئيس اساقفة الاسكندرية فامر قسطنطين بالتمام مجمع اكليركي في
 مدينة نيقية ويقال لها نيس في ايطاليا فتقرر به هرطقة اريوس وكان ذلك
 اول مجمع مسكوني ثم ان هذا القيصر افرز من خزائنه مبالغ جسيمة من الاموال
 لاجل انشاء الكنائس في مدينة اورشليم وسائر الاراضي المقدسة فانخذت امة
 هيلانة على ذاتها العناية بذلك وسافرت من القسطنطينية في بعض شهور سنة
 ٣٢٦ م الى اورشليم وكان سفرها هذا علة لسعادة سكان تلك البلاد الذين
 كانوا يلتجئون اليها من اغنياء وفقراء وارامل وايتام ومديونين ومرضى ومحبوسين
 فانما كانت تعملهم وتنقذهم وتوزع عليهم العطايا والاموال الكثيرة وعند وصولها
 الى اورشليم هدمت معبد الزهرة الذي كان شيدته الوثنيون على جبل الحجلة
 ثم اعثت بكشف قبر المسيح ويقال انها وجدت بقايا من الصليب فجاءت بها
 الى القسطنطينية وكانت هذه الامبراطورة قبل اعتناقها الديانة المسيحية متزوجة
 بقسطنطينوس كاوروس ابي قسطنطين الذي لم يكن وقتئذ سوى قائد من
 القواد الرومانية فلما صار قيصرًا في سنة ٣٠٥ ب م ظانها بحسب عادة
 الرومانيين الوثنيين طعمًا بزواجه ثيودورة بنت الامبراطور مكسيميانوس الذي
 كان صار قيصرًا في سنة ٢٩٠ ب م فلما ارتقى ابنها قسطنطين الى كرسي
 القيصرية بعد وفاة ابيه ارسل فاحضرها الى البلاط الملكي وانها بانقبا او غسطا
 اي ملكة ثم عرفها بحقيقة الدين المسيحي الذي كان قد اعينته فتنصرت من
 يومها وانعكفت على العبادة وكانت غبورة على اقتناء الفضائل الانجيلية
 ويقال بان السيب في تنصر قسطنطين المشار اليه دوانه ابصر حلما في
 اثناء محاربه مكستنيوس بن مكسيميانوس المذكور الذي كان ينازعه على تاج
 الملك وهو صورة صليب في السماء من النجوم مكتوبا تحته بخط من النجوم ايضا
 مد بهذا تغلب واما السيب في تناو سير السلطنة الى القسطنطينية فهو انه لما
 دخل الى مدينة رومية في اول امره مؤيدا منصورا على مكستنيوس المذكور لم

باني من اهلها بشاشة ولا ترحيب لتمسكه بالدين المسيحي فغضب من ذلك
وانف ايضا من انعكاف الاهالي على العبادة الاصنامية وصم على ان يبني مدينة
غير رومية يجعلها مقر الحكومة ودار السلطنة فاختر قرية من قرى طراسه التي
نسى الآن روم ايلي كانت نسي في الزمن القديم ليفوس ثم صارت بعد نزول
قبائل اليونان هناك مدينة نسي بيزنتيه نسبة الى بيزنس رئيس الماغريين
المؤسس الاصلي لما في سنة ١٢٠٦ ق م وذلك لتزامتها وحسن موقعها بين
اوربا واسيا واكونها مشرفة على ٣ اجز فرسها وبنى اسوارها وقصورها على راس
مثلث الزاوية منقسمة الى ٧ نلال وسماها رومية الجديدة وبعد ان انما على احسن
حال رغب الاهالي فيها لكثرة منافعها وفوائدها وقصدها الناس من جميع
الاقطار ثم تغلب عليها اسم القسطنطينية نسبة الى بانها المذكور وفي كتب
تواريخ المسكوب يسمونها زرغورود يعني المدينة الملكية والباغار والاولاق يسمونها
زرغوراد واهل جزيرة اسلندة والسكندناوية كانوا يسمونها في القرن العاشر من
الميلاد مكلاغرد يعني المدينة الكبيرة وبعد ان افتتحها آل عثمان سموها
استانبول او اسلامبول وكلتا اللفظتين مركبتان من كلمتين الثانية منها كلمة
يونانية وهي بول او بولي ومعناها بلد والاولى في الاولى فارسية ومعناها العتبة
فكانهم يقولون مدينة العتبة يعني عتبة الملك وفي الثانية عربية والمعنى فيها
مدينة الاسلام

وبعد وفاة قسطنطين سنة ٣٣٧ م انقسمت المملكة بين اولاده الثلاثة
وثارت بينهم حروب ادت الى زعزعة اركان الدولة الرومانية فكانت برايرة
الشمال نهم عليها من جهة المغرب وكاسرة الفرس تهددها من جهة المشرق
ثم اعقب اولاد قسطنطين المذكورين ابن عمهم المسي بوليانوس والافرنج نقول
بوليان ويلقبونه بالجاهل لانه حمد الديانة المسيحية واعاد الديانة الوثنية سنة
٣٦٢ م واخذ يجمع اليهود في اورشليم وابتدا بهار هيكلم ليبين بذلك فساد
الكتب المقدسة ويكذب نبوة المسيح بهذا الشأن قال بعض المؤلفين نقلا عن

اميانوس احد المؤرخين الوثنيين الذي عاش في تلك الايام انهم اذ كانوا
 يحفرون الاساس خرجت نار من الارض واحرقت النعلة وسمعوا رعداً وراوا
 شرارات نارية تخرج من الصخور فكفوا عن العمل وبعد موته تولى بوقيان
 امبراطوراً مكانه سنة ٢٦٢ م وفي ايامه نشيدت النصرانية ثانية ولم تطل مدته
 سوى سنة واحدة وبعده اشغل خلفاؤه بحروب البربر وغيرهم ولا زال الحال
 في تأخر الى ان قام بالملكة ثيودوسيوس الاول وياقب بالاكبر واستقل بالحكومة
 بفردم فقسم السلطنة الرومانية بين ولديه اركادبوس وهونوريوس في حال
 حياته وتوفي سنة ٢٩٥ م وبعد وفاته تولى ابنة اركادبوس الملكة الشرقية وابنة
 هونوريوس الملكة الغربية واكمل من هاتين القيصرتين شان على حدته كما
 يتضح ذلك من التفاصيل الآتية ومن هذا الوقت يبتدي المؤرخون

بالفصل الاول من القسم الثاني من اقسام تاريخ العالم

العمومي حسبما يستبين ذلك مما اوردناه

في مقدمة هذا

الكتاب

الفصل الثاني

من اقسام التاريخ وهو المعروف بالفرون الوسطى.

الفصل الخامس

في امبراطرة القيصريّة الرومانية الشرقية منذ انفصالها عن المملكة الغربية سنة ٢٩٥ م الى ان افتحها آل عثمان سنة ١٤٥٢ م

ولما تولى اركادبوس بن ثيودوسيوس المقدم ذكره على الامبراطورية الشرقية التي كرسها مدينة القسطنطينية كانت تخموي على بلاد فلسطين وفينيقية والشام وقبرص والعرب وكيليكيا والجزيرة وبلاد مصر واسيا الصغرى وبلاد البحر الاسود والروم ايلي ومكدونيا وداقيا وبها تاسست اليونانيين امبراطورية جديدة استمرت مركزاً للعلوم والتمدن بعد هذا الانقسام باكثر من الف سنة

ثم بعد وفاة اركادبوس تولى ابنته ثيودوسيوس الثاني سنة ٤٠٨ وكان كايي في ضعف العقل وقلة الادراك الا انه في ايامه وضعت تلك القوانين الآتي ذكرها التي لم تنزل معتبرة من بهض الوجوه في تقاليد الكنيسة اليونانية ولما تبوأ لاون الاول بعد انقراض العائلة الثيودوسية في سنة ٤٥٧ م توجه البطريك القسطنطيني فكان اول امبراطور توجه بطريك

وفي ايام انسطاسيوس الذي تولى القيصريّة سنة ٤٩١ م ادخل راهبان من رهبان الافرنج الذين كانوا في بلاد الصين دود الفز الى القسطنطينية وكانا خباأه في عكازيها خوفاً من شرائع تلك البلاد التي كانت تمنع يا شد صرامة اخراج شيء مثل ذلك من اقاليمها

وفي زمن جوستينيانوس ويقال له بوسنتيانوس ايضاً الذي تولى السلطنة سنة ٥٢٧ م زهت المملكة الشرقية وعظمت سطوتها بسبب انتصاراته الحربية ووضع ديونيسيوس الاتقوثي التاريخ المسيحي المستعمل الآن وذلك في سنة ٥٢٢ م وكان المسيحيون لحد ذلك الوقت يورخون بالتاريخ الروماني الذي يتتدي من تاسيس رومية سنة ٧٥٣ ق م^(١) واشتهر هذا القيصر باشتغاله مع تربيونيان الفقيه في تنقيح السنن والشرائع الرومانية الكثيرة المجموعة منذ اجيال عديدة وفي وضع قوانين وشرائع مدنية تُعرف بالقانون الجوستيناني فكان ذلك من اعظم اعمال عصره وهو الان قاعدة واساس الاحكام المدنية المحاضرة في اوروبا وفي ايام فوكاس ويقال له فوقاً ايضاً الذي تولى القيصريّة سنة ٦٠٢ م اصدر امراً الى عامله بمصر بامرهُ برفض جنس المصريين من الوظائف الميرية فحدث من ذلك اضطراب وفتنة في الاسكندرية وكان اكثر هذه الفتنة من

(١) غير ان محققي المتأخرين اثبتوا غلطة في هذا الحساب اذ انه جعل ميلاد المسيح في سنة ٧٥٣ من عمارة مدينة رومية مع ان المسيح ولد قبل موت هيرودوس وبوسيفوس المورخ اليهودي يقول ان هيرودوس مات في ربيع سنة ٧٥٠ من تاسيس رومية فاذا كان المسيح ولد في كانون الاول او في فصل الخريف الذي قبل موت هيرودوس فيكون ميلاده في سنة ٧٤٩ من تاسيس رومية وهو قبل التاريخ الدارج بربع سنين وكذلك ذكر لوقا في انجيله ان يسوع كان ابن ٣٠ سنة في سنة ١٥ من سلطنة طيباريوس قيصر وطيباريوس هذا صار شريكاً في السلطنة مع اوغسطوس قيصر سنة ٧٦٥ من تاسيس رومية واذا اضفنا الى هذا التاريخ ١٤ سنة تامة من ملكه بعد ذلك يكون المجموع ٧٧٩ وهي السنة التي شرع فيها المسيح في خدمته واذا طرحنا من هذا المجموع ٣٠ سنة التي هي عمره في ذلك الوقت فيكون الباقي ٧٤٩ سنة ايضاً ولذلك رجح اكثر العلماء بان ميلاد المسيح كان قبل التاريخ المستعمل الان بربع سنين على ما ذكرنا

طائفة اليهود هناك فحكم عليهم هذا القيصران يتنصروا فتنصروا رغماً عنهم
 وخلفه بعد ان قتل هيراكليوس ويقال له هرقل ايضاً في سنة ٦١٠ م
 فاجرى حروباً كثيرة مع الفرس وغيرهم وبعد ان رجع الى القسطنطينية دار
 ملكه وظافراً مؤيداً على ابرويزخسرو ملك فارس اهل ادارة الاحكام وانهاك
 في مجادلات دينية من جهة لاهوت المسيح وفي اثناء ذلك افتتح المسلمون مدينتي
 القدس والشام واستولوا على جانب كبير من سوريا وكان وقتئذ نائبة على مصر
 رجل من القبط يقال له المقوقس المشهور بانه سلم البلاد المصرية مع وجود
 ١٠٠ الف عسكري من جنود الرومان فيها الى ٤ الاف فارس من العرب
 تحت راية عمرو بن العاص في خلافة عمر بن الخطاب

ومنذ وفاة هذا القيصر الى قيام جوستينيان الثاني سنة ٦٨٥ م لم يحدث
 شيء الا مهماجات المسلمين القسطنطينية وذلك اخترع رجل يقال له كاليستيكوس
 السوري النار المعروفة بالنار اليونانية وكانت تحرق في وسط الماء للدفاع عن
 هذه المدينة وذلك سنة ٦٧٣ م

ولما تبوأ سرير السلطنة ليون الثالث ويسى ايضاً لاون الايسوري او اللوزرياني
 سنة ٧١٦ افتتح في ايامه باب الجدل بين الكنيستين الشرقية والغربية بسبب
 وضع الصور في الكنائس وكانت الروم تريد ابطال هذه العادة حتى انهم كسروا
 كثيراً من الايقونات وداسوها في الشوارع والطرق حيث ان المسلمين كانوا
 يعيرونها بسببها ويتهمونهم بعبادة الاوثان ووقع النفور بين الكنيستين حتى آل
 الامر بها الى الانقسام فلما استولت على الملكة زوجته ايريني بعد موته بالنيابة
 عن ولدها قسطنطين الذي سهلت عينه اخيراً لتسبب بالملك اعادت الصور
 المذكورة الى الكنيسة الشرقية

ثم لما اتصلت ادارة القيصرية ببرداس في ايام ابن اخيه ميخائيل الثالث
 الذي تولى السلطنة سنة ٨٤٢ م وكان برداس المذكور محباً للعلوم والفنون
 فاقام فوتيوس الشهير وكان من اعظم اهل العلم في وقته بظربكا على

القسطنطينية سنة ٨٥٨ م

ولما تولى الملكة باسيل المعروف بالملك دوني في سنة ٨٧٦ م وكان هذا الملك موصوفاً بالفراصة والذكاء ومحباً لانتشار المعارف فاصلىح نظامات البلاد وشرائعها وألف كتاباً لابنه ابو (لاون) في فن الاحكام طبع في باريس سنة ٥٨٤ م وترجم الى اللغة الفرنسية سنة ٥٩٠ م وله ايضاً مجموع شرائع تُعرف بالباسيلية في ٦٠ مجلداً ابتداءً بها هو واكملها ابنه وهي مطبوعة ايضاً في باريس حديثاً

ثم بعد هذا التيصر بنحو قرنين وجد لاليكسيوس كوميثينوس الذي تولى التيصرية سنة ١٠٨١ م ابنة يقال لها حنة كوهينينا ذات عقلٍ وادبٍ وذكاءٍ منفرطٍ وكانت من احسن نساء عصرها وانجبت و اعظم من اشتهر من جنس النساء في فن التاريخ كما اشتهر ابوها المذكور بمخباته الصليبيين ومقاومته لهم سراً مع انه كان يدعوهم في اول الامر من اوربا ويعدمهم بالمساعدات قيل ان ذلك كان منه لتدبير سياسي به بوقى ساطتته من مغازي طوائف الافرنج التي كانت طالما نشاق الى فتح بلاده كما يتضح ذلك من الابحاث الآتية عند الكلام على الحروب الصليبية المذكورة

وبعد ذلك بنحو قرن ايضاً لما انزل اليكسيوس انجيلوس اخاه اسحق انجيلوس عن التيجت بعد ان كان تولى السلطنة سنة ١١٨٥ م وسهل عينيه ثم سجنه هرب ابنه اليكسيوس الى رومية واستغاث بالبابا اينوسنت الثالث ووعده بان يضم الكنيسة الشرقية مع الكنيسة الغربية ويجعل السلطنة الشرقية خاضعة لاحكام الباباوات وقوانينهم ولذلك امر البابا قواد النجريد الصليبية الرابعة ان يساعده على استيلاء الملكة وينقذه من تعدي عمه وظلمه ففعلوا وحاصروا القسطنطينية وحرقوا عمارة الروم التي كانت تحافظها وحينئذ نادى اهلها باسم اليكسيوس ابن اسحق المذكور بعد ان هرب عمه خوفاً من القتل فاستولى على مملكة ابيه لكن لما عرفت الروم بما تعهد به البابا استعظوا الامر ولا سيما خدش استقلال كنيستهم فعزلوه واولا مكانه اليكسيوس دو كاس الملقب

مازوفلوس واذ لم يف هذا ايضاً ما وعد به سلفه البابا نهض اللاتينيون وحاصلوا المدينة وتملكوها ونهبوا اموالها وهدموا قصورها وابنتها الطريقة واقاموا عليها قائدهم بودوين امبراطوراً فاستمر حكم اللاتينيين على هذه السلطنة من سنة ١٢٠٦ الى سنة ١٢٦١ وهم في حروب دائمة مع الروم الذين ما برحوا يريدون استخلاصها وكانوا قد أسسوا وقتئذ ملكتين روميتين احدها في نيقية سنة ١٢٢٢ وملكها ثيودورس لاسكاريس والثانية في طرابزون وملكها اليكسيوس كومننوس ثم في سنة ١٢٦٠ م نهض ميخائيل باليولوغوس ملك نيقية مع صاحبه يوحنا لاسكاريس وهاجما القسطنطينية واستخلصها من يد الملك بودوين الثاني واعاد اليها تخت السلطنة وجلس عليه ميخائيل باليولوغوس المذكور ثم خاضه بعده عدة ملوك الى ان هجم السلطان محمد الفاتح العثماني في سنة ١٤٥٢ على هذه المدينة واستخلصها من يد قسطنطين الباليووغوس الذي هو اخر ملوك الروم فيها وجعلها دار سلطنته ومركز حكومته ولا زالت بيد خلفائه الى هذا اليوم

الفصل السادس

في المبادي الفلسفية العمومية منذ تنصر الملك قسطنطين الكبير
باني مدينة القسطنطينية الى ظهور الدولة العباسية في المشرق
والامبراطورية الغربية يعني تلك كارلوس الاكبر في
المغرب سنة ٨٠٠ م

يضع من التفاضيل الآتية في البحث الثاني كيف ان العلوم والفنون وكل
انواع المدن الذي اكتسبه الرومانيون من اليونانيين بطرف ٦ قرون مكتوا

بها متسلطين على اقاليمهم وكانوا ينشرونها في البلاد التي يفتخونها ويستولون عليها قد زال دفعة واحدة من جميع اقطار الامبراطورية الغربية منذ استولى البربر على اقاليمها فانعدم التمدن القديم من بلاد المغرب في القرن الخامس من الميلاد ولكنه بقي محفوظاً في بلاد المشرق مدة القرون الوسطى وكان مرتبطاً باحوال امبراطورية القسطنطينية قوة وضعفاً وذلك ان ما صدر من القيصر قسطنطين الكبير من التدبير في حفظ الساطنة الرومانية بنقلها الى سواحل الخليج القسطنطيني كان وقاية لاصول التمدن اليوناني ولما خلت ايطاليا من كرسي القياصرة الغربية غدق القياصرة الشرقيون بالانعام على اصحاب العلوم والمعارف وبنوا صنائعهم الساطانية فيما حول القسطنطينية التي هي دار اقامتهم فكانت الشوكة والثروة اللذان بهما احياء الفنون وامدادها مع حضور القيصر الذي به تكون قوتها وشرفها وسائر ما تتحرك به العقول البشرية كل ذلك معرضاً للشعوب الشرقيين ذوي البراعة والنشاط على ممارسة العلوم والفنون والاستغفال بها واصبحت جميع الاقاليم وسائر ذوي المعارف يجوبون الى القسطنطينية ما يجب عليهم تاديبه من العلم والفصاحة وصارت هذه المدينة تجز لنفسها من التحف والنفائس ما كانت تبعث به اسيا منذ قليل من الزمان الى الكرسي القديم (رومية) ولما دخل ارباب البراعة في الدين المسيحي اكتسبوا اداباً جديدة كسهم حلة الرونق والبهجة ثم ما وقع بعد ذلك من تعارض الدين المسيحي والفلسفة الوثنية وتقاومها ترتب عليه ما لا يحصى من ملح الانشا الفصيحة الادبية لان الفلاسفة الوثنيين اليونانيين لما ارادوا تنقيج عبادة الاوثان وتهذيبها وشرع في ذلك امينوس سكاس الذي سبقت الاشارة اليه في الفصل الثالث ليعاوشان تلك العبادة بذل كذلك امناء الدين المسيحي معارفهم وانفسهم لاطهار الحق فتولد عن ذلك علمان جديدان وهما فلسفة افلاطون الجديدة التي تقدمت تفاصيلها في الفصل المذكور والفلسفة السكولانسيكية التي تساطت وقتئذ على المكاتب المسيحية كما يتضح ذلك من التفاصيل الآتية

ان المسيحيين منذ عهد القيصر قسطنطين اعتنوا اعشاء زائداً في درس
الفلسفة والفنون أكثر من قبل والملوك لم يغفلوا عن اية واسطة من الوسائط
للبحث عن تقوية العلوم وتنشيطها واقاموا مدارس في كثير من المدن وجمعوا
فيها مكاتب ايضاً ونشطوا العلماء بالمرتبات والانعامات والالاف السامية
وهذا جميعه كان لازماً في ذلك الوقت لمقاومة مضادهم وابطال الوثنية شيئاً
فشيئاً لان ديانة الوثنيين كانت تستمد كل اعانتها من علم اصحابها بل اذا كان
الشبان المسيحيون لا يقدرّون على ايجاد معلمين من ابناء دينهم كانوا يلتزمون
للذهاب الى المعلمين الوثنيين معلمي الفلسفة والبيان ونحشى من ذلك على
عقيدتهم ومن ثم كل الذين من اليونانيين او الرومانيين ارادوا الانتظام في
سلك العلماء مدة القرن الرابع اوقفوا ذواتهم خاصة لفنون النصاحة والنظم
والتاريخ والذين اشتهروا فيها من الامتين المذكورتين لم يكونوا قلائل ولأن
كانوا مقصرين دون الدرجة المطلوبة في مثل هذا المطلب

اما الذين تعلموا الفلسفة في القرن المذكور فكانوا الا القليل جداً من
الشيعة الافلاطونية الجديدة فاذن لا يستغرب وجود بعض آراء افلاطونية في
كتب المسيحيين كما في كتب غيرهم لانه لما اتسعت في مكتب الاسكندرية دائرة
هذه الفلسفة داخلها شيء مما يجرّس على التعمق في العبادة الوثنية واستعمال
ما يستخدم به على زعمهم الجبن الروحانيات على ما تقدم في ما سبق اذ ان اهل
ذلك العصر كانوا يميلون لمثل تلك الاوهام الفاسدة (١)

(١) تخصيصنا هنا اهل ذلك العصر بتلك الاوهام الفاسدة انما هو تبعاً للاصل المتقول
عنه والآفانه معلوم بان الاكثرين من شعوب المشرق لازالوا حتى الان يعتقدون باستخدام
الجبن فقط ما انكروا على ذلك وقت من الاوقات بل لازالوا يتعاطونه الى يومنا هذا
ويبرهنون على صحته ومن سوء الحظ ان اهالي اوربا الذين لم النضل بكونهم كانوا علة
تزييفه والانكار عليه منذ قرون قليلة قد اخذوا الان في تجديده ومعاطاة فن العرافة
واقتضار الارواح ويسمون اصحاب هذا العمل اسيريين اي روحيين فهل من لوم اذن
على من نحشى بعد هذا ونظائره كتجديدهم حرق الموتى الذي سبقت الاشارة اليه في الكلام

والفلاسفة الوثنيون منهم كانوا في المغرب اقل ما كانوا في المشرق فكان منهم في سوريا ببلخيوس الكليسي من عجم شرح افلاطون او بالمحري زور كتابات نسبها الى ذلك الفيلسوف وما كتبه بدل على انه كان ذا خرافات عبوساً مذعناً وقواه العقلية من الدرجة الوسطى وتبعه ايد بسيموس ومكسيموس الافسي وخلافها وفي الاسكندرية قامت هيباريا بنت نيون الشهيرة واراييدورس وسينيوس الذي كان عبارة عن نصف مسيحي وغيرهم من الذين هم اقل شهرة منهم واخذوا ينشرون هذه الفلسفة

ولما كثرت معارضة المتعصبين منهم لهذا المذهب مع روساء عبادة الاوثان الى الديانة المسيحية بالشرق وكان اشهرهم رجل يقال له قلوذبانوس دواكر يوس وبلخيوس المذكور فسار الى مدينة رومية التي كان الدين المسيحي وقتئذ قد تسلطن على جميع اهلها على اختلاف درجاتهم واخذوا معها رجل يقال له بورفير او بورفير يوس الصوري كان رجلاً حاذقاً ذكياً عالماً كتب له كتاباً من جلته كتاباً مطولاً ضد المسيحيين لانه كان عنده خرافات واوهام اكثر من الاستدلال بالبرهان كما يستدل على ذلك من كتبه الباقية الى يومنا هذا (لان الملكين ثيودوسيوس الثاني وقالتيانوس الثالث امر اخيراً باحراق كتبه الخمسة عشر) فاشتهر بورفير هذا هناك بما ابداه من المعارضة للانجيل على وجه التعنت والعماد الذي لا يلائم الفلسفة واخذ هو واصحابه في ان يشبهوا حياة المسيح وعجائبه واعماله بتاريخ حياة الفلاسفة القدماء واجتهدوا في ان يقنعوا السذج والنساء اولاً بان الفلاسفة لم يكونوا دون المسيح واظهروا لهم ارجيطس من نارتس وفيثاغورس وابولونيوس تيانوس الفيلسوف الفيثاغورسي (الذي ولد بعد بلاحة القرن الاول ومات قرب نهايته بعد ان سافر الى كل الممالك من

على العقائد الرومانية القديمة المأخوذة عن قدماء اليونان ايضاً من قهقرة الدهر بنا الى ان نصل الى عصر مستقبل نظير تلك الاجيال تراهم اهلهم يلهمون فيه بالامور التي لازالوا الان يعتقدونها كاذبة كالتنجيم والسحر وتعبير الاحلام الى غير ذلك من الترهات

اسبانيا الى الهند واشتهر كثيراً بملاحظاته الحكمية وإدعائه بالمعرفة والقوى
الناقطة وكان مشعباً مكاراً) متزيين بزى المسج نفسه ولذلك صدر امر
قسطنطين الملك بغلق مكتبهم الذي فتحوه في رومية لمعارضة الديانة المسيحية
على هذه الصورة وامر كذلك بغلق مكتب الاسكندرية وذلك في سنة ٢٢٤ م
ومن ثم اندرست معالم هذا المذهب من رومية ومن الاسكندرية وبقي مركزه في
اسيا الصغرى من ذلك الوقت الى سنة ٢٥٢ م عندما ظهر مكسيوس
الافسسي الذي مر ذكره وصاحبه كريست الليداني واوريب المندوسي
وحل كريست المذكور القيصر بوليانوس الجاحد على التمسك بالفلسفة التي
تتعلق بما وراء الطبيعيات التي كان عليها هؤلاء السفطائية وترك الديانة
المسيحية كما سبقت الاشارة الى ذلك في الفصل الثالث الذي مر فتقوى حينئذ
مذهبهم تحت حماية هذا القيصر ورجعوا فتحلوا مكتب الاسكندرية وجددوا
في اثينا مكتبا اخر وصاروا يعلمون فيها المذاهب المضادة للدين المسيحي على
رووس الاشهاد حتى انه لم يجسر احد من الملوك خلفاء بوليانوس على منع
ذلك الى ان ظهر القيصر ثاودوسيوس الاكبر وصدرت اوامره بتخريب
هياكل الوثنيين فتخرب هيكل سربس بالاسكندرية واحرقت المكتبة ايضا
واما مكتب اثينا فاغضى عنه القياصرة وبقي يتعلم فيه تلك المذاهب المضادة
بالكآية للديانة المسيحية مدة ٥٠ سنة الى ان جاء بلوتاركة ويقال له بلوترخس
بن نسطور احد اصحاب كريست الكاهن الاكبر الى تلك المدينة وعلم في ذلك
المكتب هذا المذهب الافلاطوني الجديد وبعده تولى التعليم فيه تايك سريانوس
ولم يزل كذلك الى سنة ٤٥٠ م وألف سريانوس المذكور مؤلفات تصدى فيها
الى التوفيق بين الآثار الدينية المنقولة عن ارفة وفلسفة فيثاغورس وافلاطون
وحل خلفاءه ان يجعلوا لهذا المذهب الجديد قواعد واصولا يكون مبنيا عليها
وكان له تلميذ يقال له بروكلوس لم يفته شيء من العلوم التي اشتمل عليها هذا
المذهب فألف في العلوم الرياضية وفي الطبيعيات وعلم الاخلاق وما فوق

الطبيعات والآداب والميتولوجيا وأسرار السحر الوهمية وكان قد اختار معارف افلاطون وأصول أرسططاليس وعمل عليهما وضمّ إلى ذلك ما نتج عن قوة قريحته من المعارف غير أنه لما الجأته الضرورة إلى التوفيق بينه وبين جاهلية اليونان لم يمكنه ما كان قائماً بذهنه من تهذيب الشرك مجعاً له طريقاً قانونياً لا يعدل عنه فشحخ فأسننه بأوهام الشرقيين وأثار أرفه والكهانة الادعائية والتخيلات التي نشأت عن التعمي في تلك العبادة ثم مات في سنة ٤٨٥ م وتعاقب بعده على مكتب أثينا ٢ من أهالي بر الشام وهم مارينوس النابلسي وأسيدورس الغزي وداماسيوس الدمشقي وأضاف آخرون رجلاً يقال له أمونيوس بن هرمياس وهم أيضاً لم يمكنهم أن يرفضوا بالكلية ما كان متسلطناً في وطنهم من الأوهام الروحانية التي تستعمل لاستخدام الجحيم الآن داماسيوس المذكور اجتهد في أن يعيد تعليم العلوم المضبوطة إلى ما كان عليه إذ بها يمكن إصلاح طرق هذا المذهب غير أن هذا الفيلسوف كان آخر مفسري مذهب افلاطون وخاتمة معلمي المكتب المذكور الذي تخرج فيه في مبادي القرن السادس هرمياس وأوليبندور وسلطبيوس وهيبير وفلز وكان أشهر من تخرج به رجل يقال له سبليسيوس فإنه كان ماهراً في الطبيعيات بارعاً في علم الأخلاق عالماً بمذاهب افلاطون والأسطوانييين وأرسططاليس شديد الكراهة للتعمي والتدقيق في العبادة المعبر عنها بالطرق الباطنية وبيغض الرموز والإشارات كحكاية الأشياء على لسان الطيور والعجاوات ثم في سنة ٥٢٦ م صدر امر يوستينيانوس الأول قيصر القسطنطينية بغلق مكتب أثينا المذكور فغلق ولم يبق في تلك المدينة إلا مكانب الفقه والنحو فالتجأ داماسيوس وغيره من الفلاسفة الوثنيين إلى الإسكندرية ثم رحلوا منها إلى العجم مؤملين أن كسرى انوشروان يأخذ بناصرتهم حيث أنه كان عدواً لهذا القيصر وللديانة المسيحية فلم يفدهم شيئاً غير أنه تشفع فيهم إلى القيصر المذكور وكان من جملة المشاركة التي بها انتهى النزاع الذي كان حاصلاً بين هذين المالكين في سنة ٥٢٣ م أن يعود هؤلاء الفلاسفة إلى

السلطنة الرومانية فتحها الرومانيون لكن صاروا يراقبون مذاهبهم ويضيقون عليه حتى اندرس بالكليّة مع عبادة الاوثان وهكذا انتهت هذه الشيعة التي افلقت العالم المسيحي في تلك الاوقات وخلفها مذهب ارستطاليس الذي تسلطن وقتئذ في المكاتب والكنائس النصرانية وكان اول ما برزت فلسفة هذا الفيلسوف من خدرها انارها يوحنا فيلوبونس بشروحائه واضطر اليونانيون الى معرفتها لان ذوي الطبيعة الواحدة والنساطرة اخذوا يدحضون اراء مجيبي افسس وخلقيدونية ببراهين مسنودة على هذه الفلسفة وكانوا قد درسوا هذه الفلسفة وترجموا كتبه الاصلية من اليونانية الى لغتهم العامة حتى يمكنوا تابعيهم من قوة الجدل وترجم سرجيوس راساننسس الفيلسوف المعتنق بالطبيعة الواحدة موافقات ارستطاليس الى اللغة السريانية واورانيوس السوري نشر تعاليمه في بلاد فارس حتى طبعها في عقل كسرى ورجل اخر نسطوري ترجمها الى اللغة الفارسية واهداها الى هذا الملك غير انه كان البعض منهم رفض فلسفة افلاطون وارستطاليس وتنافس حسبما يدله عقله ومن جلنهم قزماس النسطوري المصري المشهور بجغرافيه الهند وكانت اراؤه خصوصية مطابقة لاراء الشرقيين اكثر من ان تطابق اراء اليونانيين والكاتب الذي ابني فوتيوس هذه الازمنة بعض خلاصات من شرحه كتاب الاكسنانك ولا زال الحال على هذا المنوال الى ان عادت الفلسفة السكولاستيكية اي المدرسية التي سبقت الاشارة اليها

والاصل في هذه الفلسفة المسماة بالسكولاستيكية هو ان الفيصر قسطنطين الكبير بعد ان بنى مدينة القسطنطينية كان احدث فيها مكتبا عموميا يسمي اوكتوغونه وكانت تعارض فيه فلسفة افلاطون بفلسفة ارستطاليس لكن توغل فيه الفلاسفة في اراءهم وارذائهم العنان في امواتهم بالاحكام الشرعية والقوانين الالزامية ثم وسع الفيصر ثاودوسيوس الثاني منذ تولى زمام المملكة في سنة ٣٩٤م دائرة التعليم في هذا المكتب المسيحي وزاده فخرا وشرقا غير انه لم يدم على رونقه

وتهيئة حيث وقع خطاب اعدم منه مكتبته في سنة ٤٧٦ لكن لما امر القيصر
يوستينيانوس الاول بغلق مكتب اثينا على ما ذكر اعاد الى هذا المكتب رونقه
الى ان سطعت انواره على ظلمات الفقه الروماني حيث حل مشكلاته وكشف
القناع عن معضلاته

وكان في ذلك الوقت اقتنع اكثر المتعلمين بفائدة العلوم والفنون للجنس
البشري واقام مدارس عمومية في المدن الكبيرة كالقسطنطينية ورومية ومرسيليا
وادسا ونيسيس وقرطاجنة وابون وترينس وتوظف على مصروف الملوك معلمون
فيهم الاهلية لتعليم الشبان كما ان بعض الفلاسفة والرهبان ايضا في القرن
الخامس علومهم ما يعرفونه غير ان كلاً من حالة العصر السيئة وهجمات الامم
البربرية على المملكة الغربية وشدة الافتقار الى العقول الذكية منع من اجتناء
ثمرات الادتمام في امتداد العلوم حسب مرغوب المتوظفين له

وكان في الولايات الغربية ولاسيما في فرانسا اهل علم كان ينبغي ان يتقدمي
بهم منهم مكروبيوس وسالفيانس وقنستينوس الليرينسي وانوديوس
وسيدونيوس ايولينارس وكلوديانوس مامرتس ودراكوتينيوس نعم انهم لم يصلوا
الى درجة المؤلفين اللاتينيين الندماء في كتاباتهم غير انه لا يخجل واحد منهم من
الطلاوة في حد ذاته اذ انهم اشتغلوا في درس الاشياء القديمة وعلوم اخر لكن
البرابرة المهاجرين عطلوا الولايات الرومانية وامتلكوها وخنقوا هذا النبات
الذي كان يؤمل جني ثماره في اجيال مستقبله لان جميع هؤلاء الامم استخفوا
بالعلوم والفنون واعتبروا السلاح والفروسية الاصل الوحيد لكل المجد
والفضائل ولهذا كانوا ابنا حلوانبت البربرية وازدهت وترك طلب العلم بكليته
للكهنة والرهبان الذين لما اكتفتهم القدوة الرديئة والعيشة في وسط الحروب
والاخطار فقدوا رويداً رويداً كل لذة العلم الحقيقي والشهرة واستعاضوا برسم
العلم وظلوا فتعلم الطلبة في مدارسهم العلوم السبعة التي كانت تنعيب الذاكرة اكثر
من ان تقوي الذكاء وتصلح القوى العقلية كما يتضح ذلك جميعه من التفاصيل

الآية في البحث الثاني وبهذا السبب كادت العلوم ان تنلشى في ختام هذا القرن ولم يبق سوى ظلها

اما الفيلسوفون الذين عرفوا دون غيرهم جودة درس الفلسفة ونفعه فلم يتبعوا في هذا القرن منهج ارسططاليس لانهم احسبوه معالماً صارماً ويرشد الناس في طريق شائك واربما كانوا يائذون به لو كانوا يقدرون على ان يقرأوه ويفهموه ولكن نظام افلاطون كان معروفاً عندهم منذ اجيال متتابة اكثر من ذلك وكانوا يظنون انه ليس اقرب تناولا لافقط بل اكثر مطابقة لمبادئ الديانة وكذلك وجدت عندهم كتب افلاطون الاصلية في ترجمات فكتورينوس اللاتينية ولذلك اقتنع الذين كان عندهم ذوق الفلسفة بتفضاها افلاطون على ما ذكرنا وكانت حالة العلم بين اليونانيين واهل الشرق نظراً لثقافتهم والعلوم الصعبة احسن من ذلك قليلاً حتى انه وجد بينهم عدد اعظم من الكتبة الذين اظهروا علامات الذكاء والدرس والذين رغبوا في درس الفقه التجاوا الى بيروت حيث كانت مدرسة شهيرة للفقه والى الاسكندرية وتلاميذ الطب والكيمياء ذهبوا الى الاسكندرية ايضاً ومعلو الفصاحة والنظم والفلسفة فتحت مدارس في كل مكان تقريباً غير ان المعلمين الموجودين في اسكندرية والقسطنطينية واديسا كانوا يحسبون انهم يفوقون غيرهم في العلم والتعليم

وفي القرن السادس تمكن البربر في المملكة الرومانية الغربية فاضر ذلك جداً بكل انواع العلوم والفنون ولولم تحيد العلوم ملجأ بين الرهبان والاساقفة لتلاشت كلها واهل القرون الاخيرة المحاضرة مديونون لهم في حفظ كل المؤلفات القديمة التي وصلت اليهم من بنائاتك الازمنة دينية كانت او دنيوية بغض النظر عن كثيرين منهم وخاصة من المتساطين على الرهبان كانوا غير متميزين لواجباتهم ومنهم من كانوا ضد العلوم والفنون لتوهم انها مملكة للتفوى حتى ان البعض ارادوا ان يحرقوا المؤلفات الاقدمين وشيدوا عمداً الجهل والبربرية واوغلوها بالبساطة المسيحية ولذلك كانت العلوم التي توخذ عن تلك المحاس

الرهبانية محصورة في دائرة ضيقة جدًا كما يتضح ذلك جميعه من التفاصيل
الموردة في البحث الثاني

اما اليونانيون فكانوا يطالعون العلوم العقلية باكثر غيرة وكان بعض
الملوك بنشطون طالبي العلم وخدمة من اي نوع كان بالنياشين والجوانتر
المعتبرة غير ان عدد الاذكياء منهم كان اقل مما في القرن السابق
ثم في القرن السابع بلغ الجهول الفظيع درجة لا يصدقها الا الذين فحصول
اعماله العلمية والقليل الباقي من العلم كان محصورا في قلايات الرهبان ولا سيما
رهبان الكنيسة الغربية على ما تقدم غير ان الذين عرفوا منهم قيمة ما عندهم
كانوا قليلين جدًا اما الاكثرون فكانوا منصبين على درس كتب ومؤلفات
لا طائل تمنها ولكن اتكثرة كانت ارقى حالاً من بقية بلاد اوربا لان ثيودورس
الكيليكي اسقف كنتربري ادخل في هذه البلاد حبّ القراءة والعلم

اما اليونانيون الذين اخذوا في هذا القرن ان يكتبوا نظماً ونثراً فقد
اغلقوا على انصايب البسيطة الواضحة بعباراتهم المعقدة الوحشية وما كتبه اللاتينيون
كان ركيكاً فاسداً الا ما ندر وقلم اليونانيون والرومانيون التاريخ
وافسده لان موسكس وصنرونيوس وغيرهما من اليونانيين وبروايو وبوناس
الهيرتيقي وادينوس اودادو وادامنوس من الرومانيين ابقوا الى المتأخرين
ترجمات بعض الفديسين عديمة الذوق وخالية من رائحة الاحتمال ومن طلاوة
التركيب وكان اليونانيون سبقهم في كتابة ما شاع عن الاوقات القديمة بدون
تمعن ومن هنا اصل بعض الخزعبلات التي استلمها بعد ذلك اللاتينيون وتمسكوا
بها ومن ثم انتهت الفلسفة بينهم والذين ابوا تركها بالكليية اكتفوا باستظهار
بعض كلمات من بوثيوس (اعلم بويسه) وقسيودور وزير الملك ثيودوريق
الاستروغوطي وسوف يأتي ذكرها في البحث الثاني لانهم لم يعبأوا بفحص الامر
ولم يقدروا على اسفشارة اليونانيين لعدم معرفتهم لغتهم اما اليونانيون فانهم منذ
تركوا فلسفة افلاطون بقوا متمسكين بفلسفة ارسططاليس حيث لا يمكنهم ان

يستغنى عنها في منازعتهم مع موحدتي الطبيعة على ما تقدم
وفي القرن الثامن كان بين اليونانيين جماعة من اهل العلم قادرين على
ابقائهم او كان الوقت مساعداً لهم لكن الفن الدائمة التي كانت تهدد ليس
الحكومة فقط بل والديانة المسيحية ايضاً منعت من وجود من يقوم بناصرهم
ويسعفهم في ذلك ولهذا السبب يكاد ان لا يوجد بينهم في هذا القرن احد اشهر
بحسن الانشاء والذكاء او بغنى الافكار والمعرفة ودقة البحث وما ألفت البعض
بقصد الاشتهار انما هو خطابات ركيكة وسير قد يسبب لاطائل تحنها
ومفارضات خالية من الفائدة وشتائم مغيظة للرومانيين وانتصار اللاتينيات او
بالعكس وبعض تواريخ بدون تروى

غير ان الفلسفة الارسططالية نجت في هذا القرن كثيراً في كل مكان
وكانت تطالع في المدارس لان الفلسفة الافلاطونية الاكلمستيقية كادت تُنقى
رأساً من المدارس الى خلوات الرهبان بعد ان شجبت عقائد اوريجانوس مراراً
عديدة وقامت المنازعات النسطورية والافتخجية واشتهر في الفلسفة الارسططالية
المذكورة القديس يوحنا الدمشقي وفاز في انتشارها بتأليف عدة نبذات قصد
بها فائدة البسطا فصارت نبذاته هذه سبباً لتسك كثيرين في هذه المبادي ببلاد
اليونان وسوريا وكذلك اليعقوبيون كانوا يجتهدون ايضاً في رواجها ليمكنوا
من المجادلة مع اليونانيين على ما تقدم ايضاً في هذا

اما تاريخ الغربيين في هذا القرن فانه مشحون بدلائل كثيرة على الجهل
الذي يحق التعجب منه اذ لم يبق في رومية وبعض مدن ايطاليا الا اثار طفيفة
من الاداب والفنون وكان العالم وقتئذ ترك انفارة وهاجر الى جزائر البحاريين
البريطانيين والايبرنديين لان الذهب نبغوا في هذا القرن من اللاتينيين
واشتهروا بالمؤلفات العقلية كانوا كلهم تقريباً من اهل هذه البلاد واشهرهم
القوين ويديا واغبرت واكليمندوس ودنغال وانكا وغيرهم والقوين المذكور هو
الذي حرك كراوس الاكبر الى تبديد ظلام الجهل من بلاد اوربا وكان ذلك

في اواخر هذا القرن وسوف تأتي تفاصيله في البحث الثاني

الفصل السابع

في حالة الاداب والفنون في القيصريّة الشرقية خاصة منذ توطيد
الديانة المسيحية واستراحتها الى نهاية القرن الثامن

انه من بعد ان هدم الدين المسيحي قواعد الشرك واندرست اثاره صارت
الامبراطورية الشرقية في امن وطاينة واستراح امناء هذا الدين وصاروا
لا يشغلون الا بمشاجرات واهية فترتب على ذلك انحطاط الاداب البشرية
عن درجتها حيث صارت غير ضرورية في المدافعة عن الدين غير انه حوفظ
على بعض فروع ضرورية كالناريخ والفنّه ولا سيما بعد تلك التكبّات التي
اصابت مكاتب انطاكية واسكندرية وبيروت وقيسارية بل ونفس مكتب
اوكتوغونه المذكور وهي مفصلة في كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف
فلا حاجة الى تسويد صحائف اخرى بها هنا

اما الانشاء والشعر وما شاكله من الفنون فقد طرحوا في زوايا الاهمال
لانه وان يكن القديس غريغوريوس النازينري نظم وقتئذ قواعد الدين
المسيحي في سلك الاشعار بلطف اللسان اللاتيني حتي صار شعر بيانها باخذ
الالباب ويستلم العقول غير انه مع ذلك ظهر للناس ان الشعر مضاد لهذا
الدين حيث انه يرفض الخرافات والاكاذيب التي هي حلية الاشعار وكان
موضوع اغلب النصائد اليونانية التي نظمت بعد ظهور الديانة المسيحية وقايع
ميتواوجية هي من ذلك القبيل اذ ان نونوس الاخيمي (اخيم قرية من قرى
مصر) نظم في عهد القيصر اركاديبوس النبي الذي تولى القيصريّة الشرقية

عند انقسام المملكة الرومانية بينه وبين اخيه مجسبا تقدم قصيدة حماسية ضمنها
 سطوات بنحوس واحيي بها النظم من الجور المسدسة الاجزاء التي كانت مهجورة
 مدة طويلة وايضا مصري اخر نظم قصيدة باللسان اللاتيني في اختطاف
 هرورينة ثم لما تنصر نونوس المذكور ندم على ما فرط منه في ما نظمه من
 الاكاذيب الميتولوجية وشرح النجيل القديس يوحنا الانجيلي وفي اخر القرن
 الذي كان فيه هذا الرجل نظم موسى النحوي قصيدة يقال لها هيرولياند
 وزعم بعضهم انها لموسى مصري اورفه ضمنها جميع الخرافات مع تسلطن الدين
 المسيحي وقتئذ وكذلك كتوس الازيري نظم تكملة لقصيدة اوميروس المسماة
 الهادة ذكر فيها ما فات اوميروس الى اخذ مدينة صور غير ان هذه التكملة لم
 تلتحق اصلا في البلاغة والالطف والحسنات البديعية وانما جاءت على وزنها في
 البحر ومع ذلك فهي اعلى مما انشي في القرن الخامس ثم لاجل تهيم التاريخ
 الشعري المتعلق بحرب مدينة صور المذكورة نظم قلونوس اليكوبولسي قصيدة
 خالية عن الحماسة وحسن الاختراع ضمنها اختطاف هيلانة وفي ذلك الوقت
 ايضا كان تروفيدور المصري الحامل مشغلا بنظم قصيدة في اخذ مدينة صور
 وبعض وقائع اخرى حماسها في التاريخ اكثر منها في شعره

وقد ظهر للناس بالوقوف على التراكيب الشعرية وقاة اهل تلك الصناعة
 ان دائرة الشعر في القسطنطينية كانت ضيقة ولم يظهر في القرن الذي ولد
 فيه تريبونيان وبروكوبيوس من الشعراء الا بعض قصائد وصفية اشاعر يقال
 له بولس السيلنتيري وهي في البلاغة دون قصائده الهجائية مع انه كان يظن في
 شعراء بليسير قائد جيوش القيصري بوسنتيانوس ونرسيس ان يزيدوا في الشعر
 على من تقدمهم في العصر الماضي ولكن من ذا الذي كان يمكنه في القسطنطينية
 ان يدح الخدم كبليسير المذكور واضرابه بحضرة السيد الذي هو القيصري واما
 الشاعر جرجي اليزيدي حيث شاهد وقائع حرية كان القيصري بوسنتيانوس
 هو صاحب الصولة فيها دون بليسير وغيره فنظم ١٣ قصيدة تاريخية خالية

عن الحجة ذكر فيها غزوات هذا الفيسر مع العم والة شعرا اخر في الفسطنطينية
حين خلصت من اغارة الأوربين
وكانت اشعارا الهجاء والندح البليغة في تلك المدة هي النافعة الرائجة دون
غيرها من انواع الشعر

وقد اشتغل بهذه الصناعة واتخذها تسليمة له غير القديس غريغور بوس
المذكور رجل يقال له سنسيوس وكان يليها في ذلك بلداس الشلسبي الذي
كان رجلاً خاملاً في دولة اركاد بوس المقدم ذكره ويوجد بعض شعراء اشتهروا
ايضاً في ايام يوستينيانوس غير بولس السيلتيري كالفنصل مكديونوس
والمورخ اغسياس الذي كان منشئاً شديد الحرص على حفظ الاشعار جمع منها
جملة عظيمة ومن الانشآت وسمى هذا المجموع سيكل يعني دائرة تشبيهاً له بها
في الاحاطة وقسمه الى ٧ مقالات لانه ينطوي تحت الانشآت المرسلات والسور
ووصف الاشياء والمراثي والمواعظ والهجاء والالعب العسقية والتخرجات وقد
اتخذ قسطنطين كينغلاس وبلاندوس هذا المجموع قدوة حيث نسبها على منواله
وكان احدها في القرن التاسع والاخر في القرن الرابع عشر فجمع كل منها مجموعاً
ضمته الاشعار اليونانية وهذان المجموعان لم يزالا يبد الا فرنج الى الان

واما الحكايات الموضوعة فقد وضعها بعض الشعراء قبل عصر
ثاودوسيوس وهي حكايات اختراعية كحكايات التماخرين وتاسي بهم جماعة من
المولدين وضعوها ثراً وبرع في ذلك عند اللاتينيين المؤلف ابواه الذي اخترع
حكاية حمار الذهب ونسخ على منواله يونان الساطنة الشرقية . وكان اول من
وضع هذه الحكايات من اليونان المذكورين هو هليودور الايبسي مخترع حكاية
تياجيتيه وشارقة قبل ان يتنصر وكان ذلك في سنة ٢٩٠ م وهو تاليف سيرة
مرتبة ترتيباً حسناً بعبارات واضحة وضوحاً غربياً لا يضاهيها شيء في ترفيق
القلوب وتهيئتها ولا يعد له شيء مما يعزى الى لِنْفُوس من الحكايات اليونانية
التي وضعها في شان دفينس وقلوبه وقد زاد هذا التاليف شهرةً بترجمة المؤلف

امبوط حيث جعله نارا بعبارات سهلة عذبة فكان ذلك باعثا الى وضع
 حكايات بولس وورجينا التي هي الطف وارق ما يوجد في الاعصر المحاضرة
 اي الاخيرة من المولفات في هذا المعنى ولا بدري في اي عصر كان لنفوس
 المذكور واما اشيل تيتوس الذي وضع الحكاية المتعلقة بعشق اوقيب وقلبتوفون
 فانه معروف بانه من الاسكندرية ويظن بانه مسيحي واسنف ايضا وانه وضع
 الحكاية المذكورة في منتصف القرن الخامس ولولا انه شوه اختراعه بما ارتكبه
 من التكلف واغتمصاب الالفاظ والتلاعب بالكلمات لكان اعلى درجة من
 اختراع هايودور. وهناك موضوعات اخرى في هذا المعنى ولا يعلم زمن اختراعها
 وهي ٣ تعزى الى شرتيون الافرودسياسي واوستاسيوس المصري وارستينيت
 الازنيكي والقصد من ذكر هذه التآليف التي لاحقيقة لها هو يعلم ان الحكايات
 الموضوعية التي كانت مجهولة في الفرون المعتبرة صارت حين اضمحلال
 الامبراطورية منتظمة في سلك الاداب

واما التاريخ فانه من المعلوم ان تاريخ ساطنة القسطنطينية هو خال من
 المواد المرغوبة التي يستمد منها التاريخ كالحوادث التي ينبغي ان يتخذ ذكرها في
 بطون الاوراق والماثر العظيمة التي يجب نشرها في الافاق ويضاف الى ذلك
 عدم وجود المؤرخين المستكابين لهما يلزم لهذا الفن مع وجود الاستعباد واقامة
 الرأي عند الحكم ووجود الاوهام المختلفة وسلامة الذوق مع فساد الاداب فن
 العجيب ان برى في مثل هذا التاريخ الواسع عدة من المؤلفين العظام والمولفات
 المعتبرة وقد بنى اونيوس في القرن الخامس للميلاد على ما كان جمعه قبلة
 هرنوس واكسيوس من الوقائع السنوية ثم اتى بعده اوليودور المصري وبنى
 على ما كان جمعه اونيوس فكانت وقائع هولاء الثلاثة الوثنيين اصلا استمد منه
 المؤلف زوزيم الوثني تاليفه تاريخ القياصرة وكان قد التزم ان يبين اسباب
 اضمحلال الامبراطورية الرومانية فجعل سبب ذلك ظهور الدين المسيحي مع
 ان القياصرة الشرقيين كانوا وقتئذ مسيحيين والى الان يُحفظ عند الافرنج

بعض آثار مرغوة من الإرساليين اللتين أرسلها ديوان القسطنطينية في عهد القيصريّة ثاودوسيوس الثاني وفي أيام يوستينيانوس فإن أحدها بينت لهم كيفية معيشة أتيليا^(١) المنزلية ويكاد إنها هي التي بقيت عندهم من تاريخ القسطنطينية الذي ألفه بروسفوس البيهومي ولو وصلت إليهم قصة نونيوس^(٢) بتامها لعرفوا بواسطة الإرسالية الثانية أخباراً صحيحة تتعلق ببلاد الحبشة والعرب الحميرية في اليمن بالنظر إلى حالتها القديمة . ثم ألف بروكوبيوس القيساري تاريخ حروب الإمبراطورية الشرقية مع الفرس وسرعة اندراس مملكة الونداليين وفتح إيطاليا حين كان بها الاستروغوثيون وسيرة بليسير الطويلة لكنه كان كاتب سرّ بليسير ووزير يوستينيانوس ومحمي الملكة ثيودورة فلذلك مال إلى التلميح في مواضع من هذا التاريخ إلا أنه ألف تاريخاً آخر خفية ذكر فيه ما ابتدعه هذه الدولة من العيوب . ثم بنى اغسياس السكولاستيكي أي الفقيه على ما جمعه بروكوبيوس وبعد ذلك بنى ميناندر حارس القيصريّة على ما جمعه اغسياس وقد ذكر اغسياس في تأليفه تفاصيل عظيمة في شأن الفرس والقوطيين والأفرنج وأما الذي بقي من تأليف ميناندر فإنه يدل على بعض تفاصيل في شأن الهونيين والأواريين وبعض أقوامٍ آخر من أسيا ثم ظهر المؤلف ثيوفيلكت سيموكتة وألف تاريخاً عمومياً جعل مبدأه نهاية تكلمة ميناندر ومنتهاه موت القيصريّة موريس ويقال له ما فريكيوس الذي خلفه فوقاً سنة ٦٠٢م وذكر فيه ما لحق هذا القيصريّة من ظلم خليفته فوقاً المذكور وأما في القرن السابع ونصف الثامن فقد قلّ أن ظهر أحد من المؤرخين لكن كان كتاب الوقائع

(١) أتيليا هو أحد الملوك الونداليين الحثثيين وهو الذي صدر منه الخراب العام والابادة المستأصلة في القيصريّة الغربية حتى أنه لقب نفسه بلاء الله من سنة ٤٦٣ إلى سنة ٤٥٢م وسوف يأتي ذكره تحت لقب ملك الهون في الكلام على القيصريّة المذكورة

(٢) نونيوس المذكور كان أرسله القيصريّة يوستينيانوس إلى الحبشة والعرب الحميرية وغيرهم ليدعوهم إلى مساعدته في محاربه قباز ملك الفرس وابنه كسرى انوشروان سنة

السنوية بتلك الساطنة له مزية على كتاب الوقائع بساطنة المغرب نظراً لانجسام عباراته وسلاسة اقلام كتبه ولكنهم ذكروا جميع عيوب الوقائع اللاتينية لتصد بهم بالخرافات التي لا يقبلها العقل عدا ما سلكوه فيها من الاغراض والتلق والاهام الفاسدة

واما فن الجغرافيا فقد حصل له بعض تقدم عند اليونانيين ولكن الفضل في ذلك لمؤرخهم اكثر من جغرافيتهم لان جغرافي القسطنطينية لم يزيدوا على المعارف القديمة شيئاً ومع ذلك فجغرافية مرقيانوس الهرقلي المسماة يربيل اعانت على فهم جغرافية استرابون وبطليموس وكان استثنانوس البرنطي نشر قاموساً في اواخر القرن الخامس او وصلت منه النسخة الاصلية الى المتأخرين لكان نفعه اعم وانما الموجود منه الآن ما لخصه هرمولابوس النخوي وهو لا يشتمل الا على قليل من اساء المدن وانما كان على عهد الفيصر يوستنيانوس تاجر مصري يقال له قساس (لعلة قرما) طاف بلاد الهند يقصد التجارة ووضع كتاباً في القسطنطينية ذكر فيه ما اكتسبه من المعارف هناك وكان يلقب بهند قوبلوس تيس اي خبير الهند لكن ما ذكره في علي الطبيعة والفلك دليل على جهالة ذلك العصر بل شهادته هو بجهله في ذلك هي اقوى وانتم

واما اللغة فلا يخفى كثرة اللغويين والنحاة ببلاد المغرب لامرين احدهما فساد اللسان اللاتيني والاخر الاحتياج الى فهم المؤلفات القديمة لكن اليونان لم ينزلوا في الاصحاح الى هذه الدرجة ولذلك لم تبلغ نجاتهم مبلغ نحاة اللاتينيين فلم يكن يكتب القسطنطينية العمومي الا تعلم الكلمات التي تتركب منها اللغة وكان عمدة معلمي هذا المكتب كتاباً في النحو لمؤلفه يقال له دينيس (لعلة ديونيسيوس) فكانوا يقتصرون عليه في تعليمهم وكان ذلك سبباً في تعطيل العلوم اللغوية وحيث كان منشأ علم اللغة عند اليونانيين مكتب الاسكندرية كان اغلب طائفة النحاة القليلة المعروفة في ذلك العصر مصري الاصل فقد ألف هينيركيوس الاسكندراني في اواخر القرن الرابع قاموساً عظيماً النفع في

اللغة اليونانية وكذلك هلدبوس عصري المؤلف المذكور وضع قاموساً وكتاباً آخر نظمه من بحر من بحور الشعر اليونانية. وفيلادبوس فيلوكسينوس الفصل ألف في سنة ٥٢٥ م قاموساً لاتينياً يونانياً بين فيه الكلمات اللاتينية باللسان اليوناني وهناك رجل آخر يقال له فيليون ألف أيضاً قاموساً عظيماً يحق التأسف على ضياعه وكان بوحنا الستوي من اهل القرون الاولى من السلطنة اليونانية ألف مجموعاً يشتمل على نبد وحكم ومواظب بقصد تاديب ابنه جمع فيه بين النظم والنثر وجعله اجزائاً فيه نبدأ نتعلق بالعلوم الطبيعية والفلسفة والحكمة والسياسة وقد لخص مجموعته مما ينوف على ٥٠٠ مؤلف ضاع اغلبها

واما الفقه فقد كان عند اليونانيين فيه عدة مجاميع مختلفة جمعها فقهاؤهم في عهد القيصريثاودوسيوس الثاني ويوستينيانوس الاول لكنها كانت باللسان اللاتيني ما عدا القوانين المسماة بالجديدة واعظم مولفي هذه المجاميع العظيمة اشخاص كانوا يعلمون الفقه بمكاتب القسطنطينية وبيروت وهم ثيوفيلوس وثيودورس ودورطة واناطوليوس وكانوا من امهر الفقهاء وكان تريونيان وزير الخزينة هو المتولي نظارة تأليفها لكونه كان فقيهاً واسع الاطلاع لكنه كان طماعاً يبيع علمه بالاموال ولذلك ما برى من التناقض في احكام كثيرة من هذه القوانين ينسب الي هذا العالم وكان اول كتاب جمعه يسمى كود. انتشر في سنة ٥٢٣ م وهو ١٢ مجلداً استنبطوه من ترتيبات القياصرة ثم كتب ثانياً وانتشر سنة ٥٢٤ م وهو يحنوي على ١٥٠ مسألة والثاني كتاب القوانين المسي انسيثو وانتشر في سنة ٥٢٣ م وهو يحنوي على مبادئ الفقه التي استنبطت من الفقه الروماني وكان الفصد من جمعه ان يستعمل في مكاتب القسطنطينية. والثالث كتاب القوانين المسي بنذك اي الفتاوي وكان انتشاره في سنة ٥٢٣ م وهو يبلغ ٥٠ مجلداً استنبطوه من كتب قوانين غريغوريوس وهرموجين وثيودوسيوس ومن ٢٠٠٠ رسالة فقهية وقد وضع ثيوفيلوس عليه وعلى القوانين

المسماة انستيتو شروحا لها شبه بالفصول التي في دستور القوانين الاصلي
الترنساوي وكان على هذه الكتب الثلاثة ختم الفيصر يوستنيانوس المذكور ثم
ان هذا الفيصر امر بجمع القوانين الجديدة الصحيحة فجمعها في كتاب اتشر
سنة ٥٢٤ م ثم اتشر ثانياً سنة ٥٦٥ م وكان القصد من جمع هذه القوانين المتنوعة
مصلحة المحاكم المطلقى التصرف وقد اذنت مولفوها بترك قوانين الامبراطورية
الرومانية التي تتولد عنها الفتن فكان من صفة قوانين يوستنيانوس المذكورة
انها جامعة بين حرية الاهالي والحكم المطلق لكونها جعلت الاهالي مستوين
بالنسبة الى الاحكام الشرعية وقد اشتهرت هذه القوانين باسم هذا الفيصر
وصارت اصلاً بنى عليه المتأخرون احكامهم

وكما كان يهتم بالقوانين الاهلية كذلك كان يضع ختمه على احكام المجامع
الاكليروسية وامر وكيله بوجها الانطاكي فالف مجموعاً وفق فيه بين احكام
المجامع وقوانين القياصرة وكان ألف مجموعاً في القوانين الاكليروسية
ثم ظهر في عهد يوستنيانوس الثاني ابن اخي يوستنيانوس المذكور كتاب
في القوانين العسكرية لمؤلف يقال له روقوس وتكفل بعض الفقهاء ايضاً
بجمع قانون لاهل الارياك (سكان القرى)

واما الطب فقد كانت علاقة من الماهرين لكنه لم يتقدم نقداً بينا من
عهد القياصرة الانطونيين الى زمن اول الخلفاء العباسيين ومع ذلك فقد شجع
بمكتب الاسكندرية وبرع فيه غالبيناروس كما برع بوتامون في الفلسفة المتنبية
حسبما سبقت الاشارة الى ذلك في الكلام على المصريين ثم في اوائل القرن
الخامس ألف ثيودوروس برسبان كتاباً في الطب باللسان اليوناني وترجمه الى
اللغة اللاتينية وهو ٤ مجلدات الاول في الادوية العامة المسماة والثاني في ما تعرف
به الامراض والثالث في الامراض الخاصة بالنساء والرابع في الجربات الطبيعية
وبعد ذلك بنحو نصف قرن ألف الحكيم ابيسيوس الاميدي في هذا الفن كتاباً
اقتنى فيه اثر غالبناوس المذكور غير انه لم يكن اسير عباراته وكان ابيسيوس هذا

رئيس الشمامسة ورئيس حرس القيصري بوسنيناوس لكن يشتم من هذا الكتاب روح مذهب افلاطون الجديد لان مولفه اقتبس منه ما تعلمه بكتب الاسكندرية من الاوهام الباطلة الخيالية فكان يقول بتاثير الطلاسم والسحر وبعض اسرار اخرى . وقد ذهب بعض المؤلفين بان اعظم قدماء الاطباء بعد بقراط وغاليناوس هو اسكندر الترابي صاحب المؤلفين الشهيرين احدهما في الادوية والثاني رسالة تتعلق بدود الاحشاشم يتبع فيها من انواع الدلالات الآتية التجربة والاختبار ثم ظهر في القرن السابع بواس الايجيني فلتخص مسائل الطب في مختصر ضئيل سائر الانواع وهو مقبول عند الناس لاسيما الجزء السابع منه الذي تكلم فيه على التشریح وهذا الحكيم هو اول من اشتغل من قدماء الاطباء بفن الولادة وفي ايامه ظهر اخر شروح كتاب بقراط

واما الرياضيات فكان لطائفة الافلاطونيين الجديد رغبة واجتهاد فيها وكل ما وصل الى الافرنج من رياضيات القدماء فالفضل فيه لمكتب الاسكندرية وكان لبنت تيون براءة في هذه الفنون وكانت تفتي اترابها فوضعت لتلك العلوم النظرية طريقة الهندسة المضبوطة وغلاقة حديثها مدروجة في الفصل الثالث من المقالة الاولى من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف وقد كان في ذلك الوقت ديوفنت ويقال له ديوفانتوس ايضاً مشغلاً بتعليم الكميات اللامتناهية وهو اول معلم في ذلك وهذا كان هو الواضع لعلم الجبر الذي تعلمه العرب في ما بعد ونقلوه لاهل اوروبا كما هو موضع في حوادث سنة ٨١٢م في الفصل الثامن من المقالة الاولى من كتابنا المذكور هنا وكان منتهى حياة ديوفنت مبدأ وجود بروكلوس المؤلف الذي كان ينتصر لمذهب افلاطون الجديد حسبنا او ضغنا في ما تقدم عند الكلام على هذا المذهب الذي كان سبباً في نكبة المدارس الوثنية فبذل وسعه في قرن الرياضيات بالفلسفة وله تأليف عديدة منها مختصر في علم الفلك ورسالة في مبادئ وعدة شروح على كتاب اقليدس وكتاب بطليموس لكنه لم يستكشف

في مولفاته هذا استكشافاً عظيماً تتسع به دائرة الفن المذكور
 وإما العلوم النظرية فكان كذلك لما كتب الاسكندرية المذكور بها اعتماده
 عظيم ايضاً ومنها فن الكيمياء لكن لما كان هذا الفن فرعاً من فروع الطب سرت
 اليه الاوهام الفاسدة والشبهات وقد بقي من كتب هذا الفن كتاب للحكيم
 استفان الاسكندراني من اطباء القرن السابع يدعي فيه ان له قدرة على تعليم
 عمل الذهب فلا مانع اذا ان يقال بان مذهب افلاطون الجديد هو اصل
 اختراع علم الجبر وحجر الفلاسفة يعني الكيمياء الكاذبة

واما فن الميقاتية فقد ألف فيه المعمار اتيوس التراقي كتاباً في ايام القيصر
 يوستنيانوس وهو الذي رسم لهذا القيصر الكنيسة التي بناها واهداما للحكمة
 الالهية فاشتهرت باسم آيا صوفيا نسبة الى القديسة صوفيا غير ان كتابه هذا
 لا يدل على تقدم هذا الفن بمقدار ما تدل عليه تلك الكنيسة العظيمة التي كان
 بناؤها بحضوره ومباشرة وهناك دليل ثالث اكثر دلالة على ذلك وهي الصخرة
 الكبيرة التي هي كالتاج لكنيسة راوية^(١) المسماة روتونده وهي سائرة لقبير الملك
 ثيودور ريق الاستروغوطي الذي تلك بلاد ايطاليا من مهاجمي اوربا
 المتبرزين

واما الفنون المستظرفة فقد كانت مضحكة في تلك الاعصر ويكفي دليلاً
 على ذلك ان اهل القسطنطينية لما ارادوا مكافاة المؤسس الثاني لبلدهم وهي
 القيصري قسطنطين الذي سبق ذكره على صنعه هذا الجميل العظيم معهم لم
 يجدوا احداً من مهرة الصناع يتخذ لهم من حجر المرمر تمثالاً كبيراً على صورته
 فاضطروا الى وضع تمثال قديم على عمود ووضعوا مكان رأس هذا التمثال
 صورة رأس القيصر ولما ارادوا ان ايزينوا قوس النصر الذي كانت رومية

(١) راوية مدينة من بلاد البانيا كانت في زمن النياصرة المتأخرين كرسي
 وسط ايطاليا فاتخذها ثيودور ريق المذكور دار اقامته لما استولى على ايطاليا وترك رومية
 محلاً لمشورة السنن ودار اقامة للبانيا وذلك في سنة ٤٩٣ م

نصبتُهُ تعظيماً لهذا القيصري لما هزم مكسنس احوجتهم الضرورة ان يجردوا قوس
ترايانوس ما كان عليه من التماثيل المنقوشة واخذوا بدلها اثاراً اخرى اقدم
من تلك التماثيل . وكذلك كانت قباب كنيسة ماري بولس التي بناها هذا
القيصري موضوعة على اعمدة مستعمارة رومياً مختلفة الاشكال بل كان يرى هذا
الاضمحلال من مشاهدات اخرى غيرها

ومنشأ ضعف الفنون بتلك البلاد هو ان القيصري اورايانوس والقيصري
دقايطيانوس اللذين كانا في اواخر القرن الثالث من الميلاد رايا ان اهل
اسيا يبطلون الى النغالي في الرونق والزينة فاورثا ذلك لاهل ابطاليا ثم لما تمكن
منهم هذا الميل اخذت فنونهم الاصلية في الضعف والاضمحلال لتغاليمهم في
الزخرفة واختلاط التفاصيل عليهم واول ما اضمحل من تلك الفنون فن
اتخاذ التماثيل من الاحجار ونحوها فاضطروا حينئذ الى تزيين عماراتهم بزخارف
اجنبية فكانوا يتلفون المباني القديمة لاجل الابنية الجديدة ويجعلون ما كان
لفحول رجال رومية من المآثر الفاخرة لحكامها المولعين في الظهور والمالي
واما فن العمارة فقد انتقل في زمن دقايطيانوس دفعة واحدة من الغلوفي
الزخرفة الى غابرة من الثقل والخشونة في قواعد الاصلية والى كثرة المخراطات
التي لا داع لها ولا تناسب فيها وصارت اصوله نسبياً منسياً وكذلك التناسب
بين الاوضاع فكان اول زمن الاضمحلال هو زمن قسطنطين الاكبر يعني من
سنة ٣٢٣م واما زمنه الثاني فهو زمن ثيودور بنى الاستروغوطي وسوف يأتي ذكره
ومن علامات هذا الزمان ما كان في ابنتيه من الكثافة والمتانة وقلة الزخرفة
او عدمها واما زمنه الثالث فهو زمن بوسينيانوس وهي نهاية الاضمحلال ثم
رجعوا فيه الى النغالي في الزخرفة لكن من غير انتظام ولا روية ولا تمييز بين
الحسن والقيبح

وكانت ايام قسطنطين الاكبر مقدمة لضعف العلوم والفنون والاضمحلالها
لكن كانت ايام ثيودوسوس الاول والثاني (اواخر القرن الرابع للميلاد)

اسوأ الأزمنة وأشأمها عليها فهي في الحقيقة مبدأ تلاشيها واندراسها ولا سيما فن التصوير والرسم لأن كلاً من حمية المسيحيين وجهل الأعم المتبريرة قد سببا انعماء فان الديانة المسيحية وإن تكن احييت الفنون بعد اندراسها وبلغت بها درجة كمال لكن خدشتها في مبدأ الامر بحيث كان لا يوصل جبراً ما لحق هذه الفنون من الخلل الذي اوقعه بها هذا الدين عندما اباد عبادة الاوثان التي حملت اليونانيين على اتخاذ التماثيل القديمة وتحسينها وزخرفتها والاستمرار على ذلك بواسطة الفنون المذكورة التي كانت تقوم بها ابنية الهياكل ايضاً لأن اخر ما ظن به الدين المسيحي على الموانع التي كانت تعترضه هو ابطال احترام الوثنيين الخشنيين لاوثانهم وما كان يصدر عن عقلائهم من العبادة لهذه الالهة التي نص عليها شعراؤهم كاويميروس وورجيل وايل وفدياس وغيرهم وكذلك ثباتهم على التصديق بالتوحيات وغيرها من الاوهام الفاسدة واشغال قرائتهم بذلك فهذه الامور الاربعة هي اخر ما ظهر عليه هذا الدين من الموانع

ولما رأى المسيحيون ان زوال هذه الاعقادات الفاسدة والعبادات الباطلة يتوقف على اعدام الاوثان والهياكل فهدم بمض الاساقفة عدة هياكل لابينوا بدلاها كنائس وكسروا التماثيل المتخذة من الحجارة والتوج (وهو نوع من الممادن) لانها كانت شنيعة ومبغوضة بالكليبة عند المسيحيين وكان ذلك قبل ان يصدر امر الملك ثاودوسيوس المقدم ذكره بهدم الهياكل وتكسير الاوثان فكان القديس مرتين الطوري عندما نصر الغاليين (قدماء الفرنسيين) بهدم هياكلهم ويكسرواوثانهم ثم ظهر في القرن الذي بعده القديس هيليرفرد ملعب اريس من زخارفه وما فيه من انواع الزينة وجعل ذلك للكنائس وكسر ما به من التماثيل والاصنام التي كان يستشعها المسيحيون وتنفر منها نفوسهم لتجردها وظهور اعضاءها المخلة بالادب والحيا وكان القديس مرقيل (لعلة مركلوس) يطوف مدن الشام والقرى وينقر قلوب الناس عن الاوثان التي كانوا قد عبدوها منذ مدة قليلة وكان وقتئذ القديس ثيوفيلوس بطريرك الاسكندرية

يشدد بتنفيذ الامر الساطاني بهدم هياكل سربيس وتكسير الاوثان التي كان
يعبدها اهل الاسكندرية وما اراد ان يبقي منها الا تماثيل الفرد ليكون سخرية
واضحوة للناس وقدم لبينيوس السوفسطائي الى الفبصر عريضة فصيحة العبارة
يستعطفه فيها ويترجاه ان يمك عن هدم الهياكل فلم تقبل منه كما وقع نظير
ذلك للامبرساك حيث لم تقبل محاجته في مجلس مشورة السنن برومية عن
مهرب النصر وسوف تعلم كيفية ذلك من التفصيلات التي تورد في البحث الثاني
لكن كان هناك بعض الاساقفة جيد الفريضة سايم الراي بكونه انفذ بعض
الهياكل العظيمة من الهدم وجعلها معابد مسيحية ومنهم البابا بونيفانيوس الرابع
فانه حول هيكل اجريا الذي يقال له تبطنون الى القديسين وهيكل برقلوس
المسي بربطونون الى العذراء المباركة من غير ان يفبراسه ايضا

ولا يمكن التوضيح على وجه الصحة عما لحق اثار الفنون من التلف والاندراس
باغارات الجرمانيين والعرب والعم فان جميع بلاد الرومانيين قد كثر فيها
التهب والسلب في اثناء تلك الاغارات المتعاقبة وساءت مدن الامبراطورية
شرقا وغربا ما عدا القسطنطينية ذاقت مرارة الحروب لا اقل من مرة واحدة.
اما الجرمانيون الخشنون الذين رقت طبيعتهم وحسنت بعد الفتح على ما
سوف تاتي تفاصيله فانهم اتلفوا اشيا كثيرة من غير روية ولا تدبر واضروا
بالفنون الرومانية ضرا فاحشا اكثر مما ينشئ عن الحروب التي لاتسوغها
الحقوق البلية واما العم الساسانيون فانهم لما وصلوا الى اسيا استعملوا منها على
زعهم الدين المسيحي خربوا الهياكل التي كان جعلها هذا الدين تحت حمايته
ورعابته ثم لما اتى بعدهم المسلمون محملوا ما تركته نقليات الزمان من الصور
والتماثيل التي سلمت من تلك الحروب لانهم كانوا يعتقدون ان الصور والتماثيل
سواء كانت للالهة او للبشر من شعار الكفر واذا اضيف الى ذلك ما طرا من
العوارض المخصوصة التي درست اثارا شهيرة واعدمت مدنا كاملة كالخرىق
والزلازل ونظرنا الى سلب قسطن الثاني قبصر القسطنطينية لابطاليا لما اراد

ان ينتم من اليونانيين حيث كانوا بكرهونه لاعادته الفيصرية الى رومية وجعلها
تحت المملكة ثم لما ذهب اليها ويس من الاقامة بها جردها من التحف العظيمة
ونقلها الى سيباليا وبعد موته ارادوا ان ينقلوها الى القسطنطينية ليزخر فوها بها
وانزلوها الى المراكب في البحر فوقعت في يد المسلمين ونقلوها الى الاسكندرية
التي انعدم فيها مرتين الانار الباهرة التي نشأت عن البراعة وكان ذلك نحو
سنة ٦٧٠ م وكذلك ما وقع من كساري الصور في سنة ٧٢٦ م وتخربهم كثيراً
من الكنائس والى اهل القرون الوسطى فانه يتعجب كيف بقي بعد ذلك كثير
من الآثار القديمة

اما مدينة القسطنطينية فلم يبق بها شيء من اثار قسطنطين الاكبر الذي
احياها بخلاف مدينة رومية التي اخلاها الفيصر المذكور من كرسي السلطنة
فانه بقي فيها قوس النصر الذي نصب علامة على شرقه وغمره ولم يجدد
ثاود وسيوس الاكبر في مدة اقامته باباطالما شيئاً يذكر به بعد حياته لكن ابقى
في القسطنطينية من اثاره باب الذهب الذي صنعه والعمود الذي نصبه واده
اركاد بوس معلقة فيه ولا ينسب الى ثيودور بنى الاستروغوطي من الاثارات
الغير الدينية الأسور بناء في سراية راوبنه ودار في مدينة تراسينا ولم يبق للفيصر
يوستنيانوس الا قنطرة سلارو التي على نهر اينو واصلمها نرسيس وله ايضاً كنيسة
القديسة صوفيا التي بناها في القسطنطينية وسياتي ذكرها وحيث انه اكثر ما
يمكن حفظه من التخريبات هو ما كان متعلقاً في الدين فلذا كانت اغلب
العمارات والاثار المخصصة به محفوظة الى الان لم يلحقها شيء من تخريبات
المنبرين

واما قواعد الابنية التي خصصت اولاً لبناء معابد المسيحيين فكانت
مغايرة بالكلية لقواعد فن الابنية التي كان عليها بناء هياكل الوثنيين لان
المسيحيين لما حصلوا على حرية اشتهار ديانتهم واحتملوا لانها ارادوا ان يجعلوا
كنائسهم على شكل المعابد التي كانوا يتخذونها في الكهوف والمغارات في ايام

الاضطهاد ثم لما جرت عادتهم يجعل الكنائس تحت حماية القديسين صاروا يجعلون لكل قديس هيكلًا مخصوصًا في الكنائس الى ان كثرت تلك الهياكل وازدادت فيها المحاريب (المحنيات) بعد ان كان لا يوجد في كل كنيسة إلا محراب واحد ثم بعد ذلك اتخذوا الاضرحة (القبور) والمقامات العديدة في الكنائس ايضاً وصاروا يتباهون بذلك فانعدم ما كان يستحسن من الوحدة في الهياكل القديمة وترتب الاخلال الكلي في اجزاء عمارات الكنائس بعد ان كانت في غاية من التناسب

ولم يزل الى الان عدة هياكل من كنائس المسيحيين التي بناها قسطنطين الملك ككنيسة القديس بطرس الرسول القديمة وكنيسة القديس يوحنا اللطواني وكنيسة القديس اينيس الكبيرة برومية غير ان كنيسة القديس بولس الرسول احترقت عن قريب ومن اثار القديمة هي ثلاثة ام الفيصر المذكور دير القديسة كاترينا في جبل سينا وكنيسة بيت لحم ولم يذكر المؤلف الاصلية كنيسة القيامة التي انشأتها على موضع قبر المسيح في اورشليم سنة ٣٢٨م واعل عنه ذلك دوماً واعادة بنائها عدة مرات قبل الاسلام وبعده اما ثاودوسيوس واولاده فلم يجر عادتهم ان يكتبوا اسماهم على شيء من اثارهم

وقد قبض الله الامم المتبربرين ان يزيدوا في زينة ايطاليا وبنوروها ثانياً بصايح المعارف والفنون كما تستبين كيفية ذلك في المقالات التالية لان ثيودور بق الاستروغوطي الذي مر ذكره كان دائماً يبحث على تعليم الفنون وحاز الفخار باصلاحه المباني القديمة الشهيرة واحداً من مباني جديدة وعين محافظين لحماية جميع الهياكل والقصور والتماثيل واصلح ما عيب بومبي وحيماض اليانو والسراية السلطانية التي بمدينة راوينة والحمامات والفناوات واسوار المدن الاخرى من ايطاليا وما بدل على ان فن نحت التماثيل في عصره كان باقياً على بهجه الاولى هو التماثيل التي صنعت تعظيماً له على هيئة الراكب في رومية وراوينة ونابلي وباربا وهذه التماثيل التي صنعت انعدمت بتداول الازمان

كتماثيل يوستينياوس وثيودورة وبانعدامها بطل الفن المذكور مدة من الزمن ثم تغير فن الابنية تغيراً ثانياً حيث تغير ما كان فيها من التفاصيل الكثيرة المختلطة باشكال كثيفة كبيرة وكانت المباني التي حدثت في عصر ثيودوريق المذكور محكمة عظيمة مجردة من انواع الزينة والزخرفة نظير ابنية الاطروسكية المستديرة ومنها كنيسة راوية المستديرة المسماة روتوند وقبتها من حجري واحد مقطوع من محاجر ايستريا لكن يرى في هذه الكنيسة الكبيرة وفي كنيسة القديسة ابولينيا عيب اختلال التناسب وخشونة الزخارف ومخالفة القواعد الاصلية من فن الابنية فان قواصرها موضوعة على الاعمدة التي عليها القباب من غير ان يكون بين تلك القواصر ورؤوس الاعمدة شيء تستند عليه وكان هذا العيب موجوداً في كنيسة ماري بولس ايضاً

ويوجد نوع من الابنية يقال انه العمارة الغوطية مكث في اوروبا مدة القرون الوسطى وباني العقل ان تكون العمارة المميزة لها حدثت في عهد ثيودوريق المذكور لان القواصر كانت معروفة قبلة في زمن قسطنطين وشوهدت في قناة يوستينياوس على شكل انصاف الدوائر وذكر قسودوروزبر الملك ثيودوريق انهم كانوا يستحسنون في عمارات هذا الملك طول الاعمدة ورقبتها وذلك من علامات العمارة الغوطية ويؤخذ من كلام ذنجنكورا احد مورخي فن الابنية ان استعمال ذلك كان بعد فتح اللنجيارد بين لاباليا بل عبارته تقتضي بان جميع العلامات المميزة للعمارة الغوطية كانت في ذلك العصر ونص عبارته على ما رواه بعضهم هو هذا كيفية الاوضاع الخارجة من المباني ووضع واجهة الباب على الشكل المخصوص ولا سيما شكل رؤوس الاعمدة وانتخاب زخارفها المشتملة على صور الادميين وغيرهم من الحيوانات وان كانت بعيدة الشبه بالخلقة الاصلية وكذلك الاعضاء والاعمدة المرتفعة من الارض الى السقف الاعلى وتر في داخل الجدران من طبقة الى اخرى من غير رف ولا افريز كل هذه من الامور الفظيعة الغير المألوفة صارت على نوع من انواع العمارات حدث في اخر القرن السادس

وصار عام الاستعمال في القرن السابع والثامن

وقد اعتبر مورخون الأينية مدة بوستنيانوس بأنها هي تميم لمدة ثيودوريق
ونهاية استعمال هذا الفن لأنه يظهر أن الفن المذكور انتعش من ضعفه في بناء
كنيسة القديسة صوفيا (١) وكان ذلك آخر انتعاشه وبهذه الكنيسة العظيمة

(١) قال العلامة الفاضل خير الله أفندي المورخ العثماني إن هذه الكنيسة كان أمر
ببنائها القيصر بوستنيانوس في محل كنيسة كان بناها ثاودوسيوس الملك واحتقرت فلما
أعاد بوستنيانوس بناها جعل طولها ٢٦٩ قدماً وعرضها ٢٤٢ قدماً وأقامها على ١٠٧ أعمدة
منها ٨ من الساقى الأحمر السناتي (سناتا مدينة في إقليم لومبارديا) لا يوجد لم تأسع على
الأرض على ما قيل أرسلتهم ماركية امبراطورة رومية هدية إلى هذه الكنيسة وقت بنائها
تذكاراتها ومنها بعض أعمدة من الحجر الأخضر اللاقوني (الاقونة مدينة في بلاد اليونانيين)
أخرجهم قسطنطين أمير مدينة اياتلوغ من خرابات هيكل قديم في تلك المدينة وأرسلهم
هدية إلى القيصر المشار إليه ومنها ٤ من الممر الأبيض أحدهم من مدينة اثينا والثلاثة
الباقيون من جزائر البحر الأبيض ومنها عدة أعمدة من ساقى تساليا بايالة مكدونيا ومنها
بعض أعمدة زرق وسود من ليبيا (ليبيا اسم قديم لإقليم في إفريقية توجد فيه الآن مدينة
طرابلس الغرب) ومنها أعمدة جنوبية من بلاد مصر ومنها ٨ أعمدة كبار من الساقى
الأخضر استخرجت من خرابات ايوان هيكل بعليك من بلاد الشام ومنها ٨ آخر أيضاً مثلهم
من هيكل اياتلوغ الذي مر ذكره وكانت حيطانها مرصعة بحجارة مرصوفة رصفاً شامخاً
تتوافق بوجاهتها مع بعضها وأما قبتها المعادلة لثبة الفلك فكان محدها من خارج مغطى
بالنحاس ومقرها من داخل مرصعاً بقطع من الزجاج المطلي بالذهب والفضة (كالسيفسة
الصغيرة القطع وفوق كل قطعة غلاف بقدرها من الزجاج المتعراصباتها) وكانت
مخزات شبايكها من الذهب وانطاسها مسبوك من خليط الذهب والفضة والنحاس
والرصاص والحديد ومائدتها ومباخرها من الذهب وابوابها مغطاة بفضة الذهب والفضة
وخارج هذه الابواب ٤ اسود من الحجر الساقى قطعة واحدة ومنذ تعبيرها إلى أن صيرها
السلطان محمد الفاتح جامعاً كان تهدم منها بعض مخلات في عدة انقلابات حصلت في
القسطنطينية وكانت الفياصرة تجدد ما تهدم منها وكل من جدد بها شيئاً من هذا القبيل
رسم صورته في محل مناسب بالقرب منه فلما ترمم هذا الجامع في سنة ١٢٦٥ للهجرة سنة
١٢٤٨م شوهدت صورة القيصر بوستنيانوس بالي هذه الكنيسة مرسومة على الباب المدعى
بها معناه بالتركية باب السكري وبهذه صورة هذه الكنيسة يقدمها إلى السيد المسيح وكذلك
صورة القيصر يوحنا الباليولوجس الذي كان معاصراً السلطان أرخان وكان رسم ما تهدم

ضمت الآثار القديمة وهي من صنع اتيموس التراقي وابزيدور المايطي وعلى شكلها بنيت الكنائس التي على شكل صليب يوناني وفي وسطها قباب مركبة على اعمدة ومرتفعة مع الاستدارة وهي على هيئة قبة عظيمة واما قبة كنيسة القديسة صوفيا فانها كانت سبباً لاختراعات جديدة محكمة لما وقع في النفوس ومع ان هذه الكنيسة لا تغلوم من العيوب بالنظر الى اجزائها ولم يراع في بنائها اصول الفن وقواعده فانها مذكورة في تاريخ فن الابنية ولم يبن مثلها في عدة قرون

ثم ومن العجب ان الدهر يفتي تماثيل المرمر والنحاس ويبقي تصاوير اخر واهية وذلك ان بعض تصاوير من الآثار القديمة حفظتها مواد جبل وزوف وتراب القبور من ان بوثر فيها الهواء والضوء ويهدمها ولا يمكن الوقوف على الدرجة التي رقي اليها فن الرسم عند القدماء الا بواسطة التصاوير التي على جدران مدينة هرقلانوم ومدفن النازونية وقبور النصارى التي قمت الارض وتصاوير موميات المصريين الملونة وقد انعدمت هذه بواسطة بعد قسطنطين ولم يبق في تاريخ فن الرسم الا بعض اثار من التزييق والتصاوير الرفيعة الرقيقة ولما كان فن التزييق كناية عن وضع مقدار كبير من الاحجار الملونة المناسبة لم يصل الى درجة الرسم في اللطافة والنعومة بل لم يعرض ذلك للرسم الا بواسطة استعمال الزيت في الالوان غير ان لذلك الفن مزية وهي بقاء

منها اخر مرة مرسومة بجانب نصف القبة الكائن جهة الجنوب الغربي ثم لما استولى الافرنج الصليبيون على القسطنطينية سلبوا ما كان في هذه الكنيسة من الخلي والانسطاس والابواب والواني الذهب والنضة والاسود المذكورة وكل ما كان فيها من احسن الآثار القديمة وارسلوها الى مدينة البندقية ولما جعلها السلطان محمد المصطفى جامعاً لم يوقع بها تغييراً الا ما كان مغايراً لاصول الدين الاسلامي فامر باخفاء ما على جدرانها من النقوش الذهبية بالكلس ووضع بها منبراً ومحراباً وكرسيكاً وبقي ما عدا ذلك على حاله الاصلية وذكر ابراهيم بك الطيب في تاريخه الدولة العثمانية انه لما تولى السلطنة السلطان عبد المجيد الاول في سنة ١٢٥٥ للهجرة سنة (١٨٣٩ م) امر بازالة الكلس عن تلك النقوش وتجديد ما انعدم منها لكي ترجع الى رونقها الاول

الصور التي اتخذها المصورون قدوة لهم في صناعتهم فهو يحكي صور الاشياء على اختلاف انواعها وينقلها بنحو اصحها واشكالها من غير ان يلبسها زوال او يعثر بها اضحلال وبذلك كان احق ان يُعتبر تاريخياً لما حكاها حيث تبقى اثاره ولا تحي حكاياته والاحتمة ما لحق غيره من فنون التصوير لم يتولد عنه في القرن الخامس والسادس والسابع شيء من النتائج المهمة وانما نواد منه نتائج اخرى متنوعة بوجود عند الافرنج منها مقدار متسلسل وسع دائرة الانوار القديمة بكثير من الخواص والكيفيات وبين لهم على وجه الضبط كيفية مناسك قدماء المسيحيين وملابس القسوس

والفضل على الافرنج ايضاً للتصاوير التي على جواشي الكتب لانها وضحت لهم الكتب القديمة المكتوبة باليد وزينتها ووارون المولف هو اول من صور صور الرجال الذين تكلم عليهم في تاليفه وعادتها في مراء ليراهما الخاص والعام وجميع الآثار تدل على ان كتب العلوم التي قبله والتي بعده كانت مصنوعة بالصور ثم لما بلغ النساخون في الكتابة درجة كمال الفتوة الى فن الرسم ايزينولى به عناوين كتبهم وحواشيهما والحروف الكبيرة المسماة بالثلث ومن هاتين الصناعتين اللتين هما النسخ والرسم تركب علم الخط وهو فن يحتاج الى مزيد الاعناء والتأني ولم يترتب على مارسته نجاح الا في الدبورة لاستمرار الهدوء فيها وكان سفر الخليفة الذي تكلم من ابتداء الدنيا الى اخر القرن السادس عشر مكتوباً باليد في رق غزال وهو اقدم ما يوجد من هذا النوع مزياً بتصاوير صغيرة لها وقع في النفوس سهلة العمل متناسبة ويوجد نظيرها في كتاب ورجيل الشاعر الروماني الذي تقدم ذكره في الكلام على اغسطوس قيصر وكتابه هذا محفوظ في الوايتيكان (ديوان البابا) وهي ايضاً مصنوعة في زمن كان للذوق فيه بقية فلم تبلغ منتهى الرذاعة بخلاف الصور التي رسمتها باولينية بنت القيصر اوابربوس على كتاب المولف ديوسقريد في وصف النباتات فانها تدل اكثر من غيرها على اضحلال هذا الفن الذي كان له اعتبار عظيم

في ديواني القسطنطينية وراوية التي هي كرسي ايطاليا وكان القيصر
 ثاودوسيوس الثاني مستحقاً للثب الخطاط وكان تعلم هذه الصنعة لاجل تزيين
 السنكسار (يعني سير القديسين)

الخاتمة

في حالة المعارف والآداب منذ القرن التاسع من الميلاد الى انقراض
 القيصرية الشرقية المذكورة بفتح آل عثمان مدينة
 القسطنطينية سنة ١٤٥٢ م

لا يخفى بان هجمات العرب وغيرها من الحروب والنكبات التي احاطت
 بالقيصرية المذكورة منذ القرن السابع الى اواسط القرن الخامس عشر كادت
 ان تذهب بالعلوم والمعارف وتلاشيها بالكلية من هذه المملكة التي اخذت في
 الهبوط والانحلال منذ ظهرت السطوات العربية المذكورة على ما يستبين من
 التفاصيل المتقدمة والتالية الى ان سقطت بالكلية نظراً لما حصل فيها من
 الاضطرابات الداخلية الموجبة لاهمال العلوم وعدم الاعتراف بشانها لكن مع كل
 ذلك لم يخلُ قرن واحد من تلك الاجيال المتتالية بدون ان يوجد فيهم من
 حامي عن الفلسفة وقام بخدمتها حتى ان ما حافظت عليه القسطنطينية من
 الرخرفة والمعارف الى اخر دقيقة من وجودها كانت مدهشاً الى الشعوب
 الافريقية حين سطوا عليها في اثناء الحروب الصليبية وبعثوا فيها في احياء
 المدن والمعارف الحادثة في الممالك الاوربية لاسيما بواسطة اهل الفضل الذين
 هاجروا اليها من اليونان بعد سقوط قصبة ملكتهم المقدم ذكرها في يد آل
 عثمان كما يوضح ذلك من التفاصيل الآتية

وقد اشرنا في الفصل السادس المتقدم ما كان جرى على المذهب
 الافلاطوني الجديد من الاندراس بسطوة الفيصر بوسستينا نوس الأول وتعويضه
 بالفلسفة الارسطوطالية وأنه لا زال الحال على هذا المنوال الى ان نجحت هذه
 الفلسفة في القرن الثامن وكانت تدرس في كل المدارس الموجودة واشتهر فيها
 وقتئذ القديس يوحنا الدمشقي وكتب فيها نبذة عديدة قصد بها فائدة البسطاء
 فكانت نبذةً ههنا سبباً لتسك كثيرين في بلاد اليونان وسوريا في هذه المبادي
 ثم في القرن التاسع ولأن كانت حصلت امور كثيرة تمنع اليونانيين عن
 الاهتمام بالعلوم والمعارف أكن كرم الملوك الذين كان بعضهم من اهل العلم
 واتباه البطارقة الذين منهم فوتيوس الشهير بمعارفه منعا تجافي العلم هذه الآفة
 بالكتابة خاصة في مدينة القسطنطينية فظهر منها في هذا القرن قوم اجادوا في
 النظم والنثر والفلو كذلك نوارنج عصرهم غير خالية من الفوائد ولا سيما منذ
 ابتداء الشقاق بينهم وبين اللاتينيين واشتد الجهل فيه اظهر حينئذ المحذقة
 كثيرين ممن كانوا تاركين كنوز معارفهم تحت رديم الكسل واسعاهاوا للتجارة
 بها مع براعة العبارات وطلالة التأليف قال بعض المؤلفين نقلاً عن يوحنا
 زوناراس ان درس الفلسفة ولأن كان اهل بين اليونانيين في هذا القرن إلا ان
 الفيصرين ثيوفيلس وابنه ميخائيل الثالث احبوا ما اندرس منها بواسطة ادارة
 نسبها برداس الذي وان لم يكن عالماً إلا أنه كان صاحب فوتيوس العالم
 العلامة العظيم ولا ريب في أنه كان يستسير برأيه في هذا الامر ثم وضع برداس
 المذكور لاون الحكيم الكلي المعارف الذي صار اخيراً اسقفاً على نسا والونيكية اول
 معام بين العلماء للعلوم اما فوتيوس المقدم ذكره فإنه شرح كانيكوري
 ارسطو طاليس (اي الصفات المختصة بالجنس) وميخائيل باسلوس كتب شرحاً
 مختصراً لكتب هذا الفيلسوف الاصلية

ان اشهر الذين كتبوا في النضابا الدينية والمنازعات الواقعة بين اليونانيين
 والرومانيين في هذا القرن والمجادلات على الابقونات الى غير ذلك هم

فوقدوس بطربرك القسطنطينية ذو المواهب السامية والمعارف المتنوعة الواسعة ولا تزال مكتبته ورسائله وكتاباتاته الاخر الثمينة جداً باقية ونيسيفورس بطربرك القسطنطينية ايضاً وثيودورس ستوديتس وثيودورس الاقريطشي ومثوديوس المعرف وثيودورس ابوكارا وبطرس سكولس ونسطاس داود وغيرهم من الذين لم تكن اسماؤهم تصل الى هذا اليوم لولا ما حصل من المناقشات والمجادلات بين الروم والرومانيين

واشتهر كذلك موسى بارسفاس الذي كان ذا عقل ثاقب ومهارة في الكتابة اكثر من الاكثريين كما تشهد بذلك مولداته وهو رجل من اهالي سوريا وهنا يتكلم المؤلف عن انصباب العرب ايضاً في هذا القرن على العلوم بعد ان كانوا مهملين ومنصبين غاية الانصباب على الفتوحات الى ذلك الحين لكن لما كان صاحب الاصل يتكلم على ذلك كلاماً مختصراً والوطنية او بالبحري الجنسية تجوجني ان اتكلم بالتطويل على قدر ما تصل اليه يدي على تقدمات هذه الامة العربية واستدراجاتها مع ما كانت عليه في حال بدلتها وما آل اليه امرها اذ لا يخفى بان كلاً من مشروعات دولها في المشرق والمغرب هو حاقة تربط سريان العلوم والفنون اخيراً من هذه الاقطار الى البلاد الافرنجية والموضوع لا يستدعي في مثل هذا المركز الا ما كان ضرورياً في هذا الباب على ان معرفة اصل هذه الامة ونسبتها واخلاقها وادابها وعوائدهما القديمة ضرورية في الاطلاع على اداب اللغة واطرائها وقائدها الحديثة كضرورة معرفة الميثولوجيا في فهم اداب اليونانيين القديمة بل الافرنجية المحاضرة ايضاً واستيفاء ذلك هنا يكبر حجم الكتاب ويزيد في ضخامته وربما اخرجنا عن موضوعه الاصلي فقد اهتمت ذلك وافرزت له كتاباً مخصوصاً سميت صنّاجة الطرب في تقدمات العرب وجعلته بمنزلة جزء ثان لهذا الكتاب حسبما وعدت في مقدمة كتاب زبدة الصحائف في اصول المعارف

واما القرن العاشر الموصوف بشدة الجهل في الشرق والغرب نظراً لما

كان حاصلًا فيها من عظم المحروب والمصائب المكربة فظهر فيه لاون الحكيم الذي تملك القسطنطينية في افتتاح هذا القرن وياشر العلوم بنفسه وحرك لذلك حاسيات كثيرين وابنه قسطنطين بروفر وجنينوس الذي كان أكثر اشتياقًا منه إلى احياء الاداب والصنائع وكان ملكه نحو ٤٠ سنة يظهر انه عال العلماء من انواع مختلفة بمصاريف باهظة ليعتولوا به جميع مواضع كل مكتوبات الاعصار الاولى وكان هو ايضا مولفًا وحرك آخرين للكتابة وطلب منهم ان يجعلوا له كل ما كان من احسن تاليف القدماء ويرتبوه ابوابًا كل موضوع على حدة قال بعض المؤلفين ان الخلاصات التاريخية والمدنية والادبية التي استخلصها كانت ٥٢ بابًا مرتبة كل منها في موضوع غير انه لم يبق منها الا بابان وهما السابع والعشرون والخمسون فالسابع والعشرون يتضمن مداخلة الرومانيين المدنية مع الامم الغربية واما الخمسون فيتضمن النضيلة والرذيلة وقد طبع فاليسيوس في باريس جزأ منه سنة ١٦٢٤م واحيي هذا الملك درس الفلسفة الذي كان قد تلاشى غير ان الذين اتبعوا انموذجه من اليونانيين كانوا قلوباين جدًا كما انه لم يوجد احد من الملوك خلفائه احب العلم وثقيف العقل نظيره لكن بظن ايضا بان هذا الملك نفسه مع ان اليونانيين يدعون محيي كل انواع العلوم قد اضر بالعلم على غير قصد منه بل بشدة غيرته على تقديمه لانه يجعل العلماء يجمعون تلك الخلاصات والمختصرات عن كتبه الاجيال الاولى على ما تقدم لكي يوضح فروع المعرفة بانواعها ويجعلها مفيدة للناس ارنضى اليونانيون الكسالى بهذه المختصرات واهلوا اصل المؤلفات التي جمعت منها ولهذا فقد كثير من مؤلفات الاجيال الاولى بداعي تغاضيهم عنها منذ ذلك الوقت فصاعدًا

ولهذا السبب لا يمكن ذكر الا القليلين من مؤلفي الاجيال التالية يسوغ للعقل الناقد ان يعتبرهم كثيرًا اذ بظرف مدة وجيزة مات ذلك الزرع التعليمي الذي كان يعد بمصائد مستقبل والفلاسفة اذا كان وجد بينهم فلاسفة

لم ياتوا بولفات تُخَدُّ أو بشيء له قيمة ثابتة بل ان جمهور العلماء اليونانيين كان مولفًا من بعض نحاة وبيانيين قلائل وكم شاعر لا يزدرى به وجملة مورخين وان لم يكونوا من الرتبة الاولى الا انهم يستحقون الثناء لان اليونانيين ولا تخطي اذا قلنا جميعا كانوا مواهبين في تلك المعارف المتعلقة بنوع خاص بالخيلة والذاكرة والعمل

وكذلك ظهر في مصر التي كانت تن وتتمتد من نير الظلم علماء يزاحمون اليونانيين على العظمة والتقدم وحسبنا في ذلك تيجيوس اسقف الاسكندرية بصرف النظر عن غيره لانه شرف علم الطب واللاهوت بولفات متنوعة وهناك جمهور اخر من اطباء الماهرين والفلاسفة والعلماء بالعلوم التعليمية اشهرهم بوحنا لون الافريقي وغيره ممن اخذوا علومهم عن العرب

وفي القرن الحادي عشر كانت ظروف المملكة اليونانية لا تسمح لليونانيين ان يتقدموا في العلوم والاداب نظراً لكثرة مقاومهم الذين كانوا دائماً مجردون المملكة من مجدها وسطوتها . وكان كل من الاختلافات المدنية والفن المتواثرة وتزبل الملوك الاغصاني عن كراسيم قد اوجب ايضاً خراب وملاشاة ما فات العدو وسلم من يده الا انه مع كل ذلك لم يخل الامر من وجود افراد نشطوا اهل العلم فيه كالملك الكسيس كمينس والبعض من البطاركة والاساقفة لان مجادلات اليونانيين مع الرومانيين لم تكن تسمح لهم ان يهملوا ترويض العقل ومحبة العلوم ولذلك وجد بين هذه الامة بعض اشخاص معتبرين نظراً لمعارفهم وترويض عقولهم منهم شعراء وبيانيون ونحاة ولئن كانوا ليسوا من الرفع لكن لا بأس بهم غير ان البعض من المورخين كانوا يستحقون الذكر ومنهم لون النجوي وبوحنا سيلند وسدرينس وغيرهم ولئن كانوا متسكين بنزع عيالات اهالي بلادهم ولم يخالوا من الاغراض والاهواء . اما ميخائيل سلوس فقد كان رجلاً شهيراً جداً وعالماً عصره في العلوم والاداب ولذلك سعى في ان ينهض الاهلين الى درس الفلسفة ولا سيما الفلسفة الارسطوطالية التي كان

بشرحها ومدحها ببولفانوه المنوعة

واحسن الذين كتبوا ضد الرومانيين وغير ذلك في هذا القرن ايضا
ثيوفانس سراميوس صاحب المواظ التي لابزدري بها ونيلس دوكسوباتيوس
ونيسيناس يكتورانس اعظم المحامين عن اراء اليونانيين ضد الرومانيين
ومينائيل سلوس العالم الشهير الذي مر ذكره ومينائيل سرولاريوس بطربرك
القسطنطينية الذي جدّد النزاع بين اليونانيين والرومانيين بعد ان كاد ينجذ
وشعمون الاصغر الذي لا زال يوجد بعض تأملاته على واجبات الحياة المسيحية
وثيوفيلكتس البلغاري الذي اشتهر خاصة بتفسير الكتب المقدسة

ثم في القرن الثاني عشر كانت مطالعة العلوم والفنون مرغوبة جداً بين
اليونانيين مع ان الاوقات كانت مضطربة والحروب والفتن الداخلية غالبية
والسبب في ذلك غيرة الملوك ومحاماتهم عن العلوم ولا سيما الكهنوتيون مع اجتهاد
بطاركة القسطنطينية الذين كانوا ينجشون من ان تفقد كنيسة الروم من يحامي
عنها ضد اراء الكنيسة الرومانية اذا تعافل كهنتهم عن ممارسة العلم فان حواشي
الشروحات التي عاينها يوستاثيوس اسقف تسالونيكي العلمية البيئة البدية على
اوبيروس ودبونيوسيوس بريجنز تدل على ان اصحاب العقول السامية افرغوا
جهدهم على درس علم المنطق والعلوم التعليلية والتواريخ القديمة والمورخين
الكثيرين المعبرين على تقييد حوادث عصرهم لان يوحنا سينامص ومينائيل
غليكوس ويوحنا زونارس ونيسيفورس برينيوس وغيرهم هم برهات على ان
كثيرين من اليونانيين في هذا القرن لم يفهم شي من الميل والرغبة في افادة
الاجيال المستقبلية ولا من الاقتدار على ان يكتبوا ما يكتبونه بمخافة

وقيل انه ما من احد اجتهد في ان يضرم حب الفلسفة في قلوب الناس
اكثر من مينائيل انخياس بطربرك القسطنطينية وكان مغرماً على ما يظن في
الفلسفة الارسطوطالية لان الفلاسفة كانوا مشغولين في هذا القرن بتوضيح هذه
الفلسفة وثقيفها والدليل على ذلك شرح بوستراتيبوس اداب ارستطاليس

وتحاليه غير ان فلسفة افلاطون لم تهمل بالكلية بل يظهر ان كثيرين ولا سيما الذين اعتنقوا مبادئ العتميين فضالوها على فلسفة ارسطو ازعمهم بانها تاتي باصحاب التنوي والرزاة اما فلسفة ارسطو ليس فتاتي بالمجادلين والمتعجبين وهذا الاختلاف هج بعد ذلك منازعة اشتهرت بين اليونانيين حيث فضل بعضهم فلسفة افلاطون على فلسفة ارسطو ليس وفضل اخرون الثانية على الاولى

وكان من كتبة اليونان في هذا القرن ومولفهم فيلبس سوليتار بوس صاحب الجدل بين النفس والجسد وبوستراتيوس الذي حامي عن اليونانيين ضد الرومانيين وشرح بعض كتب ارسطو ليس وبوثيوس زيفابنس الذي استحق ان ينظم في سلك اوائل مولفي عصره لاجل سلاحه الكامل ضد جميع المراطقة وشروحه على الكتب المقدسة وبوحنا زونارس الذي وقائعه وبعض مولفاته الاخرى محفوظة للان وميغائيل غليكاس الذي اوقف نفسه على التاليف في التاريخ وغيره وقسطنطين هرمينيوبولس المؤلف المعتبر في القوانين المدنية والكنائسية واندرونيكس كما تيرس القبور في قوة جداله مع الرومانيين والارمن الذين كانوا مقاومين لليونانيين وبوستاثيوس من سالونيكية اعلم يوناني عصره والشارح الشهير لاوليوس وثيودورس باسا من الذي تعب كثيرا في تفسير القوانين اليونانية الكنائسية والمدنية

وكذلك في القرن الثالث عشر الذي لم تسع فيه البلايا والويلات الشديدة التي اصابته اليونانيين بفرصة لم او عزم على طاب العلوم قد وجد فيهم من المورخين انسطاس كونيانس وجرجس اكر وبوليتا وغريغور بوس باكييرس وبويل الذي لاتزال وقائعه موجودة ويظهر من بعض نبد نيسيفورس بلييدا وغريغور بوس باكييرس المذكوران ان الفلسفة الارسطوية كانت مطلوبة عندهم غير ان الاكثرين كانوا يفضلون افلاطون وراغبون في مطالعة الفلسفة الجديدة المنسوبة اليه زاعمين ان نظامها يوافق نظام

ارستطاليس ولا حاجة الى ذكر كتاب المواعظ وسير الفديسين ومفاومي
اللاتينيين وشراح القوانين الكنائسية

وفي هذا القرن ظهر في بلاد سوريا غريغوريوس ابو الفرج ابن العبري
مغريبان اليعقوبين الكاتب المشهور وهو رجل ذكي العقل وكثير العلم ولاهوتي
ومؤرخ وفيلسوف بحيث له الاعتراف روى عن نفسه في القسم الثاني من تاريخه
السرياني بانه تخرج بمدينة طرابلس ودرس فيها الفصاحة والطب على رجل
نسطوري يقال له يعقوب الى ان دعاه بطريرك ورسنه اسقفًا على كوبا في ١٤
ايلول سنة ١٢٤٦ م ويضاف اليه جرجس الماسين مؤلف تاريخ العرب

وفي القرن الرابع عشر الذي كثرت فيه الاضطرابات العظيمة الداخلية
والخارجية في هذه القيصريّة والقرن الخامس عشر الذي فيه انتهت حياتها
وسقطت في حنرة الاضمحلال لم يهمل اليونانيون العلوم الفلسفية وحسبنا في
ذلك العلماء وذوو المعارف الذين هاجروا الى بلاد الافرنج بعد
ان افتتحت الدولة العلية العثمانية مدينة القسطنطينية قسبة

هذه القيصريّة في سنة ١٤٥٢ م وكانوا سببًا مهمًا عظيمًا

في امتداد العلوم والمعارف في غربي اوربا

كما يتضح ذلك من التفاصيل

الواردة في البحث

الآتي

البحث الثاني

المعارف في الامبراطورية الرومانية الغربية منذ انفصالها عن المملكة
الشرقية في سنة ٢٩٥ ب م الى نهاية القرون الوسطى
وفيه سبعة فصول وخاتمة

الفصل الاول

في ما حدث على المعارف في هذه الامبراطورية منذ انفصالها عن
القيصرية الشرقية الى ان استولى عليها البربر المهاجمون
الذين اغاروا عليها ومزقوها واستولوا
على اقاليمها في سنة ٤٩٥ ب م

قد ذكرنا في ما سبق كيف قسم القيصر ثارديوسوس الاكبر المملكة
الرومانية في حال حياته بين ولديه اركاديوس وهونوريوس واضعنا ماجريات
القيصرية الشرقية التي تخصصت اولاده اركاديوس الى ان افتتحها آل عثمان
في نهاية القرون الوسطى واما هونوريوس فانه اتولى المملكة الغربية التي تخصصت
له وجلس على كرسيها بعد وفاة ابيه في سنة ٢٩٥ ب م وكانت عاصمتها مدينة
رومية وتحوي على بلاد ايطاليا وايليريا الغربية وافريقية واسبانيا وبلاد الغالة

التي سميت اخيراً فرانساً وبريتانيا التي هي بلاد الانكليز وعدة ولايات في بافاريا والنمسا وغيرها لكن مع كل هذه الولايات المتسعة التي تدل على عظم السطوة لم يعد الرومانيون قادرين على المكافحة عن انفسهم وحفظ بلادهم من غزوات البربر الذين سببت الاشارة اليهم لان كلاً من انفسهم وتحزبهم من الجهة الواحدة وانعكافهم على الملاهي والملاذات من الجهة الاخرى استاصل منهم تلك الحماسة وجعلهم يرتضون بمجالتهم الدنية ويسلمون انفسهم للقدر وكان هونوريوس بعد محاربة قوية جرت بينه وبين الارريك قائد الغوث بايام يسيرة نقل سرير السلطنة من مدينة ميلان الى رافينا ودامت الحروب بينه هو وعدة ملوك خلفوه من بعده وبين قبائل الغوث والفندال والهون والهول وكان ملك الهون وقتئذ يقال انه اتيلاله شان وقد مر ذكره في ما تقدم الى ان كان اخر ملك من القياصرة الرومانيين يسمى رومولوس وبه انقرضت دولة رومية ومن غريب الاتفاق ان هذه الدولة ابتدأت برومولوس الاول وانتهت برومولوس هذا وهو الثاني بعد ان دامت ١٢٢٦ سنة

ثم لما استولى هولاء البرابرة على اقاليم السلطنة المذكورة بالتدرج قسموها بينهم الى دول صغيرة عديدة كل دولة منها قائمة بنفسها ومباينة لغيرها في الاخلاق والعوائد واللغات ثم انقطع التواصل بعد ذلك بين هذه الدول وانحلت من بينها روابط اللفة والمحبة وعلائق المخالطة والتجارة وصارت كلمة اجنبي وكلمة عدو مترادفتين بمعنى واحد وصار ارباب الاسفار في سائر الجهات عرضة للبراطيل والاختطار بسبب عوائد تلك البلاد بل اصولها وقوانينها وانقطعت ممارسة العلوم التي بُني عليها الجغرافية والملاحة وتبدلت معرفة البلاد القاصية بالجهل حيث نُسبت اوضاعها ومحصلاتها بل اغلب اسمائها كما يتضح ذلك من التفاصيل الآتية ومن ذلك الوقت صارت لفظة يوناني ولفظة روم اسمين مترادفين يطلقان على شعوب المملكة الشرقية التي مر ذكرها لكونه حُفظ فيها نواح القيصرية الرومانية مع عقائد الكيسة وقتئذ غير انه

ينبغي قبل ان نشرع في تفاصيل هذه النتائج المختلفة المذكورة المسببة عن هذه
الافارة العظيمة على سيدة مالك الارض يقتضي ان نبين اولاً انواع ونسبة
واخلاق وعوائد اولئك القوم المتبرزين الذين اثاروها

الفصل الثاني

في بيان انواع ونسبة واخلاق وعوائد القبائل المتبرزة الهاجرة على
الفيصرية الرومانية الغربية

لا ينبغي بان هذه القبائل هي من الشعوب الجرمانية ومركبة من طوائف
متعددة وحشية جاءت من شمالي اوربا ومشرقها كالتي ذكرنا اصحابها ويوجد
غيرهم ما لا يحتاج الامر الى تعدد اسماهم لكثرتهم وعدم الفائدة المطلوبة في
ذلك بل نكتفي بالاشارة الى الذين يسكنون الآن في مواظنهم الاصلية وهم
الداينباركة والاسوجية واللاهية والروسية والتارثم آل امرهم اخيراً ان يكونوا
هم الورثة لعلوم اليونانيين ومعارف الرومانيين وصارت بلادهم او بالحري
الممالك التي سلبوها بسيف الخشونة والبربرية تعتبر الآن محط رحال انواع العلوم
والفنون وكعبة التمدن والناس ويطلق الآن عليهم جميعاً لقب افرنج
ولا ينبغي ان هذا اللقب ماخوذ عن اسم طائفة منهم يقال لها افرنك
بالكاف الفارسية بدلاً عن حرف موجود في لغتها ينطق به في بعض ظروف
كثابتوكا ينطق بالكاف المذكورة ويسمونه شه فلما تعربت هذه اللفظة قبلت
افرنج نظراً لعدم وجود ما يقابل ذلك الحرف في اللغة العربية ومعنى هذا
اللقب على ما قال بعضهم احرار سائيون وهذه الطائفة هي التي استولت من
بين تلك القبائل على بلاد الغالة التي هي احد الاقسام الامبراطورية الرومانية

المذكورة ومكثت بها الى الآن فسميت هذه البلاد اخيراً باسمها فقيل لها افرنسة او فرانساً ثم شمل هذا الاسم جميع اهالي اوربا سواء كانوا من السكان الاصلية او القبائل الفاتحة بل ونزلاتهم الاخيرة في غيرها من اقسام الارض كما مبركا وامثالها ما عدا اليونانيين والأتراك لكونها لم يخنطاً بتلك القبائل كما اخنطاً غيرها من اهالي اوربا فاذا والحالة هذه لا يستثنى احد من سكان ذلك القسم من الدخول تحت هذا الاسم الا الطائفتان المذكورتان

اما قولهم لهذه الشعوب جرمانية على ما تقدم فمعناه رجال الحرب ويطلق على عامة الامة التوتونية التي نعتقد بانها اوكتونية اي متولدة من الارض ولذلك كانت الارض اول الهتهم ويسمونها بلغتهم هرثة وكانوا يعتقدون ان هرة هذه واداً يسمى نويست فسموا توتونيين نسبة له

وقد ذكرنا معبوداتهم في البحث الرابع من المقالة الثانية من كتاب زينة الصحائف في اصول المعارف وخلاصة ذلك انها تدل على ان خرافات اليونانيين الكاذبة لم تكن مجهولة عند هؤلاء القوم غير انه لم يكن لهم هياكل ولا اصنام

ونظراً لانفساهم الى طوائف عديدة كان الضعيف منها متعامداً مع بعضه قد كان لكل طائفة منهم حكومة تخصها ولكنها جميعها متشابهة غير ان السكسونيين كان لهم ملوك يتوارثون المملكة اما ما عداهم فكانت رساؤه من القبائل الشريفة ومن ذوي الحسب والانتخاب فيها كما ان رياسة العساكر لا تكون الا للشجعان وكانت ماوهم مقيدة بتصرف الاعيان وارباب مشورة الاهالي واما في الدعاوي المهمة فكان يتذاكر المجلس الجامع لجميع الرجال الاحرار الذي كان يجتمع اما في اول كل شهر او في نصفه وكانوا يذهبون اليه مسلحين ايظروا حريتهم في وقت الاجتماع وكان لجميع الاهالي حق التكلم لكن على حسب السن والشرف والنصاحة وكان سكوتهم اودوهم في المجلس دليلاً على عدم رضاهم برأي المتكلم واما اذا استصوبوا رأياً فكانوا يرفعون اصواتهم بالاستحسان وتتصادم

اسلحتهم وتسمع قرقعتها

وكانت هذه الجمعيات هي التي ترتب الفوائيد وتخاص في الجنبات وتماقب على الموالسة مع الاعداء والحروب اليهم اما بختق المذنب او صلبه وكانوا يعذبون الزانية المتروجة ويقتلونها ويدفنونها في بركة مملوءة وحلاً وكانوا يدفنون في هذه البركة ايضاً من هرب من العساكر ومن وقع منه فعل يوجب الفضيحة والعار واما عقاب غير ذلك من الذنوب فكان يدفع الاموال من الغرامات وغيرها

وكانت روساء العساكر تضبط الجيوش بالترغيب بما يجروئه لامثالهم من الرياسة وحسن المكافاة وكان لهم فرقة من العساكر يسمونها لودية تمتاز بالانعامات لكونها واهبة نفسها لحفظ تاموس روساء العساكر

وكان المحارب الجرمانى ينشد اشعار النصر والظفر من حين ذهابه الى القتال قبل وقوعه بالاعداء وكانوا يجترمون شعراءهم احتراماً عظيماً وهكذا الغالية حتى انهم كانوا يعتقدون ان لهم الهاماً الهياً

ومجرد خروج الشبان من الشبوية كانوا يحضرون في الجمعيات العمومية لياخذوا علامة انتظامهم في سلك الحربين وهي مبدا شرفهم ويانتمون حينئذ بمحفظ الوطن ويسلمون انفسهم لمن يرشدهم الى الشجاعة وفي زمن الصلح يشتغلون بالصيد والقتص ولذلك كانوا لا يهتمون بشان اهلهم وعيالهم بل يفوضون ذلك الى النساء والشيوخ

وكانوا يكرهون اشغال الفلاحة ويكتفون بالصيد فلا بصرفون تعيهم على الارض ولا بظهوره الا في الحرب ولا يخصص احد منهم بشي من الاطيان بل كان المحكام في كل سنة يعطون لكل قرية ولكل عائلة مقداراً من الارض للزراعة لكن في آخر القرن الرابع للهيلاد عرفوا حق التملك ومنهم بعض قبائل كالسكسونيين والبرغونيين رغبوا في صناعة الفلاحة والاستيطان

وكان يحناط محل اقامة كل قبيلة منهم صحاري خالية حتى ان مساكنهم في

ذات القبيلة تكون منفردة عن بعضها على شاطئ نهر حوالي منابع الماء بحافة الغابات وكان فقراؤهم يسكنون مع حيواناتهم في حفرة يحفرونها في الارض وكانوا يضعون موانعهم في اماكن مكتومة وبعضهم يسكنون اخصاصاً مبنية بالطين الميبس في الشمس قبحة المنظر وينقشون جدران مساكنهم باللوان المختلفة ثم لما دخلت عندهم الديانة المسيحية اخذوا يخطون قرى في جرمانيا وبعد ذلك بزمن طويل اخذوا في بناء المدائن

وكانوا يتخذون ملابسهم من جلود الوحوش ومن الفاش الخشن ويخطونها بالليف وبعض الاحيان يلبسون ثياباً ضيقة عليها طراز متسع ردي وتماز النساء بلبس براقع من الكتان وبهيتة قليلة التوحش

ولم يكن تعدد الزوجات مباحاً الا للملوكهم وكان الخطاب يقوم بما يرضي ابا خطيبته واما الخطوبة فكانت تعطي الى زوجتها طقماً كاملاً من الاسلحة وهو يعطيها اثاث البيت ويعطيها ايضاً هدية يوم صباحية الزواج وكانت نساؤهم اصعب عنة وحياء بخلاف نساء الرومانيين ولما كانوا يعاقبون على خيانة الفراش اشد العقاب كان وقوع ذلك عندهم نادراً

وكانوا يثرون الضيف لان اقراء الضيوف امر ضروري للامم الخشنيين ونزاهة عند المتدينين ثم استحال ذلك الى المناخرة والمباهاة ومنشأ للفساد فكان الانسان منهم يجالس جيرانه وينادهم في الوايمة ويتجاوزون الحد في الماكل والمشرب لكثرتهم في المائدة مع الشره المفرط ومع ذلك كانوا يتذكرون في الوليمة بالامور المهمة الخاصة والعامية لكن من دون ان يبشوا حكمهم فيها خوفاً من مخامرة السكر وما اسعد نديماً قدم لهم في وقت حظههم كاساً مصنوعة من جسيمة من انهم من ملوك اعدائهم وكان كثيراً ما يقع بينهم القتال بالبربدة الناشئة من السكر وربما آل امر ذلك لتذكرهم في عداوات قديمة كانت بينهم فينسون ما بينهم من المصافاة والصلح وتقع بينهم المحاربات الداخلية

وكانوا يظنون قوتهم ونشاطهم في الملاعب الصبيانية كالعاب البهلوان

والمصارعة ومهارة الدبوك مع بعضها وغير ذلك من الشعبديات وكانت قلوبهم متعلقة بالأكثر في لعبة النصب والصدفة (ضرب من الفار) وكان اذا فبت من احدهم الدراهم باعب برقبته وبرزون بالامثال اذل العبودية وبرزوها شرقاً في اللعب وكان من يملك منهم انساناً في اللعب يستخدمه في فلاحه الاراضي مع بقاءه على حاله يكاد يكون فيها مساوياً لسيد.

وكانوا لا يعرفون المفاخرة في الجنائز وانما كانوا بكرمون المحربين بدفتهم في اراضٍ مخصصة ولا يكون اعز موتاهم دليلاً على انهم لا يهابون الموت وانما كانوا يتذكرونه مدةً طويلةً واما النساء فكانن يبيكين عليه.

فهذه هي حالة هذه الامة التي وقع بينها وبين الرومانيين المقاتلات المستمرة الى ان ظفرت بهم وخربت الامبراطورية الرومانية وكان السبب في ذلك برد اقبالهم وقحط اراضيهم ومحبتهم للسلب مع لطف قطر بلاد الرومانيين وكثرة اثمار اراضيهم الزائدة الزراعة واموالهم وفنونهم التي كانت تجذب اهل الشمال الى البلاد الجنوبية.

الفصل الثالث

في حالة المعارف منذ الفتوح وملك الملك ثيودوريق الاستروغوطي الى وقت اختلاط الرومانيين بالجرمانيين

ولما تم هولاء الجرمانيون افتتاح البلاد الرومانية جلس منهم الملك ثيودوريق الاستروغوطي على تخت مملكة ايطاليا في سنة ٤٩٨ مسيحية ومنع الغوطيين من الاختلاط مع الرومانيين في المكاتب ومن لبس ثيابهم خوفاً من ان يسري اليهم حين الرومانيين واخذ من الرومانيين الاسلحة وابقى لهم جميع الوظائف الاهلية

وقال العلامة الشهير روبرتسون المورخ الانكليزي ان هذه الطوائف المتبررة كانت مع جهلها تحقير الآداب لانهم كانوا يرون سكان الاقاليم الرومانية اهل رخاوة يهابون الحرب وحكى نقلاً عن لويتيرند انه قال اذا اردنا سب عدو ونسبته للصفات القبيحة المكروهة نقول له انت روماني فان هذا الاسم وحده يشتمل على جميع الرذائل كدناءة وجبن وبخل وفسق وفساد وكذب وغير ذلك من النوائص والعيوب ثم اوضح سبب ذلك بقوله وما ذلك الا لكون هولاء الامم المتبررين كانوا يجهلهم ينسبون فساد اخلاق الرومانيين لجهلهم الآداب وتولعهم بها حتى انهم عند استيظانهم بالاقاليم الرومانية التي فتحوها لم ياذنوا لاولادهم ان يتعلموا شيئاً من انواع المعارف والعلوم لانهم كانوا يظنون ان ذلك يكسب الانسان الخمول والدناءة وضعف القوى لانه اذا كان الانسان يتعود من صغره على الفزع من عصا المؤدب والمعلم فكيف يتاقى له ان يثبت امام مرخ اوسنان

وذكر هذا الفاضل ايضاً انه مضت مدة طويلة وهولاء الامم غارقون في التبرير والخشونة يبغضون العلوم والمعارف حتى انه لم يخرج منهم في تلك المدة مورخ فيو قابلية لتقييد حوادثهم وتسطير اخلاقهم ورسوم قوانينهم ولذلك لم يبق لهم اثار يستفيد منها المؤلفون فائدة صحيحة حتى ان المؤلف بورنديس وبولس ورنفريد وغير يغوربوس دوطورس مع انهم اقدم المؤلفين الذين كتبوا تاريخ هذه الامم واكثرهم صينياً وشهرة لم يفيدوا فائدة كافية في شان اخلاق الغوطيين والمومبارديين والفرنسيين ولا في شان قوانينهم وعوائدهم واما الشيء اليسير الغير الموفى في شان مبدأ هولاء الامم المتبررين فلم يستفد الا من مورخي اليونانيين والرومانيين

وكان ترتيب القوانين منوطاً بنفس الملك وكانت مشورة الدولة تسمى كومينه وكانت هي التي تبيح في الاوامر التي تصدر من الملك وكانت اولاً في مدينة راوية ثم اخلاطت بديوان السنث في رومية ومن ثم صار هذا الديوان

ينبغي أوامر الملك من المدينة المذكورة التي جعلها الملك دار إقامته وأبقى مدينة رومية محلاً لمشورة السنن ودار إقامة البابا

ولم تدون الشرائع في الكتب إلا في زمن الملك روثاريس سنة ٦٤٢ م فهو أول من دونها إذ أنه حل الشعب في مدينة باوبا على استحسان مجموع قوانين أعدته لإصلاح قوانين أسلافه وتكليفها وقصد بذلك الراحة الدائمة للناس وتمكين حريتهم وتأكيدهم فانتسعت هذه القوانين ووقع فيها الإصلاح في زمن خلفائه

وهذا الملك كان أربوسياً نظير ثيودوريق لكنه لم يظلم أهل الكنيسة في شيء وإنما جعل في كل أبرشية أسقفين الواحد من الكنيسة والثاني أربوسي وكذلك كان الملك ثيودوريق مع كونه أربوسي المذهب مثل قومه لم يتعرض لباقي المذاهب بل كان يميل في بعض الأحيان إلى مذهب الكنيسة وأذن للقوطيين أن يتسككوا به وكان يعامل الباباوات بالاحترام وأبقى مزايا كنائسهم وأنعم عليهم بانعامات جديدة وفي بعض الأحيان كان هو نفسه ينتخب البابا لاجل أن يمنع بيع الوظائف الدينية وكان يدافع عن اليهود وعمر بيعهم لكن عبدة الأوثان وإن كانوا لا يجبرون على تغيير عقيدتهم قد كانوا يعاقبون بالقتل على عباداتهم الوثنية ومناسكهم الدينية

وأظهر ثيودوريق الخضوع إلى انستاسيوس قيصر القسطنطينية بمكتوب حرره أنه يقول فيو اني عرفت الطريقة التي يمكن بها الحكم على الرومانيين مع العدل تحت رعايتكم وأنه لا يمكن أن يتولد بين الحكومتين أقل شقاق انتهى ثم أنه أبقى كذلك صورة القيصر المذكور على المعاملة فيما بينه القيصر في نظير ذلك على مملكة إيطاليا غير أن هذا التخليق لم تطل مدته حيث لم تخف على هذا القيصر خديعة هذا الملك الخشني السياسة

وكذلك أبقى ما كان موجوداً وقتئذ من المناصب القيصرية القديمة وأعاد ما كان فقد منها وأبقى فصل الدعاوي على ما كان عليه إلا أنه رخص

للناس ان يرفعوا دعاوتهم اليه ليكون ذلك حاملاً للنضارة على الاعناء بروية
الدعاوي وفصلها

ورغب اهل مملكتهم في الزراعة واعان على تقدمها وتكثير محصولاتها ولما
كثرت الامالي بواسطة الصلح والاطمان صارت المحصولات المعتادة لا تكفي
في مووتهم فاضطروا الى احياء الموات من الاراضي وتنشيف بطائح المياه ومع
ذلك بقيت الاراضي لا تكفي للزراع بعد ان كانت الزراعة لهما كانت تمنح الى

ولو ان فنون ابطالها تقدمت كما تقدمت الزراعة لهما كانت تمنح الى
غير ذلك من انواع العز والسعادة لكن لم نتقدم لان الرومانيين كانوا يعتقدون
ان ممارسة عمل اليد من وظائف العبيد والعتقاء وانما منظر القسطنطينية ورونقها
وفصاحة ارباب المعارف من اهلها حبب الى الملك ثيودور ريق الفنون والمعارف
فالتفت اليها ولم يخطر له ان يتعلم مبادئ الاداب بل اهتم بتعليم الناس وفتح
سراية راوية لارباب المعارف على اختلافهم وصار اصحابه ووزرائه ابرع اهل
عصرهم واجودهم قريحته ومنهم وزيره قسيودور والنصل بويسة والاسقف
ابنور يوس والمولف يورنديس الغوطي الذي الف تاريخ الغوطيين لكنه لم
يعيد المدارس القديمة التي تلاشت وكان مكتب رومية لازال مضمحلاً

وكان هذا الملك يعتني كثيراً بالمباني العمومية حتى انه لقب بحب البناء
ومعهم المدابن فرم الغوطيون الاثار الشهيرة في رومية لان الامم المنبرية لم
تهدمها ورموا اسوار المدينة ولعب بومبه واصلح هذا الملك مجاري المياه واحداث
قصوراً واسعة في مدينتي وبيرونه وباويا ووسع دار اقامة القياصرة وزخرفها
بزخارف جديدة على ما ذكرنا في الفصل الخامس من البحث الاول الذي مر
قال بعض المؤلفين يخاطب من قرأ كتابه فاعجب لسكن القياصرة حيث لم
يكفي سكن رئيس امم منبرية

ونختم الكلام هنا بان هذا الملك لم يستفد اخيراً مراده من منع الغوطيين
عن الاختلاط مع الرومانيين على ما ذكرنا فيما مر حيث ابني لهم البحرية في

الزواج الذي بواسطته اقتدت كل امة منها بالآخرى في عوائد ما وكانت احكامه تجعل الامتين متساويتين في الحقوق ايضاً

الفصل الرابع

في حالة العلوم والمعارف بعد اختلاط الجرمانيين بالرومانيين الى ان تولى الامبراطورية الملك كرلوس الاكبر

حرية الزواج التي ذكرناها والمساواة في الحقوق قد اوجبا اختلاط الجرمانيين بالرومانيين اختلاطاً تولد عنه تغيير في الاخلاق والتوانين العمومية في هذه الممالك المتسعة التي استولى عليها المتبربرون وحيث لم يكن من موضوع هذا المؤلف البحث في كيفية تقسيم الاراضي والاقطاعات ولا الكلام على الفرق الخشنية التي اختلطت مع الرومانيين في الممالك الجديدة التي اسسها المتبربرون واتحدوا الى ان صاروا فرقتين احراراً وارقاء من كل من الفريقين ولا الايضاح عن كيفية الحكومات والادارة وجمعيات الملة والخدم العسكرية فان ذلك جميعه من متعلقات التواريخ العامة فلا نذكر منها هنا الا ما كان له دخل في القضايا الادبية

ومن ذلك كيفية فصل دعاوي الذي كان يجري على رؤوس الاشهاد وقتئذ وقد كان هذا الامر قبل ما افتتح المتبربرون تلك البلاد منوطاً بمشورة العموم وقضاة الاخطاط الذين كانوا يتقلدون مناصبهم من طرق المشورة لكن بعد الفتح تغير ذلك منذ توطنت الطوائف الجرمانية في البلاد وتفرقوا فيها فصاروا هم الذين يفصلون دعاوي الرومانيين المغلوبين فكانت الكونتات والويكونتات وحكام المقامات والعشرات يعقدون في بعض الاحيان مجالس

يسمونها الجحيمات السفلى لهذا الغرض وكانت الجنايات تفحول رؤيتها الى المحاكم وتنوزع بحسب جرمها وكان في مبدأ الامر تخضّر جميع الاحرار الى المحكمة لكي يبدوا رايهم بعد ان يسموا كلام الخصمين ثم صار الكوتنة منهم لا يدعوا الى محكمة الأ خمسة او سبعة او اثني عشر فكانوا يفصلون الدعوي ويقدمونها الى الكوتنة لكي يثبت المحكم فيها وينفذ

وكان المدعي عليه هو الذي يكتب أولاً ما يثبت براءته ويقدم ذلك الى القاضي ثم يحضر البينة ثم يأتي بن محلف له انه بري ثم يمتحن بالامتحانات الشرعية وهي عدة انواع منها انهم يظلمون المدعي عليه شيئاً من شجرة سامة فان لم يضره ثبتت براءته ويسمون هذا العمل اورد بال ومنها امتحانه بالنار والماء والصليب ويسمون هذا العمل قضاء الله ومنها المقاتلة الشرعية وهي ان يتقاتل الخصمان فمن غلب فهو الحق واما الفسوس والنساء والصبيان فكان لهم امتياز بان يوكلا من يقوم مقامهم في هذه المقاتلة (وهذه المقاتلة الشرعية هي التي نشأ عنها ما يستعمله الافرنج في هذه الايام ويسمونه دويل) وهذا الامر لم يكن يعرفه اليونانيون ولا الرومانيون

واما العقوبات فكانت اما بالقتل واما بالدية او دفع غرامة ولكن العقاب بالقتل كان نادراً والغرامة كانت غرامتين الواحدة لارباب المجلس وكان يؤخذ نصفها الى بيت المال والنصف الثاني الى الكوتنة (اي المحاكم) والثانية كان ياخذها الجني عليه او عائلته اذا كان قتيلاً وقد بينت قوانين هولاء المتبربرين انواع الدية ولا سيما القانون السالي والقانون الريووبري من القتل الى السب بالكلام او بالاشارة فكانت دية الاسقف ٩٠٠ قطعة من الذهب ودية العبد ٢٦ ودية ما بينها على حسب انواع القتل وحال القتل شرفاً وخسة وقد نص القانون السالي ايضاً ان دية المتبربر تكون ضعف دية الروماني المائل له في الدرجة والرتبة ثم نسخ هذا الحكم وصارت التسوية بقانون الملك غندبود حيث ان الرومانيين كان لهم دخل في ترتيبه واما القوانين اللبردية فكان فيها دية

الذبل ٩٠٠ قطعة من الذهب مطلقاً

وكان اقدم هذه القوانين القانون السالي وهو اصعبها وافظعها رتبة اولاً
من الوكلا باللسان الجرماني واقرة الافريك السالين فسني باسمهم ثم لما اقتبل
الملك قلوويس الفرنسي الديانة المسيحية في سنة ٤٩٦م خفف منه بعض احكام
ايطابنة مع الدين المسيحي ثم اصلية بعد ذلك الملك تيري الاول وشلدبيرت
الاول وقلوتير الاول وداغوبرت الاول وكراوس الاكبر وكان يقال ان
القانون المذكور ينم عن الاناث من اراث تختم مملكة فرانسوا والجال ان هذا القانون
لا يتعرض الى شيء من ذلك واما القانون الريبوييري فكان له شبه بالقانون
السالي غير انه لم يكن مالوقاً للرومانين وهناك قانون للبرغونيين وقانون
للسيفوطيين وقانون الاستروغوطيين وقانون للبرديين وقانون للانكاسكون
وكلها قريبة الشبه من بعضها فلم تكن بالمعنى المصطلح عليه الان عند الافرنج وانما
كانت تسمى بالاهالي وخصوصاً بعقوبات الجنابات وحنظ الحيوانات الاهلية
واصلاح احوال الامم المتعمدة على قطع الطريق وايقاع احترام الاهالي والاملاك
في قلوب العساكر ومنع فساد اخلاق الناس وكان فيها اصول فقهية تميز قوانين
الجرمانيين المتبرزين من قوانين الرومانيين المتدنين وهي ثلاثة

(١) ان القوانين ذاتية لارضية يعني ان الشخص يحكم عليه بقوانين
بلادها ايما وجد

(٢) هو ما ترتب على ترخيص المتبرزين الرومانيين ان يعملوا بقوانينهم
القيصرية اذ انهم صاروا بذلك متميزين بان يتقادوا للقانون الذي يجنارونه
وصار يمكنهم ان يرتقوا الى درجة الجرمانيين الغالين وان الجرمانيين الغالين
ينبطون الى درجة الرومانيين المغلوبين قال الامر الى ان الامم المتنوعة في كل
دولة من دول الفاتحين صاروا امة واحدة بدون فرق واما قوانين القياصرة
المذكورة اعني التي كان يعمل بها الرومانيون المغلوبون فهي التي جمعها
القيصر ثاودوسيوس الثاني وبقيت معمولاً بها مدة طويلة في بلاد الغلية وايطاليا

واسبانيا حتى ان معظمها نُقل الى القوانين الكنائسية وامترج بها
(٢) هو انه كان من قواعد المتبريرين انه يجوز ابدال العقوبات
الجسائية بالغرامات المالية سواء كان الجرم كبيراً او صغيراً ثم بطلت هذه الرخصة
على التدرج

واما العلوم والفنون فقد كان الخطر عليهما عظيماً في هذه الاشارة البربرية
لولا ان الدين المسيحي وحده هو الذي تكفل بحفظ التمدن والمدافعة عنه وكانت
المنفعة كلها في مبدأ الامر للجرمانيين المنصورين ويتراعى ان المتأولين اي
الرومانيين اضعفت معارفهم التي علوها للمنصورين فتحل المنصورون بهذه
المعارف وتخلوا عن خشونتهم الاصلية من غير ان تزول عنهم فضائلهم الحربية
وصار الرومانيون ارباب خشونة واستمر فيهم الجبن وفساد الاخلاق

ولما تمسك المنصورون بالديانة المسيحية صار هذا الدين يرشدهم الى ما فيه
صلاحهم فترك المتبررون لغاتهم الاصلية واستعملوا اللسان اللاتيني لكونه
يُستعمل في العبادة ثم استعمل في الشرائع والقوانين لكن لما كانت جانب هذه
الامم المتبريرة في مبدأ امرها الى الرومانيين تصورات وآراء يجهلون بها تكلفوا
التعبير عنها بالفاظ من لغاتهم الاصلية فاخذوا ببعض كلمات تونونية ونظموها
في سلك لسانهم الا انها لم تنسبك في اعرابها مع اللسان اللاتيني فتولد من
اختلاط هذه الالسنه باللسان اللاتيني المذكور اللسان العامي المسى باللسان
الروماني ومنه تشعبت باقي اللغات الجديدة في اوروبا وبقي اللسان الجرمانى
مستعملاً في بلاد اوستراسيا وهيبترشيا السكسونية وعند اللنبرديين والعشائر
الكبيرة واما اللسان اللاتيني فبقي عند القسوس ومحافلهم ومكاتبهم وصار هذا
اللسان من ذلك الوقت في اوروبا لساناً مقدساً يتكلم به القسوس ولا يُمنع
تعليمه عن العامة وكان ذلك من ائفح وسائل التمدن

وكان قد قل العمار في هذه الامبراطورية الرومانية منذ نزول المتبريرين
بها بعد وفاة القيصر ثاودوسيموس الاكبر على ما سبقت الاشارة اليه وخلت

الأراضي عن الزراعة وتكاثرت الحيوانات الوحشية بها نظراً لتناقص الناس
وتعدت التجارة في الأماكن البعيدة فانتطعت علائق الاختلاط بين الأقاليم
والمدن والقري وتعطلت الصنائع وأضحمت على التدرج الفنون الميكانيكية
أي فنون صناعة الآلات وتناست فنون الرفاهية والزينة وجرارباب الصنائع
والحرف مدتهم وطلبوا من أصحاب الأملاك الخلائية أن ينعموا عليهم بحفظ
نفوسهم بحيث يكونون بمنزلة عبيدهم في المعيشة والخدمة

وأما الفنون العقلية التي لا يعبأ بها عند مثل هذه الأمم الفاتحة ولا ترفع لها
عند المغلوبين فقد حفظها الدين المسيحي وتتميزت تحت كنفه ونبتت محفوظة في
صدور القسوس في ذلك العصر وهم الذين جعلوا بواسطة وعظهم في الدين
وكثرة احفظهم في الجامعات مجالاً واسعاً إلى الفصاحة وعلم المنطق وصار طلبة
العلم في الديورة التي تجددت في ذلك الوقت أميين محترمين وصارت العامة
على التدرج يحترمون العلم والديانة ومن ذلك الوقت صارت كتب الدين
المسيحي كتب التمدن والتأسي

وأما الآداب الرومانية في هذه البلاد فانها كانت قد اخذت في
الاضمحلال منذ زمن القياصرة الانطونيين إلى أن حصلت ٢ حوادث كبيرة
عجلت انقراضها بالأكلية وهي

(١) انخاض القياصرة داراقامتهم في القسطنطينية فان ذلك جلب
إلى بلاد المشرق أرباب المعارف وحجزهم فيها لكي يحطوا عند القياصرة بالشرف
وعلو المنزلة ويتنكبس بعضهم من أنوار بعض

(٢) سقوط الإمبراطورية الغربية إلى الخضيض

(٣) هجوم الأمم المنبربرة الذي تفرقت به مواد العلوم وأصولها فهذه
الأسباب أفضت بالآداب اللاتينية إلى العدم بخلاف الآداب عند اليونانيين
فانها عادت يومئذ إلى مواطنها الأصاية وتفتت فيها بقوة جديدة

وكان الدين المسيحي قد أحدث لساناً جديداً لم يكن من ذي قبل وحل

ما كان بين الآداب والفنون وأوهام الرومانيين الفاسدة من الارتباطات والعلاقات القوية ومع ذلك كان الشعر المشتغل على العبادة الوثنية في أيام الدولة الثاودوسية مرتفع المنار عظيم البهجة وفي المدة التي كان فيها الشعر في بلاد اليونانيين محصوراً في قصائد هجومية قد ظهر في الرومانيين جملة من الشعراء البالغين والبلغاء الحماسيين مثل أوزون وبرودنس وبولين دونوله وقاوديانوس وسدنيوس ابوليناريوس وفورتونات وكان لم يبق من هؤلاء الشعراء على عقيدته الوثنية إلا قلوديانوس وهو كان آخر الشعراء الوثنيين وفي مدة ما كان شعراء عصره مشتغلين بإنشاء قصائد في مدح الدين المسيحي كان هي يزاول شعره أحياء ما اندرس من الأوثان القديمة إلى أن تعجب أهل ديوان هنريوس وكانوا من المسيحيين الانتباه حيث سمعوا ذكر بروزرينة المخططة والأعوان الذين أصيبوا بالصاعقة المذكور في أشعار أطيبة ونظم قصائد أخرى في مدح هنريوس وسنيليقون الذي انتقل إلى ديوان هنريوس الذي كان أهله من الأديباء أرباب الإنشاء والبيان وحتى في رومية هذه الأشعار اللاتينية الوثنية التي نظمها هذا الشاعر الذي جاء إلى رومية من الإسكندرية لأجل مضادة الأنجيل

ثم إن رجلاً من الغيليين يقال له رونايوس نوميانوس له قصيدة نظمها في شأن العود إلى وطنه ومن اطالع على حماستها يتأسف على كونها ناقصة وإما سدنيوس المار ذكره فهو مولود في بلاد الغالية أيضاً ونظم قصائد يعرض بها الناس على مجانبية الزبير الذي عم هذه الإمبراطورية ومن أعظمها قصائده التي مدح بها عدة من الفياصرة ثمانى فيها مدحهم بمحبة الوطن وضمنها الحماسة والحمية والتغليلات المخترعة

وتوجد ست قصائد حزبية تتعاقب بما يترتب على الهرم والشيخوخة من المضرة كان يظن أنها نظم كرنيانوس غالوس والواقع أنها نظم مكسيانوس الشاعر الذي بظهرائه كان في عهد الملك ثيودوريق

ومنهم برسبان النخوي الشاعر اللاتيني الذي اشتهر في عصر يوستينيانوس سنة ٥٢٧ م ويوستينوس الثاني سنة ٥٦٥ م بالانسططينية وله ثلاث قصائد ما بين انشا وترجمة كان غرضه منها التعليم وهي متعلقة بالجغرافية والموازن والمقاييس وعلم الهيئة

ومنهم قورييوس الافريقي الذي اشتهر في عصر القياصرة المذكورين ايضاً له قصيدة مدح بها يوستينوس ولولا ما اشتملت عليه من الوقائع التاريخية وعوائد دولة القسطنطينية ومناصبها لما كانت تستحق ان يحافظ عليها نظراً لدنائها

ومنهم وينانتيوس فرتوناتوس وهو فرتونات المار ذكره ولد في بلاد البندقية وصار اسقفاً على مدينة يقال لها بوابير نظم اشعاراً ذات محسنات بدعية وكلمات اغوية كان يتعلق بها كتورييوس احد الملوك المرونجية وانشا ١٢ كتاباً ايضاً فاق فيها على شعراء عصره وهي في فنون متعددة وترجم بالشعر كتاب سوليبيس سوبر المتعلق بسيرة ماري مرتين وكان شاعراً بليغاً

وفي عصر شلبريق ملك فرانس الذي تولى المملكة سنة ٥٦١ م ظهر سينزيوت الذي كان عالماً وشاعراً حاز جميع العلوم التي كانت في عصره حيث انه تخرج على ايزيدوردوسويلاه الآتي ذكره ونظم المحوادث الجوية والعجوبات اسبانيا

ثم وان يكن عصر الانطونيين الذين سبق ذكرهم يفخر بوجود المورخين مثل تاسيت وبلوتاركة الا انه مضى بعد ذلك نحو ٢ قرون قل ان وجد فيها مؤرخ لاتيني او حدث فيها شيء من الامور المهمة الا ان بعض المختصرين للتواريخ المتفاوتين في البراعة والتلقى للقياسرة او التشبيح عليهم حكوا عيوب الديوان ومصائب الامبراطورية وبعض سطوات حربية الى ان ظهر في القرن الرابع المؤلف اميان مرساين وهو يستحق ان يكون في درجة تباولة وساوسم وكان اخر المورخين الوثنيين بل خاتمة من يستحق اسم المورخ وبعده ظهر المورخون

الذين كانوا يجمعون الحوادث السنوية سنة بعد اخرى
 واول من سلك هذا المسلك السهل هو بروسبير داكينا فجيل تاريخ
 اوزيب وماري جبروم على شكل القهرست واستمر يجمع في هذين التاريخين
 حتى تغلب الملك جنسرفي على رومية سنة ٤٥٥ م وبعد ذلك برة نسج على
 منواله ايد فيوس استنف ليكا فجمع تواريخ سنوية ابتداء فيها بموت والان سنة
 ٢٧٨ م وانهاها سنة ٤٦٧ م ثم تم هذين المؤلفين ثلاثة اساقفة وهم فيكتور الافريفي
 ويوحنا البكلاري ومر بوس الاونسي وهذه الوقائع السنوية ومختصر اوتروبها
 اصل تاريخ سيلا الذي جمعه المؤلف بولس ورغريد اللباردي في القرن الثامن
 من الميلاد

ومن زمرة كتاب الوقائع السنوية فسيدور وزير ثودوربي الذي مر
 ذكره مع انه كان بارعا في كل شيء وسميت نفسه بتأليف رسالة في علم الخط
 تنازل ايضا لجمع الحوادث السنوية وألف تاريخ القوطيين لكنه ملوم من
 المبالغات وقد اختصره جرناديس ثم اخذ هذا الكتاب ابزيرور دوسوباه
 واستمر فيه حتى اكمله وتم ايضا كتابا عموميا جمعه من الوقائع السنوية
 وقد ألف راهب يقال له جلداس دودونبرتون كتابا محزنا يتعلق بخراب
 بريطانيا وقد عيب عليه بعيوب ذكر بعضهم انهم لم ياموا على مثلها المعلم بيدنا
 رئيس دير روموت الذي ألف في القرن الثامن الكتابين الاخرين وها تاريخ
 بريطانيا الكبرى ورسالة كبيرة في الاجيال الستة بل نسبوا ذلك لخالص
 باطني وحسن طوبته لكونه كان يأخذ الاخبار كقضية مسلمة من دون ان
 يبحث او يناقش فيها بل مدحوا عباراته بانها واضحة ووجيزة وانه مكث ٦٠ سنة
 لاجلها منقطعاً عن ابناؤه من الادياء

ولما افتتح الجرمانيون بلاد الغالة (فرانسا) قبل بريطانيا (بلاد الانكايز)
 كان لها ايضا مورخ مثلها يقال له غريغور بوس دوطورس وقد مر ذكره
 مولودا في مدينة كليرمونت وكانت عشيرته من ارباب ديوان السنن وخرج

منها قبلة اساقفة عظام على كنيسته ليونيزة ثم صار هو ايضاً اسقفاً على طورس سنة ٥٧٢ م وهناك الشاعر فرنونات المقدم ذكره ووصفه بكونه بضاهي اللد يسين الشهيرين امبروسوس واوغسطينوس وكانت دائرة معارفه واسعة بالنسبة الى عصره وكتب تاريخ الافرنك واعندر فيه عبارات اوضح فيها قلة معارفه في فن التاريخ وفي الحقيقة انه اثبت فيه كل ما سمعه واخذه من الاخبار من غير بحث ولا مناقشة وضمنه الامور الدينية والديوية من غير ان يكون على نسق واحد واعتمد فيه على اقوال فريجيريد وعلى ما كان يعرفه هو من وقائع عصره وبالجملة فان له الفضل على الافرنج بهذا التاريخ الذي اولاه لما عرفوا منشأ وطنهم فهو الذي ارشدهم الى السطوات الحربية التي ترتب عليها تأسيس المملكة في زمن الملك فلوديس المؤسس الحقيقي للملكة الفرنسية التي تولاها سنة ٤٨١ م وهو اول ملك تنصر من ملوك فرانسوا دخل بها الدين المسيحي على ما ذكرنا في ما تقدم واوقفهم على الانشقاق الذي افضى بها الى الانحطاط من ايام اولاد فلونير الاول الى موت غنتران سنة ٥٩٢ م وهذا المؤلف نعم انه دون تبتلوه الا انه اعلى من فريديغبر الذي زاد في تاريخ الافرنك الى سنة ٦٤١ م وسلك في هذه الزيادة مسلك غريغوريوس دو طورس المذكور من ركافة التاليف وزاد عليه فيها بيوسه الالفاظ ثم اشتغل بعده اخرون بتكميلها فوصلوا بها الى تولية كرلوس الاكبر سنة ١٧٧١ م

ثم ان مركولف الافرنجي جمع من القوانين الفقهية ما يصلح لازالة جهل الكونتات وفقهاء المرومجيين فكان تاليف هذا الفقيه تكلية وشرحاً لقوانين المنبرين

واما مهرة القرن الخامس ومشاهير احبار القرون التي بعده فكانوا من الادباء ارباب الانشا وقد كان في القرن المذكور ٣ من ارباب الدولة اقتفوا اثار قبقرن المورخ الروماني المشهور الذي سبق ذكره وبلينوس الشاب بذلوا الجهد في المراسلات الانشائية واعتمدوا بنسجها على منوال الصناعة الادبية

لشهد بعلو درجتهم في الادب اقدم الوالي سيباك الذي مر ذكره في الكلام على خراب الهياكل الوثنية في الفصل السادس من البحث الاول وكان من كبار الفناء ويحامي عن عبادة الاوثان التي كانت اشرفت وقتئذ على الزوال ولم يبق من انشا آية الا مكاتباته والثاني سديوس ابوليناريوس الذي تقدم ذكره في هذا الفصل مع الشعراء وكان فاضلاً ووالياً كالاول وله رسائل مرغوبة بين فيها اخلاق بلاد الغاية حين اغبر عليها وحالة دولة الغوطيين بمدينة طواويزة والثالث قسودور وزير الملك ثيودوريق وقد تقدم ذكره في جملة مواطن من هذا الكتاب ايضاً وله رسائل مشتملة على ١٢ مقالة ذكر فيها جميع احكام الملك ثيودوريق المذكور

وقد استنبط ايضاً من مراسلات امراء الدين اموراً نافعة للتاريخ الاهلي ومن ذلك مكاتيب القديس جبروم لمشاير عصره فانه ترك بها ما يدل على سيرته وما صدر عنه من المشاجرات الدينية ورسائله هذه بلغت ٢٧٠ رسالة وهي تذكر الافرنج برسائل سيبيك (احد الفلاسفة الرومانيين وسوف يأتي ذكره) الادبية التي ارسلها الى اوسليوس

وحيث كان علماء الدين اعيناء بهذه الرسائل فحافظوا على انشا آت علماء القسوس والاحبار التي نورثهم القفر والى الآف توجد عند الافرنج الرسائل المرغوبة التي انشاها اوتيموس اسقف قبايه وويديراسقف مدينة كهورومع ذلك فلا شيء منها يضاير رسائل البابا غريغوريوس الذي كان ذا حافظه عجيبة

ثم انه يوجد من التاريخ ايضاً بيان منصب الامبراطوريتين الشرقية والغربية وجدول بوتنجير وهذان المؤلفان كانا في عصر واحد والاول له شبه بالفتوحات وكان ظهوره في عهد ثاودوسيموس الثاني ولم يتعرض لاسماء الاشخاص واما الثاني فقد سمي جدول بوتنجير باسم مالكه لكون مولفه مجهولاً وهو عبارة عن خريطة الامبراطورية الرومانية ويظن انها الفت في سنة ٤٢٢ م

وحين جاءت الفلسفة من بلاد اليونانيين الى ايطاليا على ما اشرنا في
الذيل الثالث من البحث الاول كانت علما مستكبرا لا يجيب اكنفى التلامذة
الذين تعلموها في رومية بمجرد نشرها من دون ان يزيدوا عليها شيئا فلم يكن
لوقريس وقيرون وسنيك (اللذان مر ذكرهما) ومرك اوريل (فلاسفة
رومانيون) الا مفسرين لفلسفة ابيكوروس وافلاطون وارستطاليس وزون
(فلاسفة يونانيون)

ثم لما دخلت فلسفة افلاطون الجديدة وصل منها الى الرومانيين بعض
معارف واول من نقل هذه الفلسفة الاسكدرانية اليهم باللسان اللاتيني هو
ابوليا الافريقي غير انها كانت قليلة الرغبة في تلك البلاد وسائر بلاد المغرب
فلم يحصل لها تقدم بل استقل بفهمها قسوس الكنيسة الرومانية فنبذوا منها
ما لا يوافق الديانة المسيحية فالنامت به وصار لها بذلك قانون وحد لا تعداه
وقبل العقل احكامها

وكان اكثر هؤلاء القسوس اعناء بالتوفيق بين الفلسفة والدين المسيحي
القديس اوغستينوس وكان توقف مدة طويلة بين مذهب ارستطاليس
وافلاطون ثم ترك مذهب اللادارية وتبع فلسفة اسكدرية المنتخبة الا انه مع
براعته وجودة ذهنه لم يقدر على التبعاد بالكلية عن رأي القديس يوستينوس
والقديس اكليمندوس حيث قال ان تلك الفلسفة الشرقية هي مما اوحى به الى
موسى النبي

ثم من عهد ناودوسيوس الاكبر الى زمن ثيودوريق الاستروغوط لم
يوجد من استحق لقب فيلسوف عند الرومانيين الا رجل واحد وهو الشاعر
قلوديانوس مايرتوس الوثني وقد مر ذكره وكان خصما لفوستوس احد
الفلاسفة الذي كان لا يقول الا بالمادة فحجة قلوديانوس وظفر به

وكان اعظم الفلاسفة في قداماء اللاتينيين واخرهم احد الرومانيين الذين
ايدوا حكومة فاتحي ايطاليا المتبرزين وجعلوها عظيمة المقدار رفيعة المنار وهي

رجل يقال له انفوس منلموس طوركاتوس بوليسيوس ويقال له أيضاً بوبس
 او بوبسة وقد سبق ذكره تخرج في الفلسفة الافلاطونية بمكتب اثينا ثم اخذ في
 تأييد فلسفة ارستطاليس وكانت مقبولة منذ مدة عند حجة الدين المسيحي
 وترجم علم حساب نوقافوس وهندسة افليدس وعدة رسائل لارشبيدس (١)
 وافلاطون ولاسبا رسائل ارسطو وله عدة شروح على فلسفة اسناغبريس استعمالها
 الناس وتداولوها في مكاتب الاجيال المتوسطة من وقت تأليفها وهذه الشروح
 فيها وهو في السجبن ومن طالها في اية جهة من الجهات حياها على الهدى
 والاستقامة والعيشة الطيبة وهي على منوال المخاطبات وكان هذا الفيلسوف من
 ارباب المشورة وتولى القنصلية مرتين وكان صاحب سر الملك ثيودور بن
 الاكبر ثم قتله هذا الملك لامر انهم به

ومن النحاة علماء اللغة اللاتينية مقروب اليوناني كان صاحباً عند
 ثاودوسيوس وهنريوس وله ثلاثة مؤلفات احدها يقال له ساترنال وهو في
 تركيبه واسلوبه ككتايف اولوجيل المسي نومي انيك يشتمل على مخاطبات
 يتحادث بها العلماء على المائدة في مسائل شتى ادبية وتاريخية وطبيعية وهو ان
 كان عظيم الموضوع الا ان عباراته ليست متناسقة على نظر واحد بل هي
 خالية من الطلاقة والانسياب والثاني تعبير رويته راها اسقيون واعظم هذا
 الكتاب الذي هو من ملح اداب الفلسفة في محفوظا اللان والثالث الفة في
 الفرق بين لغتي اليونانيين واللاتينيين وما بينهما من المناسبة ولم يبق منه الى
 الآن الا قطعة

ومن النحاة ايضاً سروبيوس وهو اشهر الذين شرحوا كتاب ورجيل من
 القدماء وهو مقروب المذكور من رجال القرن الخامس وله رسائل عديدة في

(١) ارشبيدس المذكور مهندس شهير من مدينة سيراقوسة احدى بلاد نابلي قتله
 احد الجنود الذين كانوا محاصرين هذه المدينة في سنة ١٢٨م لكونه لم يجاوبه على خطا يواذ
 كان مدمم الاثغال باختراع الآلات الحربية وصنمها للذب عن تلك المدينة

النحو ورسالة في العروض

ومنهم أيضاً قسيودور وزير ثيودوريق وقد تقدم ذكره له كتاب في علم
النحو على ما سبقت الإشارة إليه نعمة لا يساوي رغبة الناس فيه وكتاب في علم
النحو لوجوده الآن عند الافرنج ورسالة تتعلق بالفنون السبعة العقلية وهي
النحو والبيان والمنطق والحساب والهندسة والهيئة والموسيقى فأكثر من استنساخ
هذه الرسالة العالم الثوبين وسوف يأتي ذكره لتستعمل في المكاتب التي انشأها
كرلوس الأكبر كما يعلم ذلك من الفصل التالي وهي لم تنزل باقية الى الآن
ومنهم أيضاً برسقيان القيساري ألف رسالة في اجزاء الكلام الثانية وهي في
الحقيقة اكل ما ادركه الافرنج من كتب النحو القديمة واعظم مولفاته
ومنهم الاستقف ابزيدورد وسويله الذي ذكر في ما سلف ايضاً وله كتاب
يسمى كتاب الاصول ثخن الجزئين الاولين منه بعلي النحو والبيان وهو اخر
المشاهير من قدماء النحويين

وفي عصر هذا الاستقف كانت العلوم آخذة في الاضمحلال وكان اهل
البراعة يرون ان فيهم في احياها وتجديد ما اندرس منها ولكن كان هذا
الاضمحلال يتزايد بالتدرج حتى عم معظم المعارف البشرية ومضت الامم
السالفون ومحييت اثارهم التي كانوا ابقوها الى خلفائهم وذهبت بذهاب التمدن
غير انه بقي بعض بقايا لم يلحقها ذلك مع بعض قواعد تدنية لبني عليها ثانياً
فكانت هذه البقايا الواهية واسطة للقرون المستقبلية في احياء التمدن كما يتضح ما
يأتي كيف انهم اهتموا في انقاذ ذواتهم من الخشونة والتبرير

وذلك انه كان لم يزل في بلاد الرومانيين وقت الاغارة الكبرى فنون
ومكاتب وكتب ومباني شهيرة من الآثار القديمة فلما تخربت بلاد المغرب لم
يبق من هذه النفائس الا بعض بقايا قليلة حتى ان القسطنطينية كرسى القيصرية
الشرقية التي كانت تفتخر بان سلطنة رومية تبني فيها الى الابد لم يمكنها ان تحفظ
هذا الميراث العظيم لان المكاتب العمومية التي زادها قسطنطين وخرطيانوس

واغرثيانوس ووقفنا عليها اوقافاً ضعفت حمايتها في ايام الملوك المتبربرين وقل
الطلبة بها حيث كان الفقر وتبدد الشمل واخطار الاسفار الطويلة كل ذلك
يمنع الطلبة عن الذهاب اليها فانقطعت حينئذ الدروس من بعض تلك المكاتب
وفي بعضها ضعفت حتى كادت تُنسى

واما مكاتب اسبانيا وبريتانيا فانهما لم تنجح اصلاً وكذلك قرطاجنة بعد
ان كانت منبع الاداب الافريقية تسلطت فيها الفلسفة السكولاستيكية اي
المدارسية كما تغلب عليها الونداليون وفي سنة ٢٦٨ م منع بعض الجامع الدينية
ان يقرأ الاكبروس فيها كتب الاداب البشرية ومن المحقق ان هذه المدينة لما
خربها المسلمون لم يلحق الاداب ضرر من ذلك

اما بلاد الغالية (اي فرانساً) التي قاسمت افريقية في فخر الاداب التي
نشأت بها من اضمحلال الاداب اللاتينية كان فيها عدد وافر من المكاتب
الشهيرة لكن لم يبق منها بعد الامبراطورية الرومانية الا مكتب ديانة والظاهر
ان نهاية مدته كانت يوم الذي منع المجمع المذكور تعلم الاداب البشرية في
مكتب رومية الذي استمر الى ايامه ولم يصل الى القرن الثامن من الميلاد

وقد ذكرنا في الفصل السادس من البحث الاول المتقدم ما اصاب
المكاتب في القبطية الشرقية فان مكتب اثينا الجديد امر بغلقه يوستنيانوس
الاول ولم يبق هناك الا مكاتب الفقه والنحو واما مكتب اوكتوغونة الذي كان
احدته القيصر قسطنطين في القسطنطينية لم يمكنه ان يقوم بجبر الخلال الذي
لحق بالعلوم من ابطال مكتب اثينا المذكور وكذلك مكاتب اسكندرية
وانطاكية وبيروت وقيسارية فان ابوابها اُغلت منذ رؤيتها للبارق الاسلام ولم
يبق هناك الا بعض معارف اتفح بها المسلمون من العلوم اليونانية التي حظيت
بعد ذلك بالقبول عندهم

واما نقل العلوم بطريق المشافهة والرواية فانه اضمحل ايضاً وكاد ينعدم
بالكلية في كل الجهات ولو بقيت كتب القدماء ربما كان يعود لهما كان عليه

ولكن دم الشرق والغرب خطب لم يسبق نظيره وذلك ان نفائس الآداب
 اكلتها النيران وكان ذلك في مدة الاغارة الشديدة وتحريق المداين الذي انعدم
 به كثير من نسخ المؤلفات اليونانية واللاتينية لانه كما فجا بأفسططينية خطب
 اعلم منها مكتبة اوكتوغونة المذكورة واكل ذلك لاون اللوزرياني بايقاده
 المحرقة التي اكلت ما بقي من الكتب في سنة ٧٢٠م واصاب مكتب الاسكندرية
 الذي كان اسوأ حالاً من اوكتوغونة حيث احرقه اولاً (على ما قاله بعض المؤلفين
 وانكره البعض الاخر) يوليوس قيصر الذي تولى المملكة الرومانية سنة ٤٧ ق م
 ثم نال ثانياً نصيبه لما امر ثاودوسيوس بتخريب الهياكل الوثنية ثم اباد العرب
 ما بقي فيه ايضاً وما دم مكاتب الشام من يزيد بن عبد الملك الاموي بعد
 الذي كان اصحابها قبلاً من ملوك العجم وما فعله العرب ببلاد القيروان باقرقية
 من الخراب الواسع الذي بقيت العلوم النفيسة مدفونة بسببه تحت ردم
 قرطاجنة وبونة وتغازه كذلك وقع ببلاد المغرب ايضاً فان الاقطار التي تغلب
 عليها الجرمانيون نعم ان مكاتب مدنها لم تنعدم دفعة واحدة وانما تشتت ما فيها
 من الكتب ولزيادة الجهل في تلك الاعصار لم يقدر احد على اعادتها كما
 كانت وكان في هيكل ابولون بلاتين بمدينة رومية كتب آداب نفيسة لم تزل
 من عهد اوغسطوس قيصر الى ان احترقت في اخر القرن السادس واتهم
 البابا غريغوريوس بذلك فقيل انه هو الذي اضاع هذه الودبعة التي جعلها
 العالم وارون وقدم ذكره في اخر الفصل السادس من البحث الاول المتقدم
 في حرز اله الشعر عندهم واستودعه اياها

ولكن كان هناك بعض محلات لم يلحقها التلف وهي مكاتب الرهبان
 فقامت من مبدأ الامر بواسطة الآداب الدينية مقام المكاتب القديمة حيث
 انها ورثت عنها ما كان يقرأ فيها ومع ان القانون يومئذ لم يلزم الرهبان بقراءة
 الكتب المقدسة وكتب آباء الكنيسة لكن بطالهم في الديورة عادت بالنفع
 على الآداب فكان يتعلم في كثير منها الفنون السبعة التي كانت تشمل جميع اصول

العلوم وكان جميعها لا يخلو عن مولفات اباء الكنيسة ليقرأها الرهبان وصاروا يقرأون ايضاً مولفات الاداب البشرية التي كثيراً ما ذكرها الآباء المذكورون وكان امهر الرهبان الملقب بعالم الآثار القديمة يتكفل بحفظ الكتب ونسخها ولم يكن علم الخط وقتئذ مقتصراً على تحسين الكتابة وانقاذها بل يتضمن ايضاً ما بوضع على حواشي النسخ المكتوبة باليد من النقش والتصوير على ما سبقت الاشارة الى ذلك وكانوا في تلك الاعصر يروثه اعظم معارف الراهب الاديب وكان كثير الاستعمال

وذكر بعضهم ان البعض من النساخين الجهالة كانوا يمسحون من ورق الغزال اشعار ورجل وخطب فيقرون بمخلاً منهم ان يشتموا رفاقاً يبدأ يكتبوا فيه بعض الصلوات وغيرها كما ان البعض من الرهبان كان يفعل عكس ذلك فلما يأمره الرئيس بنسخ اشياء يعينها له من الامور الدينية كالمواعظ وغيرها كان يغش رتبته كونه لا معرفة له بالاداب وينقل من الكتب القديمة ما يستحسنه من الاشعار والاداب النصحية

وكانت هذه الكتب جميعها دينية وديبوية مختلطة ببعضها من غير تمييز بينها في مكانب الدبورة وهي تحت رعاية الدين وحمايته الى ان اخرجت عند احياء العلوم والمعارف لكن قد اندرس منها عدة عظيمة بتوالي الازمنة وما بقي كذلك اشرف على التلف فلم يبق منها على رونقها الا القليل قال بعض المؤلفين ما اعظم هذه الخسارة لولائه بقي هناك ما يبهرها كاهرام مضر وهيكمل البرشيون وزهرة ميد يسيس ونحو ذلك

فهذه هي حالة العلوم والفنون والاداب الى سنة ٧٧١م عندما تولى فرانسوا كراوس مانوس ابي الاكبر الآتي ذكره وهو اول من ليس التاج الامبراطوري ايضاً بعد الفياصرة الرومانيين القدماء

الفصل الخامس

في حالة العلوم والمعارف منذ تولية شرلمانيا يعني كرلوس الاكبر
الامبراطورية الرومانية الى حين وفاته وبهذه التولية
يبتدي المورخون بالفصل الثاني من القسم
الثاني من التاريخ العمومي للمسي
بالقرون الوسطى

هذا القيصر الروماني الجديد هو ابن بيبيف لبريف اي القيصر اول
ملوك الدولة الكارولنجية على فرانسوا وتعتبره الكنيسة الرومانية قديساً وبراءة
الفرنساويون اعظم ملوكهم وبعده الالمانيون ابن وطنهم والاباطليون امبراطورهم
لان البابا لان سماه امبراطور الرومانيين عندما كان في رومية وهو في الكنيسة
يوم عيد الميلاد سنة ٨٠٠ م وقد كان مشغولاً في الصلاة فاخذ البابا المذكور
تاجاً من الذهب ووضعته على راسه وقال اللهم ادم وانصر شرلمانيا قيصر
الرومانيين (١)

(١) هذا التاج اول تاج لبسة ملوك اوروبا بعد القياصرة الرومانيين وتلاه تاج المملكة
الانكليزية في سنة ٨٢٧ ثم تاج المانيا وفرانسا سنة ٨٤٢ ثم التاج اللومبردي سنة ٨٥٢ ثم
التاج اليرغوندي سنة ٨٨٨ ثم الجرجي والاسباني والبولوني سنة ١٠٠٠ ثم الدانيماركي
والاسوجي سنة ١٠١٥ ثم النرويجي سنة ١٠٢٢ ثم السبيلي سنة ١١٢٠ ثم البوهيمي وتاج قبرس
واورشليم والتاج البورنغالي سنة ١١٢٩ ثم البروسيا في سنة ١٧٠١ والياموتي سنة ١٧٢٠
والروسي سنة ١٧٢١ والتاج السبيلي الجديد سنة ١٧٣٩ والنساي والباقاري سنة ١٨٠٤
والورنبرجي سنة ١٨٠٥ والسكوتي سنة ١٨٠٦ ثم المانوفري سنة ١٨١٤ والهولاندي سنة ١٨١٥
والبلجيكي سنة ١٨٣١ واليوناني سنة ١٨٢٢ والاباطالياني سنة ١٨٦١ والالمانى سنة ١٨٧١ م

وكان كرلوس المشار اليه اعظم الملوك الذين ظهوروا لجد ذلك الوقت من سائر ملوك فاتحي هذه البلاد من الجرمانيين و به ارتقت فرانس الى اعلا درجات الفخر والعز والكمال الذي لم تنله مرة اخرى بعد ذلك الا في مدة حكم نابوليون الاول مدّة قليلة من الزمن وشهرته العظيمة اوجبت الملوك المهابة البعيدة عن ملكه ان تودّ معاهدته حتى ان اشجع الخلفاء الاسلاميين الذي هو هرون الرشيد العباسي احب ان يبقى معه على المعاهدة فهاداه بمفتاح القبر المقدس وكتب اليه ان يعتبر هذا القبر من جملة حكومته وكان من جملة الهدية فيل تعجب منه الافرنج وساعة كبيرة دقاقة مصنوعة مع غاية الاتقان تعرف منها الاوقات بواسطة رنين كرات تساقط على النعاقب في اثناء من الفجاس وفيها ١٢ تمثالاً على هيئة فرسان لكل واحد باب يفتح ويغلق عند تمام الرنة وهي اول ما دخل فرانس من هذا النوع ومع الهدية ايضاً قرود من بلاد بنغالة وانواع عطريات من بلاد العرب حكى بعض المؤرخين ان عطاء الفرنسيين تعجبوا من انواع الاقشة التي كانت بجملة الهدية وظنوها من صناعة السمرواوى وافق الملك ارادتهم لكانوا خربوا الساعة ايضاً لكي يفحصوا عن الحركة الشيطانية التي زعموا بانها هي التي تدبرها

ومنذ تولى هذا الملك نخت الملكة الفرنسية شرع في ترتيب قوانينه الاهلية والاكاديمية والادبية فانشأ كثيراً من القوانين والاحكام المشهورة عندهم باسم كينولير وكان تاليفها بحضور جمعيات الملة وكان يدبر آراء هذه الجمعيات بنفسه ونصت رياسته ويدعو الاحرار المسلمين اريمانيين للجلوس بجانب الاشراف والفقوس وكان اغلب قوانينه في الاحكام الدينية وتعيين الجرائم والخراج والخدم العسكرية وعقوبات مرتكبي الجرائم والذنوب وكان اغلب الفصاص في مادة العقوبات ربما عوض بالدرهم واما طريقة فحص الدعاوي بالامتحانات الشرعية والحكم المسنى قضاء الله فبقيا في هذه القوانين على ما كانا عليه اولاً ولم يتعرض هذا الامبراطور لنسخها من احكام

الجنايات بل حكم بالسجن والنفي على من امتنع ان يكفر جنائته ببذل مقدار معين من الاموال ثم صارت الدئنة من الامور الواجبة ايضاً لكنه جدد نوعاً اخر من الحكم ساهم الرسل السلطانية فكانوا يرون بالاقاليم في كل ٢ اشهر ليقبوا العدل عوضاً عنه والقصد من ترتيب هؤلاء المفتشين كان لكي يتحقق بواسطتهم ان كانت نوابه مستمرين على القيام بواجباتهم ام لا

وكان من جملة تلك الامتحانات المذكورة الحكم الذي يقال له حكم الصليب . وكيفيةه تُعرف من صورة دعوى عملت بحضرة هذا الامبراطور منها يتبين كيف كان تدبير النضايا والاحكام الشرعية في تلك الاعصر بل وفي زمن هذا الملك العظيم وذلك انه في سنة ٧٧٥م حصلت منازعة بين اسقف مدينة باريس وبين القديس ديبس في شأن دير صغير يدعي كل منها انه ملكه ومع ان كلا من الخصمين اتى بوثاينة التي تشهد له وتثبت دعواه فلم يلتفت الى ذلك بل احيلت دعواهما الى حكم الصليب فقدم كل من المتخاصمين نائباً ليوقف هذان النائبان امام الصليب الذي في محراب الكنيسة واذرعتها مدودة فكل من تعب منها اولاً وترك الهبته التي هو عليها ضاع حتى موكله وقد اتفق ان نائب الاسقف كان ضعيفاً عن نائب القديس ديبس فثبت الحق للقديس المذكور

وكذلك لما كانت من الامور المشككة عندهم وقتئذ معرفة ارث اولاد الرجل الذي يموت في حياة ابيه من مخلفات جدهم المذكور هل يكون كاولاد الصلب يعني يرثون مثل اعمامهم سواء ام لا فقد وقع لهذا الامبراطور انه عندما انحط رأي الجمهور في المشورة على تفويض هذا الامر للقاضي استحسن هو ان يحكم في هذه القضية بالحاربة بين شخصين نائبين عن كل من الفريقين فاتفق ان شخصاً كان يجارب عن اولاد رجل ميت من هذا القبيل اتصر على الثاني فتحكم من ذلك الوقت ان الحفدة يقاسمون اعمامهم في تركه جدهم غير ان هذا الامبراطور قد بذل جهده في حياة الاداب وقد ارشده

الدين المسيحي الى الطريق التي ينبغي ان يسلكها عظماء الرجال وكذلك جميع الرجال الذين اشتهروا في ذلك العصر بولفاتهم ابتداء في تلك المؤلفات وانهمها في الكنائس والديورة ثم جمع الملك ما كان متفرقا من بقايا المدن القديمة ليوفق بينه وبين المدن الجديد وكما حى الاداب مارسها بنفسه واراد ان اولاده ذكورا واناثا ينشأون على تعلم الآداب من غير ان يهمل في تربية الذكور التربية العسكرية وفي تربية الاناث التربية المنزلية المختصة بالنساء فلولا هذا الامبراطور لم تخرج اوروبا من ظلام الجهول

ولما ذهب الى ما وراء جبال الالب ورأى بايطاليا اثاراً عظيمة من بقايا المدن الروماني جلب منها الى فرانس عدة من معالي النخو والحساب فعلموا الاهالي مبادي العلوم وجعلوهم مستعدين الى ما هو اعظم وكان من جملة هؤلاء المعلمين رجلان يقال لاحدهما بطرس دوبينه والثاني القوين دويورك المحبر الراهب الانكليزي الذي مر ذكره في الفصل المتقدم ولهذا المعلمان الفضل بكونهما علما هذا الملك مبادي العلوم مع انه كان وقتئذ ابن ٢٢ سنة ولا يعرف القراءة كما كان كذلك ثيودور ريق الاكبر الاستر و غوطي اول مارك ايطا ليا من البجرمانيين الذي مر ذكره وقد مكث مدة عمره لا يعرف يكتب اسمه اما هذا الملك الافرنجي فكان اكثر تجلداً وصبراً من ذلك الغوطي فانه قد بذل همته لكي يهود صوته النودسكي المزجج في الهجاء على قراءة المقاطع اللاتينية واراد ان يتعلم الكتابة ايضاً لكنه لم ينجح في ذلك لان يده كانت يابسة من كثرة استعمال السلاح وتعلم الاجرومية على بطرس دوبينه المذكور معلم مكتب باديا وتعلم اللسان اللاتيني كلسانه الاصلي وقال اخرون انه لم يكن يعرف الا اللسان اليوناني وتعلم مبادي البيان والمنطق واللاهوت وقواعد دوران الافلاك وكل ما يتعلق بالاجرام السماوية من القديس القوين دويورك المتقدم ذكره الذي بعد ان كان شامساً من الانكلسكسون صار مشيراً في المقاصد العظيمة عند هذا الامبراطور

وكان هذا القديس متعلماً في مكتب بورك الذي قاسم مكتب كنزبري في المعارف التي نقلها الى انكلترا تلاميذ القديس اوغسطينوس وتخرج على ايغير الذي كان مطراناً وملكاً وورث بواسطة ذلك معارف بيذا المحترم واقامه ايغير المذكور على مكتبه وكان يأتي للاستفادة من دروس اهل فرانس وجرمانيا فضلاً عن اهل جزائر بريطانيا وكان يعتقد في نفسه انه وجد على الارض ليوسع بهامه دائرة الديانة المسيحية وكان اجتماعه مع بطرس دوبيزه في مدينة بارما او باديا في سنة ٧٨٠ م فلما ذهب شربانيا الى رومية لاجل بعض مقاصده ترجاه ان يصحبه ولما جاء من بلاد بريطانيا الكبرى الى بلاد الغالية (فرانسا) لم يات وحده بل نزل معه على سواحل فرانس عدة تلامذة من مكتب بورك ويمكن ان يعد من جاء معه دونغال المخلوتي الذي اُبط بعد القوين ببيان الحوادث السماوية الكبيرة والاختبار باوقاتهما في ديوان الملك وورجيل الارلندي لانه كان يفوق اهل عصره في علم الفلك (التنجيم) واكليمنديوس الارلندي الذي اعاد الى ايطاليا المعارف التي كانت اخذتها منها فرانس ولدراة الذي اخذ كرسى اسقفية مدينة ايون واشتغل فيها بنشر الآداب وتيودلف الذي انعم عليه كرلوس الاكبر باسقفية اورليان وورجيل الذي اتخذه ايضاً باسقفية ساربورغ فزال ما انتشر ثانياً في بلاد كرنثيا من ظلمة عبادة الاوثان

وكان كرلوس الاكبر يكتفي الذين جاءوا الى فرانس بالعلوم والمعارف بما ياتي من التشرقيات والاموال بل كان ينعم على كثيرين من علماء انكلترا وايطاليا وعلى بولس ورنفريد المورخ الذي كان خارجاً عن اطاعته وحكم عليه القضاة بقطع عيونه وقطع يديه فقال الملك اذا فعلنا ذلك من اين نوجد يداً مثل يده اكية في كتابة التاريخ ثم انعم عليه. فاذا كان هنا فعلة مع ورنفريد الذي كان يعصاه فبالك بالاجانب الذين تركوا اوطانهم رغبة في مصاحبتهم فلا عجب بكونهم كافاً القوين دوبورك على معارفه باعظم اقطاعات المملكة وولاه

رياسة عدة من الدبورة اما ديبورك المذكور فانه اوصى قبل موته بأرثوته كلها
لاعلم تلامذته

فهذه الشريقات التي حظي بها دولاء الاجانب من هذا الملك كانت
موشرة في ايقاظ الفرنك الى التولع بالاداب وترغيبهم فيها اكثر من تعليمهم
دروسهم ولا سيما الذين كانت رتبهم تقتضي مصاحبة الملك كزوج برته وعاشق
ايما (ولعل احدهما يقال له انجليبرت والثاني يقال له ايجنهارد وهو المورخ الذي
كتب مناقب كرلوس وتاريخه وسوف يأتي ذكرهما) اللذين سمتهما معارفهما من
المواخنة على خرافاتهما المتعلفة بامور العشي اخيراً آل امر زوج برته بان ذهب
الى دير القديس ونديل وعاشق ايما الى دير القديس ركوير وكانت معرفة
احدهما في الامور السياسية اكثر من معرفته بصناعة الانشا واذك اظهر في
بعض انشا آتو محبته للشعر فوق قوته فيه واما الاخر فكان افسح اهل عصره

ولا يدري هل كرلوس الاكبر او غيره الذي خطر بباله ان يجمع فروع
العلوم على اختلاف انواعها في دائرة واحدة ليحل فيها الانتماش والنشاط وانما
هذه الفكرة التي كان بها فخر اول الدولة اللاجيدية بظهوراتها كانت قائمة ايضاً
بجبهة العلماء التي حدثت تحت حماية ملك الفرنج وكان اربابها جميع المشاهير
من ادباء ذلك العصر كما يوخد من الاسماء الرمزية التي كانت بطلانها ادباء
السراية على بعضهم ففي مراسلاتهم واشعارهم غير هذا الملك اسمه المتبربر الذي
هو كرل وسمي نفسه داود لانه كان شهيراً بالسلطات الحربية والاغاني الشعرية
وكنوا عن الاميرة روترودة باسم دلبة وعن احبار الرهبان مثل القوين
وانجليبرت وتيوداف وركولف وارنون ووزون وفردينيچير . بالبينوس
واوميروس وندار ودمتياس واكيلا وكنديد ونغنييل وقد كتب القوين في
سنة ٧٩٦م الى اركولف انا كلاب المحروم من اولاده فان دمتياس في سكس
واوميروس في ايطاليا وكنديد في بريطانيا ومرتين في دير القديس جوس
وابس عندي خبر محقق عن ميروس الذي مرض في دير ماري مرتين . قال

بعض المؤلفين يقال ان كرلوس الاكبر هو الذي احدث مجمع العلماء او
مكتب باريس والحال ان هذا المجمع هو اول اختراعات الملوك تشرف
بدخاوه تحت حماية هذا الملك الذي لهلمو وديانتو اراد ان يجعل في كل كنيسة
وكل دير مكتبة لان مواضع التعليم القديمة كان قد تلاشى اغلبها بالكآبة وكان
السبب في هذه الملائشة هو ان كرلوس مرتيل الذي حكم فرانسبا بعد موت
تيري الرابع من ملوك الدولة المرونجية سنة ٧٢٧م (ومعنى مرتيل المطرقة)
جرد الدبورة دون غيرها من الاملاك وقرقها على العساكر فتلاشى بذلك التعليم
واضمحلت العلوم وفضلاً عن انقطاع التعليم بالمكاتب ضاع مقدار عظيم من
ودائع المعارف في تلك الغارة التي كانت مشومة على التمدن حيث تخربت
المكاتب وبنية الكتب تعطى احياء الاداب حتى انه في بعض الدبورة كدير
القدس وندريل صار محل التعليم مأوى لكلاب الصيد المعدة لحظوظ الحربيين
الذين تغلبوا على الدبورة وبعد ان كان النبربر يفتي ابواب الدبورة ويخشي
منازل الفسوس كسرتلك الابواب وظهر منه انه يتغلب على جميع الصعوبات
ولذلك بعد ان نظم القوين التعليم الذي كان في الدبورة ببلاد فرانسبا
وانشا كثيراً من المكاتب العمومية التي كان اعظمها مكتب السراية الذي علم
فيه القوين ذاته اولاد الملوك واولاد الاعيان الاقسام السبعة من الفنون العقلية
ثم قام مكانه اكليندوس الارلندي وكان في ذلك الوقت هيرياني اخر مشغلاً
بهمك الوظيفة في سراية باديا والظاهر ان الترتيب الاصلي كان منحصراً في هذين
المكتبين اللذين كانا معدين لتعليم العموم وضع حينئذ شرلمانيا القانون المشهور
الذي يُعتبر بانه الاساس لاصلاح اداب القرن الثامن وهذه صورته
قد وقعت المفاوضات بيننا وبين اصحابنا فرأينا ان المصلحة تقتضي بان
الكنائس الاسقفية والدبورة التي هي تحت نظارتنا تبذل الجهد في تعليم الاداب
ليتعام فيها كل من وفقه الله تعالى للتعليم على حسب طاقته فيجب على كل من
اراد ان يكسب رضا مولاهُ بساوكه سبل الاستقامة مدة حياته وان برضيه ايضاً

بكونه لا يهمل في شيء مما تكون به استقامة لسانه وقد اطلعنا على مراسلات عدة ديورة فوجدناها مستقيمة المعنى لكنها بايسة العبارة فخشينا ان يترتب على قلة المعرفة بصناعة الكتابة ان لا يكون في الناس معرفة كافية في فهم الكتب المقدسة فكان ذلك موجبا لان نشير عليكم بانكم زيادة على عدم الاهمال في تعلم الاداب تجهدون في طلبها غاية الاجتهاد حتى يتيسر لكم التجرد في فهم معاني الكتب المقدسة المذكورة فعلمكم ان نتخبوا لذلك من كان جامعاً بين الرغبة والفتنة في التعلم ومتولعاً بان يعلم غيره اذا تعلم اذ بذلك تستخفون عندنا المحظرة والقبول

ثم بعد ان ارسلت من الجمعية العمومية هذه الخلاصة الى المطارنة وروساء الديورة الكبار بامر يتضمن انهم يرسلون منها نسخاً الى جميع الاساقفة والديورة بخوسنتين ظهر قانون اخر باحداث مكاتب في جميع الجهات لكي يتعلم فيها المبتدئون القراءة والترتيل في الكنائس والحساب والنحو وامر فيو الملك امراً قطعياً وكان ترتيبه في مدينة اكسيلا شيبلا وامر ايضاً ان يعطى للصبيان كتب دينية صحيحة مضبوطة مجهزة ولهذا الغرض امر بقايف مجموع في المواعظ الدينية ولما اطلع عليه وراى ما فيه من العبارات السلسة الرائقة والمعاني المستقيمة فرح فرحاً عظيماً حيث زال من ملكته ما كان من اختلال المعاني وبيس العبارات ومخالفة صناعة النحو وكان مولف هذا المجموع رجل يقال له بولس دياكروم ارسل الى جميع الكنائس

وكذلك ابن شلمان الذي كان ملكاً على اكتبنا بذل في مساعدة ابيه المهمة الزائدة على مقاصده وجلب الى الاقاليم الجنوبية عدة ممن يعلم القراءة والترتيل و علماء لتعليم العلوم الدينية والديوية وحصل له السرور فيما بعد بتعليم اولاده تحت ملاحظة الفنون العقلية والفوائين الالهية

وقد وافقة ايضاً على مقاصده كثيرون من الاساقفة منهم ليدرادة مطران مدينة ليون الذي تقدم ذكره فانه انشا في هذه المدينة مكاتب لتعليم الترتيل

ورغب الناس في علم الخط ومنهم تيودلف اسقف اورليان فانه بذل جهده في
 نجاح المكاتب الاربعة الكبيرة التي في اسقفية احداهما سورلوار في مدينة فلوري
 والثاني في دير القديس اتيان والاثنان الاخران بقرب كنيسة القديس كروا
 باورليان والقديس ليغرد دومون وارسل فانونا الى نصارى ابرشية في
 سنة ٧٩٧م در نصه ٤٤٤ يجب على الفسوس ان يتخذوا مكاتب في جميع النصبات
 والفري واذا جاء اليهم احد من المسيحيين ايا ما كان يريد تعليم ولده القراءة
 فلا بردونه بل يبادرون لقبول ولده وتعليمه حسبما تقتضيه المحبة الاخوية وينبغي
 لهم ان لا ينسوا ما هو مقرر من ان المتعلم يحصل له نور كنور النجوم في السماء
 واما نور من يعلم الناس العدل والانصاف فهو كنور الكواكب في العالم فيجب
 عليهم حينئذ ان يعلموا الاولاد ولا يطالبوا منهم مكافاة على التعليم ولا يقبلوا منهم
 شيئاً الا اذا كانت على اسبيل الهدية من اهلهم بالطوع والاختيار شكراً لهم على
 صنيعهم انتهى

وكذلك اعنى باقي الاساقفة في شبان اسقفياتهم وشجع اساقفة يانسة
 فانه بين للفسوس واجباتهم واورصاهم من جملة ذلك على الصلاة والتعليم ليحكمهم
 ان يكتبوا معارف كافية ينشرونها بين الناس وان يدعو الاهالي الى ارسال
 اولادهم الى مكتب الدير او مكتب كنيسة الخوري ليتدبروا فيه الدين والعقائد
 بلغتهم الاصيلة اذا لم يرسلهم اهلهم من تلقاء انفسهم وكذلك كان احبار بلاد
 سلتيكه واكتينا مهمتين كذا الاهتمام في تعليم الدين للاهالي حيث امروا الاساقفة
 ان يترجموا باللسان الروماني والتوتوني اي الجرمانى كتباً تشتمل على العقائد
 الدينية والاداب الانجيلية

ويستبين من ذلك ان رعايا كرلوس كانوا يتكلمون بلسانين احدهما
 الجرمانى وهو لسان الامة المحاكمة والثاني اللسان الروماني وهو لسان الامة
 المتمدنة وكان قصد كرلوس المذكور ان ينشر اللسان التوتوني في اقاليمه لكنه
 تخفى ان ذلك بوخر التمدن ولذلك لم تكمل الجرومية التودسكية اي الجرمانية

التي كان شرع فيها بنفسه وكان يقوي اللسان الروماني اللسان اللاتيني الذي هو لسان القسوس وكان سبب دوامه واسطتين عظيمتين وهما التعليم والتبشير ولما شرع كرلوس في احياء الاداب كانت دبورة الانكلسكسون قد شرعت في رد ما اخذته من الارض الفارة من الاعانات على تحصيل التمدن ويمكن ان يعتبر القديس بونيفاسيوس الآتي ذكره كانه مبشر بقدم النوبين الذي مر ذكره لانه اعاد الى مدينة اوترخت كرسيمها الاسقفية ومكتبها الذي جلب اليه تلميذ اغرغوار (غر يغور بوس) كثيراً من الفرنج والافريزوتيين والبواربين والسوابيين والانكيز بل ومن متبريري سائر الملل اياخذوا عنه العلوم والمعارف

وبونيفاسيوس المذكور هو الذي اسس في سنة ٧٤٤ م دير فوادة الذي انتشرت منه الفوائد الدينية والاداب في جرمانيا وباقي البلاد التي في شمال اوربا ثم ان كرلوس اعطى بونيفاسيوس هذا دبر ماري مرتين بمدينة طورس في سنة ٧٩٦ م حيث ان بلاد الغالية القديمة وبلاد جرمانيا كانت محتاجة للتعاليم الدينية ومن ثم علم هذا القديس رهبان الدير المذكور على الاخلاق الحميدة ومحبة الانتظام والشغف بالعلم بهد ان كانوا مرصوفين بالشره والنهم والسكر مثل رهبان مدينة فلوري الذين وصفهم البابا ونيلمان في القرن الثامن بمثل ذلك واكثره اموال هذا الدير جملة امله بيتاً للضيافة ياتي اليه المسافرون ومكتباً للرهبان

ثم تخرج على النوبين وتلميذ سيجولف الآتي ذكره جماعة من المشاهير وعلماء الرهبان ومن اعظم الذين تخرجوا عليه في مدينة طورس رويان مور الذي جعل معلماً في مكتب فولد فانسمت دائرة المعارف في هذا المكتب بما اكتسبه من معارف الانكلسكسون وخرج منه كغيره من المكاتب علماء ذهبوا الى دبورة جرمانيا وهي رشيرو وهرسوچه واوستبروي وتخصص مكتب اوستبروي هذا منذ انشائه بتعليم اللسان اليوناني في سنة ٨٠٤ م لكنه لم يصل الى درجة

المكتب السكسوني الذي انشأه دبركوربها وسماه باسمه في عهد خليفة شرلمانيا وكان الغرض منه تمدن بلاد سكس ومن جملة مؤسسيه القديس انشير الذي تاقب رسول الشمال ومنهم ايضاً بشارزدبير الذي بذل جهده في اثبات الاستحالة وقيل في القرن السادس ان هذه العقيدة من مخترعاته

وكما ان الرومانيين قد جعلوا في الاقاليم التي كانوا يفتتحونها قبائل ومكانب عوضاً عن المحافظين والزموا بذلك المغلوبين ان يتعلموا قوانينهم واخلاقهم وافغهم بلا اكراه ولا اجبار هكذا شرلمانيا كان يجعل في فتوحاته ديرة صارت مدناً في ما بعد ومكانب نشرت بين الناس الدين المسيحي والمعارف

ثم ان الاقاليم القديمة من حكومة الفرنج وكذلك البلاد المفتوحة طلبت ان تستنير بانوار المعارف المصاحبة دائماً للدين المسيحي فانتشرت تلك المعارف بين اهل المملكة والفسوس فقط وكانت الديورة مشبع ظهورها وانتشارها فلم حينئذ ان تعود عقول الناس الى نشاطها الاول الذي كان قد انعدم في بعض الديورة ولم ينشر الى ذلك الوقت في اغلبها فانهشها القويين في دبر القديس مرتين ودبر فريبروماري لوب وتيريس وغيرها من الديورة التي دخل بعضها تحت نظارته تدريجاً والبعض دفعة واحدة

ثم نقل الاحبار وروساء الديورة الذين تخرجوا في مكتب السراية الى ابرشياتهم ودبورتهم المعارف التي بها تهذيب الاخلاق واصلاح العقول مما تلقوه عن معلم القويين ومنهم ادرادة اسقف ليون الذي مر ذكره فانه حيث على التلاميذ الذي كان مهلاً منذ مدة طويلة عند رهبان جزيرة برية ومنهم تيودلف اسقف اورليان فانه اسس ثلاثة مكاتب كبيرة في ابرشيتيه التي باورليان واكتسب شهرة عظيمة في مكتب فلوري حيث كان تلامذته في قليل من الزمان تبلغ في العدد الوفاً واما دبرماري ونديريل الذي كان متروكاً للعامه وصار محلاً للصيد والقتص انفق اولاً من هذا الايتزال جر وولد رئيس الرهبان ثم بعد ذلك شعبه ايجنهارد وقد سبق ذكره بالمكتب الثمينة لما اعتزل به واثرة

على حظوظ الديوان ودويبه وعجيجه وكذلك انجيزا الذي هو اول من جمع في
ديره قوانين شرمانيا واما دير ماري كبير الذي تربى فيه او اخر الامراء
المروغيبين استمر على حاله حيث تربى فيه اولاد الكونتات والدوقات بل
واولاد الملوك وصار من اعظم المكاتب في المعارف لما جلب اليه انجاييرت وقد
سبق ذكره ٢٠٠ مجلد اشراها بمبلغ جسيم في سفره الى ايطاليا وقد اتفدى
باهل الديورة المذكورة جمعيات اخرى حيث تجدد في القرن الذي بعد
قرن شرمانيا مكاتب مدينة لوكسوايه وسنت غان وسيتو ويزوم وستويلن
وغيرها وكان القصد بها مدافعة البربر الذي كان يومئذ ينتشر في كل
الجهات

وكانت اغارات العرب سبباً في انعدام اصول التعليمات الادبية من جنوب
فرانسا كما اعدمت منها ايضاً فنون الصنائع والزراعة فمن ثم لم يوجد في ما وراء
نهر لوار شي من الاثار التاريخية العظيمة ولا من وقائع مواسك ما يتعلق
بالقرن (٨ و ٩ و ١٠)

وحيث ان القسوس هم الذين يحفظون ودائع العلوم وينشرونها بين
الناس كان اعظم مفاصلهم بذلك تفسير الكتب المقدسة تفسيراً واضحاً بيناً
وحفظ الاحاديث الدينية ولاجل تحصيل هذا الغرض كانت مبادئ اغلب
العلوم البشرية لا بد من اعانتها في ذلك فارسوها حينئذ في جميع المكاتب على
طريقة واحدة دائماً حيث ان المقصود في كل الجهات كان شيئاً واحداً ولذلك
كانوا يريدون انهم لا يصلون اليه بطرق مختلفة لان ذلك العصر لم يكن قابلاً
للتقدم في العلوم وكان لا بد للتعليم من محاماة الحكم

ثم ان فلسفة ارسطو ليس التي تزينت وقتئذ باشكال نصرانية واقراها
مشاهير الاحبار المسيحية صار فيها نوع من الصحة المعتبرة شرعاً وتسلطنت في
المكاتب مدة طويلة وكان في منتصف القرن السادس اودع قسيودور وزير
ثيودور بيق الاستروغوطي في رسالته اليها عامه التي هي الفنون السبعة العقلية

على ما سبق ايضاحه في الفصل السابق وهذه العلوم المعدة للتدريس انقسمت في ما بعد الى قسمين يقال لاحدهما ثرويوم يعني الثلاثي لانه يحتوي على الثلاث فروع الاولية التي هي النحو والبيان والمنطق والاخر كدرويوم يعني الرباعي لاشتماله على الفروع الاربعة الباقية وهي الحساب والموسيقى والهندسة والذالك وبأدركت دبورة ايظا لما لاستعمالها من سالف الزمان ونقلها رسل ماري اوغسطين الى انكلترة في نفس الزمن الذي اشرف فيه ايزيدور دوسوبله الذي سبق ذكره مرارا لمكتاب اسبانيا رسائل متنوعة مبنية على الفنون المذكورة والظاهر ان بيدالمخترم رئيس دبرورموت الذي مر ذكره ايضاً لم يخرج عن الدائرة التي اودع فيها اسلافه جميع العلوم ولما نقل القوين الى فرانسما كان نشره في انكلترة من المعارف والقواعد على ما تقدم ايضاحه وضع ايضاً ما كان الزم به قسيودور المذكور رهباؤه من الاصول على نسق المخاطبات ليستعملها تاليفه شرمانيا وحاشيته ومكاتبه

وقد ذكرنا في ما سبق ايضاً ان قسيودور هذا مع انه كان وزيراً كما تقدم قد اعني اعني اعني يظهر الآن انه من داب الاطفال وهو تاليف رسالة في علم الخط على انه في الواقع كان الوقت محتاجاً لذلك لاجل ازالته عيوب الخط لانه كان يخشى منها تغيير اللسان اللاتيني وربما كان ينشأ عنها افساد معاني الكتب المقدسة لانه لما كان لا وجود للطبعة في ذلك العصر كانت مولفات المؤلفين التي حازوا بها الشرف والفخار تحت قبضة النساخ الذين اقله ضبط ايادهم في الكتابة كان يمكن ان تنسخ تلك التاليف بالمتص والزيادة فن ثم كانت صناعة الكتابة من المصالح العامة المهمة التي تستدعي التفات الحكام اليها فاذا رأى شرمانيا انه لا بد له من ان يجعل الكونيات والاسانفة وروساء الديورة على الانتفات الى النوطيراي المنوطين بكتابة السجلات وتقييد الحجج والى القسوس الذين من وظيفتهم تقييد الامور الكنائسية والى الرهبان المنوطين بحفظ المولفات الدينية والبشرية ان بعدهم لكن لما كان لا يكفي لذلك مجرد الضبط

في كتابة الكلمات بل كان يلزم له أيضاً ان تصير الكتب سهلة على الفارين
بان يرجعوا الى كتابة النون اللاتينية بالحروف الرومانية التي كانت مهجورة
ميد من طويلة في فرانسبا باستعمال حروف الهجاء النوتونية المرونجية كما كانت
مهجورة ايضاً في انكلترة وابطاليا باستعمال الحروف السكسونية والندردية
اوصى شرلمان القسوس من غير ان يجعل لنفسه مدخلة في ما كان واقعا من
المشاجرات في شان الحروف النوتونية والرومانية ان يبذلوا وسعهم في الخط
الذي جعله القوين واعلم روساء الديورة بانته امر واجب على رهبانهم وكان
مبدأ اصلاح الحروف الهجائية في دير وندريل باهتمام الراهب اوون والراهب
هردوين وقد ترك رهبان كوريبا ورمس كتباً ظريفة بخط اليد تدل على اصلاح
تلك الحروف وبناء على ذلك لم يكن فن الاملا والخط حسبها شوهد في ذلك
العصر اقل ثمرات التعليقات الاولية كما في ايامنا هذه بل كان اهم جزء في علم النحو
الذي هو مقدمة لسائر العلوم وكان هذا العلم اذ ذاك مقصوراً على اللغة اللاتينية
وان كان اهمها العامة وصارت لا تستعمل الا في العبادات والشرائع
ولم يبق شيء من اثار الرسالة التي كانت الغرض من تأليفها تعلم اللغة
اليونانية التي كانت شرطة اوسانبروك قد الزمت رهبان هذه القبيلة بتعلمها
وتعليمها ولكنهم لم ينجحوا فيها الا قليلاً وقد تكلم القوين في بعض موافقاته على متن
الكتب المقدسة المكتوب باللغة اليونانية واظهر معرفته بهذه اللغة في مكتوب
كتبه الى انجليبرت ولا ريب انه هو الذي علم شرلمانيا ما كان يتكلم به منها وكان
ليولاس ورنفريد المورخ المقدم ذكره امام جبال الالب شهرة بانقائه هذه اللغة
لكن لما طالبوا منه ان يجوز فخر تعليم هذا اللسان للقسوس الذين كانوا معدين
للذهاب مع الاميرة روترودة وقد سبق ذكرها الى القسطنطينية اعذر لم بها
كتبه في جواب رسالة بطرس بيزان الشعرية حيث قال اذا كان قسوس
هذا القطر (اي فرانسبا) لا يتكلمون الا باللسان اليوناني فانهم يكتنون بكما
كالاصنام ويكونون سخريّة بين العالم فتعين ان يبعثوا من القسطنطينية قسوساً

لتعليم هذا اللسان لتلك الاميرة التي كانت مخطوبةً للبيصر فسلطنطين الخامس الذي تولى المملكة سنة ٧٤١ م فتعلمت من هؤلاء الاجانب اللسان اليوناني ولا مانع ايضاً من ان معلمي هذه الاميرة علموا بعض تلامذة غيرها لانه من المحقق ان اللغة اليونانية لم تنقطع اثارها في القرون التي بعد هذا القرن فهي ان لم تكن في فرنسا كانت ببلاد المغرب

ومن اطاع على تواريخ تلك الاعصر ووقائعها العامة عرف من ببوسة عباراتها وتراكيبها ان قواعد النحو والبيان كانت مهلهة فيها فلم تكن اذ ذاك مستعملة في المكاتب ومن قرأ الكتب الادبية التي تركها بعض المؤلفين ذهب مذهب اخر لان ما فيها من اختلاط الكلمات اليونانية بالعبارات اللاتينية وساوكت طرق التكلف في العبارات باللاتين بالفاظٍ غريبة وعبارات فخرية تجبها الاسماع لغريبة اساليبها والتساهل في تراكيبها واستعاراتها الغريبة وتاليق كلماتها على نسق وضع الاطفال تدل على ان مولفي الكتب المذكورة كانوا يدعون معرفة علم البيان مع ان بيان ارسطو ليس لا تؤخذ منه هذه الامور كلها غير ان قواعد التي تُرجمت ترجمة خشنة ضاعت منها قوة اصلها ولم يترك ابناء الكنيسة اللاتينية من القواعد ما يُستج على منواله في ما يخص الذوق السليم فكانت الناس يتعلمون الفصاحة من مواضع القديس اوغسطينوس وماري سيزر وكانت سير القديسين تكسب من يقرأها من الرهبان ذوقاً وادباً

واما صناعة الشعر فكانت قد انحطت عن درجتها بعد ابوليناريوس وببوسة حسبما سبقت الاشارة الى ذلك وقيمت على اضعف حالها وكان الشعر يتميز عن النثر بعبارات عامية او ثقيلة موزونة باوزان غير مضبوطة في الغالب كالانشآت التي كانت قبل عصر القويين ولا سيما انشآت ارملدوس وقلاودار وكذلك القصائد الثلاث الطويلة التي ظهرت في القرن العاشر من غير ان تعلم اسماء ناظميها وكان موضوعها سطوراً شرمانيا وبرانيجير ومحاصرة النورتمان لمدينة باريس والاشعار الخفيفة ما عدا بعض قصائد لم يظهر منها الا بعض

نفوس ناشئة عن التقوى وعنوانات على قبور الموتى والغاز ونظريزات مفردة
ومزدوجة وهذا يدل على ان سكان الدبورة كانت عندهم نشاط وكان اعظم
فضيلة في الشاعر ان يظفر في شعره بالامور العويصة والمشكلة ولا سيما ان
القوبن المذكور نظراً لتقواه وتدبته عن قراءة ما ظهر في الاعصار المعنوية
من القواعد العظيمة خوفاً من تاثيرها في الشبان حتى انه لام على سيجولف
حيث سمح لقسوس مكتب طورس بقراءة كتاب ورجيل (شاعر وثني مر
ذكره في الفصل الثاني من البحث الاول) وليس ذلك لكونه مثل القديس
غريغوريوس يرى ان اسم جوييتير يدنس افواه امناء الدين المسيحي بل كان
يخشى ان يتاثر بها في ذلك الكتاب من وصف عشق ديدون ونشغل به
قلوبهم فذلك لم تقدم صناعة الشعر بل انحطت الى الدرجة التي ذكرناها
وحيث ان اباء الكنيسة تمسكوا بهذه ارسططاليس لنفورهم من مذهب
افلاطون الجديد فكانت فلسفة سناغير هي المتسلطنة على سائر المذاهب التي
في ما فوق الطبيعة وعلى اشكال الاقيسة وقد اعتمد البابا بولس الاول
الذي نصب في سنة ٧٥٧ م انه انحرف الملك يبين لبريف ابا كراوس الأكبر
بتحفة عظيمة حيث ارسل له من جملة مولفات بعث بها اليه في مدة جاوس على
تمت قرانسا متناً يونانياً يتعاقب بنطق ارسطو وكان موضوع علم المنطق لم
يزل الى ذلك الوقت مختصراً في بيان المقدمات والمقولات العشر والاقيسة
ومواد الاستنتاج فاذا تعلم هذا العلم شاب من القسوس وزاد عليه معرفة
الكتب المقدسة والموسيقى الكنائسية صار هذا الشاب جامعاً لجميع العلوم التي
يجتاج اليها القسوس ولكن كان يستغنى عنها في الغالب ولم يجز جميع العلوم التي
كانت في المكاتب الأقليل من الطلبة

وكانت المعارف العالية تشتل على اعظم فروع العلوم الرياضية التي
كانت وقتئذ لا تستحق هذا الاسم كل الاستحقاق وكان علم الحساب مقدمة لما
وكان هذا العلم لم يزل الى ذلك الوقت غير واضح لما ان الارقام الرومانية

كانت تعوقه عن التقدم والانتشار فمن ثم لم تكن فيه صلاحية لان يتقدم وتوسع دائرته بل كان يشوش الذهن ويضعف العنقل بمشكلاته التي لانفع لها وما كان لا طائل تحته مما كانوا يستعملونه لمعاونة هذا العلم من حساب الاصابع الذي كان مختلطاً اختلاطاً غريباً لانه كان لا يمكن ان يجرى به عملية الاعداد الصحيحة الا بطرق صعبة وكان دائماً لا يؤثر شيئاً في حساب الكسور ومع ذلك فقد ظفروا مع المهمة والقوة بالعوائق التي كانت تعوق علم الحساب عن التقدم لانهم كانوا مضطرين الى تعيين ايام الاعداد المنتقلة في كل سنة فخوفهم من نسيان طريقة الحساب الكنائسي كان حاملاً لهم على الظفر بتلك العوائق اكثر من تولعهم في الامور العالية

وفي ذلك الوقت كان علماء الهندسة والهيئة بشلان الاقسام الفاتحة من الفلاسفة وكانوا يتعلمونها في رسالات عديدة علمية اعزى الى المعلم بيتر رئيس دير وريوت الذي سبق ذكره وهو الذي نقل في مولفاته قضايا اقليدس التي ترجمها بويصة الى اللغة اللاتينية ومذاهب بليمنوس وارسطا ايس وبطليموس في القسم جرافيا (اي علم هيئة الدنيا) والحوادث الجوية وقد قال الفونين في ترجمته لبينا المذكوران هذا المعلم الشهير بين اتلامذته اثلاف الكواكب السماوية وكسوف الشمس والقمر والمناطق الكروية الخمسة والكواكب السبعة السيارة والقوانين التي بها سير الافلاك والحركات الهوائية التي تثير امواج البحر والزلازل الارضية انتهى ولم يكن المعلم بيتر المذكور اجنبياً من معارف القدماء الطبية التي التزم فسبودور رهبان وبواريا ان يتعلموها وعلمها المطران ثيودور في مدينة كنتري وبالاختصار ايضاً على قضيتين من المعارف الطبيعية التي كانوا يتعلمونها في الديورة نقول ان المعلم بيتر عرف سبب المد والجزر بطريق الهندس والتجريب وبرهن عليه بعد المعلم اسحق نيوطون الفيلسوف وكان ورجيل اسقف سلزبورغ ممن تخرج ايضاً في مكاتب برينانيا فبين للناس وجود المقاطرين

وجميع ما ذكر من العلوم البشرية كانت تعتبر كالاتٍ ضرورية للتعليمات
الفسوسية كما ذكرنا في ما سلف فكانت مستعملة فيها طوعاً وكرهاً وكان لعلم
اللاهوت السلطنة على جميع المعارف البشرية وكان أولاً يشتمل على العقائد
الدينية واصول الاداب والحكمة ثم دخل فيه التاريخ والفلسفة وكانوا
لا يتعرضون للبحث عن الحقيقة في الكتب المقدسة الا نادراً خوفاً من ان يضلوا
فيها من غير مرشد يهديهم الى الحق فكانت الشروح التي ألفها اباء الكنيسة
قاعدة لجميع العقائد وكان الناس لا يناقشون في احكامها وقد اكتسب كل
من يبدأ والتوبن المقدم ذكرها شهرةً ونهجةً بتفسيرها الكتب المقدسة ومع
ذلك لم يتجاسر ان يقولوا براءتها الا في مواضع قليلة جداً بل كانت تاليفها في
اكثر المواضع عبارة عن نقل اقوال سلفها من المؤلفين وكان كل منها يبنى في
كتابه على ما يبدو له من الاستظهارات الناتجة عن حدة ذهنه او ما كتبه الميزة
بين الغث والسمين حذراً من الخطاء في ما لم يتحققه

وكان لا بد لعلماء اللاهوت في ذلك العصر من واسطتين للتعبير في
العلوم الدينية المنسعة الدائرة وهاتان الواسطتان كانتا مفقودتين اذ ذاك وهما
معرفة اللغات الاصلية والمباحثات التاريخية فاننا كيف يتأتى لهم ان يناقشوا
في امور حقة وقع فيها النزاع في آراء مبهمه تتعلق بالعبارات المترجمة التي اقل
ما يقال فيها انها مشكوك في صحتها كالفوانين الكنائسية اليونانية التي ترجمها
دينيس الصغير الآتي ذكره الى اللغة اللاتينية او كيف يمكنهم ان يقولوا على
بطلان قضية منكورة من غير ان يستعينوا على ذلك بالمؤلفات الموجودة في
عصرهم ونحفيقات التواريخ البشرية

ثم لما ظهر مذهب الفلكسية والمشاجرة في شان كسر الصور التماثيل استيقظ
علماء اللاهوت الذين كانوا في ذلك العصر الى المناظرة والمجادلة التي كانت
من اشد المجادلات فاشتهر كل من القوين وبولين واكيليا باظهار الكتب المسماة
كارولين التي جمعا فيها نحت حياطة شرلمانيا رسائل متنوعة الفاها في المحاماة

عن الصور وعارض في ذلك اليندو وفيما كس الذي تُسب إليه هذا المذهب
وكما ان العلوم البشرية في ذلك العصر لم تكن بالنسبة الى علم اللاهوت
منصودة لذاتها بل تابعة له ضعيفة عن حقوقه كذلك الفنون المستخرجة وان
كان هذا الاسم غريباً في تلك الازمنة المتبربرة لم يكن الغرض منها الا الاعانة
في ما يكون به رونق العبادة المسيحية وبهجتها وقد حصل للموسيقى تغيير كان
يبين ابريف ابوكرلوس قد عزم عليه قبل ذلك ولم تظهر له ثمرة الا في كيسة
متر تهمة ماري كرو دغغ ذي المعارف المنيرة وقد شدد فسوس فرانساً في منع
خدم القديس الرومانية وكذلك اللحن الغريغوري الذي هو اكل واثق من
الحان ماري امبرواز (امبروسوس) وقد شنع اهل ذلك العصر على مصلي
الغاليين حيث وصفهم بالجهل وعدم المعرفة وهو كما ذكرنا فان مخارج الحروف
التي كانت فيهم تتزايد دائماً خشونة وقبحاً كان يسمع منها اصوات وحشية خشنة
شبيهة بدكدة المركبات الخنثة الاصوات وقد اثبت راهب انغوليم على سبيل
التفصيل صحة هذا الوصف المضحك وكان هذا الراهب ممن الف سيرة في
شان شرلمانيا وذكر ايضا انه بعد المشاجرة التي حصلت في رومية بين مصلي
تلك المدينة ومصلي الكايبلا الملوكية (اي معبد الملك) عزم شرلمانيا على ان
ينشر الاحمان الرومانية في جميع سلطنته وطلب من البابا ادريان الاول الذي
نصب سنة ٧٧٢ م ان يبعث اليه معلمين ماهرين ليعلموا الترنيم المذكور لمعلمين
اخرين في مكاتب متر وسواسون فتعلم مصالحو الفرنج توقيع الاحمان على الآلات
وابدلوا الحانهم التي افسدوها باهوائهم وجهلهم بالاحمان التي نقلها من رومية
ثيودور وبنوات ومع ذلك كان هذا الاصلاح في بعض اقاليم من المملكة غير
تام حيث لم تظهر شوكة شرلمانيا القوية بتغيير الحان لوترين
ولم يكتف هذا الملك بفخر كونه وسع دائرة سلطنته فقط بل اراد ان
يلاها بالاثار لتكون لها زينة فامر بانشاء عمارات ومباني عظيمة ورغب
الدوكات والكونتات والاساقفة وروساء الرهبان في الفنون وجمالهم على الكرم

والسقاء لارباب الصنائع الذين جلبهم من الاقطار البعيدة وكانوا ينزلون امهرهم في السراية الملوكية ويحسون قراه ويكون تحت ملاحظة ايجنهارد وحماية السنشال الاكبر ومن تلك العمارات قنطرة ميانسة التي قوائمها المنفردة اعجبت مورخ سنغال بعد مئة سنة من الحريقة التي احترقت فيها اقواسها التي كانت من الخشب

وقد شرع شرلمانيا في بناء سراية انجاليهم بقرب هذه المدينة وقد تكلم عليها ايجنهارد وجعلها في درجة سراية نبيغة لكن ليس شيء من تلك العمارات يضاهي في المحن سراية اكسيلا شيبلا التي بناها على ربوة لم يزل يجري في اسفلها ماء المنبع السلطاني الحار وكان هذه السراية مجاز من خشب يوصل الى الكنيسة السلطانية الكبيرة التي يستبين ان هذا الملك لم يامر ببناء غيرها فان المباني المعدة للعبادة لم تكن اذ ذاك تُبنى من اموال الخزينة الملكية بل كان الملك كالملتزمين لم يبن في التزاماته الا كايالات (كنائس صغيرة) خالية عن الزينة والزخرفة واما كنائس الاسقفية وكنائس الديورة فكانت تبنيتها الاساقفة وروساء الرهبان لان القسوس كان لهم اوقاف عظيمة تعينهم على ذلك وقد اهتم بعض الاساقفة بتشيد مباني جديدة بالمدح والتعجب الا انه لم يبق منها شيء على عهده بل تخربت كلها في عصر الدمار الذي اعقب موت لويس ديونيرابن شرلمانيا المذكور بهجوم النورمنديين على مملكة فرانسافى اخر حكم كرلوس الثاني الاصلح سنة ١٤٥ م وما بعدها

لكن المؤرخون قد بالغوا في عظم ورويق تلك المباني اكثر مما تستحقه لان الفرنساويين قد بحثوا عن اثار الابنية المذكورة فوجدوا في اكسيلا شيبلا اثاراً تدل دلالة قطعية على ضعف الفنون في القرن التاسع وتثبت ان شرلمانيا اضطر في بناء تلك الكنيسة الفاخرة الى ان نقل من مدينة راوينة اعمدة الرخام ومواد التزيين التي كانت مزينة مسكن او اخر القياصرة الرومانيين حتى ان راهب سنغال قال ان شرلمانيا امر بهدم اسوار مدينتي فرنكفوت ورايسبوت

ليأخذ من انقاضها ما يحتاج اليه من مواد البناء للزواجر بين اللتين امر بيناهما على غاية من الاتقان وجودة الصناعة في المدينتين المذكورتين فاذا لا عجب من كون النورنديين المذكورين حين نزولهم بسواحل فرانسوا وجدوا بها من الدبورة والرهبان اكثر من الحصون والعساكر

الفصل السادس

في حالة العلوم والمعارف منذ وفاة كراوس الاكبر الى بداية وقوع الحاربات الصليبية اعني من سنة ١١٢ الى نهاية القرن الحادي عشر

وبعد موت شرلمانيا اخذت العلوم في الانحطاط حتى ان اغلب المجامع الاكثروسية التي انعقدت بعد موته طلبت من الملوكة ان يكون لهم دخل في اعانة المكاتب التي صارت متروكة ومهتلة وامر مجمع اكسيلاشيلا بان الرهبان القانونيين يتعلمون كل انواع العلوم وان اكثرهم علماً وفضلاً يكون منوطاً بملاحظة الصبيان الذين يترددون الى مكتب كنيسة الاسقفية وكان اويس النبي بن شرلمانيا هو الذي اشار على المجمع بذلك وعلى والده لوتير بالفانون الذي وضعه ونشره سنة ١٢٢م قاصداً نشر التعليم في ايطاليا لان هذا الملك كان قسم مملكته بين اولاده الثلاثة وهم لوتير وببين واويس فكانت ايطاليا نصيب والده لوتير

وكان القانون المذكور يامر باحداث مكاتب جديدة وحث المعلمين على الاجتهاد وبذل الهمة في التعليم فامر لوتير بفتح مكاتب في اعظم مدن المملكة النبردية لاجل قطع معذرة الشبان اما لفقروهم اول بعد ديارهم وكذلك البابا

اوجانيوس الثاني قد اوصى في سنة ٨٢٦م الاساقفة والنسوس في جمعية انعقدت وقتئذ بان يجددوا مكاتب يسهل على كل انسان الذهاب اليها لتعلم العلوم الناسوتية واللاهوتية ومع هذا جميعه لم يترتب على ذلك الا ثمرات واهية ان يكن في ايطاليا او في فرانسوا وامر هذا الملك وكلاه ان يفتحوا في جميع الاماكن الالائة للتعليم مكاتب لتربية الصبيان وامناء الدين وتعليمهم لكن لم يدرك ما كان يأمله من هذا الامر فتشكى النسوس ثانياً وترجى مجمع باريس الملك المذكور بان يفتواثر والده ويفتح مكاتب عامة ولو في المدن الثلاثة التي هي البقى بالتعليم من غيرها من مدن السلطنة وكانت هذه الطريقة من اعظم طرق التعليم نظراً لقلّة المعلمين في ذلك الوقت لان ترغيب شرلمانيا في التعليم لم يكن ترتب عليه كبير فائدة حتى ان رومية نفسها كان يتشكى فيها من قلّة المعلمين كما يستبين من كلام المجمع الذي كان رئيسه البابا اليون الرابع الذي نُصب في سنة ٨٤٧م وزاد البابا عليه بقوله اذا لم يوجد في اخطاط الخوارنة اناس لم قدرة على تعليم الفنون العقلية كما هو العادة فلا اقل ان يكون في كل محلٍ منها معلم يعلم الناس الكتب المقدسة والقداس

ثم ان مجمع اساقفة ولنسة نسب الجهل بالدين واضمحلال العلوم للذين كانوا متسلطين في اغلب المحال الدينية الى انقطاع التعليم مدة طويّلة ومجمع الاساقفة المنعقد في سنة ٨٥٨م في مدينة كيرسي سور وازه اي التي على نهر وازه اشار على كركوس الاصلح الذي تولى ملكة فرانسوا سنة ٨٤٠م ان يعيد في سرايته زهرة تعلم الاداب وبهجتها وكذلك الاحبار الذين اجتمعوا في ساوينير سنة ٨٥٩م طلبوا احياء الاداب البشرية التي ترتب على امتزاجها بالعلوم الدينية اللاهوتية الذي كان يقويه انقياء الفياصرة في سابق الزمان انتشار معارف كثيرة في الكنائس حيث دعا هؤلاء الاحبار جميع الامراء والاساقفة الى اعانة هذا العلم الذي كان قد اشرف على الانعدام وذكروا ان الكتب المقدسة قليل من الناس من يفهم منها معنى صحيحاً وعمّا قليل لا يكون لمن يفهمها وجود

بالألمانية وهذا التشكي لا يدل على اهل كرلوس الاصاع وعدم اعتناؤه بتعلم
الاداب وانما يدل على عجزه حيث لم تكن له شوكة إلا في مجرد صدور الاوامر
لا في اجرائها وانما اعنى في دائرته الضيقة التي كانت تنفذ فيها كل شيء كدبوانه
مثلاً بتعليم الاداب اعتناء كلياً حتى انه كان يود ان يقاسم المعلمين في مزينة
التعليم وهو الذي ألف كتاباً في عجائب القديس ديتيس المار ذكره
وكان موجوداً راهب يقال له ابريك منوطاً بادارة مكتب سان جرمان
(القديس جرمانس) الشهير بمدينة او كسيرة اعلن بالشهادة لكرلوس هذا
حفيد شلمانيا بان كان له رغبة عظيمة في العلوم والمعارف حيث كتب له
ما معناه

قد تهيات لك اسباب السودد والفخار الدائم باقتنائك ابرجدك الجليل
فانك زيادة عن احيائك لهمة في العلوم والمعارف فقد فقت عليك بالهبة التي
لا تضاهي وابطلت اعتذارنا بقاء المعلمين عما نحن عليك من الجهالة لاهالنا
وتكاسانا بكونك اعزيت اعناء عجيبة حيث دعوت من جميع اقسام الدنيا
عظما مشاهير المعلمين ليعلموا رعاياك حتى ضجت بلاد اليونانيين حيث هاجر
منها ابناؤها وبكت على اختصاصها بالعلوم حيث انتقلت منها الى قطرنا واعبري
ماذا اقول في شان بلاد ارنده حيث لم يخش اهلها اخطار البحر المحيط بل
تغرب معظمهم ونزلوا بسواحلنا مع فلاسفتهم على كثرتهم ليجوزوا فخر خدمتهم
لسليمان الثاني وقد سابت من اغلب المال معارفهم ومعلمهم ومكاتبتهم لتتجلى انت
ورعيتك بزينة العلوم والمعارف حتى ان الفنون العقلية بجميع انواعها فاضت
كالبحار في ارضك وانتشرت في اقطار سلطنتك احقاراً الغيرها من الاقطار
فتسمية سراينك بالمكتب العلمي لها وجه صحيح انتهى

لكن متى قرن القاري عبارة هذا الراهب بما سلف ذكره من كثرة
تشكبات مجامع الاساقفة في هذا المعنى عرف ما انطوت عليه من الاطراء
والاقراط في التلق ولا سيما متى عرف ان هولاء المعلمين الذين جاءوا الى فرانس

من بلاد اليونانيين وجزيرة ارلندة انتقلوا منها الى انكلترة وذلك لان الفريد الأكبر متولي انكلترة سنة ٨٧١م كان اذ ذاك مجتهداً في رفع منار العلوم والمعارف بتلك المملكة ونشأها من احوال الضعف والإضمحلال التي وقعت فيها منذ فارق القويين جزيرة وتغلب عليها الدانياركيون قال بعض المؤلفين ان هذا الملك احيا في ملكته العلوم والفنون والاداب والحرف والصنائع ومارس العلوم بنفسه والف عدة كتب وزهت في ايامه التجارة والملاحة وعظمت القوي العسكرية البحرية وصارت انكلترة ماوى للعدل والراحة وله عدة قوانين عظيمة اسسها على الحكمة والحزم

وبعد انتضاء حكومة كارلوس الاصلع صار لا يطعم احدان يجيد في فرانسوا اثر مكتبة من مكاتبها لان النورتمان كانوا احرقوا جميع ديرة المملكة غير ان اقباء الرهبان الذين كان يتبعهم هولاء السكنديناويون ارباب الصيال حتى كانوا يفرون من دير الى اخر كانوا ياخذون معهم اثار علوم الاقدمين ويحفظونها خشية عليها من احتقارها واتلافها ونظراً لقلتها كان يسهل خاوصها وحفظها ثم لما خربوا ضواحي باريس في سنة ٨٤٥م فتح اهل هذه المدينة دييراً الحفظ جسد القديس جرمان وكتبه وامواله فمكث مكثب هذا الدير مدة طويلة يدافع اكثر من غيره غلبة التبرير وساطتته نظراً لجوارته الى باريس التي كانت له حصناً حصيناً تمنع عنه كيد الاعداء وكذلك مكثب ماري جرمان دو كسيرة فانه دافع ايضاً مدة طويلة لبعده عن العدو وكان هذا المكثب في القرن العاشر لم يزل يتردد اليه عطاء الطلبة ليستعدوا فيه الى درجة الاسقفية وفي هذا الزمن كان دير جرمان ديبريه لم تنزل له الرياسة على كثير من المكاتب تحت ملاحظة الشاعر ابوان

ومع ان علمي الفلسفة والمنطق اللذين كانا يدرسان في هذه المدارس مدة القرن التاسع لا يستغنان الذكر فقد وجد في اماكن مختلفة ولاسيما بين الايرلنديين اناس ماهرون اذ كياء يلبى بهم ان يسمى فلاسفة اولهم يوحنا ابريجينا

الاسكوتشي ابي الايرلندي صاحب كرلوس الاصابع وكان ذا فهمٍ ثاقبٍ وسامٍ عالمياً بالعلوم اليونانية والرومانية شرح فلسفة ارسططاليس لتلاميذه وكان ينفلسف بدقّة عظيمة بدون مرشد وكتبه الخمسة في تقسيم الطبيعة لاتزال موجودة وهي كتاب غريبص يذكر فيه علل كل الاشياء واصولها ونحو هذا الوقت قام انسان اسمه مكاربيوس من ايرلندا وعلم في فرانساً بان لكل الناس نفساً مشتركة قد حضه زترام ومن مشاهير هذا القرن ايضاً رايانس مورس حصل على اول رتبة في جرمانيا وفرانساً وكان يزدحم على خطبة الطلبة ومن المورخين ايجنهارد وفرينكفس وثيفانس وانسطاسيوس وهيو وغيرهم ومن الذين مهروا في اللغات وثقفوها رايانس الذي كتب بيان اسباب اللغات واصلها وسارغندس وبرناريوس وغيرهم ومن الذين عرفوا العلوم العبرانية واليونانية وليم ويوحنا سكوتوس وسرفانس لبس الذي كان ماهراً في الخطابة والبلاغة والانشا ايضاً وايجنهارد واغوبرد وهنكر وغيرهم

ثم في القرن العاشر اعدت الآثار الشهيرة من جميع الجهات حتى لم يبق اثر للكتاب وصار العلم غريباً لا يجد له ماوى الا الحاريب لان التبرير كان قد تغلب على جميع الاشياء كما ان اختلال الحكم كان ايضاً قد عم سائر الجهات فعند ذلك نأسف اخر الشعراء وضح ما كان عليه اهل عصره من الجهالة وتكلم على لسانهم مخاطباً شعره

يا شعر حسبك لا تؤمل حظوة

قد بار سوقك بعد طول نفاق

واكثر المورخين يسمون هذا القرن بالقرن الحديدي نظراً الى العلوم والفنون والشعوب الافرنجية لم تر قبلة جيلاً القس وانكد منه ولو ارناب في ذلك بعض اكابر العلماء فانه مثبت ببراين قوية لا يمكن دحضها بكليتها نعم انه كان يوجد مدارس اما في الديورة واما في المدن في اكثر بلاد اوروبا التي كانت مراكز الاساقفة غير ان قلة عددهم وكتابة احسن الرهبان الذين

اشتغلوا في الامور المفيدة اخباراً وتواريخ بطريقة دنية ينبهان عن شدة تعاسة ذلك العصر

وكان التعليم في هذه المدارس مختصراً في العلوم السبعة ومعلوها هم الرهبان المذكورون الذين اعتبروا قيمة الاداب والعلوم من استعمالها في الامور الدينية فقط ومنهم كأبو ولويتبرند ووتيكيند وفلكون ويوحنا كوبا وراثيروس وفلودورد وتكيس واينلبرت وغيرهم وكلمه متناوتون في الفضل الا انهم يشردون عن حقيقة كيفية كتابة التاريخ وكان البعض من شعرائهم كذلك لا يخلون من النباهة غير انهم جميعاً خشنون وهكذا النخاة والبيانيون منهم لا يستحقون الذكر لانهم لم يذكروا الا ما لا معنى له ولم يعلموا الا تعاليم ناشئة جنونية ولا حاجة لان نذكر شيئاً من هندسهم وحسابهم وحساب الاعباد والفلك والموسيقى التي كانت تعلم في مدارسهم

وكانت الفلسفة عندهم محصورة في المنطق الذي كانوا يزعمونه رأس كل حكمة وهذا المنطق المطنب في مدحه كانوا يعلمونه بغير رونق ولا وضوح بموجب كتاب الكاتينوريا المنسوب زوراً الى القديس اوغسطينوس وكتابات بورفري نعم ان تيمبوس كتاب افلاطون ونبذة ارستطاليس في التفسير ومقالته ومقالات شيشرون وبعض تاليف اليونانيين واللاتينيين كانت موجودة في ايدي البعض غير ان المورخين يقولون انه لم يكن هناك من يفهم هذه الكتب

ومن المستغرب كيف في وسط هذه الظلمة تظهر تلك المسألة المحادة عن الكليات (او التصورات العامة) كما كانوا يسمونها بين الطائفة المسماة ربالست اي الحقيقيين وبين الطائفة المسماة نومينواي الاسميين وهي ان طائفة الربالست ذهبت الى ان الاشياء كلها جواهر فعلى مذهبهم تكون الاعراض والخصائص كالاستدارة والصلابة مثلاً قائمة بنفسها موجودة لاني موضوع بهني ان الاستدارة مستقلة بالوجود عن المستدير وكذلك الصلابة مستقلة عن الصاب وذهبت

الثانية المسماة نومينو الى ان الاستدارة والصلابة وغيرها من الاعراض لا تقوم الا
بوصوفائها وباختلاف هاتين الطائفتين اختلف اهل المدارس اخيراً وتولد بينهم
التناقض والشحناء من هذا الجدال قروناً عديدة بل ان اثارها المعقدة المستطيلة
يطالع عليها في كتابات العلماء حتى هذا القرن

وفي ختام هذا القرن وجد للعلم في اوروبا محام ذو همة واقدم وهو جربرت
الراهب الفرنسي الذي كان مودباً لاولاد الملك هوغس كايت موسى
الدولة الكايتية بفرانسا سنة ٩٨٨ م واخيراً ارتقى الى كرسي الباباوية في سنة
٩٩٩ م ونسب سلبسترس الثاني وهو الذي اخترع اول ساعة ذات رصاص
ويقال ايضاً بانه ادخل ارقام الحساب الهندية الى اوروبا في سنة ٩٩٠ م قال
بعض المؤلفين ان هذا الشهم ذا العقل الثاقب انصب بنجاح على كل فروع
العلم ولا سيما التعليمات والميكانيكيات والهندسة والفلك والحساب والعلوم
المقارنة لها وكتب هو فيها ونبه غيره بان يشيدوها ويقووها بكل استطاعتهم
وتتأخر انما يوبين الفرنسيين والجرمانيين والاطالينيين ظاهرة في هذا القرن
والذي بعده لان اناساً كثيرين تحرروا من كتابات هذا المحبر الفاضل وسيرته
ونصائحهم الى طلب الفلسفة والتعليمات والطب وغير ذلك من العلوم البشرية
نعم انه لا يقاس بعلماء الهندسة والتعليمات في ايامنا هذه لكن معرفته كانت
عالية على ادراك ذلك الجميل البربري لان جهالة الرهبان اعتبروا اشكالة
الهندسية صوراً سحرية ولهذا وضعوا هذا العالم مع السحرة ونظوه في صف
الاشرار

وهذا الرجل العظيم كان اخذ بعض معارفه ولا سيما الفلسفة والطب
والتعليمات عن كتب عرب اسبانيا ومدارسهم لانه ذهب الى تلك البلاد في
طلب العلم وكان تلميذاً لعلماء العرب في قرطبة واشبيلية وربما اثرت سيرته في
اهالي اوروبا اذ ان المحققين يقولون بان الاوربيين المتشوقين للعلم وخاصة الطب
والحساب والهندسة والفلسفة كان لهم من ذلك الوقت فصاعداً رغبة عظيمة

في ان يقرأوا هذه العلوم على علماء العرب المتوطنين في اسبانيا وبعض نواحي ايطاليا وترجم كثير من كتبهم ومولفاتهم الى اللاتينية ونقدم كثير من مضامينها الى مدارس أوروبا وذهب كثير من الطلبة الى اسبانيا ليتعلموا رأساً من خُطَب علماء العرب ولذلك حتى القول بان العرب ولاسيما عرب اسبانيا المذكورين هم اصل وينبوع كل ما عرّفه الافرنج من الطب والفلسفة والفلك والتعليمات منذ القرن العاشر فصاعداً

وفي القرن الحادي عشر احييت العلوم في أوروبا نوعاً بين المتوحدين من الكهنة والرهبان اما بقية الناس ولاسيما الاشراف والاكابر ازدروا بالعلوم والآداب ما عدا الذين اعدوا ذواتهم لخدمة الكنيسة او ارتقوا الى وظيفة دينية ثم انشئت المدارس في ايطاليا بعد اواسط هذا القرن وقام البعض من العلماء المشهورين بالتأليف والتعليم وانتقل جماعة منهم بعد ذلك الى فرانس خاصة الى نورمنديا ليعلموا الشبان المعدين هناك الى الوظائف الدينية المذكورة وقد موأجد ولا يحنوي اساء بعض اهالي بلادهم الذين رغبوا في العلم وسعوا في تقديمه في هذا القرن ويذكرون ايضاً عدة مدارس اشتهرت بصيغتها معليةها وكثرة تلاميذها ولاريب ان الفرنسيين اعنوا كثيراً بالعلوم والصنائع وكثرت العلماء في بلادهم حين كان معظم ايطاليا غرقان في بحار الجهل لان روبرت ملك فرانس ابن هوغس كاييت الذي كان تلميذ الفاضل جريوت المقدم ذكره كان عالماً ومحباً للعلم والعلماء وقد انتهى ملكه في سنة ١٠٢١ م الا ان رغبته العظيمة في تقدم الصنائع والعلوم من كل نوع لم تكن عديمة النجاح والنورمنديون من فرانس بعد استولوا على ولايات ايطاليا السفلى وهي ابروليا وكالابريا وسيسيليا اذاعوا نور العلم والآداب في تلك البلاد ولهم تنسب مزية اعادة العلم الى انكلترة لان وليم الظافر دوك نورمنديا كان ذا ذكاء وحكمة تفرد بها في عصره فشرع بشروعات حميدة حينما استظهر على انكلترة في سنة ١٠٦٦ م اذ دعى العلماء من نورمنديا وغيرها لينقلوا من البلاد التوحش

والجهل اللذين كانا مستوليان عليهما مع ان النور مند بين المذكورين كانوا ابطالا متوحشين واعداء لكل علم قبل ان يعتنقوا الدين المعجبي لكن بعد ان تنصروا احترموا الديانة والعلوم احتراماً عظيماً

وقد نفع عن الرغبة في العلم التي انتشرت بين شعوب اوروبا الاكثر قدنا على التدرج ازدياد المدارس وتحسين معلمها في اماكن متعددة حيثما كانت منحصرة عند افتتاح هذا القرن في ديرة اوروبا وكنائسها وكانت الرهبان البند يكتبون هم المعلمين الوحيدين في المعارف الدينية والديوية انما منذ بداية هذا القرن اخذ غيرهم من الكهنة والعلمانيين في ان يعلموا العلوم في عدة من مدن فرانسوا واطاليا باكثر مما كانوا يعلمونه هم بل تبعوا نسفاً افضل منهم في تعليم بعض العلوم التي كانوا يعلمونها وكان اشهر هؤلاء المعلمين الحديث هم الذين طلبوا العلوم في مدارس العرب باسبانيا على ما تقدم وتلقوا فيها الفلسفة والرياضيات والطب والفلك وغير ذلك من هذا القبيل على اسلوب اصح وأوضح من الاسلوب الذي كان يعلم به اولئك الرهبان في مدارسهم لان مدرسة سالرنو في مملكة نابلي اشتهرت بنوع مخصوص في علم الطب بهذا القرن وكان ياتيها الطلبة من اكثر اقاليم اوروبا وكان معلمو هذه المدرسة اخذوا هذا العلم من مدارس اسبانيا وافريقية ومن مؤلفات العرب في غير ان من هذه المدارس والمؤلفات ايضاً اخذت كذلك شعوب اوروبا صناعة المناول الباطلة في معرفة مستقبل حظوظ البشر من النظر الى النجوم ويقال له علم التنجيم والهيئة وظاهر الايادي ويقال له علم الفراسة ونشئ ذلك بينهم كثيراً واعتبروه اعتباراً زائداً مع نمادي الاوقات

وكانت العلوم السبعة التي سبق ذكرها تطالع في اكثر المدارس الاعتيادية فكان الطالب يتعلم اولاً النحو ثم البيان ثم المنطق ومن طلب الارتقاء الى اكثر من العلوم الثلاثة المذكورة تقدم بعد تعلمها رويداً رويداً الى العلوم الاربعة وهي الحساب والموسيقى والهندسة والفلك ليحصل على شرف العلماء الكاملين غير

ان هذا الاسلوب تغير بعد نصف هذا القرن لان المنطق بما انه يتضمن على نوع ما شيئاً من الفلسفة العقلية تحسّن بعناية البعض من ذوي الافكار الثاقبة وصاروا يعلمونه مع زيادة الدقة والحجاس ومن ثم أُعْطِر عند الاكثرين اعتباراً كلياً حتى انهم اهلوا النحو وغيره من العلوم المعقّدة الطليّة وصرفوا كل حياتهم في الدقائق المنطقية والفلسفية لان من كان يعرف علم القياس عندهم وهو المسمّى في ايامنا هذه بالمنطق او الفلسفة العقلية كان يعدّ بانه حصل على مقدار كافٍ من العلم ولم ينته شيء به بعد تحصيله شيئاً اخر من كل العلوم الباقية ومن هنا نشأ الازدرا بعلم اللغات والفصاحة وبقية العلوم الادبية واستمر ذلك الدوحش الفظيح الآتي توضيحه قروناً عديدة في المدارس الاوروبية وافسد اللاهوت والفلسفة

ومن هنا يتضح بان فلسفة الافرنج في تلك القرون كانت محصورة في علم القياس المذكور ويقال له ايضاً الاستدلال اما باقي فروع الفلسفة فلم تعرف حتى ولا بالاسم ومع كل ذلك كان هذا العلم عندهم ناشئاً عقياً وكانوا اخذوه من كتاب المقولات العشر المنسوبة زوراً الى اوغسطينوس او من مقدمات ارستطاليس تاليف بورفري واقروز وهي الجوهر والكم والكيف والاضافة والابن والتمى والوضع والملك والفعل والانفعال وقد جمعها بعضهم في هذين البيتين

زيد الطويل الازرق بن برمك في داره بالامس كان متكي
في يده سيف لواه فالتوى فمعه العشر المتولات سوى

مع انه لم يكن في بداية هذا القرن للمدارس مرشد اخر في هذا الفن ولم يكن للعلمين جراءة ولا مهارة في توسيع التعاليم المتضمنة في هذه الكتب وتحسينها الا انه بعد نصف القرن الحادي عشر المذكور اخذ علم الميزان في فرانساً منهباً جديداً

منذ دخلت بعض مولفات ارستطاليس في فرانس من مدارس العرب
الاسبانيولية لان بعض اصحاب العقول السامية كبرنغار يوس وروسان
وهلدبرت ثم غلبرت من بورتنا وابلرد وغيرهم اجتهدوا في توسيعه وتكميله
بواسطة ما استفادوه من مولفات هذا الفيلسوف واشهرهم في تحسينه وتصويره
نافعاً هولنغرنك الايطالياني الذي صار اسقف كنزيري حتى انه لشهرته فيه
سمي المنطقي واستعمل مباديه بحجاسة ودقة في انتهاء النزاع مع خصمه برنغار يوس
على الانفجارستيا وثانيه آنسلم في محاورته النخوية مع مشروعات اخرى في اشارة
هذا العلم وقتئذ ولا سيما بجثة الخصوص عن المادة وصفاتها او ما ينسب اليها
والثالث اودو الذي علم المنطق واشهر بذلك شهرة عظيمة وشرحه في ٢
مولفات في السفسطة وفي المركبات وفي المادة والكون ولا وجود لهذ الكتب
الان واما آنسلم المذكور فانه اجتهد في تحسين هذا العلم وكان رجلاً وازناً وشهيراً
متفرداً بين الافرنج ابرز الطبيعيات واللاهوت الطبيعي من الخفاء الى حيز
الوجود لكونه شرح مع الحجاسة ماذا يعلمنا العقل عن الله في كتابين احدهما
سماه منولوجيون يعبر به عن انسان يخاطب نفسه والثاني بروسولوجيون يعبر
به عن هذا الانسان يتخاطب مع الله وهو الذي اخترع القياس الفرتيسي
الذي يبرهن على وجود الله سبحانه من مجرد تصور النفس الطبيعي بطبيعة كاملة
الغاية ولما فند هذا القياس غونيلو الراهب الفرتساوي رد عليه آنسلم المذكور
في نبذة كتبها بهذا الشأن

هذا ولم يبلغ علم الميزان المذكور حده الا وقام النزاع بين علمائه على ما تقدم
وهذا النزاع وان لم يكن في حد ذاته شيئاً لكنه لما كان يضطرم منذ زمان طويل
في المدارس صارت نتائجها في هذا القرن من الامور الدقيقة العظيمة لان الاحزاب
استعملوا قضاياهم المتنوعة حسب تفاسير التعاليم الدينية وكل فريق قذف
خصمه باغرب النتائج المكروهة اذ انهم اتفقوا جميعاً على ان هذا العلم يبحث عن
الكليات ومقابلتها لان الجزئيات والافراد من كونها قابلة للتغير فلا يمكن ان

تكون موضوع علم ثابت غير متغير ولكن اختلفوا في انه هل هذه الكليات التي هي موضوع علم المنطق موجودة حقيقة او هي مجرد كلمات واسماء لموهومات فالبعض اعندوا بوجودها حقيقة وسندوا اراءهم على افلاطون وبوثينيوس وغيرهم من الاولين والبعض جزموا بانها لاشيء سواء اسما لغير مسميات واستشهدوا بارسنطاليس وبورفري وغيرهم وسمي الحزب الاول منهم حقيقيين والثاني اسميين ثم كل من هذين الحزبين انفسهم مع تمادي الزمان الى شيع متنوعة حسب اختلافهم في تفسير تعليمهم فامتلات كل مدارس أوروبا من هذه المنازعة قرونا عديدة وتيج منها احيانا كثيرة مقانلات دموية بين اللاهوتيين والفلاسفة

وبعض العلماء ينسبون اصل هذه المنازعات الى ما وقع من برنغاروس الذي مر ذكره على الافخارستيا لان رأي الاسميين يصح استعماله في الحمامة عنها اما رأس هذه الشيعة فهو رجل فرنساوي يقال له يوحنا السنسطي ولا يعلم الآن عنه شيء الا الاسم وتلاميذ الاصليون هم روبرت من باريس ورسن من كيبين وارنلف من لون ومنهم تعلم كثيرون هذا المذهب وربما يحسب بين تلاميذ يوحنا المذكور روبرت الذي علم في مدرسة ليسل في فلاندرس حيث قيل بانه قرأ المنطق لأكبروسه لفظا واودو الذي تقدم ذكره بقراءة لتلاميذ فعلا غير انه لم يشتهر احد من اسمي هذا العصر اكثر من رسن ولهذا اعتبر ولا يزال يعتبره كثيرون موسسا هذه الشيعة (هذا ما كان من اخبار الذين تكلموا عن مجرد امتداد المعارف وترقيتها ولم يتعرضوا لتفاصيل احوال الجهل الذي كان متسلطنا على الاكثريين في تلك الاعصر التي نحن بصدد الكلام عليها)

نبذة

في تفاصيل احوال جهالة الاعصار المذكورة

اما ما قاله بعض المؤلفين بشأن احوال تلك الجهالة المنوه عنها فهو انه كان الملك كرلوس الاكبر في فرانسوا والفريدوس الاكبر في انكلترا مجتمعا عن نشيت ظلام الجهل وتوصلا ان يدخل بين الرعايا بعضا من المعارف ولكن منع من تلك القوة وذلك الترتيب موانع عظيمة بسبب اهل ذلك العصر ثم ان وفاة هذين الملكين كان سببا في انغاس شعوب اوروبا في مجار الجهالة اكثر مما كانت عليه فكانت سكان اوروبا في هذه الاعصار المشومة تجهل ما كانت تحسن به الاعصار المتقدمة من الفنون بل كان لا وجود عندهم للفضيلة اصلا وقد كشف القناع بالتام عن وجه هذه الجهالة واوضحها جلبا العلامة الفاضل روبرتسون المورخ الانكليزي بما اخصه نعم انه وقع من كرلوس مانوس انه جمع اوفور عقاب تلك الجمعيات المشتتة في جمعية واحدة (يعني التي اشرنا اليها في الفصل الخامس من هذا البحث) وصاروا على قلب رجل واحد كأنهم عضو واحد واعاد في المملكة النشاط والقوة التي ميزت مملكة على غيرها وصبرت تلك الوقائع اهلا تعجب اهل القرون المستنيرة بالمعارف والعلوم لكن هذه الحالة لم تمك الأمد قليلة وعند وفاة هذا الملك صار مذهب الواسع المؤسس على الجراءة الذي كان رتبة منروكا لم يعضد بالحاسة والحمية التي كانت قوية في اتباعه ثم اضعفت وتمزقت مملكته الى عدة ممالك حتى صارت

عرضة للصائب والفتن ولا زالت تترابد من هذا الزمن الى القرن الحادي عشر
ومن حيث ان جميع الامم ما دامت لم تتمتع بمهلكة منظمة بامن الانسان فيها
على نفسه فانه لا يمكن لها ان تشتغل بالعلوم والفنون وتظهر ذوقها وتحسن
اخلاقها لان زمن الفتن والظلم والنهب لا يمكن ان يكون معيناً على تنعيم العوام
والنأئس والتعيش والاجتماع البشري وحسبك انه لم يمض قرن من فتوح الامم
الخشنية المتبريرة للبلاد الرومانية الا واصبحت رسوم المعارف والاداب دارسة
منسية لا ذكر لها عندهم فاهملوا وفقدوا علوم الفصاحة التي هي آلة الزينة وهجروا
عدة فنون تكون سبباً في انتظام المعيشة وصلاحها فكانوا في هذه الازمنة المشومة
لا يعرفون اساء علوم الادب والفلسفة واذا كانوا يشتغلون ببعض هذه الاداب
فانما كانوا يستعملونها في الاشياء الخبيثة لا في ما ينبغي ان تستعمل فيه
وكان الاعيان المقلدون في الوظائف المهمة لا يعرفون القراءة ولا الكتابة
فكانوا يعملون صورة صليب بدلاً عن امضاهم على الوثائق الصادرة عنهم وقد
بقي عدة وثائق الى زمننا هذا صادرة عن بعض الملوك وبعض الاعيان عليها
صورة صليب بدلاً عن الامضا وكان الكونتة هر بود رئيس المحكمة واعظم قضاة
الدولة في القرن التاسع وكذلك دوغسقاين رئيس الجيوش الفرنسية واول
اكابر عصره في القرن الرابع عشر لا يعرفان الكتابة ولا القراءة
وهكذا كان كثير من القسوس لا يفهمون الخطابات التي كانوا ملزومين
بتلاوتها عن ظهر القلب دائماً بل كان بعضهم لا يجسن القراءة واغلب ارباب
المناصب منهم لا يمكنهم ان يكتبوا اسماهم على القوانين التي كانت تنقر في المجمع
التي كانوا يحضرونها ولذلك كان من جملة القوانين انه يلزم كل من طلب ان
يتقلد منصباً او وظيفة يسأل هل يعرف ان يقرأ الانجيل والرسائل ويفسر
معناها ولو كلمة بكلمة من غير نظر الى تفسير الجملة وكان الملك الفريديوس
الأكبر ملك بريتانيا وانكلترة (الذي تقدم ذكره) يتشكى من عدم وجود احد
من القسوس في البلاد التي بين نهري هومبير والتيس يفهم الصلوات باللغة

اللاتينية ويمكن ان يترجم من اللغة المذكورة ولو العبارات السهلة
وكانت روايات الوقائع الماضية منسية عندهم ضائعة لاجود لها الا في
النواحي المملوءة من الوقائع والحوادث الباطلة
وصارت القوانين التي اُفتها الملل التي نزلت باقاليم اوروبا المختلفة متروكة
لا يعمل بها ولا يعتمد عليها واستعاضوا عنها بعبادات فاسدة مخالفة للعبادات
القديمة

ولما تجردت هذه الامم عن الحرية والحكمة والفيرة وتهدرت عندهم ممارسة
العلوم وقعدوا في ظلمات الجهل ومكثت اوروبا مدة ٤٠٠ سنة من القرن الثامن
الى القرن الحادي عشر لا يظهر منها احد من المصنفين يكون اهلاً لان يتتبع
بقراءة كتابه وحريراً بان يشهر بفصاحة العبارات وغرابة المعاني فلم يخترعوا في
مدة هذا التاريخ اختراعاً يكون نافعا مفيداً للجمعية تشرف به تلك الاعصر
وفسدت الديانة المسيحية المعينة قوانينها وترتيباتها في الكذب المقدسة
بالتدقيق الذي لا يقبل التغيير ولا التبديل وانقلب في هذه القرون الجهولة
الحال الى بدع خسفية لانه لما دخلت الشعوب المتبربرة في الديانة المسيحية لم
تغير مشربها في العبادة وانما غيرت معبودها فكانت تبحث عن ان ترضي الاله
الحق سبحانه تعالى بوسائل قليلة الاختلاف عما كانت تستعمله سابقاً لتسكين
غضب الهتها الباطلة التي كانت تعبدها

وحسبك في اثبات ذلك حكاية مضحكة مما كان القسوس يفعلونه وقتئذ
من الامور الهزئية التي كانت تُعمل في الكنائس لاجل سبيل الاستهزاء واللعب
بل على سبيل انه امر تعبدى تعمله القسوس ونقره الكنيسة وهو انه كان يُعمل
ممثل في عدة كنائس في فرانساً تذكراً لفرار مريم العذراء المباركة الى مصر
وكانوا يستنون هذا الممثل موسم الحمار وذلك بان يزينوا بنتاً شابة بافخر الملابس
حاملة فوق ذراعها طفلاً وراكبة على حمار مسرج بسرج فاخر والناس يقودونه
الى الجراب مع الزفاف والاحتفال ثم يصلون وهم في محفل وازدحام عظيم وقد

عودوا الحاران يمشون على ركبتيه في اوقات معلومة اثناء الصلاة وبعد الصلاة ينشدون اشعاراً مضحكة ككلام الصغار ثم يصرف الفسيس الناس بكونه يهتق كالحمار ٢ مرات وكذلك الحاضرون يردون عليه الجواب بان يهتقوا مثله ٢ مرات وقد ذكر المورخون كثيراً من مثل هذه المواسم الموجبة للازدراء والسخرية كحوسم المجانين وغيره.

وفي بعض الموفات انه كان في الاتصير الوسطى جماعة تسمى التواين بالسوط لان الانسان منهم اذا تاب كان يضرب نفسه بالسوط ليكفر بذلك عما ارتكبه من الذنوب وكانوا يعدون اليهودي اذا تنصّر ولم يأكل لحم الخنزير اوصام يوم السبت لانه يكون بزعمهم منافقاً وانه باقى على دين اليهود وذكر بعضهم بانّه كان من الامثال المضروبة بينهم انه من مشى ٦ خطوات في بلاد فلسطين لا يمكن ان يحسر نفسه

وقد بلغ بهم الجهل ان يجهروا الاراء المختلفة في الدين بالمحاربة الشرعية كما حصل في مملكة اسبانيا في القرن الحادي عشر عند ما حصل نزاع بين اصحاب الطقس الموزرايكي الذي كان مستعملاً في كنائس اسبانيا وبين اصحاب الطقس الروماني فاستحسن الملك وقتئذ رأي الاشراف بانهاء هذا النزاع الواقع بينهما بالمحاربة الشرعية وقد اتفق ان الذي كان يجارب عن الطقس الموزرايكي ظفر بمن كان يجارب عن طقس الكنيسة لكن كانت الملكة ومطران مدينة نوابك يميلان الى الطقس الروماني فاشار ابا بصير امتحان اخر بطريقة لامدخلة لاحد فيها سوى الله تعالى ولا يمكن مراجعتها وهي طريقة قضاء الله فاشعلوا نارا كبيرة ورموا فيها كتاباً من كل طقس واتفقوا على ان الكتاب الذي يحترمه المهبب ولا تاكاه النار يصير معمولاً به في كل كنائس اسبانيا فاتفق ان الكتاب الموزرايكي لم يحترق واما الكتاب الروماني فصار رماداً (١)

(١) ان طقس العبادة الجمهورية المستعمل في رومية لم يكن قد ادرج في كل بلدان أوروبا حتى الجبل الحادي عشر فلما الخ البابا غريغوريوس السابع في هذا الامر لم يوجد في

وقد اعذر الفاضل روبرتسون عن هذه الحالة المحزنة التي كانت عليها أوروبا في القرن الثامن الى نهاية القرن الحادي عشر بقله الكتب وندرتها وقتئذٍ وعدم انتشارها بين الناس لان الرومانيين كانوا يكتبون كتبهم على جلود مصقولة او على ورق قشر البيايروس المسى عند هم بردي وفيلكون ويقال له ايضاً ورق النيل لانه كان يأتي من مصر وكان ارخص ثمناً من الجلود ولذلك كان أكثر استعمالاً عندهم لكن لما افتتح المسلمون بلاد بر مصر في القرن السابع انقطعت المخالطات بين اهالي مصر وشعوب أوروبا وبطل استعمال ورق النيل فاضطروا الى الكتابة على الجلود وكانت غالبية الثمن فلذلك صارت الكتب غالية ايضاً ونادرة جداً وكان يصعب تحصيل مواد يكتب عليها حتى انه يوجد الى الآن بعض كتب من مؤلفات القرن الثامن والتاسع كلها منسوخة في جلود ازيلت منها الكتابة القديمة وعوضت بكتابة اخرى جديدة وكان ذلك سبباً في ضياع عدة مؤلفات قديمة ولذلك قالت بل ندرت الكتب القديمة السابقة على القرن الحادي عشر وقل ان وجد في ذلك الوقت اناس يملكون بعض كتب بل بعض الديورة والكنائس كان لا يوجد فيها سوى نسخة واحدة من الفنداق لخدمة القديس

وكتب راهب يقال له لوب وكان رئيس دير فيريس مكتوباً الى البابا في سنة ٨٥٥ م يستحلفه بان يعيره نسخة من كتاب شيشرون ومن قانون كتيبيان قائلاً انه لا يوجد نسخة كاملة من هذه الكتب في مملكة فرانساً جميعها واشترت كوتية انجو نسخة من كتاب مواعظ هيون اسقف هابرستاده فدفعت فيها ٢٠٠ من الضمان وه مقادير من الارض مزروعة قمحاً وه اخرى مزروعة من الحياودار وه مزروعة من الذرة البيضاء كما في تاريخ اداب فرانساً ولما استعار الملك لويس الحادي عشر من جمعية الطب البشري بمدينة باريس مؤلفات

شعوب أوروبا من ضاد هذا المشروع اكثر من اهالي اسبانيا ولما اراد الملك الفونسوان يمثل ارادة هذا البابا اعترضه الاشراف ومن ثم جرى هذا الامتحان في سنة ١٠٨٠ م

الفخر الرازي رهن هذا الملك في نظيرها مقداراً جسيماً من امتعته الثمينة بل طلب منه كفيل يكفله حتى يردّ هذه الكتب فعين لذلك بعض المنتزمين مع ان هذه الاستعارة كانت بالقرب من اواخر القرن الخامس عشر وكان اذا وقف احد كتاباً على كنيسته اود برعد ذلك امرًا عظيمًا فكان يدنو بنفسه الى المحراب ويضع الكتاب فيه لكن لما اخترع فن اصطناع الورق المعتاد اوانه وصل الى اوروبا بواسطة العرب الاسبانيوليين في القرن الحادي عشر تعددت بذلك الكتب وسهلت ممارسة العلوم سهولة غريبة بالنسبة لما كانت عليه قبلاً

الحروب الصليبية

من سنة ١٠٩٦ م الى سنة ١٢٧٠ م

كانت العلوم والمعارف كانت وقتئذ ذات هيولى اى جسم مادي متغير لا يمكنه ان يوجد في قطرين متخالفين من اقطار الارض لانه منذ القرن الذي نقلت فيه صناعة الورق الى اوروبا على ما ذكرنا استبان من قرائن الاحوال بان العلوم والمعارف اخذت في اهبة الرحيل والانتقال من الاقطار الشرقية الى الاقطار الغربية قال العلامة الفاضل خير الله افندي المورخ العثماني بمرض التشكي من حالة البلاد الاسلامية انه من القرن الخامس الى القرن السابع من الهجرة سنة ١١٠٠ - سنة ١٣٠٠ م لم يبق بين الناس اعتبار ولا حرمة للعلوم والمعارف بل تلاشى ذلك من افكار العالم بالكلية واعتري العلماء والمؤرخين الفتور والكسل حتى ان علماء السنة من المسلمين وهم كبار الامة اصحاب المذاهب الاربعة مع كونهم اقتدى بهم الوف من العالم اتصل بهم الضرر وكابدوا من

انواع البلايا والمصائب هم وغيرهم من العلماء ما لا مزيد عليه والاماكن العامرة التي كانت زاوية زاهرة بالعلوم والفنون استولى عليها المسلمون الذين كانت احوالهم مضطربة في تلك الاعصر نظراً لهجوم التتار عليهم من كل الجهات وما بقي من اهالي اوروبا كانوا في حالة التوحش والبربرية مشغولين في الحروب الصليبية والانقسامات الكنائسية الشرقية والغربية فلم تبقى فيهم وسائل ترغيبهم في تحصيل العلوم والمعارف حتى ان الاكاديميات التي كانوا ينشونها ويؤسسونها نظير المدارس التي كانت في البلاد الاسلامية كانت تعيقها المداخلات والتعصبات التي كانت تصدر من الحكام لكن مع كل ذلك حصل نوع تقدم في الحرف والصنائع بفرانسا (ما ذكره هنا من هذا القبيل سوف نوردّه في محله عند الكلام على الحرف والصنائع في اخر الفصل التالي)

اما العلامة المعلم روبرتسون المورخ الانكليزي المقدم ذكره فانه يقول بعد ما حكاه وقد سبق تلخيصه عن فضائح جهالة تلك الاعصر التي مر ذكرها ان ذلك كان مصداقاً لما قاله المعلم هوم (مورخ انكليزي اخر) وهو ان الانسان اذا وصل الى حضيض الانحطاط او ارتفع الى اوج الارتفاع فانه يرجع الى الضد لانه لما وصلت تلك العيوب الى اقصى درجة في الزيادة عند ذلك اخذ سير الحكومة واخلاقها في التنازل الى ان زال خلال الترتيب والخشونة وترتب بدله الادب وانتظام القوانين وكان السبب الاصلي في ذلك تلك الحروب الصليبية المشهورة (التي ابتدأت في زمن فيليب الاول بن هنري الاول ملك فرانسا من سنة ١٠٩٦ م) بقصد استخلاص الاراضي المقدسة من تسلط المسلمين

وذلك انه كان ظهر على حين غفلة في اوروبا رأي عظيم انتشر بين الناس جميعاً وهو انهم تخيلوا ان الالف سنة المذكورة في رؤيا القديس يوحنا الانجيلي ص ١٠٢٠-٤ قاربت الابتداء وان المسيح سيظهر في اورشليم ليالك على الارض فتترك كثير من الناس اموالهم واملاكهم وعيالاتهم واحباءهم وذهبوا بسرعة الى

الأراضي المقدسة غير أن كثيرين من الزوار الذين رجعوا إلى بلادهم أخبروا عما وقع لهم من معاملة الأتراك الرديئة (اتباعاً إلى الأصل) بعد أن كان الخلفاء المنورون بأنوار المعارف الذين كانوا يحكمون هذه البلاد قبل الأتراك المذكورين يعاملون زوار القدس أحسن المعاملة ويعينونهم على زيارتهم لما إن ذلك كان لهم من قبيل التجارة التي تعود عليهم بالبرح العظيم إلى أن أخذ الأتراك منهم هذه البلاد في أثناء القرن الحادي عشر المذكور

وقولنا هنا اتباعاً للأصل هو أن يكون أن حكام مصر وبر الشام في القرن الحادي عشر والثاني عشر أيضاً لم يكونوا من الأتراك وإنما كانت الخلفاء العبيديون الفواطم هم الذين يحكمون هذه البلاد وأما الأتراك الأيوبيّة الكرديّة فلم تتماكها إلا منذ ظهور السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب في سنة ٥٦٧ للهجرة سنة ١١٧١م وأول تجريدة من هذه الحروب كانت في سنة ١٠٩٦م على ما قد ذكرنا فيكون ذلك في أيام خلافة المستعلي بالله أبي القاسم أحمد ولد المستنصر العلوي العبيدي فلما دخل للأتراك في أسباب هذه الحروب وينبغي أن تكون الشكوى من العلويين لأن الأتراك

وقال العلامة خير الله أفندي المقدم ذكره ما ملخصه مترجماً أن سبب هذه الحروب هو عدم امتلاك المسيحيين في ذلك الوقت الحرية الكاملة حسب مرغوبهم عندما كانوا يتوجهون إلى زيارة الأماكن المباركة المخصصة لهم في الأراضي المقدسة وزاد عليه أيضاً الأعمال الغير لائقة التي جرت بأمر الخلفاء الفاطميين كهدم كنيسة القيامة وغيرها من باقي الأماكن الشهيرة المعروفة وقال ابن خلكان أن الذي أمر بهدم كنيسة القيامة وكنائس النصارى بمصر هو الحاكم بأمر الله العبيدي وكان ذلك في سنة ٤٠٨ للهجرة سنة (١٠١٧م) وعلى رواية أخرى ذكرها أيضاً خير الله أفندي المشار إليه أن سبب تلك الحروب كان الانفصال الذي وقع بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية فكان قصد أهالي أوروبا بفتحهم للأراضي المقدسة أن يبطالوا حقوق

أكبروس الكنيسة الشرقية في ميقات تلك الامكنة المباركة ويتداخلوا هم بها ولذلك لم تكن تساعد نصارى الشرق هؤلاء الحربيين الصليبيين عندما هجموا على الاراضي المذكورة فصار ذلك داعياً الى النفور العظيم بين الكنيستين فان هذه الاراضي طالما هي في يد المسلمين تبقى حقوق ميراثها محفوظة الى الكنيسة الشرقية اعتباراً الى الهبة المعطاة منهم الى صفرونيوس بطريرك اورشليم ولذلك توجه هؤلاء الحربيين الى القسطنطينية واستولوا عليها مع انها كانت وقتئذ تحت امبراطورية مسيحية ولم يكن يقصد نهب الحارة التي كانت مخصوصة بسكن المسلمين فيها كما زعموا بل يقصد الانتقام من الكنيسة الشرقية ومن ثم استولى عليها عدة قيصرية لاتينيين نحو نصف قرن من سنة ١٢٠٤ الى سنة ١٢٥٧ م تحت ساطنة بودواين كونتة اقليم فلاندره وذريرته ونهبوا كنيسة القديسة صوفيا (ايا صوفيا) ونقلوا زينتها وكل ما وجدوه من الآثار والتحف القديمة الى مدينة البندقية

ولترك البحث في الاسباب اذ انها على اية صورة كانت تنتج شيئاً واحداً وهو اغارة اهالي اوروبا على هذه البلاد وقد ابتدأت هذه الحركة براهب يقال له بطرس ارميطنة ومعنى ارميطنة العابد الزاهد فكان يطوف اقاليم بلاد اوروبا ويبيد صورة المسيح مصلوباً ليهيج الملوك والرعايا على الشروع في حرب مقدسة حتى ان مجمع بايزنسة الذي كان يحضره اكثر من ٣٠٠ الف شخص قضى ان مقصد هذا الراهب كان الهاماً الهياً

ثم ان كلام مولفي ذلك العصر يقتضي ان عدد من حل علامة الصليب واستعد لهذه الغزوة كان ٦ ملايين من الحاربيين وبسبب هذه العلامة سُميت هذه الحرب بحرب الصليبيين ومن بعد ما حدث عند اهالي اوروبا العلامات التي يتخذونها الآن للرتب والشرف ولما رأيت اميرة يقال لها كومينية هذا الاستعداد العظيم قالت يظهر ان اوروبا انتزعت من مواطنها لكي تنزل بثقلها على اسيا

واستمرت هذه الحروب زماناً طويلاً من سنة ١٠٩٦ الى سنة ١٢٧٠م حتى سئم منها وصارت ذميمةً ورجعت بقايا هذه الجيوش الى مواطنها الاصلية بلا طائل بعد ان سفكت فيها دماءً لا تحصى ابادت عدةً ملايين من الرجال وكانت تعزية الذين رجعوا وقتئذٍ سالمين الى اوطانهم هي ما استصحبوه برجعتهم الى اوروبيا من الآثار العتيبة التي اخذوها من اورشليم مثل قطع اخشاب زعموا انها من صليب المسيح بعينه وثياب زعموا انها ثيابه والآلات التي نالم بها وذرة من النخيم الذي رآه المجوس في المشرق ومقدار من صوت الاجراس التي في اورشليم وقطعة من السلم السماوية التي رآها يعقوب في حابه وعين المنخس الذي أعطي الى بولس الرسول في جسده وآمن العامة هؤلاء المخدعين وطفنوا بزورون الهياكل التي وضعوا فيها هذه الذخائر كما كانوا بزورون بيت مريم العذراء الذي يزعمون انه انتقل بعينه بعد استيلاء المسلمين على اورشليم في الفتح الاول طائراً في الجو من مدينة الناصرة الى مدينة لورتو في ايطاليا وكذلك الكمار المقدس الذي ركبهُ المسيح وهو نازل الى اورشليم فانه ابي بعد ذلك ان يقيم في اورشليم فقام وقطع البحر على وجه الماء بعد ان زار قبرص وكريد ومالطة وسيسيليا وحل أخيراً في فيرونا وبقي جسده مفترقاً في تلك المدينة على نوعٍ عجيب وفيرونا اسم مدينة من اقليم لومبارديا في ايطاليا ايضاً

ولنكتف الآن بما ذكرناه مما استصحبهُ هؤلاء المحرّبون من مثل هذه الذخائر الهزئية ونشرع في البحث عما اكتسبوه من الفوائد الحقيقية بهذه الغزوات التي هم انفسهم الآن يعدونها من الجنون البشري وبها ينتهي الفصل الثاني من القسم الثاني من اقسام التاريخ ويتدي بالفصل الثالث الذي هو نهاية الفرون الوسطى

الفصل السابع

في حالة العلوم والمعارف منذ اشهر الحروب الصليبية اعني من سنة
١١٠٠م الى نهاية القرن الرابع عشر

لا يخفى بان الغزوات الصليبية المذكورة كانت اول حادثة اخرجت
اوروبا من مجار الغفلة التي كانت غارقة فيها مدة احقاب طويلة لانها حملت
اهاليها على بعض تغييرات في حكوماتهم واخلاقهم وذلك عندما مروا في جهة
بلاد القدس باراض نضرة اكثر من اراضهم ويدول متمدنة اكثر من تمدن
دولهم وكانوا يجنبهمون في ميدان امرهم في ايطاليا وكانت مدينة بيزا والبندقية
وجنوبها ومدن اخرى منها شرعت تجتهد في التجارة واشتغلت بالتأديب
ثم لما توجه هؤلاء الحربيون الى مدينة القسطنطينية كانت الدولة اليونانية
الشرقية بتمامها خالية من الميل الى الحرب والجهاد مدة احقاب طويلة وكان
جور الحكام قد مخي من تلك الدولة جميع الفضائل العمومية ولكن مدينة
القسطنطينية التي هي دار ملكتها لم تغربها الممال الخشنة كما خربت غيرها
فكانت اعظم مدن اوروبا وباقي فيها بعض اشيا من التمدن وحسن التربية
القديمة وكانت قوتها البحرية عظيمة وكانت مزينة بالمعامل المعبرة وهي
وحدها مخزن بضائع بلاد اوروبا الآتية من بلاد الهند وكانت فيها منابع الغنى
التي كانت سبباً في ميل اهليها الى الزينة والعلوم والاشياء الفاخرة ولذلك
تعجب المورخون اللاتينيون غاية العجب عندما نظروا امبراطورية المشرق
وثرورها وظرفها وبجرد ما نظر احد هم الذي هو المعلم فولكو دوشترتروس الى

تلك العاصمة صاح اذ تعجب من منظرها قائلاً بالها من مدينة ظريفة واسعة
وما اكثر ديوورها وقصورها البديعة البناء وما اكثر ما يرى فيها من الورش
(المعامل) العجيبة وما كنت اتوهم بانها يكثر بها كل انواع الاشيا والنفائس
من ذهب وفضة واقمشة متنوعة كيف لا وقد شاهدت ميناها يأتي اليها في كل
ساعة سفن موسوقة من جميع الاشياء اللازمة لاستعمال الناس وكذلك غايوم
مطران مدينة صور وصف في عدة مواطن بهاء ديوان القسطنطينية وعظمته وذكر
ان ما كان يراه اهل المغرب في تلك المدينة كان يحيل عن ان تحيط به عقولهم.
وبنيامين العبراني رجل من مدينة تودلة باقليم نوار وكان مبدأ رحلته في سنة
١١٧٢م وصف هذه المدينة بعبارات تدل على غاية التعجب ومثاله المولف
برجرون في رحلته في القرن الثاني عشر والثالث عشر وما بعدها وتكلم
الراهب غونيتيرالفرنساوي في تاريخ الفة في فتح هذه المدينة بالجيوش الصليبية
في القرن الثالث عشر على عظم تلك المدينة وبالغ فيها كغيره وهكذا جرفروا
دوويل هردوان من الاشراف المتمازين المترفين وقتئذ في بلاد المغرب ذكر
عبارة في هذا المعنى وبالغ في التعجب الذي ادهش بعض عساكره الذين لم يروا
مدينة القسطنطينية الا تلك المرة معه فقال يعسر على هؤلاء العساكر ان
يصدقوا بانها يوجد في الدنيا بتمامها مدينة ظريفة غنية مثل هذه المدينة حتى
نظروا الى اسوارها الكبيرة وحصونها المشيدة العالية وقصورها البهية اللطيفة
وكنائسها النفيسة المنيعة فكبر ذلك في اعينهم بحيث لو لم يروها حسياً لم يتأت
لهم ان يتصوروها بمجرد وصف الواصف

وكانوا قبل ذلك وجدوا في اسيا ايضاً اثار العلوم والفنون التي كان اعان
على تحصيلها في بلاد الاسلام الخلفاء العباسيون واكتسبوا من اخلاق الملك
صلاح الدين الايوبي وغيره من امراء المسلمين ما اكتسبوه فلم يكتفهم ان يجوبوا
كل هذه البلاد من غير ان يكتسبوا من علومها ومعارفها فلذا انسمت اطماعهم
وضعت اوهامهم وتصورت اذهانهم تصورات نافعة وتاكدا ان ما كانوا عليه

من الاخلاق هو خشني بالنسبة لاخلاق الشرقيين وكانت هذه التأثيرات قوية جداً لم تخرج من حافظتهم حين رجوعهم الى اوطانهم وكان بين اهل المشرق والمغرب تجارة دائمة وكانت اخلاط العساكر المتجمعة من الجهات المختلفة ترجع الى محلاتها مستصعبة للعادات التي اكتسبها في مدة طويلة من الاراضي الغربية فبعد زمن قليل من الشروع في المحاربات الصليبية ظهرت تحسينات كثيرة في دواوين اوربا وزينات جميلة في المحافل العامة والجامع المدنية وترفهات جليلة في الاعياد والمواسم وصارت حكاية الحوادث محبوبة لديهم وانسجت دائرتها وانتشرت في جميع بلاد اوربا شيئاً فشيئاً وحسبنا ان نورد قياساً لذلك من تلك التحسينات ما جرى في فرنسا وحدها فانها منذ اكتسبت الحرية^(١) على ما يأتي اسس فيها الملك لويس السابع الذي تولى حكومتها في سنة ١٢٧٢م المدارس الجديدة الآتية تفاصيلها وظهرت الشعراء في الاقاليم الجنوبية منها وفي زمن فيليب الثاني الذي تولى المملكة سنة ١١٨٠م بنيت اسوار باريس وتباطت اسواقها وبنى فيها اسواق جديدة وعدة كنائس ودفترخانه لاجل وضع دفاتر المملكة وكان هذا الملك براعي دواوين العلوم وينعم عليها بزايا عظيمة وبنى ميناء باريس وصير بذلك تجارتها ذات مزية مستمرة واحداث عساكر الوردبان المسى بلغتهم ريبود وهو اول خنير احاط بملك فرنسا ليخفرو

(١) ان لفظة الحرية تطلق في عرف اهالي اوربا بازاء معينين احدها يسمى الحرية الشخصية وهو اطلاق تصرف الانسان في ذاته وكسبه مع امنه على نفسه واهله وعرضه ومساواته لابناء جنسه لدى المحاكم بحيث ان الانسان هضمة (بمعنى مسوداً) في ذاته ولا في سائر حقوقه ولا يحكم عليه بشي لا تقتضيه قوانين البلاد المنقورة لدى المجالس وبالجملة فان القوانين تفيد الرعاة كما تفيد الرعية والحرية بهذا المعنى موجودة الآن في جميع الدول الاوربية الا في البلاد التي كان يحكمها سابقاً البابارات والدولة المسكوية لانها مستبدتان وهما وان كانتا ذاتي احكام مقرر الا انها غير كافية لحفظ حقوق الامة لان نفوذها موقوف على ارادة الملك اما المعنى الثاني فهو الحرية السياسية وهي طلب الرعايا التداخل في السياسات الملكية والمباحثات في ما هو الاصل للملكة

وفي القرن الثالث عشر اوقف الملك لويس الثامن المتولي عليها في سنة ١٢٢٢م اوقافاً على ٢٠٠٠ مرستان معدة للمصايين بداء الجذام الذي كان معتريه ومات به وألف الملك سنت لويس الذي تولى سنة ١٢٢٦م قوانين نهى فيها عن الحروب الداخلية الخصوصية وعن فصل الدعاوي بالمقاتلات الشرعية إلا في بعض صور استثنائها وفرق بين الوظائف السياسية والقضائية واحداث للحكام الملكية عدة ترتيبات حسنة وشرع للتجارة قوانين تبهيها وأسس المرستان المسى كازوت ماوي للعميان

وفي القرن الرابع عشر حرمت النساء من لبس الناج الملوكي بفرانسا في زمن الملك فيليب الخامس الذي تولى الملاكة سنة ١٢١٦ استناداً على القانون السالي مع ان هذا القانون لم يتفوه بشي من ذلك على ما تقدم في الفصل الرابع من هذا البحث الذي نحن بصدده وإنما سبب ذلك على ما قاله بعض المؤلفين هو سلطة النساء على قلوب الرجال فاذا تولين المناصب لعين بالرجال كما يجيبن وفي زمن الملك كرلوس لوبيل اي الظريف الذي جلس على التخت في سنة ١٢٢٢م كانت ملاكة فرانسا اجنبية عن العاومر والمعارف والفنون التي كانت ابتدأت وقتئذ ان تزهر وتزهو ببلاد ايطاليا لكن مع ذلك استدلو على ان الاداب والفنون شرعت تزهر بجنوب فرانسا بواسطة المدرسة المخترعة التي ترتبت للالعاب بمدينة طولوزة وفي زمن الملك كرلوس الخامس الذي تولى سنة ١٢٦٤م ترتب علم البحرية وبذلك انتصر على الانكايذ وتوسعت التجارة وترتبت قوانين عظيمة وحى هذا الملك العلوم والفنون والاداب حيث أسس بدار حكومة المدينة مكتبة جلب اليها بعض مجادات كان جمعها ابوه وزاد فيها حتى بلغت ٩٠٠ مجلد واسس مدرسة ومرصد للكواكب للعالم المسى جبرويس وسوف يأتي ذكره الذي كان انشط علماء الفلك في العلم الكاذب الذي كان يعتقد هذا الملك كغيره من الملوك في ذلك العصر وكان يقول لا اري ان الملوك اسعد من غيرهم إلا بما عندهم من القوة والمقدرة على فعل الخيرات

ويتضح ما تقدم بان الحرية التي ذكرناها كانت هي اول تاثير هذه الحربة في الامن على الاملاك وابطالت المشاجرات والشور الخصوصية وشرعت ادارة العدل في ان تاخذ صورة مستحسنة ليس في فرانس فقط بل في جميع مال ك اوروبا الآتي ذكرها

وما ذاك الا لان الحكومة السيادية الالتزامية كانت قد استحوالت الى الظلم والجور فان الاشراف استعبدوا الرعايا فكان لا يمكنهم ان يتصرفوا في منافع صنائهم لا بالوصية ولا بغيرها مدة حياتهم ولا ان يعينوا اوصياء لصغار اولادهم ولا يتزوجوا الا بعد شراء الاذن من ملزمهم ولا يمكنهم ان يتعموا صلحا في فصل الدعاوي ما لم يعطوا المحاكم محصول الدعوى وكانت هناك جلة قوانين تمنع تقدم الصنائع عندهم لكن لما شرعت مدن ايطاليا في الالتفات الى التجارة وفهمت بهض صناعات نافعة خطر ببالها ان تخرج من تحت ذل الملتزمين وان ترتب لنفسها حكومة مؤسسة على الحرية والامن على الاملاك ومنوية للفنون والصنائع ثم بمجرد وقوع ذلك في ايطاليا شرع هذا الامر بالدخول الى فرانس واجتهد ملكها لويس اوغروس (اي السمين) الذي تولى الملكة سنة ١٠٨٠ م في عنق الاهالي من ظلم الملتزمين وابطل جميع علامات الاسترقاق وفي دون قرنين بطل الرق في اغلب قرى فرانس التي كانت محرومة الى ذلك الوقت من الحرية والحكومة الشرعية والخصائص وهكذا ايضا شرعت وقتئذ مدن المانيا العظيمة في كونها تنسج على منوال فرانس فانتشرت هذه الطريقة حالا في اوروبا ودخلت جميع بلاد النمسا واسبانيا والانكلير وايقوسيا وسائر الدول التي كانت حكومتها التزامية وصارت المدن منقسمة الى عدة جمهوريات صغيرة محكومة بالقوانين المعروفة عند الناس والمسوية بينهم ونشأ من ذلك ضعف شوكة الملتزمين ولاسيما بواسطة ذب الملوك عن خصوصيات الاهالي ضد الملتزمين تقوت شوكة الملوك بميل الاهالي لهم واعانتهم لهم في الاموال ايضا ومن ثم اخذ ضبط وربط الحكومة في التكامل كلما ازداد عمران المدن بالاهالي

وكثرت بينهم المعاشرات والمخالطات حتى آل الامر الى ترتيب قوانين جديدة جرى العمل بها مع التدقيق والمواظبة

وكانت جزيرة انكلترة اول مملكة جاء من قراها وكلا رعايا الامم الذين دخلوا في المشورة العمومية الالهية سنة ١٢٦٥م وكذلك فيليبس الظريف ملك فرانسوا الذي تولى المملكة سنة ١٢٨٥ ادخل في الديوان المسي مشورة العموم الالهية وكلاء المدن التي كانت قد ترتبت جمعيات مدن حرة وكذلك المانيا جعلت وكلاء المدن مساوين لعطاء ارباب ديوان البجرمانيين ولما عظم اعتبار وكلاء المدن ونفذت كلمتهم صارت المساواة وحسن الترتيب والنتفع العمومي وابطال الظلم مقاصد عمومية ومطجحا لانظار جميع الناس ودخل ذلك في اقرب وقت في قوانين الشعوب الافرنجية واحكامها

ولما كثر الاعناق في سنة ١٢١٥م وامتد في فرانسوا وايطاليا والمانيا وازدادت الرغبة في الحرية ببلاد الانكلتزر حتى صار اسم الاسترقاق الشخصي نسبيا منسيا كثرت الزروعات بها ان الزارع صار يزرعها لنفسه وليس لمنفعة غيره

ثم جعلوا وسائط الانتظام والمساواة والقوة في تدبير فصل الخصومات واسسوا لاجل توفية هذا الامر قوانين ترجع الى ٣ وسائط اصلية وهي

(١) ابطال الحقوق الخشنية التي كانت الاحاد تزعم استحقاقها وهي
مباربة بعضهم بعضا
(٢) ابطال القتال الشرعي لفصل الخصومات والاشجانات التي
يسمونها قضاء الله

(٣) اقامة الدعاوي في محاكم الملوك بعد فصامها في محاكم الملتزمين لكن مع كل ذلك كانت طريقة المقاتلة الشرعية وان اخذت في التناقص على التدرج وصارت قليلة الاستعمال في اغلب البلاد يوجد منها بقايا الى القرن السادس عشر حسبا ذكر ذلك في تاريخ فرانسوا وانكلترة فان المؤلف موريس

ذكر محاربة شرعية وقعت بحضرة دوك بريتانيا سنة ١٢٨٥ م بين روبرتد وبومواروبين بطرس دوتورنومين وكان بومواراتهم تورنومين بانه قتل اخاه فيارزا بعضها وهزم بوموار خصمة تورنومين فثبت على تورنومين القتل وحكم عليه شرعاً بالشنق في الميدان ولم يعف عنه من ذلك الاكرم خصمة بوموار اكونيه اسقط حنثه وعفا عنه وكذلك في سنة ١٥٢٢ م اذن الامبراطور شارلكان بمحاربة شرعية في اسبانيا ثم ان اخرواقعة حصلت في فرانس من المحاربات الشرعية هي المحاربة الشهيرة التي حصلت في سنة ١٥٤٧ م بين جرناك وكسنبره وفي سنة ١٥٧١ م اذن في انكلترة بمحاربة شرعية ووكل بملاحظتها قضاة محكمة الخاصات العمومية وكذلك في سنة ١٦٢١ م اذن في انكلترة ايضاً بمحاربة شرعية توكل بملاحظتها قائد جيوش انكلترة ومارشالها الاكبر وبعد ذلك بسبع سنين حصل فيها محاربة شرعية ايضاً

وكان لما افتتح الملك لوئار يوس الثاني أمماني من بلاد ايطاليا في سنة ١١٢٧ م عثر اتفاقاً فيها على نسخة من مجموع كتب قوانين يوستينيانوس التي سبقت الاشارة اليها في الفصل الخامس من البحث الاول وكانت هذه القوانين مجهولة منذ اجيال كثيرة فأتى بها الملك الى مدينة بينا فتمت حينئذ حالة الجمعية السياسية بعض تقدمات عظيمة جداً والتجارب التي حصلت في القرون العديدة وسعت عقول الناس في شان هذه التقدمات فصاروا يتعجبون جداً حيث اطعموا على هذا المذهب القانوني الذي عجزت اسلافهم عن ترتيب مثله ومع انه لم يكن لهم طاقة على ادراك حلاوة تاليف الاداب وبلاغتها ومعرفة معانيها كانت لهم معرفة كافية في ان يحكموا بفضل هذا المذهب القانوني الذي كان ممنوعاً على جميع الاحكام اللازمة لوقائع الناس على اختلاف احوالهم واعمارهم مع العدل والاصابة والتدقيق ثم بعد ظهور هذا الكتاب القانوني بسنوات قلائل ترتب في اغلب مالک اوربا مدرسون للقانون التمدني وامروا بقراءته في المحافل العامة

وقبل ان ينتهي القرن الثاني عشر صار القانون الاتزامي مذهباً منتظماً وصار كتاب دستور القوانين متسعاً ذا شكل حسن الترتيب لتسهيل مراجعته وقد تلقى بعض بلاد أوروبا تلك الشرائع الرومانية بالقبول ليستعملوها بدلاً عن الشرائع المدنية وجميع الاحوال التي لم يفض فيها بهذه الشرائع كان يحكم فيها على موجب اصول تلك القوانين الرومانية وكان بعض الامم يزجون الفقه الروماني والقوانين السياسية بقوانين البلاد وكان كل منها مساعداً ايضاً لقوانين البلاد على تكميل تشريع الشرائع وترتيب القوانين والاحكام

وفي سنة ١١٤٧ م اخذ المعلم داكريوس في تدريس الشرائع المدنية بمدينة اوكسفورد وفي سنة ١١٥٠ م ظهر فقيهان مدينة ميلان كتباً قوانين الزامية على نسق الشرائع الرومانية وفي هذه السنة صحح المواقف كراتيان او هو غراتيانوس قانون الشرائع الاكايروسية الذي كان ترتب في اورشليم سنة ١٠٦٩ م و اضاف اليه زيادات كثيرة وذلك لان الاحبار الرومانيين لما رأوا الشرائع المدنية صارت بين العلوم التي تدرس في المدارس احنسبوا كذلك ادراج القوانين الاكايروسية بينها ضرورياً وكان غراتيانوس المذكور من الرهبان البندكتيين فجمع من كتابات العلماء الاولين ورسائل بعض الباباوات وتحديدات بعض المجامع ما اضافته الى ذلك القانون الى ان صار ملخص ناموس قانوني يليق بتعليم شبان المدارس فسر به جئاً بوجينس الثالث بابارومية وقبله علماء بولونيا وادرجوه حالاً في التعليم وتبعهم في ذلك اولاً مدرسة باريس الكلية ثم باقي المدارس الاخر ولما كانت هذه القوانين نفوي سلطان الباباوات وتسنده حازت اعتباراً زائداً الى يومنا هذا مع ما فيها من السقطات العديدة والغلط البين

وفي سنة ١١٨١ م شرع المعلم غالنوبل رئيس المحاكم في انكثارة بتأليف قانونه وهو اول من شرع بترتيب شرائع معينة في بلاد أوروبا وبعد ذلك ظهر في بلاد ايقوسيا قانون جديد ينسب الى داود الاول وهو على نسق تاليف غالنوبل ذكر فيه ان بطرس دوفوتين الذي هو اول من شرع بعمل قانون

من هذا القبيل ألف قانوناً جامعاً لعوائد بلاد ورمندواس في أيام حكم الملك
لويس التاسع المعروف بسنت لويس وأوله من سنة ١٢٢٦م وفي هذا الزمن
ظهر بومنونار الذي ضمن كتابة عوائد لوينريس ثم نشرت قوانين الملك وكانت
مهيئة للعوائد التي كانت في بلاد الجنا لك (المقول) الملكية

وبعجود ما عرف الناس أهمية نسطير الشرائع وتقيدها بالكتابة صارت
عادة جميع الناس تحرير كل عادة حدثت وتسطير كل شريعة ظهرت وفي
سنة ١٤٥٢م أمر الملك كرلوس السابع ملك فرنسا بجمع هذه الشرائع التي
أوجبتها العادة في كل إقليم من أقاليم فرنسا ثم جدد هذا الأمر لويس الحادي
عشر الذي تولى المملكة سنة ١٤٦١م

وكانوا منذ نحرروا من عبودية الملتزمين تركوا ما كانوا عليه من الكسل
والبطالة وازدادت رغبتهم في طاب العلوم والصنائع واهتموا بشان التجارة
وأخذوا في اظهار رونقها وبالجحمة ظهر في تلك البلاد التي مكثت مدة طويلة
عملاً للفقر والظلم العنت والاستقلال وجرت ثروتهم الى التجمل والرفاهية
الذين يتبعها الزينة عادة ومع ان هذه الزينة كانت غير مألوفة للذوق نتج منها
كثير من الآداب والظرف في اخلاقهم واحوالهم كما يستبين ذلك من الابحاث
الآتية

العلوم

لا يخفى بانه لما كانت الافرنج في القرن الحادي عشر لازالوا يتشددون
بالشعر وتباحثون في ما فوق الطبيعيات وبعض الامور النظرية الصعبة
المسائل ما كان لازال باقياً عندهم من اثار المعارف التي كانوا تعاطوها قبلاً

وهي وان كانت غير نافعة في شيء ولا مصيبة كما يستبين مما يأتي في الكلام على كل منها بنرده الا انها كانت تمت العقول على الاجتهاد وتزيدها رغبة لكونها جد يلة وبسبب غزارتها وجراعتها ولذلك كانت الناس تعني كثيراً بمزاوتها فلم يتفق اصلاً في الاعصر المنورة بصايج العلوم ان الفلسفة الصحيحة المقبولة اعني بمزاوتها وممارستها اكثر من هذا وذلك انه فتح حينئذ في جميع امهات الكنائس واغلب الدبورة مكاتب على نسق المكاتب التي كان انشاها كرلوس الاكبر على ما سبقت الاشارة اليه ثم منذ القرن الثاني عشر تجددت ايضاً مدارس عظيمة ومجاسن لكليات العلوم فتخرج منها جمعيات علماء رخص لها في انه لا يجري عليها من الاحكام الا ما شرعته بنفسها ورخص لها ايضاً ان تحكم اربابها بافتاء مخصوص بهم منسج جداً وانعم على المدرسين والطلبة بحقوق ومزايا مهمة ولاجل اتخاف كل على حسب ما ياتي به ومكافئته واخترعوا الفأباً تليق بطائفة ارباب العلوم والفنون والمعارف والحرف وحيث كان العلم سهلاً لعلو الدرجات والغنى ذهب الى مجامع العلم وهذه المدارس عدد لا يحصى من الطلبة كما يتضح ذلك من التناصيل الآتية

المدارس

قال بعض المؤلفين انه في جانب عظيم من العالم الغربي صار اتباه بغيره خارقة المادة لطالب العلم وثقتيف كل فرع منه منذ القرن الثاني عشر فامدة بسلاطنتهم وسخائهم بعض الاحبار الاعظمين والملوك والامراء الذين رأوا منفعة العلم في تحسين حال الجمهور وتوطيده فانتظم جمعيات من العلماء في اماكن كثيرة لتعليم العلوم المتنوعة من العلوم البشرية وبما ان الشبان التجأوا اليهم

افواجا افواجا يطلبون العلم نشأت شيئا فشيئا المدارس العليا التي سميت في
الجيل الثاني مدارس كلية وفاقمت باريس كل مدن اوروبا في عدد علمائها
وفي مدارسها المتنوعة كما في كثرة تلاميذها ففي نحو نصف القرن الثاني عشر
المذكور انشئت مدرسة عليية تشبه اعظم مدارسنا (يعني مدارس القرن التاسع
عشر) غير انها كانت حينئذ غير كاملة وبلا ترتيب الا ان الوقت حسنها
ونظما شيئا فشيئا وكلها وبالقرب من هذا الوقت ايضا تأسست مدرسة للمعلوم
في انجبرهه واعلنا الاسقف اولجير وكان لعلم الفقه في هذه المدرسة الرتبة الاولى
وكانت مدرسة شهيرة في منطير لتعليم الشريعة المدنية والطب ومدرسة بولونيا
في ايطاليا التي انشئت قبل هذا القرن قد حصلت الان على شهرة عظيمة
فالنجبا اليها على الاخص طالبة الشريعة الرومانية والمدنية والكنايسة ولا سيما
بعد ان جدد ثبوتها ومنهجها امتيازات جديدة الملك لوثار بوس الثاني وكذلك
مدرسة سارنو الطبية التي كانت قبل الآن مشهورة جدا في هذه البلاد دخلها
في هذا القرن عدد وافر من الطلبة وبينما كانت تشاد المدارس العديدة في اوروبا
سن البابا اسكندر الثالث قانونا خصوصا بجميع عقده في سنة ١١٧٩ م على
ان تقام المدارس في كل مكان وتجدد بناء ما كان موجودا من ذي قبل في
الاديرة والكنايس اذ ان البعض منها كان اما اندرس او انحط بتغافل الاساقفة
والرهبان غير ان ازدياد المدارس العالمية التي كانت تجدد وشهرتها لم يتركها
مزية لهذا القانون حيث ان الاكثرين كانوا يتراحمون في الدخول اليها حتى
آل الامر اخيرا الى ان سقطت مدارس الرهبان والكنايس شيئا فشيئا وتلاشت
وهن الفوائد التي نتجت عن هذه الجبهيات الكثيرة براعتها ليس امتداد
العلوم وانتشارها فقط بل وتقسيم فروعها نفسيا جديدا ايضا لان كل العلم كان
منصرا الى ذلك الوقت في ما يدعونه بالعلوم السبعة التي سبق تفصيلها في
الفصل الرابع من هذا البحث وكان ثلاثة منها وهي النحو والبيان والمنطق تسمى
بالثلاثة واغلب الطلبة يكتبون بتفصيلها واما الاربعة الاخر المسماة بالرباعية

وهي الحساب والموسيقى والهندسة والفلك فلا يرتقي اليها الا من اراد ان يُحسب
 اول عالم فاضيف اليها في هذه المدارس علم اللغات التي لم يرغب فيها الا القليلون
 وعلم اللاهوت (غير العلم القديم البسيط العدم النظام والفرائض المثبت فقط
 من الكتب المقدسة واقوال الاباء) الفلسفي او السكولاني اعني المدرسي
 والفقه او الشريعة المدنية الرسمية واخيراً الطب الذي كان يسمى وقتئذ علم
 الدوا وحيث اقيم مدارس خصوصية هذه العلوم وضعت في جريدة الدروس
 المستحقة لانتباه ذوي العلم فتغير بذلك ترتيب العلوم المألوف ومن ثم دخلت
 العلوم السبعة المذكورة بالترتيب تحت حد الفلسفة واضيف اليها اللاهوت
 والفقه والطب وهكذا هذه العدة الاربعة حسب تسميتهم اياها انتظمت في القرن
 الثاني في المدارس الكلية

وقد ذكر المؤرخون هذه الكوليجات (اي المدارس الكبرى) والايونورسات
 (وهي الجمعيات) التي فيها مدارس العلوم التي هي من اهم حوادث تاريخ
 العلوم الادبية فقال انه كان في مكاتب الدبورة والكاتدرالات يعلمون النحو
 وكان كل مكتب فيه معلم واحد او اثنان لتعليم هذا الفن واما الكوليجات
 فكانت تشتمل على عدة مدرسين معدين لتعليم كل علم وفن وكان فيها زمن
 كل علم مبيّناً وكانت تعمل بها امتحانات لمعرفة تقدمات الطلبة وكان كل
 من ظهرت نجابته كوفي بالثاب ومراتب وتشریفات اكدمية اي علمية وفي سنة
 ١٢١٥ م ابتدأت اونيورسات بلاد اوربا ان تاخذ اغلب عوائدها وقوانينها
 من اونيورسة باريس وكل ترتيب هذه الاونيورسات في سنة ١٢٢١ م واعطي
 اذ ذاك للدرسين والمعلمين والعلماء مزايا عديدة حتى انه كانت تحصل
 مناقشات بين العلماء وبين امراء الكفالري^(١) في شان التصدر وكان يتم الامر

(١) معنى هذه اللفظة فرسان والاصل فيها ان في الحروب الصليبية قام ثلث رتب شهيرة
 حربية كان شعارهم ان يخلوا الطرقات من اللصوص ويساعدوا الفقراء والمرضى من زوار
 الاماكن المقدسة ويقدموا الخدمة التي تقتضيها مطالب الجمهور فالرتبة الاولى فرسان

غالباً بترويج العلماء وترقيتهم الى هذه المرتبة مع انها امانة عظيمة وحكم بان العالم
له حق بان يُلقب بامير الكفالي لكتور (اي العلمية) ومن كان في درجتها
من العلماء يُسمى الكفاليير كلرك اي الامير العالم

اما الذين نالوا اعظم المجد والشهرة بتجزهم للعلم في القرن الثالث عشر
ودعوا العلماء الى اراضيهم ونشطوهم بالجوائز والاکرام ونهجو السبيل الى اقامة
المدارس العالية المذكورة في سائر الامكنة وانعموا بها ذكر من الامتيازات للشبان
طالبي العلم فيها ومنحوا هذه الجمعيات مزايا الجمالير المدنية وانعموا عليها بتلك
الشرائع الخصوصية فهم الملك فريدريك الثاني الذي كان اشتهاره بالعلوم
ليس باقل من شهرته في المحاماة بغيره عنها وهو الذي اسس مدرسة نابلي وامر
بترجمة مؤلفات ارسطو الى اللغة اللاتينية وجمع كل العلماء الى ديوانه
وبرهن بذلك وبغيره ايضاً على عظم محبته للعلوم والفونوسوس العاشر ملك
كستيل وايون حيث خاد ذكره بجميع الجداول الفلكية ومؤلفات اخرى غيرها
ثم ان هذه العلوم المعروفة وقتئذ لم تكن تحصل باجمعها في تلك المدارس
سواء كانت جمهورية او كلية ما اسس في بادوا ومودينا ونابلي وكابو وتواوزة
وسالامنكا وليون وكولونيا وغيرها بل يحصل البعض منها فقط او بعض علوم
خصوصية انما مدرسة باريس التي فاقت غيرها بعدة امور كما تفوقت ايضاً
بكثرة الطلبة والمعلمين هي التي كانت اول مدرسة درس فيها كل العلوم والفنون
واذالك صارت اول مدرسة كلية او جامعة كما كانوا يدعونها وقتئذ ثم بعدها

ماري يوحنا الاورشليمي نسبة الى بيت صحة كان في اورشليم على اسم ماري يوحنا المعمدان
وهم الذين نرحوا اخيراً الى قبرس ثم رودس ثم مالطة والثانية الهيكلية نسبة الى بيت
بالقرب من هيكل سليمان في اورشليم واخيراً اغنتت جداً وظهر منها شرور واعمال
اوجبت بغضها فابطلها البابا ومجمع فيينا بسعي فيلبس الرابع ملك فرانسوا في مبادي القرن
الرابع عشر والثالثة الفرسان التوتونيكين لمرم العذراء المباركة في اورشليم ايضاً نشأت
في سنة ١١٩٠ في حصار عكا وقيل في اورشليم ثم لما نرحت اخيراً من الاراضي المقدسة سكنت
في بروسيا وليفونيا وكورلند وسيفاليا الى ان تلاشت نظير غيرها

نسخ على منوالها مدارس باقي البلاد وكذلك في هذه التي هي ام كل مدارس أوروبا
توزع اولاً المعلومون الى اربع مدارس بحسب العلوم التي يعرفونها ومن ثم نُسبت هذه
المدارس فاكثر وتعين لكل مدرسة منها رئيس عن رضى من الباقيين لمدة
معلومة وكان اسقف باريس هو الرئيس العام لكل المدرسة لكن حيث لم تكن
يو الكفاية للقيام بكل واجباته أُقيم معه اخيراً رئيس ثانٍ فاسس مدرسة
اللاهوت وكان هناك رجل نقي من الاغنياء ذومكانة عند لويس التاسع ملك
فرانسا المعروف بسانت لويس يسمى روبرت سرتني وقف لها اوقافاً في سنة
١٢٥٠م فنسبت هذه المدرسة له وسميت صربونا الى هذا اليوم

وكان لا يستطيع احد من الطلبة ان يدخل احدى المدارس قبل ان يتبرّن
مدة طويلة تمريناً نسيّ التمرين المدرسي ويفحص فخصاً مدة قنأ عدة سنوات والقصد
من هذا الترتيب منع كثرة المعلمين الزائدة وصدّ عديبي المعرفة والاختبار من
ان يسطوا على واجباته تنتضي اعظم المواهب وادقها اما الذين يتهمون
ما توجهه القوانين ويتقنونها فيدخلون رسمياً في رتبة الاساتيد ويقامون للتعليم
ببعض احتفالات جهارية تماثل الاحتفالات المستعملة عند جمعيات الصنائع
والحرف غير العلمية وكان الذين ادخلوا هذه العادة اولاً في القرن الماضي
فقهاء بولونيا ثم امتدت في هذا القرن واتصلت بلاهوتي باريس اولاً ثم الى
اساتيد الطب والعلوم وهذا هو الاصل في ما يسمونه بالدرجات المدرسية التي
شدّت كثيراً عن وضعها الاصل كسائر الرسوم البشرية وهي دائماً تاخذ في
الاختلاف شيئاً فشيئاً

ومع كل ذلك قد كانت اونيورسة مدينة بولونيا في سنة ١٢٦٢م مشتملة
على ١٠ الاف تلميذ مع انه لم يكن في هذه المدرسة الا علم الحقوق بفردِه وفي
سنة ١٢٤٠م كان في اونيورسة اوكسفورد ٢٠ الفا من الطلبة ولما اضطرت
الآراء في ذلك القرن بمسألة في اونيورسة باريس اجتمع ١٠ الاف من العلماء في
تلك الاونيورسة لاجل حل تلك المسألة وما ذاك الا لكونه لم يبتى في القرن

الرابع عشر المذكور مكان عند الافرنج خالٍ من وسائل تقدم العلوم وثقافة العقل واقبعت مدارس كلية وجامعة في عدة من المدن الباقية ككولونيا واورلينس وكاهور وبيروسيا وفلورنسا وبيزا لتعليم العلوم والفنون وتفرعت كما في ايامنا هذه الى عدد تعليم خصوصية عديدة

اللغات

ومع كل هذا الاجتهاد العظيم والنشاط الكامل لم تتح التقديمات المهمة التي كانت توصل منها لكون ان جميع لغات اوروبا كانت مدة هذا القرن خشية مجردة عن النصاحة والبلاغة خالية من اللطف والظرافة وما كان احد تصدى وقتئذ لتكبيها ولا لتحسينها

وكانت الفسوس اعدت اللغة اللاتينية للشرائع والاصول الدينية كلها على ما سبق في الاشارة اليه في الفصل الرابع من هذا البحث وقد قضت العادة التي يوازي حكمها الاحكام الشرعية بان الاداب تكتب وتدرس بهذه اللغة ايضا فترتب على ذلك ان جميع العلوم التي كانت تقرأ في القرن الثاني عشر والثالث عشر صار تعلمها وتعليمها بهذه اللغة وجميع ما الف من الكتب في هذه العلوم كان كذلك بها ظنا ان الامور الشريفة ان رقيت او قرئت باللغة الخارجة على السن العامة حصل لها امانه وبذلك الاوهام ضاقت دائرة المعارف والعلوم جدا على عوام الناس نظرا لانغلاق ابواب العلم والحكمة عنهم وبقوا غارقين في مجور ظلمات الجهل وزد على ذلك ان احسن ما كان يوجد بين نخبه هذه اللغة في تلك المدة يكون فارغا موحشا وما يؤكد هذا الامر هو ان اشهرهم اسكندر دي

فلا دى احد الرهبان الفرنسيسكانيين الذي كانت تاليفه هي المعتمدة للتعليم في جميع المدارس من القرن الثالث عشر الى القرن السادس عشر قد كانت قواعد النحو في كتابه بالايات المدعوة السبعية الذي ألفه في سنة ١٢٤٠ م معتقدة بغياوة اكثر من ان يظننا من لم يطلع على ذلك الكتاب

ثم اعنى قليلاً بالعلوم اليونانية رجل فريد في ذكائه يقال له روجر باكن ويوحنا بليس وروبرت كابتو وقليلون غيرهم اما طلبة اللغة العبرانية واللاهوت فكانوا اقل من ذلك غير ان الماهر ريمند مرتني مواف الكتاب المسي بيوجوفيدي وباكن المذكور وقليلون ممن سواهم لم يكونوا قاصرين في هذه العلوم وكثيرون من اهالي اسبانيا تعلموا اللغة العربية وادابها ولا سيما الرهبان الدومنيكيون الذين قادهم ملوك اسبانيا لتعليم اليهود والعرب المتوطنين هناك ثم في القرن الرابع عشر امر البابا اكليندوس الخامس بتعليم اللغة العبرانية وغيرها من اللغات الشرقية في المدارس العامة لكي يوجد اناس فيهم الاهلية للبحث مع اليهود والعرب في ارسالهم رجاة الى بلاد المشرق

وكان الذين انتفعوا من هذه المدارس لم ينتفعوا من الاداب النثرية والنظمية بقدر ما انتفعوا من فروع العلوم الاخرى لان اكثر الشباب كانوا قد اعدوا انفسهم اما للشرائع الدينية واما للشرائع المدنية اللذين فتحنا منهباً للتقدم والغنى او درسوا الفلسفة فقط لكونها تعدهم بشهرة الدقة والحذقة وذلك اشكى الباباوات الرومانيون والاساقفة تشكياً بليغاً من اهل العلوم والاداب وحاولوا عبثاً ان يجولوا الشباب عن مطالعة الشريعة والفلسفة الى درس العلوم والفنون الدينية غير انه وجد من كتبة القرن الثالث عشر جماعة لا يمكن لعامل ان يستخف بهم

وقد اشرنا في ما تقدم الى ما كان باقياً عند الافرنج من اثار المعارف التي كانت ادخلت في ما بينهم من ذي قبل وان من جملتها كان نظم الشعر غير انه كان بطريقة رديئة جداً لكونهم منذ تفرغوا للعلوم الادبية والفلسفة تكنت

منهم من مبدأ الامر النوي التخيلية قبل ان تثمرن قواهم العقلية وتدريب على قواعد العلوم النظرية فكانوا يشتغلون بالشعر قبل الفاسفة وكان استشعارهم شديداً وتأثيرهم قويا بحيث كانوا يحسنون وصف الاشياء وتخطيطها على وجه بايع وان لم يكن عندهم من علم الميزان الا شي يسير فكانوا ينسجون على منوال اومبروس وهريودوس قبل ان يتشبثوا بحكمة ناليس وسقراط ولذلك وان تكن هذه المدارس والمشروعات لم تنفع الاداب الثرية والنظمية على ما تقدم فان هذه المملكة مع انضمامها الى غيرها مما ذكر وعلى الخصوص في ايطاليا التي كانت ملكة الشعر متمكنة بها جدا اوجدت في القرن الرابع عشر رجال من ذوي الذهي أسسوا الاداب فيها وهم دنته ويوكاسه وبتاركة فان دنته حرر اللسان الايطالياني وقرره في شبه اراجيز يتخاد ذكرها ويوكاسه (وفي بعض المؤلفات بكانشو) وبتاركة سلكا ايضا طريقة في النظم والثر

الفلسفة

اما الذين اجتهدوا في درس الفلسفة رغبة في الانتظام بسلك العلماء على ما تقدم فقد قسموا في منتصف القرن الثاني عشر الفلسفة الى نظرية وعماية وميكانيكية ومنطقية وفهوا بالفلسفة النظرية اللاهوت في الصورة التي يبحث عنها بارشاد العقل اي اللاهوت الطبيعي وايضا العلوم الطبيعية والطب وبالفلسفة العماية الادبيات والسياسة المالية ونظام الممالك نظرا للامور الداخلية والخارجية وبالفلسفة الميكانيكية الصنائع السبعة داخلا فيها سلك البحار والفلاحة والنص وقسموا المنطق الى نحو وقياس وقسموا القياس الى بيان

وبرهان وسنسطة وارادوا بالبرهان العلم الذي يبحث عن القضايا العقلية فقبل هذا التقسيم قبولاً عاماً غير ان البعض ارادوا ان يميزوا الميكانيكيات والنوع عن الفلسفة فقاومهم الآخرون لانهم ارادوا ان يحصروا كل العلم في الفلسفة ومن ثم انشأ علماء هذه الفروع العديدة من الفلسفة الى احزاب متنوعة وقع بينهم مخاصات شديدة فأولاً كانوا يعلمون الفلسفة على ثلاثة انواع وهي (١) الطريقة القديمة البسيطة التي لم تتجاوز تاليف بورفيرى واقيسة ماري اوغسطينوس التي اشارت بان داري الحكمة يجب ان يكونوا قايابن ائلاً تنسد الحكمة الالهية بحيل البشر

(٢) الطريقة الارسططالية التي بينت وشرحت كتب ارستطاليس لان ترجات بعض كتب هذا الفيلسوف الى اللغة اللاتينية كانت وقتئذ في ابادي العلماء غير انها كانت سقيمة وغامضة وماتيسه حتى ان الذين استعملوها في التعليم تهوروا غالباً في مناقضات ومخالات غريبة

(٣) الاسلوب الحر الذي بدأ اخذ الناس ان يبحثوا عن الحقائق الغامضة بذكاء عموهم مستندين على قواعد ارستطاليس المذكور وافلاطون غير ان تابعي هذا الاسلوب مها كان ممدوحاً في حد ذاته اسأوا استعمال حذاقتهم وانعوا نفوسهم وتلاميذهم بمسائل وتميزات باطلة فاختلف اراء الفلاسفة ومنار عنهم ونقائصهم جعلت الكثيرين يزدرون بكل نوع من الفلسفة ويودون لو ينفونها من المدارس

ولم يجادل احد باكثر حدة من ذوي البرهان الذين اشغلو انفسهم في مجرد الكليات وحصروا كل العلم في هذه القضية وشرحوه بطرق متنوعة وكان بينهم في ذلك الوقت حزبان اصليان وهما الحقيقيون والاسميون اللذان سبق الكلام عليهما وكانا كلاهما قد انفسا الى اقسام مختلفة غير ان الاسميون في هذا القرن كانوا اقل عدداً وسطوة من الحقيقيين ومع ذلك لم يخالوا من المريد بن واضيف الى هذين الحزبين حزب ثالث وهو حزب الراسيين الذين توسطوا

بين المحررين المذكورين على انهم لم ينفعلوا بشي لكونهم لم يوضحوا القضية بل كانوا كأنهم احدثوا امراً للزراع فقط اما الذين واطبوا على درس الطب والفلك والتعليمات وما اشبه ذلك فكانوا يذهبون الى مدارس العرب في اسبانيا وترجموا كتباً كثيرة من العربية الى اللاتينية لان شهرة وصيت العلم العربي مع الغيرة الدينية على دعوة عرب اسبانيا الى المسيحية اجأت كثيرين ان ينصبوا على درس اللغة العربية وعلومها

وكان من جملة الذين ذهبوا الى مدارس العرب المذكورة غرهد من كرونا الطبيب الفلكي الايطالياني الشهير الذي ذهب الى طوليدو باسبانيا وترجم فيها كتباً كثيرة من العربية الى اللاتينية وبطرس مرمت الراهب الفرنسي الذي ذهب الى اسبانيا واقر بنية ليتعلم الجغرافيا ودانيال مربي اومورلاك الانكليزي الذي كان مغرمًا بالتعليمات وذهب الى طوليدو المذكورة واتى منها بكتب عربية كثيرة الى بلاده وبطرس الموقر رئيس دير كلوني الذي ذهب الى اسبانيا وبعد ان تعلم العربية ترجم القرآن وحيات صاحب الشريعة الاسلامية الى اللاتينية واخبر في كتابه الكلونباني انه وجد على نهر الايبير في تلك البلاد روبرت ريتيبتس الانكليزي وهرمان من دلمانيا وخلافهما يدرسون علم التنجيم هناك

ثم في القرن الثالث عشر خضع كل الذين كانوا يتفلسفون باساليب شتى على ما تقدم من الافرنج لسلطة الفلسفة السكولاستيكية اي فلسفة ارستطاليس ومبادئه وكان البعض من كتب هذا الفيلسوف ولا سيما طبيعياته نقرأ باللاتينية على ما تقدم وتشرح عنا للطلبة في باريس لكن لما ظهر بان أليرك ضل في امور كثيرة وخاصة بالذات الالهية بواسطة هذه الكتب امر مجمع سنس بابطالها في سنة ١٢٠٩م ثم في سنة ١٢١٥ أعيد المنطق الارستطاليسي الى باريس ورفضت طبيعياته ومقولاته فقط واخيراً امر الملك فرديريك الثاني الذي كان محباً عظيماً للعلوم بان يترجم بعض كتب ارسطو وغيره من الفلاسفة

الندماء من اللغة العربية وبعضها من اليونانية الى اللغة اللاتينية اناس ماهرون في هذه اللغات يتتبعون لهذا العمل واستصوب احالة هذا المشروع لمدرسة بولونيا وربما الى غيرها ايضاً ومن ثم ازدادت كثيراً سطوة هذا الفيلسوف في جميع مدارس اوروبا وامتدت بواسطة متأخري الافرنج الذين ترجوا بعض كتبه كـ **كينيثايل سكط** و **فيليس الطرابلسي** و **وايم فلن** وغيرهم انما جميعهم كانوا ناقصين في العلم وجاهلين في هذه اللغات

ولما اعنتى هذه الفلسفة الرهبان المندكين والدومنيكيين والفرنسيسكانيين وعلموها في المدارس وشرحوها باقلامهم وصل ارستطاليس الى ذرى المجد والمدح لان الرهبان المذكورين هم الذين كانوا منذ ذلك القرن وما بعده في الرتبة الاولى من العلوم الدينية والديوية وتبعهم نحو جميع الذين كانوا يفوقون غيرهم بمعارفهم وكان اول من عانى شروحا على مقالات هذا الفيلسوف اسكندر هالسر الانكليزي الفرنسي الملقب بالعلامة السيد في باريس والبرت الكبير الدومنيكي الجرماني استغف رانسون وكان رجلاً شديد الذكاء وامام عصره ثم بعدها قام احد تلاميذ البرت المذكور يقال له **توما اكويناس** الدومنيكي وزاد مجد ارستطاليس حيث كان يشرح كتبه مشافهة وكتابة وكلف احد اصحابه ان يترجم تلك الكتب ترجمة لاتينية جديدة اصح واضبط من الاولى ونظراً لسطوة هولاء الاشخاص وقليلين غيرهم صار ارستطاليس هو المنشئ للفلسفة في اوروبا بالرغم عن مقاومات اللاهوتيين وانكار الباباوات الرومانيين

لكن كان هناك بعض اشخاص في اوروبا من ذوي الحذاقة واصحاب العقول السامية يرغبون في توسيع نطاق المعارف وقد ضجروا من طريقة هذه الفلسفة الماخوذة من كتب ارسطو لكونها عقيمة فارغة ومن ثم استحقوا اعظم المدح وهم روجرباكن الراهب الفرنسي الانكليزي المدعو العلامة الساحر لكونه فاق اهل عصره في الفلسفة والتعليمات والكيبا والميكانيكا وغير ذلك

من انواع العلوم واشتهر باكتشافاته الباهرة وارنلد من فلانورفا الذي يعتقد
الاكثرون بانه فرنساوي والبعض يزعمونه من اسبانيا وقد اشتهر كثيرا في فن
الطب والفلسفة والكيمياء والنظم واللغات وغير ذلك وبطرس دي ابينو او
دي ايونو من ايطاليا طبيب بودا الشهير بالموفقى اكوني ألف كتابا سماه بموفقى
الاختلافات بين الفلاسفة والاطباء وكان ذا دقة وتعقيد في قراءة الفلسفة
والطب والتعليقات والفلك لكن لسوء الحظ كان السذج من القوم يضعونهم
جميعا في مصاف السعرة والمراطقة جزاء على معارفهم واجتهاداتهم وكاد باكن
المذكوران لا يتخلص من الحريق الا بصرفه سنيناً كثيرة في السجن واما الاثنان
الاخران فقد حكم عليهما ارباب التفتيش (الساتوفيش) بعد ان كانا قد توفيا
بانها يستوجبان الحريق

وفي القرن الرابع عشر تعاضم اعتبار الفلاسفة الارستطالية المذكورة واقلق
جمهور الفلاسفة العظيم المتكاثرون هذا القرن اكثر من ان بزينة وامرت الملوك
والامراء بترجمة مؤلفات هذا الفيلسوف الى لغات شعوبهم لكي يزداد عدد
طلبة الحكمة وكذلك المنازعات القديمة الكائنة بين الاسميين والمحقيقين اضر بها
في المدارس وليم اكوم الراهب الفرنسيسكاني الانكليزي ناهض سكوتوس الكبير
واستاذ جمعية باريس بعد ان كانت خمدت زمانا طويلا حتى انه لم يعد بعد
مكثرا انهاء هذه المنازعات وكثيرون من الفلاسفة المذكورين قرنوا صناعة
التنجيم والفال بمحظوظ الناس ومستقبلهم اذ ان هذين العلمين الكاذبين وآع
بها وقتئذ كل من القوم على اختلاف طبقاتهم

اللاهوت

ولما كان علم اللاهوت في الكنيسة شرقاً وغرباً تابعاً للفلسفة الارسططالية المذكورة في شرح القضايا الدينية وتعاليمها فكان مدرسو هذا العلم عند اللاتينيين كثيرين جداً واشهرهم في النباهة يوحنا دوتسكوتوس ودورند من ماري بورسان ووليم اكام ونفر قلائل غيرهم ووجد هناك قوم اخرون عولوا في هذا الموضوع على مجرد الكتاب المقدس والتقليد لكن جمهور المنطقيين العرمرم عليهم وكاد يفهمهم ولأن كانوا يظفرون في بعض تلك المنازعات التي جرت بينهم وبين الحزب الفلسفي وخاصة في المدارس الاعظم شهرة كمدارس باريس واكسفورد ومن ثم انقسمت المدارس اللاهوتية بواسطة نزاع جرى بين يوحنا دوتسكوتوس المذكور وبين الدومنيكيين بسبب طعنهم على تعاليم توما اكويناس بدعواه انها غير صحيحة ومن ثم نشأت الشيعتان المشهورتان وهما السكوتوية والنوماوية اللتان لا تزالان الى الآن تشقان مدارس اللاهوت اللاتينية المذكورة وفي القرن الرابع عشر المذكور ظهرت تعاليم يوحنا وكلف الانكليزي الذي كان استاذ العلوم اللاهوتية في اكسفورد واخيراً سيم كاهناً على ليطروث ضاداً بها القائلين بالفقر الاختياري ففرقه الرهبان باربعة وعشرين اعتراضاً تعين لاجلها مجتمعات احدها في لندن والثاني في اكسفورد فحكما على ٩ منها بالهرطقة و١٤ بالغلط

وحيث كان انقسم الفقه منذ القرن الثالث عشر الى قسمين احدهما الناموس الكنائسي والثاني المدني وطالها جم غفير غير انهم شوهوها كالمها بما

عاقبة عليهما من تلك الشروح المعجمة التي لا طائل تحتها وكثيرون اخذوا في جمع رسائل الباباوات التحديدية المتضمنة جزءاً عظيماً من التاموس الكنائسي وكان اشهرهم في هذا العمل ريند من بنافورث رئيس الرهبنة الدومنيكية الذي جمع موافقة تحت نظر البابا غريغوريوس التاسع وقسمه الى ٥ كتب ثم امر البابا المشار اليه بان يضم هذا الى التحديدات الفرانجية ويشرح في كل المدارس ونحو ختام القرن الثالث عشر المذكور امر البابا بونيفاس يوس الثامن بعمل مجموع جديد اضيف الى الكتب الخمسة المذكورة وسمي كتاب التحديدات السادس قال العلامة روبرتسون المورخ الانكليزي بمعرض البحث في احوال اوربا قبل اشهر الحروب الصليبية ما ملخصه ولما توطن البربر في البلاد التي افتتحوها انتقلوا الى الدين المسيحي لكن لم يتلقوه كما هو ولم ينسجوا على منوال قواعده بحيث يفتون بها على حالها واصلها بل ان عدة من الواثقين بانفسهم مزجوا هذا الدين السهل الكثير الفوائد بتدقيقات فلسفية تبين في زعمهم اسرار هذا الدين وغوامضه وتخل مشكلات خارجة عن طوق العقل البشري فصارت هذه التدقيقات الفلسفية جزءاً من الدين المسيحي بل صارت كأنها الجزء الاهم ثم بمجرد ما تشوقت النفوس للتزقي الى درجة التفكير والتعقل كان اول اطلاعهم على هذه الاشياء فاشتغلوا بها وصارت مطمح نظرهم

واول ثمرة نجت عن تدقيق العقول حين اخذها في التقوية ثانياً ببلاد اوربا هي علم اللاهوت الذي كان يقرأ في المدارس وكان مشحوناً بالاطناب في المناقشات وبذكر الفروق بين امور دقيقة لا طاقة للعقول البشرية على الجولان فيها وليست هذه الحالة وحدها هي السبب في اخلال عقول هؤلاء الناس وسلوهم سبيل التي حيث اخذوا ثانية في ممارستها وتربهم على هذه الامور التي كانوا قد تركوها منذ احقاب بل هناك اسباب اخر ياتي ذكرها وهي ان اغلب الذين اعانوا على احياء العلوم الادبية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر واهتموا باعادة معالمها كانوا قد اكتسبوا المعارف والاصول

الفلسفة اما من اليونانيين الذين كانوا بمملكة الروم في القسطنطينية واما من
عرب اسبانيا وافريقية ومن المعلوم ان علوم هاتين الامتين ابي اليونانيين والعرب
كانت قد فسدت بسبب افراطهم في التدقيبات لان العرب كانوا قد افسدوا
علوم الفلسفة بتدقيبات فاسدة احاطوها بها واما اليونانيون فكانوا قد جعلوا
علم الاهيات مذاهبا مشتتة لآعلى قواعد نظرية تحتاج لغاية الفكر والتدقيق وعلى
مباحث خلافية لا يبق الانسان لها على حد ولا على حقيقة لانه لما كانت العلوم
كاسفة بالكتابة في غربي اوروبا ومضيت بدنة القسطنطينية وغيرها من مدن
الامبراطورية اليونانية تفرغ اليونانيون بسبب دقة عقولهم تفرغا كليا الى
المنامشات في الامور الالهية وحذا حذوهم اللاتينيون في ذلك وسائر اهل اوروبا
اكتسبوا من اليونانيين معظم معارفهم وعلومهم وكان اليونانيون وقتئذ منشأ لعدة
مباحث مشكلة اخفاف فيها العلماء والفلاسفة ولم تنزل الى الان اشاغلة بالهم
ومطعميا لانظارهم وافكارهم

الجغرافيت

وكان جهل ام القرون الوسطى بالجغرافيا ووضع البلدان كبيرا جدا
فكانوا لا يعرفون شيئا من الممالك والمسالك واقدم خارطة جغرافية توجد في
نسخة من تاريخ القديس ديبس منها يستدل على حالة العلوم الجغرافية في بلاد
اوروبا مدة تلك الاعصر فنرى في هذه الخارطة اقسام الارض الثلاثة التي كانت
معروفة وقتئذ موضوعة بحيث ان مدينة اورشليم توجد في وسط الكرة واسكندرية
قرية منها كدبنة الناصرة
وكان لا يوجد في البلاد خانات ولا منازل عمومية للمسافرين نظرا

لانقطاع المخالطات والاخت والعطا بين الامم المختلفة عدة قرون منذ استيطان
الامم المتبررة بالملكة الرومانية فقد ذكر بعض المؤرخين في وصف ما كان
عليه الحال الى ذلك الوقت من انقطاع المخالطات بانها لما اراد بوشارد ان يبني
ديراً في قرية موديقوس بقرب مدينة باريس ذهب الى احد رواساء الديورة
الكبار في بورغونيا وترجاه ان ياتي الى ديره هذا برهبان يسكنوه ثم وصف
له ما قاساه بحجبه اليه من طولة السفر ومشاق الطريق ليستعطفه باجابة
سواله فاعندراه الرئيس متعللاً بانها يشق عليه السفر الى اقطار غريبة لا يعرفها
من يذهب اليها وكذلك في ابتداء القرن الثاني عشر كان رهبان دبر قرية
فريبر في ابرشية سنس لا يعرفون انه يوجد ببلاد الفلنك مدينة تسمى تورني
وكذلك رهبان المدينة المذكورة يجهلون ايضاً في اي الجهات تكون قرية فريبر
ثم لما احتاج هذان الديران الى معرفة بعضها بعضاً اخذ يبحث كل منهما عن
الاخر حتى انه بعد بحث طويل عرف كل منهما صاحبه ولكن بطريق الصدفة
ايضاً

ومع كل ذلك كان ما ذكرناه من التقدّمات بما هي عليه سبباً في تغيير
اخلاق الامالي في أوروبا ورغبة الناس في البحث عن كل شيء وحتمهم على
الاشتغال بالحرف والصنائع ايضاً

فوائد التجارة

منذ اشهار الحروب الصليبية الى نهاية القرن الخامس عشر

وقد اعانهم على ذلك التجارات التي كانت آخذة وقتها في اسباب التقدم

وهذبت اخلاق اوروبا وادخلت بها الاحكام العظيمة المشتملة على الرافة
بالناس بحسب تقدم ابضاعه ووجدت بعض مغالطات واخذ وعطا بين تلك
الامم بعد ذلك الانقطاع الذي تقدم ذكره اذ ان الرغبة في الفنون ونفيس
محصولات بلاد المشرق كانت لم تنزل باقية الاثر في قلوب الايطاليانيين بسبب
العلاقات والمعاشرات التي كانت بينهم وبين مدينة القسطنطينية وغيرها من
سائر مدن اليونانيين وازدادت بسبب الحروب الصليبية التي لم يترتب عليها
ينفع لغير التجارة وان لم يكن هو المقصود لانهم كانوا يمدون هولاء الحربيين
الصليبيين بسفن من سفن النقل وموونات وذخائر حربية واكتسبوا زيادة عما
اخذوه من الاموال الجسيمة مزايا ومواضع تجارية في بلاد الشام فكان لهم في
عكا وصور وطرابلس وغيرها حارات ممتازة لها حكام من اهلها يحكمون فيها
بمقتضى قوانينهم واصولهم وكذلك في القسطنطينية والى الان يوجد كتب من
القوانين التي اعطيت بها البنادقة واهل بيضة والجنوب والخصائص التجارية في
تلك المحلات الافرنجية المتخذة للتجارة والاقامة في اسيا فيحكومون بموجبها وكانت جميع
بضائعهم سالمة من المكوس ثم لما استولوا على مدينة القسطنطينية نقلوا عدة
فروع مهمة جدا من التجارة مخصوصة بها الى بلاد الطوائف المذكورة ايضا
وزادت رغبتهم هذه لما كشفت عندهم بيت الابرّة بعد الحروب المذكورة بقليل
كما يوضح ذلك مما سوف نذكره حيث صارت بها الملاحة امينة نامية وسهلت
المخاطبة بين الامم المتباعدة ففي القرن الثاني عشر والثالث عشر كادت تجارة
اوروبا ان تكون في ايدي الايطاليانيين وكانوا معروفين حينئذ باسم اللبردية
اكثر من اسم الايطاليانيين وصارت تجار اللبردية في اقرب زمن هم اهل القوافل
والصنائع والصبارف في جميع البر فكان اهل ايطاليا يجلبون من بلاد المشرق
محصولات الهند ورتبوا في بلادهم مانيفاتورات وورشاً بديعة الصنع وحصل لهم
تقدم كبير فيها ولا سيما في ورش الحرابرا التي كانت مكثت زماناً طويلاً خاصة
بالاقاليم الشرقية في اسيا

وكانت اقمشة الحرير في مدينة رومية غالبية جداً ولم يكن هناك إلا اناس قليلون لهم قدرة على شرائها وفي زمن اوريليان او هو اقريليانوس القيصر الروماني الذي تولى المملكة سنة ٢٧٠ م كان يُباع رطل الحرير برطل من الذهب ففي سنة ٥٢٢ م حضر الى القسطنطينية راهبان من بلاد الصين واحضرا معها شيئاً من بزر النرخبيا آه في عكازتيها خوفاً من شريرة الصين المانعة من خروج كل شيء مثل هذا من بلادهم على ما سبقت الاشارة الى ذلك في الفصل الخامس من البحث الاول فمن ثم انشا الملك بوسنيانوس في بلاد اليونانيين فن تربية دود الفز ومن القسطنطينية تفرق في بلاد كثيرة كعربي اسيا وجنوبي اوروبا وشالي افريقية ثم امريكا ايضاً ومع انه وقتئذ كان استعمل اكثر مما كان عليه الا انه كان لم يزل غالباً في سنة ١٢٠٠ م ارسل روجير الاول ملك جزيرة سيسيليا الى مدينة اثينا واحضر منها عدة صنائعية من صناعات الحرير واسكنهم بمدينة بالرمة وقوى هذا الملك صناعة الحرير في ملكته ومنها انتقلت الى اجزاء ايطاليا الاخرى على ما ذكره العلامة روبرتسون نقلاً عن بعض المؤرخين في تاريخ نابلي فانتشرت اقمشة الحرير من ذلك الوقت حتى انه في اثناء القرن الرابع عشر كان يُرى في محفل من محافل مدينة جنويزة نحو ١٠٠٠ من اهلها لابسين ثياب الحرير

وفي اثناء القرن الثاني عشر جلب الصليبيون من مدينة طرابلس اسيا بعض اعداد من قصب السكر وزرعت في جزيرة سيسيليا ثم بعد ذلك زرع في الاقاليم الجنوبية من اسبانيا ثم نقل الى الجزائر الخالدات والى جزيرة مادرة ثم الى بلاد امريكا ولم تكن زراعة هذا النوع من النبات معلومة في بلاد الهند الغربية او انها كانت قليلة في القرون الوسطى

وتقدمت شوكة جمهورية البنادقة (اللبديية التي مر ذكرها) بواسطة تجارتها ومهارتها البحرية وتفرغ الاشراف بكليتهم الى التجارة والخدمة في السفن الحربية حتى دخلوا في زمرة التجار والقبابد بن وزادت ثروة وطنهم بهارتهم في

التجارة والصنائع وصارت جميع شعوب اوروبا تحتاج اليها وتاخذ منها بضائع البلاد الشرقية ومحصولات ما احدثته من الورش وانفتحة على وجه لم يوجد له نظير في باقي بلاد اوروبا وجمعت مفاد بر جسيمة من الاموال

وصارت النقود بين ايدهم نوع تجارة يكسبون منها كسباً عظيماً حيث كانوا يربون بها بانكات وصبارف عظيمة الربح واحلّ لهم ذلك رأي معمول به عندهم وهوان التجارة لا تروج الا اذا اعطى المقرض لمقرضه بعض ربح في نظير استعمال دراهم التي افترضها منه وترتب هذا الامر الآن شرعاً في جميع البلاد التجارية ويسمونه ربح الاموال الشرعي ولما شرعت الفسوس بتحريم الربا استناداً الى عبارات من الكتاب المقدس وسلم في ذلك علماء الكلام السكولاستيكي لانهم كانوا يتبعون اراء ارستطاليس على ما هي عليه بدون فحص صارت تجارة اللبديين ممنوعة شرعاً واذا عثر على احد عقداً بمنى الشروط الاولى عوقب فمن ثم صاروا لا يكتفون بالمقدار الذي كانوا ياخذونه وقت ما كان اخذ الفاتس ما ذرونا به شرعاً بل صاروا اذا قرضوا احدًا مقداراً من الاموال يطلبون منه مبلغاً في نظير استعمال المال ومبلغاً اخر في نظير عقوبة الربا لانه ربما عثر عليه فلا يسلم من العقوبة

وفي القرن الثالث عشر كان الربح المعتاد ٢٠ في المائة وربما يبلغ ٢٠ ايضاً وفي سنة ١٢١١ امر فيليب الرابع ملك فرنسا ان لا يزيد الربح الشرعي عن ٢٠ على كل مائة وفي ارغوبينا كان اقل من ذلك وفي سنة ١٢٤٢م رتب ملكها ياكوس الاول قانوناً جعل فيه على كل مائة ١٨ فقط ومن سنة ١٤٩٠م صار الربح في باينسة ٤٠ على كل مائة ولكن الملك شراكان (كراوس الخامس) جعل ربح المال في جنالكه التي يملكها البلاد الواطية لا يزيد على ١٢ في كل مائة وفي اثناء القرن الثالث عشر اشتغلت عقول امم الشمال ايضاً في شان التجارة والبحرف والصنائع فتعاهدت مدينتا همبورغ واوليبك لدفع صيال البحريين وهم اللصوص في بحر بلطيق لاجل حفظ تجارتها مع سكان البلاد

المجاورة لهذا البحر وحيث حصل على ثمرة جزيلة من ذلك اجتمع عاجلاً ٨٠ مدينة من اعظم المدن تحت اواء هذه المعاهدة وفي سنة ١٢٥٩ م تكونت من ذلك المعاهدة الانسياتيقية العظيمة حتى صار اعظم الملوك يجتمعون عن استمالتها والمداومة على المحبة معها والظاهر ان اول منابع غنى المداين الموضوعه على بحر بالطن هو صيد سمك المارنك الذي كان يكثر حينئذ على شواطئ اسوج والدانماركة كما يكثر الآن على شواطئ بريتانيا الكبرى

ثم اخذت الغيرة اهلالي البلاد الواطية ايضاً واشتغلوا مع الجهد والاعناء التام بتكميل فروع معلمي الصوف والطن العظيمين اللذين اشتهرت بهما هذه البلاد منذ عصر الملك كرلوس الاكبر الذي سبق ذكره في القرن الثامن وانسعت التجارة وتقدمت للغاية حتى صار بها اقليم الفلمنك وما اتصل به من الاقاليم المجاورة في الغنى اعظم بلاد اوروبا واعمرها واحسنها زراعة

واما في انكلترة فكان تقدم التجارة على غاية من التراخي لانه وقت ما كانت منقسمة بين ٧ ملوك كانت بريتانيا الكبرى منقسمة الى مالك كثيرة لا تنقطع الحروب بينها وكانت عرضة لتهب الدانماركيين وغيرهم ولذلك كانت منغمسة في الجهالة والتبرر ولا قدرة لها على الاشتغال بالتجارة ولا على غيرها ولما اجتمعت هذه الممالك وصارت واحدة واخذت انكلترة في اصلاح حالها جاءها النور مندبون وافتتحوها وهدموا جميع ما كان أسس فيها وبقيت في حالة الانحشاء الى ان صار النور مندبون المتغلبون عليها مع الانكليز كما تم واحدة فسعت حينئذ في اثبات دعوى مالوكها ان لهم حق الملوكية في ملكة فرانسايضاً فعاندهم الدهر وخسروا في حروب مستطيلة بسبب هذا الامر اعقبها حروب اخرى مبهولة بين عائلة بورقة الملوكية وعائلة انكسترة فكانت هذه الامور بانضمامها الى ما كان في القرون الوسطى من الحكومة الانترامية والاخلاق البربرية كافية في تعطيلها بالكليية وتراخيها وبطئها واذلك كان الانكليز من بين شعوب اوروبا هم الذين تاخروا عن اغتنام الفرص وفوائدها التي ابدتها لهم الطبيعة في شان التجارة

وقبل حكومة الملك ايدوارد الثالث الذي تولى المملكة سنة ١٢٢٧ م كان صوف انكلترة كثة ما عدا شيئاً يسيراً يشغله الاهالي جوخاً غايظاً خشيباً بلبسونه يُباع لامل الفيليك واللونيرد بين لانهم كانوا ينسجونهُ اكن لما رأى هذا الملك حالة الاقاليم اليانعة بثمار التجارة اخذ من ذلك الوقت في تحصيل الوسائط التي بها تنفوي الصنائع بين رعاياه الذين كانوا يجهلون وقتئذ ملاية بلادهم لذلك اكثر من غيرها ولا يعرفون منابع الغنى ولا يبحثون عن تقايد الورش التي ترتبت بالبلاد الاجنبية مع ان موادها وآلاتها كانت تخرج من عندهم فاحضر هذا الملك عدة شغالين وصنائعية من اقليم الفيليك لاجل الاستيطان بمملكته وانشأ قوانين صالحة لتفوية التجارة وضبطها فتجددت في انكلترة بهمة ورش الصوف وتفرغت عقول الرعايا الانكليزية الى مارسة هذه الفنون التي ارفعوا بها اعلى درجة بين الملل ذات التجارات والصنائع ولكن مضى بعد ان احضر هذا الملك الشغالين المذكورين مدة طويلة قبل ان يصير للانكليز قدرة على اصطناع بعض الجوخ ايباع للغربا وكان الصوف الذي يُنقل من عندهم بجائته الاصلية الى البلاد الاجنبية هو اعظم تجارتهم

ولم تجاسر انكلترة على ان تتاجر بنفسها وتشر اعلام سفنها في بحر بلطاق الآ في ابتداء القرن الرابع عشر ولم يصرفها بعض سفن في البحر المتوسط الآ في نصف القرن الخامس عشر وكانت قبل هذا الزمن مدة يسيرة ارسات بعض سفن الى مين اسبانيا والبورتغال

وهذه التقدّمات التجارية والمخالطات في القرن الثاني عشر والثالث عشر كان مبدأ اضعفلال الاوهام والاعتقادات الفاسدة التي كانت سبباً لانفصال الشعوب عن بعضها وحسنت اخلاق الناس فاستعدوا للصلح وتحصيل الاطمان وكان كلما ازداد الميل الى التجارة في مملكة اتمشت حكومتها وساعدت على ذلك بعقد المعاهدات مع الدول الاخرى واشهرت الحروب وعقدت المشارطات وبالجملة والتفصيل كانت التجارة متى دخلت عند امت من ام اوروبا على

اختلافها حماتها الى الانتماءات مع غاية الجهد الى الاشياء التي يهتم بها الامم
المتدنة والتخاقي بالاخلاق المختلفة التي تقتبسها من اربابها
قال خير الدين باشا التونسي في كتابه المسي اقوم المسالك ان ابتداء
التمدن عند الاوربيين كان في القرن الثالث عشر فان تلك الحروب الصليبية
وان كانت هلكت فيها نفوس عديدة واموال غزيرة بدون الحصول على المفصود
بالذات فانها اعتبت نتائج نافعة لم منها انهم شرعوا في ذلك الوقت بتريب
العساكر وتعلوا بمواصاتهم لاهل المشرق صناعة التجارة والزراعة ونحو ذلك
وتخافوا باخلاق الحضرة وتعودوا بالاسفار لاستكشاف احوال الاقطار فاطلعوا
على احوال اسيا المتوسطة واهوال الصين كما مبين ذلك في تاليف ماركوبولو
وبالجملة فبالسبب المذكور وهو مخالطة الاوربيين للامة الاسلامية المتقدمة
عليهم في التمدن والحضارة كان ابتداء التمدن عندهم ثم تهذب حتى وصل الى
ما هو مشاهد اليوم وانتهت اذ ذاك رياسة العلوم والآداب والفلسفة الى
سان برنار بفرانسا وسان توماس بايطاليا والبرت الكبير بالمانيا وريموند ولولو
باسبانيا وجان دوتسكوت بانكلترة^(١) وظهرت الشعراء والمهندسون والكنايس
الاصولية والهياكل الفخيمة المنسوبة للقرون الوسطى

الصنائع والمهن

منذ القرن العاشر الى نهاية القرن الخامس عشر

اصطنع الياها سايبسترس الثاني اول ساعة ذات رفاص في سنة ١٢٩٠

(١) اصحاب هذه الاسماء ذكروا بجملة الفلاسفة في ما تقدم غير انه يوجد اشتباه في

وبعدُه عملت ساعات البكر تودي لبعيد في سنة ١٠٦٥ وعملت الزجاجات
العدسية للعينات والنظارات ومخترع العينات راهب من مدينة بيزا يقال
له اسبينو سنة ١٢٢٠ واصطنعت قساطل لجر الماء من الرصاص في سنة ١٢٥٢
وعملت النظارات الطويلة والشمع الكافوري من الشم سنة ١٢٩٠ والساعات
الدقائق سنة ١٢٩٥ وادخلت طواحين الهواء الى اوروبا في سنة ١٢٩٩
واصطنعت المرآتي الزجاجية في بلاد البندقية سنة ١٢٠٠ وانشئت مدرسة
للالمامب في طولوزة سنة ١٢٢٨ واخترع الباروت راهب نمساوي يقال له
شوارتس سنة ١٢٢٥ (١) وابتدأ الفرنسيون بالحروب النارية سنة ١٢٤٥ م
وكان ابتداءها قبلهم الانكليز اذ ان الامراء الفرنسيين كانوا يزعمون بان
استعمال الاسلحة التي تقتل من بعيد مفضل بالشجاعة . وعمل الورق من الخرق
سنة ١٢٤٦ وكان ادخل الى اوروبا بواسطة عرب اسبانيا في القرن الحادي عشر
واصطنعت المدافع والقنابل في اوروبا سنة ١٢٥٠ ويقال بانها كانت مستعملة
في بلاد الصين في سنة ٦١٨ ق م . وصار سحب القصب والتي سنة ١٢٦٦

بعض الاسماء نظراً للاختلاف الترجمة كما في العادة في اغلب الكتب المترجمة الى العربية
ومن اراد فليطلبها ايضا في الفصل السادس والسابع من المقالة الاولى من كتابنا زبدة
الصحائف في اصول المعارف

(١) قال العلامة خير الله افندي المورخ العشماي في كلامه على احوال المعارف
البشرية من القرن الخامس الى القرن السابع من الهجرة ويظن انه في هذا العصر اخترع
الباروت في اوروبا والحال انه في القرن الاول من الهجرة (السابع من الميلاد) عند محاصرة
مدينة القسطنطينية (من العرب) اخترع وقتئذ احد النفوس الذين كانوا طائفوا بلاد
المشرق مادة سريعة الاشتعال (ذكرت في الفصل الخامس من البحث الاول) وكذلك في
اواسط القرن السابع للهجرة (الثالث عشر من الميلاد) وكان موجودا في معسكره لأكوخان
ملك التتار عندما حاصر مدينة بغداد وافتتحها آلة نارية اذ يقال انه اطلق على قلعة
المدينة المذكورة بنادق كثيرة واخربها وهكذا العرب في اسبانيا كانوا يستعملون آلة
نارية نظير هذه غير انه لما اخترع الباروت في اوروبا اصطنعت المدافع المتنوعة وبها
اكتسبت الحروب شدة شديدة وعدة عديدة

واستخرج العرق للشروب سنة ١٢٨٠ ونحو هذا الزمن اصطنع الاصطراب والحك ويقال له بيت الابرّة وسوف يأتي الكلام بانّه كان للدوك اينيريكوس ثالث اولاد يوحنا الكبير ملك البورتغال مداخلة في ذلك ثم عمات دبايس الابري في سنة ١٢٩٠ واخترع ورق لعب القمار في فرانساجل نسليّة ملكها كراوس بيانيه ابي المحبوب لما اعتراه داء الجنون في سنة ١٢٩٢ ويقال بل نقل اليها ذلك من بلاد اسيا وقال اخرون ان العرب واليهود وغيرها من الاجناس الشرقية ادخلوه الى اوروبا في سنة ١٢٨٥ وشاع استعماله في ايطاليا سنة ١٢٩٩ وعمل معمل الترياق والعناقير الطبية في مدينة ليسيا سنة ١٤٠٠ وفي القرن الرابع عشر المذكور احييت صناعة الدهن والنش ويقال لها بلغتهم البوزار عن يد جيوتو وتشيا بوي في بلاد ايطاليا وفي هذا القرن عينه ايضا اخذ الروسيون في اظهار صلاحيتهم لان يكونوا من ارباب الحرف والصنائع اذ سبكو بمدينة موسكا اكبر ناقوس ظهر في بلاد اوروبا وهو اعظم اجراس الدنيا محيطه ٦٤ قدماً وعلوه ١٩ قدماً مع ان هذه المدينة لم تكن وقتئذ مستحقة ان توضع في صف المدن حقيقيّة الا من بداعة هذا القرن كما ينضح ذلك مما بورد في الكلام على القرن الخامس عشر قال بعض المؤلفين لم تكن بلادله ولا غيرها مما يجاور بلاد المسكوب اعلام المسكوب ولم تكن الصنائع اليدوية اعظم من ذلك في شمال المانيا وكذلك لم تكن الفنون المستخرجة متقدمة في ذلك الوقت في بلاد المانيا اكثر من بلاد روسيا المذكورة ويظن بان اصطناع هذا الجرس كان في عهد الملك هوريسغودون الذي تولى المملكة في سنة ١٢١٧ م وفي القرن الخامس عشر اخترع عمل البرانبط رجل سويسري بفرانساسنة ١٤٠٤ واستعمل التصوير بالوان مزوجة بالزيت في سنة ١٤١٠ ودخلت صناعة الخزف الشبيه بالصيني الى اوروبا في سنة ١٤١٦ وانشي مرستان المطاعون بالبندقية في سنة ١٢٤٠ وعمات المركبات المسماة بالكاروسه في سنة ١٤٢٦ وفي هذه السنة عينها اخذ الالمانيون في ان يتصفوا بكونهم اصحاب مهنة

وحرص وامانة وثبات في الاعمال واستنارة في التصرف وبشهرورن بهوية
الابداع والاختراع حيث اخترع على صناعة الطبع التي طالما قد تنازعت مدن
ميانسة وهرلم واستراسبورغ في ادعا شرف ايجادها والى الآن يوجد في مدينة هرلم
المذكورة وهي من بلاد الفلمنك تمثال موضوع في احدى ساحات المدينة لرجل
يقال له لورانت كستر يعتد الفلمنكيون بانه هو اول من اخترع طباعة الكتب
لكن المحققى الآن ان اختراع هذه الصناعة بما هي عليه اعني بالحروف المتحركة
يُنسب الى يوحنا غوتنبيرغ المياني نسبة الى ميانسة بحكي بانه كان خضر في
بالوان يعمل حروفاً من الخشب الصلب ثم صبها من الرصاص واشترك معه
في الشغل رجل من الاغنياء قدم له ما احتاج اليه من المصاريف حتى نجح في
العمل وابتدأ في طبع الكتب وكان اول ما طبعه منها الكتاب المقدس
باللغة اللاتينية وذلك في سنة ١٤٢٦ المذكورة قال بعض المؤلفين بحتمل ان
لورانت كستر المذكور طبع اولاً في هرلم بالاخشاب المنقورة على اسلوب الصينيين
في سنة ١٤٢٠ او قبل ذلك ويوحنا غوتنبيرغ اخترع حروفاً معدنية مدقوقة
في ستراسبورغ سنة ١٤٢٦ او بعد ذلك ثم بعد ان تشارك مع يوحنا فوسط
وغيره من يدعون شرف هذا الاختراع اخترع فوسط المذكور حروف الصب
وانسان اخر اسمه بطرس شوفر عمل الابهات والامهات ليسهل صب الحروف
وشرعت الشراكة تطبع في سنة ١٤٥٠ ثم في سنة ١٤٥٩ ام طبع كتاب دورانتس
في ميانسه (وبذلك يكون حصل التوفيق بين جميع المدعين) ولا يخفى بان
اصطناع الورق واختراع الطبع ما حادثان مهمتان من حوادث تاريخ الاداب
لان اصطناع الورق من القطن في اوروبا كان مقدمة لتطور الاداب والفروع
الفلسفية على ما تقدم في اخر الفصل السادس من هذا البحث ولا سيما منذ
رخصت اسعاره باكثر مما كانت عند ما عمل من الخرق في سنة ١٢٤٦ على ما
تقدم اما صناعة الطباعة المذكورة فانها اخرجت اوروبا من ظلمات الجهالة
ونشرت فيها سواطع الانوار كما يتضح ذلك من الابحاث الآتية

ثم في سنة ١٤٤١ ابتدأت الكومبيديات ببلاد ايطاليا وفي سنة ١٤٥٢
 اخترع رجل يقال له تومازو فينجير وهو صانع من فلورنسا فن حفر الصور
 على القالب وهو النقش على النحاس والخشب وقيل ان ذلك كان في سنة
 ١٤٦٠ ثم في سنة ١٤٥٢ صنع لورنزودولابا من بلاد ايطاليا ساعة بدعة
 يُعرف بها زيادة عن معرفة الساعات حركات الشمس والكواكب السيارة
 والكسوف والبروج وجميع التقلبات السماوية وفي سنة ١٤٥٢ اخترع رجل من
 الملاحين يقال له هنري فن تخطيط البحور والجبرات والانهر وسائر المياه بحيث
 يظهر رسم وشكل شطوط البحور والمخيلان والشعور والجزائر والرووس والاقنية
 والبواغيز والمجاري والاجوان والاماكن التي يصل الى عمقها مقياس الاعماق في
 البحار وفي سنة ١٤٦٦ عمل معمل نسيج الحرير في ليون احدى مدن فرانسوا
 وفي ختام هذا القرن اي سنة ١٥٠٠ م اصطنع ساعات العبّ رجل يقال له
 بطرس هاله من نورمبرغ ببلاد المانيا ولذلك كانت تسمت قبلاً بيض نورمبرغ

الخاتمة

في امتيازات القرن الخامس عشر

لا يخفى بان القرن الخامس عشر المذكور حربي بان يكون مقدمة تاريخ
 جديد للعالم لان فيه حصلت تقلبات ناجمة عن تغيير صورة الدنيا في المشرق
 والمغرب من عدة وجوه اولها انقراض القيصريّة الرومانية الشرقية واستيلاء
 الدولة العلية على مدينة القسطنطينية في سنة ١٤٥٢ م كما سبقت الاشارة الى
 ذلك في خاتمة البحث الاول ولذلك يقول بعض المؤلفين كادت وقائع الشرق
 تذهب بالعلوم اليونانية الشرقية اما اللاتينيون (الافرنج) فان العلوم والفنون

عندهم عادت بمتضيات حسنة الى رونقها ومجدها المنقودين منذ القديم فان
الاحبار (باباوات رومية) نشطوا اليها الطلبة واشتهر منهم بذلك البابا
نيبولوس الخامس وكثيرون من الملوك والامراء ساعدوا اهل العلم بمجاوبتهم
وعطاياهم الوفيرة ومنهم عائلة الميديشي العاملة بايطاليا ولفونسوس السادس
ملك نابلي وحكام نابلي الاخرون من بيت اراغون فهؤلاء فازوا بالصيت المحمّد
على سخائهم وحبهم للعلوم فاقيم مدارس كلية في جرمانيا وفرنسا وايطاليا
وجمعت مكاتب بمصاريف باهظة واغوي الشبان على الدرس بواسطة تقديم
الجوائز والكرامات واضيف الى كل هذه الوسائط تلك المنفعة التي ليس لها شبيهه
الناجمة من صناعة الطبع (وقد تقدم ذكرها) لان كتب اليونانيين واللاتينيين
التي كانت مخفية في مكاتب الرهبان صارت بهذه الوسطة في ايادي الناس وفيها
هم يرغبون كثيرين في حائلتهم والاقتداء بهم في هذا الامر الحسن حسنوا ذوق
كثيرين من الطلبة وكذا سقوط المملكة اليونانية كان من اعظم الاسباب لامتداد
العالم في غربي اوروبا لان اعلم رجال تلك الأمة بعد افتتاح عاصمة ملكتهم
ها جرما الى ايطاليا ومن هناك انتشر بعضهم الى بلاد اوروبا فعلموا بمخاوص
اللغة اليونانية وعلومها في كل مكان لاعالتهم وبثوا الرغبة في العلوم والفنون في
كل العالم اللاتيني تقريبا ولم يوجد مدينة تعتبر او مدرسة كلية الا وكان فيها في
ذلك العصر يوناني او اكثر يعلم العلوم والفنون اكثرهم لم يوجدوا في كل مكان
بكثر كما كانوا موجودين في ايطاليا حيث نشطتهم واكرمهم العائلة الميديشية
المذكورة والمدن الاخرى الايطالية بسخائهم وغيرتهم الحارة للعلوم المفيدة ولهذا
جميع الراغبين في العلم في سائر البلدان اعنادوا ان ياتوا ليدرسوا في هذه البلاد
وكان في ايطاليا واسبانيا كثيرين من المشهورين في معرفة العلوم واللغات
الشرقية وسوف ننضع تقدمات باقي فروع العلوم من الابحاث الآتية . اما
الفلسفة فكانت كما لا يخفى وبعلم من التفاصيل السابقة قبل ان اتى اليونانيون
الى ايطاليا على مذهب ارسططاليس لان هذا الفيلسوف كان مدوحا عند الجميع

مرفوعاً فوق الحد حتى ان كثيرين منهم لم يستحو من ان يشبهوه بيوحنا المعمدان

سابق المسيح

ثانياً بتأسيس الاصلاحات والتقدمات العظيمة السياسية التي فاز بها
اغلب الشعوب الافرنجية باسباب ما نشأ بينها من المخالطات المتواترة
والمداولات الاكيدة في شان مصالحها الخارجية الى ان آل امرها ان تعناد
بالتدرج على ان لاتفعل دولها شيئاً الاً بشورة بعضها وأدأها ذلك الى ان رتبت
مذهباً بولانيكياً اي سياسياً به تثبت ميزان تعديل بين تلك الدول يدوم به
الامن العام وحفظ الممالك من المتغلبين وكان هذا المذهب في مبدأ الامر زمام
المالك الصغرى الابطالمانية ثم انتقل منها الى غيرها من الممالك العظيمة وهذا
الاصل العظيم المتبدع في السياسة لادخل لبسط اسبابه هنا اذ انها خارجة
عن موضوع هذا الكتاب ولذلك نكتفي بالاشارة الى كونه كناية عن توزيع
القوة بين اعضاء جسم واحد مؤلف من دول اوروبا حفظاً تاماً موسساً على
الانصاف

ثالثاً بظهور الاكتشافات العظيمة للاراضي المجهولة وخاصة نصف كرة
الارض الذي هو الدنيا الجديدة المسماة بامريكا ولذلك نجعل كلامنا هنا
على هذا القرن الذي هو خاتمة القرون الوسطى منحصراً في قضيتين اديتين
وها

القضية الأولى

في خلاصة ما تقدمت تفاصيله عن كيفية استدرجات الافرنج
الادبية عموماً لحد القرن الخامس عشر ثم ما زاد على
ذلك من ترقياتهم في القرن المذكور بوجه
التفصيل وفيه مطلبان

المطلب الاول

في خلاصة ما تقدمت تفاصيله لحد القرن الخامس عشر

قد اشرنا في الفصل الثاني من هذا البحث الى انواع ونسبة واخلاق وعوائد
الامم المتبربرة الهاجرة على القيصرية الرومانية الغربية وبيننا ان اسباب اطلاق
تسمية افرنج على عامة شعوب اوربا والجمالة هذه ما عدا العثمانيين واليونانيين
هي لكونها لم يختلطوا وقتئذ بتلك القبائل التي عنما اخذت هذه التسمية ثم ان
ما ذكرناه هناك من اخلاق اولئك المهاجرين وعوائدهم انما هو بالنسبة لما كانوا
عليه وقتئذ من درجة المعارف التي اتصلوا اليها وهم بعد في مالكم الاصابة
بعد ان كانت دخلت بلادهم قبل ان يخرجوا منها في حوزة الاحكام الرومانية
التي كانت تبث علومها والمعارف التي كانت اكتسبتها من اليونانيين في جميع

البلاد التي كانت تستفتحها وتستولي عليها سواء كانت من شمالي اوربا ومشاركها كالامان والدانماركة والبروسيان والفلانك واسوج ونروج وغيرهما من القبائل والشعوب المتوطنة الآن في تلك البلاد التي خرج منها اولئك البربر المتقدم ذكرهم الذين استولوا اخيراً على جميع الممالك التي كانت خاضعة للرومانيين المذكورين او الابطاليان والغالة اعني قدماء الفرنساويين والانكليز وغيرهم من سكان سائر الممالك الرومانية التي بعد ان توزعها البربر المذكورون فيما بينهم واختلفوا باعمالها اخذوا في ان يتدرجوا في ارتقاء المعارف واشركوا معهم بذلك ايضاً في زمن كراوس الاكبر المتقدم ذكره كل الذين كانوا لازالوا باقين في مواطنهم ولم يخرجوا معهم في تلك الغزوة من سكان بلادهم الاصلية كما يتضح ذلك من مراجعة الفصل الخامس من هذا البحث الذي نحن فيه وغيره ايضاً من الفصول السابقة في البحث الاول

واضف الى ذلك المعارف التي كان ورثها الاسبانول وهم فرقة من الممالك الرومانية الاصلية عن العرب ايضاً اذ لا يخفى بان العرب المذكورين كانوا قد افتتحوا هذه البلاد وطردوا منها الغوثيين احدي القبائل المتبربرة المذكورة وكان ذلك على عهد روريك اخر ملوكهم سنة ٧١٢م ثم بعد ان اقتسموها بينهم الى عدة ممالك صغيرة اضاعوا اكثرها في حروبهم المتتالية مع اهل البلاد الاصيلين ثم انضمت ممالكهم مع بعضها عندما تم افتتاحها فردينند وازابيلة في سنة ١٤٩٢م وهي نفس السنة التي اكتشف فيها لادن المملكين خرستوفوروس كولومبوس اميركا كما يتضح ذلك من الكلام على الفضية الثمانية

وكانت العرب قد ادخلت الى هذه البلاد معامل وورشاً عديدة عظيمة ونمت بين سكانها العلوم والمعارف وازهرت وانت باثمار لم يات بها غيرهم من اهالي تلك الاعصار اذ انهم اتقنوا علم الجبر والتجارة وقن الزراعة ونقلوا الى تلك البلاد زراعة النخل والمخزوب والقطن وقصب السكر وصناعة الورق من القطن في القرن الحادي عشر من الميلاد وعلموا اهاليها صناعة رفع المياه الى

الاعلى بواسطة النواعير وافادهم ايضاً انواعاً من الطُرف كالفرسية واللعب
بالرماح وتعالج المعاني الغربية من الاشعار وكان عبد الرحمن الاخر الاموي
المُلقب بالناصر ادخل اليها العلوم الفلسفية القديمة لما عزم ان يجعل مدينة
قرطبة عاصمة مملكته شبيهة بمدينة بغداد داراً للخلافة والعلوم ثم لما ترجم افرس
بن رشد الكردي في كتاب ارستطاليس وقرىء في مدينة كردوثا قُري كذلك
في افريقية بين المراكشيين وانصبوا على درسه ومن ثم زها في مدارس المسلمين
بتلك البلاد علم الجبر والحساب وانصبت الطلبة على العلم من كل ناد
وتنافست به بينما كان الافرنج لا يعرفون شيئاً من العلوم والفنون غائضين في
بحور الجهالة وقل من يعرف فيهم ما هي الحروف الهجائية حتى اشرافهم ايضاً وانما
لما اخنط اهلها في تلك البلاد بهم تعلموا منهم ما كان عندهم من المعارف على ما
تقدم واستمروا على ممارستها والاشتغال بها وخالصة الامران اهل اسبانيا كانوا
في القرن الخامس عشر اخذوا كثيراً من معارفهم عن العرب مدة اقامتهم
في الاندلس التي كانت اول وسيلة الى دخول العلوم ثانياً في بلاد اوروبا بعد
كرلوس الاكبر وثانيتها الحروب الصليبية حسبما يتضح ذلك من التفاصيل
المتقدمة ويقال بانها لم يزل حتى الآن موجوداً في المكتبة الملكية باسبانيا نحو
٢٠٠٠ مجلد من الكتب العربية التي كانت موجودة بها في زمن الخلفاء فبانضمام
هذه الامور الى استمرار التجارة في عدة من المدن الاسبانية المعتبرة في ذلك
الزمان كان السبب في بقاء الاهالي فيها بكثرة ايضاً واحتوائها على مدن كثيرة
اعر من باقي مدن اوروبا ما عدا ملكتي ايطاليا والبلاد الواطية (دانيارك)
وهناك قضية اخرى ذات اهمية وقتئذ في سطوة البلاد الاسبانية
المذكورة وهي كما لا يخفى ان الرومانيين القدماء كانوا يخرجون في حروبهم ويستصرون
بواسطة صفوف العساكر المشاة لكن في زمن الملوك القياصرة الذين غلبوا
وتحكموا على كل البلاد غيروا طريقهم وصارت الخيالة مطمح انظارهم ولذلك
صاروا لا يقدر ان يقاوموا صدمات المتبرزين لما هجموا على بلادهم وقد

كان يلزم هؤلاء المديرين الذين خلفوهم في السطة ان يعطوا بذلك ويحافظوا على تعليم العساكر المشاة التي كانت سبباً في انتصارهم لكنهم هم ايضاً بعد ان استولوا على البلاد ابدلوا عساكرهم المذكورة بجيوش خيالة كالرومانيين اسلافهم وكان منشأ ذلك كبر الاشراف وعاظهم وتببت العساكر المشاة عندهم مهلة التعليم رديّة الاسلحة الى ان تولى على مملكة فرانساً في القرن الخامس عشر الذي نحن بصدده كرلوس السابع واشتهر بنصراته على الانكليز فاحدث جيوش العساكر المشاة على ما يأتي ايضاحه في الكلام على فرانساً وترتب المكوس الدائمة لها ثم لما صيرت حروب ايطاليا ترتيب العساكر المنتظمة عموماً وعرف اهل اوروبا فضل العساكر المشاة في الحروب ترتيب حيث نذر عساكر المشاة المليّة الالمانية وكذلك تنازل الاشراف في فرانساً عن دعاوهم القديمة ودخلوا في الخدمة العسكرية منذ حكومة لويس الثاني عشر الذي تولى المملكة الفرنسية في سنة ١٤٩٨ م ومن ثم ترتيب ذلك في اسبانيا ايضاً حيث نظمت عساكرها الجديدة متسلحة بنوع ثقيل من اسلحة النار يقال له الزنبالك ويضرب بواسطة القليل فصار لعساكرها هذه المشاة شهرة عظيمة مكث سائر الافرنج يخشون بأسها مدة ١٥٠ سنة ثم نجحت ايطاليا كذلك على منوال من جاورها من الممالك فحصرت قواها في العساكر المشاة

وكانت البورتغال حصّة من مملكة اسبانيا المذكورة لكنهما انفصلت عنها قبل مدة اعني في سنة ١٢٨٢ م وصارت دولة جديدة مستقلة أسسها بوحنا الأول الكبير الملقب لوبيار (اي النخيل) ومن ثم اخذت هي ايضاً في التقدم والنجاح وبواسطة اسفارها البحرية وتعرضها للاهوال والمخاطر في المحيط الشاسع كما يتضح ذلك في ما يأتي عند الكلام على الاكتشافات الارضية اصيحت ذات سطوة وغنى ثم بانضمام ذلك الى ما كانت ادخلته العرب فيها من التقدمات الادبيّة التي هي المبدأ الاصل في ذلك كله منذ كانوا استولوا عليها في سنة ٧١٣ م وضموها الى بلادهم التي تقدم الكلام عليها بالاندلس الى ان طردهم منها بالتام

الفونس الاول ابن هنري البرغوني في سنة ١٢٦٦ م استمرت على زعامتها ولا زالت الى ان اكتشفت طريق الهند من جهة رأس الرجاء الصالح في اخر هذا القرن كما يعلم ذلك من النضية الثانية الآتية بعده

فهذه خلاصة ما تقدمت تفاصيله من وسائل تقدمات الافرنج الادبية لحد القرن الخامس عشر ثم بانضمامها الى اجتهاداتهم التالية صاروا باجمعهم والحالة هذه هم الوارثين لعلوم اليونانيين ومعارف الرومانيين والأفان الفريقين اعني الهاجين الغالبيين او المهجوم عليهم المغلوبين لم يكونوا الا وحوشا قبل ان يتدرجا في المعارف بالوسائط المذكورة اذ انها كانا على حالة الفطرة الاصلية يلبسون غالبا جلود الوحوش الضارية وياكلون المآكل الخشنة ومنهم من يتزينون بطلي اجسادهم بعصير بعض النباتات وبوشونها بصور بعض الحيوانات ومن الرجال من يطوقون اعناقهم بسلاسل من ذهب وكذلك نساؤهم يلبسن اساور ذهبية واكثرهم مولعين بشن الغارات في كل جهات اوربا كالامان والدانبارك التي خرج منها الطوائف القهبرية التي اهلكت اوربا سنة ١٠٠٠ اقم والنورتمان او النورمند الذين خرجوا من اسوج ونروج وصاروا قطاعا للبحر وافسدوا البلاد الغربية وسكنوا في اقليم من اقاليم فرانس لا زال حتى الآن يسمى نورمندو نحو سنة ٨٤٥ م وفي ذلك الوقت عينه اسست طائفة منهم اعني من النورتمان المذكورين يقال لها الوريقية دولة عظيمة شهيرة الآن بالسلطنة المسكوبية التي لما لم تصل الى بلادها سطوة الاسلحة الرومانية القديمة في زمن التياصرة السالفين ولا ذقت لذة طعم الاداب المحاذثة في زمن كراوس الاكبر المنبم ذكره بقيت على حالة الوحش النام طول هذه المدة ولم تظهر للوجود الا في القرن الخامس عشر كما يتضح ذلك مما باتي

المطلب الثاني

في تقدمت المعارف والآداب عند بعض المالك المذكورة في
القرن الخامس عشر

روسيا

كانت هذه البلاد التي لم يُعدَّ على سكانها شيء من الفوائد التي نالها
اولئك البربر مع انه كان اشترك معهم بعض قبائلها في مكابدة مشقات تلك
الغارة المنوة عنها على المملكة الرومانية نسي قديماً روكسلان ثم تسمت بالمسكوب
نسبة الى مدينة موسكا التي كانت تخنأ لها اوداراً لاقامة كبار دوكاتها واما
تسميتها روسيا فهو نظراً لتعدد قبائلها فان معنى هذا الاسم القبائل المشتتة
فكان من اقاليمها ما يقال له الروسية البيضاء والروسية السوداء والروسية
الحمرية وقد اختار لها المتأخرون اسم الروس دفعاً للالتباس بين روسيا
ويروسيا وكان البعض من سكانها يسكنون المغارات والاختصاص ومنهم من
هو قاصر العقل خالي البال ولذلك كان لا يعترفهم مرض ويعمرون طويلاً
ويقال انهم كانوا يترجون الغرباء ان يدخلوا على نساءهم وبناتهم لاعتقادهم ان
الغرباء احسن منهم شكلاً وجنساً وبنيةً ويرون في ذلك اصلاحاً لعيوب تركيب
نسلهم كما كان يقال عن اهل لندمونيا ببلاد اليونان مع انهم معدودون من
الامم اولى النضائل ومنهم من كان معتاداً على السلب والنهب وقطع الطريق
والصيال في البحر ولا يطيقون سكنى النساء في نجوعهم بل تسكن نساؤهم في

جزائر مخصوصة وسط النهر ولا يعرفون الزواج ولا العائلة بل ينظّمون الذكور من اولادهم في سلك عساكرهم غير المنتظمة ويتركون الاناث عند امهاتهن وكثيراً ما يفتش الاخ باخوته والاب ببنته ويولدون منهم الاولاد ولم يكن لهم شرائع ولا قوانين اصلاً ومنهم من كان لا معرفة له بتقويم السنة وانما يعدون اعوامهم بالثلوج ولا يعدونها بسير الشمس الظاهري فكان اذا سئل احدهم عن عمره مثلاً يجيب بقوله انا لي كذا وكذا من الثلوج كما يقال كذا وكذا من السنين

لكن كما ان الشعوب المذكورة في ما تقدم كاملها ما عدا روسيا كان تحسبن احوالها نوعاً بواسطة سبق دخول الرومانيين الى بلادها على ما تقدم حيث اقتبست عنهم بعض صنائع وعوائد مفيدة جعلتها متمدنة نصف تمدن اعني متبربرة سواء كان ذلك في المعيشة والرفاهية او في الامور السياسية والحربية واصطناع الاسلحة كما حصل ذلك في المانيا وغيرها من الاقاليم الشمالية او تقدمت في امور الزراعة كما حصل في فرانساً اذا دخل اليها الرومانيون غراسات لم تكن موجودة فيها قبل استيلائهم عليها فانه يقال انهم ادخلوا اليها الكرز والكرم من بلاد المشرق والزيتون والتوت الاسود واللوز والجوز والبطيخ من اسيا والبورنقال والليمون والتوت الابيض من الهند والمشمس من ارمينية والخوخ من بلاد فارس والرمان من افريقية او كما وقع لانكثرة حيث تقدمت بواسطة اماليها تقدماً نشيطاً في بناء المداين وانقان الصنائع كذلك ايضاً روسيا اخذت قبائلها الجنوبية منذ القرن الخامس من التاريخ المسيحي في اكتساب الهيئة الاجتماعية من اليونانيين وبنيت مدينة يقال لها نوغروود واخرى يقال لها كيف اما القبائل الشمالية فالتحمت تحت سلطة رجل يقال له روريق في سنة ٨٦٢م وهو من الوريغيين الذين تقدم ذكرهم وما زال نسله يتولى السلطنة الى القرن السادس عشر

وكانت ديانتهم وثنية نظير ديانات سائر الامم والشعوب المتبربرة التي مر ذكرها وحيث قد تكلمنا عليها جميعها بقدر ما وصل اليها في البحث الرابع من

المقالة الثانية من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف فلا نكرر ذلك هنا غير انه كما ادخلت كواونيد وهي بنت اخي امبرار ياني الديانة المسيحية الى بلاد فرانسفا في سنة ٤٩٦ وادخلتها برثا ابنة تشربرت زوجة انلبرت ملك كنت اشهر ملوك الانكلسكسون الى انكلترة في ٥٩٦ ودمبروكا ابنة بولصلس زوجة ميسيسلس دوك بواونيا الى بلاد له في سنة ٩٦٥ وزوجة غيصا رئيس الشعب الهنكاري الى بلاد المجر في اوخر القرن العاشر المذكور كذلك ادخلت اميرة مسكوبية يقال لها اولغا هذه الديانة الى روسيا في سنة ٩٧٥ م مع انها لم تدخل الى بلاد بروسيا الا في اواسط القرن الثالث عشر بطريقة اغنصائية لا توافق قواعد هذا الدين الاصلية

ونحو القرن الخامس الذي فيه استولى البربر المذكورون على الاقاليم الرومانية كان فن القراءة والكتابة غير معروف في بلاد روسيا كما انه مكث زماناً طويلاً مجهولاً في جميع اوروبا الشمالية لكن لما كان اول بطربرك تولى بلاد المسكوب رومياً استعمل المسكوبيون في لغتهم حروفاً هجائية اخذوا بعضها من اللغة اليونانية

ثم لما تولى الملكة اباروسلاف في سنة ١٠١٦ م وضع لبلاد روسيا قوانين محكمة ومن ذلك الوقت اخذت في مبادي التمدن وال عمران لكنها لم تخرج من غوائل الخلل الذي كان اوقعه فيها النورمند اوهم النورتمان الا في وسط القرن الخامس عشر من التاريخ المسيحي في ايام تملك ايوان الثالث سنة ١٤٦٢ الذي اعتمها من نير التتار وبذل جهده في جلب التمدن الى بلاده اذ انه كان قائماً بحماية العلوم والمعارف وفي سنة ١٤٨٢ م جلب من بلاد الدانيمارك جماعة من صناع المدافع والطوبجية والمهندسين واللغجية والبنائين والصاغة وجلب ايضاً من الاروام والابطالايانيين ارباب حرف وصنائع واحداث في جميع مواضع ادارته نظاماً جديداً وجعل عساكره على حالة منتظمة حسنة وزاد ايراد الملكة بما غنمه من الفتوحات وبما جده من الطرق في ضرب المغام

واستخراج المعادن وتوسيع دائرة التجارة وترتيب مدائنه الضبط والربط والثرية السياسية ووضع في الطرقات البوستة والبريد فكان ارباب السياحات يرون بها خيولاً بعلافاتها وكانوا لا يدفعون لها اجرة اذا كانت اوراق الطريق التي معهم متضمنة لذلك وقد اطلع على الترتيبات القديمة المتعلقة باقضية البلاد المسكونية واحكامها وجمعها كلها في دستور قوانين امر بنشره في سنة ١٤٩٧ م وانشا حصن ابوان غرود في سنة ١٤٩٢ م في المحال التي بنيت فيها اخيراً مدينة بطرسبرغ وبذلك تمت المشاهدة بينه وبين الامبراطور بطرس الأكبر الذي سوف يأتي ذكره في محله

وكانت مدينة موسكا قصبة هذه المملكة الى القرن الثالث عشر من الميلاد ليست الا عبارة عن مجمع اخصاص يسكنها اناس مساكين يحكمهم جماعة من ذرية جنكيزخان حكومة ظلمية حتى ان خط كريمينا لم يحدث بهذه المدينة الا في القرن الرابع عشر بناء مهندسون من ايطاليا فانشأ فيها الملك المشار اليه مباني وعدة عمارات لطيفة منها الكيسة المسماة اسومبيسيون وحصن كريمين الذي هو قصر عظيم وقال بعض المؤرخين ان هذه العمارات بناها له الايطاليون كما بنوا قبلاً خط كريمين المذكور وقال ايضاً انهم بنوا عدة كنائس على الرسم القديم الغوطي الذي كان عاين العمل وقتئذ في جميع بلاد اوروبا ومن هذه الكنائس كنيسة بنانا مهندس شهير في بلاد له يسمى ارستون كان له صيت في القرن الخامس عشر

فرانسا

وكانت البلاد الفرنسية قد اخذت ان تتقدم بهذا القرن في العلوم والاداب منذ انقذها كراوس السابع الذي جلس على كرسي مملكته في سنة ١٤٢٢ م من ايادي الانكيز فان هذا الملك شرع في اتوم اودها واصلاح

شأنها حيث جدد بها كتيبة من العساكر المستنيرة ونشر أوامر تتضمن عدم التطويل في فصل الدعاوي وأمر بتدوين العوائد الجارية في إقليم فرانساً لتكون للحكام قاعدة يعلمون بمقتضاها وأشهر قوانينه هو القانون الأكبر الذي مكث مدة طويلة ما لوقفاً ومحبوفاً للكنيسة الغالية وصنع ترايب وقوانين جديدة للجمعية مدرسة باريس دار العلوم التي كان يوجد بها في ذلك العصر ٢٥ ألف تلميذ وفي سنة ١٤٥٨ م شرع في هذه المدرسة بتعليم اللسان اليوناني الذي أتى به اليهم اليونانيون الذين هاجروا من القسطنطينية وفي ذلك العصر أخذت التجارة في الاتساع والعظم

وكان نحو هذا الوقت اخترع يوحنا غوتبرغ المياني بالمانيا وقد تقدم ذكره صناعة الطبع فادخل الى باريس بعض نسخ من الكتاب المقدس مطبوعة باللغة اللاتينية وباع الواحدة منها بعشرين ليرات حالة كونها كانت تباع بنحو ١٠٠ ليرا فصارت حركة عظيمة بين الناس إذ ظنوا انها مكتوبة بخط اليد ولم تعمل بهكذا سرعة ورخص الأبقرة شيطانية ولا سيما ان كل الذين اشتروا منها كانوا يجدون نسخهم مطابقة بعضها بعضاً بالتام وبما انه كان يوجد بها سطور مكتوبة بهداد احمر فبهنوا على ما زعموه بان تلك السطور لم تكتب الا بدم الشياطين وبعضهم قالوا كيف يمكن للشياطين ان تكتب كتاب الله واخيراً اشتكوا عليه للحكومة مدعين بانه ساحر فامسكته الحكومة هو وشريكه ايضاً ولم تطلقها مشورة باريس الا بعد ان افشيا لها سر تلك الصناعة ليتخلصا مما احاق بهما من الخطر^(١) لكن لما تولى الملك لويس الحادي عشر المقول عنه

(١) هذه النصية تشبه ما نسميه في ايامنا هذه عن سودان افريقية مع انها واقعة في بلاد أوروبا بل وفي المدينة التي تعتبر الآن مركز العلوم والمعارف ومنبع التمدن وكان وقوعها من نحو ٤٠٠ سنة مضت فهل من مانع يمنع العقل بعد ذلك عن الامل بان تصير أكواخ افريقية الحالية ماوى لكل هذه المزاياء المذكورة بعد ٤٠٠ سنة مستقبلة اراقل من ذلك طالما دعاء نور العلم في هذا العصر على ما هم عليه من الهمة

فساد القلب نظراً لاهوائه الباطلة وما كان له من العنائد الغربية إلا أنه كان يمارس العلوم والمعارف وانشأ مجامع علوم في والنسه وبرجس وكان له معرفة باللسان اللاتيني ويحامي عن العلوم والآداب ويكرم العلماء نقل صناعة الطباعة المذكورة وقتئذ إلى باريس ٢ من طباعين الألمان وهم أولريك جرنغ ومينائيل فريبورجير ومرتين كرانتر سنة ١٤٧٠م وجعلوا دار طباعتهم بمدرسة لاسربرونه فانتسعت بذلك دائرة العلوم ونقدت في اقرب وقت بنشر الكتب مع السرعة والسهولة بعد ان كانت الى ذلك الوقت قليلة الوجود غاية الثمن حتى ان المتشبهين بمطالعة الكتب لا يمكنهم تحصيلها الا بشق النفس وكان علم الطب يدرس اولاً في مجامع باريس الآن هذا العلم الذي كان قليل التقدم وكان مخلوطاً بالفضالات والاعمال السحرية لم يكن له مدرسة خصوصية فتجددت له في عهد هذا الملك مدرسة مخصوصة في سنة ١٤٧٢م وبعد ذلك بستين انتشر هذا الفن باكتشاف نافع على ما ذكره بعض المؤلفين وهو عمالية الحجر التي جريت وظهر نجاحها في بعض الرماة من اهالي مودون وكان قد حكم عليه بالقتل لجنايته ارتكيبها فنجيا من الهلاك مرتين بواسطة هذه التجربة الناجحة

وكان لهذا الملك مزيد النفقات الى التجارة وكان يتاثر من كون ملكه محتاجة لمحصولات الدول الاجنبية فاراد ان يجبر هذا الخلال فاحضر من بلاد اليونانيين ومن بلاد ايطاليا كثيراً من ارباب الصنائع ليحددوا في ملكه معامل وورش للافضة المزركشة بالذهب والفضة والفضة الحرة وامر بما فاتهم من جميع التكاليف والمغام بسائر انواعها وكذلك زوجاتهم وارااملهم واولادهم وحرر اشهاراً يتضمن الاذن بالتجارة براً وبحراً للفسوس والاشراف وغيرهم بشرط ان من تاجر منهم في البحر لا يأتي بالبضائع الا في سفن فرانسوية وفي سنة ١٤٧٠م وضع قانوناً في شأن استخراج الممادن ولم يكن قبل ذلك قانون معين لها وصدر امره بما فاة كل من اتى لهذا الغرض من الشغالة

الاجانب من جميع المغارم مدة ۳۰ سنة وخبرهم اما ان يتظروا في سلك الفرنساوية
او ان يعودوا الى بلادهم

ومن اعظم ترتيبات هذا الملك واتمها نفعاً هو ترتيب البريد ويسمونه
بافتهم البوستة وكانت البوستة في مبدأ الامر معدة لمصالح الملك والبابا خاصة
ثم اتسعت دائرتها في سنة ۱۴۸۱م حتى صارت تستعمل في مصالح الاهالي
ومراسلاتهم

ورتب ايضاً مجلس البرلمان في غرنوبله ثم رتبته في بر دو سنة ۱۴۶۳م وفي
ديجون سنة ۱۴۷۷م ورتب قانوناً انه لا يجوز توظيف احد في وظيفة الا اذا
كانت خالية بموت صاحبها او نزولها عنها او عدم قيامه باداؤها
وكان عازماً على ان يجمع القوانين والعوائد ويؤلف منها كتاب قوانين
للملكة لا يكون الهل على خلافه ويختصر طرق فصل الدعاوي ومن كلامه
من لم يعرف المداراة لم يعرف الادارة ومتى سار التكبر وتقدم الى مكان سار
خلفه الخزي والخسران

ومع كون هذا الملك كان في العلم على درجة لا يصل اليها غيره عادة
كانت اثار معارفه مشوبة بظلام الازهام كما يقضي بذلك ما صدر عنه من
الحكم المنكر الذي انتهى به المشاجرة الهزلية الشهيرة التي كانت واقعة بين طائفة
الريالست اي الحقيقيين وبين طائفة النومينواي الاسمين ويشهد بذلك ايضاً
عقيدته الفاسدة في العرافة والكهانة حيث كان عنده ۷ رجال من ارباب
التنجيم موظفين بمعاشات على طرفه ليجبروه بما يظهر لهم من مستقبل الاحوال
وهذه المشاجرات الهزلية المذكورة هنا قد سبقنا تفصيلها في عدة مواضع
وعلى الخصوص في الفصل السادس من هذا البحث بمحاذاة احوال القرن العاشر
فاراد الملك المشار اليه ان ينظر في هذه القضية ويحكم فيها بما يراه فرأى ان
الاسمين هم المخطئون ومن ثم امر في سنة ۱۴۷۵م بالتحجز على كتبهم وحكم بالنفي
على كل من تعرض لتأييد هذا المذهب او تصدى للانتصار له ثم بعد ذلك

فك حجز الكتب والمولدين

وفي زمن الملك لويس الثاني عشر الذي تولى المملكة سنة ١٤٩٨م تعضدت شوكة التجارة والزراعة والفنون والآداب ولذلك كان يُلقب بحامي العلوم والآداب وكان كلما اخلس وقتاً من اوقات اشتغاله بالمصالح العمومية بشغاله بمحادثة العلماء او مطالعة اثار الاقدمين وجلب الى فرانساً مشاهير علماء ايطاليا واستمالهم بالانعامات واقام منهم جماعة يعلمون اللسان اليوناني في مدرسة العلوم الجامعة بباريس وحصل نجاح عظيم حتى صار المتعلمون يفسرون مخاطبات افلاطون ثم جمع من مؤلفات الاقدمين العظيمة مجموعاً كان اعظم المجاميع التي اشتهرت اذ ذاك في اوربا وطالها هذا الملك مع التأمل وجمع منها اصولاً وحكماء نافعة وكان يجتهد ان يطبعها في ذهن الشاب كوتة انغوليم الذي كان ولي عهده على المملكة (فرنسيس الاول)

واشتهر بفرانساً في ذلك الوقت كل من الموائف جرسون ديلي وكليمنس وغايوم وبوحنا والآن شريتير شهرة حميدة

ومن اثار هذا العصر الادبية التي فاقت على آداب العصر الذي قبله اشعار اوكتاويان دوست جليس الذي ترجم قصيدتي اوميروس وها ادويسة وابلبادة ورسائل ادويده ومنها ايضاً اشعار دباون الذي هو اول من حرر فن اختراع الحكايات الموضوعية القديمة وكذلك اشعار كرلوس دوك دورايان الى لويس الثاني عشر وتوارنج مارثيسال دوويرينه المنظومة واشعار الرعاة التي نظمها الملك رينه الطيب لفرط تواعه ورغبته بالرعي حيث زهد في الفترحات والمناصب العالية ورعى مواشيه في مروج بروونسة مع زوجته الملكة حنة دي انال

وما تجدد في هذا العصر من التأليف المعتبرة المفيدة توارنج روبرت جاجين ومونسترليت ورسائل اوليوبر دولامرش وقد ألف فيلبس دو كوميته رسائل تتعلق بالملك لويس الحادي عشر كاد ان يُعدّها من نظراء تاسيت

المؤرخ الروماني الذي مر ذكره في الفصل الثاني من البحث الأول في الكلام
على السلطنة الرومانية

وكذلك لا مانع من ان يقال بان غلبوم فينشيت رئيس مدرسة العلوم
الجماعة في عهد هذا الملك هو الذي احب فن البلاغة وحسن اللغة اللاتينية في
المكاتب والمدارس الفرنسية

انكلترة

وفي القرن الخامس عشر المذكور ايضاً ظهر في انكلترة الشاعر المشهور
شكسبير قال بعض المؤلفين انه وان لم يخجلُ كلامه عن الهفوات فله النفيس من
جوهره ويتوصل بفصاحته الى الكشف عن كنه ما يروم وصفه والاحاطة بكيفية
الحسية والمعنوية ولا سيما في وصف الحروب بحيث ان سامع كلامه يكون كالشاهد
لما يصفه

وليم جليبرت من كولشستير كان طبيباً للملكة اليصابات في انكلترة
الذي بحث عن الكهر بائية وذلك قبل موته باربعين سنة وأشار الى نوعها
الموجبين دائماً للاجتماع وقال انها بخلاف المتماثلين في الطبع فانها دائماً متمافران
وفي ذلك الوقت كان لموت ناليس الفيلسوف اليوناني الذي سبق ذكره في
الكلام على اليونانيين نحو ٢٠ قرناً لم تقدم فيها المعارف الكهر بائية بل ولم
يسمع كلام عنها الا من بلينوس احد فلاسفة الرومانيين حيث يقول ان الكهر باء
متى اكتسبت الحرارة والحياة بواسطة الفرق تجذب قطع القش كما ان المغناطيس
يجذب الحديد انتهى كلامه ولا يخفى ان الكهر باء لفظه فارسية معناها جاذبة
القش قال بعض الكتبة ان اليونانيين كانوا يشبهون هذه الخاصية بالتنفس
فقالوا ان في الكهر باء حياة تتنفس الاجسام الخفيفة ولندرة هذه المادة شردوا
في حقيقتها ومن خرافاتهم ما زعموه وهو انها تأتي من دموع عصفور هندي

حزين على موت الملك مالياكروس اه ثم من بعد ظهور جايبرت المذكور اخذ
فحول العلماء من الانكليز والفرنساويين وغيرهم في البحث عنها الى ان اكتشفوا
منها فوائد عظيمة كما ياتي ذكر ذلك في محله

ايطاليا

لا يخفى بان هذه البلاد وان تكن قد اضرّت بها الحروب الصليبية لكنها
كانت في القرن الخامس عشر والسادس عشر هي القطر الذي ابعث فيه
دون غيره من اقطار اوربا اثار الاداب والفنون مع مزيد الرونق والبهجة
فانها اجنتت معظم ثمرات الغزوات المذكورة على ما سبقت تفصيله في الفصل
السابع من هذا البحث وبالمجمل فان الامة الايطالية كانت هي المستعدة اكثر
من غيرها من شعوب اوربا لتلقي وتبني المعارف والاداب التي ساقتها الي
العقول المحوثة العظيمة التي حصلت في اواخر القرن الخامس عشر

وقد اشرنا في ما تقدم الى تاسيس الاداب فيها منذ القرن الرابع عشر
اما الذي أسسها فهم ٣ رجال من اولي النهي والقرايح الجيدة واسماؤهم دنته
وبوكاسه وبثاركة وهم الذين تركوا لين بعدهم من ابناء ذلك العصر لسانا
جديدا انشاؤه واحكامه من ملهم وامثالهم واورثوهم ايضا النوع بطالعة كتب
الاقدمين واستحسناتهم اياها فكان ذلك منشأ لجميع الاداب المستحسنة

وقد كانت الآثار القديمة قبل هولاء الثلاثة خبيت عليها عناكب النسيان
فلم يكن في خزائن كتب المدارس والديورة التي كانت قد تجددت في عدة
اقاليم الا بعض كتب في اللاهوت وعلم الاحكام والطب والفلك والفلسفة التي
كانوا يقرأونها في المدارس على طبق الاهليات

فحل هولاء الثلاثة ولاسيا بتراركة اهل عصرهم على معرفة كتب الاقدمين

ومطالعتها فاخرجوا بذلك الكتب التي كانت مدفونة في تراب الديورة البعيدة في الاقطار الشاسعة من حيز الخفاء إلى حيز الظهور وحثوا الناس على التسابق إلى العلوم واستفراغ الجهد في التعلم والمعرفة وتورث ذلك عنهم جيلاً بعد جيل

وفي اثناء ما كانت اهل هذه البلاد قد تمكن منها هذا النوع بالعلوم والفنون واذ ظهر فن الطباعة فزاد به تولعها وانتشرب المعارف واتسعت دائرته وهذا الفن المخترع الذي لا تخفى فوائده كان له تأثير عظيم في تغيير احوال البشر وكان ظهوره في ذلك الوقت الملائم لانتشاره وقبوله حيث كان الناس يرغبون في البحث عن الكتب ومطالعتها بالمجد والاجتهاد على ما ذكرنا وقد كان انتقال هذا الفن من المانيا محل اختراعه على ما سبقت الاشارة اليه إلى ايطاليا قبل ان ينتشر في محل آخر وكان اول ما طبع فيها كتاب في اشعار اللغة اللاتينية التي عاد إلى استعمالها اهل ايطاليا فتكاثرت بها اشعارهم بعد ان كانوا قد تناسوها وهي وان لم تأخذ مأخذها في التوصل بها إلى المعاني الدقيقة واللطائف البديعة إلا انها قد رجعت لما كانت عليه من الطلاوة وحسن السبك

قال بعض المؤلفين لا مانع ان يُطلى على هذا العصر بالنسبة إلى ايطاليا عصر ذهب الشعراء والعلماء والمخترفين فان الجمهوريات التي كانت وقتئذ موجودة في ايطاليا والامراء الذين علا شأنهم وارتقوا إلى الرياسة كانوا يتفاخرون ويتنافسون في المباني والرفاهية والزينة في مواكبهم ويسعون في ما يكون به فلاح دولهم وسعادتها وما ذاك إلا الآداب والعلوم والفنون وكانوا يتسابقون إلى حيازة ارباب المعارف مع الاستمرار والدوام والبذل والعطاء وكانوا متى ظفروا بعالم جديد تنازعوا عليه حتى كأنه من الفتوحات العظيمة الفاخرة ويبعثه الظافر به على ملازمة ديوانه مع التشريفات والالقباب الرفيعة ويتفاخرون به الاجانب ويقلده بالسفارات والمكائدريات حتى كأنه يريد بذلك

ان يربطه لجميع اهل الارض كما سوف يفهم اجتهاد كلٍ منهم في هذه الامور من
التفاصيل الآتية وهي

لما كانت مدينة نابلي على عهد الملوك الاراغونية متولعة بممارسة العلوم
ومطالعة كتبها انشأ بها الملك الفونس الاول الذي حكمها في سنة ١٤٤٢ م
اكاديمية (مجمع علماء) اشتهرت في بداية امرها بالمولف بونتانوس وسوف ياتي
ذكره والشاعران كارتيو وسنازار ولاسيما هذا الاخير فان اشعاره اللاتينية تشبه
احسن ما يجانسه من اشعار المتأخرين وله قصيدة تسمى اركا ديا وصف بها
اخلاق الرعاة واتي في وصفهم باخلاق حاسية تنبسط في وصفها النفوس وكان
من جنة رجالها ايضاً دوك دواتري ودوك دونروي

وكان الملك المشار اليه نفسه يحب العلوم ويمارسها فضلاً عن بذل وعطائه
لاجابها وكان يحضر مجلسه العلماء ويقراون عنده كل يوم شيئاً من المؤلفات
القديمة وكان لا يترك عادته من مطالعة الكتب حتى ولا في اوقات الحروب
وكان اذا تغلبت عساكره على مدينة ووجدوا فيها كتباً اغتندوها اتوا بها اليه
كأتمها اعظم شيء في تلك الغنية

وقد اشتهرت ايضاً امراء عائلة ابسته حكام فراره في مبداء الامر شهرة
عظيمة لمحبتهم الاداب والعلوم واکرامهم لاهلها ومن جلاتهم المربي نيقولاوس
الثالث فانه جلب الى المدرسة الجامعة في المدينة المذكورة مدرسين ماهرين
وقيدهم بقيود احسانه وانعامه ولما تولى بعده ولده ليونيل سنة ١٤٤١ م لم يترك
شيئاً مما تكون به هذه المدرسة مضاهية في الشهرة لاشهر مدارس ايطاليا وكان
هذا الامير معدوداً من مشاهير رجال عصره وبوتر عنه بعض اشعار رقيقة
رائقة وقد زاد هر قول ديسته في كتب الخزائن التي انشأها عائلته

وهر قول المذكور هو اول امير من امراء ايطاليا جدد في ديوانه ملاعب
فاخرة يلعبون بها كوميديات يونانية ولاينية بعد ترجمتها الى اللغة الدارجة
لينهها العامة وكانوا يلعبونها في تلك الملاعب من غير ان يترك فيها شيء من

مظهر تيارات الاقدمين وابهتها وروبقها وكانت تقال وتمارس فيها اشعار
الحجاسة واشعار ابطال الرجال مع الطلادة والحسن ومن شعراء الحجاسة بها
بويار واربيوست وناسة الذين اسارهم مخلاة كما ان ملح اشعارهم باقية موبدة
قال بعض المؤلفين ان في القرن الخامس عشر ظهر الشاعران اربوست
وناسة (المذكوران) اللذان اشهرا اللسان الايطالياني المستعمل الان وهما في
الطبقة الاولى من مشاهير تلك اللغة فاولها خلد ذكره باختراع معان لم يسبق
اليها في الفاظ مهذبة مستعذبة والثاني نال شهرة كشمرة اوبروس الشاعر
اليوناني وورجيل الشاعر اللاتيني وبالجملة فان اللسان الايطالياني اخذ في
ذلك الوقت ماخذه من السلاسة وحسن السبك وألفت فيه تآليف عديدة
في فنون شتى

وكان المونتغليترية في اوريين والغونزاغية في مانتوه والوسكونتية ثم
السفورسية في ميلان والباتووغلية في بولونيا حكاما يحبون الاداب ولم تكن
كوتات ميرندولادون الامراء العظام في محبة الاداب ولاقل من مشاهير
العلماء في الشهرة بالادب كيف لا وتاليف يوحنا بك^(١) الادبية تكاد ان تكون
جامعة لجميع انواع الانشاء وصناعة الكتابة وهو من اول من عارض في علم
التنجيم وقال ببطلانك وكان هذا العلم مع كونه من الاباطيل والاهام يوجد
لخصوص تدريسه مقاعد ومدرسون في مدرسة العلوم الجامعة ببولونيا ومدرسة
العلوم الجامعة في باد وهاتان المدرستان كانتا اشهر مدارس ايطاليا وقدوة
لغيرها من المدارس

وكان للبعض من الباباوات الرومانيين ايضا التفات الى توسيع دائرة
العلوم والمعارف اذ يقال بانك كان البابا اينوكندبوس السادس الذي ارتقى
الى الكرسي سنة ١٢٥٢ م وخليفته اوريانوس الخامس الذي تولى سنة ١٢٦٢ م

(١) وهو بيكوس كوتة كونكورديا احد الحامين عن الفلسفة الافلاطونية المذكور

في النصل السادس من المقالة الاولى من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف

وغريغور بوس الحادي عشر الذي خلفه في سنة ١٢٧١م كاتب انشا من العلماء خدمهم بهذه الوظيفة على التعاقب يسمى كوكسيوسا لوناتو ثم اعتبه بهذه الوظيفة ايضاً عند البابا اينوكند بوس السابع الذي تولى الكرسي سنة ١٤٠٤م كل من بونجييو بركيبولاتي وليونارد وواريز وغيرهما ممن امتاز في هذه الصناعة بالفضل والشهرة

ولما ارتقى البابا الفجانيوس الرابع الى الكرسي في سنة ١٤٢١م احب العلوم فترب اليه مشاهير العلماء وجمعهم ملازمين له بالوظائف التي قلدهم بها واعاد مدرسة العلوم الجامعة برومية وكان قد سعى قبالة في ذلك البابا اينوكند بوس السابع المتقدم ذكره بدون طائل

ثم لما ارتقى الى الكرسي البابا نيكولاوس الخامس في سنة ١٤٤٧م وكان ابن طبيب فقير من مدينة سرزانه ونال هذه المرتبة بواسطة حرصه على التعلم ومطالعة الكتب فاحضر الى ديوانه عدداً لا يحصى كثرة من النساخين والمترجمين الذين يترجمون الكتب من اليوناني الى اللاتيني وبمك عدة من العلماء ليبحثوا له عن الكتب المكتوبة بخط اليد في جميع اجزاء ايطاليا والمانيا وانكلترة وبلاد اليونانيين وبلاد المشرق ويشتروها له ومن ثم ترجم له المترجمون ما لا يحصى من الكتب اليونانية كملفات هيرودوتوس وتوسيديدس واغزنيفون وبوليبس وثودور دوسيبيليا وقصيدة اوميروس المسماة الياذة وجغرافية اسطرابونيس واييان الاسكندراني وفيلون اليهودي وكان ذلك اول مرقة ترجمت فيها هذه الكتب واُضيف الى ما كان يوجد هناك من المؤلفات عدة مؤلفات لافلاطون وارستطاليس وثيوفراست

وكان من هذا القبيل ايضاً تاليف اباء الكنيسة ومعلمي اللاهوت الذين كانوا في الترون الاولى من ظهور الديانة المسيحية فترجموا من اليوناني الى اللاتيني كتاب اوزيبه (املة اوسابيوس احد الفلاسفة المسيحيين الاسكندرانيين وقد مر ذكره في ما تقدم) ودونيوسوس الذي كان من اعضاء محكمة اريوس

باغوس وقد تقدم ذكره أيضاً في الكلام على اليونانيين وباسيليوس
وغرغوريوس النازينزي وبوحنا فم الذهب وغيرهم وحصل اذ ذاك اجتهاد
في تعلم اللغات الشرقية مع الرغبة وشرعوا في ترجمة الكتب المقدسة على الاسلوب
العبراني وأسّس هذا البابا مكتبة الواتيكان (السراية الباباوية) وجمع فيها من
الكتب نحو ٥٠٠٠ مجلد وكان هذا المقدار منها في ذلك الوقت يعد من العجائب
ثم انه من حين وفاة البابا نيقولاوس المشار اليه في سنة ١٤٥٥ م الى ظهور
البابا لاون العاشر الذي ارتقى الى الكرسي سنة ١٥١٣ م لم تجد لها العلوم في
رومية محامياً ذا غيرة الا البابا بيوس الثاني الذي جلس على الكرسي سنة ١٤٥٨
وتوفي سنة ١٤٦٤ م

ولما كانت العلوم مهتلة في رومية بعد وفاة البابا نيقولاوس الى ظهور البابا
لاون العاشر على ما ذكرنا كانت دولة العلوم اذ ذاك بفلورنسا عاصمة بلاد
التوسكانا لانه في اواخر القرن الرابع عشر كان بوحنا دوميديشي قد حاز
اموالاً جسيمة اكتسبها من التجارة وكان محامياً للعلوم والاداب والفنون المستظرفة
وكان يحث عليها ويرغب فيها حتى في مدة نفيه فانه امر المعماري الشهير المسمى
ميشيلبود ميشيلوزي وكان قد صحبه في النفي ان ياخذ بالرسم صورة اظرف
المباني الموجودة بمدينة البندقية وامره ايضاً ان يبني ويزين على طرفه خزانة
كتب في دير القديس جاورجيوس ببلاد البندقية ثم شتمها بالكتب النفيسة
المكتوبة بخط اليد واراد بذلك ان يترك للبنادقة اثرًا من اثاره علامة على
شكره لصنيعهم معه حيث انهم احسنوا قراه واكرموا نزله في مدة نفيه

ثم لما عاد لوطنه وتمكنت شوكته تفرغ بالكلية لمرغوباته العظيمة وكان من
تلك المرغوبات استكشاف كتب الاقدمين وحيازتها فجمع مقداراً عظيماً من
الكتب المعتبرة التي لا تدرك لها قيمة في اللسان اليوناني والعبراني والكلداني
والعربي والسرياني والهندي وصنع منها خزانة كتب شهيرة زادت فيها ايضاً
ذريته من بعده زيادة بالغة لاسيما حفيدته لورانت الآتي ذكره حتى صار لها

شهرة عظيمة في بلاد اوروبا ذات العلوم والمعارف وصارت تسمى فيها بالمكتبة
الميد بشولورانتية ومعناه المنسوبة الى لورانت الميديشي

وكان اذ ذاك بمدينة فلورنسا رجل اخر يقال له نيقولونيفولي استعمل
امواله في مثل ذلك فقد بلغ عدد الكتب التي جمعها ٨٠٠ مجلد ما بين يوناني
ولاتيني وشرقي وهو مقدار جسيم بالنسبة الى ذلك العصر واوصى عند موته بان
تجعل هذه الكتب مكتبة عامة ينتفع بها عموم الناس وتكون تحت نظارة ١٦
ناظرًا وكان من جملةهم كوسم (قزما) دو ميدي شي لكن لما مات نيقولونيفولي المذكور
كان عليه ديون كثيرة فالنزم كوسم هذا بقضاءها على ان يكون له التصرف في
تلك الكتب وحده ثم نقاها الى دير كان بناه وزخرفه بالهج الزخارف وسماه
دير دوميكان سنت مرق (ماري مرقص) لينتفع بها اهل وطنه

وكان ممن امتاز بين العلماء الذين بذلوا وسعهم باعانة كوسم المذكور في
البحث عن الكتب المكتوبة بخط اليد ثلاثة رجال وهم بوجييو بروكسيولتي
وقد مر ذكره وغوارينو دو وبرتونه وبوحنا اورسيا فاما بوجييو فانه عشر في
ديورة فرانسا والمانيا على مولفات كتليان وبلوته بنامها ولم يكن عندهم قبل
ذلك منها الا البعض وعشر ايضا على الكتب الثلاثة الاولى من تاليف
والريوس فلاكوس وعلى عدة خطب من خطب قيقرون وعلى تاليف كلر ميل
وعلى قصيدة لوكريس وقصائد ايسناس وسايوس ايتاليكوس ثم ارتميل من
المانيا الى انكلترا وارسل منها الى ايطاليا قصائد في شان الرعاة نظم كانفورينوس
وبعض مولفات بترونه واما غوارينو وبوحنا اورسيا فانها طافا مدينة
القسطنطينية وغيرها من مدن المشرق وجمعا مقدارًا عظيمًا من الكتب النفيسة
غير ان غوارينو انكسرت به السفينة وهو راجع الى ايطاليا ففرق ما كان معه
من الكنوز الادبية واما اورسيا فانه وصل الى مدينة البندقية معه ٢٢٨ كتابًا
من جملةها مولفات افلاطون وپروكلوس وپلوتين ولوسيان واغزنيفون وتاريخ
اريان ودبون وثيودوردو سيسيليا وجغرافية اسطرابونيس وقصائد كليماك

ويذكر وايضاً والنصائد المنسوبة الى ارفدة
ولما فتحت القسطنطينية بآل عثمان وماجر منها عدة علماء الى ايطاليا
قصداً ولجأ في وطن العائلة الميديشية لما بلغهم اذ ذاك ما كان حاصله في
فلورنسا من اكرام معالي اللغة اليونانية وما كان مشهوراً من اعتناء كوسم
الميديشي المذكور بشان العلوم والآداب وسعيه في تقدمها وتوسيع دائرها فوجدوا
بفلورنسا اكرم نزل واحسن قسرى وكان اشهر هؤلاء العلماء ديتريوس
شاكونديل ويوحنا ارجير وبييل واندرونيكوس كالستوس وقسطنطين ويوحنا
لاسكاريس وكانوا كلهم متهدين في الفاسفة بذهب افلاطون وكان قد احيى
هذا المذهب في ايطاليا مرسيل قيسين حيث ترجم مؤلفات افلاطون وكان
مرسيل هذا راهباً قانونياً بفلورنسا فتتوى هؤلاء العلماء ذلك المذهب بهذه
المدينة بحيث صار يمكنه ان ينازع مذهب ارسططاليس في الظهور والسطوة
وكان لكوسم المقدم ذكره المظهر العظيم في المباني العامة الجديدة التي
زين بها فلورنسا وقد استعمل في بنائها اصالة كلاً من ميشارز وهيشلوزي
وفيلبس برولسكي وكانا من انجب المعمارية وامهرهم حتى ان الثاني غير وبدل
في فنه وصنعه بل الاولى ان يقال انه اعاد ذلك الى اصول الظرافة الحقيقية
حيث ابدل صورة العمارة القوطية باشكال العمارة النديمة اليونانية ويكفي ان
يقال في مدحه انه هو الذي شيد القبة الفاخرة التي على كنيسة فلورنسا الكبرى
وفي هذا الوقت سبك غيرتي من معدن الشبة او الشهبان (وهو بالتحريك
النحاس الاصفر) ابواب كنيسة ماري يوحنا التي قال فيها ميخائيل انجلو انها
جديرة ان تكون ابواب الجنان وكان هناك رجل ماهر في فن النقر والنحاتة
فكان يصنع بازمياك من الرخام اشكالا ظريفة كانت قد تركت من عهد
القدماء وكان كل من مساكسيو وفيلبس امبي يمكن من فن الرسم فكانا
يكسان الفماش باقلام رسمها بهجة ظاهرة وحسناً بينما لا يوجد نظيرة في نموذجات
غيدودوسيانا وسببايو وچيوتو

ثم مات كوسم في سنة ١٤٦٤م وخلفه ابنه بطرس في محبة العلماء واصحاب المعارف ولكن لما ظهر لورانت (اولورينصوص) لوما نيفيك اي الطريف حفيد كوسم المذكور سنة ١٤٧٣م فاق على فخار جده فكانت اسعد اوقافه هي التي يصير فيها مجالسة مشاهير العلماء الذين كانوا يجتمعون في سرايه مدينة فلورنسا او يصحبونه في بيوت منزهاتهم التي كانت له في فيزولة وكارفي وكفيوليو وهو الذي احيا اكدمة بينة منذ تولى الملكة وكانت قد طرحت في زوايا النسيان بعد ان كانت حازت من الشهرة ما تستحقه مدة قرنين

ولما كان من صغره قد نشأ على التمسك باصول فلسفة افلاطون عزم على ان يجدد الموسم الذي كان يُعمل لافلاطون في كل سنة وصمم على ان يعيده على وجه اتم في الفخار وكان هذا الموسم لم يزل يُعمل بعد موت هذا الفيلسوف العظيم الى ان ظهر بلوتين وبورفير وكانا من اتباع مذهب فتمطل من ذلك الوقت (راجع الفصل السادس من البحث الاول في الكلام على السلطنة الرومانية) مدة تبلغ ١٢٠٠ سنة وبترتيب هذا الموسم الذي مكث عدة سنين بقي اعتبار فلسفة افلاطون واشتهرت شهرة عظيمة حتى ان اصحاب دراسها كانوا عند الناس اعظم احتراماً واكثر معرفة من ابناء عصرهم

وكان التعليم في مدرسة بينة التي مر ذكرها يكاد ان يكون مقصوراً على اللسان اللاتيني بخلاف فلورنسا فان اللغة اليونانية انتشرت فيها بهمة لورانت المقدم ذكره وصار يتعلمها عموم الناس وكان معلوماً اما يونانيين اصليين او علماء ايطاليين ايضا منهم في المعارف حتى تخرج في هذه المدرسة كثير من الافاضل الذين نشروا اللسان اليوناني في ايطاليا وفرنسا والمانيا واسبانيا وانكثرة اول من علم في هذه المدرسة من المدرسين هو الشهير بوجنا ارچير وويل الذي مر ذكره ثم خلفه جماعة افاضل وهم ثيودور الغزي وديتر بوس شلكوند بل وانجلوواتو وغيرهم

وبواسطة هؤلاء المدرسين قطع كل من علي الفلك والطبيعة علة الاوهام

التي كانا عليهما من قبل ورفع المعلم بولس توسكانلي لاجل تعيين الانتلابين
ميلة الذي هو في الواقع ونفس الامر اعظم آفة فلكية وجدت في الدنيا وهذا
العالم هو الذي حرر الارياح الالفونسية (وهي تقاوم فلكية جمعها الفونس العاشر)
وحرر ايضا تقاوم العرب وعمل ارسادا عجيبة تتعلق بحركة الشمس والقمر
واستصوب مقاصد كرسنف كلب حين عرضها هذا الملاح عليه

وفي هذا العصر صنع لورنزودوروا بابا للورانت الميديشي الساعة اليدوية
التركيب التي مر ذكرها في الكلام على التقدمات الصناعية الى نهاية القرن
الخامس عشر

وسعى فرنسيسكو برنجيري في تسهيل مطالعة الجغرافيا فألف فيها كتابا
منظوما

وفي العصر المذكور ظهرت عدة رسائل في ما فوق الطبيعيات اهدى
مولفوها البعض منها للورانت الميديشي

وقد شهد مدرسو الطب المرة وقتئذ بان علم الطب تقدم واتسعت
دائرته في عصرهم جهة اورانت المذكور واعتناؤه بشانه وان لم يتساهل قط في ما
به يبلغ هذا العلم درجات الكمال في اقرب وقت وان لم يهمل ايضا في ما به
تهذيبه وتخفيفه من الاوهام الباطنة التي كان مشحونا بها

وفي ذلك العصر ايضا فاق انطونيو اسكرسيا لايس جميع اسلافه في علم
الموسيقى علما وعملا حتى قيل ان اورانت مدحه على ذلك بقصيدة

وقد جمع دوناتيلو باجتهاده ومهارته مقدارا عظيما من الاثار القديمة واعانه
على ذلك كوسم الميديشي الذي تقدم ذكره بمجوده وجزيل انعامه ثم ورث
بعد موته هذه الاثار ابنة بطرس الاول وزاد فيها زيادة عظيمة ولما مات بطرس
ورثها ابنة لورانت وهي الآن تعرف باسم موزوم فلورانتينوم وقد خصص لورانت
مبالغ جسيمة من الاموال اعدّها لتوسيع هذه الاثار والزيادة فيها كما صنع
ابوه قبله بما يعز وجوده من النطق النفيسة وجعل تلك الاثار واسطة في ترغيب

ابناء وطنه وحثهم على التشبيك بالفنون والصنائع وانشأ في بساتينه المتصلة بدبير
القديس مرقس مدرسة وأكدمه لاجل مشاهدة الاتيكات (الاثار القديمة)
ومعرفتها ووضع فيها تماثيل وجعل بها صوراً على هيئة الانصاف العلياء من
الابدان واشياء اخرى من الاثار القديمة المذكورة

ورتب لكل من امتاز من الشبان في حرفته بين الاقران مكافأة على
اشغاله فكان ذلك هو السبب الاصلي في سرعة تقدم الفنون والصنائع بفلورنسا
على وجه عجيب في اخر القرن الخامس عشر من الميلاد ثم انتشرت من فلورنسا
بالتوالي في سائر بلاد اوروبا

وقد تخرج بمدرسة بساتينه اغلب اصحاب البراعة والفراخ الجيدة من
رجال ذلك العصر وبالفرض لو لم يتخرج بها الا ميخائيل انجلو وناروني لكان
ذلك كافياً في الوفا بغرض مؤسسها فان هذا الرجل الماهر كان جامعاً بين
فنون الرسم والنقارة والحارة تعلم اصول هذه الفنون في تلك المدرسة ثم زادها
حسناً وبهجة باعماله الباقية على مر الزمان

وقد زين لورانتي فلورانسا بالمباني العديدة الخصوصية والعمومية وهي
الذي احب فن النقش على الاحجار النفيسة وفن الرسم والتصوير بقطع الاحجار
الدقيقة المناسبة المتخالفة الالوان بتوفيقها مع بعضها حتى يتركب من مجموعها
صورة من الصور وقد كان هذا الفن قبلة مهجوراً مدة القرون الوسطى وحاول
احياءه بعض الرسامين من المتأخرين فلم يخرج من ذلك على طائل

القضية الثانية

في الاكتشافات الارضية

كان الدوك اينيريكوس دوك ديزوالدي هو ثالث اولاد يوحنا الكبير ملك البورتغال المتقدم ذكره له ميل شديد الى السياحة والاسفار وكان من اهل اهل عصره بالجغرافيا والرياضيات فحمل دار اقامته مدينة يقال لها سبريس بالقرب من رأس سنوسان باقليم الجرف وامر بانشاء مدرسة بحرية يتعلم فيها الشبان من اولاد الامراء اعضاء ديوانه وكان له مدخلية في اختراع الاصطربلاب وهو اول من عرف منفعة البوصلة اي بيت الابرّة التي يقال بانها كانت معروفة عند الصينيين قبل ذلك بزمن طويل لكن لم تعرفها اهالي اوروبا الا بعد ان اخترعوا الزجاجات العدسية فكان هو ودولة اسبانيا التي مرّ ذكرها سبباً في تينك المحادثتين العظيمين جداً بالنسبة للنوع الانساني على العموم ولاهل اوروبا على الخصوص اللتين ظهرنا بينما كانت التجارة وغيرها من احوال اوروبا الادبية على الصورة التي سبقت تفاصيلها في ما مرّ فغيرنا في الشوكة والاخلاق والحرف والصنائع والحكومات عند جميع الشعوب والطوائف وها اولاً السلوك الى بلاد الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح الكائن في جنوب افريقية وثانياً استكشاف الدنيا الجديدة المسماة امريكا وكان يمكن هنا الاكتفاء بوضع تاريخ واسي مكتشفي هذين الاكتشافين كل منهما على حدته طلباً للاختصار وتجنباً للتفاصيل التي تزيد في حجم هذا

الموافق بل ربما اخرجنا عن موضوعه لكن الرغبة في ان يتف من يتنازل الى مطالعة من بني الوطن على مثابة ارباب المعارف واصحاب المقاصد العظيمة على تحمل المشاق وتضحياتهم صوالحهم الخصوصية للحصول على المنافع العامة وصبرهم على مصادمة الموانع التي تعترضهم اوجبت الى تلخيص ذلك بقدر الامكان بعد ان نحذف ايضاً كل ما كان من تعلقات الامور السياسية والاجتات الدينية وغيرها ما هو خارج عن المقصود وفي ذلك مطلبان وهما

المطلب الاول

في اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح

والاصل في ذلك ان هذا الدوك المشار اليه سير سفينتين من سفن في سنة ١٤١٢ م فجازنا رأس نون بستين فرسناً ثم لم يتجاسر من كان فيها من الملاحين على اجنيزا رأس بيادور الواقع على البعد من دائرة الانقلاب بدرجتين وفي سنة ١٤١٨ م بعث حنا غونزالس وزقسود ترستان وازتكسيرة ليجنازا هذا الراس فالتمها العاصفة على جزيرة صغيرة سهاها بورد توسانتو ثم توغلا في الحج البحر وتوصلا الى جزيرة مادرة في سنة ١٤١٩ م وقد اشهر ان هذه الجزيرة او قدت فيها النار لتحرق ما كان بسترها من الغابات والاشجار الكثيرة وتكون صالحة بعد ذلك للزراعة فكثت النار بها ٧ سنين حتى صارت ارضها من اخصب الاراضي واصلحها للزراعة فنقل اليها الامير المذكور قصب السكر من سيسيليا وفسول الكروم من ماوازية فنتج فيها هذان الفرسان ثباحتاً عظيمة حتى انه بعد سنوات قلائل صار سكر مادرة وبيدها من اعظم بضائع البورنغال التجارية

ولما لم يتيسر للبورتغال الاتصال مع اهل اسيما بواسطة طريق في البر
 مستقيمة سهلة عزم هذا الامير على سلوك طريق في البحر توصل الى بلاد الهند
 بالطواف حول افريقية وفي سنة ١٤٢٢ م اجتاز البورتغالون رأس بيادوروفي
 سنة ١٤٤٠ م سافر انطوان غوانترينونوجنو وترستان ووصلا الى الرأس الأبيض
 ولما قدم اهل تلك البلاد الى البورتغال بعد ذلك بستين مقدارا من النهر
 لكي يطلوا لهم بعضا ممن كانوا قد اسروهم سوا هذا المثل سر يودورد وازداد
 تولعهم بالاستكشافات رغبة في هذا المعين فتجددت في مدينة لاغوس سنة
 ١٤٤٤ م كهبانية افريقية وجهزت ١٠ سفائن بالاهبة الحربية واستولت على
 جزيرة لاس جزراس وبارويتدر وفي سنة ١٤٤٥ م وصل غزالودوسترة احد
 رؤساء عساكر الكهبانية المذكورة الى جزائر چين التي اشتغل فيها البورتغال
 بعد ذلك بقبائل في التجارة بالذهب واجتاز ديبيس فردنديز مصب نهر
 سنغال ووصل الى الرأس الأخضر الذي استكشف جزائره انطونيو دونولي
 سنة ١٤٦٢ م وطاف جزائر اسورة التي كشفها قبله غوانترينولهود وكبرال
 وكان جميع من لاقاه البورتغال من الامم في استكشافاتهم الى نهر سنغال سود
 البشرة ككون الابنوس فزعموا ان ذلك ناشئ من حرارة اراضيهم لقربها من خط
 الاسواء ثم توفي الدون انبيريكوس المذكور في سنة ١٤٦٣ م واتخذ من شماره
 هذه الكلمات وهي الرغبة في الخير خيرا

وكان ابن اخيه الفونسوس الخامس مستوليا على سربر المملكة من سنة
 ١٤٢٨ م فسافر في ايامه بوحنادوستريم ويطرس دسكالوته حتى وصلا الى
 ما وراء رأس سير اليونة واحداثا في شواطئ غينا مينا تجارة ذهب وكذلك وصل
 رجل اخر يقال له فرننديو الى الجزيرة المسماة باسمه ثم استكشف ايضا غير
 هولاء من ارباب الملاحة جزيرتي مارتوما وانوبون سنة ١٤٧١ م ولما تجاوز
 البورتغال خط الاسواء اعجبوا من تلك الاراضي التي هي جزء من المنطقة المحترقة
 حيث وجدوها عامرة كثيرة الخصوبة

ثم ازدادت رغبتهم في عهد الملك يوحنا الثاني الذي خلف الفونس الخامس المذكور في سنة ١٤٨١م وجوزوا عمارة قوية في سنة ١٤٨٤م واستكشفوا مملكة بنين ثم تجاوزت هذه العمارة خط الاستواء بأكثر من ١٥٠٠ ميل ووصلت الى مملكة كونغو ثم اقلع رجل يسمى ديهوكام في نهر كونغو الذي يسمى اهل تلك البلاد زايرة وبني يوحنا الثاني المشار اليه على سواحل غينا حصوناً ليمكن من استكشافاته هذه الكائنة على شواطئ افريقية الغربية وبايعة عدّة من صغار امراء البلاد المذكورة بالطوع والاختيار على ان يدفعوا له الجزية والخراج وجبر غيرهم على ذلك بقوة الاسلحة

ثم لما توغل البورتغال جهة الجنوب وجدوا ارض افريقية القارة تضيق وتضيّق بالتدريج الى جهة المشرق لانها تمتد بالاتساع كما زعمه بطليموس قديماً (وهو صاحب الجغرافية الذي سبق ذكره في الكلام على المصريين) فقوي املهم بالوصول الى بلاد الهند الشرقية من البحر ووثقوا باخبار الاسفار التي وقعت قديماً من الصوريين حول افريقية (على ما سبقت الاشارة اليه في الكلام على الفينيقيين وعلى نخوس ملك مصر في الكلام على المصريين) بعد ان كانت تعد من الخرافات

وبينا كانوا يجهزون ارسالية جديدة اذ بلغهم من سفير ملك بنين انه يوجد في شرقي افريقية مملكة ذات شوكة وملكها مسيحي فاستتج ملك البورتغال من ذلك ان هذا الملك ينبغي ان يكون هو الامبراطور (نباشي الحبشة) الذي كان يزعم اهالي اوروبا بانه هو الفسيس يوحنا^(١) لاغترارهم بخطاء روبروقيس

(١) في اواخر القرن الحادي عشر هجم كاهن من النساطرة الساكنين في بلاد التتار باسيا بالقرب من كذاي اسمه يوحنا على تلك المملكة التي كانت حينئذ بدون رئيس اذ مات ملكها المسي كولارخان او كذغان وملكها وصار ملكاً على مملكة عظيمة بعد ان كان قسيساً ونسي كذغان وكان النساطرة يناخرون به ملوك ذلك العصر الى ان ظهر جنكيزخان وقتل ابنه او اخاه الذي كان خليفة له نحو ختام القرن الثاني عشر غير ان

ومر قبول من السواح المخططين (مرقبول هو ماركوبولو الذي تقدم ذكره في الكلام على التقدّمات التجارية في الفصل السابع من البحث الثاني من الكلام على السلطنة الرومانية) فشرع في اجراء الوصلة بينه وبين هذا الملك موملاً ان يصالحه منه اخبار واعانات تساعد على فتح مشروع ثم انتخب اثنين من اولاد الامراء يقال لاحدهما بيترود وكوديلام والثاني الفونس دوبيو وكانا يعرفان اللغة العربية وارسالها ليكونا سفيرين له عند ملك الحبشة وامرها ان يجيعا من البلاد التي يطلعا عليها ما يصل اليها من الاخبار في شأن تجارة الهند وفي مدة ما كان يسعى هذا الملك هذا السعي برآ كان برنلي دياز قد اجنار الراس المرتفع الذي هو حد افريقية من جهة الجنوب لكنه لما قاسى في هذا المحل من الشدائد وعواصف الرياح ما لا مزيد عليه ساء رأس الشدائد لكن الملك بوحنا الثاني حيث صار لا يشاك في انه عثر على الطريق التي يرغبها غير هذا الاسم وسماه رأس الرجاء الصالح وكان ذلك في سنة ١٤٨٧ م ثم تحقق املة اخيراً بالاخبار التي وصلت اليه من سفيري الذين ارسلها الى بلاد الحبشة لانها ذهبوا اولاً الى الاسكندرية ثم الى القاهرة ثم خرجا منها الى مدينة عدن وافترقا من هناك فاقبل بيو الى جهة بلاد الحبشة وقتل فيها واما كوديلام فانه اقلع الى بلاد الهند الشرقية واطلع على مدينتي كاتوروغوا في ساحل ملبار وعلى جزيرة هرموز في الخليج الفارسي ومنها رجع الى سفالة الواقعة على الساحل الشرقي من افريقية ورجع الى القاهرة ثم دخل بلاد الحبشة واقام في ديوان النباشي عدة سنوات وبمك النباشي سفيراً من طرفه الى بلاد البورتغال ايضاً وكذلك كوديلام المذكور ارسل الى لشبونة كرسي البورتغال اخباره اليومية فاستنبط الملك المذكور حينئذ من ملحوظاته ومن الاخبار التي جمعها ان الانسان اذا طاف حول افريقية من البحر عثر على طريق توصل الى بلاد الهند

اهالي اوروبا كانوا لازالوا يزعمون بان بلاده هي مركز الراحة والغنى وانها هي بلاد الحبشة على ما تقدم

ثم بعد وفاة هذا الملك تولى خليفته ايمنويل لوفورتوني (اي السعيد) فسافر في عهده رجل يقال له وسكودوغاما سنة ١٤٩٧ م ومعه ٣ سفن و ١٦٠ رجلاً وكابد اهل الأشد بدة حتى جاوز راس الرجاء الصالح ومرّ بساحل سفالية ووصل الى جزيرة موزمبيق فوجد بها اماً يتكلمون باللغة العربية وظهر له ان الادميين والحيوانات والنباتات قد تغيرت اشكالها من درجة عرض الجزائر المخالدة الى موزمبيق ورأى هناك انساناً يشبهون اهل الارض الفارة المعروفة وهم مسلمون ووجد ان المسلمين الذين يسافرون من المشرق الى المغرب يتلاقون مع النصارى الذين يسافرون من المغرب الى المشرق في احد اطراف تلك الارض

وكانت جزيرة موزمبيق المذكورة احد مراكز تجارة سفالة والهند وكانت العرب المقيمون بها كالاfrican تقريباً في فن الملاحة اذ يقال بانهم كانوا يعرفون استعمال البرجل البحري وعندهم بوصلات وخارطات بحرية وآلات فلكية لكن وسكودوغاما المقدم ذكره هرب منها خوفاً لحقه من اهلها وسافر الى جزيرة مونباسه ومنها ايضاً الى مملكة ميلندة فتلقاه ملكها بالترحيب واعطاه واحداً من الربانين (اي روساء البحريين) ليوصله الى كالكتة الواقعة في ساحل ملبار فوصل اليها بعد ٢ شهور من خروجه من لشبونة وهناك ايضاً استقر ابي راموزين كالكتة على قتلها بواسطة سعاية عرب افريقية وغيرها من الذين كانوا يقاجرون وقتئذ في بلاد الهند لكنة تخلص من هذا الخطر بثباته وشجاعته ورجع الى اوروبا ووصل الى ميناء بيليم سنة ١٤٩٩ م وكان ذلك بعد رحلته بستين وشهرين ودخل الى مدينة لشبونة بموكبه واحفال عظيم فجعله الملك اميرال الهند واعقد عليه بالاموال مكافاة له ولقب الملك نفسه بلقب جديد وهو رئيس الملاحة والفتوح والتجارة في بلاد الحبشة والعرب والهند

المطلب الثاني

في اكتشاف الدنيا الجديدة المسماة امريكا

وفي ذلك الوقت حصل مشروع اخر غريب عجيب وكان قد قارب
النجاز تحت رعاية الملك يوحنا الثاني ملك البورتغال المقدم ذكره ايضاً وذلك
ان ملاحاً جنويزياً يقال له كرسيف كلب تولع من صغر سنه بفن الملاحة اذ
كان عمره ١٤ سنة فامسك حتى فاق فيه اقاربه ووصل فيه الى اعلى درجة في
الفنار وكان مقيماً في مدينة لشبونة كرسي البورتغال وتزوج بنت برتلي
برستريلو احد رباني البورتغال ونظراً لما اكتسبه من المعارف عزم على
استكشاف طريق اخرى الى بلاد الهند غير الطريق التي كانت السفن
البورتغالية اذ ذاك قد سعت في فتحها الى تلك البلاد فعرض على الملك يوحنا
البناني المذكور ان ينجز له ما هو اعزم عليه تحت الراية البورتغالية من المقاصد
العظيمة لكن وقع بحفه من الغدر والخيانة الناشئة عن الجبن ما اجهأ الى مفارقة
البورتغال فارتحل الى اسبانيا وعرض على ملكها ايزابيلا وفردينند ما عرضة
على ملك البورتغال فاطلاه مدة طويلة ثم سمح له بثلاث سفن عبر بها المحيط
الانانتيكي وذلك سنة ١٤٩٢م ووصل بها الى الدنيا الجديدة

ويقال ان السبب في مشروع كلب المذكور هو اعانه النظر وكثرة تأمله
بانه يمكن استكشاف طريق مستقيمة الى بلاد الهند الشرقية اقصر من الطريق
التي ارتكب البورتغال فيها المشاق باجنيازهم من الراس الاخضر ووصولهم الى
خط الاستواء وان من سار من جهة الغرب في البحر المحيط الانانتيكي فلا بد انه
يجد بلاداً جديدة هي على رايه تكون جزءاً من اراضي الهند القارة ونشأ له هذا

الراي الفاسد الذي بُني عليه اخيراً الامر الصحيح اعني استكشاف امر يكا من اسبابه هي اولاً لكون الارض كروية الشكل وان مقدار جرمها محدود مع التدقيق والضبط فيستنتج من ذلك عقلاً ان اوروبا واسيا وافريقية ليست الا جزءاً من الكرة الارضية وان الارض الفارة الواقعة في النصف المعروف من الكرة يلزم ان يوازيها ارض قارة اخرى في النصف المقابل ثانياً قد عَضَدَ هذا الاستنتاج العقلي بما ابداه بعض ارباب الملاحه من الملاحظات والتجربات ومن ذلك ان رباناً بورتغالياً كان توغل جهة الغرب اكثر من غيره من اهل ذلك العصر فوجد قطعة خشب منقوشة عائمة على الماء تدفعها نحوه ربح غربية فاستنتج من ذلك انها آتية من بعض اراض مجهولة واقعة في تلك الجهة ومنها ايضاً ان بعض اصهار كلب المذكور وجد في غربي جزيرة مادرة قطعة خشب ايضاً ترى فيها صنعة النوع الانساني والريح المذكورة تدفعها اليه وكثيراً ما شوهد على جزائر اسورة بعد هبوب رياح غربية مكثت مدةً من الزمن اشجار مقلوعة وشوهد مرةً جثتا رجاين ميتين لانشبه سمينة وجوهها سمينة اهل اوروبا وافريقية ثالثاً استند ايضاً على تخطيطات بعض مؤلفي اليونان كقنارياس ونياركة واوينز قربطة وبعده الموائف باينوس الطبيعي الذين ظهر منهم التنافس الباطل في توسيع الاقطار الواقعة خلف نهر الكوك وكذلك الشهير مرق بول الذي خطط في القرن الثالث عشر تخطيطات بدعية العبارة للملكتي قاناي وسينغو وعدة ولايات اخرى فانه اورد بذلك ما يدل على اثبات مبالغات الاقدمين بالنسبة لامتداد بلاد الهند وبالجملة والنصيل انه استنتج بان اقصر الطرق واعظمها استقامةً من اوروبا الى الاجزاء المتوغلة في الشرق من بلاد الهند هي ان يركب المسافر البحر ويسير فيه جهة الغرب وفي كلام بعض قدماء المؤلفين كافلاطون وارسططاليس وسنيكة ما يصلح لتقوية رأي من يقول بقرب بلاد الهند الى الاجزاء الغربية من الارض الفارة المعروفة

ثم حيث كان لا بد لكلمب المذكور في تعيين غرضه من حماية دولته من الدول
تقوم بمصاريفه خطرا ان يجعل فخار ذلك لوطنه اكن مشورة السنث الجنويزية
لم تنجبه الى مطالبه حيث ردت عريضة وعدهما من الهوس والذيان فتصد
دولة البورتغال واتخذ ارضها وطنا له ومن ثم فوض بوحنا الثاني ملك
البورتغال المنتم ذكره قضيه هنا الى ديبغو اورينز اسقف مدينة سبته واثنين
من اطباء اليهود كانا يعرفان علم القسرافيا (اي علم هيئة الدنيا) ورسم
العالم فغدر هولاء القضاة بكلمب بعد ان اتفقوا مدة طويلة وعيل صبره من
مظلمه وارادوا ان يسلبوا منه فخر هذا المشروع الذي تصدى اليه ووافقهم على
ذلك نفس الملك ايضا ضدا لما كان يُعهد فيه من مكارم الاخلاق وبعثوا
سفينة امرؤا ملائمتها ان يسيروا في الطريق التي عينها كلمب لكن لما كان
رئيسها جبانًا وخاف من اختلاف الرياح عاد الى لشبونة مشتمًا على هذا المشروع
العظيم فاغناظ كلمب من ذلك وترك البورتغال وتوجه في اواخر سنة ١٤٨٤م
الى اسبانيا وعرض مقصده على ملكها فردينند وايزابيلة وارسل اخاه ايضا
بعد ذلك بقليل الى هنري السابع ملك الانكازر وبقي كلمب ٥ سنوات وهو
مشتغل برد المناقشات والاعتراضات التي كان يوردها عليه المنوطون بالنظر
في تلك القضية ويبين لهم من المحارف ما تزول به جهالتهم وتستدير عقولهم لكنه
لم يخرج من ذلك على طائل لان فردينند وايزابيلة كانا وقتئذ مشغولين في
الحرب مع العرب فتصد حينئذ دوكي مدينة مدونية ومدينة سيليب بسبب
كثرة غنائمها لكنها لم يجيباه الى امر لم يجهه اليه ملكها فردينند وايزابيلة
المذكوران فتصد ان يتوجه الى انكازر لان اخاه كان قد وقع في ايدي ارباب
الصيال البحريين فاستأسروه عدة سنوات لكن ترجاه بوحنا بيريس رئيس
الدير الذي تربى فيه اولاده ان يوخر سفره وكتب الى الملكة ايزابيلة ان
تأمنت الى مقصد كلمب العظيم الذي لم يخطر لاحد قبلك فاشرف فيها قوله واذ عنت
لما ابداه من الاداة والبراهين واستدعت كلمب الا انه بقي مهالا الى ان فتحت

مدينة غرناطة سنة ١٤٩٢م وحينئذ نجح سعي اصحابه واعوانه وهم كثيرون وسنجيل
 عند الملكة ايزابيلا في نعيم مقاصده فاستدعت الملكة ثانية وكان قد خرج
 من اسبانيا مصعباً على عدم العودة اليها فلما ان رجع ارهنت هذه الملكة ما في
 حوزتها من الماس والجبواهر النفيسة لان خزائن اموالها كانت قد صارت وفتتت
 على حالة ردية من جرى الحروب التي اثارها هي وزوجها على العرب حسبما
 سبقت الاشارة الى ذلك وبعد مذاكرات قليلة وضع الملكان فردينند وايزابيلا
 امضاهما في ٧ نيسان سنة ١٤٩٢م على معاهدة تتضمن انهما بوصف كونهما ملكي
 المحيط قد قلدا كلب مناصب الاميرال الاعظم على جميع البحار والجزائر والاراضي
 النارة التي تصدده لكشفها وان هذا المنصب يكون وراثياً له واعايناه من بعده
 وقاداه أيضاً بمنصب نائب ملك في جميع ما بكشفه من الاراضي وهذا المنصب
 يكون ايضاً له ولعقبه من بعده وان ما يحصل من الاموال التجارية في الاراضي
 التي بكشفها يكون له العشر من ارباحها وانه مطلق التصرف في فصل الدعاوي
 والخصومات مع ان فردينند الذي امضى هذه المعاهدة مع ايزابيلا لم يكن
 للملكة التي هي ارغون دخل في هذا المشروع اصلاً بل كان فتح امر يكا من
 خصوصيات زوجته ايزابيلا المذكورة ملكة قسطنطينة لانها هي التي قامت بجميع
 المصاريف اللازمة على ما ذكرنا واعدت ثلاث سفن لا تُعد في هذا العصر الا
 من الزوارق الكبيرة ركب كلب منها واحدة سماها القديسة مريم ورافقه في
 الاثنتين الاخرين المسماين لابنتا ولاشينا ثلاثة اخوة من عيلة يقال لها بنسون
 كانوا من اغنياء التجار وخاطروا مع كلب باموالهم وانسهم وبلغ مصروف هذه
 السفن الثلاث نحو ١٠٠ الف فرنك

وفي ٢ آب سنة ١٤٩٢م سافروا جميعاً نحو الغرب على طريق الجزائر
 المخاللات وبعد ثلاثة اسابيع توسطوا في ليج المحيط وانقطعت عنهم رؤية الطيور
 وغيرها من علامات الغرب الى البر ووقعوا في اليأس والتمنوط واخذوا يارمون
 انفسهم ويفكرون انهم سلكوا في هذا الامر مسلك المجانين وارادوا الرجوع بل

افضى بهم الهوس والوقاحة الى طلب الفناء هذا الاميرال في البحر لكن كلب
سالك مسلكاً سكين بوجضبهم ولاسيما لما ظهرت لهم الطيور بعد قليل جهة
الجنوب الغربي فقصده كلب هذه الجهة لكنه سافر اياماً ولم يصادف براً فييس
الملاحون ثانياً وقصدوا العود الى اوروبا فالتزم لهم كلب انه ان لم يجد براً بعد
١٢ ايام يجيهم الى مطلوبهم

ثم في اليوم الحادي عشر من شهر تشرين الاول اقبل الاسبانبول على
جزيرة مخضرة ذات اشجار وغابات وداول تروي ارضها فعند ذلك اقاموا
الصلاة شكراً لله وبكوا من شدة فرحهم بهذا الاكتشاف السعيد وخرؤوا على اقدم
الاميرال كلب بطلبون الصبح عما فرط منهم بحقه ووصفوه بأنه ملهم من الله
وانه يفوق البشر بعد ان كانوا جملة من اوباش الناس واساؤه بالسب والشتم
فخرج كلب عند طلوع الشمس الى هذه الجزيرة شاهراً سيفه واصحابه خلفه على
نغم الموسيقى العسكرية وكان اهل الجزيرة ينظرون الى هذا الامر الجديد وتلك
كلب الارض لدولة قسطنطينة وليون ودعى اسم الجزيرة سان سلوادور وكان
اهاليها يسمونها غواناهاني ووجد اهلهم يعاقون في انوفهم صفائح من الذهب
فسألهم كلب من اين يستخرجون هذا المعدن فاشاروا له من جهة الجنوب
ثم استكشف بلاداً اخر ساها له من كان معه في السفينة من اهالي الجزيرة باسم
كوبا ثم دلوه ايضاً على جزيرة يكثر فيها الذهب في جهة الشرق وسموها له
باسم هايتي فوصل اليها في اليوم السادس من كانون الاول وسماها اسبانيولا
فبادله اهلهم على ذهبهم باجراس وخرز من زجاج ودبايس ثم دلوه ايضاً على
ان الذهب يأتي اليهم من بلاد سيباووجهة الشرق فسار اليها فوراً فاذا هي
اقليم بخنكة كاسيك (اي امير) نيسي غواكباري وهو واحد من خمسة حكام
مقتسبين الجزيرة فبعث اليه الكاسيك المذكور بهدايا وطلب منه اجتماعاً خاصاً
في محل مخصوص فقصده كلب ذلك المحل لكن صدمت سفينته صخرة في البحر
فغرقت وفر ملاحوها في زوارق السفينة الثانية المدعوة لانجناو يادر الكاسيك

واهل الجزيرة لاسعافهم واكرامهم

وكان لم يبق من سفن كلب الا اصغرها واشدها تلقا لان سفينته غرقت كما
 ذكرنا والثانية المسماة لابتنا كانت انفصل عنه بها احد الاخوة البنسونية وكان
 كلب يخشي ان يكون هذا الرجل رجع الى اوروبا ليكون اول مخبر بنجاح هذا
 المشروع ويحظى عند الملكة من الفخر والمكافاة بما هو حق مقترح هذا الغرض
 العظيم الذي هو ذاته ولذلك بادر بالرجوع الى اوروبا وحيث ان سفينته التي
 قد ساء حالها لا تسع كل الملاحين التزم ان يترك منهم جماعة في الجزيرة لكي
 يتعلموا لغة اهل البلاد ويعرفوا طبائعهم واسترضى على ذلك اهل الجزيرة
 بكونه التزم لهم بالاعانة من طرف الاسبانيول على الكرايب وهي طائفة ذات
 شباعة وميل الى الحروب تاكل لحوم الادميين كانت في الغالب تسطو على جزيرة
 هايتي وتخربها فبنى الاسبانيول هناك حصنا لكي يقيموا فيه وساعدهم اهل الجزيرة
 في بنائه وكان هو اول نذير باستعباد اولئك الادمي المساكين ثم وضع الاسبانيول
 فيه المدافع الكبيرة التي بقيت بعد غرق سفينة الاليرال كلب ثم بين كلب
 لادامي الجزيرة قوة الاسلحة الافرنجية التي يقوي فيهم هيبة الاسبانيول ببعض
 تجارب غير مضرة من رماح وسيوف وبنادق ولما رأى دهشتهم من ذلك امر
 باطلاق مدافع الحصن فانكبوا على وجوههم خوفا واعندوا من ذلك الوقت
 بانهم لا يمكن قهر هذه الامة المسلحة بالبرق والصواعق وترهب بها متى شاءت
 ثم اوصى كلب من ابقاه في الجزيرة من اصحابه ان يداوموا في غيبته على الاتحاد
 والالتيام ووعدهم ان يعود اليهم سريعا وسافر في اليوم الرابع من كانون الثاني
 سنة ١٤٩٢ م راجعا الى اوروبا واخذ معه جماعة من اهل الجزيرة وواحدا من
 اقارب الكاسيك المذكور

وبعد ان كانت انفصلت عنه السفينة المسماة لابتنا كما ذكرنا في ما تقدم من
 ٦ اسابيع اجتمع بها بعد سفره بايام ولازال سائرا مع السهولة واللين الى اليوم
 الرابع عشر من اشباط وكان قد قطع ٥٠٠ فرسخ من البحر الاثنتيكي اذ خرجت

عليه ريح عاصف مهولة خاف منها انقطاع حياته وضياح فخره بالغرق فكتب وهو في وجل من خوف هذه العواصف قصة سياحته واخبار سفرته بكل ايجاز وانها في قطعة مشتع ووضعا في برميل ثم الفاه في البحر وجاء بان تذف الريح هذه الوديعة النفيسة الى شاطئ من الشواطئ فينتفع بها الناس لكن عين العناية الالهية لاحظت هذا الرجل العظيم فسكنت الرياح شيئاً فشيئاً وفي اليوم الخامس عشر من شهر اشباط رسا على جزيرة القديسة مريم من جزائر اسورة ومنها وصل الى لشبونة فقبول فيها بالترحيب والاکرام وقص على ملك البرتغال قصته فتعجب هذا الملك من حكايته وتاسف على ما وقع له وانشرح صدر كلب ببيان نجاح مقاصده لئن كانوا ينكرونها

ثم توجه الى اسبانيا ووصل الى ميناء بالوس في اليوم الخامس عشر من شهر اذار وكان له منذ فارقتها سبعة اشهر واحد عشر يوماً ومن هذه الميناء مضى الى برسلونة وكان بها يومئذ فردينند وايزابيلة فامران يكون دخوله المدينة بموكب عظيم بالام هذه الحادثة التي يكون بها لايامها بهجة ورونق لا نظير له وكان في اوائل الموكب المنود الذين اتى بهم معه من امريكا وخلفهم انواع الجملي والزينة الذهبية المصنوعة بصياغتهم الخشنية وحبوب الذهب التي وجدوها في الجبال ونهر الذهب الذي من النهرات وجملة من انواع محصولات هذه البلاد الجديدة وكان كلب في اخر الموكب وجميع الابصار منجذبة اليه فتلقاه فردينند وايزابيلة وهما على سرير ملكها وعليها جميع الشعائر الملوكية وفوقها مظلة فاخرة ولما دنا منها قاما له ومنعاه من الجشوع على ركبتيه واجاساه على كرسي كان اعد له فنص عليها اخبار سفره مع التواضع مجتنباً فيها التثني والتعسين ولما انتم كلامه جشياً على ركبتها شكر الله تعالى ومنحها كلب ما دل دلالة بيته على استحسانها فعلة حيث اقراه هو وذريته على المزايا المقررة لهم في معاقدة سننافة وانتظمت عيانه في سلك الاشراف

ولما انتشرت اخبار نجاح كلب المذكور في جميع بلاد اوروبا صاروا يتعجبون

من ذلك ويتسألون ترى ابي قسم من اقسام الارض تُنسب اليه هذه البلاد
فاضطربت في ذلك اراء العلماء وكان كلب لم ينزل على رايه الاول فمضد ان
هذه البلاد جزء من ارض الهند الفارّة ونظراً للمشابهات بين محصولات هذين
القطرين وطبيعتها انفتحت الآراء بان بلاد امريكا جزء من بلاد الهند ولما تبين
بعد ذلك خطأهم في هذا الامر لم ينزل عنها الاسم الاول بل ما زالت تسمى
بالهند الغربي واهلها بالهنود الى هذا اليوم

ثم سافر كلب ثانية في اليوم الخامس والعشرين من شهر ايلول سنة ١٤٩٢ م
وبعد ٢٦ يوماً اكتشف جزيرة الكرابب وجزائر الريح وساماد بزرادة ثم اكتشف
بعدها جزائر دومنيكية وماريا غلنتة وغوادلوب وسانت جان وديورتوريكو
وغيرها ولما وصل الى جزائر اسبانيولا لم يجد احداً من الاسبانيول الذين كان
تركهم فيها بل ان الحصن ذاته قد اندثر بالكلية وكان سبب ذلك ظلم
الاسبانيول المذكورين وجورهم الذي اجمالكاسيك كوناواوكاسيك سيبادو
ان يجمع رعاياه ويحيط بالحصن ويضرم فيه النار ولذلك اضطركلب ان
لا يترك رعاياه على بناء حصن كما صنع اولاً بل بنى مدينة وسماها ايزابيلة باسم الملكة
سمايئة واخذ في اظهار الغرابة على همل تلك البلاد باستعمال الزينة العسكرية
ونشر الرايات وضرب الموسيقى ولجهاهم الخيول التي لم يروها قبل وصول
الاسبانيول اليهم فكانوا يخافونها ويظنون ان الحصان مع راكبه قطعة واحدة
وانها حيوان ناطق غير الانسان ثم استكشف كلب بعد ذلك جزيرة تياويكة
وجزيرة القديسة مرثا ولما كان محاذياً للشاطي الجنوبي من كوبا وجد نفسه في
تية متكون ما لا يحصى من الجزائر الصغيرة فسأه بستان الملكة ثم مرض في
هذه الطريق حتى صار يخشى عليه الموت فعاد الى ايزابيلة فوجد بها اخاه
برتلي وكان ماسوراً منذ ١٢ سنة ففرح بلقائه فرحاً عجل شفاه ولاسيما بالثلاث
سفن التي احضرها معه لاسعافه من طرف فرديند وازابيلة
ثم اضطران بارجع الى اوروبا ليظهر براعته الملك والملكة المذكورين ما

آتهمه يو حساده بقصد انلافيو فترك اخاه المذكور وكيالا على القبيلة وسافر الى اسبانيا وحضر الديوان وهو ثابت الجنان مطمان القلب فافاض عليه الملكان بحال الاعتيار والامتياز واذنانه باسطول آخر صغير وسائر ما يلزم لترتيب قبيلة اسبانيولية وانزلا في السفن المذكورة جماعة مهاجرين فيهم من جميع الدرجات والصنائع ما يقوم بحاجة تلك القبيلة فكان فيهم طائفة كبيرة من اهل الزراعة وفرقة من الصناع الماهرين في فن استخراج المعادن فسافر بهم كلب في شهر ايار سنة ١٤٩٢م ووصل في اول شهر اب الى جزيرة عظيمة سماها ترينته (اي جزيرة الثالث) ثم قصد جهة الغرب محاذيا للاقاليم المعروفة باسم باريا وكومانا حتى وصل الى ارض الدنيا الجديدة التي كان ما اكتشفه قبل ذلك ليس الا من جزائرها فقط وكان اخوه برتلي في مدة غيبته اسس مدينة سنت دومنغ

وفي سنة ١٥٠٠ دفعت الرياح اسطول البورتغال الذي كان رئيسه بدرو الواريس كبرال الى جهة الغرب فرسا على ارض واقعة في الدرجة العاشرة خلف خط الاستواء وكانت تلك الارض جزا من اميركا فاستولى عليها الاميرال المذكور باسم ملكه ودعا اسمها ابرزيل وبعده اكتشف كذلك لورانزو جزيرة سيلان التي كان يسميها القديما بترومانه

ثم تكررت التشكيات بحق كرسيف كلب من بعض الاسبانيول الذين وجدوا معه وخرجوا عن طاعته في اسبانيولة فارسلت الملكة وكيالا يسي فرنسيس دويواد بالا لينظر في احوال كلب ورخصت له في عزله ان ثبت عنده صحة التهمة فعزم هذا الوكيل في نفسه ان يجعل كلب مذنباً على آية صورة كانت ومن ثم امر بالتبض عليه وقيده بالسلاسل والاعلال وبعثه الى اسبانيا ومعه اخواه مكبلين بالحديد ايضاً فلما وصل الى اسبانيا غضب الملك والملكة ما لحق هذا الاميرال من المنقصة وامر بان يفك من الاعلال وطليباة الى الحضور في الديوان فانبت لديها براعته ولكنها لم يعيده الى منصبه بل ابقياه وارسلوا

رجلاً يقال له نيقولاوس دوونديو بدلاً عنه وكان ذلك في سنة ٥٠١ م فاغناظ
الاميرال كلب وصار يحمل قيوده الى ابي محل ذهب اليه ليظهر مكافاة
الاسبانيول على صنيعه وكان دائماً يعلق تلك القيود في حجره ووصى ان تجعل
في تابوت وتدفن معه بعد موته

ومع كل ذلك لم تضعف رغبة هذا الرجل العظيم في الاكتشافات بل
شرع في سنة ٥٠٢ م برحلة رابعة اكتشف فيها على غوابنا وهي جزيرة مجاورة
لساحل يقال له هندوراس ثم توجه صوب خليج دريان جهة الشرق وعرف
في سيره بمضاء الشاطي الاراضي الفارة من راس غراسياس ادبوس الى ميناء
بورتوبيلو

ثم رجع بعد ذلك الى اسبانيا في سفينة اشترها له رجالان من البكرادات
(اولاد الامراء) يقال لاحدهما مندبر الاسبانيولي والثاني وفييسشي الجنوبيزي
كان لهما ارتباط به ولما وصل اليها بلغه وفاة الملكة ايزابيلا سنة ٥٠٤ م فانتقل
الى ولادوليدة وانقطع بها الى ان توفي سنة ٥٠٦ م وعمره ٥٩ سنة ونقلت جثته الى
اشبيلية ودفنت مع الاحنفال في الكنيسة الكبرى ونقش على قبره ما معناه قد
اعطى كلب للملكتي قسطيطة وايون دنيا جديدة وفي سنة ٥٢٦ م نقل ما بقي
من اثاره واثار ابنه ديفوالى اسبانيولا ودفنا في الكنيسة الكبرى بمدينة
سند ومنع التي مر ذكرها ثم نقلت اخيراً الى غوانا بجزيرة كوبا في ٥ كانون الثاني
سنة ١٧٩٦ م.

وحيث ان استكشاف امريكا اورث الاسبانيول الميل والرغبة في
المشروعات البحرية سافر اينزو دوويد بمصروف ذاته وهو احد الضباط الذين
كانوا مع كلب في سفرته الثانية ووصل الى سواحل بارباثم عاد الى اسبانيا في
سنة ٤٦٩ م بعد ان اطلع على امتداد عظيم من السواحل وكان معه في سفرته
هنا رجل يقال له امريق وسبوس احد امراء افلورنسة وكان من اصحاب
المعارف بعلم الفلاحة وصار له بذلك نفوذ كلفه على اصحابه ثم لما عاد الى اوروبا

الف رحلة ضمنها ما وقع له من المحوادث وتجاسر فيها على انه نسب لنفسه فخر
 اول مستكشف لارض الدنيا الجديدة القارة وسلك فيها مسلك العاقل الفطن
 وافرغ عباراتها في قالب حسن وكان اول تخطيطه اشتهر في وصف تلك البلاد
 فاخذ الناس يتعودون شيئاً فشيئاً على تسمية البلاد المذكورة باسم امريكا نسبة
 له ظلاً لا يمكن جبر خلافه حيث كان يجب ان تسمى كلبياً نسبة الى مكتشفها
 الحقيقي الذي لم تسم باسمه الا احدى الولايات منها فقط

ولازال الاسبانول يستكشفون اجزاء هذه الارض الواسعة شيئاً فشيئاً
 ويستعبدون اهلها الاصليين وينزلون بهم انواع المصائب والنكبات وبعاء لوئهم
 بالظلم والجور والفساوة الى ان تموا افتتاحها في ايام الامبراطور شارلكان
 (كارلوس الخامس) سنة ١٥٥٠م

يحكى ان الكاسيك هانوي احد حكام البلاد القدماء كان فر من اسانبوله
 واستولى على الطرف الشمالي من كوبا فخاربه الاسبانول هناك ايضاً واسروه
 وحكوا عليه بالحرق حياً واذ جاء اليه احد الرهبان الفرنسي سكانيين واخذ
 يرغبه في التنصر قبل الحرق لكي يرث فردوس النعيم اذا مات مسيحياً فاجابه
 الكاسيك المذكور هل يوجد في مثل النعيم الذي ذكرته لي اسبانول فنال
 الراهب نعم ولكن الصالحون الاخيار فاجابه الكاسيك وهل يوجد بينهم
 صالحون واخيار. حاشا . وانا لا اريد اذهب الى محل يجهني بهم ثم خرجت
 روحه وهو في طيب النار

ويعتبر الجغرافيون اميركا نصف الكرة الارضية بتمامها ومن حين اكتشافها
 اخذت اهلها في اوربا ترحل اليها وصار فيها للمالك اوربا املاك واسعة وهؤلاء
 الدخلاء حاربوا الاهالي الاصليين وطردهم الى داخل البلاد حيث لم يزل
 البعض منهم الى يومنا هذا ثم استقلت بعض تلك الاملاك وقامت بذاتها وبقي
 البعض الاخر تحت تسلط المالك الاصلي

والقسم الاعظم والاهم من البلاد التي تمت لها السمادة بواسطة استقلالها

ونوال حربيتها ويعتقني ان نخصه بالذكر هنا هو المعروف بالبلاد المتحدة قال صاحب المرآة الوضوية ومن سنة ١٦٠٧ للمسيح فصاعداً رحل اناس كثيرون من بلاد اوروبا ولاسيا من الاملاك الانكليزية الى بعض الاماكن في البلاد المتحدة ولما كثرت الاهالي هناك واخذوا املاكاً واسعة من الهنود تارة بالحرب وتارة بالشراء اخذ الحكم الانكليزي في اجراء المظالم عليهم فقسم البلاد المعهورة اقساماً شتى وارسل اليها عمالاً فاحتمل الاهالي ما احتملوه من الانتقال واسترحوا في طلب التخفيف عنهم فاذن لهم في اقامة اولئك المحكام بانتخابهم ولكن لم تنزل الدولة الانكليزية نجور عليهم في اشياء كثيرة حتى عقدت الاقسام المذكورة ديباناً في مدينة فيلدلفيا وحضرت اليه الوكلاء من كل قسم منها وفي سنة ١٧٧٦ طرحوا عنهم نير الانكليز ونادوا بالبحرية ونعاهدوا على المعاضدة من عموم الجمهور في انمام ذلك فانتشبت الحروب بينهم وبين الدولة الانكليزية الى سنة ١٧٨١ ثم سلمت لهم الدولة المشار اليها بالبحرية في سنة ١٧٨٢ ومن ثم جددوا المعاهدة بموجب دستور ترتيب في ديوان عن يد وكلاء البلاد جميعاً في مدينة فيلدلفيا المذكورة سنة ١٧٨٩

وتحتوي هذه المعاهدة على عدة اقسام مستقلة كل قسم له احكام وشرائع بنفسها لكنها كلها المتحدة تحت حكم واحد عومي بلا حظ الامور التي تتعلق بالاقسام المذكورة كافة وهذا الحكم هو من نوع الاحكام الجمهورية والمحكام ينتخبون من قبل الشعب على مدة معينة لهم الا انقضاء فانهم ينتخبون على مدة حياتهم ما لم يثبت عليهم ذنب يوجب العزل ولكل عمل من اعمالها حكم خاص به ايضاً غير ان الجميع يشتركون في انتخاب المحكام العمومية ورساوت وكلاء الى الديوانين النائمين في مدينة وشيبتون وهناك يلاحظ ما يلزم للغير العمومي وما يتعلق بالدول الاجنبية والحكم ابراد واف من الكارك وغيرها وله من العساكر القانونية والرديف والمراكب البحرية قوة كافية تجعل هذه الدولة معدودة في صف الدول الاولى

وكانت العبودية متسلطة على امريكا منذ دخول المهاجرين اليها فان
الاسبانيون كانوا ابادوا نحو مليونين من الهنود الاصليين في حروبهم معهم عندما
افتتحوها لحد سنة ١٥٥٠ وذلك طلب لسكاساس استرقاق العبيد لاجل
القيام بخدمة الاراضي ومن ثم تقدم الاسترقاق شيئاً فشيئاً الى ان صار عدد العبيد
في سنة ١٨٦٠ اربعة ملايين في البلاد المتحدة دون غيرها ولذلك صدر امر
ابراهيم لينكون رئيس جمهورية امريكا بابطال العبودية من الولايات الجنوبية
بامريكا وكان ذلك في اول كانون ثاني سنة ١٨٦٢

وامالي البلاد يحسبون من اعلا طبقة بين الشعوب المتدنة والعالم
والمعارف على اختلاف ضروبها وانواعها مخدومة فيها مع الجهد والاجتهاد
ويوجد فيها من المدارس الجامعة ومدارس العلوم العالية ما هو
فوق الكفاية ومن المدارس المتوسطة في كل بلدة وضيعة عدد
كثير والكتب رخيصة وقلها توجد بلدة ليس فيها
مطبعة لكازنات الاخبار فتكون
وسائط المعرفة متيسرة

للجميع

الفسر الثالث

من اقسام التاريخ وهو المعروف بالفرون الاخيرة وفيه فصلان

الفصل الاول

في الكلام على المعارف في مالكا اوروبا الافرنجية

القرن السادس عشر

يمتاز هذا القرن بتزيتين متضاربتين الاولى حدوث الانقسام الديني في اوروبا بواسطة ظهور المذهب الانجيلي ووقوع المنازعات العظيمة بين الكنيسة الكاثوليكية والشعوب البروتستانتية من جهة وبين ائمة البروتسانت انفسهم من اخرى والثانية الاتحاد العام فيها على طلب العلوم والمعارف مع الجهد والاجتهاد وكانت المزية في الامرين كليهما للعائلة الميديشية التي منها كان البابا لاون العاشر في رومية وروساء الدولة الجمهورية بفلورنسا من اعمال ايطاليين صاروا امرائها قال العلامة خير الدين باشا التونسي في كتابه المسمى باقوم المسالك في معرفة الممالك انهم هم الذين مهدوا سبيلها للناس وكان اشتهارهم في هذا القرن المعتبر عنه بالقرن الكبير الذي كانت ابامه تضاهي باوائلك الروساء في ايام اغسطوس اول قيصرية الرومان في الاشعار وحسن هندسة البناء ويديع اشكاله اقتداء

بالرومانیین الذین اقتدوا فی ذلك بالیونان وقد بحثوا فی الخزان مع البابا لاون العاشر الذی هو منهم عن الکتب القدیة وطبعوها لاستکثار نسخها وجعلوا علیها تعالیمات نافعة وملاحظات غریبة وبذلك ارتفع عن وجه محاسن الاقدمین الفناع الذی تکاتف بتطاول السنین

وقال بعض الافرنج انه لا یجهل احد بان العلوم والفنون فی هذا العصر اوصاتها حذاقة وغیره الناس الافاضل الی درجة سامیة من الکمال لان جمیع سكان اورویا اخذوا من احواء العلوم والفنون فوائد جمّة الی اقاصی العالم والذین كانوا فی الدرجة الاولى بین علماء ذلك العصر هم الذین انتهوا الی طبع کتب موافی الیونانیین والملائینیین والی تصلیحها وشرحها والی درس الاشیاء القدیة والی تهذیب هاتین اللغتیین والی تنسیق التألیف نظماً ونثراً وان الاجتهاد والمسابقة بین الفضلاء والنبلاء فی القرون السابفة نعم انهما كانا نافعیین جداً فی امور كثيرة واصلحها اما کن عذیبة انما لم یینظفها بالکلیة من الطریفة الردیة الوحشیة النافرة فی الکلام علی القضايا الکلامیة الی كانت غالباً بین الافرنج فی تلك القرون فالکتب المقدسة الی كانت اما منروکة بالکلیة او مشروحة بسقامة اخذت حینئذ مکاناً فسیحاً فی محاورات اللاهوتیین وکناباتهم وكانت الکلمات والاشیاء تُسمّین باکثر تدقیق والمواضع تُفصل باکثر عدالة ووضوح والانشا الریک الذی كانت تستحسنه المدارس القدیة نسخة جمیع الذین تفوقوا علی غیرهم فی المعرفة

(الفاسفة) وكانت الفلسفة السکولانیسکیة هی المتسلطنة فی اغلب المدارس والمکاتب الرومانیة وعلیها کان یعول فی المناقشات والمحاورات الدینیة بین لاهوتی الكنيسة الرومانیة وبن موسی الكنيسة الانجلیایة الذین ظهوروا فی هذا القرن کلوثیروس وکلیمنیوس والذین حذوا حذوها واتمغوا انارها منذ حرم البابا لاون العاشر لوثیروس المذكور سنة ١٥٢٠م لاسباب سوف یأتی ذکرها

استدراجات مدنية

(إيطاليا) وأما العلوم فكانت قد انكسفت شمسها بفلورنسا منذ وفاة لورانت الميديشي سنة ١٤٩٢ وذلك لان الفلورنسيين لما طردوا ابنه بطرس الثاني نهبت العامة سراية الميديشين ومكاتبهم ومحتوا وفرقوا في يوم واحد جميع ما جمعه لورانت واسلافه باموالهم ومجهوداتهم في ظرف خمسين سنة لكنها رجعت لما كانت عليه عند ما عادت هذه الطائفة الى منصبها ولاسيما لما ارتقى في السنة التي بعدها بيوحنا الميديشي الى كرسي الباباوية وسي لاون العاشر وازداد بذلك رونقها على ما سوف تأتي تفاصيله في محلهما

ان هذا البابا المشار اليه منذ كان كروينا لا قبل ان يجلس على الكرسي الباباوي كان اخذا في ان يعيد الى مدينة رومية الرغبة في الاداب والفنون التي كانت اضمحلت منها منذ عهد البابا بيوس الثاني ولاسيما في ايام البابا اسكندر السادس وبولس الثاني وقد استحسن رأيه في ذلك اصحاب الصنائع كالرسامين والنقارين والمعمارية الماهرين الذين كانوا وقتئذ في تلك المدينة ورغبوا في الفنون مثله وصار يجتمع كذلك حوله العلماء والادباء والشعراء ويفتح لهم سرايته وخزانة كتبه

ثم لما تولى الكرسي الباباوي اراد ان مكاتبه ومناشيرهُ لانكتب باللسان اللاتيني الذي كان يستعمل في ديوان القنجاير (رئيس الكتاب) وانما تكتب باللاتيني الذي كان يستعمله قيصرون فعين لكتابة الانشا عنده رجلين يقال لاحدهما سادوليت والثاني بيولكونها كانا يفوقان اهل عصرهما في الكتابة بهما اللسان من حيث البلاغة وتفصيح العبارة

وكان لم يبق في رومية من الاحداث التي تجددت بها لاجل تعليم العلوم

الأخمينياز (اي مدرسة رومية الجامعة) التي كان احدتها البابا انجانيوس الرابع وكانت قد اضعفت بالتدرج فاعتنى بشانها ايضاً وشهد لذلك ساعد الجهد والاجتهاد واعاد للطلبة ما كان لهم من المزاي وجعل فيها نحو ١٠٠ معلم حتى تكون حاوية لجميع انواع المعارف

واهتم كثيراً بتعليم اللسان اليوناني الذي كان يستعمله دمستين واصحابه وكان قد اتى قبل مدة الى بلاد اوروبا بجماعة الذين هاجروا اليها من بلاد اليونانيين عندما افتتح العثمانيون مدينة القسطنطينية ونقلوا معهم كنوز لغتهم ومعارفهم رجل يقال له يوحنا لاسكاريس ادخله لورانت الميديشي بجماعة من ادخالهم تحت كنفه ورعايته وبعثه الى بلاد المشرق ليجمع له منها الكتب القديمة وبعد ان مات لورانت المذكور صحبه الملك كرلوس الثامن الى فرنسا وكان من تلامذته فيها بوده الآتي ذكره ثم انتقل منها الى مدينة البندقية فلما تولى لاون العاشر المشار اليه دعاه الى رومية لانه كان لم يزل حياً الى ذلك الوقت وجعله فيها مديراً على الأكمة التي انشأها لتعليم الاداب اليونانية وملاحظاً على المطبعة التي خصصها لطبع ملح هذا الفن

ثم اخذ هذا البابا في ان يزيد خزانة كتب الواتيكان التي كان انشأها البابا نيقولاوس على ما سبقت الاشارة اليه فاشترى لها البقايا المشتتة التي بقيت من خزانة الكتب التي كان أسسها اباؤه في فلورنسا ونقلها الى رومية لكيما أعيدت بالثاني الى فلورنسا في ايام خليفته البابا اكليندوس السابع الذي ارتقى الى الكرسي في سنة ١٥٢٢م وقد نجا البابا لاون المشار اليه نحو كوسم الاول المتقدم ذكره في الترغيب والبحث عن كتب اسيا فكان تعليم اللسان الكلاسيكي واليهودي والسرياني مصاحباً لتعليم اللسان اليوناني واللسان اللاتيني

ومن كان في ايطاليا من مشاهير الادباء والشعراء والخطباء وبلغاء علماء الكتاب كانوا جميعاً في ديوان هذا البابا فكانت تشرق في هذا الديوان شمس اداب كل من الشاعر تيبالدو والشاعر برناردو كوايتي الذي كان

يُلقب بفريد عصره وأريوست الذي كان لا نظير له وقد مر ذكره في الكلام على فرارة في القرن الخامس عشر وبرني ومورو وهم الذين اخترعوا الأهاجي الإيطالية والبيانية وغيرها

وفي ذلك الديوان شرح كل من توموس وبوتوناس ويوحنا بيك أو هو بيكوس دولاميرند وله كوتة كونكورديا فلسفة الأقدمين بعد أن صححها مهاجرو النسطورية على ما قد سبقت تفصيله في الفصل السادس من المقالة الأولى من كتابنا زبدة الصحائف في أصول المعارف

وفيه أيضاً كان كل من بوتانوس الذي مر ذكره وسابو كاكيتيني ومايتول بطالع العلوم الطبيعية وفيه كذلك أبرز الكوتة بانتزار كستجابوني وماتوبوسو رسائل في المحكم والآداب

وفيه ألف فيلبس دونرلي وياكس نردني وميشاويل أو هو مكيا فيلي وغيشارد بن أو هو غوتيشرديني وبواس يوده تاريخ بلادهم وفي كتاب اقوم المسالك ان مكيا فيلي هو أول من بين القواعد السياسية بعد سقوط الدولة الرومانية وغوتيشرديني قد بلغ بجودة الفكر وحسن التعبير الى ان كان التصنيف في التاريخ وقرايا وواشتهر بالمدافعة عن حرية وطنه بقلم غيور منصف ضد سياسة الباباوات (والظاهر ان هذا الأخير لم يكن بمهيلة الموظفين في ذلك الديوان حتى استطاع ان يكتب ما قد ذكر)

وكان للبابا لاون نفسه تولع بالموسيقى ايضاً فكان يارسها بذاته الا انه كان يوشرفون الرسم والنقارة والعمارة على غيرها ويرغب فيها بالاعطاء الجزيل الذي ربما صح عنه من الاسراف والتبذير وكان الايطاليون كما انهم اشتهروا منذ القرن الخامس عشر بالآداب وحصول ما امكنهم تحصيله من العلوم والفلسفة اشتهروا كذلك بهذه الصناعات المستظرفة المسماة عندهم بالبوراز وهي الدهن والنقش (الذي يقال بانه من اختراع اليونانيين استنبطوه من

المهندسة من تطبيقات قسم المخروطيات) ومهندسة البناء والموسيقى وامتناز بينهم
 بهنك الصناعات في هذا القرن الذي نحن بصدد ذكره كل من روفائيل وميكالانج
 وليوناردو ونيشي وغيرهم الذابت بهم وبنالذتهم تجدد البيوزار المذكور في سائر
 نواحي اوروبا على ما تقدم ايضا حة في ما مر فاراد البابا المشار اليه ان يتم بناء
 كنيسة الرسولين بطرس وبولس^(١) التي كان شرع بنائها سنة وكان الذي

(١) ذكر صاحب الخلة هذه الكنيسة التي جلت عن ان تُشنع بمثل على وجه الارض
 فقال ان اول من وضع اساسها هو البابا بوليوس الثاني وذلك في اليوم الثامن عشر من
 نيسان سنة ١٥٠٦م وعنى هو وخلفاؤه من الاحبار الرومانيين في انتخاب مهندسين ماهرين
 ليصرفوا همهم الى اتقان بنائها ويهدان تولى امرها عدة مهندسين ومانوا فوض البابا
 بولس الثالث امر بنائها الى ميخائيل انجلوا شهر مهندي عصره فسعى هذا المهندس في عقد
 القبة على الهيئة التي استحسها ولكنه توفي قبل ان ينجز البناء بنهاية فتولى العمل بعده المهندس
 يعقوب ديللابورنا في عهد البابا غريغوريوس الثالث عشر وكان هذا البابا شديد الاهتمام
 في انجازها على حياتها ولذلك امر بتشييد ٦٠٠ فاعل ليلا ونهارا وكان ينتقى على بنائها ١٠٠ الف
 دينار من الذهب سنويا وغرب ان توفي المهندس يعقوب المذكور خلفه المهندس كارلي
 مادرنوفكامل بناء هذا المعبد الجميل وكان شجره بكالو بطرف ١٧٠ سنة وقد اقتضى
 لتزيينه على ما هو عليه الان ٣٠٠ سنة ونصب ٤٢ بابا ومانوا من يوم تاسيسه الى يوم كاله
 وان بعض المدقنين عمل معدل مصروف بنائهم فبلغ احد عشر مليوناً وستماية وخمسة
 وعشرين الف ليرا انكليزية هذا ما عدا قيمة ٤٠٥٢٤٥٢ ليرا من النحاس (خلعت عن معبد
 قديم) واستعملت لصب كرمي بطرس الرسول ولعمل القبة التي على ضريحه ووصف
 صاحب الخلة هذه الكنيسة وكان زارها مرات عديدة فقال ان واجهتها تبلغ ١٦٠ قدماً
 وعرضها ٣٩٦ قدماً وارضها مرصوفة بالرخام الثمين الملون باللوان زهية ومقطع بتقاطع
 جميلة ومرفوم عليها قياس اعظم المعابد الموجودة في الدنيا مع قياسها في ذاتها ايضا
 وتفصيل ذلك هي هكذا وطول هذه الكنيسة ٦٠٩ اقدام. طول كنيسة ماري بولس بلندن
 ٥٢١ قدماً طول الكنيسة الكبرى بميلان ٤٢٩ قدماً. طول كنيسة ماري بولس برومية ٤١٥
 قدماً طول كنيسة ايا صوفيا بالقسطنطينية ٣٥٦ قدماً وقد اجمع رأي المهندسين اطراً على
 ان رواق كنيسة ماري بطرس الوسطاني يحسب من عظام البناء في الدنيا عرضة ٨٩ قدماً
 وارتفاعه ١٥٢ قدماً الى ان قال ان بناء هذا المعبد العظيم الجميل بكل محاسن الصنائع
 البشرية مما يعجز القلم عن وصفه وكان هو بعينه من اعظم اعمال الطبيعة لكونه لم يستطع

اخطبها مهندس شهر يقال له براننت الآن الموت منعه عن مباشرة انشائها

ان يمنع افكاره ان بناء هذه صفة قد تمكنت العقول البشرية من الاتيان بهنلو فان من دخل هذا المعبد ورفع نظره الى سقوفه العالي اعترى نظره غشيان وراسه دوران قبل ان يتمكن من مشاهدة ما فيه كان قبة تلك معقودة على هامته وان جال في عطفات المعبد ضل في خلالها وان تمشى في رواقه اعتراه التعب قبل ان يتمكن من اتمام الفرجة على ما فيه من التحف وما على جدرانها من النقوش وان كانت الصلاة قائمة في احدى جهاتوه وهو في جهة اخرى منه لا يدري ما هناك من آلات الموسيقى والانغام الى غير ذلك وروان قبة هذا المعبد يصير تنويرها مرتين في السنة ليلة عيد الفصح وليلة عيد ماري بطرس ويكون ذلك من اغرب المناظر واجملها في العالم فان انبثاق اشعة المصابيح من مخدب القبة بغمرة وتناثر الشرارات واللمب على هيئة نجوم متلونة فوق القبة كاسهم نارية وانعكاس اشعتها الى مياه الخوضات العظيمة في الساحة يشده البصر وبعض في اهدن الناظر جمال القبة وبنائها الباذخ ويتولى تنوير القبة ٢٠٠ نفر من الناس بصعدون الى ظهرها بسلام ومنهم من يتسلق بحبال الى قممها العليا نحت خطر حياتوه وقد اعتادوا على هذا العمل الشديد الخطر حتى انهم يتمكنون من تنوير القبة باسرها وما يليها من الابنية في نحو ١ ثانية اي في ربع دقيقة من الزمان مع ان فيها من المصابيح ما يتوق المليون عددا ومن المفروض على الذين يتولون تنوير القبة ان لا يشربوا خرا ولا مسكرا ذلك النهار بطولوه وان يستعدوا للموت ويرتبوا امور عائلاتهم كمن قد دنا اجله وهو على اهبه فراق الدنيا وما فيها اه وكانت روت بعض الجرائد ان هذه القبة سقطت عليها صاعقة اثناء اجتماع المجمع الفاتيكانى المنعقد في سنة ١٨٦٩م فنزل بناؤها وقال صاحب النحلة في جريدة تشرين الثاني سنة ١٨٧٧ قد تجدد الخطر على قبة ماري بطرس التي تحسب من عجائب الدنيا ويخشى عليها كثيرا من السقوط لان الشقوق التي كانت حصلت قديما في اعالي القبة قد اتسعت الان وقد عفي بتفقد احوالها بعض من جمعية المعارف الروسية فوجدوا اغلب اطراف البناء مشققة قد اعترها الخلل وكان المهندسون عنيوا قديما بوضع نطاق من حديد حول القبة لصيانتها من السقوط وعشقوها بالواح من رخام والان قد تكسر كثير من هذه الالواح بمزاحة اتساع الشقوق انتهى

وبالقرب من هذه الكنيسة قصر الفاتيكان الذي يسكنه البابا ذكر في احدى النشرات المتعبرة انه يحتوي على ١١ الف قاعة من ارحب قاعات الدنيا وافخرها ومخاط بشروق لم يحور مثلها مكان قط وفيه من الجواهر والتحف ما لا يحصى ولا يقوم بوصفه قام من اشهر مصنوعات الدنيا وانقنها مرصعة باثن الجواهر من الماس والياقوت والزمرد وكل حجر كريم وعدد رجال دائرة البابا وخصته يبلغون بحسب وظائفهم الى ٢٤٥٢ رجلا

فواطلب هذا البابا على ذلك مع الحماية والمصاريف وكان قد تلقى بالتبول
والاکرام ميخائيل انجلو واناطة ببناء كيسة اخرى في فلورنسا سماها سنت لورانت
واستخدم عنده اندريا ديل سرتو وايونارد دوونيسي الذي مر ذكره وكذلك في
ايامه ايضا نقش روفائيل المذكور جدران الوانتيكان وقد نشر هذه النقوش
الظريفة مرق انطونيو رينوندي باخذ صورتها على النحاس وكان روفائيل
المذكور قد اتقن هذه الصناعة المتبعة في القرن الماضي الى ان بلغت درجة كمال
فن ثم اقتضى الامر لان يستعين البابا المشار اليه على هذه المصاريف بالادخلة
بيوع اوراق الغفرانات فكان ذلك سببا الى معارضة لوثيروس التي نفايت من
كبريا رومية بعدم الحكمة واوجبت خروجه بالكاية وظهور الديانة الانجيلية
المسماة بالبروتستانتية

ثم بعد ان توفي البابا لاون المشار اليه وجلس على كرسيه البابا ادريانوس
السادس في سنة ١٥٢٢ حصل للاداب والفنون ازعاج وقتي برومية لكنه لم
يكن الا اشهر قليلا اذ انه لما تولى بعده اكليندوس السابع وقد مر ذكره
وكان من اقارب لاون العاشر زال ذلك الازعاج واعاد في اوائل باباوية
لاكدمية رومية ما كان لها من البهجة والرونق القديم غير انه لما انتهت رومية
في سنة ١٥٢٧ م اندثر جميع ما رتبة الباباوات في هذه المدينة من الاشياء النافعة
بالنسبة للاداب ومكثت على ذلك مدة طويلة

لكن في هذه المدة الطويلة المذكورة التي اندثرت فيها الاداب والفنون من
رومية كانت تشرق انوارها في فلورنسا على عهد الميديشية الذين رجحوا
لمنصب الامارة على هذه الجمهورية بعد ان كانوا طردوا منها على ما تقدم اذ في
هنا الزمان صار كل من الدوك كوسم (قزما) الثاني الذي تولى سنة ١٥٢٧ م
وخليفة فرنسيس الذي تولى سنة ١٥٧٤ م وفرديند الذي تولى سنة ١٥٨٧ م
معادلا في البذل والسخا للورانت لومانيفيك وكوسم الاكبر (الاول) حتى انهم
في ظرف ٨٠ سنة تقريبا جعلوا مدينة فلورنسا تعادل مدينة اثينا في زمن زهاها

اما باقي دول ايطاليا فقد لحقت فيه تقلبات الدهر وصروفه الآداب والعلوم مدة القرن السادس عشر من الميلاد وذلك انه بعد اجلاء الدولة الارغوانية وانقراض العائلة السفورسية اصبحت الآداب في نابلي ودوكية ميلان وان كان بعض العمال الاسبانبوليين قصدوا حمايتها فيها وجبروا بذلك خلل ما كان من غيرهم من كرامتها او عدم الاعناء بشأنها لکن كان جبرهم لهذا الخلل على وجه ضعيف هين وانما بقيت على زمامها في فرارة على عهد هر قول الثاني وازداد رونقها في زمن الفونس الثاني الذي احسن ملاقاته الشاعر تاسه واكرم نزله في ديوانه وعظمت بهجتها اكثر من ذلك في مانتوه على عهد المرقي فريدريك وحماها دوقات اوربين وكذلك دوقات سابوه فأنهم مع ما حل بهم من النكبات والمصائب كان لهم نصيب وحظ في ما ادخله الميديشية في ايطاليا واستغرق فيها مدة القرن السادس عشر من تقدم الآداب والعلوم والاعناء بشأنها وتوسيع دائرتها على وجه عظيم ومنهج قويم

(فرانس) وكانت ملوك فرانس قد اتفقت اثار العائلة الميديشية المذكورة فجدت كذلك في طامب الآداب والعلوم في هذا القرن ايضاً منذ تولى تختها في سنة ١٥١٥ الملك فرنسيس الاول خليفة لويس الثاني عشر فانه تلقب بابي العلوم والمعارف لكونه كان يعظم العلماء تعظيماً ليس له حد ويرى انه مادام العلم معظماً في المملكة دام عزها وفلاحها واذا هين سقطت الى حضيض الاضمحلال وهو الذي شرع في تأسيس خزانه الكتب الملكية وانشأ مدرسة العلوم ودار الطباعة ايضاً وكان صاحب معارف ومحامياً لها ومشجعاً لاربابها مثل مارو وربليس وغلجوم بوريه او بورا وغيرهم من العلماء والادبا وارباب الفنون والصنائع واغدى على العلماء بالانعامات ورغيمهم بالعطايا الجزيلة حتى بذلوا في تحصيل المعارف بعض مجهودات نافعة فترجموا كتب الاقدمين وترتب على مطالعتها ثمرة عظيمة عادت بالرفع على مولفات الازمنة المتأخرة . واكمل

التشريعات وفصل دعاوي بامور حسنة وانتشرت اللغة الفرنسية ببلاد
فرانسا بدلاً عن اللسان اللاتيني ورتب غرامة على لعب القمار ابطالها الفرنسية
عن قريب بدعواهم انها مباينة لمكارم الاخلاق وفي ايامه استغنت التجار بسبب
تقدم التجارة واحداث البانكة في مدينة ليون واول معامل الحرير (وفي بعض
المولفات ان اول معمل ظهر في ليون لتسج الحرير كان في سنة 1۴77م) وكثرت
في ايامه مارسة صناعة الساعات والميكانيكا والعلوم الرياضية واحداث
العساكر البحرية الملكية وحفر ميناء هورة ولما ذهب لمحاربة بلاد ايطاليا اعجبه
حسنها ورونقها فجلب منها نقاشين ومعارفة ارباب نشاط شديدوا له مما كل
وسرايات جديدة بالانساب الى اسمه في اماكن متعددة ومنها قصر فونتبلو
وقصر سان جره ان وقصر شنور ولوره ونقشوها هم انفسهم او تلامذتهم الذين
علومهم هذه المادسة واحداث المصانع والمعامل واحكامها وانقنها ودعا ارباب
الحرف والصنایع الى فرانسا فشرع معمل جوبلين في نسج انواع التوريقات
المستحسنة عند جميع اهالي بلاد اورویا وبالجملة يقال بانه من عصر هذا الملك
تورخ التقدمات العظيمة السريعة للعلوم والاداب وجميع الفنون العقلية في
مملكة فرانسا حتى جعلتها في اعلى درجات تمدن المتأخرين غير انه مع ذلك
جميعه كان لازال المنجمون الذين يزعمون معرفة حظ الانسان من النظر الى
السماء والكياويون الباحثون عن حجر الفلاسفة وهو ما يزعمونه من استحالة
المعادن ذهباً لانتلودروسهم من الغاغا ولذلك كانت مدرسة العلوم الجامعة
ميداناً المناظرة والجدال بين هؤلاء المدرسين الذين لا ينبغي نظهم في سلك
اهل الادب

وبما ان هذا الملك قد نشأ من صغره على مارسة العلوم والاداب باجتهد
الملك لويس الثاني عشر على ما تقدم بيانه كان مجرد جالوسه على السرير لأبرى
الآ والعلماء حوله فكانوا بصاحبونه في كل مكان ولا يفارقونه لاني الصيد
والفنص ولا في اسفاره ولا في منزله وكان يقلدهم المناصب ويجزل لهم العطا

ويرغبهم في اشغالهم بجموده وكرمه وبكونه يشتغل هو نفسه بحيث يكون اسوة لهم في ذلك واشهر هؤلاء الناس المجتهد بن الذين جليهم بانعامه حتى ملأهم ديوانه هو بوريه الذي سمي اعجوبة فرانساً وقد مر ذكره فانه هو الذي حمل الملك على احداث المدرسة الملوكية وكان الغرض من هذه المدرسة التي جعل لمدرسيها مرتبات جسيمة هو تعلم اللغة اللاتينية واليونانية والعبرانية فلذا سميت بمدرسة اللغات الثلاثة ولكن جدد الملك فيها دروساً اخرى اذ قد استنبط من المكاتب المورخة في سنة ٥٤٥ م انه زيادة على مدرس اللاتيني ومدرسي العبراني الثلاثة ومدرسي اليوناني الثلاثة كان يوجد اذ ذاك معلم لتعليم الطب واخر للفلسفة واثنان للرياضيات وكذلك خلفائه من الملوك جددوا فيها بالاعاقب فروعاً اخرى افتضاها اتساع دائرة المعارف في عصرهم ثم لما توفي البابا لاون العاشر الذي مكث الفنون في ايطاليا واحياها خلفائه جلب هذا الملك العظيم اهلبا من ايطاليا وزين بهم ديوانه غير انه لم يتمكن من ان يسم مكتب رومية بولس رومان وانما احرم مكتب فلورنسا من ليوناردو ونيسي الرسام الشهير واحضر المعلم روكس امهر البنائين وجعله ناظر عموم عمارات فونتنبليو وكان جامعاً لجميع انواع الفنون وكان له معاصر خطير اوسع دائرة منه وهو بنو انوتوسليني واحضر ايضاً لوبرماتيس من ايطاليا لاجل اشغال فونتنبليو بعد وفاة روكس وهو الذي رسم قبر هذا الملك نفسه وابتداء في رسم قبر هنري الثاني الذي تولى المملكة بعد ان مات ابوه المذكور في سنة ٥٤٧ م ورسم ايضاً صورة قصر مودون وكان لما حضر هذان المعلمان روكس ولوبرماتيس الى فرانساً وجلبا بها بعض رسامين من الفرنساوية فعلمنا ذلك الفن للجماعة اخرين ومن ذلك الوقت اشتهرت المدرسة الفرنساوية بتلامذتها وكانت اذواق القرون السالفة سقيمة وادراكاتهم وتصوراتهم غير صحيحة فافسدوا الشعر اليوناني واللاتيني حيث اخترعوا طريقة الاشعار الليونية المفردة والمزدوجة والمتلثة وطريقة التطريز والنمو في قصائد الكلمات

المبدوءة بحرف واحد وكانت لم طرق اخرى من هذا القبيل فلما ظهر اهل الذوق الصحيح في زمن الملك فرنسيس الاول المشار اليه راوا هذه الطريقة المتعبة من قبيل الالعاب الصبيانية فعادوا بالندرج الى ما يسهل على الطبع وبالفئة الذوق غير انهم مع كثرة ممارستهم للشعر اللاتيني لم يصلوا في ايام هذا الملك درجة الكمال التي وصل اليها في عهد الملك لويس الرابع عشر الذي تولى المملكة في سنة ١٦٤٢م كل من راين وكومبره ولاروذييه وكذلك كان في ايام الملك فرنسيس المشار اليه وما قبله ايضا لا تعرف الاجزاء التي تتركب منها بحور الشعر الفرنسية كما ان اصول تجنيس القوافي وابقاع التمازج بينها كانت مجهولة ومهالة وكان ثقل اللفظ (وهو عندهم عبارة عن تلاقي حركتين احدهما في اخر الكلمة والثانية في اول كلمة اخرى بدون حذف لاحدهما) سائغا مستعملا ومع هذه العيوب لم تنزل قصائد ما روط الذي مر ذكره وسنت جليس وبعض ابيات لفرنسيس الاول المذكور يستأذ انشادها ويستطاب سماعها الى الان لما امتازت به عن غيرها من اللطف والسهولة وعدم التكلف واما من ظهر بعدهم من الشعراء الى زمن الشاعر ما هرب فلا يكاد يعرف الا اساوهم وقل ان عرف لم شعر

واما كتاب الانشا ففهم ربابس المار ذكره ايضا فان كتابة وان صار بتداول الازمان مغلفا يصعب فهمة لكثرة ما فيه من الكنايات والرموز والاشارات الا ان ما امكن فهمة منه يشهد بذكاء مولفه وجودة معرفته وينضي له ببعض الشهرة التي حازها بين ابناء عصره

ومن اثار الكتب الادبية الفرنسية كتاب تاريخ الشواليي بيارفاته من الكتب التي اذا اطالع عليها الانسان تحسر على لغة الاقدمين واخلاقهم ومنها ايضا رسائل المارشال دوفلورنجه فانها يمكن من اللطف حتى ان القاري لا يملها ولا يسأم من مطالعتها ورسائل الاخوان مرتين وغليوم دويلاي هي بالنسبة لتاريخ فرنسيس الاول كرسائل سولي بالنسبة لتاريخ هنري الرابع الذي تولى

المملكة سنة ١٥٨٩م ومع ذلك يجب الاعتراف بان هناك بونا بعيدا وفرقا كبيرا بين كتاب هذا العصر وشعرائه من الفرنسيين وكتاب العصر المذكور وشعرائه من الايطاليين فان فرانسوا اذ ذاك لم يكن فيها من بضاهي من رجال ايطاليا اغيشاردن ولا ميشاويل ولا دانتلي ولا بتاركة ولا اربوست الذين تقدم ذكرهم في الكلام عليها

ثم بعد وفاة هذا الملك لم يحدث في زمن ابنه هنري الثاني الذي مر ذكره الا واقعة واحدة من وقائع فصل الدعاري بالتمثال الشرعي فابطل هذه العادة الرديئة الفاسدة وانما في اواخر هذا القرن تقدمت الصنائع في فرانسوا على عهد الملك هنري الرابع وقد مر ذكره ايضا وذلك ان معامل الحرير والتوريق والمرائي والزجاج منها ما احدث في زمنه ومنها ما حصل له فيه تقدم عظيم وانشا هذا الملك خليج ايبيريا ففتحت بذلك طريق جديدة للتجارة وزين المدينة بعمارات جديدة وكمل عمل الفنطرة المسماة بونوف ابي الفنطرة الجديدة وصار الشروع في انشاء المجرار الطويل الذي يوصل الى قصر لورة وهو سراية الملوك القديمة بقصر التوارى وهو السراية الملكية الجديدة التي احدثتها كاترينادومنيسي وتشدت قلاع المملكة ووضع فيها مدافع عظيمة مخوفة وازدادت مخازن الاسلحة واصلحت جميع الطرق السلطانية وغرست بها الاشجار وبالحجارة كان هذا الملك يجاب الى باريس العلماء الاجانب وينشي مدارس جديدة ونقل خزائن الكتب الملكية من قصر فوتنبلاو الى باريس وزاد فيها من المولفات العظيمة المطبوعة والكتب النفيسة التي بخط اليد

وتد لخص صاحب كتاب اقوم المسالك ما اشهرت بورجال فرانسوا من الفنون والاداب في هذا القرن فقال درومهم كوجا ودوملان وميشال دولينبال الذين عمروا مكاتب الاحكام والماهر الفصيح فرنل المتسلطن في علم الطب وامبروازيري اعرف اهل وقته باصول الجراحات . وفيات الذي اخنصر كتب الجبر ووضع حروف نائبة عن الاعداد وصيره لعلم المساحة

كالمنطق لسائر العلوم وبيارلسكو الذي هندس بناء اللوفر. وفليبارولورم الذي هندس قصر مودون وقصر التولاري^(١). لكن وإن كانت فرنسا قد بلغت في هذا الوقت ما بلغته من التمدن والتهديب وفاقت أمما كثيرة ممن تقدمها إلا أنها لم تضاهِ نظائرها حيث لم يكن لسانها في ذلك الوقت خالصاً من الشوائب وإنما كان من مشاهيرها في تلك المئة رجلان يقال لأحدهما اميو والثاني مارو (لعنة ماروط) فالاول في الانشاء والثاني في النظم تمييزاً بسلامة السليقة وقلة التعقيد ومنهم ريبس ويقال ريلي مثنى صياغة مثالب العجوة وموتنان الفيلسوف الذي سهل طرق المعاني وأداها بالفاظ راشقة وشرح ماهية الانسان غير معمول بعين الرضى على تحسين معايير ولا بعين السخط على تقبيح معاسره.

(روسيا) وكذلك لما تولى تخت السلطنة المسكوبية ايوان الرابع بعد وفاة ايبك باسيل في سنة ١٥٣٤ رأى ان الشرائع القديمة التي للملكة غير كافية فحرر كتاب شرائع وهو وان كان لا يخلو من العيوب إلا أنه اوقع تغييرات عظيمة فيها وسعى ايضاً وان كان بلا طائل في ابطال المقامات الشرعية وجعل التجارة زاهية زاهرة وجلب ارباب حرف وصنائع من انكلترة وطلب من الامبراطور شركان (كرلوس الخامس) مثلهم. واحداث الطباعة في مدينة موسكو ورتب جيشاً من العساكر المستمرة

وفي ايامه كشفت بلاد سيبيريا وذلك ان ناجراً غنياً يقال له انيكاستروغونوف اخبر اولاً بوجود هذا النظر ثم تم استكشافاته ورئيس من روساء القزاق يُسمى برياك كان مولماً بالحوادث وبوقوع الذهب والاسب في سواحل نهر وولغا وفي اكناف بحر الخزر فطردته فرقة من الروس فتوجه الى سيبيريا وبعده ٧ الاف قوزاقي واكتسب عدة نصرات على ثمار تلك البلاد وعلى

(١) قصر اللوفر وقصر التولاري هما بباريس يسكن بها الملوك اما قصر مودون

فهو بالقرب من باريس

خانهم كوتشوم ونغاب على مدينة سير التي هي اعظم حصونهم في سنة ١٥٨١ م بعد ان فقد اكثر اصحابه ولما راي نفسه انه لا يستطيع الاقامة فيها بما بقي معه من الرجال القلائل اشترى من التجار ابوان الرابع المشار اليه الساج والصفي عن ذنوبه القديمة بالتنازل له عن فتوحه هذا فتولت العساكر الروسية هذه البلاد في سنة ١٥٨٢ م ومع ذلك لم يتم لها اخضاعها الا في ايام ابنه الجار ثودورس الاول (فيدورا يوايتش) الذي تولى الملكة في سنة ١٥٨٤ م وهي الذي بنى فيها مدينة توبولسك في سنة ١٥٨٧ م وصبرها من ذلك الوقت تحننا لملك البلاد

(اسبانيا) اما اسبانيا فكثرت فيها الفنون القوية في هذا القرن الذي نحن بصدده وظهر فيها مولفون كثيرون اشهر منهم الشاعران الجيدان لويس ديفيغا وكالدرون اللذان اظهرا من التراكمب الشعرية الطراف المستحسنة التي انفوها في الجماع الممددة لتهديب الاخلاق المسماة عدم بالديانرات

(انكلترا) وادخلت الى انكلترا صناعة عمل الابر بواسطة رجل جرمانى كان هو اول من اصطنعها في لندن وينال بانه نقلها اليها من اسبانيا او جرمانيا وكان ذلك في سنة ١٥٤٥ وقيل سنة ١٥٦٥ م واستعمل كذلك في هذه المدينة التدخين وعمل السيكرات في سنة ١٥٦٠ م وابتدى في طبع الجرائد ونشرها فيها سنة ١٥٨٨ م واصطنع رجل يقال ينال له اراكريت اول دولاب لغزل القطن الهندي في سنة ١٥٩٠

(دانباركه) وفي سنة ١٥٥٩ م وهب فريدريك الثاني ملك دانباركه الى الفلكي الشهير نيكوبراي الذي افنى عمره وماله في طلب العلم واقتناص شوارده حتى سمي بالمحسن الى العلم جزيرة يقال لها هوينى لاجل بناء مرصد

ساطاني لرصد الاجرام السماوية قال بعض المؤلفين ان تيخوبراي المذكور ولد في سنة ١٥٤٦ م في مدينة كنودسترب في اسوج وكانت حينئذ تحت حكم الدانمارك واشتهر في غضون اشتهار راي كوبرنيكوس (الآتي بيانه بعد) وبلغ من الدقة في الرصد ما لم يبلغه غيره فرقاه الملك وجعل له جزيرة هويبي مقاماً وقطع له مبلغاً سنوياً فانشأ هناك مرصداً سماه اوزبرج اي المدينة السماوية ليث فيه ٢٥ سنة يرصد السيارات ومن ارضاده كشف الفيلسوف كبلر النواميس التي رتبها الله لتجري السيارات عليها ولم يتقد الى راي كوبرنيكوس المذكور اذ عزم انه يخالف الكتب المقدسة ولذلك ابدى رايه بخلاف راي كوبرنيكوس فخط ذلك من سنه ١٦٠١ م في براك بعد ان تزح اليها من اوزبرج المذكورة

اكتشافات علمية وتقدمات صناعية

(دورة الارض وثبوت الشمس) وكان كوبرنيكوس المنوه عنه هنا رجلاً فلكياً من اهل المي ترن او هي طرن ببلاد بروسيا ظهر في سنة ١٥٢٠ الميلاد فحور القول بان الشمس في مركز العالم وان الارض والكواكب تدور حولها تمال بعض المؤلفين بانه ليس هو اول قائل بذلك وانما الاول هو فيلولاوس احد تلامذة فيثاغورس وذلك قبل وجود كوبرنيكوس هذا بالفي عام لكن وقع الانفصال على ان كوبرنيكوس المذكور هو الذي ينبغي ان تُنسب اليه مزية الابتكار لهذا القول وان انتفع في الاهتداء اليه بقول فيلولاوس المذكور . وفي كتاب اصول الهيئة للفاضل العلامة الدكتور كرنيايوس فانديك الامريكاني ما نصه ان الآراء من جهة النظام الشمسي اربعة وهي اولاً الراي البطليموسي نسبة الى بطليموس من مدرسة الاسكندرية صاحب كتاب المجسطي عاش نحو سنة ١٢٠ ق م فانه علم بان الارض في المركز وكل السيارات تدور حولها واولاً القمر ثم عطارد

ثم الزهرة ثم الشمس ثم المريخ ثم المشتري ثم زحل اما ارستارخس من جزيرة صاموس فكان في سنة ٢٨٠ ق م فعلم حسب رأي ارخيميدس وفلوطرخس ان الارض تدور حول الشمس فشكك عليه بالكفر وبعد ذلك بنحو ٢٠ سنة عالج كلياتوس من اسوس عن ظواهر الاجرام السماوية بثبوت الشمس ودوران الارض على محورها وهو ايضا شكك عليه امام المحكام لاجل الكفر بسبب مضادة هذا الرأي الآراء الشائعة . ثانياً الرأي المصري واختلف عن بطليموس بانه جعل عطارد والزهرة قمرين للشمس يدوران حولها وبقي الرأي البطليموسي غالباً عدة قرون الى القرن الخامس عشر من التاريخ المسيحي لما قام كوبرنيكوس صاحب الرأي الثالث في سنة ١٥٢٠ م وعلم بثبوت الشمس ودوران السيارات حولها اولاً عطارد ثم الزهرة ثم الارض ثم المريخ ثم المشتري ثم زحل واشهر رايه في كتابه المعنون بحركات الاجرام السماوية فحكم مجمع الفهص الروماني عليه بالهرطقة ونهى عن اشتهار كتابه وعن قراءته . اما الرأي الرابع المستحق الذكر فهو رأي تيغوبراي (المار ذكره) وقد اشهره نحو سنة ١٥٨٢ م فانه جعل الارض في المركز ثابتة ثم القمر يدور حول الارض ثم الشمس تدور حول الارض وعطارد والزهرة وسائر السيارات تدور حول الشمس اقلارها . ثم قام غاليلي في ايطاليا سنة ١٦٤٩ م (وسوف يأتي ذكره) وبين صحة الرأي الكوبرنيكي (فحسب ايضا بامر ديوان الفحص لاعتمادهم ان ذلك يخالف ما جاء في التوراة من ايقاف يشوع بن نون الشمس في محاربة اريحا قال بعض المؤلفين انه في اثناء حبهو كان يرسم الحساب على جدران الحبس ويتأمل ثم يضرب الارض برجله ويقول ومع ذلك فان الشمس هي التي تدور) ثم تبعه في اثبات هذا الرأي وتبيينه كپار (وهو رجل من جرمانيا صرف مدته في علم الفلك حتى قيل انه صاحب الاحكام) في سنة ١٦٥٤ م واسحق نيوتون (وسوف يأتي ذكره) نحو القرن الثامن عشر ومن ثم صار المعول على الرأي الكوبرنيكي واندرت بقية الآراء كلها

تقويم السنة

ثم في سنة ١٥٨٣ م اصاح البابا غريغور بوس الثالث عشر حساب السنة الشمسية على وجه الضبط بجعلها ٣٦٥ يوماً و٥ ساعات و٤٨ دقيقة و٤٩ ثانية ولا يخفى ما في ذلك من الفائدة بالنظر الى التقويم والزيج وغيرها من تعلقات الامور الفلكية وبنهم ما تقدم بان اصل التقويم كان من روم واولس بانى مدينة رومية سنة ٧٥٢ ق م الا انه جعل السنة ٣٠٠ يوم مقسومة الى ١٠ اشهر ثم اضاف خايثة نوما بيبايوس او ثيوفيلوس لها شهرين اخرين فجعلها ٣٦٠ يوماً وذلك في سنة ٧١٥ ق م وبعدك ظهر تالميس الميطي اول فلاسفة اليونان المولود سنة ٦٤٠ ق م وعلم بان السنة ٣٦٥ يوماً ورتب الفصول وحدد الشهور اخذاً عن المصريين ثم الماتولى سلطنة رومية بولايوس قيصر اصلى كذلك هذا التعلیم بجعل السنة ٣٦٥ يوماً و٦ ساعات ورتب نظير هذه الست ساعات التي ضمتها الى السنة يوماً بضم الى كل سنة رابعة سماها كيبسا ولا زال الحال جارياً على هذا المنوال الى ان قام البابا غريغور بوس المشار اليه واصلى الحساب اليولياني بتقويم المنسوب اليه والحالة هذه على ما تقدم (راجع الكلام على العلوم الطبيعية في كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف صميقة ٢٢٥)

(المغنطيس) وفي تلك الاثناء اعني في سنة ١٥٧٦ اكتشف رجل يقال

له روبرت نورمان حجر المغنطيس

(الصناعات) وكان في سنة ١٥٢٠ عمل الزناد للطبخت وفي سنة

١٥٦٣ عملت السكاكين والمضى من الحديد وكانت قبل ذلك تعمل من

الصوان والصدف وفي سنة ١٥٧٠ اصطنعت الطبخت المضاعفة وفي سنة

١٥٧٩ اصطنعت آلة تقسيم الموازين وفي سنة ١٥٩٠ اتقنت المراى وتلبست ورق

البنك الزينبي

القرن السابع عشر

يتميز هذا القرن أولاً باتمام معاهدة وستفاليا التي أبرمت في سنة ١٦٤٨ بانعقاد الصلح بين الكاثوليك والبروتستانت واعطاء الفرار بين الفريقين على ان كلاً منها يبقى على دينه في استتلاله وراحته وان يعيش احدهما مع الآخر على الحب والسلامة مع اختلاف مذاهبها ووضعت كذلك بين الدول النظمات والقوانين الجديدة في اصول الادارات الدولية المعبر عنها باصول الموازنة السياسية . ويعتبر المؤرخون هذه الاصول نهاية للقسم الاول وبداءة للقسم الثاني من القرون الاخيرة كما سبقت الاشارة الى ذلك في مقدمة هذا الكتاب ثانياً بعظم مقدار تقدم العلوم بين الافرنج فيه سواء كانت ذلك في الفهم والادراك او بدائرة الاختراع والذاكرة والتصوير لانه منذ استيقظت عقولهم وزاد انتباههم الى ذلك دلم على الطريق المستقيم التي يجب ان يتقنوها الفاضل العلامة فرنسيس باكون السيد فيرولم ابولون الانكليزي وخاصة في ما كتبه على شرف العلم وتقدمه ومن ثم لا ريب اذا قيل بان جزءاً عظيماً من التقدم الذي تقدمه الاوربيون في كل نوع من المعارف في هذا القرن ينسب الى اراء هذا العلامة ونصائحه ولا سيما الذين كتبوا في النضابا الفلسفية والطبيعية اذ ان اغلب الناس في الزمن السابق كانوا يظنون ان المعرفة البشرية تصل الى درجة كمال بمجرد درس افصح مولدات اللغة اليونانية واللاتينية وبمعرفة العلوم العقلية والنظرية فلما ظهر هذا الفيلسوف ذو الفكر الوقاد والجد والاجتهاد وكان مولعاً بتجدد العلوم الف مجبوعاً واشهره في سنة ١٦٣٠ اخبرته اراء مخالفات الفلسفة التي كان عليها المعول في ذلك العصر كل المخلاف وعاكس بها منطقي

المشائين مستنداً في دعاويهم الى التجارب المنزعة في قالب الاسلوب الفاسف
 اظهر بها طريقة الاستخراج وهي طريقة للكشف عن الحق لم تستعمل قبل عصره
 تستخرج بها حقائق عمومية من امورٍ خصوصية لم فيها شهادة الحواس او شهادة
 اخرى صادقة (راجع النصل السابع من المقالة الاولى والبحث الاول من القسم
 الاول من كتابنا المسمى بزبدة الصحائف في اصول المعارف صحيفة ٥١ و ٩٥)
 ومن ثم اخذت مهابة ارسطو ليس تتدنى في المدارس واكتسبت الفاسفة صورتها
 الحاضرة حيث عدل الناس بسطوته عن تلك الاراء وعرفوا انه يوجد غذاء
 اصلى منها لمقل الانسان الحكيم فوصلت بذلك العلوم التعليمية والطبيعية الى
 درجة عظي بين شعوب اوربا حتى ان الذين عاشوا قبل هذه المدة كانوا بالنسبة
 اليهم كانوا اطفال في العلوم

وكان الذي ابتدا بسلوك هذه الطريق غلابي الذي مر ذكره في ايطاليا
 وسنده في ذلك امراء النوسكانا ثم تبعه من الفرنسيين رينادي كارت
 وبطرس كاسندي وكثيرون غيرها ومن الدنماركيين تيغو براهي الذي تقدم
 ذكره ايضاً ومن الانكليز روبرت بويل واسحق نيوتون واخرون اقل شهرة منها
 ومن الالمانيين يوحنا كيار ويوحنا هيلباوس وكدفري وليم ليبنتز ومن
 الاسويجيين البرنولي ثم التصق بهؤلاء العلماء الذين هم من الرتبة الاولى اخرون
 كثيرون حتى انه لم تنبأ امة في اوربا الا وتفتخر ببعض علماء افاضل شيرين
 بالهندسة او بالفلسفة الطبيعية او بالعلوم الفلكية (ما عدا الذين لم يتدنى)
 وتهيئت رغبتهم اقتداء بامراء النوسكانا اعني العائلة الميديشية السابق ذكرها
 التي كانت حامية كل العلوم خلفاً عن سلف ولا سيما هذه الفروع وبالملكين
 العظميين اويس الرابع عشر ملك فرنسا وكرلس الثاني ملك الانكليز ايضاً
 اذ ان الاول انشأ في باريس والثاني في لندن جمعية مركبة من جماعة من
 العلماء المحققين الذين منحاهم من الكرامات ما يحفظهم من ازدياد البسطاء وبذلا
 لهم من الهبات ما يقيمهم من عوائق الضرورات وكان عمل هاتين الجمعيتين

مختصراً في البحث المدقق عن النواميس ونقوية العلوم التي تنقف العقل البشري في معرفة الحقائق وازدياد الرفاهية والراحة وكان من جملة ما نجم من فوائد هاتين المدرستين انه لما ازلت معرفة حقيقة التاريخ كثافة الظلام عن العنول بواسطة البحث والتنقيب المدقق فيها ظهر حينئذ للناس ايضاً بان المجادلات الدينية المتنوعة التي ازعمت العالم المسيحي في ما سلف لم تكن ناتجة الا عن اسباب واهية جداً نظير التباس بعض العبارات او من الجهل والخرافات والحسد والتفاخر والرغبة في التراس وحب الذات وهكذا الذين درسوا العلوم اليونانية والعبرائية وتعلموا لغات الشرقين واصطلاحاتهم القديمة اقبلوا كثيراً في دروسهم وانجملت لهم معاني آيات كثيرة من الكتاب المقدس

(الفلسفة) وكانت الفلسفة قد انقسمت في بداية هذا القرن الى قسمين ارسطويين اي اصحاب الفلسفة السكولاستيكية المار ذكرها وناربين او كيبويين وهم القائلون بالامتحان التحليلي واخذنا كلناهما في الخصام على التراس وتفسير بعض المولفات لكن تباين ارسطويون منها كراسي جميع المعلمين في المدارس الكلية والاعبيادية وكانوا ينفرون من جميع الذين يظنون بانه يجب اصلاح فلسفة ارسططاليس او رفضها ويحسبونهم خائنين وطنهم واعداً جهارين للجنس البشري واما الكيبويون الذين كانوا يزعمون ان لا سبيل الى المعرفة الحقيقية والمبادي الاصلية لجميع الاشياء الا بواسطة حل الاجسام في النار وتصورها جميعاً وجود افتران واتفاق بين الديانة والطبيعة واعقدوا ان الله يجري مقاصد في ملكة النعمة حسب الشرائع التي يجريها في ملكة الطبيعة ولهذا عبروا عن تعاليمهم الدينية بعبارات كيميوية فاعقدوا كآفة انه يوجد نوع من فعل الهى او نفس منتشرة في نظام الكون يسمى البعض اركيوس والبعض الروح العمومي واخرون غير ذلك ونكاهوا مخترافات عما يدعونه علامات الاشياء وعن قوة الكواكب وتسلطها على جميع المراد حتى الناس وعن السير الى غير ذلك

ثم لما ظهر كارته سيوس ويقال له ديكرت ايضا ففلسف بخلاف ما ذكر
 اذ انه رفض التعاليم التي كان اعتمد عليها قبالاً واخذ يبحث عن الافكار العامة
 او العقليات لكي يصل الى الحقيقة التي كان يطلبها وكان يستمد المساعدة من
 بعض مبادي بسيطة جداً يعرفها الناس طبعاً على الفور ومن ثم اخذ اولاً في
 ان يتصور تصورات بينة عن النفوس والاجساد والله والمادة والكون والفضاء
 وعن الاشياء الاصلية التي يتالف منها الكون ولما جمع افكاره هذه ولخصها في
 نظام علمي وجهها الى اصلاح الاجزاء من الفلسفة وتحسينها وتوطيد ما مجتمعاتها
 دائماً في ان يجعل ما ياتي مطابقاً لما سبق ويظهر انه صادر عنه على الفور وعندما
 طرح تأملاته هذه لدى الجمهور استحسن افكاره واعتقها جم غفير من الناس
 المحاذقين في اكثر اوروبا حيث كانوا قد ضبروا منذ زمان طويل من عجب
 المدارس وظلمتها ورغبوا كل الرغبة في ان يستحسن الطلبة هذه الفلسفة الديكرتية
 ويرفضوا فلسفة ارسطو ولذلك مدح اغلب مشاهير ذلك العصر اسلوبه في
 التفلسف بدون ان يخضع لمرشد او معلم ولا سيما بتقدمه مع الثاني الى الاشياء
 المعنوية الصعبة مع المحاذرة بحسب مقتضيه الطبيعة او العقل السليم من التسليم
 بشيء قبل ان ينظر فيه ويفهمه حتى انه لم يبق احد الا واعترف بان هذا الرجل
 اخترع اختراعات واوليات كثيرة لماعة وجزيلة الفائدة

ومن ثم انقسمت مالک اوروبا الى قسمين مشهورين من الفلاسفة يختلفان
 قليلاً في القضايا الاكثر نفعاً الى الحياة الانسانية وكثيراً في مبادي كل الحاجات
 المدنية او بالحري في اساسات كل المعارف البشرية فالقسم الاول تسمى بعدل
 الشيعة النظرية والقسم الاخر تسمى بالشيعة التعليمية ولم ترفض رضاء المدارس
 هذه التسمية والاول سالك في خطوات ديكرت والاخر فضل اسلوب رجل
 اخر يقال له كسندي اذ ان الاول اعتقد ان الحق يتوصل اليه بالاستدلال
 والثاني قال لا بل بالامتحان والملاحظة الاول قل اعتماده على الحواس واتكل
 بالاكتر على التذكر والفتن والثاني قل اعتماده على الاستدلال واتكل بالاكتر

على الحواس وملاحظة المواد بالفعل الاول استخلص من مبادي نظرية قليلة جريئة مستطيلة من العقائد التي اوضح بانها انفتح له بواسطة طريق للحصول على معرفة حقيقية عن الطبع الالهي والنفوس والاجساد والعالم بأسره والثاني لم يرفض المبادي النظرية غير انه انكر كفاءتها لاتمام نظام كامل من الفلسفة مستجيباً بان الاختبار المستطيل وملاحظة الامور باعتمادها والامتحان المكررهم غالباً احسن مساعده للحصول على المعرفة الراهنة المفيدة . الاول يرتفع الى الجوّ بكلّ جسارة ليستنح العلة الاولى والمصدر للحق وحقائق كل الاشياء واسبابها وعند ما يرجع بها اكتشف ينحدر الى ان يشرح به التغييرات الطبيعية ومقاصد الله وصفاته وسيرة الناس وواجباتهم وتركيب الكون ونسبته والثاني باشدّ جبانة وافر حياءً يلاحظ اولاً باصغاء كلي الاشياء التي يقع عليها النظر والتي كانت موضوعاً عند اقدام البشر ثم يصعد الى البحث في حقائق الاشياء واسبابها . الاول يفرض اشياء كثيرة مفهومة غاية الفهم فيستعد ان يتحول معرفته الى هيئة نظام مرتب ونظام والاخر يفرض اشياء كثيرة بعيدة عن الادراك ويعلم تابعيها ان يؤخروا كل حكم على قضايا لا تخصي الى ان يوضحها الزمان والاختبار بنوع اسطع وايقن واخيراً يفرض ان تركيب النظم الكاملة اما انه يفوق طاقة البشر واما انه يجب ان يترك لاهل القرون المستقبلية الذين يكونون قد تعلموا من الاختبار اكثر من اهل عصره وخلاصة الامر ان النظري يزعم بانها لا يعرف المعلومات الا بعد الحصول على معرفة العالل واما التعليمي فيرى بانها لا يدرك العلة الا بعد البحث في المعلومات . فهذا الاختلاف على المبادي الاولى لكل المعارف والعلوم البشرية احدث انشفاقاً عظيماً على النضاي الاكثراهية مثل صفات الله وحقيقة المادة وعناصر الاجساد وشرائع الحركة وكيفية السياسة الالهية والعناية وتركيب الكون وحقيقة النسبة المتبادلة بين الاجساد والانفس وكان قد كثرت في هذا القرن الكفرة مضاد واديان ايضاً ويقول الانكليز بانها من عهد كراوس الثاني الذي مر ذكره فسدت امثهم بافطع الفواحش

والرذائل فادت هذه التحالة الى الافراط الزائد في الآراء والجذال في الامور
الدينية وكثيرون اخذوا في محاربة الاديان وزعموا بانها يجب اتباع ديانة الطبيعة
والعقل فقط وكان فائد هذه الجمعية الكفرية بينهم رجل يقال له توما هبص
من مالمسبري موصوف بالحساسة والخداع اكثر من العلم والمعرفة ويزعم البعض
بانها قد تجاسر على انكار الخالق ايضا لكن يقال بانها اقلع اخيراً عن كفره في
زن شيخوخته ورفض ما كان نشره قبلاً من معتقداته . وكذلك يوحنا وامت
من روتشستر فانه قاوم الله والديانة اكثر من هبص المذكور لكنه ارتد اخيراً
بواسطة انذار كاهن برنت وتوفي نائباً ونادماً في سنة ١٦٨٠ م وانطوني اشلي
كوبرامير شفتسبري الذي مات بالسلف في سنة ١٧٠٣ كان من اكبر علماء
الدين ونظراً لاطلاوة عباراته وسحر بيانه قد طبعت مولفاته مراراً ويوحنا طلند
الابرلندي كتب ايضاً عدة نكات احقر بها الديانة المسيحية فاعتبرها كثيرون
من البسطاء

اما في فرانسافقام رجل يقال له يوايوس قبصر فاني في احرق جهاراً في
تولوس (اوهي تولوزة) في سنة ١٦٢٩ م لكونه انكر واجب الوجود غير ان البعض
بجامون عنه مدعين بانهم بذلك زوراً وحسداً ورجل اخر يقال له كسور
كبري الفاورتي في مات في باريس سنة ١٦١٥ اصر على كفره حتى ساعة الموت
وقال وهو في اخر نسمة من حياته انه يعتبر كل تعاليم الناس عن الله والارواح
ما هي الا خزعات باطلة

ثم قام في البورتغال بناد بكتوس سبه نوسا الذي مات في هاكوسنة ١٦٧٧
وهو يحسب اول جميع الذين في هذا القرن حاولوا خالق جميع الكائنات الى
مادة قيدتها شرائع الضرورة الازلية على ان هذا الرجل كان يهودياً وتنصر
وعاش عيشة مدوحة اكثر من كثيرين من المسيحيين وغيرهم الذين لم يشكوا
ولا ارتابوا في وجود واجب الوجود وما حق على الناس له ولم يجتهد في ان يفود
الي رالي الازدراء بالالوهية او الى الاداب الفاسدة لكن كتبه ولا سيما التي طبعت

بعد موته تظهر جلياً بان قصده كان البرهنة على ان جميع العالم بل والله سبحانه
 ايضاً شيء واحد وان كل ما يحدث يحدث من شرائع الطبيعة الازلية غير المتغيرة
 الواجبة الوجود الفعالة منذ الازل وعلى هذا يتج ان كل شخص هو الله جلّ وعلا
 ولا ريب بان الذي قاده لذلك هو الفلسفة الكارترسيانية التي مر ذكرها لكونه
 اتبع مبدأ جميع الفلاسفة وهو ان كل الاشياء الموجودة حقيقة اي كل الحقائق
 انما توجد في الله جلّ شأنه واذ حسب راي كارته سيوس رأياً سديداً لاريب
 فيه وهو وجود حقيقة بين هما الفكر والامتداد الواحدة تخص بالعقل والثانية
 بالمادة اقتضى له بالطبع والضرورة ان ينسب الى الله هاتين الحقيقتين اي
 الامتداد والفكر على الاطلاق ولذلك كان لا بد من ان ياتيس الباري سبحانه
 بالمادة كانتها شيء واحد والاعتقاد بانها لا يوجد الامادة حقيقة واحدة تصدر
 منها كل المواد الاخرى واليهما يرجع الجميع ويعترف احباء هذا الرجل بان
 نظام تعليمه لم يكن ذا براهين جلية وليس له طلاوة تسحر الالباب انما لما كان
 يدرك بنوع حسّي اكثر من ان يدرك بالعقل كان اعظم العقول في خطر من
 عدم فهمه وكان يحسب في الدرجة الاولى من تلامذته الذين يسعون بنا دكتيين
 لويس مير الطيب ولو كاس والامير بولشاير وغيرهم وقد اخنار تلاميذ هذا
 الاتساق لالي معلم لكون اسمه بناديكتوس بل الى التعليم الاصيل الذي
 يعتقدونه لان معناه كل شيء الله

وهنا لاريب اذا قيل بان الفلاسفة التعليمية التي مرت تفاصيلها قبلاً هي
 مدبونة كثيراً بتقدمها لرجال قد شغل ذكرهم ومنهم اسحق بارو وبوحنا والس
 وبوحنا لوك وروبرت بويل النبي الذي كان يجب ان يذكر اولاً لاشتهاره بولفاته
 العلمية السامية وكذلك لاهوتياتك البلاد من الذين يستنكف الفلاسفة ان
 ينهههم بفاومة اعالم اغنصايها لم يحسبوا صحيحة وغير مضرّة فقط بل نافعة
 جداً ايضاً لتنبه حاسيات الوقار لواجب الوجود جلّ ذكره وثقوبتها وتهضد
 الديانة وتحامي عنها مع المطابقة التامة لتعاليم الكتب المقدسة ولهذا كل الذين

فقدوا جهاراً اعداء الله والديانة في الخطابات البولية نزلوا الى ساحة المناظرة
لابسي دروع هذه الفلسفة وشاكي اسلمتها ولكن لم يساعدهما قط احد باجتها
وحذافته ونجح في تنوينها مثل اسحق نيوتون وسوف يأتي ذكره في محله وهو انسان
في غاية السمو والوقار حتى وفي نظر اخصائه فضلاً عن غيرهم لكونه صرف كل
حياته الطويلة في تثقيف هذه الفلسفة واصلاحها ونوسيعها وتوضيحها بالامتحانات
والحسابات ايضاً ونجح نجاحاً غريباً حتى كانه حولها بيده من الفضة الى الذهب
الصافي ويقول الانكليز بانهم عارفون فضل هذه الفلسفة وقيمتها السامية من
حقيقة واحدة وهي ان جميع الذين انكفوا على درسها تركوا لمن بعدهم اثراً
حسنة للطهارة والتقوى الراهنة مع ان كثيرين من الفلاسفة النظريين كانوا
بميد بن عن الله سبحانه وعن عبادته ومعاني اعظم النفاق وناشري اشر الفجور

استدراجات مدنية

(فرانسا) وكان في سنة ١٦١٠ تولى تخت المملكة الفرنسية الملك
لويس الثالث عشر واستوزر كاردينا الأشهراً يقال له ريشليو فاعان هذا الوزير
العلوم والفنون واسس الاكاديمية الفرنسية ابي جميع العلماء وانشأ بستان
النباتات في باريس ورسم مدينة سوربونة واحداث كيسة اعدّها لدفنه واسس
السراية الكردينالية التي سميت اخيراً بالسراية الملوكية حيث اوصى الملك فيها
بعد وفاته وفي زمن الملك المشار اليه وضع التمثال على القنطرة الجديدة تعظيماً
لهنري الرابع واحداث القديس وانصان بطرس المرستان لبنات الصدقة
ثم في زمن الملك لويس الرابع عشر الذي تولى المملكة في سنة ١٦٤٣
احداث القديس المذكور المرستان المعدل الى اللقطا وكان موجوداً وقتئذ مهندس
يسمى دويان لم يكن له نظير في المهندسين فشيّد لهذا الملك الحصون والقلاع

التي شحنت بها ثغور فرنسا جهة الشرق والغرب وكان للملك المشار اليه وزير يقال له لوواس بن بوطيلة فرتب في فرنسا الجيوش المهابة التي ارهبت ممالك اوروبا واحداث لما مخازن المآكل والملبوسات والمهمات الحربية وصنع المدافع العظيمة التي شحنت بها جميع اسوار المملكة وفي هذا الوقت بُنيت سرابية ورسالية النفيسة وغيرها من العارات والاثار العظيمة التي تزيد في رونق فرنسا الآن ومن اهمها مرستان المتقاعد بن فانه ماوى مفتوح لكل من يذل روحه في حب وطنه اذا طعن في السن ولحفة الهرم ومنها خليج انغدوق الذي يجمع بين المحيط الغربي والمحيط الابيض وفتحته فتمت طريق جديدة للتجارة ولما كان هذا الملك مشرعاً صدرت عنه احكام عظيمة في المعاملات الشرعية والجنائيات والتجارات والقوانين البحرية العسكرية وفي شان الاسترقاق فاتبعها اغلب ممالك اوروبا لما فيها من الحكمة والعدالة واحداث ابضاً عدة ترتيبات في توسيع التجارة فرتب قوافل ممالك الهند الشرقية والغربية وزاد في قبائل فرنسا واعطى الحرية لمينا مرسيابا ومينادونكيرك بحيث يتيسر فيها التجارة لجميع الناس وانشأ في المملكة عدة معامل مهمة من ذلك دواليب غزل القطن التي استعملت في بلاد الانكاز منذ القرن الماضي ومعامل نسج البسط الرفيعة التي حدثت في فرنسا سنة ١٦٦٧ وساعد على تقدم الصنائع كالدهن والنقش وغيره واعان في تقدم العلوم والفنون والاداب ورتب لذلك جمعية علماء يتباحثون في كل فرع من فروعها فظهر في عصره عدة مؤلفات نفيسة ومصنفات غريبة وقد جمع الكردينال موري اساء مشاهير العلماء العظام الذين كانوا في هذا العصر بمقدمة الملك المذكور فقال ان منهم قواد جيوش البحرية الامير تورين وكوندو واوكسنبورغ وكاتينا وايكريكي ووفابرس ومونتسكيو ووندوم ووليارس ومنهم قواد عساكر البحرية شاتورينو ودوكسته وتورويلا ودوغطروان ومنهم ارباب مشورتهم الوزر كولبير واوواس ونورسي ومنهم وعاظه ورشده الى ما فيه صلاحه وهم بوسو وبوردالو وميسيلبون وكان رئيس ديوانه الاول المسى

دوبان السننت هر مولة ولمونيون وكان اربابہ طالبون واغاصو وكان المهندس
دوبان بشيد له القلاع والمهندس ريكة مجنرلة الخنجان والمهندس بيرولط
ومنصار بينيان له القصور وكان بوجه وجيراردون ولوبوسان واوسبور واوبرون
بزخرفون له تلك القصور وبزبنونها وكان لونوتر برسم له البساتين وكان له
من الادباء كورنيليه ورسين وموليير وكينون ولاقوتين ولابرويهير وبوالوفكانوا
هم الذين بضيقون عقلة بانوار الملح الادبية . وكان الذين يباشرون تربية
اولاده مونتريه وبوسوه وبولابرس وفنيلون وهو ويط وفياليشية وابفالوري فكان
هذا الملك في اعلى درجات الفخر وعلو الشأن بهذا الموكب العظيم من رجال
عظام عرف ما ياتي بكل منهم من الوظائف فاقامة فيه ولاكثرهم من الشهرة
العلمية والادبية ما يتضح مما يأتي

قال صاحب اقوم المسالك ما ملخصه ان بوردالو وماسيليون قد اظهرا
فصاحة لم تكن لاحد قبلها من خطباء الديانة المسيحية وبوسوه هو رجل عريف
الحسب والنسب مولود في مدينة ديجون وتوفي في باريس سنة ١٧٠٤ وله
مولفات عظيمة بالغ فيها في حسن التماين (يعني الفطانة ودقة النظر في الامور)
وفي خطبته على التاريخ العام السائرة مسير المثل عند اهالي اوروبا درجة لم
يبانها احد بعده وبوالويين قواعد الشعر ولابروار معدود من السابقين في
علم التهذيب وفنلون كان ادبياً شهيراً واذ كان لم يبلغ من العمر ١٩ سنة صار
من الخطابة والوعظ بمكان عظيم وشهد له الناس بالفضل حيث استمال
قلوبهم بحسن فصاحته وديع بلاغته وله تاليف عظيمة في الفلسفة وفوق
الطبيعيات وهو صاحب التاليف المشهور المنسي تلامك الجامع لاسباب التهذيب
البشري (وقد سبق الكلام عليه في ما تقدم بمجاعة خرافات اليونانيين في الذين
يعتقدونهم انصاف آلهة توفي فنلون سنة ١٧١٥) اما كورنيليه ورسين فكانا
لابقاسان في التراجميديا (وهي محاكاة الحروب والوقائع) الا بشاهير اليونان
وكذلك مولير في الكوميديات (وهي محاكاة امور في قالب الهزل) ومثاله

لاقتوتين في الامثال وهذان الاخيران قد تقدمنا من كان قبهما (و ذكر ايضاً رجالاً آخرين لم يذكرنا بحجة من ذكر قبلاً) كباسكال الشهير بفن الحساب والطبيعات والانشا والف كتاباً ساه بها ترجمته مكاتيب اهل الفري وهو من اشهر ما ألف في الارسال تعرض فيه للقدح في سيرة الرهبان اليسوعيين الذين كانوا يدافعون عن السياسة الباباوية. وديكارث المعدود في الطبقة الاولى من مختري العلوم الرياضية وانقان التصرف في علم الفاسفة وهو من اشهر العلماء الذين هذبوا اخلاق البشر (راجع الفاسفة في الكلام على امتيازات هذا القرن)

(روسيا) اما روسيا فكان قد اعترها تغييرات وانقلابات منعت من اصلاح حالها وتهذيب اخلاقها وادخال العلوم والفنون فيها منذ قتل ديمتريوس اخر الملوك الروميقية في سنة ١٥٩٧ الى ان تولى الممكة القيصر بطرس الاكبر في سنة ١٦٨٢ وهو من العائلة الرومانية التي ظهر منها اخيراً انها ترغب في تهذيب اخلاق الدولة وتدبها على انه كان في خلال هذه المدة اجتهد البعض من ملوك هذه العائلة في ادخال اصلاحات كثيرة لكنهم لم تات بطائل فان الكسيس والد بطرس الاكبر المشار اليه كان منذ تولى الممكة في سنة ١٦٤٥ وضع دستوراً للمقوانين والشرائع الا انه غير واف في جميع الاحكام وادخل في مملكه صنائع الاقشة والحريير لكنهم لم تمكث زماناً طويلاً وجعل الاسرى الذين اسرهم من قبائل لسيانية ولاهية وتبارية لزراعة الاراضي لان العادة كانت في ذلك الزمان ان الاسارى يكونون ارقاءً لمن وقعوا في اسره وبذل جهوداً في ادخال التربية العسكرية في جيوشه وفي تعليم الاهالي الفنون والصنائع وجلب معلمين وعمارة من بلاد الفلنك متدربين على صناعة السفن قاصداً ان يعمل اساطيل في الانهر الكبيرة التي تصب في بحر الخزر والبحر الاسود لكن لم يكن في عمره فسيحة كافية لتتيم مشروعاته بل توفي في سنة ١٦٧٧ وهو

اختل نظام هذه الاشياء

وكذلك لما تولى عوضه ابنه فيودور (ثيودورس) شرع في ترميم مدينة
موسكا وحسن ترتيبها فبنى فيها عدة بيوت عظيمة بالا حجار لكنهما لم تكن منتظمة
البنيان ورغب اكابر ديوانه في البناء واقترضهم ما يلزم لذلك من الاموال
واعطاهم ايضاً المهات اللازمة وهو اول من اهتم باانشاء اصطبلات للخيول
الجواد وبعض تحسينات نافعة وبعض قوانين تتعلق بالضبط والربط والسياسة
العمومية غير ان مثل هذه المساعي الهينة لم تكن ذات تاثير في تقدم بلاد مثل
بلاد روسيا انما المعول عليها بالاجماع هو ان هذه المملكة لم تخرج من مجور الجهالة
الى سواحل الانوار حقيقة الا منذ تولى عليها الامبراطور بطرس الاكبر المقدم
ذكرة لانه عرف كيف يمدتها ولذلك قد دعي بحق اب سلطنة روسيا واحد
العقول في العالم اما اعماله العظيمة ومشروعاته الجسيمة فلا يسع هذا المؤلف
تفاصيلها بالتام وانما ملخصها هو انه اول ملك مسكوبي ارسلت في ايامه سفراء
الى بلاد فرانسابل الى سنة ٦٨٧ م التي فيها ارسل الامير بازيل غالتزين
الذي كان رئيس عساكر الدولة ومديرها وامين الختام هذه الارسالية لم يكن
وقع تعارف بين دولة فرانسابل ودولة روسيا فاشهرت جمعية الاثار القديمة بالديار
الفرنساوية تلك الارساليات حين قدمها بنيشان فخار على صورة النقود مكافاة
لها وكان الامبراطور بطرس المشار اليه متوسط القامة عليه سمة الاكابر يمشي
الخيلاوي نشاط وفتانة مهاباً ذا حاسة في كلامه وفصاحة منطق وخطابة بين
جنده واهل مشورته فكان ساطعاً وخطيباً معاً وهاتان الصفتان صيرتاه مهاباً
في بلاده وكان لا يجب الزينة والزخرفة في اموره ولا في ديوانه ويشغل كثيراً
ويشرع في مهات عظيمة ومفاصد جسيمة لا يكمل عزمه ولا تمل هنته بحسب زمانه
بالدقيقة ولا يضيع وقتاً من الاوقات الا في اشغاله لا تنزعه المشاق ولا تزعبه
الاخطار وكان مع حسن شكله حاد البصر صحيح المزاج قوي البنية وموصوفاً
باصابة الراي التي بواسطتها يكون الانسان متجراً في جميع المعارف الحقيقية

وكانت فكرته دائماً شغالة ويختار الوسائط الغربية السريعة التوصل الى المطلوب ليظفر به مثلاً اذا اراد احداث شيء مثل تعليم العساكر على طريقة الافرنج برأ او حجراً ابتدا التعليم بنفسه ودخل في ادنى المراتب ولما امر باقامة جماعة لاثانة الحريق واطفاء النيران التي كانت متواثرة في بلاد المسكوب كان يذهب هو ذاته بعض الاحيان معهم للاطفاء ويباشر وسائط ذلك بيده واذا اضطر الى السفر في بعض اقاليم ملكته سافر حالاً من غير اتباع واسرع في سفره ولو كانت المسافة بعيدة وكان من صغرسه مصاباً بداء النفور من الماء وبغض البحر حتى كان يتصبب عرقاً بارداً ويعتريه من شدة الفزع تشنج الاعصاب حين يركب نهراً فمالح هذا الداء بقذفه نفسه في الماء الى ان صار من عظماء الملاحين ومهرة التجارة ببلاد الشمال وركوب البحر احب الاشياء اليه ولكنه كان مطيعاً لكثير من شمواته التي اعناد عليها في صغره فكان اذا ابغض املك وانتقم واتبع حظوظ نفسه وكان كثير السكر فهدم ذلك ببنته وهج دمه واعتراه شدة الغضب والحمية حتى انه كان اذا غضب لا يعرف احداً غير زوجته الثانية وهي الامبراطورة كاترينا الاولى فهي التي كانت تسكن غضبه وتدعوه الى المروءة والفضيلة فاذا افاق استبى من هذا الغضب الجبري ويصبح متأسفاً نادماً على افعاله قائلاً اني اقدر ان اصالح امة بتامها ولا اقدر على اصلاح نفسي وكان تزوج بامرأته المذكورة بعد ان طلق زوجته الاولى المسماة اودكسياثودورة بنت ميرالاي يقال له لابوشين في شهر حزيران سنة ٦٨٩م لكونها كانت غير موافقة الى مشربه وتعارضه في كثير من مشروعاته والزمها ان تترهب في دير وابدل اسمها بهيلانة وكان له منها ولد يسمى الكسيس امراً ايضاً بنته بسبب انه تعدي او امره وجاوز حدود القوانين مع انه لم يكن له وارث سواء وقد انتهى امر هذا القيصر ان صار اعلم اهل مملكته فتعلم عدة لغات وبرع في العلوم الرياضية والجغرافية وربما تعلم شيئاً في الجراحة والعلاج بنفسه وكانت امة المسكوب قبل سلطنته من اصحاب الخشونة والجهل فقلبها الى حالة التمدن والمعارف بواسطة مجاذفة

عقله وجسارته وشدة ميله الى الامور الغربية حتى انه لم يكتفِ برسالة ٦٠ نفرًا
 بعثهم الى مملكة ايطاليا لتعليم العلوم البحرية وانشاء السفن في مدينة البندقية
 ومدينة ليغورنا و ٤ اخريين الى بلاد الفلمنك ليتعلم بعضهم معاملها واشغالها
 والبعض الاخر التعليمات العسكرية في السفن الكبيرة الحربية وطائفة ثالثة ايضاً
 الى بلاد النمسا لتعلم حركات الجيوش البرية ويتربوا على التعليمات العسكرية
 النسائية وكان اتخيمهم جميعاً من ٥ الابات عساكر نظامية جديدة ابتداءً في تعليمها
 واعدتها لابطال عساكر الاسترليج الذي كان اشبه في عساكر اليكجيرية في بلاد
 الدولة العلية العثمانية وجعلها تحت ادارة رجل يقال لوفورت من اهل ايطاليا
 كان استامته هذا الفيصر لجودة عقله ووفرة ذكائه بل نزل هو نفسه عن كرسيه
 وذهب الى البلاد الغربية يشتغل في معاملها مثل احاد الشغاليين المستاجرين
 متخفياً حتى لا يعرفه احد ولا يتميز من الصناعات لاجل ان يتعلم مبادي العلوم
 والفنون والصنائع ويدخلها الى بلاده فذهب الى مملكة الدانمارك واقليم
 برندبرغ وبلاد الفلمنك ومدينة ويانه ومدينة البندقية ومدينة رومية ولم يعزم
 على الذهاب الى اسبانيا لان ما كان يطلبه اذ ذاك من الفنون كان مهلاً فيها
 ولا الى فرانس لان الفنون التي كانت بها وتنفذ كانت مؤسسة على الاتساع
 والزينة وكان ساوك ملكها لويس الرابع عشر منافياً الى ساوكه وكان بينه وبينه
 منافاة حيث انه لم يقم بمقوق السفارة التي كان ارسلها اليه الحجار المذكور في سنة
 ١٦٨٧ م على ما تقدم كما ينبغي.

ثم بعد ان سافر من بلاده في سنة ١٦٩٨ م دخل الى بلاد الفلمنك ولما
 وصل الى امستردام سكن في بيت صغير اتخذ لنفسه في الترسانة (وهي المحل
 الذي يبنون فيه المراكب على شاطي البحر) وسلك في معيشته مسلك الشغاليين
 واصلح بنفسه صاري مركب مكسور واشتغل معهم في ورش الحديد والحبال
 والطواحين الكثيرة التي كانت محيطة بقريته سردام وهي معدة لنشر الاخشاب
 واعصر الزيت وصناعة الورق وعمل السلوك من المعادن المتطرفة ونقيد في

دفتر الترسانه مع جملة الشغاله مسمياً ذاته بطرس ميخائيل وكانوا يدعونته
بالاوسته بطرس وتعلم عدة فنون في قرية سردام المذكورة كالاستحكامات
والملاحة ورسم المناظر وتخطيط البلاد وكان يدخل دكاكين الشغالين ويتبعث
في جميع المعامل والورش من غير ان يفوته شيء ثم تعلم فن التشریح في امستردام
وعمل بها عمليات جراحية متعلماً الى رجل يقال له رويش وكان من مشاهير
علماء هذا الفن وكان يتعلم الجغرافيا وعلم الطبيعة والموايد الثلاثة في منزل
برغستروستان وهو رجل مشهور بين الامهالي ثم ذهب الى بلاد الانكليز قاصداً
روية غليوم ملكها بعمة لوفورت المار ذكره وكان ارساله اليه سفيراً فشاهد
بطرس كيفية دخول السفراء الى الديوان ورسوم تلقيهم وما يصنع لهم من
الشريفات والاحترافات وكيفية معاملة الملك اياهم ورجع الى امستردام وعاد
الى ما كان عليه من الاشغال وتم سفينة ذات 7٠ مدفعاً وكان اتقن في انكلترة
فن مد السفن لانهم كانوا يعدونها على مقتضى القياسات الهندسية وشرع هناك
في مد سفينة على منوال سفن الانكليز فجاءت من اعظم السفن السريعة السير
وتعلم قواعد صناعة الساعات واصولها لانها كانت قد تكاملت بمدينة لوندرة
ولم يترك شيئاً من الصنائع البحرية عظيمها وحقيرها من سبك المدافع الى قتل
الجمال الا باشره بيده وكان في اثناء اشتغاله في امستردام يدخل في خدمته
الهاريين من الفرنسيين والسويسية والنسايوية وارسل الى موسكو قسبة ملكته
كثيراً من ارباب الصنائع المختلفة الذين كان يعاين شغلهم بنفسه وقلما فاتته
شيء من دقائق الصنائع والحرف الا تجر فيه وكان يشتغل بجميع الاشياء لاسيما
اصلاح خارطات علماء الجغرافية الذين كانوا يرسمون اوضاع مدن دولتي
وانهارها بمجرد الحدس والتخمين لانهم لم تكن معروفة لهم وقتئذ حتى المرفة
وادخل كذلك في خدمته ارباب صنائع وحرف من بلاد الانكليز وخاصة
ارباب العلوم الرياضية ومنهم المهندس الماهر فرغسون الايقوسي الذي رتب
العمليات الحسابية ودواوين المالية في بلاد روسيا وكانوا قبل ذلك لا يعرفون

في هذا المعنى الأ طريقة التتار وهي العدّ محبوب مستندة ينظّمونها في سلك من
النجاس وهي وإن كانت تعدّ مسدّ الكتابة إلا أنها تشوش الذهن وتوقع في
الحيرة وربما نظرق إليها الخطا لان بعد العدّ بها لا يمكن للانسان ان يعلم هل
اخطأ في عدّه ام لا وكان الفرنسيون تعلموا من العرب الرقوم الهندية في القرن
الناشر واما دولة روسيا فلم تتعلمها إلا بعد نحو ٨٠٠ سنة . وكان بطرس الأكبر
يرصد الكواكب ويحسب كسوف الشمس والقمر مع فرغسون الذي مر ذكره
ويعرف حتى المعرفة حركات الاجرام السماوية وقوانين تناقلها وتجاذبها وسيرها
واحدث رسدا عظيما للعلوم الفلكية بعد رجوعه الى بلاده وقد كانت هذه
القوانين والنواميس التي بها تقتارب النجوم السيارة وتنجذب وتبقى على تناسبها
في افلاكها مجهولة قبل ظهور المعلم نيوتون الآتي ذكره فاخرجت من حيز
الجهالة والخفاء الى حيز الظهور واليقين الأ وصارت من المؤلفات لهذا القيصر
مع ان البعض ممن يدعي العلم في وطن غاليلي كان لازال يامر العامة
باعتماد ان الارض ثابتة . ولما كانت في بلاد الانكليز دفع له بعض تجارها
١٥ الف ايرا استراين ليعطى لهم رخصة بيع الدخان في بلاده فرخص لهم
في ذلك مع ان الاكليروس الروسي كان يحرم ادخاله ولما اراد الرجوع منها
الى امستردام اهدى له غلابوم ملك الانكليز هدية تليق بمقام المهدي والمهدي
اليه وهي سفينة ذات ٢٥ مدفعا من اعظم السيارات البحرية فجميع اهل هذه
السفينة عرضوا للملك ان ياذن لهم في الذهاب الى بلاد المسكوب وكانت هذه
السفينة محكمة الصناعة طريقة الشكل فركبها القيصر وعاد الى بلاد الفلمنك
في شهر ايار سنة ١٦٩٨ م واخذ معه ٢ من قباطين السفن الحربية و ٢٥ من
روساء السفن و ٤ ضابطا من الملازمين و ٢٠ جراحا و ٢٥ من الطوبجية
واكثر من ٢٠٠ نفر من ارباب الحرف والصنائع وكان في مدة اقامته بهذه
البلاد ونقله العاوم والفنون منها الى بلاده دخل في خدمته كثير من ارباب
الصنائع من مدينة رومية ومملكة ايطاليا بواسطة الضباط الذين كان ارسلهم

الى تلك الجهة فجميع هؤلاء الرجال الماهرين في صنائعهم بعد ان وصلوا الى بلاد روسيا توزعوا الى محال ازوجهم ثم سار الفيصر الى بلاد النمسا ووصل الى مدينة ويانته مع من بقي من اتباعه وكان مراده مشاهدة ما عند النمساوية من الضبط والربط العسكريين لانه كما كان غرضه من الاسفار تعلم العلوم والفنون كان مراده ايضا معرفة الامور السياسية وتقابل مع ليوبولد وامبراطور النمسا لابي الملوك بل كالاحاد فشادنا فاشميين اجنابا للتكليف وبمدة اقامته هناك لم يشاهد بها من الامور الغربية والاعاب العجيبة الا الموسم المسمى موسم المضيف والمضيضة اي صاحب المنزل وصاحبة المنزل وهو موسم قديم يقع عندهم من نوع التياترو الا انه لم يقع في ايام ليوبولد وفجده تعظيما لبطرس

وبينا كان هذا الفيصر متاهبا للسفر الى بلاد البندقية ليتم التعلم واذ بلغه وقوع فتنة في بلاده اضطربت منها مالهكة كان السبب فيها بعض امراء البلاد الطاعنين في السن الذين كانوا لا يميلون الا الى العوائد القديمة وبعض القسوس الذين كانوا يعدون العوائد الجديدة من قبيل الكفر والاحاد فهاجت بذلك عساكر الاسترليج الذين كانوا منتشرين في بعض الاقاليم متعصبين لاختيار الاميرة صوفيا وقصدوا مدينة موسكا بقصد اجلاسها على كرسي المملكة ومنع بطرس من الرجوع الى بلاده حيث نجاسر على تلك حرمة العوائد القديمة بذهابه الى البلاد الاجنبية ليتعلم علومها فسافر حينئذ الفيصر سرا من ويانته في شهر ايلول سنة ١٦٩٨ م ودخل مدينة موسكا وكانت عساكره الجديدة التي سبقت الاشارة اليها قد طردت قبل دخوله اليها عساكر الاسترليج الهاجمة عليها وهزمتها بعيدا عنها بنحو ١٥ فرسخا فتعجب جميع اهلهما من وجوده بين اظهروهم وكانوا العساكر الذين كانت لهم النصرة على الاسترليج وعاقب هؤلاء العصاة بقدر جسامته ذنوبهم عقابا مهولا واقام اعمدة من الحجر بقرب الدبر الذي كانت مقيمة فيه الاميرة صوفيا ونش عليها جناباتهم وعقوباتهم وبدد شمل من كان معهم بمدينة موسكا من اولادهم ونسائهم فانتشروا ببلاد سيبيريا ومملكة

ازدهان وازاق وترتب على معاقبتهم وتفهم لتلك الجهات ارتفاع الدواة
بتعمير الاراضي الخالية من الادل والعران وبعد ان دمر هذا الوجاق رتب
الايات العساكر المنتظمة شبيبة في الهيئة بالعساكر النسائية حيث البسهم جميعاً
ملايس قصيرة على نسق واحد بدلاً عن الملايس الطويلة التي كانوا يلبسونها
قبل ذلك ورتب لهم طرق تعليم الحركات العسكرية وجعلها في غاية الاحكام
والانتظام وادخل فيها اولاد امراء دولته وحكمداريتها واخذ بعد ذلك في تنظيم
المشورة الملكية والخزائن المالية وتحرير القوانين الدينية وشرع في ما يكون به
نظام الاهالي وبكسبهم التمدن والتأنس والتربية وشوهدت اول مرة السفن
المسكوية بالبحر الاسود وبحر بلطقي والمحيط ونظرت ابنية مرتفعة عظيمة
الترتيب شيدت بين الاختصاص المسكوية قد ترتب فيها مدارس ومجامع علماء
وطابع وخزانات كتب وبستاناً جامعاً مشتملاً على جميع النباتات للدراسة عليها
وصارت المدن متقدمة وحسنة وتغيرت الملايس والعوائد على التدرج وان كان
ذلك بصعوبة وعرف المسكويون مع التقدم حثيثة التأنس وبطلت الاوامم
الفاصلة ثم تقلد بنفسه رئاسة الدين وابطل الرتبة البطريركية مع انه لو فعل
ذلك غير هذا الملك من كان اقل تصرفاً منه لكان يخشى عليه لان البطاركة
كانوا ينازعون بعض الاحيان الحكومة ويريدون ان يكون بايديهم ما هو
مختص بالتاج الملوكي من الكل والربط وكان الاساقفة يزعمون ان لهم حق
السيف اعني حق الحكم في الحدود والجنابيات فمنهم هذا الفيصري في اخر القرن
السابع عشر منذ توفي البطريرك ادريانوس وابطل هذا المنصب اية رتبة
البطريركية على ما ذكرنا وضبط عائلاته لجاناب الميري ورتب مجعماً من الاساقفة
لاجل اجراء ما رتبة من القوانين الاكبروسية واملاها عليهم وامر انه من الآن
فصاعداً لا يدخل احد ديراً لاجل التهرب الا اذا بلغ عمره ٥٠ سنة ثم عدل
عن ذلك الى سن ٢٠ سنة وان لا يقبل في الدبورة من كان مستخدماً في الخدم
الميرية ولو بلغ من العمر ما بلغ وان كل راهب يجب ان يباشر بنفسه عملاً من

الاعمال الصناعية وان الراميات لايسوغ لهن الخروج من الديورة اصلاً ولا يترهبن الا في سن ٥٠ سنة واذا طبن الزواج قبل ذلك اجبن اليه وامرهن ان يشتخان جميعاً باشغال يدية تناسبهن والتزمت زوجته كاترينا ان تحضر لهن من بلاد الفلمنك نساء صناعية لاجل تعليمهن ولما حضرن وزعنهن على تلك الديورة وبعد ذلك بقليل تزينت هذه الفيصرة المشار اليها وغيرها من خواتين داعرتها باشياء ما صنع في تلك الديورة وكان من جملة ما ترتب ايضاً ان اقوياهن يتعين لخدمة البساتين ولخدمة المرضى من النساء والبنات اللاتي يوتى بهن الى الديورة من المحلات المجاورة لما كان العساكر السقط يرزعون على الاديار ويعين لهم من الرهبان من يتعهدهم ويقوم بخد منهم وان الاقويا من الرهبان يزرعون اراضي الديورة ثم عين عدة من ديورة الرهبان والراهبات لدخول الايتام وتربيتهم فيها ومنع ايضاً ان يشرك احد من الخوارنة اكثر من واحد من اولاده في خدمة الكنيسة خوفاً من ان كثرة عائلته تتجفف باهل عائلته ما لم يطلب ذلك اهل الخلفة انفسهم لكن في بعض النشرات المطبوعة في سنة ١٨٦٩ ذكر بان هذا الجار جعل الكهنوت وراثته حتى صار كل اولاد الخوارنة خوارنة وبهذه الوساطة كثر عدد الكهنة حتى صار اعظم اشغال الاساقفة الاعتياد باحتياجات اجواق الاكليسوس وصارت اوقاف الكنائس متجهة الى اعادة عيالهم ولهذا السبب لم يعد يدخل في زمرة القسوس احد من ارباب العلياء الا نادراً فلذلك امر الحكم في هذه السنة اي ١٨٦٩ المذكورة بابطال وراثته ووظيفة الكهنوت من الاب الى الابن وان لا يرثم خوري الا بعد بلوغه سن ٢٠ وبهذه الوساطة قل عدد الاكليسوس وزادت معاشاتهم

وكان الفيصر المذكور قد رتب لطخة الاكليسوس اموراً نافعة اكثر مما سلبه منها جعلها بواسطة ذلك الترتيب على غاية من الانتظام والمهارة والمعارف حيث انشأ في مدينة موسكا ٣ مدارس لتعليم اللغات والزم كل من كان معداً للقسوسية ان يتعلم فيها وامران يتعلم في الديورة الباقية ايضاً الفاسفة وعلم

اللاهوت^(١) وإنما رخص اروساء السفن والجيش بترك الصيامات
 وكان لكمال عتاء وجوده قريبيو قد تباعد عن اوهام اهل بلاده وبدعهم
 واخلاقهم واحكامهم اذ انه بعد ان كان لا يوجد في اقطار مملكته الواسعة التي
 كان يبلغ امتدادها في عصره نحو ٢٠٠٠ فرسخ كنيسة لاتينية اباح التعمد في
 بلاده بالمذهب اللاتيني والبروتستانتى وسح لكل انسان ان يعبد الله عز
 وجل على ما تطهت اليه نفسه ويخارهُ لما من تلك المذاهب بشرط ان يؤدي
 ما يجب عليه للدولة حتى التادية لكن لما اراد الرهبان اليسوعيون الماخلة في
 دولته صدرت اوامره بطردهم من بلاده في سنة ١٧١٨ بعد ان كانوا استوطنوا
 فيها من سنة ١٦٨٥ م

(انكثرة) اما انكثرة فانهما كانت في هذا القرن ذات يدٍ طولى في
 العلوم الرياضية والحكمة والكلامية وافتخرت بسمو درجة علماءها ولا سيما فلاسفتها
 العظام الذين منهم فرنسيسكو باكوس السيد فيرولم ابواون الذي اسس
 الفلسفة الجديدة ورفع منارها بما وضعه لها من القواعد الراسخة الصحيحة على ما
 سبقت الاشارة اليه عند الكلام على امتيازات هذا القرن في ما تقدم . فليراجع .
 قال العلامة خير الدين باشا التونسي في كتابه المسمى باقوم المسالك قد صححت
 تسمية تاليف هذا الفيلسوف بحالة العلوم الجديدة حيث ان فن الطبيعيات
 قد صار بما اخترعه من القواعد كما ينبغي ان يكون

ومنهم المعلم اسحق نيوطون المعاند القوي للفلسفة الكاريسمانية على ما سبقت
 الاشارة اليه في الكلام على الافاضل الذين قدموا الفلسفة التعليمية في هذا القرن
 وقاوموا الكفار الذين ظهوروا فيه ولد هذا الفيلسوف في انكثرة سنة ١٦٤٢

(١) يقول بعض الكتبة في ايامنا هذه ان اكثر الترنيمات المختصة بالديورة لم تستمر
 بل نُسخت بعد القيصر بطرس الاكبر المشار اليه وانما بقي منها ابطال رتبة البطريركية واستيلاء
 الدولة على ايراداتها

ورغب في الفلسفة وبرع فيها وألف تاليفاً كبيراً اشتهر به اشتهاراً انسي ذكر من
 تقدمه اذ انه احدث في الفلسفة تغييراً غريباً وبرهن على انه يجب الترفي الى
 معرفة العلل من المعلولات والمنعولات الطبيعية وانه لا يجوز للقياسوف على وجه
 الاطلاق ان يعين العلة ما لم يقدر ان يبرهن عن حقيقتها اما بالبرهان العقلي
 واما بالاخبار الحسي ومن ثم سقطت تخيلات كارته سيوس المذكور بالكلية اذ
 قبل ذلك جميع العلماء الافاضل كما قبلوا تعاليم فرنسيسكو باكوس المقدم
 ذكره ولهذا الفيلسوف اترجيل سوف يذكر في الكلام على الاكتشافات العلمية
 واشتهر كذلك من الذين برعوا في علم الفلك والهيئة بينهم المعلم هالي
 الذي شرح خواص الهوا واسرار مدا البحر وجزره واسرار المغناطيس وحركات
 النجوم ذوات الاذئاب وارتكب المشاق والاختطار في طلب العلم من نواح
 الاقطار حتى بلغ جزيرة سانتة اليه في البحر المحيط ورسم على صخورها خريطة
 نجم القسم الجنوبي من الهيئة وبذلك ارتفع شان رصد غرينتش في انكثرة
 ومنهم فلامستيد الذي بين ملاحظات عديدة في علم الفلك تلقاها اربابه
 بالقبول

ومن برعوا كذلك في الطب وابقوا لهم ذكراً جليلاً بما اكتشفوه من الاثار
 الجسدية التي سوف نذكرها في محامها المعلم وليم هارفي الفيلسوف والمعلم بريستلي
 والمعلم ساوري
 وظهر من شعراء الانكايز البارعين درايدن وبوب ومن كتاب الانشاء
 الماهرين ادسون

ولعل البعض من الافاضل المذكورين او امثالهم كانوا اعضاء في تلك
 الجمعية العلمية التي رتبها الملك كرلوس الثاني الذي تولى المملكة في سنة ١٦٦٠
 كما فعل لويس الرابع عشر ملك فرانساً ايضاً لاجل البحث في النواميس
 الطبيعية وتقوية جميع العلوم المثقفة للعقل البشري على ما سبقت الاشارة اليه في
 الكلام على امتيازات هذا القرن

(المانيا) وبينما كانت انكلترة تفتخر بعلمائها المذكورين افتخرت كذلك المانيا بكونتوفيردوس غوليهوس ليبتيسيموس العالم الشهير المولود في له بيسيا سنة ١٦٤٦ وكان من المتقدمين في علم التاريخ والطبيعات ولاسيما الرياضيات والفلسفة وهو ايضا طرح جلة مبادي من الفلسفة السكولاستيكية واصلح في كثير من قواعدها ووضح بذلك ما كان مغفلاً عليه من تلك الصور المختلطة ومبزه جلياً وازال ما كان فيها من الالفاظ اللاغية التي لا معنى لها واستعان على ذلك بالاسلوب الهندسي ووضح ما اخترعه من هذه القواعد في مولفاته التي منها كتابه المسى ثاودكسيا ومواف اخر في الطبيعات الجديدة التي انار بها هذه الفلسفة وخاصة في ما يتعلق بالمنطق الا انه قد سمح في القياسات المجردة باكثر من اللازم ولذلك لم يخل من السقوط في اراء مخالفة للقياس وفاسدة (راجع الفصل السابع من المقالة الاولى من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف)

اكتشافات علمية وتقدمات صناعية

(النظارات) وكان في القرن السابع عشر المذكور قد شرع في اختراع النظارات الفلكية وهي على نوعين الاول يسمونه التيلوسكوب وهو الذي تنظر به الاجسام التي في غاية البعد والثاني هو النظارة المعظمة التي بها يظهر للناس ما خفي عن ابصارهم حتى انه في نقطة واحدة من الماء برون الوفا من النباتات والحيوانات الدقيقة وغيرها ويسمونها الميكروسكوب فالنوع الاول الذي هو التيلوسكوب هو على انواع ايضا واول نوع منه اخترعه رجل يقال له غريغوري وقيل بوحنن ليرسهي من مدينة ميدلبورخ في هولندا وكان ذلك في سنة ١٥٩٢ وقيل في سنة ١٦٠٨ ثم شرع في انقائه

واستعماله غليلي الذي مر ذكره وبواسطته اطلع على كواكب غير معهودة ومن
جلتها ٤ اقمار او توابع المشتري وكان ذلك في سنة ١٦١٠ وبعده أيضاً انقنه
حتى الانثان رجل يقال له هبة وليوس ثم زاد في انقانه رجل اخر يقال له
روبيرهوك واخيراً هرشل الفلكي الانكليزي الشهير الذي جعل طول نظارته
١٨ ذراعاً وقطرها نحو ذراعين واكتشف بها اورانوس احد الكواكب السيارة
في سنة ١٧٨١ واما نظارة الامير هوراس فكانت طولها ٢٢ ذراعاً وقطرها
٢ اذرع وهي اكبر نظارات العالم استطاع ان ينظر بها في القمر الجسم الذي
يكون قياسه ١٥٠ ذراعاً على كل جانب وكشف بها اكثر من ٣٠٠ مايون من
النجوم الهائلة كونه لا يرى منها بمجرد النظر اكثر من ٥ الاف نجمة

واما النوع الثاني المسمى بالميكروسكوب فقد اخترعه رجل يقال له زخريا
جانسن وقيل بل هو كزيليوس دريل وكلاهما من هولاندا ايضاً وسماه بعضهم
مسيوس ولم يذكر بلده وكان ذلك في سنة ١٦٠٨ وقيل بل في سنة ١٦٢٤
وكانت آلة هذه تكبير الشيء ١٦٠ مرة زيادة على مقدار جرمه ثم تمهذبت حتى
صارت تكبير من ٢٠٠٠ - ٣٠٠٠ مرة ثم في سنة ١٧٤٠ ابتداء المعلم سيلغ
بتوقيع الزجاجات الاكرومانية على هذه الآلة وهي نفس السنة عينها التي فيها
اخترع العالم ايبركهن في براين عاصمة بروسيا الميكروسكوب الشمسي وسمي
بذلك لان استنارة الجسم المراد رؤيته فيه لا تكون الا بصره الشمس الذاتي
لا الذي في الظل

وفي سنة ١٦٧٤ اخترع المعلم شارل الميفاسكوب اي نظارة الاجسام التي
براد رسها وهي نظارة مهيئة لتحصيل صور الاجسام القليلة الامتداد
(الثيرمومتر) وكان دريل المار ذكره هنا قد اصطنع ايضاً ميزان
الحرارة المسمى بلغتهم تيرمومتر وذلك في سنة ١٦٣٨ ثم صنع بعده ايضاً ريدور
اوريبير الدانماركي تيرمومتره بفرانسا كما صنع فهرنهايت تيرمومتره في ازلانده
(الكهربائية) وهناك رجل اخر من هولاندا ايضاً يقال له اوثنون دغريته

اوتود يغبريك اصطنع في سنة ١٦٥٠ اول آلة كهربائية ميز بواسطتها دو قاي
الطبيعي الفرنسي الكهر بائية المذكورة الى نوعين زجاجية ورائحية ولما كانت
هذه الكهر بائية توجد في بعض الاجسام مفردة وفي بعضها قليلة سمو الاولي
موجبة والثانية سالبة

(طلمبة الهوا) ثم اخترع اوتود يغبريك المذكور ايضا الآلة المفرغة للهوا
اصطنعها في مغدبرج من بلاد بروسيا في سنة ١٦٥٣ وتسمى بانهم انبوماتيقية
يعني طلمبة الهوا ثم اتفق هذه الآلة باين الطبيب الفرنسي وسوف ياتي ذكره
انفاننا زاندا بحيث لم يحصل بعده في تركيبها الا تغيير قليل

(ساعات البندول) وكان غليلي الايطالياني الذي يقال له جايلو
ايضا وقد مر ذكره اخترع البندول فجعله المعلم هوجينس احد المشتغلين في
العلم الطبيعي والميخانيكي مقبلا للزمان وصنع به اول ساعة منتظمة السير وكان
ذلك في سنة ١٦٥٦ وبعد ذلك بيسير وصلت الساعات الى درجة عالية من
الاتقان مع ان الفكر في انفاها كان قبل ذلك بزمن طويل

(الباروميتر) وغليلي المذكور وتلميذ ترويشالي هما اول من عرف وزن الهوا
وان طلوع الماء في الطلمبة مسبب عن ضغط الهوا السطح الماء وان نهاية صعوده
٣٣ قدما حيث ان هوة عمود الهوا النازل على سطح الماء لا يتجاوز القدر المذكور
فلا ينجذب اليها الماء الى اكثر من ذلك وهو يعادل ايضا عمودا من الزيت
ارتفاعه ٢٨ قيراطا فكان ذلك اساسا لوضع الباروميتر اعني الآلة التي بها
يعرف ثقل الهوا على حسب حالة الجو ومن ذلك الوقت اخذت العلوم الطبيعية
في التقدم والنجاح واشتغل ديوان علماء فيرينسا عاصمة بلاد النموسكانا الذي
كان اسسه ليوبولدو الدوك الاعظم في سنة ١١٤٦ بعلم السماع وخواص الضو
والحرارة او ما يحصل في الانابيب الشمرية وقبول الماء للانضغاط ونحو سنة
١٦٥٠ اظهر ريمير الذي مر ذكره سرعة سير الضوء ووضح ما يربط في فرانسوا
الفرق الحاصل بين سرعة سير الاجسام حال سقوطها على حسب مقاومة

الهوا وحجم الجسم وفي سنة ١٦٥٥ عملت زجاجة يُعلم منها حصول المطر في سنة
١٦٧٥ عملت زجاجة اخرى جلابة للضوء وفي سنة ١٦٨٢ تكلم رجل يقال له
كسيني على الضياء المنطقي وفي سنة ١٦٨٧ عملت مرآتي المحرقي

(المساحة) وكانت عملت طاولة المساحة في سنة ١٦٢٠ فادخل بعد
ذلك ديكرت الفيلسوف الفرنسي وقد مر ذكره مراراً قواعد الجبر في فن
المساحة المذكورة ايضاً

(دورة الدم) ولما تحقق المعلم وليم هارفي الفيلسوف الانكليزي حركة
دوران الدم في الاجسام اشتهر بها في سنة ١٦٢٨ قيل عنه انه افكر بها من سنة
١٥٩٨ لكنه كتبها الى ان ردها في فكره ٢٠ سنة ووثق بها غاية الوثوق
(الأكسجين) ثم بعد ذلك اكتشف المعلم بريستلي الطبيب الانكليزي
ايضاً الأكسجين وذلك في سنة ١٦٧٤

(المغناطيس الصناعي) واخترع المعلم ساوري الطبيب الانكليزي
المغناطيس الصناعي في سنة ١٦٩٠

(الجاذبة والدافعة) ولما رأى المعلم اسحق نيوتون الفيلسوف الانكليزي
الشهير وقد مر ذكره وهو جالس ذات يوم بالقرب من شجرة تفاح سقطت تفاحة
من تلك الشجرة كانت ذلك كافيًا له في اظهار القوة الجاذبة اعني الناموس
الضابط لانتظام العالم باسره. وازضاف الى ذلك القوة الدافعة وهي قوة مضادة
للاولى ليحصل التبادل وكان ذلك نحو اخر هذا القرن

(البخار) ولما عرف باين الطبيب الفرنسي الذي مر ذكره ايضاً
قوة البخار وادرك منافعة شرع بعمل الآلات البخارية في سنة ١٦٩٠

(الصنائع) اخترع دولاب تسهيلًا لضرب العملة في سنة ١٦١٧ م
واكتشف تاجر يهودي من مدينة ليون يقال له اركنا فيومي طريقة افضل
المنسوجات الحريرية في سنة ١٦٦٢ وأدخلت صناعة الشيت والمادام من
الهند الى اوروبا في سنة ١٦٧٦ وعملت الغن للمراكب في سنة ١٦٩٠

القرن الثامن عشر

وتأثر هذا القرن بالاكتشافات النافعة العظيمة اذ ان الفواعل الاساسية التي وضعها في القرن الماضي العلامة باكوس الانكليزي واقتدى بها المدققون من الفلاسفة على ما سبقت الاشارة اليه قد انارت العنول واحكمتها في جميع اجنات العلوم الطبيعية التي ازهرت في هذا القرن

(الفلسفة) وقد كان الكفر قل في اوروبا حتى ان شيعة ناكري الاوهية تكاد بان لا توجد في معظم هذا القرن اما شيعة ناكري الوحي او الذين يقذفون في حق جميع الاديان الكتابية فقد وقع فيها الشقاق والانقسام الى احزاب متنوعة لات مورالت الذي الف الكتاب الفرنسي المحدث الفصح وسماه جوهرا الدين قد زعم فيه بان كل الدين يتعصر في ثلاث قضايا وهي

(١) وجود اله

(٢) هذا الاله معتن بالبر

(٣) خلود النفس وان غاية المسبح في عبيدته نقر هذه الحقائق بسبرته وتعاليمه وكذلك الحررية المطلقة التي يتنوع بها الانكليزي في طبع افكارهم ونشرها بدون حاجز وفي عبادة الله حسبما يستحسن كل احد من الناس قد انتجت انقسامات ومنازعات دينية مستمرة لا يمكن لاحد ان يستوفي تفاصيلها بدون ان يسكن في انكثرة ويعاشر اصحاب تلك الآراء ونظيره ايضا اطلاق عمومية حررية الفحص للعقل البشري في فرانس قد عم كل الامور فيها كالدين والسياسة والفلسفة المحضة والمهنة الاجتماعية والطبيعة الادبية والمادية وصار ذلك موضوعا للدرس والشك ومجالا للرأي الى ان افسد مبادئ العلوم القديمة وعوض عنها

بمبادي علوم جديدة فعاد ظلام الكفر وغشى مصابيح انوار الدين في فرنسا
وانصبّت انكذرة الى التغافل عنه وجرمانيا الى التجيلات العقليّة ومن ثم امتدت
الآراء الكفرية بواسطة مولفات ولتبر وروسوبين علماء اوروبا الى ان اشرفت
حالكها على ثورة عامة تهدد الدين والسياسة بالخراب العمومي كما يتضح ذلك
ما يأتي

استدراجات امكانية

(اوستريا) في النصف الثاني من هذا القرن قد تعاقب على تخت
ملكة النمسا امبراطوران وهما يوسف الثاني الذي تولى سنة ١٧٦٥ وبعده أخوه
ليوبولد والذي جلس عوضه سنة ١٧٩٠ وكانا كلاهما من ارباب العقول الثاقبة
قال بعض المؤلفين انها لم يسبقا بمثلها في هذه الامبراطورية الواسعة حيث لم
يتراكا شيئاً عرفاً منفعته لاهما الى المملكة الاواد خلاه اليها حتى انها ساحا في البلاد
زماناً طويلاً لهن الغاية وكانت امها ماريا تريزا شرعت في عمل قانون لعنتى
الفلاحين من ظلم الامراء وتعديهم لكنهم ماتت قبل ان اكتمت فتمت وادها
الامبراطور يوسف المشار اليه ولازال يتنبع هذا الامر تدريجاً الى ان رفع مظالمهم
عن الفلاحين بالكافية وامر الحاكم بان ترى الدعاوي على وجه الحق والمساواة
بدون فرق بين الكبير والصغير والغني والفقير وانشأ في بلاده المستشفيات
للرضى والمدارس للتعليم وكان يهتم خاصة بتعليم اولاد الفقرا ومن جلة ذلك
مدرسة باويه التي لا يوجد لها نظير في سائر ممالك اوروبا وقد اشتهرت مدة
حياتها اشتهاراً عظيماً لكونه شجتها بافاضل العلماء البارعين في كل انواع العلوم
والفنون ورتب لهم المعاشات الوافية ليكنفهم مأونة الاهتمام لذواتهم فيتفرغوا الى
التعليم كما رتب ايضاً يوميات الى البارعين في فن الزراعة ومهد كذلك الطرق

الى الاساكل البحرية والمدن البرية لتسهيل نقل البضائع التجارية ورفع الكارك
 الداخلة وابطلاما وكان يكرم العلماء الايطاليين اكراماً لم يسبق لهم نظيره في
 التواريخ حتى انّه ارسل وزيره الكونت ديغرميان وكيلاً من طرفه الى بلاد
 ايطاليا ليقوم مقامه في رعاية علمائها واحترامهم وملاطفة اهاليها وترفيه احوالهم
 مع تهئية الاسباب الموجبة لعمار البلاد وراحة العباد وبنى بعض ديورة وكنائس
 واطلق الحرية الدينية للاهالي الغير كاثوليكين وامر اساقفة بلادهم بان
 لا يخضعوا لامر ما يأتي اليهم من طرف البابا ما لم يتناولوه من ايادي حكام
 البلاد وكان قد سعى قبلة اسلافه في هذا الامر بدون طائل وكانت جرت
 العادة منذ القديم بان قسوس الرعية في بلاد النمسا تكون خاضعة راساً
 لاوامر الاحبار الرومانيين فابطل هذه العادة لضررها وامر بان يكونوا خاضعين
 الى نفس اساقفتهم الموجودين داخل المملكة فقط وابطل الديورة المخصصة في
 الراهبات ولم يبق منها الا ما كان معداً لتهديب البنات وتربيتهم ورتب
 ايرادات الكنائس والديورة وما يلزم من المعاشات الى القسوس بوجه المساواة
 بحيث لا يكون بينهم غني وفقير وامر بانفاد ذلك جميعه حتماً الى ان اضطر
 البابا ان يحضر بذاته الى مدينة فياننا ويخاطب الامبراطور المشار اليه شفاهاً
 لينعه بفصاحته وبراعته وحرمة مقامه عن هذه الامور المضادة لقواعده والضارة
 بزبايا وظيفته لكنه عاد الى رومية راجعاً بدون ادنى فائدة

(ايطاليا) لا ريب في ان المناقشات والمحاورات الدينية التي جرت بين
 اعالي اقسام ايطاليا في اواخر هذا القرن قد مهدت سبيلاً موافقاً الى مستقبلهم
 الذي حصلوا عليه في القرن التالي بواسطة اتحاد كلمتهم الى ان صاروا جميعاً
 مملكة واحدة كرسياها هو نفس مدينة رومية وانتظروا بذلك في سالك الممالك
 العظيمة لانه في نفس السنة التي جلس فيها الامبراطور يوسف الثاني المشار اليه
 في ما مر على تخت الامبراطورية النمساوية ارتقى كذلك الامير ايو بوادو على تخت
 اقليم التوسكانا وقد اطلب بعض مورخي ايطاليا في مدح هذا الاير الى ان

فضلوة على افاضل الفلاسفة السالفين من ارباب السياسة حيث قالوا نعم ان
اصول الاحكام التي كان رتبها سولون الفيلسوف في بلاده كانت حرة الا انها
لم تكن خالية من الاختلال وهكذا الحرية التي كان أسسها ليكورغ الفيلسوف
فانها كانت ثقيلة كما وان رومولوس الملك ما افاد اهالي بلاده شيئاً غير جعله
ايام كلهم حريين لكن ليوبولد والمشار اليه قد ساس بلاده كلها مع الامن
والراحة ولم يكن ينظر لما فيه منمنعة الخصوصية بل لما فيه النفع لرعاياه الذين
مع كونهم اطلق لهم العنان قد اصبح القوانين القديمة التي كانت جارية في بلاده
خالية من العدل والانصاف لكونها مبنية على التمييز وعدم التساوي بين
الناس في المواد الحقوقية وناقصة في كل احوالها حتى ان فقراء الاهالي كانوا
ينكرون حقوقهم كيلا يدخلوا تلك المحاكم التي اذا أصيب احدهم بهصيبة الدخول
اليها كان لا بد له من بيع املاكه ليصرفها في المحاكمة واخيراً يخرج منها بدون
المحصل على شيء من حقوه وكانت القوانين السياسية شديدة للغاية ايضاً وحرقة
الزراعة مهتلة بدون ادنى النفقات وامور التجارة بغاية الاختلال ولم يكن احد
آمناً على امواله واملاكه ولذلك كانت الاهالي بجالة يرثي اليها من الفاقة
وتراكم الديون وخاصة من التكاليف الاميرية الخارجة عن طوق الاحتمال
فاعتني هذا الامير بازالة هذه الامور جميعها وكان اول ما شرع به انائه عزل المحكام
المشهورين بعدم الاستقامة ونصب عوضهم رجالاً من اهل العدل والانصاف
ورفع كذلك عن الاهالي سلطة الظالمين الذين كانوا يجورون عليهم بتوزيع
الاموال والضرائب وسمح للديونين بالديون التي كانت تطالبها منهم الخزينة
وباع الاراضي الاميرية الكائنة في الجبال واملاكه هو ذاته وما كان اعطاه
صدقاً لزوجه ووفى بما تحصل من اثمان ذلك جميعه الديون التي كانت تطالبها
الناس من الدوائر الاميرية ثم بعد ان تم مشروعه هذا انشأ محكمة عادلة اروية
الدعاوي بوجه المساواة بين الامير والمخبر والغني والفقير واحترم النفوس
الناطقة بحيث لا يسفك دم احدٍ منها كانت مرتكباً من الجرائم ولو كان قاتلاً

وابدل ذلك بالاعمال الشاقة في السجن المرّبد ما دام ذلك القاتل حياً والغى
 النصاص بضبط الاملاك ومصادرة الاموال وابطل البمين الذي جرت العادة
 بان تحلفه وجوه البلاد على الطاعة وعدم الخيانة عند جلوس الملوك في اوربا
 على كرسي مالكتها وامر بان تحفظ المبالغ التي تؤخذ خرج اقلام او جزاء نقدياً
 من كل من ارباب الجرائم بقدر ذنبه في صندوق مخصوص لتصرف حين
 الحاجة على الايتام واولاد الفقراء ومن يلتمحى الى الدولة من الضعفاء والمحتاجين
 وامر رجلين من ذوي المعارف يقال لاحدهما ورناجيني وللآخر جاني وكانا من
 المتبحرين في القوانين بان يرتبوا قوانين صالحة الاضاياء المذكورة فتاما بما امرها
 به مع الدقة التامة وعند ذلك جرت الاحكام على الوجه الذي رغب فيه هذا
 الامير من العدل والانصاف وتبدل ما كان بين الاهالي والحكام من الوحشة
 بالاستئناس وراجت امور التجارة والزراعة وامر الفلاحين اصحاب الاراضي بان
 يحوطوا مزارعهم بمحار تناسبها لاجل حفظ محصولاتهم وابطل تلزيم الاعشار
 وغيرها كالدخان والعرق والحديد لتحقيق ما يفعله المتزيمون من الاضرار
 ورخص للناس باخراج المعادن والغى الرسم الذي كان يؤخذ على بعض امور
 يتعلق بالبيع والشراء وخفف اثمان الاوراق الصحية وغير ذلك من الامور التي
 كان يُظن بان ابطالها يوجب نقصاً كبيراً في واردات الخزينة لكنها جاءت
 بعكس ذلك اذ ان الفوائد التي نتجت من عمار البلاد ورواج التجارة وكثرة
 المحاصيل قد سدّت ذلك النقص ولا سيما منذ ابطال هذا الامير الكبارك الداخلية
 واهتم بتهدد الطرق وفتح الزرع وتعمير الاساكن ومحلات الكورتينا ورخص
 للناس في التعبد بأي مذهب اخناروه زادت محصولات الحرير واشغاله حيث
 صار ما يرد منه من الخارج لا يتكفّل لازيد ما يتكفّله الحرير الناتج في نفس
 البلاد الى ان بلغ ما ورد منه في سنة ١٧٨٢ م ٣٠٠ الف رطل بعد ان كان
 الوارد منه في سنة ١٧٨٠ ١٦٣١٧٨ رطلاً وكثرت الزراعة حتى لم يبق في
 اقاليم ارض موات وفتح منافذ الى الجيبرات والرامات التي كانت لتجمع فييسا

مياه السهول والامطار ونبت على بعضها الفناطر والجسور ولا سيما بحيرة مارمة
سانسي التي يبلغ طولها ٧٠ ميلاً وعرضها من ٥-٨ ميلاً فانه امر امر المهندسين
وهم كيمس وقروني وفناطوني بتنشيتها وعمل جسور بينها وبين نهرى او ميرونه
وبرونه اللذين كانا بصيان وقت فيضانها فيها وحيث كان يعلم بان الاماكن
القليلة السكان متى كثرت سكانها يتحسن هواها ما امر بان كل من برحل من
بلادهم ويسكن في اقليم بارمه يُعطى له ربع ثمن ومصاريف البيت الذي يعمره
لسكنه وتعطى له الاراضى والمزارع التي يريد ما بارخص ثمن واذا احتاج الى
الاستقراض تقرضه خزينة الدولة ولما اعلن ذلك الى الاهالي كثرت السكان
بهذه الوساطة في الاقليم المذكور وعمرت اراضيه بالكروم والحوائى والبساتين
والمزارع فصالح مناخه ثم صرف بعد ذلك جل اهتمامه على انشاء المستشفيات
للمرضى والمدارس للتعليم وانفقتها بحيث اكتسبت مدارس مدينتي بيسا وسانيا
شهرة بالغة بما وضعت لها من النظمات ونبت قصوراً جديدة وشييدها واصح
ما كان منها عنيقاً وزينة واصح الطرق العامة وخاصة ما كان للمتزهات وزاد
في خزائن الكتب واعنى بتقديم الطب وغرس بساتين نباتات مقابل
المستشفيات بحسب العوائد التجارية في اوروبا وزرع فيها من جميع انواع
النباتات وبالجملة والتفصيل قد عمل اعمالاً خارجة عن طوق البشر ثم نشر
اعلاناً في سنة ١٧٨٩ بين فيه للاهالي مقدار ابرادات اقليم التوسكانا ومصاريفه
وما سحقت بتأريده من المرتبات المبرية وما صرفه مع الادارة التامة على اصلاحات
بلادهم الداخلية ومع ذلك لم يهمل الاعناء بتبديد بعض كنائس ودبورة للعبادة
مع اصلاح بعض الامور الكنائسية ايضاً اذ انه اولاً ابطل ما كانت تعطيه
قسوس بلادهم من العوائد الى القسوس الاجانب ثانياً امر القسوس الذين لم
مداخيل وليس لهم كنائس ان يعاونوا قسوس الرعية في القيام باجبات وظيفتهم
الدينية ثالثاً امر بان تعمل القسوس المرضى والماجزون من ابرادات اوقاف
الكنائس رابعاً حول ابرادات ما كان لازوم له من الدبورة الموجودة داخل

المدن وخارجها الى الكنائس لكونها اكثر لزوماً للشعب منها خامساً احدث
 بدل رهبان تلك الديورة الملقاة الجمعية المعبر عنها بلغتهم قومبانيه د بقرينا
 وهي جمعية مولفة من ارباب الصنائع للقيام باعالة الذين يرضون او تصادفهم
 باية من فقراء الماكة الهاجرين عن العيش لذواتهم سادساً امر القسوس
 المفوضين بخدمة الرعية بان يكونوا خاضعين رأساً الى اساقفة ابرشياتهم سابعاً
 منع دخول احد من الذكور في الرهبنة ما لم يبلغ سن ١٨ سنة وان لا يرتسم قسيساً
 الا بعد ان يبلغ سن ٢٤ سنة وكذلك النساء لا يدخلن الرهبنة الا متى بلغن
 سن ٢٠ ولا يرتسن الا بعد ان يبلغن سن ٣٠ ايضاً ثامناً ابطال المحكمة المسماة
 سانت اوفيجيو وامثالها من الامور الغير اللائقة تاسعاً امر بان يجتمع القسوس
 الموجودون في بلاده ويمقدون مجبها مرة في كل سنتين للنظر في ما يحدث من
 الامور المضادة لاداب الدين والسعي في منه... وكان اجراء هذه الاصلاحات
 الكنائسية التي احدثها هذا الامير في بلاده بموازة ريجي رئيس اساقفة التوسكانا
 لان هذا الاسقف كان مخالفاً في بعض ارائه لاراء الاحبار الرومانيين فاستقبلها
 الاهالي بكل ترحاب لكونهم كانوا قد آلفوا مطالعة كتب ارنولد ونيقول
 ودوكت وغوران وكزنل فتجراً حينئذ الاسقف ريجي المذكور بان اضاف الى هذه
 التعاليم عنق الاساقفة من نير السلطنة الرومانية وانهم لا يجناجون في تنفيذ
 ما يرتأونه من النضايا المذهبية الى اجازة من الباباوات لكونهم مساوين لهم في
 السلطة الروحية واطل عقيدة المطهر واتخاذ اكثر من محراب واحد في
 الكنائس والصلوات باللغة اللاتينية ووجب بان تكون باللغة الدارجة المفهومة
 وان تتلى بصوت مسرور وانكر استخناقات القديسين واستحسن الاربع قضايا
 التي كان صرح بها مجمع الاساقفة المجمع في باريس سنة ١٦٨٢ بشأن تحديد
 سلطان الباباوات ومزاياهم وان احكام الجامع تعالو على احكامهم وحيث ان
 ذلك جميعه هو من النضايا المضادة لمعتقدات رومية نشر البابا اعلاناً يخالف
 هذه التعاليم الجديدة اجتهد فيه كل الجهد بابطالها فلم ياتفت الى اعلانه هذا في

ذلك الوقت ولم يحصل على مرغوبه الا بعد مدة ولذلك شاعت بسرعة في باقي اقاليم ايطاليا ووجب اضطرابات وقلقل ليست بقليلة بين الاهالي وشرع علماء الدين في تأليف بضاد بها بعضهم بعضاً بشأنها ولكن لما كان اكثرهم من حزب ريجي المار ذكره فتغلبت اراؤهم على اراء المتعصبين للباباوات ومن ثم شرع في نابولي ايضاً بتأليف مذهب يقرب من مذهب ريجي لان اهاليها كانوا راغبين وقتئذ في التماس من صرامة الساطة الباباوية وكانت ملوكهم مساعدين لهم في ذلك ايضاً وكان للملك فرديتد الرابع الذي تولى المملكة بدل ابيه الذي صار وقتئذ ملكاً على اسبانيا في سنة ١٧٥٠ مستشار من الافاضل يقال له تانوجي فشرع باشارته بعمل قانون ابطال به سطوة الامراء ورفع مظالمهم وتعدياتهم عن الاهالي وصان به الاموال الاديرية التي كانوا يخصصونها لذواتهم من رسوم الكمارك والاعشار وابطال الضرائب التي كانوا ياخذونها باسم اجرة قدم واذ في ذلك الوقت نفسه ظهرت ايضاً مولفات الفيلسوف فلانجيري وانكبت الناس على مطالعتها مع الرغبة الزائدة فكان ذلك سبباً في تقوية المذهب التونسي في المار ذكره وتأسيسه في بلاد نابولي والنفات علمائها الى اصلاح تلك القوانين المخلطة التي كانت عندهم ماخوذة عن النورمانديين واليونبارديين وعماً كان ترتب في ايام ملوكهم السالفين والاجانب الذين حكموهم من ملوك ارغون واسبانيا والنمسا وكان يستحيل احقاق الحقوق بواسطةها فلما توجه ملك نابولي المشار اليه الى اقليم اليونبارديا بقصد الفرجة على المنترجات الكائنة في صحاري بارمه واودي ورجع الى بلاده وامر بانشاء نظيرها في سانلوشيو طلب عند ذلك الاهالي منه بان يصلح لهم القوانين التي هي اهمّ مما علاها فاجاب طلبهم وامر بتنظيم قوانين للزراعة جعل بها اهالي هذه الحرفة تحت حايته الخصوصية فلا يتسلط عليهم احد غيره ثم لما رأى بان قوته تضاعفت وزادت عما كانت عليه بواسطة هذه الحماية امال بسوء واصغى الى نصائح علماء رجال الدولة وابطال محكمة النونسيانور وهي محكمة تكون عند

سفير البابا الموجود في عاصمة آية مملكة كانت لترفع اليها الدعوي المختلطة اعني التي تقع بين القسوس وغيرهم من احاد الناس بحيث لا تسمع في المحاكم البلدية وكذلك التي ساطة الباباوات على اكبروس بلاده وجمال تفويض الاساقفة الذين ينتخبون عوضاً عن يتوفون منوطاً بالملك لا حاجة الى الترخيص لهم من طرف الباباوات المذكورين وامر بان الخراج الذي جرت العادة بتفديده عن يد معتمد مخصوص من طرف ملوك نابولي الى الباباوات في كل سنة يوم عيد ماري بطرس وهو ذهب واحد قيمته خمس رباتات لا يسى بعد الان خراجاً ولكن صدقة وان تبطل عادة حضور المعتمد المختص من طرف الباباوات لاجل وضع التاج على راس الملك حين جلوسه على التخت وان تقلل منها امكن طعمة الرهبان الشحاذين واطلب الرهبنة اليسوعية راساً وباع جانباً من اواني الكنائس واملاكها وجهز به عمارة بحرية ولذلك قام النزاع على قدم وساق بين البابا وبينه واخذ كثيرون من المولدين في تاليفات يتصرون بها الى الملك حتى ان وزيره كارلوس دي ماركو اهتم بان بلغني ساطة الباباوات بالكلية ومن ثم صارت مملكة نابولي مثل قسي التوسكانا ولومبارديا محلاً للمناكفات والمخاصات مع كرسي رومية

وامتدت هذه الحالة الى اقليمي بارمه وبياجنسا حيث اقتنما اثار خطوات نابولي بالتام ورتبنا لها قانوناً مطابقاً لقانونها ثم جمع دوتليو وزير الدون فيليب الذي كان يحكم الاقليمين المذكورين وقتئذ افاضل علماء ايطاليا وكان من جملتهم قوتيني المشهور بالمعارف الدينية واخر من اذكيا القسوس يقال له نوركي كان من مضادي الباباوات (لكنه لما صار اخيراً بابا كلف عن ذلك) وزين هذا الوزيرهم بلاده حتى صار لا يوجد نظير العلماء الموجودين فيها في باقي اقاليم ايطاليا بل ولا في غيرها واحضر من رومية رجلاً يقال له باشا ودي ليرتب له المدارس فاحسن ترتيبها وانشأ عدة كتبجانات ولم يكتب بكثرة العلماء المذكورين بل جلب اليها من المدرسين ايضاً ونيني ودروسي وبوروني

وقوندليق ومليوت وبازول وعينهم للتدريس فيها ثم اهتم الملك المشار اليه ايضاً
 بانشاء الورش والمعامل اللازمة الى ارباب الصنائع وتسوية الطرق والمنتزعات
 وهكذا تم كل اعماله بواسطة وزيره دونليو المار ذكره مع الراحة والسكون الى
 ان توفي وتولى عوضه الدون فرديند وكان صغير السن فتأمل البابا برجوع
 سلطته على هذه البلاد لكن لما كان الوزير الموما اليه لازال باقياً في وظيفته
 وامتنع من اعطاء الوائد والخراج المرتب عليها الى البابا فحرم البابا هذا الاقليم
 ومن ثم اعترض كثيرون من المولفين على هذا الحرم ومن جانبهم قوتيني المار
 ذكره فانه ألف كتاباً مخصوصاً في هذا المعنى سماه حافظ اقليم بارمه من حرم
 البابا ولذلك حتى على الوزير المذكور كثيرون من اهل الاكليسوس المتعصبين
 الى الباباوية وانتظروا الى ان بلغ هذا الدوق سن ١٨ سنة وقبض على زمام
 الحكومة بنفسه فاستأله بما اخلاصهم الى ان عزله من وزارته بل انه هو ذاته صار
 نظير واحد منهم لا يفرق عن الاكليسويين في ملازمة الكنائس والقيام
 بفروض العبادة والترنيل مع المصلين حتى ان اكثر اشغاله كان يتبها وهو في
 الكنيسة

اما بلاد الكنيسة فكان البابا فيها وقتئذ يورس السادس الذي جالس
 على الكرسي في سنة ١٧٢٥ وكان ذا طالع سعيد بخلاف سالفه اكليندوس
 الرابع عشر الذي كان صار بابا في سنة ١٧٦٩ وهو من احاد الرهبان وفقرائهم
 عاش كل ايام حياته كما كان يتعيش في زمان رهبنته ولا يميل الى شيء من الفسحة
 والعظة ولذلك انتخبت جمعية الكردينالية البابا يورس المشار اليه بعد وفاته
 لكونه كان من امرائهم واسمه براسكي وهو مغاير في كل صفاته الى البابا اكليندوس
 المار ذكره بالتام بحسب الابهة والافتخار فصيحاً بليغاً بشوشاً جميل الصورة غير انه
 كان حاد الطبع يتكدر من ادنى شيء يقع على غير رضاه ويسعي كل السعي
 في ما يؤول الى اتساع سلطنة الكنيسة وفي ايامه ارتأى مجمع الكردينالية وباقي
 امراء الكنيسة برأي احدهم المسي اورسيني على ان يعقد ملوك اقاليم ايطاليا

وحكامها اتفاقاً مع بعضهم ويكون هذا الباباً رئيساً على هذا الاتفاق غير ان اورسيفي المذكور كان من ارباب المعارف ولاحظ اخيراً بدقة عقله بان الاوقات المحاضرة لاتساعد على هذا المشروع فعدل عنه لما يوجب الشهرة والافتخار والسخا فاقنع البابا بان يسعى قبل ذلك في تشييف القدير المسمى بونينا وكان طوله نحو ٢٧ ميلاً وعرضه من ٥-١٠ اميال فامر المهندس بيواريني بهذا المشروع وصرف على ذلك اموالاً غزيرة ومع انه لم يتم له ما قصد بالتام فقد نشفت منه محلات كثيرة صارت قابلة للزراعة وحسن مناخها وفتح فيها عدة طرق لابناء السبيل وانشا كيسة صغيرة ظريفة للغاية بالقرب من كيسة ماري بطرس غير انه لما كانت هذه الكيسة على غير رضى الشيوخ لكونه هدم ميكلاً عميقاً للزهرة من اثار الرومانيين وعمرها في محله سعى في ان يستميلهم ويرضيمهم بانشاء حجرة داخلها للآثار القديمة وجمع فيها من ذلك مقداراً عظيماً جداً وسمى هذه الحجرة بيوقليمينينو وامر لودوفومري وانيو كويريني وويسفونتي بان ينظمو صفوف هذه الاثار في محلات تناسبها من هذه الحجرة ويحرقوا على كل قطعة منها هذه من اثار كرم بيوس السادس وحاصل الامرانه زاد في تزيين مدينة رومية ونحسبها حتى صارت تقصدها الملوك الاجانب للفرجة وروية ما فيها من التحف الغربية

واما اقليم ساردينيا الذي فاز اخيراً بضم جميع اقسام ايطاليا تحت سلطنة ملكه فيكتور عمانوئيل كما ياتي الكلام على ذلك في القرن التالي قد كان في اثناء هذه المقالات والاختلافات المذهبية الثائرة في سائر اقاليم ايطاليا خالياً من الاضطرابات واهاليه على غاية ما يكون من السكون والراحة وكانت ماوكة قادرة على تنفيذ احكامها كما تريد مع اللطف واللين وعلى قيادة عساكرها بنفسها حسب المادة القديمة ونظراً الى لطف احكامها وكثرة قواها العسكرية وادواتها الحربية كان لا يمكن لاحد من الاجانب ان يطع في التسلط على كرسي ملكتها ومع ذلك ما خلا الامر من شروع البعض من هؤلاء الملوك ببعض اصلاحيات مهمة فان فيكتور اميدي الثاني الذي تولى سنة ١٨٦٥م كان اخذ

له كان بطرس يحلب منها رعاةً واغناماً ليحزأصوافها ويصنع منها الجوخ المجيد
وانشا انوالاً للاقشة ومعامل للورق وامر باحضار الحدادين وصانعي السلك
الاصفر والفضة قجبية والسباكين واشتغل باستخراج معادن سيبيريا
وبعد ان اخذ هذا الامبراطور في تجديد القوانين وتحسين الامور الملكية
والعسكرية عمل عرساً لاحد مضمكوه دعا اليه جميع امراء دولته رجالاً ونساءً
واجرى هذا العرس على مقتضى العوائد والاهوام القديمة ليعين فيه شناعتهما
فحضر المدعوون اليه بالملابس القديمة ووضعت لهم الموائد على منوال ما كان
جاريًا في القرن السادس عشر ولم توفد مدة ذلك العرس نارحسبها كانت
العادة عندهم ولو في زمن شدة البرد وشربوا فيه شراب العسل والعرق لاثمهم
كانوا لا يشربون النبيذ ايضاً فنشكوا اليه من هذا الامر فاجابهم منهكاً ليس
هكذا كانت تفعل اسلافكم

واحدث دار طباعة جعل حروفها مسكوية ولاينية جلب الاتهما
من بلاد الفلمنك وكان اول ما طبع فيها بعض كتب ترجمت الى اللغة المسكوية
تشتمل على اداب وفنون ووجدد المعلم فرغسون الذي مر ذكره مدارس لتعليم
العلوم الهندسية والفلكية والبحرية

وجدد القيصر المشار اليه مرستناً كبيراً يشتغل فيه العاجزون من الشيوخ
والشبان بحيث لا يتخلو من مكث به عن العمل لئلا يعناد على الكسل والبطالة
ولما ظهر بفتح قلعة نياتزاوينا بالقرب من بحيرة لادوغا كان برتبة ملازم
اول في الخيبره جيه وترقى الى رتبة بوزباشي تحت رياسة رئيس عساكره المسمي
شرمتوف فكافاه قيودان باشي بنيشان افتخار لقبه به بلقب شوالية ماري
اندر اوس

ثم بعد استيلائه على القلعة المذكورة عزم على بناء مدينة المسماة بطرسبرغ
على مصب نهر نوى الذي على خليج فنلندة فوضع اساس هذه المدينة في فضاء
تلك الارض السبخة التي لا تتصل بالبر الا من طريق واحدة واحضر من مدينة

موسكا وازدرهان وقزان واوقريته ارباب حرف وصنائع ليشغلوا فيها فلم
يمض من تاسيسها ٥ اشهر الا وحضر اليها سفن فلنكية بقصد التجارة وبني
بالقرب منها مدينة اكرستادت على قم نهر نوى المذكور وهي المينا الاصلية التي
الان بها عمارات السفن المسكوية وتم صب المدافع وانشأ سفن الامارة البحرية
وتم اصلاح الطرق الكبيرة وتمسيتها ووجد سفنًا اخرى وحفر خجائنا وعم ايضا
جميع التجارة والمخازن واخذت تجارة بطرسبرغ تتقوى وتتسع ومن ثم امر بنقل
مشورة السنت من مدينة موسكا اليها فانتقلت في شهر نيسان سنة ١٧١٢م
وصارت هذه المدينة الجديدة تحت مملكة روسيا بعد ان جلب اليها ١٢ الف
عائلة تسكنها ثم احدث من الرتب الشريفة رتبة القديسة كاترينا تعظيما
لزوجة كاترينا ونال هو نفسه رتبة قبودان باشي ثاني مكافاة له على ما ابداه
من الخدمات لوطنه

ثم شرع بتنظيمات جديدة بحرية وترتيبات عسكرية وتجارية وقوانين سياسية
واصول مربوطة مرعية والف بنفسه قوانين عسكرية تخص العساكر المشاة
وفي سنة ١٧١٥م اسس بمدينة بطرسبرغ اكاديمية بحرية اي جمعية علماء بحرية وكان
في مملكته مهندسون يرسمون الخارطيات في سائر اجزاء الدولة

وبعد ان تم ذلك عزم على رحلة ثانية الى بلاد اوروبا ولكن ايسست كالاولى
التي كانت رحلة متعلم للفنون بل رحلة ملك يبحث عن اسرار جميع الدواوين
ليعرفها حتى المعرفة فاستصحب معه زوجته كاترينا ولا زال ينتقل من مدينة
الى اخرى الى ان وصل الى فرانسوا وقوبل فيها بما يليق من الرسوم الشريفة
اللائقة بمقامه ولما رجع الى روسيا جاء معه بعدة من الفرنسيين اصحاب
الحرف والصنائع كما اتى بهنل ذلك من انكلترة لان جميع الممالك التي كان يسافر
اليها كانت ترى انها تشرف باعانتها على تمييز غرضه من نقل جميع الفنون الى
وطنه الجديد ومساعدته على الابداع والاخذات وبعد وصوله اليها طبع قانون
الجهادية الذي قنته بنفسه ورتب مجلس حقانية لينظر سلوك مدبري دواوينه

وبلاحظ احوالهم ولينظم امور المالية

وفي سنة ١٧١٨م حرم هذا الملك ابنه البكري الكسيس من ولاية العهد وحقى وراثته الملك وحكم عليه بالنقل بموجب فرار الجبالس وافتاء القسوس الذين عينهم لمحاكمته للاسباب التي ذكرت في ما سبق فاصاب هذا الامير السيء الحظ داء التشنج عندما تليت عليه صورة هذا الحكم لشدة ما اعتراه من الخوف والوجل واطهر الندم بمحضرة ابيه الذي كانت دموعه تدرف على خديه عندما شاهدته وهو في تلك الحالة المخزنة واطهر لاه الصغ والعفو الذي كان يلتمسه منه ثم مات في اليوم الثاني وحينئذ ظهر للناس ان بطرس ليس الابا وطلب وانه كان يعتبر رعاياه مثل عائلته لكونه لم يكل ولم يفر عن جلب المنافع لهم لاسيما لما رآه جدد في هذه السنة عينها ايضا من الفنون والصنائع على اختلاف انواعها والمعامل والورش ما لم يروه قبلاً واحداث في دوله فروعاً من التجارة التي اخذت في الراج وحفر خليجاناً وصلت بين الانهار والبحار واوقعت الوصلة والمخالطة بين الاهالي بعد ان كانوا منفصلين بمقتضى اوضاع بلادهم وجعل للدولة اميراً كبيراً ضابطاً عليها في ما يخص الضبطية الداخلية وعين اقامته بمدينة بطرسبرغ رئيساً على محكمة مأمورة ببقاء الانتظام والضبط والربط بدولة المسكوب من اولها الى اخرها ومنع مع التشديد استعمال الزينة في الملابس وكذا لعب القمار الذي هو اشد خطراً من الزينة وانجز تاسيس مدارس حساب بجميع مدن الدولة كان قد امر باحلالها في سنة ١٧١٦م وكذا المرستانات المخصصة للايتام واللقطة وعنى جميع المدن الكبيرة من الحجم الصغير الذي كان فيها من الشياذين المبعوضين الذين لا يريدون ان يتخذوا لهم صنعة اخرى بل يرغبون في المعيشة على طرف غيرهم وجبر الاغنياء على بناء بيوت منتظمة في مدينة بطرسبرغ وسهل عليهم ذلك بكونه امر ان تنقل مهات البنائين اليها بدون اجرة بواسطة السفن والعربات التي كانت تعود قبل ذلك الى المدينة المذكورة فارغة من الاقاليم المجاورة اليها وعين مقادير الاوزان والمقاييس والمكاييل

وجعلها منتظمة مستوية في جميع الاماكن وسعرا ثمان البضائع اللازمة للاكل
ورتب بمدينة بطرسبرغ القوانين التي كان لويس الرابع عشر اول من اخترعها
لمدينة باريس فصارت تدير حاراتها مدة الليل ورتب كذلك فيها الطلقات
لاطفاء الحريق وشيد ابواب المدينة وامر بتبليط اسواقها ومساكنها مع المناعة
وجميع الاشياء التي تنص الامن والنظافة والانتظام والضبط وتسهيل التجارة
الداخلية والمزايا للاجانب والاغراب والقوانين التي تمنع ارباب هذه المزايا من
تجاوز الحدود كل ذلك حصل بمدينة موسكو ومدينة بطرسبرغ على نسق
جديد حديث وحسن معامل الاسلحة تحسبنا زائداً وكان يلاحظها بنفسه كما
انه يذهب بذاته لاجل ان يامر جميع معلمي طواحين الحبوب والسحق ونشر
الاخشاب ونظار معامل الحبال والقنوع ودق الطوب وحجر الوردواز ونظار
انوال القمشة بما يلزم. واحداث مجلس تجارة جعل نصف اعضائه من اهل
دولته والنصف الاخر من الاغراب

ومن ثم احداث احد الفرنسيات بمدينة بطرسبرغ معمل المراي واحداث
فرنساوي اخر شغل السجادات والبسط القائمة السداء حسبما يشتمل بورشة
غوبلان الشهيرة بباريس لكن لما احداث فرنساوي ثالث معمل لشغل القصب
المتخذ من الذهب والفضة امر القيصر ان لا يشتمل بهذا المعمل في السنة الآ ٤
آلاف مرك (والمرك مقدار من الذهب او الفضة يساوي ٨ اواق يعني ٦٤
درهماً وذلك لئلا تنقص الفضة او الذهب من مالكة واعطى ايضاً ١٥٠ الف
قرنك وجميع الادوات والآلات اللازمة للذين شرعوا في احداث انوال الجوخ
وغيره من اقمشة الصوف فترتب على ذلك انه صار يمكنه ان يلبس عساكره من
الجوخ المصنوع في بلاده وخلاصة الامر انه صار يصطنع في بلاد المسكوب
اقمشة نفيسة تضاهي اقمشة بلاد الفلانك وعند وفاة هذا القيصر وجد في مدينتي
موسكا وچارسلان ١٤ معملات من معامل التيل والكتان ونجحت صناعة اقمشة
الحريز وضاهت ما يصنع بمدينة اصفهان من بلاد العجم وكانت معادن الحديد

تستخرج استخراجاً جيداً ولما حصل استكشاف بعض معادن الذهب والفضة
أحدث هذا الفيصر مجلساً مخصوصاً ليتذاكر باثبات وتحقيق ما يستخرج منها هل
يفيض عن المصاريف اللازمة لإخراجها أم لا

وبنى في السنة المذكورة مدينةً جديدةً ساهما لادوغا الجديدة وعين جماعةً
من المهندسين الذين كانوا بدرستو البحرية التي أحدثها في سنة ١٧١٥م ليسيروا
بجميع أقاليم دولته ويرسموا خريطاتها مع الضبط والصحة لكي يطالع سائر الناس
على أراضي بلاده المتسعة التي أكسبها بجهده وانعابه التربية والرفاهية والغنى
والثروة

ثم أبطل هذا الفيصر المجلس الذي كانت أعضاؤه من زمرة البوياردا اعني
الأشراف تنصل فيه الحكومات وتتحكم فيها الحكم الأخير الذي لا ينتقض وكان
لا يدخل في زمرة أربابها إلا من كان له درجة اعتبار بكونه صاحب حسب
ونسب بدون الثقات إلى العلم والمعرفة وضم إلى الوكيل العمومي الذي نصبه في
المملكة ٤ نواب في كل حكومة من الحكومات الأربع التي بدولته وناطهم بملاحظة
سلوك القضاة الذين هم فرع من فروع مشورة السنت التي أحدثها وكان بيد
كل من هؤلاء القضاة نسخة من كتاب الشرائع والقوانين ومنع القضاة من اخذ
المحصل على الدعاوي وكل من اخذ شيئاً من ذلك كان عقابه الموت واهتم
بجعل مصاريف الدعاوي هينة جداً وباجراء العدل على وجه السرعة ورتب
للقضاة والكتاب معاشات من خزينة الدواة ومنعهم بذلك من شراء مناصبهم
وكان تكديماً مجموع قوانينه الذي رتبته وصار العمل به وحيه في سنة ١٧٢٢م
فكان من جملة ما فيه ان كل عسكري ارتقى إلى رتبة ضابط ينتظم في سلك
أرباب الشرف وكل بويار ارتكب ما أوجبت بسببه القوانين ترقية بصير بذلك
من رعاة الناس وعامتهم

وأخيراً تمت الإمبراطورة اليصابات ابنة هذا الفيصر بمجموع الأصول
والقوانين المذكورة الذي ابتدأه أبوها من قبلها وسرى لطف حكومتها إليه

ايضاً اذ ازلت منه وصمة النفل والتشديد حيث اخذت على نفسها عهداً
وميثاقاً بانة لا يعاقب احد بالموت في مدة حكمها ووفت بذلك فهي اول ملكة
احترمت النفوس البشرية وحقنت دماها فكان كل من اقرن ذنباً عظيماً
يحكم عليه بالشغل في المعادن ونحوها من الاشغال الشاقة ولا يخفى ما في ذلك
من الزجر للناس الاشرار بتوارد هذه الاشغال عليهم كل يوم بخلاف الموت
الذي فيه راحة لهم

اما ابوها الامبراطور بطرس المشار اليه فبقي متادياً في الاشغال التي كان
ابتداها بالكر ورتب بمدينة بطرسبرغ جمعية علوم على انموذج ما في باريس ولوندره
وصرف كثيراً من الاموال لاجل جلب العلماء والحكماء الذين منهم دليله وبولنجبير
والهرمان والبرنولية وولف المشهور الماهر في انواع الفلسفة ولا زالت هذه الجمعية
موجودة حتى الآن واهلها هم فلاسفة المسكوبيين فزهت بها الفنون وازهرت في
كل جهة من بلاده وقويت الصنائع وصارت مرغوبة وزادت القوة البحرية
وكذا الاعناء بشأن الجيوش واوحظت القوانين والشرائع فكان يتمتع مع
الهدوء والصلح بفخاره الى ان توفي في اليوم الثامن والعشرين من شهر كانون
الثاني سنة ١٧٢٥ م

ومن غريب ما اتفق ولم يسبق بمثله انه جالس بعد هذا الامبراطور على
تحت الساطنة المسكوبية ٤ نساء على التوالي حافظن على العمل في جميع ما ابدعه
وكملن وحسن جميع ما شرع في فعله وهن زوجته كاترينا الاولى التي تولت
التمت بعد وفاته وابنة اخيه حنه ارملة دوك فورلانديا التي استولت على المملكة
بعد وفاة بطرس الثاني بن الكسيس في سنة ١٧٣٠ م والىصابات ابنته من
كاترينا المذكورة التي جلست امبراطورة في سنة ١٧٤٠ م وكاترينا الثانية زوجة
بطرس الثالث التي خلعت زوجها وتملكت في سنة ١٧٦٢ م

وفي ايام كاترينا الثانية المذكورة زهت العلوم وابتعت ببلاد روسيا فقد
قال كستر الذي كان سفيراً لدولة فرانس في بطرسبرغ والف كتاباً في تاريخ

هذه الامبراطورة باللغة الفرنسية ثم ترجم الى اللغة التركية ما معناه وكانت
 كاتبنا فضلاً عما هي عليه من فرط الجمال وحسن الطباع والنخيل متريفة
 بجلى الذكاء والفراسة ذات عقل وافرو علم متكاثرت نشأت في جوار مجمع ارباب
 معارف وعلوم مثل دار ملكة الفيلسوف الشهير فريدريك الاكبر ملك بروسيا
 وكانت تتكلم بعدة لغات بحيث تقدر تفيد عن مقاصدها بكل سهولة الى ان
 قال في موضع اخر من كتابه وكانت تعلم بان تفوق الشعوب والمثل الموجودة
 في اقطار الربع المسكون على بعضهم بعض لا يتحصل من مجرد الارضية في
 الحروب بل ان وسائل الشهرة الثوية هي المهارة في العلوم والفنون ولذلك
 انتخبت جماعة من ارباب المعارف وارسلتهم الى الجهات البعيدة بالاعضاء من
 بلادها ليتجروا اوضاعها ومواقعها الجغرافية بكل ضبط وتدقيق ويخبروا
 طبيعة اقاليمها ويعرفوا انواع محاصيلها وامزجة سكانها واخلاق اهلها ويحروا
 ذلك على وجه الصحة وبذات مساعيها ايضا في تحسين احوال المدارس القديمة
 التي كانت موجودة من زمن اسلافها وجددت مدارس ومكاتب ومرستانات
 اخرى وغير ذلك من الامور النافعة في كل المجالات ووضعت رأس مال معلوم
 المدة مخصصاً لمعاش اشخاص عينتهم لترجمة الكتب اللازمة التي اعتنت
 بجمعها من جميع اللغات الى اللسان المسكوبي وعفت عما كانت احده من
 الضامم على رسوم معامل الحديد والنحاس وانوال الاقشة المستعملة في المعامل
 الكبيرة وعند افراد الناس وافقت ايضا الرسومات القديمة التي كانت تؤخذ
 على الجاد المدبوغ ومعامل الشمع والزيوت المستخرج من الزيتون واذنت المحاكم
 الموجودة في جميع بلادها ان تعطي اعلامات في فصل الحكومات كيلا تتجمل
 اصحاب الدعاوي مشقة السمر من المخيلات البعيدة لاجل روية دعاويها في
 بطرسبرغ او موسكا ولكنها وضعت قانوناً ايضا بانها اذا كان احد الخصمين
 لا يقبل ما حكمت به من المحاكم فله حتى ان يرفع دعاواه الى بطرسبرغ او موسكا
 لاجل الاستئناف بشرط ان تؤخذ جريمة بقدر معام من المتورد وجعلت ذلك

ذيلاً للتواين القديمة وسجلته في قيود مجلس السنن بمدينة موسكو
وكانت طائفة التجار في هذه المملكة تنقسم الى خمس اقسام باعتبار راسالها
اولها من كان راس ماله لا اقل من ١٠٠ الف روبل والثاني من كان راساله ٥٠
الف والثالث ٢٠ الف والرابع ١٠ الاف والخامس هم اصحاب ٥٠٠ روبل فقط
وكان كل واحد من اصحاب هذه الاقسام يدفع الى خزينة الدولة قدراً معلوماً
مرتباً في كل سنة بحسب راساله فارادت الامبراطورة المذكورة ان تضاعف
رغبة الاهالي في التجارة وتزيد في نفوية هذه الصناعة التي كانت تصرف ذهبا
على ايجاد الوسائل والوسائط الموجبة لنموها وتكثيرها فامرت بان التجار
يكونون معافين من الجزية ومن الخدمة العسكرية وان كل من اراد من الاهالي
ما لم يكن من زمرة العبيد ان يكتب نفسه في اي قسم اراده من هذه الاقسام
المذكورة بشرط ان يعطي عن راساله (١) في المئة فله ذلك وبناء على هذا
النظام صار كل من الاهالي يتقدم الى الاكتاب في المرتبة التي يختارها ويقرر عن
المقدار الذي يدعي امتلاكه ويعطي الرسم المتر على سنويّاً رغبة في الحصول
على تلك الامتيازات فتزايد امر التجارة وخاصة بفتح الطريق الموصلة الى البحر
الابيض على مقتضى المعاهدات الجديدة التي عقدتها مع الدولة العثمانية ثم اعنت
في امر الزراعة وتكثيرها وبذلت جهدها في استحصال اسباب تنشيطها وفي
احداث المعامل والوزش واستعمال انواع الصنائع والحرف ونسبيل وسائل
الاخذ والعطا . وحدثت بانكة في اقليم سيبريا راساله مليون وخمسة الف
روبل لاجل تسهيل المعاملات التجارية التي كانت قد انقطعت منه منذ ذلك
بسبب طغيان بوجان وهو احد المتمردين وسعت في تعمير القصبات والقرى
التي كان خربها العاصي المذكور وكانت جابت قبل ذلك من بلاد الالمان
١٠٠ الف نفس لاجل تعميرها . وانشأت في سنة ١٧٧٠ مستشفى شهير للايتام
بمدينة موسكو . وبنيت مدينة كرسون على نهر اوزي في البحر الاسود وكان وضع
اساسها في سنة ١٧٧٨ فلم تضر برهة بسيرة حتى صارت محنوبة على ٤٠ الف نفس

منذ قرنٍ ما كان بيد الرهبان البسوعيين من المكاتب وعين للتدريس فيها جماعة من العلماء منهم بازيني وبرنا وباونزيو الذين صرفوا جهدهم في تدريس الكتب المولفة للمحافظة على المذهب الجديد ومنهم وازلي الذي وضع هذه الكتب في مكتبة نفس الملك أيضاً ثم لما تولى بعده ويكتور اميدي الثالث في سنة ١٧٧٣ كان يظهر منه بانه نظير سلفاه في رعاية العلم والعلماء لكن ظهر اخيراً من كلامه بانه رجل حربي فقط حيث كان يقول بان عنده الترمبته جي من العساكر افضل من العالم ولذلك افرغ ما في خزائنه في سبيل جمع العساكر وترتيبها واضطر اخيراً الى تزويد الضرائب والاموال الاميرية على رعاية بل تراكت عليه الديون ايضاً الى ان بلغ مقدارها في سنة ١٧٨٩م الى (١٢٠) مليوناً من الفرنكات وحيث كان لا يميل الى النزاع مع الباباوات امر اهالي بلاده بالامتناع عن قراءة القضايا الاربع التي مر ذكرها وعن التوجه الى مدرسة باويه لاجل تحصيل العلوم فيها فكان هذا المنع على ما جرت به العادة سبباً الى زيادة رغبة الناس وتولعهم في الحصول على ما منعهم عنه ولا زال الحال على هذا المنوال الى ان حصلت الثورة الفرنسية الآتي ذكرها في ختام هذا القرن ونالت اقاليم ايطاليا المذكورة قسماً كبيراً من وخامة نتائجها

(فرانسا) وكانت اذ ذاك مدارس التعليم مفتوحة في فرانسا لتعليم الصبيان مجاناً وتأسست المدرسة العسكرية ابتمعلم فيها على طرف الدولة ٥٠٠ نفر من اولاد الاشراف الفقراء وارسلت الدولة عدة من العلماء الى ماتحت خط الاستواء وجهة القطب للتحقيق في البحث عن شكل الارض وتاسست في باريس المدرسة التحيرية التي هي من الابداعات النافعة لتعليم الصم البكم والعميان القراءة والكتابة والرياضيات واقتدى بذلك باقي ممالك اوروبا حتى انه يوجد بها اليوم من الاماكن المخصوصة بتعليم نحو ١٥٠ محلاً غير انه كان في بداية هذا القرن اعني في سنة ١٧١٨م اخترع رجل من الطفشونية الانيوسيين

يسمى لادة اولاسة الى الملك لويس الخامس عشر الذي تولى المملكة في سنة ١٨١٥
اوراق النقود وفي سنة ١٧٢٠ ظهر للناس عدم منفعتها عندما لحى البعض من
العائلات الافلاس الفاحش والفقير البليغ
وقد اشتهر في هذا القرن من فحول الرجال الفرنسية عداً عن تركوا
اناراً جلية فخلد ذكرهم سوف يذكرون بجملة اصحاب الاكتشافات العلمية في ما
ياتي خمسة اشخاص حازتهم فرانساً من مشاهير الكتبه بذلوا جهدهم في ابضاح
طرق الفلسفة وتشديد مبادئها وهم فوتيل الذي انسخت مكاتبه فيها وبوفون
الذي كان مشتغلاً بتأليف توارخه الطبيعية في عصر الملك لويس الخامس عشر
الذي مر ذكره ويوصف بانه كان مشفع افلاطون وبلين الذي كسا علم الفلسفة
رقه التعبير في كتابه الذي خلد ذكره واعرب عن رقة طبعه ودماثة اخلاقه
ومونتسكيو الذي صرف همه في كتب السياسة وابانت تصانيفه عن غاية براعه
فيها قال بعضهم وكفى شاهداً على ذلك ما كتبه في سبب ارتفاع وانحطاط
الدولة الرومانية وهو كتاب عجيب يحتوي على تعاليمات صادقة وعبارات راشقة
وكتابة الاخر المسمى روح الشرائع الذي بين فيه المحقوق الانسانية وقسمها الى
ثلاثة اقسام

اولها الحقوق المعتبرة بين الامم في خلطتها السياسية والتجربة
وثانيها حقوق الدولة على رعاياها وبالعكس
وثالثها حقوق الاهالي فيما بينهم ثم قسم حال الدول الى ثلاثة اقسام ايضاً
الاول الدول الوراثة خلناً عن سلف المطلقة التصرف بلا قيد
الثاني الدول الوراثة المقيدة بالقوانين
الثالث الدول الجمهورية المقيدة بالقوانين ايضاً. (والجمهورية هي كناية
عن انتخاب الأمة رئيساً للدولة يتصرف في ادارتها بمنتضي القوانين مدة حياته
اولئك معلومة ثم ينتخب غيره) وبين ما ينشأ عن هذه الاحوال الثلاثة من الخير
والشر وهو معدود عند اهل اوروبا قانوناً صحيحاً في الاحكام ومن تمثيلاته البدعية

تشبيه المستبد في احكامه بمن يتوصل الى اجنء الثرة بقطع الشجرة من اصلها وله غير ذلك عدة تأليف تلقاها الناس بالقبول من جلتها المراسلات الفارسية وهي اشبه بميزان يشنع فيه على عوائد الشرفيين والغربيين ليظهر مذم كل منهم ومحامد وكان ساح في بلاد اوروبا ليلاحظ في سياحته ما يلائم كل مملكة من الممالك فقال ان بلاد المانيا تليق للسياحة وبلاد ايطاليا للاقامة وبلاد فرانس للمسرة وطيب العيش. ثم ان رابع هولاء الخمسة اشخاص الذين نحن بصدد الكلام عليهم هو دابير صاحب التأليف المحلى بفوائد القواعد الحاوي باوضح بيان ما كاد يأتي على سائر الفوائد وخامسهم كدايك الذي بسط اشعة التحقيق على تأليف اوك الانكليزي في علم الفاسفة وبلي هولاء الخمسة جان باتيست روسو صاحب الأشعار ذات المعاني الرائقة والمعلم ساج صاحب التأليف البارع المعروف بجبل بلاس المنهوي على المقالة الفلسفية وهو احسن ما ألف في باب

ومن مشاهير هذا القرن ايضا ولتير قال بعض المؤلفين ان هذا الرجل هو من اخذ راية الكتابة باليد وبالشمال واشتهر في فنونها شهرة بالغة ولوم بجملته انحلال العقيدة على عدم احترام الشرائع والديانات لكانت شهرته اتم والنفع يواعم وقال اخرون ان الشيء اذا تجاوز الحد رجع الى الضد وكان الجهل مضرا فكذلك مقابلة اذا صاحبت اساءة الغير وذلك ان هذا العالم افضت به غزارة علمه الى القدح في الاديان وفي كثير من ملوك عصره فعوقب بالطرد عن وطنه وعن كل موضع اراد النزول به مات في سنة ١٧٧٨ وله مؤلفات عديدة ترجم منها مؤلفان الى العربية وطبعا في مصر الاول يسمى مطالع شهوس السير في وقائع كراوس الثاني عشر وهذا الملك هو مالك اسوج المشهور بالمحاربات الشديدة بينه وبين بطرس الاكبر امبراطور روسيا والثاني يسمى الروض الازهر في تاريخ بطرس الاكبر وهو الامبراطور المشار اليه ولكن قل من يثق بتأليف هذا الرجل غير ان لسوء الحظ نجد كثيرين من الذين تعلموا

اللغات الاجنبیة فی بلادنا برون بان ما من فائدة ما تعلموه الآن يطالعوا
کتبه وامثالها بلغة ويتفوا خطواته برغبة لينا لى حتى التصدر بین صفوف
المتدین

ومنهم جانجاك روسو وهو نظیر وولتیر المذكور فی الشهرة وله من حسن
التعبیر ما لا نستقر معه الاوهام وهذا الرجل مع وولتیر المذكور قبله هما اللذان
انشأ الثورة التي انت بالمصائب الآتی ذكرها الى فرانساً وهما الأسبابها واستعجلا
وقوعها

وهذه الثورة هي ما وقع فی سنة ١٧٩٢ من الاضطرابات بین الالهالي وقتلهم
ملكهم لويس السادس عشر الذي كان تولى المملكة فی سنة ١٧٧٤ وامرأته
وشقيقتة وتسليمهم ولدك الى رجل اسكاف ليربیه وتلويتهم فنار تمدنهم العظيم بهذه
الفساوة الوحشية وبما اشتهروا به من الفواحش والرذائل والفن العظيمة التي
لا يمكن استيفائها هنا وإنما نذكر من تاثيرها الردي بعض الامور الآتية وهي

اولاً انهم ابطالوا فی تلك المدة كثيراً من النضاي والاحكام القديمة
ثانياً ابدلوا التاريخ الميلادي واساء الشهور بغيرها ما اخترعوه فيها
ثالثاً ابطالوا الديانة المسيحية واقاموا لهم ديانة اخرى لكنهم لم يتفقوا عليها
اذ انهم فی اثناء الثورة اتوا بفتاة بدیعة الجمال وهي من فتيات الرقص والتمشيط
والغنا وكانت من اللواتي يتجاوزن حدود الحشمة فی ملابسها واقاموها على
مدبح كنيسة نوتردام الكاندرالية فی باريس وقالوا للجمهور الغفير المجمع انها
المعبودة المسماة بمعبودة التمييز واصابة الحكم وعند ذلك قال لهم رجل يقال
له شومت وهو احد مقدمي رجال الثورة يا ايها البشر السائرون الى الفناء
لا تترجفوا بعد الآن عند سماع رعود غير مضررة نسبتوها الى اله خلقتة مخاوفكم
فانه ما من اله فلا تعبدوا بعد الان غير التمييز وهذا هو (مشيراً الى تلك الفتاة)
رمزها الاتي والاشرف فلا تعبدوا غير معبودات مثلها وكان لما سمع الجمهور منه
هذا الكلام سجدوا لتلك الفتاة وخرجوا ليغوصوا فی ما يخجل التلم ان يقرر وصفه

ثم رجعا عنها واقاموا عوضها ديانةً اخترعها لم بعض الاكابر والعلماء
وهي ان يعبدوا الله عز وجل حسب اصول الديانة او بالحرية الاحساسات
الطبيعية واستعمال الكنائس اماكن لعبادتهم وكان دستور ايمانهم بسيطاً حاوياً
قضية بن كبيرتين وهما وجود الله وخلود النفس وكانت شريعتهم الادبية حاوية
كذلك مبدأين كبيرين وهما محبة الله ومحبة الناس وكانت مناسكهم تحنوي على
صلوات وتسابيح مكتوبة لارشاد العابدين في العبادة . ثم في اجتماعهم كان
يخطب بعض الاعضاء ولكن لا يُسمع بتقدم خطاب للجمهور الا بعد فصول من
المنظرين وقد اضيف الى هذا بعض طقوس بسيطة كوضع طبق اثمار وزهور
على المذبح وكانوا يستعملون الموسيقى بالاصوات والآلات في اجتماعاتهم وجدوا
كل المجد في ادخال هذه العبادة الى كل مدن فرانس المشهورة وانتشرت
مقاصد جمعيتهم الى بلاد اخرى وتوجه كتابهم الى جميع الاقطار الفرنسية بامر
وزير الامور الداخلية وكان قد اشار البعض منهم باقامة الديانة على طريقة
ديانة قدماء الفرس (المجوس) وهي ان يُشار الى الجوهر الالهي بنار دائمة وان
يُقرب له قرابين من الاثمار والزيت والملح وان تُسكب سكائب من الخمر الى
العناصر الاربعة ورسم ان تُمارس العبادة يومياً في الهياكل وان كل يوم تاسع
يكون سبتاً للراحة وان يشترك الجميع بالرقص والملاهي في اعياد معلومة وكان
أتبع هذه الديانة بعض انفار في باريس وغيرها ولكن لم يلتفت اليهم ثم بعد برهة
يسيرة انقرضوا وطُفي خبرهم

وقد اتفق المؤرخون بان هذه الناحية الفرنسية تكون نهاية للنسب الثاني
من القرون الاخيرة على ما قد سبقته الاشارة اليه في المقدمة

(روسيا) وكانت عادة المسكوب وقتئذ ان يجعلوا اول السنة شهراً بلول
افتداءً بالاكليروس عندهم اذ لا يخفى بان التقويم السنوية معدودة من الامور
المهمة وكان المنوط بها هم روساء الادبان دون غيرهم من قديم الزمان يجمع

الاقطار وليس ذلك لمجرد المواسم والاعباد الدينية فنظ بل واندره معرفة غيرهم
 بعلم الميقات فابطل ذلك بطرس الاكبر وجعله كانون الثاني كما هي العادة عند
 مالک اوربا المتمدنة وكان هذا التغيير من ابتداء القرن الثامن عشر الذي نحن
 بصدد الكلام عليه فتعجبت العامة من هذا التغيير كيف امكن فيه لبطرس
 ان يغير كيفية مسير الشمس وانتقالها . وانما لم يرض هذا القيصر بالتقوم
 الغوريفورياني الذي سبقت الاشارة اليه في الكلام على الاكتشافات العلمية في
 القرن السادس عشر بل ابقى حساب السنة على الزيج القديم (وعل ذلك
 ناشي اما اقتداء بعلماء الرياضة من الانكايير لانهم كانوا اهلوه في ذلك الوقت
 واما رعاية الى الاكايروس حيث ان الكيكلس الارثوذكسي لا يسمح بوقوع عيد
 الفصح المسيحي الا قبل عيد الفصح عند اليهود كما سبقت الاشارة الى ذلك في
 صحيفة ٢٢٦ من كتابنا زينة الصحائف في اصول المعارف)

وكانوا منذ تعلموا طريقة المكاتبات والمراسلات في اوائل القرن الخامس
 من الميلاذ كما سبقت الاشارة الى ذلك يكتبون في بطاقات من ورق الاشجار
 اوراق الغزال ثم بعد ذلك طويلا كتبوا في الورق فوضع لهم بطرس الاكبر قانونا
 يامرهم فيه ان لا يسلكوا في الكتابة الا على نسق الفرنسية وابطل ما كانوا
 يستعملونه في مخاطبات ماوكهم وعرضحالاتهم من تعبيرهم عن انفسهم بلفظ عبدكم
 وابداة بلفظ رعيتكم ايذيق رعيتة حلوة ما ابدعه من التحسينات

وكان الزواج في الدولة المسكوية على منوال ما هو جار في بلاد البرك
 والعجم فكان الرجل لا ينظر مخطوبته الا بعد الزواج ويرسل اليها من جملة
 هدايا العرس مقدارا من العصي بقدر قبضة اليد ايقاظا لها بانته عند اول
 فرصة توجب عقابها بناها منه تأديب خفيف وكان من قانون الملكة اذا
 قتل الرجل امراته لا يقتل فيها واما الزوجات اللاتي يقطنن ازواجهن فانهن
 يدفنن احياء فاراد بطرس الاكبر ان يعود رعيتة على عوائد الامم الذين ارتحل
 الى بلادهم واتى منهم باناس يعلمون اهل ملكته على ما تقدم فشرع اولاً في تغيير

ملابس اهل بلادهم وجعلها مثل ملابس سائر الافرنج لان الانسان بطبعه ينفر من الاجانب لاسيما اذا كانوا يخالفونه في الملابس وكانت ملابسهم في المحافل والمواسم شبيهة بملابس التتار وقدماء اللاهيين والمجار وكانت على ما يقال مقبولة ومستحسنة واما ملابس الاهالي ورعاع الناس فكانت شبيهة بالدلوق وبالثياب ذات الانكاشات والطببات ما يجازي الوسط وبالجملة فقد كانت الثياب الطويلة سابقا لباسا لجميع الملل لانها لا تحتاج لكثير مصرف ولا صناعة وكان المسكوبيون لا يجتفون لحام بل يتركونها تسترسل هذه العلة بعينها ولم يشق على بطرس الاكبر تعويد اهل ديوانه ودائرته على الملابس الافرنجية وحلق اللها بخلاف تعويد الاهالي على ذلك فكان من اصعب الامور عليه حتى انه اضطر ان يضرب غرامة على كل من لبس ثيابا طويلة ولم يجاق لجينته وعلق على ابواب المدينة انموذج الملابس الضيقة التي يلزم الاهالي لبسها وكل من امتنع من دفع هذه الغرامة حكم عليه بقطع ثيابه وحلق لجينته لكن كان اجراء هذه الامور وتنفيذها مع الملاطنة ولين الجانب فكان ذلك سببا في الانتقاد وعدم التعصب ثم ادخل بعد ذلك في بلادهم الجمعيات الانسانية وامران يحضرن تلك الجمعيات النساء مع بناتهن منزيات بزي اهالي جنوب اوربا وجعل تلك الجمعيات التي هي اشبه بمواسم صغيرة قوانين واصولا تتبع وبالجملة فكل شيء حدث في دولة بطرس الاكبر حتى اداب المخالطة والاجتماع

فمن حلت الظرافة والرقه في كل الامور ببلاد المسكوب محل الخشونة والتبرير وحدثت مجالس المسامحة عندهم بعد ان كانوا لا يعرفونها اصلا وتجددت الالعاب التياترية حتى ان الاميرة تناليا احدى اخوات هذا القيصر اثنت باللسان الروسي مقامات تياترية تتعلق بذكر الحوادث المحزنة وكانت اقرب شيئا بما ألفه الشهير شكسبير الانكليزي الذي مر ذكره في الكلام على القرن الخامس عشر

وقد أدت بطرس الاكبر همة الى تحديد المسافات السفرية بوضع اعدة

صاية من الخشب في طريق مدينة موسكا الى مدينة وپرونيز من كل عمودٍ مثله
 مسافة فرسخ مسكوني ٧٥٠ قدماً وانشأ في كل ٢٠ فرسخاً منزلاً للسافرين
 واحداث في دياره نوعاً من الزينة والزخرفة وهو ان كان طبعه لا يالف
 ذلك الا انه رآه ما لا بد منه واحداث ايضاً نيشان درجة ماري اندراوس وهي
 من رتب الافتخار التشريفية الجارية في دواوين اوروبا وكان قبل ذلك جميعه
 احداث نيشان افتخار كان اول نيشان صنع في بلاد المسكوب وكتب على
 احدي دائرتيه ما معناه بطرس الاول امبراطور المسكوب العظيم دائماً وعلى
 الاخرى ازاق مع هذه الكلمات منصور بالمياه والنيران وكان ذلك عندما دخل
 مدينة موسكا مع الابهة والاحتفال ومرّ بجيشه الذي كان يحارب في بحر ازاق
 ورجع منصوراً تحت اقواس النصر التي صنعت له قبل ان ساح في بلاد اوروبا
 وقد استحسن ارباب العقول الراجحة من اهل دولته كثيراً من هذه
 التغييرات والابداعات النافعة وتلقوا ذلك بالتبول بعد ان كان وقع اللغظ
 بين الناس في مبدأ هذا التغيير وكتب بعض الفسوس في رسائل طبعها ان
 بطرس هو المسيح الدجال لانه كان يأمر بتف لحاء الاحياء وتشريح اجساد
 الموتى وابطال الرتبة البطريركية فصار بذلك فن الطباعة الذي كان هذا القيصر
 يسعى في تقويته معيناً على ما كان يقال فيه من القدح والدم لكن رد على هذا
 القسيس قسيس اخر قائلاً ان بطرس ليس هو الدجال اذ ليس في حروف
 اسمه ما في اسم الدجال من عدد ٦٦٦ وكذلك لفق علامات الوحش المذكور
 في سفر الرويا

ولما كان هذا القيصر مشغولاً بحروبه مع كرلوس الثاني عشر ملك اسوج
 لم تقدر همته في اثناء تلك المحاربات من جانب المنافع الى بلاده اذ انه بعد ما
 لحقته من المصائب بانهزام عسكره امام مدينة نروا اشتغل بوصل كل من بحر
 بالطني وبحر الخزر والبحر الاسود ببعضها بواسطة خيطان واخذ في حفر خليج عيني
 واصل من نهر طنائس الى نهر الاثل وبينما كان كرلوس المشار اليه يخرب ملكة

وتبني في ترسانتها السفن التجارية والبحرية وكانت بنت قبل ذلك بسنتين اعني في سنة ١٧٧٦ مدينة اودسا او قوجه بك على مصب نهر دنيستر فصارت اعظم اساكل البحر الاسود تجارةً وانشئت فيها جانه ابنيه واماكن جميلة شهيرة وتجددت فيها معامل الصابون والباروت واقمشة الحرير والحديد ومعامل البوزة واعظم متجرها في الحبوب ولا كرك على متاجرها

(اسوج) وكانت بلاد اسوج الواقعة في شرقي بلاد المسكوب تحت حكم الدانبارك الى ان قام غوستا وازا وهو رجل من نسل الملوك القديمة لتلك المملكة ومن الرجال العظام الذين بندرو وجود مثلهم حسن الخلق فصيحاً هرب من سجن كرستيان الثاني ملك الدانبارك الذي كان ظالماً اعتيافاً وجهاز في قليل من الزمن بعض عساكر حربية بربرية استخاص بها بلاده من يد هذا الظالم وحررها وتملك عليها في سنة ١٥٢٣ م وكانه خالصها من يد المتغلبين الظلمة ادخل اليها المذهب البروتستانتى ايضاً وخلصها بذلك من ظلم الاكليس الذي كان ذا شوكة قوية مهولة يستولي على اموال البلاد وينفقها في ظلم الرعايا ومعاربة الملوك

ثم بعد ذلك تقوت هذه المملكة في زمن غوستا ادلفوس الذي كان تولى عليها في سنة ١٦١١ م حيث افتتح بلاداً كثيرة من المانيا وياتصارا تو ساعد على انحطاط بيت اوستريا وان كان هذا الامر يعزى وينسب فخراً الى الكردينال ريشليو وزير الملك لويس الرابع عشر في فرانساً ثم توفي قتلاً في محاربتة خلف نهر الطونه وتلقب بعد موته باسم الاكبر

ولما انصل الملك بالملك كرلوس الحادي عشر وكان ظالماً جداً جردها هذا الملك اهالي البلاد من مزايامهم وخصائصهم وابطل مشورة السننت فصارت مشورة الملك بعد ان كانت مشورة الملكة واستولى على املاك اكثر رعاياه بواسطة محكمي رتبها بشوكتة وبجرد رأيه ساها ديوان القرض ومن جملة ما يمكن

عنه انه لما اضرّت تلك الحكمة بعدد عظيم من الالهالي والاشراف والتجار واصحاب
الاطيان والارامل واليتامى كانوا يجمعون في حارات استوكهلم ويصيحون على
باب قصر الملك فكانت الملكة تعينهم بما تملكه من الاموال والجواهر والامتنعة
والملبوس ولما فقدت ما كان في يدها ولم يبقَ عندها شيء تعطيه لم يكت
ووقعت على زوجها تترجاه بان يشفق على هؤلاء المساكين فاجابها بوجه
عابس لم تزوجك لتنصيننا بل لتندي لنا وبقي الحال على هذا المنوال الى ان
مات في سنة ١٦٩٧

ولما تولى بهن ابنة كرلوس الثاني عشر كان قاصراً اذ كان لم يبلغ من
العمر اكثر من ١٥ سنة فكانت جدته ام ابيه تحكم بالنيابة عنه وبمعيتهما في الحكم
مشورة مركبة من خمسة اعضاء وكان حفيدها كرلوس المشار اليه يمضي زمنه في
الصيد او كان يشتغل بعد الجيوش وترتيبها ويتعلم بعض الاحيان الحركات
العسكرية لكن لم تطلب المدة حتى تولى زمام المملكة بنفسه وكان لما تزوج بعد
موت ابيه بشهرين لم يقبل بكون مطران اوبسال يضع التاج على راسه كما هي
العادة بل هو جذب التاج من يد المطران وتوج نفسه بيده ودخل مدينة
استوكهلم راكباً على حصان ادهم محمداً بالفضة وفي يده صولجان الملك وكان من
الذهب والتاج على راسه وكان راسه هذا مماثلاً من تصورات اسكندر الاكبر
وقبصر فعزم ان يفتدي بها الآ في العيوب فلم يكن يعرف الزينة اصلاً ولا اللعب
ولا الراحة وصار قنوعاً جداً في الاكل والشرب ولا يابس الاً مثل نفر من عساكره
وصم على عدم شرب الخمر والابتعاد عن النساء مدة حياته وكان اول كتاب
تعلمه كتاب صهوتيل يوفندروف يعرف وهو في صغره اوضاع بلاده والممالك
التي حواله ثم تعلم اللسان الالماني فكان يتكلم به مثل لسانه وكان يحسن ركوب
الخيل وتعبية الرياضات الشديدة العنيفة لكن كان له عناد لا يطاق فلما تمكن
استمالته ولا عطفه الاً بتريغيبه في الفخار ثم تعلم اللسان اللاتيني والفرنساوي غير
انه لم يرد ان يتكلم بهذا اللسان الاخير مع احد اصلاً مدة حياته وكان مولماً

بفن الحروب واشتهر فيها من سنة ١٧٠٠ الى سنة ١٧١٨ بما ابداه من الشجاعة العظيمة في الوقائع الممولة التي كانت قائمة ساقى على قدم بينه وبين امبراطورها بطرس الاكبر الذي سبق ذكره في الكلام على مملكة روسيا وكان لزيادة هوسه فيها امر بترجمة كتاب كونت كرس لكوني اعجبه بالنظر الى موضوعه اكثر من حسن عباراته وهو تاريخ الفه هذا الرجل في اسكندر المكدوني الملقب بالاكبر الذي مر ذكره ثم الف هو نفسه نبذة في فن الحروب وفي غزواته من سنة ١٧٠٠ الى سنة ١٧٠٩ عندما كان متجماً في بلاد الدولة العلية مهزوماً من امام بطرس الاكبر المشار اليه ومنتجماً الى حمايتها منه ويقال بانه اراد ان يغير طريقة العد بالعشرات ويجعل بدلها (٦٤) لان هذا العد يشتمل على مكعب ومربع واذا نصّف تناقص حتى يرجع الى الاحاد وهذا بدل على انه كان مولعاً بالاشياء الغريبة الصعبة ايضاً ثم توفي اخيراً قتيلاً تحت اسوار مدينة فريدريكهاال عندما كان مشغولاً بفتح بلاد نروج في سنة ١٧١٨ م

وعند ذلك رتبّت المملكة الاسوجية قانوناً جديداً جعل للحكومة الملكية حداً نفق عنده واثبت الحرية للاهالي فكان من احكامه ان لا يكون للملك مداخلته في ترتيب القوانين ولا في التصرف في شان الحرب والصلح ولا في تغيير النفود ولا في فصل الدعاوي ولا في جمع عساكر من المملكة ولا في احداث سفن او حصون ولا في ترتيب الاموال ولا في توليد المناصب اياً كانت بل كان ذلك جميعه منوطاً بملك المشورة التي كانت تعقد في اوقات الاقتضا وكان قصدها بذلك منع تلك المظالم والجور من المملكة لكنه صار سبباً لايقاع الفشل فيها وانقسام اهالي المشورة المذكورة الى فرقتين فرقة تميل الى الفرنسيين ويقال لها فرقة البرانيط لان الفرنسيين يلبسونها وفرقة تميل الى المسكوبيين ويقال لها فرقة الفلنسات لان المسكوبيين كان من عادتهم لبسها ولا زال الامر في اخنباط وارنباك منذ وفاة كرلوس المشار اليه الى ان تولي المملكة غسطاوة الثالث في سنة ١٧٧١ م

ومن ثم رتب هذا الملك قانوناً جديداً اكره اعضاء المشورة الاهلية المذكورة على قبوله وهذا القانون الجديد لم يبطل هذه المشورة بل كان لا يقدم الملك على تشريع قانون او نسخاً الا برضاها ولكن كان من خصائصه بتمتضي هذا القانون تعيين وقت عقدها ومنها ان تزيد على الثلاثة اشهر المعينة لمكثها وانه هو الذي ينصب اعضاء مشورة السنك ولا تكون اراؤها نافذة الا بعد ان يسمعها الملك ويبت الامر فيها بنفسه وانه هو الذي يعقد الصلح والهدنة والمعاهدة سواء كانت للدفاع او للهجوم واما عمل الحرب فلم يكن مختصاً به بل كان منوطاً برأي الجمعية وكانت قيادة العساكر البحرية والبرية منوطة به كما ان سائر الوظائف الملكية والعسكرية كذلك وقد خصه القانون ايضاً بان تدفع له جميع الضرائب لكن لا يجنى له ان يجدد غير ما هو موجود منها الا اذا كان هناك حرب المداخلة عن المملكة او اذا اقتضى الحال لجلب الامن الداخلي ثم تلغى متى انتهت الاسباب وتبقى القديمة على حالها

ومنع هذا الملك ان يتفوق احد من الناس باسمي البرانيط والفلسوات وابطل ما كان مرتباً في المملكة من انواع العذاب وازال جميع المحلات والآلات التي كانت معدة لذلك وحدث بمدينة استوكهلم قصبة مملكة داراً لاشغال مختلفة ليشغل فيها من لاصناعة له ولاجهة يتعيش منها وكان انشاؤها في سنة ١٧٧٣م ولا يجنى ما في ذلك من المنفعة لهم والدولة وبعث الى سائر الجهات اطباء وكان يقويهم باتحافهم بالرتب والانعامات وتبرع على الاهالي بالادوية من غير مقابل وعاقب من فردة الرؤوس جميع الفلاحين والعملة وارباب الحرف والصنائع والعساكر البرية والبحرية الذين يكون اقل ما للرجل منهم ٤ اولاد طلباً لازدياد عدد اهالي المملكة وكان يعتني بادارة مواضع اليتام وسائر المستعانات وكان يحافظ على العدل وحسن الادارة ولما رأى ان حرية الطباعة واطلاقها هما اعظم الوسائط في محافظة وكلاء الدولة على واجباتهم وفي اطلاعهم على مرغوبات الاهالي وضروراتهم اعان على توسيع دائرة هذه الحرية النفيسة

واجتهد ايضاً اجتهاداً تاماً في توسيع دائرة التجارة والصنائع وتقدم صناعة استخراج المعادن وتضاعف محصولاتها وحرّض اهل مملكته على شغل المادة المتبالية الخامية وكان الى ذلك العصر لا يشتغل بها الا في الممالك الاجنبية وجلب من بلاد اوروبا الى مملكته من مهرة الصناع والمخترين من كهل معادن الحديد والبولاد ورتب بحسب ادارته الامانة بين الناس بحيث يأمن بعضهم بعضاً في القرض وبهذا حصل لهم النجاح التام في امر التجارة وانعم بالحرية والاطلاق على ميناء مارشند فصار تاتي اليها السفن من سائر الجهات وقوى الملاحة الاهلية باوامر صدرها في سنة ١٧٧٧م عانى بها جميع ملاحي السفن التجارية من فردة الرووس ورتب جمعية تجارية في بلاد اغرولند بامريكا فصار تفتسم مع غيرها من الطوائف الاخرى الارباح الجسيمة التي تحصل من صيد الحيتان وصارت ايضاً كاتباء مدرسة لشبان البحرين ولم يهمل هذا الملك امر الزراعة ايضاً بل اهتم بشانها حيث وسّع في اجال اجارة الجفالك الملكية العديدة ترغيباً للفلاحين في الاعناء باراضي الزراعة والنصح في خدمتها بطول انتفاعهم بها وعقد مع البعض منهم ان زراعة اراضيهم تكون لاولادهم البكرين من بعدهم وصدرت اوامره بابطال عدة مواسم لانفع لها فترتب على ذلك توفير ٢٢ يوماً للشغل في كل سنة ورتب لتحسين الزراعة جمعية من ارباب الخبرة لتبحث عن طرق تحسينها وزيادتها بحيث تكون اقوات بلادهم من ذات اراضيها ولا تحتاج للبلاد الاجنبية وانعم بالحرية في تجارة الحبوب

وكان يتريض في اشغال الدولة بممارسة العلوم والاداب وكانت له مغاطات علمية مع كثيرين من علماء اوروبا واعاد جمع العلماء بمدينة اوسال ما كان له سابقاً من الشهرة والروني وكان قد زال منه ذلك بفقد الحكيم لنيه ورتب مشورة لتربية صبيان الاهالي وامرها بتجدد صورته بها بكل نظام التعليم في المدارس الصغيرة والكبيرة ورتب ايضاً جمعية لطبع الكتب الاولى

وغيرها من الكتب النافعة فظهر في جمعية العلماء بمدينة استوكهولم مهارة ونشاط جديد وتركت ما كانت عليه من دعوى العلم التي لا طائل تحتها وعرضت على علماء اوروبا مسائل عديدة نفعها بين عام وقد حصلت من هذا الملك الاعانة للفنون المستظرفة ايضاً فجعل لاكدمة النقش والتصوير رونقاً جديداً ورتب للمعارف جمعية للحفاظ على ان جميع المعارف الجديدة ولا سيما المعارف السلطانية تبنى مع المتانة واللفظ . ومن ثم ظهر من مهرة المؤلفين ببلاد اسوج من اشتغل بالعلوم الادبية مع الاعناء العام وزينوها بعدة مؤلفات نفيسة سطعت بها انوار اللغة الاسوجية وصار لها من الرونق والبهجة ما لم يُعهد فيها من قبل ومنهم لناوس الشهير في العلوم الطبيعية

واصلح هذا الملك ايضاً الجيوش والسفن وكانت اذ ذاك على اشنع حالة وكان يذهب من اقليم الى اخر لاجل تعليم العساكر وزاد في المدافع زيادة عظيمة وصنع اسلحة وباروت وزاد في عدد العساكر البحرية وانشأ مرفأ واسعاً في ميناء قولوقرون لتدخل اليه السفن البحرية حفظاً لها من عواصف الرياح وبعد ان قمع طائفة الاشراف في سنة ١٧٨٩ اشهر قانوناً جديداً كان قد رتبته مع وكلاء الطوائف الثلاثة ما عدا الاشراف ومنه ان الملك مفرد هو الذي له الحق في ادارة المملكة والذب عنها بنتضى رايه من غير ان يراجع احداً في ذلك وهو الذي يعمل الحرب والصلح ويعقد المعاهدات ويفصل الدعاوي ويجري العدل ويوزع الوظائف السلطانية وان ديوان السنن لا يكون له دخل في شيء من امور الدولة وانما يكون ديوان المتراكات الاعلى وما ان الاهالي الاسوجيين كلهم مستوون في الاهلية والبحرية في مملكة واحدة انهم ان يكونوا جميعاً على حد سواء في التمتع بالحقوق والمزايا تحت رعاية القوانين الشرعية وان الوظائف على اختلافها جارية كانت او حاضرة لا تناط الا بالمعارف والتجربة وحب الوطن فلا ينظر الى عظم المقام وشرف النسب الا في ما لا بد له من ذلك بموجب القوانين وان جميع الاسوجيين يتبعون تنعماً تاماً بالبحرية الشخصية

الكاملة وانهم جميعاً لم حتى في تملك الاراضي وغيرها من الاملاك اياً كانت

(المانيا) وفي هذا القرن ظهر ببلاد المانيا الشعراء المجيدان غوتي وشر فالاول فاق اقرانه في محاسن الاداب والثاني استحق ان يسمى مجدد لبياترات الالمان فانه ركب العاباً معتبرة يتشد فيها مستظرفات الاشعار وله تأليف في التاريخ شاهد بتقدمه في ميادين الافكار

(انكلترة) اما انكلترة فكان تقدمها فيه بالاعمال البدية والزراعية والتجارية وكل ما يجلب ثروة البلاد وبوجب سعادتها منذ اصططعت فيها معامل صب الحديد في سنة ١٧٤٠ وغير ذلك من الوسائط التي تسهل الاشغال وتسبب الاقتصاد في تكاليف الاعمال وتوسع دائرة التجارة ولا سيما منذ اخترع جاس وات في سنة ١٧٨٢ آلة بخارية لدولاب غزل القطن الذي كان اختراعه اراكريت (في اواخر القرن السادس عشر) تعد من العجائب قال بعض المؤلفين ان هذا الرجل اخترع الكيفية العجيبة في الارتفاع بالآلة البخارية التي كان اخترعها اولاً ينوكن (ولعله باين) في اواخر القرن السابع عشر كما ظهرت كذلك الخدمات العجيبة الهائلة على يد المهندس برادلي وتضاعفت بواسطتها طرق المواصلة بانكلترة وفتحت الخيلجان العديدة في الاماكن التي كانت معطاة وبذلك تمت نتائج الايدي واتسعت دوائر المتجر والثروة في بلاد الانكلترة وارتفع شان السياسة وكثر استخراج معادن الارض بسهولة المناولة والمواصلة وكذا جاب القطن والكتان وغيرها واصطناع الاقمشة منها في اقرب وقت وكل ذلك بمعاونة الآلات البخارية المذكورة فكبرت بلدان انكلترة الصغيرة لاتساع نطاق المتجر فيها حتى صارت من اعمر البلدان المعتبرة وحسبنا مثال جزئي منه نعلم درجة التبدلات العظيمة الواقعة في احوال تجارتها وهوان قيمة ما كان يخرج من القطن المصنوع فيها لم تكن في اوائل القرن الثامن عشر لتجاوز ٥٠٠ الف

فرنك في السنة وفي اواسط هذا القرن (بريد صاحب الاصل القرن التاسع عشر) بلغت قيمة ما يخرج من ذلك ٥٠٠ مليون فرنك انتهى كلامه وكان افتتاح هذه التقدمات الصناعية فيها بهذا القرن ظهور معدن الصخون الانكليزية الابيض في سنة ١٧٠٧ وبعده بسنة واحدة ظهر المعدن الاسانجوني ايضا

ومن اثار اهتمامات هذه الامة في امر الزراعة ادخالها زراعة الرزالي بلاد امريكا قبل ان خرجت من تحت سلطتها ببضع سنين اعني في سنة ١٧٦٩ م ثم علماء عن رجالها العظام الذين جعلوا لهم ذكراً ممتداً في صفحات التاريخ بما اظهروه من الاكتشافات العلمية النافعة للجنس البشري وسوف تذكر اسماؤهم مع ما اكتشفوه في ما يأتي ظهر ايضا فيها المورخون الثلاثة المشهورون الذين زاد بهم مجد وطنهم وهم غليوم وهوم وروبرتسون اما هوم فانه ولد سنة ١٧١١ من عائلة فقيرة واشتغل بالفن والاحكام ثم تعاقب بالاداب والفلسفة وصرف همه في السياسة حتى انه استُخدم في ما بعد بوظيفة كاتب سر سفارة الامير سنت كلير وغيره ثم تخطى بالكلمة عن المصالح وتوفي سنة ١٧٧٦ وله مؤلفات عظيمة في الفلسفة والاداب والسياسة والتاريخ بل وفوق الطبيعيات وترجمت كتبه من لغته الانكليزية الى غيرها لكونها كثيرة الفوائد نفيسة الفرائد واما روبرتسون فهو صاحب كتاب تحف الملوك الالبا في تقدم الجمعيات باوروبا الذي جعله مقدمة لتاريخ الامبراطور شرلكان الذي ألفه هو ايضا وقد ذكر في هذه المقدمة مع الايضاح جميع الوقائع والحوادث التي كانت سبباً في التغييرات المتوالية التي اعترت حالة اوروبا السياسية منذ انقراض الدولة الرومانية الى ابتداء القرن السادس عشر وموافاته هناك ترجمت الى العربية وطُبعت في مصر سنة ١٢٥٨ للهجرة سنة ١٨٤٢ م

ومن ينبغي ان لا يهمل ذكرهم ايضا المعلم آدم سميث الذي فاق اقرانه في علم الرياضيات والاقتصاد السياسي المعبر عنه بعلم توفير المصاريف والجراحان الشهيران هنتر واخوه

اكتشافات علمية وتقدمات صناعية

(الطبيعة) ثم في هذا القرن الذي نحن بصدد الكلام عليه وجد رجل يقال له المعلم سوسور ولعنه فرانسواي فكان هو أول من نجح في علم كائنات الجو وأخترع الآلات الايغرومترية اي آلات مقياس الرطوبة . وبين كذلك الآراء الصحيحة الباحثة عن النداء والمطر والثلج ونوفي في سنة ١٨٠٠ وكان في سنة ١٧٥٠ ابتداء الجغرافيون بتقسيم انواع اراضي الكرة الارضية الى اراضي اولية وثانوية وثالثية الى غير ذلك مما هو شائع في عرفهم الآن

(مائة الساعة) وفي سنة ١٧٥٣ اوجد بنجمن فرانكلان الامريكاني الذي خلد اسمه ببيان الامور المتعلقة بالاجاذب المغناطيسي الآلة التي تجذب الساعة من السحاب وتدخل بها في جرف الارض وكان اول من تجاسر وقال لها هل انت الاشيء كهربائي ثم وضعت الآلة المذكورة اولاً فوق البيوت بمدينة فيلادلفيا من البلاد المتحدة الامريكانية في سنة ١٧٦٠ وينسب المورخون هذه الماثرة للانكليزي لان الشعب الامريكاني كان وقتئذ لم يزل تحت احكامهم

(آلة الخياطة) وفي سنة ١٧٥٥ اخترعت آلة الخياطة في بلاد الانكليز (الهيدروجين) وفي سنة ١٧٦٦ اكتشف المعلم كاوندش الطبيب الانكليزي الهيدروجين ويقال الهيدروجين ايضاً ثم بعد ذلك اعني في سنة ١٧٧٦ اكتشف المعلم ماكير تركيب الماء من الاوكسجين الذي سبق ذكر اكتشافه في القرن السابع عشرون هذا الهيدروجين وصنعه منها وبعده ظهر الشهير البوزيه الذي كمال كياوي فرانسوا بتاج الشرف والفضل حيث ابدى المعارف الصحيحة المتعلقة بالتحليل والتركيب الثانوي للماء وكان ذلك سبباً لتولد الكيمياء الغازية

(انبوبة حمل الماء) وفي سنة ١٧٧٣ اخترع المعلم جون هوبنرست انبوبة الحمل المائي لرفع الماء من الانهر ثم حسنها موتيكوليه الفرنساوي (النروجين) وفي السنة المذكورة عرف الطبيب روثغور الانكليزي النروجين اي مولد النطرون ويسمونه ازوت ايضاً
(فن التنويم) وفي سنة ١٧٧٦ اخترع الطبيب مسير الالماني فن التنويم وفي هذه السنة ايضاً وقيل بل في غيرها اخترع الطبيب ادوارد جتر الانكليزي تطعيم الجدري من البقر فانتعت عليه الدولة الانكليزية بمبلغ ٣٠ الف ليرة استراين

(سيارات جديدة) وفي سنة ١٧٨١ اكتشف المعلم هرشل الفلكي الشهير الانكليزي كوكباً سياراً سماه اورانوس وهو اول الكواكب المكتشفة حديثاً وقد مر ذكر هذا الرجل الفاضل في الكلام على النظارات في القرن الماضي قال بعض المؤلفين ان هذا المعلم كان قد اتقن التيلوسكوب اتقاناً عجيبياً تمكنت بواسطته الابصار من الرؤية من مسافات لا تكاد تدرك من اقصى السماوات بحيث لو وجد انسان اخر امكنه ان يتقن هذه الآلة كانقائه لجوز العقل ادراك اقرب الكواكب اليها ادراكاً كلياً حتى يعلم ان كان فيها سكان او نبات او غير ذلك ثم بعده اي في سنة ١٨٠١ اكتشف رجل اخر يقال له بياطي كوكباً آخر سماه سيريس وبعد ذلك بسنة اكتشف رجل يقال له اوالبرس كوكباً ثالثاً سماه بلاس ثم بعده بسنتين اكتشف فلكي اخر يقال له هاردنق كوكباً رابعاً سماه وستة وبالاجال لازال الفلكيون يكتشفون نجماً بعد نجم الى ان صار والحالة هذه عدد ما اكتشفه الى وقتنا هذا يتجاوز ١٠٠ نجماً غير المعروف قديماً

(اجنحة الطيران) وهي اجنحة صناعية يتمكن الانسان بواسطتها من الطيران والمسير في الهواء واول من اخترعها كان حدادا فرانسواً يقال له ياسنيه ثم اشتغل بانقائها بلانشار وهو رجل فرانسوي ايضاً ولا زالت تتداول عليها افكار المهندسين الى ان تمهوها في سنة ١٨٧٨ على ما روتته بعض الجرائد

(البالون) وفي سنة ١٧٨٣ تخفى الاخوان مونتيفكونيه الفرانساويان خفة الهواء بتمده من حرارة النار فحطرها على القباب الطائرة المسماة بالباليون وصعدا فيها الى الجوّ في تلك السنة وبعد زمن تجاسر بعض الناس على الارتفاع فيها وكان ذلك اولاً بواسطة النار ثم لما ظهر الهيدروجين المارّ ذكره خطر البال استعمل بدل النار فاستنبط الماهر شارل المشهور بمسافر الهواء قبة من الحبر مصنوعة بكيفية لا ينفذ الغاز من مسامها وملاً القبة بتلك المادة التي هي الطف من الهواء وارتفع فيها الى الجوّ هو ورجل اخر من اصحابه يُسمى روييل جالسين في زورق معلق فيها ومن ذلك الوقت اشتغل الناس بانقاذها الى ان صعد فيها الماهر غالوساك في سنة ١٨١٤ صعوداً عجيّباً لم يفعلهُ احد قبالة فبلغ في الجوّ اكثر من ٧ الاف متر ورأى في هذا البعد ان السماء التي نشاهد ها زرقاء سوداء مظلمة وعسر عايه التنفس جداً وكان يتكلم بصوت عالٍ فلا يسمع من كلام نفسه الاً يسيراً

(المطابع) وفي سنة ١٧٩٠ اخترع رجل يقال له نيكولسون من انكلترة المطبعة الميكانيكية وهي تطبع من ذاتها بدون مساعدة الايدي . ثم في سنة ١٧٩٩ اخترع رجل يقال له لويس سنغلدر من مدينة براغ بالمانيا المطبعة الحجرية المسماة بلغتهم ليطوغرافيا

(الكهربائية) وفي السنة المذكورة ايضاً اظهر طبيب من بولونيا يقال له غلواني او كلفي الكهربائية الحيوانية فنسبت اليه وقيل لها الغلوانية وهذه الكهرباء تحصل باللس ثم وضعها المعلم فولطه ووضع العمود الكهربائي الذي ادّى كرويكس هانكس الانكليزي لعمل الحياض الكهربائية على ما يذكر ذلك في القرن التالي وكان قبل ذلك اصطنع المعلم كوينوس الحجر الكهربائية ويقال لها زجاجة ليد نسبة الى القرية التي عملت فيها

(البيل) وفي سنة ١٧٩٤ اصطنع رجل يقال له ولانا من فرانسوا البيل الذي يستعمل للتدوين والتلغراف الكهربائي

القرن التاسع عشر

يتأز هذا القرن بتقدم العلوم والفنون والمولفات العمومية والمباحث التاريخية نفدماً يفوق جميع الاعصر السابقة ثم وباتفاق جميع الدول المتمدنة في أوروبا على ابطال الاسترقاق والغاء استعباد النوع البشري على وجه الاطلاق وعقدت لذلك بينها معاهدات قوية اشتركت فيها الدولة العلية العثمانية والمخدبوية المصرية وبالجملة حكومة زنجبار الكائنة على شطوط افريقية الشرقية ايضاً

(الفلسفة) غير ان الفلسفة الجرمانية العقلية التي ابتدأت في القرن الماضي قد كانت في بدائة هذا القرن اضرت بالديانة في أوروبا وتسلبت الكفر بوقاحة على اشهر مولفات الممالك المتمدنة حتى ان الفلسفة والسياسة كادت ان تقوم مقام الدين لولا ظهور بعض العلماء الكبار مثل شليرمجر ومان ودبتي وهنكسنبيرغ وتولوك الذين حاموا عن روح الديانة بجرارة وفي الحال على هذا المنوال الى اواسطه ومن ثم تغير نوعاً وظهر شي من النشاط في فروع الديانة المسيحية الثلاثة اعني الكنيسة الكاثوليكية الرومانية والكنيسة الارثوذكسية اليونانية والكنيسة الانجيلية البروتستانتية واخذت جميعاً في بث التعاليم الدينية ونشرها في اقطار الارض على ما يذكر ذلك في ما يأتي

وقد كان شرع كثير من كفرة الفلاسفة في ايجاد مبدأ فلسفي لتاريخ العالم العمومي اي ايجاد الغاية التي لاجلها وجد الجنس البشري وبوجوبها تحدث جميع حوادث التاريخ لكن حبطت مساعيمهم وفشلت اراؤهم اذ انهم لم يتدروا

ان يحصلوا على مبدأ كلي نظير الموجود ضمن دائرة الدين قال صاحب الاصل انه لا نظام مرذر الذي جعل تقدم الجنس البشري هو الغاية العظمى ولا نظام شليغل الذي جعل الاتحاد المقدس في اثبات الحكم المطابق في السياسة والديانة هو المبدأ الكلي . ولا راي هبغل البروسياني الذي وجد هذا المبدأ في نهو الحرية الموافقة للعقل محتجاً بان هذه الحرية قد تمت في الحكومة البروسيانية . ولا نظام كومتى الفرنسي الذي انكر الفاسفة العقلية واللاهوت وجميع العمل الاصلية الفعالة ونسب الى العلم الايجابي المطلق قوة تجديد الجنس البشري ولا تعليم السوشياالين اي الكومون الذين يجعون كل شيء مشتركاً ويحسبون موازنة الحقوق والوظائف الطبيعية الغاية الوحيدة للتاريخ البشري . ولا نظام اخر من النظمات العالمية امكنه ان يفسر الحوادث التاريخية باسرها كما يفسرها كتاب الله وحده . وتقسم الفلسفة الشائعة في هذا القرن الى عدة اقسام وهي

(١) الفلسفة الفرنسية التي تقدم ذكرها عند الكلام على فرانسوا في

القرن الماضي كان ظهورها في سنة ١٧٩٦م وهي فلسفة مادية تنكرو وجود الله وتعلم الناس العبادة على اساس الديانة الطبيعية ورفض كل اعلان الهى وكان انعقد لها في باريس عشر جمعيات تحت ادارة رجل يسمى ابيوتسمت جمعيات المحبة الالهية والانسانية واستمرت الى سنة ١٨٠٢م عندما نهض شاتوبريان احد رجال الفرنسية للحمامة عن الايمان واثن كان الكافر الشهير قولني لا يزال ينادي بان كل عقل وكل فكر انما هو مشتق من المادة

(٢) الفلسفة الاكلينيكية وهي ان فيكتور كوسان في خطابات سنة ١٨٢٨

حول مجرى التفاسف الفرنسي حيث علم بساطان الحق المجرد وقاوم الفاسفة المادية المذكورة حتى خرقت فلسفته وان كانت غير منتظمة عقول الفرنسيين اجمع ونسبة هذه الفاسفة الى الدين هي سلبية لا ايجابية اذ انها ترفع شان العقل المطابق واما الشهير اوغسط كومتى الذي مر ذكره فاختلف مبداه عن مبدأ هذا المذهب العقلي حيث انه ذهب بان الطريقة الوحيدة للتفاسف هي استنتاج

المبادي من مجموع الحوادث والاختبارات وانكر جميع العمل الاصلية وجميع النافعيل الفعالة وكل اللاهوت والعلوم العقلية على ما ذكرنا انما حتى انتهى الى انكار وجود الله سبحانه بكل وقاحة

(٢) فلسفة فرانسوا الكاثوليكية وهي فلسفة تقاليدية واصحابها بقاومون الفلاسف العنلي واشهرهم ديونال وبوتين وديمسبير وكراتري واما ديلامني فرفض في نظامه الفلسفي مبدا التقاليد الذي كان قد حامى عنه بفصاحة

(٤) الفلسفة في سكوتلاندا وانكلترة وهي ان علماء الانكلتزا اشتبهوا في الفلسفة العقلية جدا في هذا العصر واظهر وربرد في سنة ١٧٩٦ اراء سديدة احييت فلسفة انضل في فرانسوا وايطاليا ثم حامى دو كمال سفورت عن هذا النظام بخطابات فصيحة في سنة ١٨٢٨ وكان توما برون قد ضاده قبل ذلك اعني في سنة ١٨٢٠ بدون شباح واما السيد وليم هاملتون فقد حدد الفلسفة السكوتلاندية بدقة عجيبة وعلم تام اذ انكر كل معرفة ايجابية ومجردة من جوة ما هو غير محدود ومطلق وجعل الايمان اساسا للفلسفة والمداينة معا واما نشالرس فدافع عن المسيحية مهاجمات العلوم الطبيعية

(٥) المذهب الحسي في انكلترة اشتهر فيه بوحناس توردميل الذي تبع كومبي وكواريج واحي روح التخيلات العقلية غير انه لم يؤسس مذهبيا فلسفيا والكنيسة المريضة في انكلترة (وهي غير العالية والواطية) تنسب بداءها لفلسفته

(٦) الفلسفة الجرمانية وهي الانتقادية والتخيلية المنكرة للوحي التي ظهرت

في القرن الماضي وقد تجددت قواها في هذا القرن من ادبيات كنت اذانه جعل العقل الحاكم الاعلى من جهة الحق بانكاره على امكانية معرفة الامور في حد ذاتها معرفة مؤكدة وجعله طبيعة الانسان الادبية اساسا لكل برهان على وجود الله والحريية وخالود النفس واما بوحناس فشتي الذي ولد في سنة ١٧٦٢ ومات سنة ١٨١٤ فجعل ذاتية الانسان هي المقدمة المسلم بها في الفلسفة ثم شرح تعليم التصور الداخلي وفي بداءة تعليمه جعل النظام الادبي في العالم الها ولكن

سلم أخيراً بوجود الله حقيقي وفريدريك يعقوبي الذي مات سنة ١٨١٩ حاجاً في المحاسبات الدينية واعتقد أن لكل إنسان تصوراً داخلياً يقدر على أن يتصور به الله وضاد التعليم التخيلي والبانتيستي . وشلن ذهب إلى أن الإرادة مطلقة والله حر لكن فيه تعالى سبب وإساس يستلزمان وجود الطبيعة التي تخرج منها ضرورة . ثم قام هيكل سنة ١٨١٨ وعلم بان الله لم يشعر بشيء قبل وجود الإنسان وأن أصل كل فلسفة وكل وجود هو مجرد التصور وقائم البراهين على وجود الله والمحربة والمجاد التي بنامها كنت المار ذكره على التعقل العملي وانصبت فلسفته إلى كفر مبين . وأما سنروس وهو من تلاميذ هيكل فشرع في انتقاد الكتب المقدسة وحول الإنجيل إلى حكايات وامثال إذا اعتقد أنه لا يمكن تصديق وجوده هجئة أونبوة أورمز ثم ظهر فريدريك بورورفرض التاريخ الإنجيلي وركب تاريخاً جديداً يوافق فلسفته ورفض بعض ما ورد في الإنجيل والرسائل وتصرف في الكتب المقدسة تصرفاً وقحاً مضاداً لكل المبادئ التاريخية والعقائدية

(٧) الفلسفة الايطالية وهي ان كالوبي الذي ولد سنة ١٧٧٣ وتوفي سنة ١٨٤٦ علم في نابولي فإسنة ريد والاب فتتورا فسر كل نوع من الفلسفة أياً كان بحسب ما تقتضيه قوانين المجمع التريديتيني . وأما الفيلسوفان الايطاليان وهما جيوربرني الذي توفي سنة ١٨٥٢ وسرباني الذي توفي سنة ١٨٥٥ فانها حامية عن الديانة ضد الفلسفة العقائدية والبانثياستية وما قاله جيوربرني ان علة كل وجود وجود وان تصور وجوده اسمي اخر تصور العقل

(٨) الفلسفة السوشياستية اي الكومون وهي اشتراك الكل في كل شيء فالكونت سانسيون الذي مات سنة ١٨٢٥ شرع في انشاء مسيحية جديدة بواسطة رفع حقوق اصحاب الاشغال وتجديد حقوق الجسد فنظم نظاماً سياسياً حاج به قومه تحت رياسة بازارد وانفانتين على حكومة فرانسوا وعصوها فاخضعتهم الحكومة سنة ١٨٢٢ ثم ظهر روبرت اوبن ونظم جمعية لاجل تحديد نظام

الاشغال والمهنة الاجتماعية وتبعه نحو نصف مليون من الناس في انكلترا . وفي سنة ١٨٥٤ علم بمجاورة ارواح الموتى . واما نظامه الادبي فليس هو الا خراب وفساد . وهناك رجل اخر يقال انه كارلوس فورير جمع جمهوراً في رامبولي سنة ١٨٣٥ قدره ١٨٠٠ شخص لاجل امتحان مبادي العيشة المشتركة فجعلوا كل شي مشتركاً ولكن هذه التجربة ذهبت سدى . ثم ان لويس بلانك شرع في الثورة الفرنسية التي وقعت في سنة ١٨٤٨ بان يتم بالفعل هذه المبادي وبذلك جعل الانقلاب ونادى برودون بان كل ملك سرقة وليس لاحد حق ان يقتني راس مال ثم ظهر الكومون الذي انتشر حديثاً بجمعية الانترناشمال التي جلبت على ذاتها العار وبفضة الجنس البشري لها بما ارتكبتة من الفواحش البربرية في احراق مدينة باريس سنة ١٨٧١ كما يتضح ذلك مما ياتي

وهنا نذكر في مقابلة ذلك توضيح ما اشرنا اليه في ما مر من النشاط الذي اظهرته فروع الديانة المسيحية في تلك التعاليم الدينية وذلك بواسطة جمعيات خيرية تربت في اوروبا لهذه الغاية وكما انه لا يوجد في عصر من الاعصار السالفة امتداد للكفر بهذا المقدار يحاول اربابه نشره في العالم كذلك لا توجد جمعيات هذا مقدارها لتابيد الديانة ونشرها في الربع المسكون عند كل البشر اذ انه يوجد نحو ٣٠٠٠ كاهن معينين لهذا العمل من الكنيسة الرومانية و ١٥٠ جمعية لها ١٥٨١ مبشراً و ١٣١١ مساعداً لهم بصرف عليهم نحو مليون ونصف ليرا استرلين من الكنائس الانجيلية . اما الكنيسة اليونانية فلها في روسيا جمعية لا تتشار الكتب المقدسة ومبشرون لاجل تبشير الامم في الصين واليابان وبلاد الفرس والقوقاس وسيبيريا وكشتكا وهم جميعاً سائرون على قدم النجاح بين الوثنيين هناك

اصول شعوب الدول الافرنجية الحاضرة ومراكز تقدماتها
الحالية في القرن التاسع عشر وفيه مطلبان

المطلب الاول

في الكلام على دول اوربا القديمة التي تأسست من الشعوب المنبرية
الهاجرة على الامبراطورية الغربية

(ايطاليا) وكانت ايطاليا لحد اواسط القرن التاسع عشر منقسمة الى
سبعة اقسام كما يستبين ذلك ما تقدم من الكلام عليها الى نهاية القرن الثامن
عشر وهي اولاً ساردينيا اوساردو ثانياً لومبارديا ثالثاً بارما رابعاً مودينا
خامساً توسكانا سادساً بلاد الكيسة الرومانية سابعاً نابولي وسكانها جميعاً
تُعرف اصولهم مما ورد في الفصول السابقة ايضاً وجهه ١٢٩ و ٢١٦
وكان من اشهر هذه الاقسام قسم نابولي الذي من مدنيه كستل امارة
المشتمرة بموت بليناس القديم فيها بالهرم واغريجان التي بجزيرة سيسيليا المسماة
بجزيرة صقلية وقد خرج منها امفيد وكل الفيلسوف الذي تكلم على الجوهر الفرد
بعد فيثاغورس ومدينة سيراقوسة وطن ارشيدس المهندس الذي قتله احد
الجنود الذين كانوا محاصرين هذه المدينة لكونه لم يجاوبه على خطابه اذ كان
مدمم الاشتغال باختراع الآلات الحربية وصنعها الذب عن تلك المدينة في

سنة ١٢٨١م ومن مدنها ايضا ترنتة التي بالقرب منها توجد عناكب تسمى ترنتولة كانت سبباً لكثير من الحكايات المفضلة ثم تبين الآن ان سم هذه العناكب ليس خطراً الا على بعض هوام تفتدي به

وكان هذا القسم بعد اجلاء الدولة الارغوانية محكوماً بملك من عيلة بريون ملوك فرانسوا وكريسيه مدينة نابولي التي ينسب اليها وهي من مدن اوروبا الظريفة واكبر مدنتي في ايطاليا وبها كثير من المباني العظيمة وبيوتها وقصورها من اطراف البيوت والنصور لكنها لا تصل الى درجة رومية وبها برابي ظريفة واهرام حسنة وحنفيات تأتي اليها الماء من عبون بالجبل وحرارتها نظيفة مباحة بحجر اسود تذفه جبال النار وبها ديوان علوم جامع ومدارس علوم وعدة مجالس مشورة العلماء وكتبخانات ملكية ورواق فيه اثار القدماء المستغربة وقايريقات للحبر والكتان والظن والجوخ والورق والآلات الحديدية وصاغة للذهب والفضة ومعامل للشهيرة المسماة مقرونه وهي كثيرة التجارات واهلها ٣٥٠ الف نفس وفي مدينة اخرى من توابعها يقال لها سارنه مكتب طب شهير من القرن الخامس للميلاد وفي مدينة غيرها تسمى كوزنزة اكدمية (اي مجمع علماء) من اشهر اكدميات اوروبا

وقسم ساردينيا الذي من مدنها جنويزه التي خرج منها كرسيف كلب الذي اكتشف بلاد امريكا في القرن الخامس عشر وكريسي هذا القسم كان مدينة تورين الظريفة تحتوي على ٩٠ الف نفس ويوجد فيه من المدارس الجامعة ثنتان واحدة في تورين المذكورة والاخرى في مدينة يقال لها كغاياري واخيراً جمع هذا القسم كل مالک ايطاليا وجعلها مملكة واحدة كما ينضج ذلك في ما يأتي

وقسم لومبارديا ويقال له لبرد البنادقة او مملكة ونديق الداخلة تحت حكم النمسا خرج منه عدة مشاهير في الزمن القديم كالحكيم بليناس الذي مر ذكره في الكلام على نابولي وهو من مدينة يقال لها ورونة لا زال يوجد بها ميدان

عظيم كان الرومانيون القدماء ينصبون فيه التتال بين الوحوش وخرج منها
ايضاً المورخ تيتلوه الذي مرّ ذكره في الكلام على المعارف عند الرومانيين
والمعار بلديو الذي تعلم الهندسة من المباني القديمة الموجودة في مدينة ويسنسة
التي هي وطنه والشاعر ورجيل وقد مرّ ذكره مع تيتلوه المذكور

وكان كرسي هذا القسم مدينة ميلان ومحموي على ١٤٠ الف نفس خرج
منها عدّة باباوات وغيرهم من اكابر الافرنج وقد اصبحت منها الاداب منذ
انقراض العائلة السفسورية في القرن السادس عشر كما اصبحت فيو ايضاً من
نابلي بعد اجلاء الدولة الارغوانية غير انها لازالت الى الآن من اطرف مدن
ايطاليا وفيها عدّة كنائس جميلة كانت سلاطين النمسا تليس تاج ملكة ايطاليا
في واحدة منها تسمى سنت امبروازة وبها تياترو عظيمة ومن نوابها مدينة البندقية
التي اليها ينسب القسم بتمامه مبنية على ٧٢ جزيرة فيمكن للانسان ان يسلك في
جميع جهاتها بزوارق صغيرة وفي هذا القسم يوجد مدرستان جامعتان واحدة
في قسم ملكة بادوه والثانية في مدينة بادية ومعامل الدراتي والبلور في مدينة
مورانى

اما بلاد الكنيسة الرومانية فكان كرسي ملكها مدينة رومية التي بعد ان
كانت فيما سلف قصة لاعظم مالك الارض كما يعلم ذلك من الابحاث التي
مرّت في كثير من محلات هذا الكتاب وخرج منها عدّة من مشاهير الرجال
العظام لم تكن لحد سنة ١٨٦٩ الا قصة لهذا القسم فقط على ما ذكر ومركزاً
للاحبار الرومانيين روساء الديانة الكاثوليكية وكان من نوابها مدينة فينزا
التي حدث فيها الخنزف المطلي الذي يسمونه الفينس نسبة اليها وتيبولي ذات
الوضع العجيب حتى ان هوراس الذي مرّ ذكره في الكلام على المعارف عند
الرومانيين اتخذ له فيها بيتاً في الخلا ومدينتا بولونيا وأورين اللتان كانتا وطناً
لكثير من مشاهير الافرنج على ما تقدم
واما شهرة رومية نفسها قديماً وحديثاً فهي غنية عن الاسهاب وهي لازالت

احدى مدن الارض الغربية بكثرة مبانيها العجيبة وجمال هياكلها الفاخرة
 وقصرها العظيمة وما فيها من اثار القدماء وحوزها للتحف المستظرفة التي هي
 ثمرة الصناعة حتى ان الفنون التي يجري فيها الماء اليها عدها بعضهم من عجائب
 الدنيا السبع على ما سبق ذكر ذلك في محله قال بعضهم ان عديها ٢٤ واطولها
 يبلغ نحو ٦٠ ميلاً فانه في بعض المواضع جبال شاهجة مثقوبة لاجلها وفي مواضع
 اخرت تتطوع اودية عميقة على قناطر عظيمة يبلغ ارتفاعها ١٩٠ قدماً وفي هذه
 المدينة ايضاً كنيسة الرسولين بطرس وبولس التي تم بناؤها البابا لاون العاشر كما
 ذكرنا ذلك في ما مرّ وهي اطرف كنائس الدنيا واجملها واكبرها

ويوجد في هذه المدينة مدارس كبيرة للطائفة اللاتينية وكانت دولة فرانسوا
 انشأت فيها مدرسة لتعليم الفنون المستظرفة ايضاً وكذلك يوجد في بولونيا التي
 مرّ ذكرها مدرسة جامعة من اقدم مدارس ايطاليا واكمه علوم ومع كل ذلك
 قد ذكر في بعض النشرات بانه في سنة ١٨٦٤ كان يوجد في الايلات المختصة
 بهذا القسم من كل ١٠٠٠ نفس ٩١٢ نفساً لا يعرفون القراءة والكتابة بمقتضى
 دفاتر الحكومة بعد احصاء كل الشعب والباقي القليل يُحسب بمجته اهل
 الاكايروس ما بين اساقفة وقسوس ورهبان وراهبات يوجد منهم نحو ٦٠٠٠
 نفس في ذات مدينة رومية وحدها

واما قسم التوسكانا فكانت قاعة دوقيته لحد سنة ١٨٥٩ مدينة فلورنسا
 وهي موضوعة في وادي نضر ظريف وفيها عدة اكميات وكتبجانات وقصور
 منيفة وبساتين انيقة طريقة ومن مبانيها كنيسة الاصلية وكنيسة سنت لورانت
 التي بناها البابا لاون العاشر وقد ذكر ذلك في محله ما مرّ وسراية الدوق
 الاكبر المشتملة على مجمع التصاوير والتماثيل العظيمة واثار القدماء وبها كثير من
 احوال الحرير وقاشه بسى افلورنس وتجارها عظيمة وهي وطن امرى الذي دخل
 بلاد الدنيا الجديدة وعرفها وألف فيها رحلة فاشتهرت باسمه على ما تقدم
 ايضاحه في الكلام على اكتشاف امريكا ويوجد في البلاد التابعة لهذا القسم من

المدارس الجامعة واحدة في سبانه واخرى في بيزة التي يوجد فيها ايضا قلعة عجيبة مبنية من ثمان طبقات مائتة على احدى جانبيها كأنها آخذة في السقوط فيخاف الغريب ان يربح جانبيها ذكرها بعض المؤلفين فقال هي كنيسة عظيمة ذات صومعة نسي المائتة وهي بروج النواقيس وبها مقابر نسي كمبوستون نقل اهل بيزة ترابيها من بلاد القدس في ٥٠ غليوناً ومن بيزة هذ خرج جالينوس الطبيب ايضاً

وكان قد طراً على سكان اغاب هذه الاقسام المذكورة الرق والاستعباد ما عرض على حكامها من التغيير والانقلاب حتى صاروا في حالة شتان ما بينها وبين ما كانوا عليه من قبل نعم ان بعض العلوم والفنون كان لازال مفرد وما في بعض اقسام منها لكن بهجة ليست في رونقها الاول قال بعض المؤلفين ان سبب عدم نمو العلوم في هذه المملكة (بيزة الازمنة الاخيرة) هو فقد الحرية ولذلك ترى اكثرها اليها الان مع ما هم عليه من المحدة والفكامة في حالة الجهل والغباوة وترى رهبانها الكثيرة من الذكور والاناث وهم على ما قبل واحد في كل مائة رجل يتمتعون بجزيرات تلك الاراضي المروية بالترع العديدة وغيرها من الوسائط الاخر المنسوب استنباطها الى الرومانيين القدماء لاجراء الماء من مكان الى اخر ويختطرون في طرقها الشهيرة التي اصطنعها اولئك الرجال العظام فهي تخرق الجبال بسراديب طول بعضها ٢٦ ميلاً وعلو بعضها ٨٠٠٠ قدم وتقطع الاودية بجسور معتبرة ويسكنون في تلك الابنية الفاخرة البهية والتصوير الواسعة الساطانية التي لا يوجد مثلها في العالم

غير انه لا بد ان يرجع اليها شيء من رونقها القديم اذ انه بعد ان انضمت اقسام توسكانا ونابلي وسيسيليا الى ساردينيا في سنة ١٨٥٩ واصاروا جميعاً ملكة واحدة تحت ساطنة الملك ويكتور عمانوئيل ملك ساردينيا بسعي ونشاط الجنرال يوسف جاريبالدي انضمت اليها كذلك رومية وسائر البلاد التابعة لها بعد خروج العساكر الفرنسية الذين كانوا يحفظونها منها عقيب سقوط

نابوليون الثالث عن عرش المملكة الفرنسية في سنة ١٨٧٠ وصارت جميع اقاليم ايطاليا مملكة واحدة تحت نملك الملك ويكون المشار اليه وقد كانت حُسبت الدبورة الموجودة في قسي سارد بينا ونابلي فقط علاه عن باقي الاقسام فوجدت ٢١١٩ ديراً للذكور و٢٧٢ ديراً للاناث وكان عدد الرهبان الساكنين فيها من الذكور والاناث نحو ٢١٠٠٠ ويراد هذه الدبورة جميعاً نحو ٥٢٢ الف ليرا فامر هذا الملك بضبطها وبترجيع الرهبان والراهبات الى عيالم وعين هذا الايراد المذكور لانشاء مدارس كبرى وصغرى لتعليم الشعب في الاماكن التي كانت تسكنها الرهبان واقام لها وزيراً خصوصياً لمناظرة احوالها فجاب هذا الوزير اليها من بلاد بروسيا وامريكا احسن نظام واحسن الكتب وبوجد الان فيها على ما ذكر في بعض النشرات المطبوعة في سنة ١٨٧١ ٢٥ الف مدرسة تحتوي على ٢٢٠ الف تلميذ وياح ايضاً هذا الملك في بلاده التعبد في جميع الاديان وكان قبل ذلك لا يباح فيها الا التعبد بالمذهب الكاثوليكي ومن ثم اخذت اهالي المملكة الذين يبلغون والحالة هذه نحو ٢٧ مليوناً من النفوس في التمدن والتهديب

(فرانسا) واما فرانسافهي البلاد التي كانت تسمى سابقاً غالة ودخلت تحت حكم الرومانيين منذ افتتاحها يوليوس قيصر الروماني ومكثت تحت حكمهم ٥٠٠ سنة فادخلوا بها غراسات كثيرة لم تكن موجودة فيها جلبوها اليها من عدة اقاليم مختلفة كما هو دأبهم في البلاد التي كانوا يفتتحونها على ما ساقه الحديث فسبقت الاشارة اليه عند الكلام على حالة روسيا في القرن الخامس عشر ثم في القرن الخامس بعد الميلاد غلبت عليها قبائل جرمانيا المتبريرة وامتلكتها طائفة منهم تسمى افرنك فتسمت حينئذ فرانساف ومن ذلك الوقت الى الان لم تدخل في يد دولة من الدول الغربية وقد سبقت تفاصيل تقدماتها الى نهاية القرن الماضي ثم بعد الثورة التي جرت في هذه المملكة عند ختام القرن المذكور على ما تقدم ايضاحه قام فيها

نابوليون الأوّل من عائلة بونا بارتة بصورة رئيس او هو قنصل اوّل على الجمهورية الفرنسية ثم بالنالي تولى امبراطوراً في سنة ١٨٠٤ وكان في مدة قنصلية اعد الى فرانساهاجري الفرنسية الذين كانوا تزحوا منها في زمن الثورة وردهم الى اوطانهم واعاد كذلك الدبانه ورتب المدارس والمواد التعليمية ترتيباً جديداً ونظم المدرسة التي كانت احداثها مشورة السنن الاهلية وهي مدرسة كليات العلوم ورتب عمارة الانستيتوت وهو مجمع العلماء الذي انشأته الحكومة الادارية وجمعت فيه مشاهير العلماء العظام وكابر الادباء الاعلام واحداث رتبة الشرف المسماة ليجيوندينور وجعل لها علامة تشريفية تعطى لمن نصح في خدمته للوطن واصلح الطرق والمواني والقلاع في المملكة وشرع في انشاء مجموع شرائع وقوانين (وهو الكوتيشي) اخذته اغلب الممالك الاخرى فحجة انموذجاً وعمات به

ثم في سنة ١٨١٤ سقط هذا الامبراطور عن عرش الامبراطورية وتولى عوضه كرلوس العاشر من عائلة بوربون وصار حكم فرانساه من نوع الملكي المنفذ ولكن لم تطل المدة حتى تعدي هذا الملك شروط المملكة وابتدأ في المظالم فقام عليه الشعب وخلعوه من الملك في سنة ١٨٣٠ واقاموا مكانه لويس فيليب من عائلة اورليان وهي فرع من العائلة الملكية المذكورة ثم في سنة ١٨٤٨ طردوه من الملك فهرب الى بلاد الانكلن وعاد الحكم الى النوع الجمهوري تحت رئاسة لويس نابوليون الذي صار اخيراً امبراطور الفرنسية وتسمى نابوليون الثالث وفي ايام هذا الامبراطور ارتقت فرانساه الى اوج الفخار مادياً وادبياً وزهت زهاتها لم يسبق له نظير حتى صارت باريس في ايامه عبارة عن محكمة تفصل فيها منازعات قوّات الارض

وهذه المملكة التي كانت تخزوي على ٢٨ مليوناً و٢٨٣ الفاً من النفوس يتحكم فيها المذهب الكاثوليكي وبها كثير من البروتستانت والحرية مباحة فيها لسائر الادبان واهلها لطنا بالطبع واصحاب فنون وشجاعة في الحروب وهم من المروءة وشدة البأس على جانب عظيم ولم رغبة في الملاهي والملاعب والغنا والرقص

ولا يرغبون في السفر ولذلك كانت الطرق في بلادهم غير جيدة الى ان اخذوا منذ اكثر من ٣٠ سنة في اصطناع طرق الحديد المنتشرة الان في اغلب جهاتها وقصبة هذه المملكة مدينة باريس وهي الثانية من مدن اوروا بالنسبة الى الاتساع والسكان فيها اكثر من مليون من النفوس ومحيطها ٢٠ ميلاً وهي مركز تمدن الافرنج وعلومهم وادابهم المستظرفة خرج منها مشاهير كثيرون من عظمائهم وهي جميلة البناء مشحونة بالنصور والجنائن ومراسح اللهب والطرب ومن اضع التذوق فيها قصر اللوفر الذي كان يحتوي على تحف جميلة ثمينة وكنائس واديرة عظيمة واشد اعناء اهلها بكثرة في العلوم والفنون توجد بها مدارس عديدة ومكانت مشهورة في كل مكان يوجد فيه العلم ومن هذه المدارس مدرسة كاتية كانت تحتوي على ١٠ الاف تلميذ ومكتبة يقال بانها كان فيها مليون من المجلدات لحد سنة ١٨٦٧ ما عدا المكتبات الاخرى التي تحتوي كتباً كثيرة حتى يبلغ عدد الجميع نحو خمسة ملايين وهي مشهورة ايضاً بكثرة المطابع وسهولة اكتساب العلوم لان اكثر المدارس والفاعات الخطائية تكون مفتوحة لافادة الجمهور والدخول اليها مباح لكل من اراد استماع الخطاب من غير مانع وكان انشاها الامبراطور نابوليون الثالث المار ذكره المعرض العمومي وهو قصر عظيم من البلور معد للفرجة على جميع محصولات العالم واعماله وصناعاته كما يتضح ذلك من الكلام على الضنائع في ما ياتي وكان شرع بعمل هذا المعرض في لندن قصبة مملكة الانكليز قبل باريس لكن لما زاحمتها عليه فرانسوا واعنتت به الدولة اعناء زائداً واقنتته حتى الاتقان وكانت بلادها اقرب من غيرها لوجود اساكيلها على بحر الروم فازت به وبمنافعه اكثر من غيرها

وما ذكرناه هنا جميعه هو بالنظر لما كانت عليه هذه المدينة قبل ما فعاة فيها الكومون بعد انتهاء محاربتنا مع المانيا في سنة ٨٧٠ امن الخراب والفظائع البربرية بمخيم منها اكثر ما تزينت به من الابنية الجميلة والاثار الجليلية التي تقدرت قيمتها بنحو ٣٠٠ مليون من الفرنكات مع ان الالمانيين لم يريدوا ان

يجوروا في اطلاق كرات المدافع عليها كيلا ينجسوا جبالها بخراب او تلف شيء من محاسنها اما الكومون المذكور فانه عمل فيها اعمالاً احزنت نفس اعدائها بحرقه قصر التوياري ومحل نظارة المالية وبالي روابال اي السراية الملوكة وسراية المحكمة ومكان ادارة البوليس ودار القضا وقصر الليجيوندينيور ومجلس المحاكمات ومحلة الحسابات وقصر اللوفر المار ذكره الذي كان يشتمل على غالب التحف والاثار النفيسة كالتمثال المسمى ابا الهول وهو من الصوان مستجاب من الديار المصرية والصور والتماثيل البديعة الصناعة التي اشتغلها المعلمان انكرو ودولاكرو والنقوش الحجرية التي وجدت في خرابات نينوى وبدايع اخرى من اشغال الرومانيين واليونانيين وجواهر واحجار كريمة منقوشة نقوشاً عجيبة في القرون الوسطى واواني فخارية من صنع المعلم برنردوس الشبير وكسروا عامود قائموم المقام تذكراً لنا ببوليون الاول وهدموا الكنيسة المقامة تذكراً للويس السادس عشر وغير ذلك من حرق جادة تيارات شهيرة وقشل عسكرية وطرق حديدية وحاتر بجلتها فضلاً عن البيوت المنردة التي اخنصوها بالحريق كبيت موسيو تيرس وغيره.

لكن روساء الجمهورية الفرنسية الذين تولوا تنفيذ الاحكام في هذه المملكة بعد انتهاء الحرب بسقوط نابوليون الثالث اسيراً في يد الالمانيين واولم موسيو تيرس المار ذكره فانه اجتهد في ابقاء الضريبة التي ضربتها المانيا على فرانسوا في نظير مصاريف الحرب وقدرها خمس مليارات فرنك لاجل ان تقوم العساكر الالمانية من بلاد فرانسوا قبل حلول الاجل المعين لدفعها وثانئهم المرشال ماكاهون الذي تولى بعده ولا زال حتى الان فانه اخذ على نفسه اصلاح احوال هذه المملكة وترميم شعنتها واعادة ما اندثر من مفاخر مدينة باريس وزينتها وبذلك اظهرت الامة الفرنسية صبرها وعظم اقتدارها لانها مع ما قامت به من ابقاء هذه الضريبة الفاحشة وخسارتها مناطعتي الانزاس واللورين اللتين تحثويان على ١١٤١٦٨٠ من النفوس بضمها الى مملكة المانيا

على منتضى شروط المصالحة التي ابرمتها المانيا عليها قد ظهر منها الان من الجهد والاجتهاد في اتمام هذه المشروعات العظيمة وغيرها ما يعد من خوارق العادات والممكنة البشرية كانوا لم نعبأ قط بشيء من هذه النوائب بل قد روت بعض الجرائد ايضاً انها بنت حديثاً قبة جرس في كاتيدرال روان علوها ٤٩٢ قدماً من الحديد المصبوب مع ما هي فيه من الجمالة التي اشرنا اليها

ومن مدن فرانسايضاً مدينة ليون التي هي من امهات مدن هذه المملكة وثاني مدينة من مدنها نظراً لعمارتها وبراعتها في الصنائع والتجارات ويوجد بها من المعامل ٢٤ الف عدة اودولاب وكذلك في مدينة مرسيليا ذات الميناء العظيمة على بحر الروم تسع الفاً ومائتين سفينة وهي اقدم مدن فرانسايها مهاجرو اليونان سنة ٦٠٠ ق م توجد معامل كثيرة ايضاً ومحل الكرتينا يعد من منتزهات اوروبا ومنها خرج عدة من مشاهير الفرنسيات وبلي هذه المدينة مدينة بردوهي ايضاً ذات ميناء تسع الف سفينة ويمكن السفر منها الى بحر الروم بواسطة ترعة لغدوك وفيها يصطنع الخمر المشهور وهي ذات تجارة عظيمة واغني مدن المملكة ومن مدن فرانسايضاً مدينة طولوزة ذات المدرسة العظيمة التي هي اقدم مدارس اوروبا ونسب مدرسة الالعاب انشاها اكلتس بزورة فكانت اول اساس وضع في فرانساي للفنون وللاداب ومن هذه المدينة خرج كذلك عدة من اكابر الافرنج ومنها مدينة متس او متر وفيها مكاتب للمساكر الطوبجية والهندسة البحرية ومدرسة سلطانية ومجمع علماء عظام وخزانة كتب تحوي على ٦٠ الف مجلد ورواق للطبيعيات ومراتبها الثلاث وبها ابنة مشيئة منها كنيسة عظيمة مبنية بالبناء القديم ومنها مدينة اجاشيا بجزيرة كورسيكا التي ولد فيها نابوليون الاول ومنها مدينة استراسبورغ ذات المباني العظيمة وفيها احدث يوحنا غوتفريغ المينسي الطباعة. وهذه المدينة ومدينة متر المار ذكرها ليستا من المدن الفرنسيات وانما الحقتا الى فرانساي في القرن السادس عشر وقد خربتا خراباً مريعاً في حراية سنة ١٨٧٠ حتى ان استراسبورغ هذه خصص لها امبراطور

المانيا ٥٠ مليون فرنك من اصل التضمينات التي اخذها من فرنسا نظير ما اصابها من الاضرار بعد ان سلخها عن فرنسا وضمها الى بلادها وفي هذه المملكة توجد ابراج وقصور وحصون وابنية حسنة جداً ليس لها نظير في الدنيا وكثير من الآثار القديمة مثل قبور وسراديب وهياكل ومجاري للماء وحمامات من بناء الغالة والرومانيين القدماء و ٢٤ نبعا معدنياً اكثرها تحت مناظر اطباء مقامين من طرف الحكم لاجل صحة المرضى الذين ياتون اليها

وذكر في احدي الجرائد المنشور في سنة ١٨٧٠ بان دولة فرنسا كانت صرفت في سنة ١٨٦٥ (٧٣) مليوناً من الفرنكات في سبيل التعليم وكان عدد المدارس العمومية والخصوصية في سنة ١٨٦٦ (٧٠٦٧١) مدرسة يوجد بها من التلامذة ٤٥١٥٦٧٦ وعدد المدارس الرشدية فيها ٢٢٥٨٢ وعدد تلامذتها ٨٢٦٥٣٥ وقامت الدولة بمصرف ١٧٦٧٢٥١ تلميذاً اما المدارس العالية جداً فقد اُقيم منها جديداً مدرستان لتعليم القوانين (الشرائع الفرنسية) في دوي ونانسي وثلاث مدارس لعلم المعاني والبيانات والمنطق في كلرمون ودوي ونانسي وخمس مدارس للفنون والعلوم التعليمية في كلرمون وايل ومرسيليا ونانسي ولويتير وعدد تلامذتها جميعاً في سنة ١٨٦٧ كان ٧١١٥ تلميذاً

واكثر اهالي البلاد يعتنون في الفلاحة والزراعة وقد بلغوا درجة عالية في هذه الصناعة ومع انهم لا يرغبون في التجارة فقد تقدموا فيها كثيراً من برهنة ليست اكثر من نصف قرن حتى صاروا من اشهر اهالي اوربا في الامور المنجارية ولم انوال وورش ومعامل عديدة لارباها اليد الطولى في الصنائع الدقيقة ولكن اكثر معمولاتها يُقصد به الظرافة اكثر من المنفعة والامانة اللتين تعتمدها الانكايير واصول هذه المعامل هي معامل السبك والحديد وورش الاسلحة والقناديل الافرنجية وفبريقات الساعات والطونج والصاغة والفزاز والفخار والصيني والبور والتلجيات والصيدلانيات وورش الصباغة والورق والطباعة

والحرير والكتان والشبيكة (النول) والجوخ وقاش القطن والصوف
والسجادات والبسط والعرق والزيت والصابون وتكرير السكر والملح ومعامل
النشادر والديغ والنخل والطواقي الافرنجية وبرانيط النساء وحروف الطباعة
والكتب والحلي وامتعة البيوت التي تُعمل من اخشاب غاباتها مثل الصناديق
والطاولات الافرنجية والكراسي والاسرة وغير ذلك ومن اشجار هذه الغابات
ايضاً نوع من شجر البلوط قشره هو النخل

(اسبانيا) واما اسبانيا فكانت في الزمن القديم جزءاً من المملكة
الرومانية ايضاً استمرت خاضعة لها مدة ٤٠٠ سنة ثم استقلت بذاتها الى ان
استفتحها العرب في الجيل الثامن لما دخلها طارق بن زيد في خلافة الوايد
بن عبد الملك بن مروان سادس الخلفاء الامويين لكنهم لم يملكوا على البلاد
كلها بل بقيت الالهالي الاصلية في شمال المملكة وفي الجبال والاماكن المستوعنة
وكانت الخلفاء من بني امية يرسلون اليها عمالاً من دمشق الى ان انقرضت
دولتهم وخلفتهم الدولة العباسية فقام عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن
عبد الملك الأموي ونفد الملك بها وعصى الخلفاء بني العباس فصارت الخلافة
الاموية في المغرب والعباسية في المشرق وسموا تلك البلاد بلاد الاندلس وكان
تحتهم في مدينة قرطبة واستمروا على ذلك الى اوائل الجيل الثالث عشر حينما
نقوى عليهم اهل البلاد الاصليون وطردهم منها ومن ثم اخذت اسبانيا في الارتفاع
والتقدم وقويت شوكتها جداً وامتلكت املاكاً واسعة في امريكا عندما اكتشفها
كرستف كولمب بمساعدة الملكة ايسابلا على ما تقدمت تفاصيل ذلك في الكلام
على القرن الخامس عشر

ثم بعد ذلك اخذت هذه المملكة في الانحطاط حتى صارت الان لا تحسب
بين الاقران المعتبرة واهلها في حالتي يرثي لها وذلك من جراء الحروب الداخلية
وكبرياء الالهالي والتعصب الواقع بينهم ولغتهم من اللاتيني وبعض لغات

قبائل شالية كانت تغلبت على هذه البلاد وسكنت بها وإنما لازال عندهم كثير من الأشعار والفنون اللغوية وكان ظهر بينهم خلق كثير من المولدين المشهورين اخذوا جانباً كبيراً من علومهم عن العرب وبواسطتهم دخلت العلوم الى بلاد اوروبا على ما سبق ايضاحه في المطالب الاول من امتيازات القرن الخامس عشر

وكرسي هذه المملكة الآن مدينة مادريد وهي مدينة حسنة اهلها نحو ١٧٠ الف نفس وبها ابنية فاخرة من الدور والكنائس والمدارس والمكاتب والقصور وفيها كمنجانية سلطانية لازال يوجد بها ٢٠٠٠ شبلد من خزانه كتب الخلفاء وعلى مسافة ٢٢ ميلاً منها دار من دور الملك تُحسب من افخر ابنية الدنيا ومن توابع هذه المملكة مدن واماكن كثيرة مشهورة في الكتب العربية واما لي البلاد جميعاً نحو ١٧ مليوناً والدين المتحكّم بها هو المذهب الكاثوليكي وكان لا يُباح بها التعبد بغيره اما الان فالحرية مطلقة بها لسائر الاديان

(البرتوكال) وكذلك بلاد البورتغال كانت خاضعة للرومانيين في الزمن القديم مثل اسبانيا وكان اسمها عند اليونانيين والرومانيين لوسبستانيا واهاليها من اصل اهالي اسبانيا ويشبهونهم في اللغة والاخلاق والعوائد ثم استقلت بنفسها سنة ١١٣٩ واشتهرت في الجيل الخامس عشر وامتدت املاكها في الشرق وفي امريكا وهي التي اكتشفت طريق الهند بجزراً على رأس الرجاء الصالح كما سبقتم تفاصيل ذلك في المطالب الثاني من امتيازات القرن الخامس عشر وصارت في القرن السادس عشر مملكة قوية جداً ولكنها اُضيفت الى مملكة اسبانيا بعد وفاة الملك سبستيان سنة ١٥٧٨ اذ كان لم يترك وارثاً له ثم قام اهاليها سنة ١٦٤٠ واستقلوا غير انهم لم يحصلوا على ما كانوا عليه قبلاً من الحرية والسطوة والقوة براً وجزراً وكان لهم قديماً لا يمكن ان يدخل احد من اليهود الى بلادهم ولا الى بلاد اسبانيا البتة

ومن اعظم مدن هذه المملكة مدينة ليسبون وهي قصبة البلاد وفيها ابنية فاخرة جميلة وقصورها اجل قصور أوروبا وبها ١٤٠ كنيسة و ٧٥ ديراً ومكتبة فيها ٨٠ الف مجلد وسكانها نحو ٢٦٠ الف نفس
 وإهالي المملكة جميعاً نحو ٢٥٠٠ الف نفس وإراضي بلادهم مخصصة حسنة وفيها معادن غنية ولكنها قلما تُطرق نظراً لتباؤهم وكسلهم كما انهم لا يعنونون بالزراعة والزرعة ولا يوجد فيها الآن إلا قليل من المنجر والصنائع لسبب الحروب والمخاضات التي ابتدأت فيها من سنة ١٨٢٠ والديانة المتخكمة هي الديانة الكاثوليكية وفيها ٢٦٠ ديراً للربان فيها ٦٠٠٠ راهب و ١٢٨ ديراً للراهبات فيها ٦٥٠٠ راهبة ولا يوجد بها سوى مدرسة كاثية في مدينة كويبا وفي غيرها قليل من المدارس العامة ولذلك كانت علماءها قليلة

(انكلترة) اما انكلترة فهي الجزيرة التي كانت تسمى بريطانيا ولما تغلب عليها البرابرة الهاجون على الامبراطورية الرومانية في سنة ٤٤٨ م سميت انكلترة باسم طائفة الانكلسكسون الذين تملكوها وفي سنة ١٠٦٦ تغلب عليها الملك غليوم الفاتح دوق نورمنديا وعمرها بالنورمنديين ومن ذلك الوقت الى الآن لم يتغلب عليها احد من الغرباء وقد سبق الكلام على تقدمات هذه المملكة الى نهاية القرن الماضي

وهي الآن تحتوي على ٢٧ مليوناً من النفوس علماء عما يوجد من السكان في املاكها الخارجية كالهند وغيرها والديانة المتخكمة فيها هي المذهب الانجيلي البروتستانتى وفيها كثير من الكاثوليكين والمحربة مباحة لجميع الاديان وفيها من الحرية والانصاف ما لا يوجد غيرها من الممالك الأفرنجية
 وقصبتها مدينة لندن وتسمى لندرة ايضاً سكانها نحو مليونين من النفوس فهي اعظم مدن العالم ما عدا بكين قصبة مملكة الصين طولها ٧ اميال وعرضها ٥ وفيها ١٠ الاف سوق مبنية على نهر يسي تيس والناس يعبرون من احد

جانبيها الى الاخر على خمسة جسور منهم ٢ من الحجر و١ من حديد وكذلك يوجد تحت ارض النهر دهلين معتود باججارة واسع بحيث يمر فيه اكبر العربانات وهو طريق لم تحت الماء وفي هذه المدينة كثير من الابنية العظيمة ومن اشهرها كنيسة مار بولس وكنيسة وستيمستر التي فيها منابر العائلة السلطانية واكابر علماء الانكليز وصومعة وهي هيكل متسع قديم يضعون فيه صولجان ملك الانكليز وناجه وفيها مجلسان احدهما للاشراف ويدعى مجلس السادات واعضائه ٢٠٠ نفر والثاني مجلس العوام واعضائه ٧٠٠ نفر وهما يرتبان الزواجر التي اقيم لها محاكم ومجالس في كل بلدة ومناطقة

وروت الجرائد الاخيرة بانه عن عهد قريب اقيمت فيها ساعة اكبر من سائر ساعات العالم قطر مينائها ٤٠ قدماً ومساحتها ١٢٠٠ قدم وثقل عقربها وما يوازنها قنطار وطول عقرب الدقائق ١٩ قدماً اي نحو ٨ اذرع ويتقل كل ثانية $\frac{1}{2}$ قيراط فيقطع في الاسبوع ٤ اميال ولم تختلف في ١٧ يوماً اكثر من ٨ ثوانٍ

ومن هذه المدينة خرج عدة من اكابر المولفين مثل فرنسيسكو باكوس واضع القواعد الصحيحة للفلسفة العقلية ولاتون وبوبه وغيرهم منهم من قد ذكر في ما مرّ ومنهم من سوف ياتي ذكره

ويوجد في باقي مدن المملكة الانكليزية ٩ مدارس جامعة منها واحدة في مدينة ايدمبرغ التي ولد فيها المؤرخ الشهير هوم وهي دار علماء مشهورين واشهر مدارس الطب في بريطانيا وكان يدرس بها المعلم روبرتسون ومدرسة اخرى في مدينة يقال لها غلاسكو كان يدرس بها المعلم آدم سميث وقد مرّ ذكرهم جميعاً في الكلام على تقدمات هذه المملكة في القرن الماضي . وتوجد غير ذلك ايضاً مدارس متوسطة كثيرة والكتب رخيصة وصحائف الاخبار متعددة نظراً لما في بلادها من المطابع الكثيرة

وطرقات هذه البلاد مهيبة وتكثر بها طرق الحديد وسلوك التلغراف وقد

بلغ اهلها الى اعلى طبقة في جميع انواع الصنائع والمعامل التي هي اشهر معامل الدنيا تصطنع فيها جميع انواع الاقمشة القطنية والصوفية والبسط والآلات الحديدية وتباع بارخص الاثمان نظراً لاستخدام الآلات البخارية في عملها واذك كانت تجارتها اعظم تجارات العالم على ما تقدمت تفاصيله في القرون السالفة

المطلب الثاني

في الكلام على الدول التي حدثت بعد ذلك في الاقاليم الشمالية والشرقية التي كانت خرجت منها تلك القبائل التي سبقت الاشارة اليها في تعريف المطلب الاول

(المانيا) لا يخفى بان المانيا هي البلاد التي كان يُطلق عليها سابقاً اسم جرمانيا وكانت قديماً دخلت تحت حكم الرومانيين الا انهم لم يتغلبوا عليها كلها بل بقي منها ما لم يدخل في قبضتهم ومنها خرجت قبائل الهمل المتوحشين الذين لا يمكن عددهم كطائفة السويوة والافرنك والسكسون والوندال والهبردية وغيرهم ممن سبقت الاشارة اليه في صحيفة ٢١٦ وخربت بلاد اوروبا منذ مدينة قال بعض الجغرافيين ان هذا الجنس الجرمانى لا يعرف اصله ولا من ابن ابي اولاً

ثم لما افتتح كرلوس مانوس (اي الاكبر) هذه البلاد التي هي مصدر اجلاده الاصليين اجتهد في ادخال الدين المسيحي اليها وفي تدوين اهلها ونشر العلوم والمعارف التي كانت شائعة في تلك الاوقات بينهم وكان ذلك من بداية القرن التاسع للميلاد على الوجه الذي سبقت تفاصيله في الفصل الثاني من البحث

المذكور ومن ذلك الوقت صارت السلاطين النمساوية تحكمها الى سنة ١٨٠٦
عندما نزل سلطان النمسا عن كونه سيد معاهدة هذه البلاد ولقب ملك النمسا
او ملك بلاد اوستريا واطلت الاحكام الجرمانية ونشأت معاهدة بلاد الرين
(الرين اسم نهر) تحت حاية فرانسوا وبقيت الى سنة ١٨٣٠ ومن هذا الوقت
أقيمت المعاهدة الجرمانية وهي مركبة من ٣٩ قسماً بادخال ما هو من الاقاليم
تحت حكومة النمسا وبروسيا والفلنك ودانيمارك منها ذوات ماوك اعظمهم ملك
باقاريا ومنها امراء وكان الحد منها القسم الشمالي تحت حاية ملك بروسيا في سنة
١٨٦٧ وتسمى دولة المانيا الشمالية ثم في سنة ١٨٧٠ اتحدت باقي الولايات مع
المانيا الشمالية في اثناء محاربة فرانسوا لدولة بروسيا وقدمت جميعاً تاج
الامبراطورية الالمانية الى غليوم ملك بروسيا عندما كان على حصار باريس
عن يد ملك باقاريا المشار اليه

وتحتوي هذه الولايات جميعها على ٢٩ مليوناً من النفوس منها
١٨٠١٨ و ٢٥٣ و ٢٤٠ برونستانت و ٦٥١ و ١٤٠٠٠٠ كاثوليكيون خلا ما أضيف
اليها مؤخراً من سكان الالزاس واللورين الذين سلبتهم من فرانسوا بواسطة
الحرابة المذكورة وتختلف احكامها من نوع الملكي المطلق الى نوع الحكم الجمهوري
وكل فريق من اقسامها يرسل وكيلاً الى الديوان العمومي الذي يعتقد في
فرانكفورت

واما في هذه البلاد اصحاب همة وحرص وامانة وثبات في الاعمال واستنارة
في التصرف ولم موهبة الاختراع التي اشتهروا بها منذ القرن الخامس عشر
للهياد والعلوم منتشرة بينهم انتشاراً بليغاً وخرج منهم علماء كثيرون مشهورون
بالعبارة في تاليف الكتب وقواميس اللغات والتدقيق في مباحث العلوم ومن
هانورة احدي مدنها التي كانت في حكم الانكليز خرج المعلم مرشل الفلكي الشهير
ولهؤلاء العلماء المذكورين ٢٠ مدرسة كلية يجتهدون فيها غاية الاجتهاد على
ايجاد الفوائد للناس و ١٥٠ مكتبة فيها ٥ مليونات من الكتب ومن العلماء

المولفين ١٠ الاف رجل يكتبون في كل سنة ٥ الاف كتاب وعندهم مدارس عديدة ووسائط لتسهيل المعرفة ليست بقليلة ومن هذه البلاد انتشر المذهب الانجيلي في القرن السادس عشر وهو المتحكّم ببلاد الشمال كما ان المذهب الكاثوليكي متحكّم في بلاد الجنوب وانما في جميعها يُباح التعبد بكلّ الاديان وفي بعض مدنها تكثُر التجارات والبيع والشراء في الكتب وفي بعضها يوجد ايضاً ورش ومعامل من جلتها معامل لتكرير السكر وفي مدينة نورمبرغ تُعمل اشياء كثيرة للعب الاطفال

(النسا) واما بلاد النسا التي ذكرنا في ما تقدم بان سلاطينها كانت تحكّم على بلاد الالمان فكانت تخنوي على ما كان يُسمى سابقاً اورتيا ونوريكا وبانونيا وداسيا اوداقيا واما تلك كراوس الاكبر بلاد نوريكا ساها اوستريا ومعناه بلاد المشرق ومن ذلك الوقت اخذت سلاطين هذه المملكة تدعي بالمخلافه عن قيصرية رومية لان كراوس الاكبر كان لقبه البابا بهذا اللقب عندما وضع على رُؤسها تاج الامبراطورية وسماه بالامبراطور الروماني في افتتاح القرن الثامن للميلاد على ما سبقت الاشارة اليه في الفصل الخامس من البحث الثاني من الكلام على المعارف عند الرومانيين ومع ذلك لم تكن تحسب هذه المملكة شيئاً الى القرن الثاني عشر ثم في اوائل القرن التاسع عشر اخذت تنقوى وتمتد حتى صارت الآن تحسب من الممالك العظيمة

وهي تخنوي الآن على ٢٧ مليوناً من النفوس والديانة الغالبة فيها هي المذهب الكاثوليكي لكن بها كثيرون من الروم السلاو والبروتستانت ويوجد بها ٨٠٠٠ دير للرهبان ويباح بها التعبد بسائر الاديان وقصبتها مدينة قيانا ويقال ويانه ايضاً جميلة المنظر وبها ابنية فاخرة واساحة للاجتماع و٢٣ ديراً و٥٠ كنيسة واهلها ٢٠٠ الف نفس ويوجد في كل المملكة ست مدارس كلية ومدارس متوسطة عديدة ونظراً لبعدها عن الابحار الكبار لم تكن تصلح لتجارة

واسعة ولكن لما حظ في التجارة البرية وفيها عدة معامل غير ان اهلها ليس لهم حذافة في الصنائع ومن اعمالها اقمشة الصوف والكتان ويصنع بها الفرطاس والآلات الحديدية والمخزف والزجاج وامتعة البيوت اما الفلاحة والزراعة فقليلة نظراً لعدم خبرة اهالي البلاد فيها

(بروسيا) واما بروسيا التي هي الآن عوضاً عن المملكة المذكورة في امبراطورية بلاد المانيا فكانت قد تغلبت عليها في ما سلف طائفة تسمى التوثية ثم ادخلوا فيها الدين المسيحي في اواسط القرن الثالث عشر من الميلاذ واول من جعل لها الشهرة كان الملك فريدريك وليم الاول الذي تولى المملكة سنة ١٧٠١ وكنها لم تحسب من الممالك العظام الى بعد سقوط نابوليون بونا بارتة الاول عن امبراطورية فرانسافى سنة ١٨١٥ ولم يعل شأنها الى بعد ان اسقطت نابوليون الثالث عن عرش اليمبراطورية المذكورة ايضاً في سنة ١٨٧٠ وصار ملكها غليوم امبراطوراً على المانيا حسب ما تقدم ابراده في الكلام على تلك البلاد وسكانها الآن نحو ١٥ مليوناً من النفوس والديانة المتحكمة بها هي المذهب الانجيلي وفيها كثير من الكاثوليكين واليهود والحرية مطلقة لجميع المذاهب

وقصبتها مدينة برلين اهلها نحو ٢٥٠ الف نفس جبهة المنظر واسواقها واسعة مستقيمة وابنتها فاخرة وهي مقام العلماء وبها مدرسة كلية ومدارس اخرى عديدة ويشتهر فيها الفغفوري الجيد والعربيات العظيمة ويوجد في باقي مدن المملكة ٦ مدارس كلية تحسب من احسن مدارس اوروبا وعدة مدارس متوسطة و٢٢ الف مدرسة عمومية وكل انسان يلزم ان يرسل اولاده الى المدرسة ولا يوجد ماكنة مثلها في اوروبا نظراً الى المعرفة العمومية وعساكرها احسن عساكر اوروبا وجميع اهاليها يفتون رديفاً الى سن الثلاثين وينصبون خيامهم ثلثة اسابيع في السنة لاجل التعليم ولذلك قيل لها ارض المدارس والقشل لكن ليس لهم حق الخبرة في امور الفلاحة وانما لهم معامل لاقمشة الصوف والكتان والظن وصناعة الفخار

ومطابها عديدة وناجحة ومنجرتها في المواشي والحبوب غيران متجرتها البحري هو في ابادي الغربا

ومن مدنها كورنفسبرج وهي مدينة حسنة يحيط بها سور حصين عظيم طوله نحو ٧ اميال وفيها كنيسة كبيرة مشهورة فيها ارغن له خمسة الاف انبوبة وفيها قصر الملك على شكل مستطيل طوله ١٢٦ خطوة وعرضه ٧٥ وفيه محل طوله ٢٧٤ قدماً وعرضه ٥٩ ومنها خرج الفيلسوف كيت. ومنها ايضا مدينة كولونيا يصطنع فيها مالا روي معطر يعرف بماء كولونيا او ماء الملكة وفيها كنيسة عظيمة جيدة البناء العتيق. ومنها كذلك مدينة مغديج التي اخترع فيها اوتودغريك طلبة الهوا (راجع الاكتشافات العلمية في القرن السابع عشر) ومنها مدينة ترين او طرن وطن كبرنيك الفيلسوف الذي اثبت دوران الارض وثبوت الشمس (راجع الاكتشافات العلمية ايضا في القرن السادس عشر)

(الفلمنك) واما الفلمنك ويقال لها هولاندا ونسب ايضا نثرلانداي البلاد الواطية فان اهلها من جنس اهل جرمانيا وبعد ان جرى عليها انقلابات كثيرة استقامت منذ سقوط نابوليون الاول في سنة ١٨١٥ واهلها يبلغون ثلاثة ملايين من النفوس واكثرهم من البروتستانت والباقي من اللاتينيين واليهود وهم مشهورون في النظافة التي تقيمهم ضررها بلادهم الذي كابدوا مشقات كثيرة بسبب رداءة ترورداة تربة البلاد وماعها ايضا الى ان صيروها من اخصب بلاد اوروبا حتى انهم اصطنعوا طلمبات تدبرها الرياح لتدفع المياه الكثيرة التي ترشح من البحر الى الانهر والترع الكبيرة التي اصطنعوها لذلك وقصة هذه الملكة مدينة هاك اهلها ٦٠ الف نفس وفيها عدة من القصور والمجالس لترتيب الحكم ومنها خرج درييل مخترع الميكروسكوب والتيرموتر ومن توابعها امستردام وهي اعظم مدن الفلمنك واعمر مدن اوروبا ذات مينا يمكنها ان تسع ١٠٠٠ سفينة وكانت قديما ملكة البحر واعظم مدن العالم في التجارة والقوة

البحرية وإلى الآن يوجد فيها مدارس كثيرة ومكاتب وقاعات للخطب ومحافل لغرائب الصنائع والنوادير. ومنها مدينة اخرى تسمى ليدن مشهورة بمدرستها الكلية وعلمائها الذين هم من افاضل المدرسين عند الافرنج ويوجد لهم مدارس اخرى كلية غيرها في باقي البلاد كمدينة لويين ومدينة اغرنفة ومن مدينة هولم خرج لورانت كستر الذي يعتقد اهل الفلمنك بانّه هو اول من احدث الطباعة ولذلك اقاموا فيها صورته على ما سبق ابراده في محله

واهل هذه المملكة يرغبون في العلم ويسهل عليهم اكتسابه لكثرة المدارس وهم اقوياء في الاعمال يعتنون بها جداً واكثرهم مغرمون بشرب التبغ والظافة والحرص وعمل الخبز والاحسان وبناء المدارس وطرقهم جيدة وقراهم حسنة واسواقهم واسعة نظيفة ومن البان مواشهم يستخرجون السمن اللذيذ ويصطنعون الجبن الدسم المعروف بالفلمنكي وكان متجرهم سابقاً متسعاً جداً لكنه قلّ الآن بسبب المحروب الكثيرة التي حدثت في اوروبا وعندهم معامل وورش عديدة تُعمل فيها اقمشة الصوف والكتان والحرير والادم والنصبات لشرب التبغ ومن هذه المعامل ما هو لنسج الخمل والمشجر في مدينة اوترخت وإلى الآن يُشاهد في قرية ساردام الكائنة بالقرب من امستردام البيت الصغير الذي كان ساكناً فيه بطرس الاكبر سلطان روسيا لما كان يتعلم بها عمارة السفن البحرية (راجع الكلام على امبراطورية روسيا في القرن السابع عشر)

(بلجيكا) وكذلك بلجيكا يقال لها بلجيوم او البلجيك ايضاً فانها استقلت بعد بلاد الفلمنك المذكورة بمدة جزئية اعني في سنة ١٨٣١ وكانت قبل ذلك دخلت تحت نسط عدة مالك واهلها نحو ٤ ملايين من النفوس والديانة المتحكّمة بها الآن هي الكاثوليكية وبها كثير من البروتستانت ومن اممات مدنها بروسيل ويقال بر كسيلا واهلها نحو ١٠ الف نفس وهي مدينة معتبرة حسنة المنظر مشهورة بصناعة البسط وانواع الاقمشة الصوفية

وقصب الذهب والنضة والشبايك الظريفة وبها مكتبة فيها ١٠٠ الف مجلد ومدرسة كلية وفي باقي مدنها مدرستان غيرها ايضاً وتحصيل المعرفة عندهم سهل للخاص والعام وقد بلغوا الدرجة النصوى في صناعة الفلاحة واكثر زراعتهم من الحبوب ولم اليد الطولى في التجارة والصنائع فهم يصنعون اطائف كثيرة ولوجود الحرّية في المنجر يمكنهم بيعها بشئ ارخص مما يبيعها غيرهم وبلي هذه المدينة مدينة اتورين وهي ذات ابنية فاخرة وكبسة على شكل البناء الغوطي بها منارة علوها ٤١٠ قدماً

(الدانبارك) واما بلاد دانبارك فكانت تسمى سابقاً شروزونز قهريك ومنها تولدت الطوائف القهريّة التي اهلكت أوروبا سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد ثم بعد كل ما صادفته من التقلبات لازالت الى الان مستقلة وتخوي على مليونين من النفوس والمذهب الانجيلي هو المتحكّم بها والحرية مباحة لجميع الاديان وقصبتها مدينة كوينهاغن او كوينهاغ ويقال قينهاق مشهورة بحسن منظرها وابنتها الجميلة وفيها مدرسة كلية ومدارس اخرى عديدة ومرصد ساطاني لرصد الاجرام السماوية (راجع الكلام على هذه المملكة في القرن السادس عشر) وجنبية عظيمة فيها اكثر النباتات الموجودة على وجه الارض وبها مكتبة تخوي على ١٠٠ الف مجلد واهلها نحو ١٥٠ الف نفس وتجاراتها عظيمة ممتدة في غالب بلاد الدنيا حتى انه يكاد ان تكون جميع صناعات الدانبارك وبراءة فنونهم مجموعة في هذه المدينة فهي مركز تجارات وصنائع هذه المملكة

وتوجد لهم عداء عن المدرسة الكلاية المذكورة مدرسة كلية اخرى في مدينة كيال ويوجد في جميع المملكة اكثر من ٥ الاف مدرسة متوسطة وفي قلعة كريستابرخ قصر فيه كثير من التصاوير البديعة ولهم مكتبة فيها ٣٠٠ الف مجلد ويعتنون بتعليم اولادهم كثيراً ومنهم خرج كثير من اصحاب المعارف السامية كريبير الذي اظهر سرعة سير الضو وغيره ولكنهم الآن لم يتقدموا في التمدن

مثل باقي طوائف أوروبا

(السويسه) ويسمىها العثمانيون اسويجرو ويطلق عليها اهامالي بلادنا اسم سويسرا وكانت تسمى سابقاً هلوتينية جرت عليها تقلبات كثيرة ودخلت تحت عدة حكومات ثم لها ابتدأت ملوك جرمانيا في ان نظم اهاماليها قام رجل من الفلاحين يقال له وليم اوغايوم تل ومعه البعض من اهامالي البلاد واستخلصوا بلادهم وعقدوا معاهدات بينهم دخلت فيها بقية المقاطعات واحدة بعد اخرى وهي الان جمهورية مستقلة تخوي على ٢٠٠ الف نفس النصف منهم بروسانت والنصف الآخر كاثوليك والى الآن يوجد في مدينة الطرف او الطرف حنفية ماء عظيمة موضوعة في محل مكث فيه وليم المذكور لما اراد ان يرعى على ما قبل فاحة وضعها هدفاً على رأس ابنه بضربة رمح وسبيل ماء اخر موضوع محل شجرة سوسن كان وضع عليها حين ذلك ابنه الصغير المذكور وكان اجبره على هذا الامر حاكم المدينة املاً بان يخطي سهمه فيقتل ابنه ويكون ذلك بمنزلة انتقام منه لشجرة بأسه لكنه اصاب المرعى وكان هذا الاقتراح سبباً في هيجانهم لتخليص بلادهم على ما ذكرنا

واول مدينة في هذه الجمهورية هي مدينة جنيف او جنيدورة ويقال جينوا وهي مدينة عظيمة ذات ابنية فاخرة شهيرة بنصب التعليم العام بها وبمعالها خصوصاً معامل الساعات فان فيها هي وحدها فضلاً عن غيرها من البلاد ثلاثة الاف ساعاتي يصنعون كل سنة نحو سبعين الف ساعة وبها اكثر متجر البلاد وهي وطن عدة من مشاهير الفرنسيات مثل جنجاك روسو وغيره

واهل هذه البلاد مشهورون بالرغبة في اكتساب العلوم والمعارف واصحاب الفلاحة منهم لم نباهة في صناعتهم حتى اصحوا اراضيهم الى الغاية مع انها رديئة التربة في الاصل ولم انوال يصطنع فيها القشة الحرير والظن والكتان وآلات الحديد والصباغة وزعم بعضهم ان صناعة الورق اخترعت في باله التي هي من

مدن هذه الجمهورية ولم تنجح معتبر في الامور التجرية

(اسوج ونروج) اما بلاد اسوج الواقعة في شرقي بلاد روسيا فكانت معروفة سابقاً باهل افلندة الذين لم يزل جنسهم باقياً الى الان في الشمال منها بقرب لا بونيا ثم سكن بها طائفة الغوثة او الغوطة الشهيرة كغيرها من المتبرزين المهاجرين على المملكة الرومانية بافساد ارض اوروبا ومنها خرج ايضاً قطاع الطريق المستوطن بالنرمندية الذين خربوا البلاد الغربية منها وسكن قوم منهم في اقليم من اقاليم فرانساً يسمى الى الآن اقليم نرمندي في نفس الوقت الذي فيه اسست طائفة اخرى منهم يقال لها الوريغية (او الوريغية) الساطنة المسكوية واخيراً استولى الملك غليوم الفانخ دوق نورمنديا (اي اقليم نرمندي المذكور) على مملكة انكلترة كما سبقت الاشارة الى ذلك في محلاته ثم دخلت هذه البلاد تحت حكم دولة الدانيمارك التي تقدم الكلام عليها وبقيت الى ان تخلصت واستقلت بذاتها في سنة ١٥٢٢ ومن ذلك الوقت اخذت اولاً في الاشتهار ثم في التقدم على ما ذكرنا ذلك بتفاصيله عند الكلام عليها في القرن الثامن عشر

وفي بداية القرن التاسع عشر الذي نحن بصدده تولى عليها كارلوس الثالث عشر في سنة ١٨٠٩ وفي زمني انضمت اليها مملكة نروج حيث استخلصها هذا الملك من سيطرة الدانيمارك ايضاً وذلك في سنة ١٨١٤ ومن ثم تسمت المملكة باسم مملكة اسوج ونروج وصارت الفنون والصنائع والتجارة فيها زاهية زاهرة وانشأ هذا الملك في ملكته نخفانة ومدرسة عسكرية وتبني جنرالاً فرانسواً يقال له برنادوت وجعله ولي عهد حيث لم يكن له وارث بخلفه فتولاهما بعد موته وتسمى كارلوس الرابع عشر

وسكان هذه البلاد الآن نحو خمسة ملايين من النفوس ويتحكم بها المذهب الانجيلي ويباح بها التعبد بسائر الاديان ولا زال في جهة الشمال منها قبائل صغيرة تعبد الاوثان

وقصبتها مدينة استوكهلم اهلها نحو ١٠٠ الف نفس مبنية على سبع جزائر في بحيرة يسمونها ملارو وهي ذات معامل كثيرة ومركز تجارة الملكة يتعامها وبها يقيم الملك ومجلس الاحكام واهالي البلاد جميعاً يعتنون باشهار العلوم ولهم مدارس عامة في كل بلدة ولاسيما في نروج و٢٢ مدرسة متوسطة و٢ مدارس كلية من جهلتها مدرسة اوبسال التي كان يدرس فيها النبيه (راجع القرن الثامن عشر) واكثر الفلاحين بها يعرفون القراءة والكتابة ويتصفون بالكرم والامانة والحشمة والبشاشة والشجاعة والميل الى الحروب ومحبة اوطانهم

(روسيا) اما بلاد روسيا الواقعة غربي بلاد اسوج التي تقدم ذكرها فقد سبق الكلام عن اصل اهاليها واحوالهم القديمة في المطلب الاول والثاني من امتيازات القرن الخامس عشر ثم في مانلي القرن المذكور قد تتبعنا تقدم مايتها تفصيلاً الى نهاية القرن الثامن عشر فلا حاجة لتكرار شيء من ذلك هنا وكذلك قياصرة هذه الدولة الذين جالسوا على تخت المملكة من بداية هذا القرن التاسع عشر حتى الآن قد بذلوا جهدهم في سبيل تقدم البلاد وتعدن الاهالي ونجاحهم وتوسيع دائرة ثروتهم فان اسكندر الاول الذي تولى الامبراطورية في سنة ١٨٠١م قد كان في اول امره من اهل الحماسة لئن العريكة خالياً من العناد بسيطاً في معيشتهم يتجنب الابهة والعظمة عقد معاهدات تجارية مع كثير من الدول وقرر نظامات جديدة للسفر في البحر ونشط البضائع واذن لاصناف الرعية كلها ما عدا العبيد الذين كانوا ملكاً خصوصياً ان يشتغلوا ويحجروا كيفاشاءوا فاخذت محاصيل البلاد الروسية وبعض مصنوعاتها تظهر في اسواق اوروبا وبنى في سنة ١٨٠٩ ثلاث مدارس كلية واحدة في بطرسبرج واخرى في كركوق والثالثة في قازان ثم اضاف اليها مدرسة اخرى بناها في دريات للولايات الجرمانية المجاورة ببحر الباطيك ونظم مدرسة واتا لتهديب رعاياه البولونيين وكان في ذلك الوقت يعاملهم بكرامة ورفق واقام

عدّة مدارس عالية وادبية وامر بان يزداد عددها حتى تبلغ ٢٠٤ مدارس
 وبأن يقام ٢٠٠٠ مدرسة غيرها لتعليم الاشياء الابتدائية وكان يطوف في انحاء
 البلاد ويقابل كبارها وصغارها ويصغي الى احاديثهم وتشكياتهم واستمرّ يجري
 الاصلاحات في داخلية بلاده وطرده اصحاب المعامل الانكليزية منها فتنشطت
 بذلك الصناعة الوطنية وفي سنة ١٨١٠م الف ديوان المشورة وثمانى وزارات
 منفصلة بعضها عن البعض وحدد قيمة النقود وجعل لفنلاندة نظاماً جديداً وفي
 سنة ١٨١٨ اشرع في عمار كنيسة القديس اسحق وهي من الابنية الهائلة في بطرسبرج
 وفي ايام زهت تجارة روسيا وصناعتها وانتشرت الثروة في البلاد وشرع في
 ابطال الرق فحرر الارقاء من ولايات البلطيك الجرمانية الا انه لم يسمح
 للفلاحين بالانتقال من ولاية الى اخرى لكن في اواخر عمره تسلطت عليه
 السوداء وجعل للجرائد قوانين صارمة وصار حزياً كثير الظنون والشكوك وبعد
 ان كان عضواً نشيطاً للفرن ماسون استأصل النزوع التي امتدت منها الى
 روسيا وفي سنة ١٨٢١م طرد اليسوعيين لانهم نشروا المذهب الكاثوليكي بين
 بعض عيال روسية غنيّة وسلم دبرهم الى الدومنيكيين في بطرسبرج واخيراً
 توفي سنة ١٨٢٥ وتولى بعده اخوه نقولا الذي اقام مستولياً على التت الى سنة
 ١٨٥٥م وتوفي والبعض يسون مدة حكمه التي ناهزت ٣٠ سنة بالعصر الحديدي
 حيث ما افادت المملكة شيئاً بل حملت الأمة الروسية انتقال الادارة الحربية التي
 كانت شغلت دوائر الدولة كلها وخلفه وليد الاسكندر الثاني الحامي الذي اقام
 باصلاحات لم يستطعها غيره اذ انه وضع حداً الاعمال ايها التي كانت تجاوزت
 حدود الاعتدال على ما تقدم فخنفت عن امة تلك الانتقال وفصل نظارة
 المعارف عن نظارة الحرب واقام عوضاً عن الضباط المتقاعد بن الذين كانوا
 يتعينون معلمين للمدارس رجالاً متقفين صالحين للتعليم والتهديب وجعل
 للطبوعات قوانين توذن ببعض الاعتدال واعاد جمعية انتشار الكتب المقدسة
 التي كان اسمها عمه الامبراطور اسكندر والقاهما ابوه الامبراطور نقولا واصدر

او امره برفع الموانع عن اعمال المرسلين الى اليهود في مملكتهم وعدد هم نحو ٢
 ملايين واطلق للفلم في روسيا عنان الحرية ومنع التجسس ووضع قوانين لفساد
 المأمورين وسمح باعلان نقائهم للناس ورفق الشبان في فروع الادارة العمومية
 مكان الذين لا فضل لهم الا كونهم وجدوا فيها من زمن طويل وساعد على
 امتداد صناعة البلاد وتجاريتها ووجد في زيادة عدد السفن التجارية الوطنية
 وحل التجار الروسيين على مدع علاقتهم ومواصلاتهم الى الممالك الاجنبية وابطل
 النظم التي كانت تمنع الاهالي من زيارة البلاد الاجنبية وعفا عن المجرمين
 السياسيين من البولونيين والروسيين وارجع المنفيين الى سيبيريا الى اوطانهم
 وسمح للفارين بالرجوع الى منازلهم وامر بتد السكك الحديدية في مملكته لتقريب
 المواصلات واعظم الاصلاحات التي اقام بها هو تحرير الارفا الآتي ذكرهم لكنه
 رفض ما كان طلبه اشراف موسكو والقدما في سنة ١٨٦٥م من اقامة مجلس
 نواب (مبعوثين) وابطل نظام الخلافة القسسية ونظم جيوشه على نسق الجيوش
 الالمانية واتخذ وسائل شتى لنشر التهذيب في مملكته التي لا يوجد لها ماثل في
 انحاء اراضيها على ما يستبين ذلك من الشرح الآتي

ذكرت النشرات المطبوعة في سنة ١٨٧١ نقلاً عن كتابه نشرها وزير الحرب الروسي
 لجهة مساحة هذه البلاد واهاليها ما نصه ان مساحة اراضي روسيا كانت في
 سنة ١٧٢٥ (٢٢٥,٥٧١) ميلاً مربعاً منها (٨٢,٦٨٢) ميلاً في اوروبا
 و (١,٠٢,٨٨٤) ميلاً في بلاد اسيا وقد زادت منذ ذلك الزمان الى الان
 زيادة كلية بواسطة الفتوحات فصارت (٢,٨٩,٢١٠) امالاً مربعاً منها
 (١,٠٦,٩٥١) في اوروبا و (٢,٨٢,٢٥٩) في اسيا ومنها ٩,٦٨٠ ميلاً
 مغطاة بمياه بحر قزوين وبحر اورال ومن هذه الاراضي البلاد الشمالية المنفردة التي
 يسكنها قليل من البشر اما البلاد المنخبة المأهولة فهي نحو ٢٠ الف ميل مربع
 وهي تزيد عن مساحة اوروبا بتمامها نحو ٢٢ الف ميل مربع وبالاجمال فان
 هذه الاراضي جميعها مقدرة بنحو $\frac{1}{2}$ من كرة الارض

وسكان هذه الاراضي يبالغون ٨٦٥٨٦٠٠٠ نفس اغلبيهم من الروسيين
ويوجد بينهم ٦ مليوناً من البولونيين و ٨٠ الف من الفنلاديين و ١٠ ملايين
من السبيريين والفوقاسيين واكثر من مليون من الاتراك لكن البلاد المأهولة
اكثر من الجميع فهي البلاد التي يسمونها مملكة بولونيا فان في ولاية وارسو
الروسية يسكن كل ميل مربع ٢١٠١ من الاهلين اما في ولاية موسكو فيسكن
٢٥٩٨ وفي ولاية بطرسبرغ ١٤٤٦ وفي ولاية اربانجل ٢٠ وفي ولاية اموز ٢
واكثرهم من طائفة الروم الاورثوذكسيين فانهم يبالغون نحو ٥٢ مليوناً والباقيون
من طوائف مختلفة منهم لاتينيون وروم كاثوليك وارمن كاثوليك وبروتستانت
ويهود واسلام ووثنيون وعبدة نار انما الدين المتحكّم فهو مذهب الروم الاورثوذكسي
والحكومة من النوع الملكي المطلق

وفي اخلاق الاهالي الفناعة وسهولة المعاشرة وسرعة التناول ومحبون البدخ
واللهو والحوادث الجديّة والاكابر منهم يرغبون في الملاهي ولم حدّة في اخلاقهم
وبعضهم بلغ درجة معتبرة في التمدن والادب وكانوا ينقسمون الى اربع رتب
وهي الشرفاء والاكابروس والعمامة والفلاحون غير ان الفلاحين كانوا بمنزلة
عييد الملك والاشراف الذين يبالغون نحو ٨٠ الف وهم حقوق خاصة لا يباينهم
فيها احد لكن لما تولى الامبراطور الحالي اسكندر الثاني في سنة ١٨٥٥ اصدر
امراً امبراطورياً بعد جلوسه بنحو ثلاث سنين بابطال الرق والاستعباد وقد
ذكروا النفوس التي فخرت فقالوا انها ٢٢ مليوناً من النفوس منها تسع ملايين
كانوا ملك الدولة والباقيون كانوا ملك ١٢٧ الف سيّد من الاشراف وغيرهم
اما مدارس هذه المملكة فهي على مقتضى ما نشره وزير الحرب في سنة ١٨٧١
كثيرة فان الامبراطور اسكندر المشار اليه منذ جلوسه على تخت المملكة اخذ في
اصلاحها وتنشيطها ومنها ثمان مدارس عمومية في بطرسبرغ وموسكا وكابف
وفاركوف واودسا ودوريا وهنكفور وفي هذه المدارس ٥٥٧٦ تلميذاً ومنها ايضاً
ثلاث مدارس خطيبة عدد تلاميذها ١٢٩٠١ اما اكثرية المدارس الوسطى بالنظر

الى نسبة عدد الاهالي فهي في بولونيا فان فيها مدرسة لكل ١٧٥٠٠٠ من
 الاهالي وفي ولاية مجر بلطني كذلك مدرسة لكل ٢٠٠٠٠٠ وفي ولايات الفلاند
 مدرسة لكل ٦٠٠٠٠٠ وفي ولاية موسكو مدرسة لكل ٧٢٠٠٠٠٠ وفي ولاية كازان
 مدرسة لكل ١٢٠٠٠٠٠ وعدد مدارس الأمة ٩٩٥٥ فيها ٢٨٠ الف تلميذ
 ومع كل هذه الوسائل والوسائط المختلفة لنشر المعارف يكاد لا يوجد في الالف
 من الجنود واحد من الذين يعرفون القراءة والكتابة وقال غيره ان هذه
 المدارس العمومية والمتوسطة هي في اكثر البلاد لكنها كانت لم يقد قرب من مخصصة
 بافاداة اغنياء الشعب عندما كانت الرعية بمنزلة عبيد للاكابر الذين
 يستعبدونهم عبودية عذيفة ولا يرغبون في تعليمهم وتقدمهم ولكن بعد الان لا بد
 ان تتغير احوالهم وتترقى نظراً لما جازوه من اطلاق حريتهم (ولاسياً بعد ان
 اصلى الامبراطور اسكندر المشار اليه احوال العساكر ورتب تعليمها على اصول
 التعليم الالماني والزمها بان تتعلم ليس القراءة والكتابة فقط بل واللغة الالمانية
 ايضاً)

وذكر في بعض المؤلفات ان الكتب التي ألفها المؤلفون المسكوبيون في هذا
 القرن لجد سنة ١٨٥٧ كان عددها ١٤٢٥ مؤلفاً واما التي ترجمت من غير
 لغات وطُبعت بلغة الروسيين فهي ٢٠٠ مؤلف
 اما امهات مدن روسيا فهي اولاً مدينة بطرسبرغ التي هي قصبة المملكة
 بناها بطرس الاكبر على ما تقدم ايضاحه في القرن الثامن عشر وهي الآن
 افخر مدن اوروبا في الحسن والظرافة وفيها مدرسة كلية معتبرة ومكتبة مشتملة
 على ٢٠٠ الف مجلد وفيها تمثال راكب مصنوع من نحاس اصفر موضوع على
 صخرة من الصوان بزن ٢٠٠٠٠٠٠ او ثلاثة ملايين من الارطال اقيم تذكراً
 للامبراطور بطرس الاكبر المتقدم ذكره وفي سنة ١٨٥٨ تم بناء كنيسة القديس
 اسحق الذي كان شرع في انشائها الامبراطور اسكندر الاول على ما ذكرنا قبلاً
 وهي كنيسة فاخرة جداً يقال بان مصاريفها بلغت ٧٠ مليوناً من الريالات

المسكوبية تبلغ قيمتها الآن نحو ١٢٦٠ مليوناً من الغروش ويُقال بان سكان هذه المدينة يبلغون ٥٠٠ ألف نفس وبليةا مدينة موسكا التي كانت قسبة المملكة قبل بطرسبرغ المذكورة واعظم مدن أوروبا قبل مهاجمة الفرنسيين تحت راية نابوليون الأول سنة ١٨١٢ وحينئذٍ أحرقها أهاليها كيلا تجد الفرنسيون مكاناً نشئ فيهِ وكان قبل ذلك محيطها ٢٠ ميلاً ومن غرائبها الجرس الكبير المشهور الذي اصطنعه أهاليها وقد سبقت الإشارة عنه عند الكلام على روسيا في القرن الخامس عشر وإلى الآن تتوج ملوك المسكوب فيها لانها قسبة المملكة الاصلية واليهما تُنسب البلاد وفيها قصور اكابر القدماء ومكاتب وقاعات للعلوم ومدرسة كآية واهلها يبلغون ٢٠٠ ألف نفس ثم مدينة ريغا وهي بعد بطرسبرغ اجبر مدن روسيا ومن غرائب ما فيها قنطرة من الخشب على النهر عرضها ٤٠ قدماً وطولها ٢٦٠٠ قدم ترفع في ايام الشتاء وفي مدينة قازان مرصد لرصد النجوم ايضاً

ونظراً لكثرة المعادن ووفرة المحاصيل في بلاد روسيا راجت تجارتها رواجاً عظيماً فان في البلاد الداخلة في حوزة هذه السلطنة من قسم اسيا وخاصة سيبيريا التي هي غنية بالمعادن والحجارة الكريمة والجمواهر كالزبرجد والياقوت والبلاتين وحجر الفتيمة والبلور واللازورد والنظرون وملح الباروت والنفط والذهب والفضة والحديد وحجر المغناطيس والحاس والخارصيني والبنزموث والزنجير والكوبلت توجد مسابك الحديد وخاصة في مدينة كترينبورغ يوجد مسبك حديدي يقل نظيره في الدنيا وهناك يُصطنع شيء كثير من آلات الحديد وفي مدينة تلمينسك معامل الزجاج واقشة الصوف والكتان وفي كاسان معمل للباروت وفي ايلنسكي معمل لاستخراج ملح الطعام وفي مدينة استرخان عدة انوال ايضاً لاصطناع اقشة الفطن ومعامل للباروت واستخراج الملح وصنع الاقشة واما في بلادها الكائنة في قسم أوروبا فيعمل كثير من انواع الآدم مشهورة في الغاية واقشة الكتان والحبال واللباد والصابون والجوخ

والزجاج وقد أُغرس في بلاد روسيا شجر التوت فنما واتخذت له اهلها دود الحرير ومن محاصيلها ايضاً انواع الفرا والجلود واخشاب البناء والسك فان في نهر ولغا فقط يوجد ١٥ الف قارب لصيد السمك ويصنع منه زيت السمك والخبياري ويرسل الى الافاق وكذلك المحبوب فانها تزيد عن احتياج الاهالي فينجز في ما زاد منها تجارة ليست بتائلة كما يُنجز ايضاً في ما يخرج ببلاد كرجستان من الخمر والزعفران والافيون والنفط الذي يخرج من مدينة باكو وهي تُحسب عند مجوس الفرس والهند مقدسة فيعججون اليها لاجل ما فيها من قوارات النفط المذكور التي تشتعل من ذاتها حتى تغمر وجه الارض بالنار الى مسافة بعيدة ومن الاسباب العظيمة ايضاً لانساع نطاق تجارة روسيا اتساعاً زائداً علم وجود الكبارك ووجود النرع والانهرو ولاسيما سكك الحديد المستجدة التي اخذ الامبراطور اسكندر الحالي المار ذكره في تمديدها في بلاده بعد انتهاء حرب القرم سنة ١٨٥٦ لان بها بسهل انتقال المحاصيل وبضائع التجارة من اطراف البلاد

اكتشافات علمية وتقدمات صناعية

هذه الاكتشافات قد كان افتتاحها منذ بداية هذا القرن بعمل الآلات العظيمة المتعددة الانواع التي شملت منافها عامة الجنس البشري ولذلك نتبدي بذكرها على متنضي تاريخ ظهور اول نوع منها بحيث نتبع بهما ذكر ما وصلت اليها اخباره من نوعه الى نهاية الوقت الذي نجز فيه تاليف هذا الكتاب ثم تانفت بعد ذلك الى غيره بحسب التاريخ ايضاً ولو كانت درجته ارفع وفوائده اعم وانفع ومن ذلك

(آلات ميكانيكية) في سنة ١٨٠١ اخترع رجل حائك من مدينة ليون

يقال له جاك آلة للنسج ميكانيكية تنسج بذاتها بدون مساعدة اليايدي فاورثت
تبدلاً كثيراً في هذه الصناعة ورفع اهل المدينة المذكورة صورة هذا الحائك
ببطائها اظهاراً للمهنية ونيتهم له

ثم روت جريئة المتططف المنشرة في سنة ١٨٧٧ بان رجلاً من برلين
يقال له برانستين اصطنع آلة لعدّ الدراهم ونقدما فاذا وضع فيها ايرات وكان
زائفاً وضعت الزائف وحده والصحيح وحده

واصطنع هنري دانيال سوفت آلة لعل مغلفات المكاتب وهي تنص
الورق وتضع عليه صنفاً وتطويه طياً محكماً

واخترع رجل من مدينة نيويورك بامريكا صنفاً من المغلفات لا يتيسر
فتحها سراً فان حاول احد فتحها ظهرت عليها في الحال كلمات افشت مجنابته
فانه قد طبع على ظهرها بمدايد كياوي ابيض اللون لا يرى برأى العين هذه
العبارة وقد حاولوا فتحها

واصطنع صموئيل هدسن ويوحنا بلتن آلة لعل البراميل بقدم لها الخشب
والمسامير فقط فتخرج البراميل منها كاملة

واخترعت كذلك آلة خفيفة سريعة العمل متينة الصنع تفتح من ذاتها
عري الازرار وتخططها وتكمل منها من ١٨٠٠ الى ٢٠٠٠ عروة في ٩ ساعات
واصطنع رجل من شيكاغو آلة لنضح الماء فوق النار نقطاً صغيراً جداً
قال ان بخار الماء المتكون حينئذ يخل الى عنصره الاكسجين والهيدروجين
ويحترق بجمارة عظيمة فتشعل النار بسرعة لا مزيد عليها

(آلات بخارية) وكان قبل ذلك اعني في سنة ١٨٠٧ ظهرت اول
باخرة من السفن البخارية سافرت في البحر من نيويورك الى فيلادلفيا قال بعض
المولفين طالما تنازع مورخو الانكليز والفرنساوية والامريكان في اختراع هذه
الآلة البخارية فكل يدعي ذلك لاهل وطنه اما الذي حرره اراغو الفلكي
الفرنساوي هو ان الماكينه جي هيرون الاسكندراني (وقد تقدم ذكره في الكلام

على المدرسة البطليموسية في الاسكندرية) كان فكره في قوة البخار والمنافع التي
 يمكن تحصيلها به وكان ذلك في سنة ١٢٠٠ ق م ولكن بقي هذا الرأي عقيمًا عدة
 قرون ثم في سنة ١٥٤٢ كتب بلاسكودي غراي الاسبانيولي الاصول التي يمكن
 حصولها من تلك القوة وفكر في استعمالها وكتب مثل ذلك سلون دو كس
 الفرنسي في سنة ١٦١٥ ثم في سنة ١٦٦٢ اشتغل بهذا الشأن ورشستر الانكليزي
 الا ان ما انتجته فكرته لم يكن كافيًا في حصول الانتفاع بتلك القوة ثم في سنة ١٦٩٠
 فكر في شأنها دينيس بايين الفرنسي (الذي تقدم ذكره في الكلام على
 اكتشافات القرن السابع عشر) الى ان ركب في سنة ١٦٩٥ الآلة البخارية
 بالبستون وهو شي يشبه مدق المحلّة وهو اول من ظهرت له القوة القابلة للبسط
 في آلة نارية حيث ان البخار يبسط عند شدة الحرارة وينقبض عند البرودة
 ثم اعنى جامس وات الانكليزي وقد ظهرت اعماله في النصف الثاني من القرن
 الثامن عشر (راجع الكلام على انكثرة في القرن المذكور) بتوجيه العناية لهذه
 المآثرة وبمحو عن سائر اجزاء الآلة البخارية حتى ارتقى في ذلك درجة تنبئه
 منصب الاختراع لما وقد كان دينيس بايين المذكور اشار الى امكان السفر
 بها في البحر وبين كيفية ذلك بغاية الايضاح وفي سنة ١٧٣٦ اخذ جونتان هلس
 الانكليزي الاذن من الدولة في استعمال الآلة المذكورة لسفينة لكن لم تتم له
 الواجبات فكانت جدوى فعله قليلة وفي سنة ١٧٧٥ صنع الماكنه جي بربا
 الفرنسي السفينة الاولى البخارية وبعد ثلاث سنين اخترع جوفروي الفرنسي
 الآلة المذكورة وناقها على وادي دوب بفرانسا وفي سنة ١٧٨١ التي على وادي صون
 بفرانسا ايضا سفينة كبيرة من ذلك النوع وسارت ثم استقل بالمآثرة المذكورة
 جماعة في انكثرة ونجح سعيهم فيها منهم ميار في سنة ١٧٩١ ثم في سنة ١٩٠٢ جرب
 فلطن الامر بكاني بباريس علمه بتلك الآلة فرأى مخايل النجاح وكان معه من
 اهل وطنه ليونسطن فوضعا على وادي صون الذي مر ذكره اول وايور نام
 بالعجلات وذلك في التاسع من آب من السنة المذكورة لكن لم يتفق انجاز ذلك

بفرانسا لعدم اعثناء الدولة به في ذلك الوقت فلما ايس فلطن من نجاح سعيه هناك حمل مخترعه الى وطنه امريكا واشهره بها ولذلك يقول الفرنسيون ان من سوء الحظ عدم انجذاب بال الدولة وقتئذ هذه النتيجة الباهرة وفي سنة ١٨٠٦ سافرت السفينة البخارية المسماة كلرمونت من مدينة نيويورك الى مدينة فيلادلفيا (كما ذكرنا) في البلاد المتحدة بامريكا وفي سنة ١٨١٤ شرع المذكور في استعمال الفرقاطة البخارية الاولى وتوفي قبل اتمامها وفي حياته صنع بتلك المملكة عدة وايورات صغار منها المسمى فلطن الذي التقى بالسفينة الشراعية التي كانت ذاهبة بنابوليون الاول الى جزيرة سانته اليه التي بقي فيها بعد سقوطه من عرش الامبراطورية فلما رأى الوايور المذكور ودخانه يتصاعد في الجو ندم على اعراضه عن تلك المائدة التي تم ظهورها في غير بلاده وجميع التحريرات البخارية مستنبطة من قواعد فلطن المذكور لانه كان مهندساً حاذقاً لبيباً ثم انتشر هذا المخترع في سائر جهات اوروبا

واما استعمال آلة الذنب المسماة بلغتهم اليس بدلاً من العجلات (ويقال لها في بلادنا الآن الدفاش) فاول من فكر فيها كان دوكي الفرنسي دوي سنة ١٧٢٧ ويوكتون سنة ١٧٦٨ ثم في سنة ١٨٠٢ اخذ شارل واري الرخصة في عمل الآلة المذكورة الا ان سعيه اذ ذاك لم ينجح لعدم وجود المبالغ اللازمة من المال فاغتمم التفرغ لهذا العمل اريكسون الشهير من اهالي اسوج وكان في المالك المتحدة الامريكانية من سنة ١٨٢٦ الى سنة ١٨٤٤ فتم واستعمل في سنة ١٨٤٥ ثم شاع العمل به ايضاً

وكان قبل ذلك اعني في سنة ١٨١٤ اصطنعت المكابس البخارية وفي اثناء تلك المدة كان المهندس جورج وروبرت ستيفانسون بانككترة يصنعان اول مركبة تامة بخارية تجري في الطرقات على الحديد فسافرت اولاً من ليثربول الى مانجستر في سنة ١٨٢٥ (اقوم المسالك) ثم في سنة ١٨٢٧ اخترع مانوئيل مرتيز من جزيرة كوبا قضبان حديد

لسكك الحديد يمكن وضعها على الأرض في حالتها الطبيعية ثم ترتفع عند الاقتضا وتُنقل من مكان إلى آخر بسهولة (المنقطف)

واختراع رجل آخر يقال أنه جون ايتون نوعاً من الأرتال يسير في سكك الحديد إذا كانت المسافة بين قضبانها واسعة أو ضيقة ولا يخفى ما في ذلك من الأهمية لأنه بذلك قد زالت كلفة النقل واحتمال المشقة فيه عند ما يكون البعد بين قضبان الواحدة ليس مثل البعد بين قضبان الأخرى (المنقطف)

ومنذ زمن قريب استعملت في فيلادلفيا أيضاً الآلة البخارية في المركبات الصغيرة التي تسير في الشوارع عوضاً عن الخيل (المنقطف)

(الستينوغراف) وكان في سنة ١٨١٦ اختراع رجل يقال له رامزي من سكوتلاندا بانكثرة الستينوغراف وهي كلمة يونانية مركبة معناها كتابة ضيقة أو مختصرة وهي طريقة يتمكن بها السامع من استيعاب كتابة كل ما يسمعه أو ينطق به اللسان السريع بسهولة (الجهان)

واختراع رجل في لندن آلة للكتابة بها يصغر الخط الاعتيادي إلى جزء من ألف جزء منه فلا يقرأ إلا بواسطة نظارة مكبرة وقال أنه يستطيع ان يكتب الكتاب المقدس كله العهد القديم والعهد الجديد ٢٢ مرة في مساحة قيراط مربع (الاسبوعية)

واختراع توماس اديسون من نيويورك حبراً يتمكن به العميان من الكتابة إلى بعضهم وهو دواة يُصب فيها ما يثم يكتب على قطعة ورق ولون ذلك الماء سنجابي اصفر ثم بعد دقيقة تأخذ تلك الحمال المسطرة بذلك الحبر في الجفاف وترتفع حتى تنفر عن وجه الورق فيضع الاعشى يدك عليها ويشعر بنفحة حروفها واختراع رجل من اسبانيا علاجاً اذا عولج به الورق صار غير قابل للاحتراق ولو ما اشتدت حرارة النار وجهه ما تفعل به ان يبصر فحماً فان طُرح فيها درج ملفوف بقمم خارجه ويبقى داخله صحيحاً وتبقى الكتابة مفروقة في الحالين (المنقطف)

(الطبيعة) وفي سنة ١٨٢٠ اخترع المعلم ارستيدت الطبيعي من كوبنهاغن قصة بلاد اسوج الابليكنروديناميك وهو فرع من العلم الطبيعي غاية معرفة الحوادث الصادرة من تفاعل الكهرباء والمغناطيسية في بعضها وهناك رجل اخر يقال له كولونب اشتغل بالمغناطيسية ايضاً واطهر انه يوجد جملة معادن قابلة للتغطس وعين وجود عنصر الحرارة المتحد والخفي وكان تكلم عنه رجل قبلة بنحورقن يقال له استال وسماه فلوجيستيك اي اي عنصر المهب ثم اثبت رجل اخر يقال له شيلب تشعشعه على خط مستقيم وانعكاسه من سطح المرآة المعدنية وانحصاره في نقطة اذا كانت المرآة مقعرة وذكر في المتطف بان اهل اليابان اكتشفوا على طريقة معرفة وقوع الزلازل قبل حدوثها بواسطة اكتشافهم على ذهاب قوة المغنطيس ذهاباً وقيماً قبل حدوث الزلزلة فاخترعوا لذلك آلة من مغنيط فضوي وجرس صغير تحته وثقل معلق به فاذا فارقت المغنيط قوته غلب عليه الثقل فسقط على الجرس فيرنّ منذراً بالخطر فيبادرون الى الفلاء

واستتب المعلم بينك الانكليزي من مدينة هانوفر على آلة كهربائية لقياس حركة الاجرام الفلكية

(النخلة)

واكتشف السيد هوجنس على ان العناصر والمواد المكونة للنجوم الأشد نوراً لا تختلف بته عن المواد والعناصر المكونة لجرم الشمس واهتدى الى ذلك بدليل التصوير اذ ان تصوير الشمس (وسوف يأتي ذكره) يتم بقوة تاثير اشعة النور المنبعثة من الشمس في بعض مواد كياوية او بتاثير نور منبعث من اشتعال مادة مغنيسية فصوّر هذا العالم قرص الشمس والنجوم فوجد تاثير نور الشمس في المواد الكياوية كملح النضة وباقي اليودورات لا يفرق شيئاً عن تاثير النجوم في المواد المذكورة فلخص ان ما استوى في وحدة المفاعيل استوى في وحدة الجوهر والطبع لا يخالف ثم اكتشف الدكتور هنري داير الامر يكاني بواسطة التصوير الشمسي ايضاً ان الاكسجين هو علة اشتعال المواد المنتهبة في سطح الشمس فان

الثابت عند علماء الهيئة ان سطح الشمس المذكور بجر عجاج من النيران المضطربة
المحاذة من اشتعال معادن وعناصر اخرى كالحديد والنحاس والزنك
والمنغنيس والهيدروجين وغيرها غير انهم كانوا في حيرة من سبب اشتعال
هذه المعادن والعناصر المذكورة فيها فاكتشف ذلك حديثاً الدكتور هنري
المذكور واكتشافه هذا كفي الاعتبار عند علماء الهيئة وغيرهم وبوطد الامال
باتصال الانسان في مستقبل الاجيال الى درجة لا تخطر اليوم على بال
(النحلة . المنتطف)

واخترع الانكليز آلة تُعرف بها مدة اشراق الشمس واستعملوها مدة سنة
كاملة بالقرب من لندن فاستدلوا منها على ان الشمس اشرقت عندهم في
تلك السنة ٢٠٠ ساعة فقط
(النحلة و المنتطف)

وأصطنعت مناديل تدلُّ على المطر بناءً على خاصية كلوريد الكوبالت في
اللون حسب رطوبة الهواء فصوروا فيها صورة رجل حامل ظلّة (شمسية) ، صبوغة
بهذا الكلوريد فاذا كان الطقس حسناً ناشفاً ظهرت الظلة زرقاء وان اختلفت
صارت رمادية وان امطرت صارت بيضاء وان غُسلت زال لونها تماماً

وكان في سنة ١٨٢٤ عمل اربو الطبيعي الفرنسي فهرست الحجارة
والحديد والغبار والجواهر الرطبة الساقطة من الجوّ من سنة ١٤٧٨ ق م الى
سنة ١٨٢٤ ا ب م زعم فيها انها تزيد عن ٢٥٠ سقطة فانكر عليه بعضهم صحة
ذلك بدليل وقوعها بظرف ٢٠ سنة بعد سنة ١٨٢٤ المذكورة اكثر من ٥٠ مرة
(الجغرافية) وفي هذا القرن ارسل الانكليز سفينةً تسوح بقصد

الاكتشاف فنضت في الاسفار ثلث سنين وستة اشهر وسارت مسافة ٦٨٩٢٠
ميلاً فجابت الانلاتيكي مراراً والباسيفيكي مرة وكان اعنى قياس قاسته في
المحيط ٤٥٧٥ باعاً بين جزائر اد ميرالتي ويايان واعنى قياس قاسته في
الاقبيانوس الانلاتيكي ٢٨٧٥ باعاً الى شمالي جزيرة في الهند الغربية ولما رجعت
الى بلاد الانكليز كان معها اشكال غريبة من نوع السرطان منها شكل يطبق

على الماء ايلاً شفاف تظهر كل اعصابه وعضلاته وباقى دقائق جسمه وكل راسه الا القليل عين له ومنها شكل اخر شبيه بسرطان الماء العذب عدم العيون ولما قاربت جزيرة امستردام في الاوقيانوس الهندي الجنوبي اصابته غاباً متسعاً من الاعشاب البحرية الكبيرة الحجم جداً قالت ان منها ما يبلغ الالف قدم طولاً وغازة غلظ الانسان وفيما هي تسافر في الاوقيانوس المنجمد الجنوبي ثلجت ثلجاً شديداً وكان الثلج بلورات نجمية الشكل اذا اصابته الجلد كونه كما تكويه النار واكتشفت هناك على سيال غزير من المياه ينصب دائماً من جهة بحر خط الاستواء في خليجان بحر القطب الشمالي وعلى نبات اسمه فلوره قد انقلب الى حالة حجرية معدنية فاستدلوا من ذلك على ان الاراضي الكائنة في القطب الشمالي والآن هي مغطاة بالجليد كانت في البدء واقعة تحت المنطقة المعتدلة ومزهة ومثمرة كارضينا الى ان حدث الطوفان وسبب انقلاب كرة الارض وجعل ما كان منها في المنطقة المعتدلة ان يضي قطباً لها في الحاضر (المنتطف والنحلة)

وقد تمكن علماء الهيئة بأيد المراعاة الجديدة من رسم واطبع خارطة جديدة تعطي تفاصيل قعر البحر المحيط في كل جهاته فيروي رسم الخارطة المذكورة ان البحر المحيط مكوّن من ثلاثة اودية واسعة جداً تفصلها عن بعضها اراض مرتفعة على شبه قارات مغمرة بالمياه وكانت هذه الاراضي في البدء يبساً ومتصلة بالقارات الحالية وهذا الاكتشاف الجديد سهل للناس الاطلاع على طريقة انتقال بعض الحيوان والنبات من قارة الى اخرى قبل طغيان المياه عليها (النحلة)

وفي سنة ١٨٢٥ اكتشفت منابع النيل عن يد سنغلي الامر يكاني بعد ان كان صرف العالم في البحث عنه اكثر من الف سنة

واكتشف نرد نيجكورد طريقاً تصل بين اوروبا وشمالي اسيا ما يلي المنطقة الشمالية قال صاحب المنتطف ان لهذا الاكتشاف اهمية تجارية عظيمة لان به يسهل الاتصال الى بلاد اوسع من كل اوروبا خلا املاك روسيا

أما الأعظم من ذلك جميعه هو فتح خليج السويس اذ ان حفره الترعه التي فصلت افريقية عن قارة اسيا وصيرتها بمنزلة جزيرة هو اعظم دليل على اقدم الانسان وكان ذلك بواسطة اهتمام موسيو دوايسبس العلامة الشهير الفرنسي وبه تسهلت طرق التجارة الى المالك الهندية وغيرها وزالت تلك الاخطار والاثقال التي كانت تكادها السفن في مسيرها على طريق راس الرجاء الصالح لحد نهاية سنة ١٨٦٩ التي بهاتم هذا العمل العظيم

(الكهربائية) وبعد ان كان عمل المعلم كرويكس هانكس الانكليزي في سنة ١٨٠٤ الحياض الكهربائية (راجع اكتشافات القرن الثامن عشر) اظهر كذلك رجل اخر يقال له سبيك الكهربائية بالحك في سنة ١٨٢١

(الساعات البرقية) وفي سنة ١٨٢٩ اخترع رجل يقال له ستانيل من مونيخ عاصمة بافاريا الساعات البرقية وبعد ذلك بسنة انقمتها المعلم وانستون الانكليزي

(التلغراف) ومعناه الكتابة عن بعد كان مستعملاً من عهد قديم جداً بعلامات وإشارات متفق عليها يراها الناس عن بعد فيعرفون الاغراض الموضوعه لها ولم يقتصر استعمالها على الامم المتقدمة بل كان شائعاً بين الامم المتوحشة ايضاً واشهر العلامات التي استعملت لذلك الرايات في النهار والنيران في الليل وقد انصلوا بها في القرن الماضي الى درجة عالية من الاتقان الا ان استعمالها كان محصوراً في مصالح الدول وكانت ايضاً عرضة للخطأ وخصوصاً حينما يتكاثر الضباب. ولا زال العلماء باذلين جهودهم في اتقان تلك التلغرافات الى ان بزغت شمس التلغراف الكهربائي فاخفت تلك النجوم واشترك الناس اجمع بفوائد آلة يعجز القلم عن التيام بوصف المنافع التي نالها العالم منها على ان نور هذا الاختراع العظيم لم يشرق بغتة بل جاء من حيز الغم الى الوجود تدريجاً كغيره من الاختراعات وقد تتبع صاحب المقطف

تاريخ هذه الماثرة من بزوغ الشعاع الاولى منها الى ان صارت بداراً كاملاً فقال
ما ملخصه

جاء في كتب الاخبار ان تاليس المليطي الشهير (اول فلاسفة اليونان)
الذي كان قبل المسيح بست مئة سنة لاحظ ان الكهرا با اذا فركت تجذب اليها
الاجسام الخفيفة كالخيوط والهباء وما اشبه وعرفوا في نحو ذلك الوقت ان
لبعض انواع الحديد خاصة جذب الحديد وتسمى الحديد الجاذب مغنطيساً
نسبة الى مدينة مغنيسيا التي وجد بقربها ولا نعلم اذا كان القدماء عرفوا من
خصائص الكهرا باء والمغنطيس اكثر من ذلك وجل ما نعلم انه حتى الجبل
السادس عشر لم يكن يُعرف سوى ان الكهرا باء تجذب الاجسام الخفيفة اذا
فركت والمغنطيس يجذب الحديد ويتجه الى الشمال والجنوب وفي الجبل
السادس عشر وما بعدك اخذت شمس المعرفة والمحربة تشرق في اقطار اوروبا
فقام كابرث الانكليزي (ويقال جليبر او جليبرت على ما اوردناه في الكلام
على القرن الخامس عشر) وكتب كتاباً في المغنطيس والكهرا باء مبنيّاً على
امتحاناتهم وعرفوا حينئذ ان خاصة الجذب لا تقتصر على الكهرا باء بل توجد في
مواد كثيرة كالزجاج والكبريت والشمع الاحمر وكل المواد الراتنجية وفي سنة
١٦٧٠ اصطنع الفيلسوف انوفون كيوركي النمساوي آلة من كبريت لاطهار
الكهرا بائية وهي كرة من كبريت تدور على محورها بدولاب ثم ابدلوا كرة
الكبريت باسطوانة او قرص من زجاج وصنعوا منها آلات كثيرة جداً انفقوا
عليها اموالاً لا تحصى بقصد جمع مقدار عظيم من الكهرا بائية والبحث فيه وبعد
البحث المدقق وجدوا ان الكهرا بائية على نوعين نوع يظهر على الزجاج فسماه
الكهرا بائية الزجاجية او الموجبة ونوع يظهر على الراتنج سموه الكهرا بائية الراتنجية
او السالبة (راجع الكهرا بائية في القرن السابع عشر) وان كلاً منها يجذب
نقيضه ويدفع مثيله وان الكهرا بائية توجد في جميع المواد وان من المواد ما يصلح
لنقل الكهرا بائية وسمي موصلاً ومنها ما لا يصلح فسمي فاصلاً او غير موصّل ومن

الاول المعدن والمحيوان والنبات ومن الثاني الزجاج والراتنج والشمع والزيت
والحبر فهذه هي الدرجة الاولى من اختراع التلغراف على نوع ما وتسمى هذه
الكهربائية الفرك (او المحك على ما ذكرناها اولاً)

ولا يخفى ان للكهربائية افعالاً يعرف بها وجودها ومن هذه الافعال
جذب الاجسام الخفيفة كما تقدم ومنها ايضاً هز الاجسام الحيوانية وتثقيب المواد
الخفيفة المكهربة من نوع واحد وخروج نور مصحوب بصوت وغير ذلك
وفي سنة ١٧٢٩ اكتشف موسيوله مونييه ان افعال الكهرباء بهذه هذه تجناز
على شريط موصل في برهة قصيرة جداً لانه جعل الهزة الكهربائية تجناز من
مكان الى اخر على شريط طوله ٦٠٠٠ قدم في اقل من ربع ثانية ثم في سنة
١٧٤٦ اكتشف الاستاذ كونيوس من مدرسة ليدن ما اقتاده الى عمل الفينينة
الليدنية التي يحفظ فيها السيل الكهربائي مدة طويلة (وهي الجرة الكهربائية
او زجاجة ليد التي ذكرناها في القرن الثامن عشر)

ولما كان لا يظهر فعل للكهربائية ما لم يصر اتصال بين الموجبة والسالبة
كان يقتضي لظهور الفعل الكهربائي شريطان احدهما يتصل بالسالبة والاخر
بالموجبة وفي سنة ١٧٤٧ اكتشف الدكتور وطسن الانكليزي ان الارض والماء
صالحان لا يصال الكهربائية وانهُ يمكن استخدامها عوضاً عن احد الشريطين
الموصلين للكهربائية فدل تلغرافاً في لندن طوله ١٠٥٠٠ قدم مستعملاً فيو شريطاً
واحداً قائماً على اعدة وكمل الدائرة الكهربائية بالارض كما يشاهد في التلغراف
المستعمل الان الا انه استعمل كهربائية الفرك (او المحك) التي لم يكن معروفاً
غيرها وهي قصيرة الاقامة لاتدوم الا برهة بسيرة ولو جمعت في الفينينة الليدنية
المار ذكرها ولا جرم ان اكتشاف هذا الناضل مهم جداً في التلغراف الا انه لو
وقفت الاكتشافات عنده لم يبلغ الناس الغاية المطلوبة

وقال المجرنال الاسكتسي المطبوع سنة ١٧٥٣ انه وردت اليه رسالة بتاريخ

اول اذار من تلك السنة يذكر فيها ثلاث طرق لعمل تلغراف مؤلف من ٣٦

سلكاً بعدد حروف الهجاء عندهم ويدار بكهربائية الفرك وحيث كانت امضا صاحب هذه الرسالة غير واضحة بقي مجهولاً ولا يبعد ان يكون هو المخترع الحقيقي للتلغرافات الكهربائي وبحسب ذلك مدته ساج الفرنسي تلغرافاً في جنوا سنة ١٧٧٤ اي بعد تاريخ الرسالة المذكورة بعشرين سنة وكان تلغرافه مولفاً من ٢٤ سلكاً ظهرها في الارض بعد ان ادخلها في انايب زجاجية منعاً لافلات الكهربية

وقال ارثرين الانكليزي انه كان في فرانس سنة ١٧٨٧ فرأى ان موسيو لامند صنع تلغرافاً وكان يتكلم به مع امرأته من مكان الى اخر وفي تلك السنة مد بيتانكور الفرنسي تلغرافاً في اسبانيا بين ارانجوز ومدريد وبينها ٢٦ ميلاً ويظهر من الجرنالات المطبوعة سنة ١٧٩٧ ان رجلاً يقال له فرنسيسكوسلفا صنع تلغرافاً اخر في اسبانيا وعلى هذا المنوال صنع كثيرون تلغرافات متنوعة في بلدان مختلفة وكل منهم يجهل ان غيره سبقه الى ذلك ولكنهم استخدموا كهربية الفرك التي لاندوم الامدة قصيرة ولا يتيسر الحصول عليها في كل حين وفي اوائل هذا القرن استتب ارجال العلم تكميل هذا النقص بايجاد مجرى مستمر من الكهربية وذلك ان المعلم كلثني معلم التشریح في مدرسة بولونيا من اعمال ايطاليا كان يبحث سنة ١٧٩٠ في كهربية الجوارى تاثيرها في اعصاب الضفدع فوجد انه اذا اتصلت بعض اعصاب الضفدع مية وتعرف بالصفيرة القطنية بعضلات ساقها بواسطة قضيب معدني يتشخ ساقا ما تشنجاً شديداً وكان قد رأى قبلاً ان كهربية الفرك تشنج اعضاء الضفدع المية ايضاً فنسب تشنجها حينئذ الى سيال كهربي في اعضاءها وزعم انه السيل الحيوي فمن ثم قام فواطه معلم الطبيعات في بافيا ودقق البحث عن سبب تشنج اعضاء الضفدع فوجد انها لا تشنج تشنجاً شديداً ما لم تنصل بالاعصاب بعدن من مختلفين كالنحاس والتوتيا فنسب ذلك الى فعل كياوي ينتج كهربية وبناء عليه صنع رصيفاً من صفائح نحاس وتوتيا بينها قطع من الجوخ ممتلئة بماء ملح

ووصل الطرفين بسلك معدني فجرى عليه مجرى كهربائي من الرصيف ثم ابدل الرصيف بكووس ووضع فيها صفايح صغيرة من النحاس والثوتيا ووصل صفيحة النحاس التي في الكاس الواحدة بصفيحة الثوتيا التي في الكاس الاخرى ووضع في الكووس سيالاً فيه حامض وملح فحصل من ذلك مجرى دائم من الكهرباء (راجع الكهرباء في القرن الثامن عشر)

ولما شاع هذا الاكتشاف في افطار اوربا تأهل به العلماء وبادروا الى استخدامه للتلغراف فصنع المعلم سومر بن الباتاري تلغرافاً يدار بالكهربائية الكلفانية وذلك سنة ١٨١١ الا انه ركب من ٣٥ سلكاً ٢٥ منها المحروف الهجائية وعشرة الاعداد الاوائل وكان ناقصاً منبهاً ينبه المخاطب بابداء المخاطبة فجير هذا النقص عالم اخر يسمى شفيكر وفي سنة ١٨١٦ اشار الدكتور درمن كوكس الامريكاني بتلغراف كالمقدم ذكره غير عالم ان سومر بن سبقه اليه وكيف كان الامر فلم يكن هذا التلغراف وافياً بالغرض ولو وقفت الاختراعات على هذا الحد لألغى من عين اصلاء او انحصر استعماله بالمصالح الدولية والاعمال الكبيرة ولكن ما كان من رجال العلم ليكتفوا به على تنصه فاعمال الفكرة في تكبيله على الوجه الآتي

وبين سنة ١٨١٩ وسنة ١٨٢٠ رأى الاستاذ ارسندان السلك الذي تجرى عليه الكهرباء بحرف الابرة المغنطيسية عن وضعها فاخذ هذا الموضوع امبرالفرانسوي وبجث فيه البحث المدقق وكاد يصنع تلغرافاً متقناً الى الغاية وفي سنة ١٨٢٣ الف رولندس الانكليزي كتاباً يقول فيه انه مد تلغرافاً الى مسافة ثمانية اميال ينتهي بابرة مغنطيسية فعندما نصل الكهرباء بابرة الى الابرة تتحرك فتحرك دائرة مرسومة عليها الحروف الهجائية فيستدل من حركاتها على الحرف المطلوب وفي سنة ١٨٢٥ اصطنع وللم سترجيون الانكليزي المغنطيس الاول الكهربائي من حديد ابن على ما اشار امبرالفرانسوي وفي سنة ١٨٣٠ قال الاستاذ هنري الانكليزي بطريقة لازدياد قوة هذا المغنطيس وذلك بانف

السلك الكهربائي عليه لفات عديدة وفي سنة ١٨٢٤ لاحظ الاسناذ فراداي الشهيرة اذ اذا تحرك الحديد اللين الملتف عليه سلك منضول امام قطبي مغنطيس يحدث في السلك مجرى كهربائي وفي سنة ١٨٢٤ امد وبركوس تلغرافاً يعمل بالكهربائية المغنطيسية المحاصلة من آلة فراداي الماز ذكرها وجميع انواع الكهرباء التي استعملت الى ذلك الحين كانت قصيرة الاقامة ولا تصلح للاستعمال في كل مكان الى انه في سنة ١٨٢٦ اخترع العلامة دانيال البطرية المنسوبة اليه وعلى مبداءها اصطنعت بطرية كروف وبنصن وسي وغيرها من البطريات المستعملة الآن فاعدت والحالة هذه جميع الطرق المؤدية الى غاية مشتهى هولاء الاعلام ولم يبق بينهم وبينها الا خطوة واحدة فخطاها مورس الامريكاني ونال اكليل الظفر لانه في سنة ١٨٢٧ قام مورس هذا في امريكا وستانهيل في باقاريا وهويتستون وقريس في انكلترة ووضع كل منهم تلغرافاً خاصاً مخالفاً لما سواه وادعى بشرف الاختراع ففضّل تلغراف مورس لبساطته وسهولة ماخذه وفي سنة ١٨٤٨ نصب السلك الاول بين واشنطن وياتيمور على ما ذكرنا ومن ثم استعمله اكثر دول اوروبا ما عدا انكلترة فانها لم تستعمل الا الطريقة التي وضعها المهندس الانكليزي وانستون وفي سنة ١٨٥٠ انتظم اول تلغراف بحري بين فرانسوا وانكلترا وفي سنة ١٨٥٧ وضع اول شريط تلغراف في البحر الاثلافيكي

ثم بعد كل هذه الاتعاب يقال ان رجلاً يقال له موسيو فيلاريت شاسلس وجد كتاباً ايطالياً تاريخ نشره سنة ١٦٦٣ فيه اشارة الى التلغراف الكهربائي وقد ذكرت ذلك مادام دوديثان ايضاً فان كان ذلك صحيحاً فيكون التلغراف اقدم ما هو معهود الآن لان ما جاء في كتب القوم عن التلغراف كان بعد ذلك بكثير بل لم تكن الكهرباء الكهائية معروفة وقتئذ

(البوستة الهوائية) وهي انابيب من الحديد اخترعت في انكلترة وبرلين يضعونها على عمق متر في الارض ليستعملوها في ارسال رسائلهم بواسطة الهواء

وطريقة ذلك انهم ياخذون الرسائل معينة المحم ويجعلونها رزمة عشرين عشرين ثم يضعون كل رزمة في صندوق من الحديد ويضرون عشرة او خمسة عشر من هذه الصناديق الى بعضها ويضعونها في فم الانابيب المذكورة ثم يطفون الهوا من امامها او يكشفون من ورائها فيسوقها امامه في الانابيب على معدل الف متر في الدقيقة قال بعض المؤلفين لا غرابة في انه يأتي وقت وامله غير بعيد حينما ينتقل الناس على هذا الاسلوب العجيب من بلاد الى اخرى يبضع دقات (التايقون) ومعناه التكلم من بلدة الى اخرى. ذكرت اصحاب الجرائد ان المعلم ارستاد انتدس الى اختراع آلة كهو بائية للاراسلات البرقية بسلك الاشارة منذ خمسين سنة ونيف ثم تبعه كثيرون من العلماء في اختراع اوائل شتى لتسهيل المراسلات البرقية واثقانها ولا جرم انهم برعوا في ذلك براعة استحقت الثناء عليهم ولا سيما العاملان الشهيران السيد غراي الامريكاني من جند شيكاكو والسيد لاكور الدانيمركي من جند كوبنهاغن قد ادعشا العالم باختراعاتها منذ تلك سنوات خاصة فكان اختراع السيد غراي قائماً في تركيب آلة توصل بسلك الاشارة دقات الانغام و اشاراتها حسب اصطلاح الموسيقى الاوربية وتبلغ قدوداً مختلفة بمجرد عدد معلوم من هزات السلك البرقي من بلدة الى اخرى وطريقة ذلك اذا وضعنا في قصبه الارغن سيالاً كهو بائياً وادخلنا فيها طرف سلك معدني ودقينا الارغن في لندن مثلاً فالسلك المعدني يوصل الانغام بدقات محكمة الى طرفه الاخر في اية جهة من جهات الكرة الارضية ولكن قد فاقه اضعافاً ما اخترعه السيد ابراهيم غراهام بل الاسكوسي في امريكا الشمالية فقد استنبه له تركيب آلة برقية توصل صوت المتكلم وكلامه مفصلاً من بلدة الى اخرى ودر تعريف هذه الآلة طبلان صغيران على شكل نصف دائرة قطر كل منهما قيراطان وثلاثة ارباع القيراط تكتنفها دفتان من جلد رقيق مثل غشاء الامعاء وعلى جلدة الطبل دائرة صغيرة من الحديد الرقيق اللين على قدر باره ملصوقة بغراء فاذا وضع هذان الطبلان الصغيران

تجاه طرفي قضيب معدني مُشَرَّب بالكهربائية المغناطيسية وجعل المتكلم فيه في فوهة احد الطرفين من جهة الفراغ وتكلم كلاماً فصيحاً او غنى قدوداً متفتنة سُمع كلامه وغناه مفضحاً من كان واقفاً عند الطرف الاخر من القضيب تجاه الطبل الاخر واذا كان المتكلم في لندن والسامع في الهند اقتضى امتداد القضيب المعدني مثل سلك الاشارة من لندن الى الهند ليسير الصوت به بهزات الكهربية واذ غنى اثنان في فوهة احد الطرفين سوية سُمع صوت كل منهما صريحاً عند الطبل الاخر وقد نال المعلم غراهام بل المشار اليه من الدولة الانكليزية براءة التوحيد بالعمل لمدة اربع عشرة سنة واجرى المعلم باث امتحان هذه الآلة في دار التحف بلندن فاعجب الحاضرين اتقان هذه الآلة ومفاعيلها وقال سر وليم طمسن وراشيد بان لاسابقة لهذه الآلة في صنف الآلات الكهربية . ويقال بان الامريكانيين مصممون على امتحان استعمال هذه الآلة في حاضرتهم وذلك من نيتهم ان يشيدوا معبداً من الرخام في ساحة المدينة المسماة يونيون اسكوار ويضعوا فيه انايب كهربائية تتفرع على شبه سلك الاشارة وتصل الى جميع معابد وكنائس المدينة ولما يجتمع الناس نهار الاحد لقيام الصلاة كالمعتاد لا يجتاح الامر الى امام او قسيس ليخطب عليهم ولا الى مرتلين وضاربين بالارغن وغير ذلك من آلات موسيقية ولكن سيكتفون بتوجيه نظرهم وسمعهم الى فوهة بوقٍ عظيم مفتوح في نصف صدر المعبد فيصعد خطيب فصيح ذو صوتٍ جهير على المنبر المنصوب في المعبد الرخامي المشيد وسط في الساحة المار ذكرها ويوجه صوته وخطابه نحو فوهة بوقٍ عظيم يتفرع منه نحو ٥٠٠ انبوب وكل انبوب يتد الى معبد من معابد المدينة فتنتقل الكهربية ككلامه وتوجات صوته الى مسامع كل من الحاضرين في معابد المدينة على مسافة اميال عديدة وذلك بتصريحٍ يغني عن حضور الخطيب بنفسه وكذلك الموسيقى الكنائسية يصير استعمالها على هذا المنوال بواسطة اليريفون وذلك بوضع ارغن ذي انايب نحاسية مكهربة تنقل دقات الانغام وقدودها بتصريحٍ وجلالة ودقة لا مزيد

عليها الى جميع معابد المدينة وبواسطة هذا الاختراع سوف يتمكن الناس من استماع موسيقية دينية وموعظة ادبية وهم جالسون في منازلهم اذا اخذوا ايصال انبوب من انايب المعبد الرخامي الى حجرهم ومخادعهم

وقد نشرت غازتة باكين وهي اقدم جرائد العالم باسرها فصلاً كتبه المعلم جين هود قال فيوان الذي اخترع التليفون كان الفيلسوف كونك فوهونيك الذي عاش سنة ١٧٦٩م وما زال هذا الاختراع معروفاً في الصين باسم ثوم تسين وهما كلمتان صينيتان وقال اخرون بان سودان كامرون وهم قبيلة في غربي افريقيا يستعملون آلة يسمونها الامبيق استعمال الافرنج للتليفون فيتكلمون بها عن بعد اميال بسرعة ككتابة واستعمالها عندهم قديم ويقال ان الطرش اذا كَلَّمُوا بالتليفون يسمعون الاصوات فاذا امسك الطرش اسلاكه باستانهم سمعوا الاصوات باكثر وضوح.

(الخطبة)

(الفونوغراف الناطق) وهو آلة اخترعها توماس اديسون الذي مر ذكره تسبك الصوت وتجسده للعيان كما تسبك المعادن بحيث تلهس الانامل وترى الاعين ما لا يشعر به الا السمع بل يجي اصوات الموتى فضلاً عن تردده اصوات المغنين والحان المرثمين وهو ينطق بكل لغة حتى لغة العرب ايضاً

(المتطف)

(الميكروفون) آلة اخترعها المعلم هيرز الانكليزي لاستماع صوت صغار الاشياء وادقها كدبده رجل النملة واحتكاك خرطوم الذبابة وهي آلة صغيرة ساذجة التركيب حتى انه لو وضعت ذبابة صغيرة حية تحت قدح من بلور ووضعت هذه الآلة بلامسة القدح سمع الانسان حركة مشي الذبابة ودبده نقل ارجلها الست وقيل انهم سمعوا صوت فرك خرطومها ايضاً

(الخطبة)

(الفونسكوب) وهو آلة استنبطها المعلم هنري ادمندس لاطهار
تموجات الصوت وطبقت بتغيير في النور المسمى بنجم غانسيوت
(النحلة)

(الفوند بسكوب) آلة اخرى اخترعها مستر تيلر لاطهار فعل امواج
الاصوات بالاغشية السائلة الرقيقة
(النحلة)

(السينر بوسكوب) وكان في سنة ١٨٣٨ اخترع المعلم واتستون
الانكليزي السينر بوسكوب وهي نظارة ذات عينين تُجسَّم بها الصور وتستهل في
البيوت لاجل الفرجة

(الفوتوغراف) وفي سنة ١٨٣٩ اخترع رجل يقال له بوسف نيسفيور
نبالسي الفوتوغراف اي التصوير الشمسي وكان ابتداءً به في سنة ١٨١٣ ثم تمهته
بالاشتراك مع داغير الباريزي على الصفائح النحاسية في السنة المذكورة حينما
اخترع فوكس ثالبوت الانكليزي اخراج الصورة على الورق ايضاً واشتهر ذلك
في سنة ١٨٤٥ وبهذه الصناعة فوائد حمة في الطبيعيات والفلك

واخبرت بعض الجرائد عن الطبع الالبرتي وهي طريقة يمكن بواسطتها
نقل الصورة الفوتوغرافية بواسطة مطبعة الحجر بسهولة كآية وانقان عظيم وكان
قد حفظ هذا الاختراع سرّاً الا انه قد انتشر الآن وعُرِف

(الالكتروغراف) وهو اقل اهمية من الفوتوغراف والتليفون الا انه
لا يخلو من الفائدة وهو مؤلف من قلم متصل برصيف كهربائي ويعرض عليه
نوع من الورق فيثقبه الوفا من الثقوب يمكن بواسطتها ان تنتقل صورة تحرير
او صورة شخص او كتابة او غيرها دفعات عديدة

(الجمان)

وانصل السيد بنيت العالم الشهير الى الاكتشاف على طريقة غريبة بصور

بها الاشياء بسرعة عجيبة لم يسبقه اليها احد فقد صور نقطة ماء وهي ساقطة على زهرة والصاعقة وهي منقضة والرصاصه وهي خارجه من فم البارودة (النخلة) (ورق المحيطان) اصطنع في بلاد الانكليز ورق مزيت يُبطن به المحيطان ويُغسل بالماء والصابون فلا يتغير لونه ويستعمل مقدار ٢٠ سنة (مواد للاسراج) وكان في سنة ١٨٠٤ م استخلص رجل يقال له مردوك الغاز من الفحم فابتدي في اسراجه بلندن في سنة ١٨١٦ ثم في سنة ١٨٥٨ صار اكتشاف زيت البترول المسمى في بلادنا بالغاز غاطاً

واختراع رجل من علماء الانكليز طريقة لاستخراج غاز الانارة من الماء وذلك بامرار الماء على الحديد الحامي ويشتعل بنور قابل وحرارة زائدة فيصلح اكل غرض يمتدح فيه الى حرارة عالية مثل الطبخ وما يشبهه ويو يغلي ٤ ارطال ماء بكلفة ٠٠٠ بارات ثم اذا مر هذا الغاز في البترول يوم اي الغاز الاعبيادي يكتسب منه كربوناً فيصلح للاضاءة وهو اذ ذاك ارخص من غاز الانارة الاعبيادي ٤٠ في المائة (الجنان)

واختراع مستراديسون الذي مر ذكره آلة كهربائية يصدر عنها نور كهربائي ساطع يسر الانسان بالنظر اليه فانه صافي غير متحرك خال من الاكدار ومصرفه ينقص الثلث عن مصروف الغاز ولا تصعبه اخطار كخطار الغاز وذكر في بعض النشرات ان موسيورينه اصطنع قديلاً لهذا النور الكهربي قليل النفقة بحيث يمكن استعماله في البيوت والمعامل الصغيرة

(الزجاج) ومنذ برهة يسيرة اصطنع مستر تومس دكنن اسطوانة من زجاج علوها خمس اقدام ومحيطها ٧٤ قيراطاً وهي اكبر اسطوانة صنعت من زجاج في العالم

واختراع موسيودي لايبتي نوعاً من الزجاج لا ينكسر لا بالطرق ولا بالحرارة بل يتسمر بالمسامير ايضاً وهو ابيض شفاف كالبلور النبي ذكر في احدي الجرائد الاسبوعية المنتشرة في سنة ١٨٧٥ بان هذا الاختراع كان سبق

الرجل في عصر الملك طيباريوس قبصر فقتله هذا الملك خوفاً من انحطاط
قيمة الذهب والنضة بسبب اختراعه هذا . وفي المنتطف انه قد عمل له الآن
معمل في جنوبي بركلين من الولايات المتحدة الامريكانية

واخترع موسيو غاستون بلانته المحفر على الزجاج بواسطة الكهربية
(آلات للحرب) ومن الآلات الحربية الفتاكة المستعملة في هذا القرن
التوريبند ويقال التوريبيل ايضاً ومعناه الرعدة وهي آلة نارية توضع في ممر
المراكب لاحراق البوارج وسائر السفن الحربية واعلامها قال صاحب المنتطف
انه كان اختراع هذه الآلة رجل يقال له داود بشتل امريكاني في سنة ١٧٧٦
ثم تلاه رجل اخر امريكاني في بداية هذا القرن يعرف بروبرت فلتن واصطنعها
في سنة ١٨٠٥

ثم اختراع رجل امريكاني اخر طريقة لوقاية السفن المرقومة من فعل
التوريبند المذكور

وكذلك اصطنع رجل من اهل فرنسيسكو مدفعاً يطلق ٧٠ طلقة في ٤
ثوان و ١٠٥٠ طلقة في الدقيقة ويهلك على بعد ١٠٠٠ يرد والآلة بسيطة
جداً ولا يحتاج الا نفران من الرجال ويمكن لرجل واحد ان يديره كيف اراد
واذا ثبتوه مكن كانه صخر في الارض لا يتزعزع

واخترع رجل اخر مدفعاً يطلق مع الكانة سيفاً حاداً يمر في الهواء مسلولاً
على طولها فيقطع صفوف الاعداء تقطيعاً فاذا اطلت كانه قطرها ٨ قراريط
كفت لان تحمل سيفاً طوله ١٤ قدماً مسافة ٦٠٠ يرد

(تخفيف الموت) اختراع رجل جرمانى يسمى لول وطريقة ذلك هي ان
ينشئ اجسادهم بغاز يدخله اليها فتبقى كما هي محفوظة من البلى والفساد وتغير
اللون وقد امتحن ذلك بمحضر جمهور من العلماء

(الموسيقى) وركب السيد نيد هام الماهر في فن الموسيقى آلة موسيقية
عبارة عن صندوق في هيئة ارغن صغير يتيسر لاني من كان ان يضرب به جميع

الحان الموسيقى ولو كان صبيًا أميًا أو أخرس أو أطرش لا يفهم شيئًا من فن الغناء وما عاين في استعمالها إلا أن يضغط برجله دواسات قد ركبت في أسفل الصندوق بمثابة مفاتيح يلا باطن الصندوق بهواء يضغط اشارات الموسيقى وحينئذ تبدو من الصندوق انغام حسب المطلوب لا تخل بتدود الموسيقى ادنى خال (النجاة)

واستنبط في بلاد الانكليز ورق يفعل كالباروت بل هو اقوى منه ويمتاز عن الباروت المعتاد بكونه لا يبقى اثرًا على البنادق والمدافع ودخانه اقل وصدمة الى خلف اضعف

(واقعات الفرق) واخترع رجل يقال له ستونور من امريكا لباسًا للوقاية من الغرق وهو ثوب من الفلين ورداء من المعيط يلبس فوقه وقد جرب اختراعه هذا في نهر السين امام جمع غفير هو ورجل وامرأة غيره فلبس هؤلاء الثلاثة تلك الاثواب والاردية ونزلوا في الماء وكان الرجال يدخنات التبغ والمرأة تقرأ جريدًا اولًا ثم جعلوا يتناولون الاطعمة في جوف المياه ويهدموا البثوا في الماء ساعتين ونصف خرجوا وكان لباس المرأة حتى ادق زينة ثيابها صحيحًا سالمًا وكان زوجها قد لبس قبة من الورق قصدا فلم يلحقها ادنى بلل

واخترع مسيو درمانو توماسي الباريزي سفينة مركبة من سفينتين احدها تغرق في الماء والثانية متصلة بها بانبوبين كبيرين وتطفو على وجه الماء وتكون مرتفعة عنه بعض اقدام ومزية هذه السفينة على السفن الاعتيادية هي اولًا ان الانواع لا تؤثر فيها. ثانيًا ان آلتها البخارية تكون في القسم الاسفل والركاب في الاعلى فاذا انفجرت انية البخار لا يصل ضررها الى الركاب. ثالثًا يمكن ان تبني السفينة الحربية على هذه الكيفية فاذا ضربت بالمدافع لاتصل الى آلتها ولا تعطلها واذا اصابها صخرة او قارقا يرفع قسمها الاسفل حتى يلتصق بالاعلى والانبوبان متصلان بالقسم الاعلى اتصالًا لا يمكن فككه بسهولة فاذا عرض للقسم الاسفل عارض ما ولم يمكن دفعه ولا اصلاحه يفك الانبوبان ويسير القسم

الاعلى كغيره من السفن

واخترع موسيو توسلي اختراعاً لنشل السفن من قعر البحر وهو كناية عن اجربة من الكاوتشوك (كذا) متصلة ببعضها تنزل الى السفينة الفرقي ويمكن طرفها بها ثم تلف حولها وتملأ هواءً بواسطة آلة هوائية فترتفع هي والسفينة

واخترع رجل امريكاني اختراعاً يدعى اساق به السفن الى الامام والوراء وتدور على نفسها او ترُدُّ من جهة الى اخرى كيفما اراد ربانها

واخترع ضابط مجياري يقال له زونس آلة تمكن الخيل من السباحة وتمنحها من الغرق اذا اقتضى ان تقطع نهراً وقد عبر نهر الطونه راكباً على فرسٍ ومتسلماً في 7 دقائق مع ان المسافة 7٠٠ متر نحو ١٢٠٠ ذراع

(الواقيات من النار) واخترع رجل اسوجي يقال له استبرج ثوباً يلبسه الانسان على كل جسده داخله مصنوع من المغيط (اللسنيك) وخارجه من الجلد الانكليزي وخوذة يلبسها على راسه وانبوبة من الجلد ضمنها انبوبة اخرى اصغر منها تشدُّ على وسطه الاولى تملأ ماءً والثانية هواءً بواسطة آلات معموله لذلك وقد روت صحف الاخبار بان رجلاً يقال له القبطان السروم اقتحم النيران في قصر الكسندرا بلندن وهو لابس الثوب المذكور وجعل يتشى على حزمٍ من قرامي المحطب اليابسة جداً وملتهبه اشد الاثهاب بما صبوه عليها من زيت البترول (الغاز) وبعد ان بقي في النار ١٠ دقائق يخطر متبخراً والهبب يعلوه نارة وينخفض اخرى اخذ كرسيًا مشتعلًا وجلس عليه امام الجمهور يدخن سيكارتته حتى اذهل كل من حضر مع ان حرارة النار كانت لا تطاق على بعد ٤ ذراعاً ونيف الى جهة الريح ونقهق عنه الوقوف كثيراً

واخترع رجل انكليزي يقال له تنال آلة بدبعة يتيسر بها التنفس مدة لاقل من نصف ساعة في وسط اكثف ما يمكن ان يكون من شدة كثافة الدخان وفائدتها العظي لاصحاب الطلعات في طفي الحريق (المقطف) (حروف الكتابة القديمة) وكان في سنة ١٨٢٢ امتدى المعلم شهبوليون

العالم الفرنسي الشهير بالحداقة الى قراءة كتابه المصيرين المسماة بالحروف
الهيروغليفيه فاعان هذا الاكتشاف ماريت بك المأمور على دار التحف المصرية
على تأليف تاريخ مصر الذي استنبطه مما استخرجه من الآثار القديمة المدفونة
في اراضيها

واهدى السواح الفرنسية والانكليز الذين طافوا اكثر انحاء بلاد
اليمن واحفروا كثيراً من خرائب المدن الى معرفة الفلم العربي القديم المعروف
بالمسند من الآثار الكثيرة التي اكتشفوها منقوشاً عليها بالفلم المذكور بواسطة
مقابلتها بالخط الحبشي والكوفي والفينيقي والبراني الى ان اتصلوا الى قراءتها
وترجمة بعضها وقد كتب مولف جريدة المنتطف عن قطعة من البلاط وجدها
مسبو كلدور في اميان الى جهة الشمال الشرقي من عدن شيئاً يسيراً من هذا
الخط وتبعوا ما اكتشف وقروا من هذه الكتابات لغاية تموز سنة ١٨٧٥ فاستنتجوا
منها حروفاً تقابل كل الحروف العربية ما عدا خمسة منها وادرجوا ما كتبوه
واستنتجوه في الجزء الاول من جريدتهم المذكورة

واهدى سر هنري روبنصن والسيد سميت الانكليزيان الى معرفة الفلم
الاشوري وخاصة السيد سميت المذكور فانه درس اللغة الاشورية وبرع فيها
ونضج في اصطلاحاتها اللغوية حتى صار يقرأ بطلاقة كل كتابه وجدها منقورة
في الآجر الاشوري وكان مفتقياً في ذلك الطريق التي سبقه اليها العلامة
شمبوليون المار ذكره في معرفة الفلم المصري وقد طبعت صورة هذه الحروف
الاشورية مع ترجمة العلامة المذكور في جريدة من جرائد النخلة المطبوعة في
لندن سنة ١٨٧٧

تقدم الصناعة بالنسبة الى العلوم ومركزها في القرن

التاسع عشر

لا يخفى بان العلوم والصنائع هما صاحبان متلازمان بل شقيقان توأمان اذ

ان افكار البشر لم تاد حقيقة علمية الا وتخفضت معها بدقيقة صناعة ولا اشعرت
 بحاجة صناعة الا والتجبت فيها الى الارشادات العلمية. قال صاحب المقتطف
 ان نمو الصناعة وتقدمها وتشبثها وانماها والتفنن فيها وفي انواعها جميع ذلك
 لا يتأتى حصوله واجتناء اثمار فوائده الا بوسائط متسلسلة يتوقف بعضها على
 بعض فان اتقان الصناعة والتفنن فيها وفي انواعها يتوقفان على الاكتشافات
 النافعة والاستظهارات المفيدة وهذان الامران لا يمكن ادراكهما والحصول عليهما
 ايضا الا بواسطة العلوم التي توسع دائرة معرفة الحقائق التي بها يرتقي العقل
 البشري الى درجة سامية فتتكشف له اسرار الطبيعة الكائنة تحت استار الخفا
 فيستخرج منها كل ما هو نافعا ومفيدا لاعماله ومساعدًا له في ادراك مقاصده
 وحيثئذ يميز ما يمكن تصديقه من تصورات عقله ويخرجه من حيز القوة الى
 الفعل فالفلسفة اذن تبحث في خواص الموجودات والعلوم تحقق للعالم ما
 يتصوره عقله من منافعها وفوائدها والصناعة تكفل بابراز ذلك من حيز
 التصور الى قوة الفعل اه

والالتمات الى هذه الحقيقة عينها جعل اوروبا اما للعلوم والمعارف ومصدرًا
 للتحائف واللطائف ومركزًا للتجارة وثروتها ومجدها للفنون المادية والادبية
 وصولتها الى غير ذلك من الامور التي بها تنحصر ثروة العالم وقوة المالك العظمى
 ومجد الشعوب المتقدمة ايضا اذ انهم لم يتمتعوا بشيء من خيرات العالم ولم يسلبوا
 ثروة امة من الامم بواسطة الصناعة التي تكفلت لهم بالقيام في كل ما تحتاج اليه
 اجناس البشر من ضروريات معاشها كلية كانت او جزئية الا وتعهدت لهم
 صفحات التواريخ بانها تنزى بذكر مناقبهم وفضائلهم وتعالى بما لا يدتهم البيض
 من الاعمال النافعة العائدة لخير النوع الانساني حتى لم تبقى مملكة من ممالكهم
 بل ولا امة من امةم الا وذكر لها فيها من المآثر المحميدة والمبررات العديدة ما يلقي
 الغير في زوايا النسيان ويجعله في خبر كان وما ذاك جميعه الا من اثار قيامهم
 حتى القيام بخدمة ما ذكرناه من العلوم واعنائهم في اثنان المدارس التي اسسوها

لكل منطوق ومنهوم سواء كان من العلوم العقلية او الفنون الصناعية وشنوا
بها بلادهم ليتخرج عليها كبيرهم وصغيرهم جليلهم وخيرهم غنيمهم وفقيرهم

واضف الى ذلك الفاعات العظيمة المخصوصة باجتماع علمائهم ايضا يجتمعون
فيها للذاكرات العلمية وتلاوة الخطابات التي يولفونها في اي فن كان من
الفنون والبحث في ما تبعث به اليهم مراسلهم في اقطار الارض من المخبرات
والمداولة في ما اجره او سيجروه من العمليات وما ظهر لهم بواسطة التجربات
اولاح في افكارهم من الخنون والمحدثيات

وزد عليه خزائن الكتب السلطانية فقد ذكر صاحب كتاب اقوم المسالك
بان تنالي الذي كان وزير المعارف العمومية في ايطاليا قد عمل جدولاً ببيان
كثرتها بعد تمام بحثه عنها في سنة ١٨٦٧ فبلغت ما يأتي (ولعامة بعد كل ما
اغضى عن ذكره

مجلدات

الموجود بخزائن ايطاليا واغلبه من الكتب القديمة المتعاقبة بالديانة	٤١٤٠٢٨١
بريطانيا العظمى	١٧٧١٤٩٣
بلاد النمسا	٢٠٠٠٤٨٨
بروسيا	٢٠٤٠٤٥٠
الروسيا	٨٥٢٠٠٠
بلجيكا	٥٠٩١٠٠
باويرا	١٢٦٨٥٠٠
فرانسا	٤٨٩٠٠٠٠
	<hr/>
	١٧٤٧٢٣١٢

وقال ان في باريس وحدها ثلث العدد الموجود بمملكة فرانسا كلها ففي
قاموس العلوم المحرر في هذه السنين الاخيرة ان الخزانة السلطانية بباريس بها

من الكتب على ما تحرر في سنة ١٨٦٣ م ما يون من الكتب المطبوعة وثمانون
الف مجلد بخط اليد وغاية ما كان فيها وقت تاسيسها سنة ١٢٨٠ م ١٠٠ مجلدات.
وهذا القدر الموجود الان هو غير اربعين الف خريطة في فن الجغرافيا
وعدد كثير من الرسائل ونحوها ما لا يطلق عليه اسم مجلد وقال رفاعة بك
الطهطاوي ان هذا كلة من تاثير الحرية فيها ويوجد في باريس ثلاثون خزانة
غير الخزانات المذكورة متفاوتة في الكبر كما توجد خزائن معتبرة نظيرها في سائر
مدن أوروبا وهذه الخزائن جميعها تُفتح في ساعات معاومة بالنهار ومنها ما يُفتح
بالليل ايضاً للطلبة وللراغبين في الاستعارة او لنصد مجرد الاطلاع وحولها بيوت
للتعلم وهي مبنوية على آلات الكتابة ما عدا الورق فانه يأتي به من اراد
الاستنساخ ويطلب الكتاب الذي يريدُه ببطاقته يدفعها الى المكلف بذلك
واذا احتاج الى اكثر من كتاب يبين السبب فيها فيحضره في الحين ما طلب
وحين خروجه من ذلك المحل يسلم للمكلف المذكور ما اخذه من الكتب وهذه
المنحة مبدولة لكل راغب سواء كان من الاهالي او من الاجانب وأما من كان من
المولفين المشهورين فيسوغ له نقل الكتب للانتفاع بها في مهلة اقصاها عام اذا
طلب ذلك بالكتابة وبين السبب الداعي لاخذ الكتاب وعند مضي المدة اما
ان يرجع ما اخذ او يطلب تجديد التسويغ مدة اخرى هذا عدا عما يوجد عند
الاهالي من المكاتب الخصوصية فانه قل ان وجد انسان لا يعرف القراءة
والكتابة في اغلب ممالك أوروبا المتقدمة وكل من كان كذلك كبيراً كان او صغيراً
غنياً او صعلوكاً لا بد له من خزانة كتب على قدر حاله وفي اغلب هذه المكاتب
الخصوصية كثيراً ما توجد بعض الآلات الهندسية وغيرها ما يلزم الى معاناة
العلوم والفنون ومن الآثار القديمة والغريبة ما يشوقهم للدرس والمطالعة واعمال
الفكر في دقائق الصناعة

ومع كل ذلك لا يُسَيَّ عالمياً عندهم الا من كان متضلّعاً في معرفة الحقائق
بارعاً في كثير من العلوم والفنون اما من كان لا يعرف الا علماً واحداً فلا

يدعوته عالمًا ولو كان من أممنا الذين فان أممنا الذين عندهم لا يوصفون
بالعلم متى كانت معارفهم مقتصرة على الأمور الدينية فقط وكذا العارفون بقواعد
اللغة كالنحو وغيره لا يُعدون عندهم من العلماء الا اذا كانوا يعرفون علومًا غيرها
تساعدهم على بلوغ ما بهم وتتميم مقاصدهم

وهذه الطريقة قد صارت المشاهير بينهم بالعلوم والصناعات أكثر من ان
يحصوا والساعون فيما يزيد انواع البشر تحسبنا اجل من يضبطوا لان الطلبة
في اوربا يتصدون المدارس لا تتعلم لغة اجنبية يتيمون بها عجبًا على ابناء وطنهم
او تدب بواسطتها خمرة الكبر في رؤوسهم فيهلون قبل كل شيء لغتهم الاصلية
لزعيم بانها لم تعد لائقة باناس نظيرهم قد ارتقوا الى درجة سامية من المعارف
والعلوم التي لا تسع لهم ان يتنازلوا بعدها الى التعميش من الصناعة ولو كانت صناعة
آبائهم واجدادهم وانما تقضي عليهم بان ينظروا ذواتهم في سلك العلماء الذين
لا يعرفون منهم غير وولبر وجانجناك روسو وريبات وامثالهم فيتخذون نتائج
افكارهم بدون الوقوف على السفسطات التي اوصلتهم اليها ليموهوا بذلك على
انراهم بانهم قد صاروا اهلاً لاقتباس عوائد الافرنج وملايسهم ويسوغ لهم
حينئذ ان يستهزئوا باسلافهم ويقدموا في عوائد بلادهم واداب آباؤهم نظراً لما
وصلوا اليه من درجات التمدن وسهوا الافكار التي لا يمكن انتظارها ممن لم
يزج كلامه مع ابناء وطنه الذين لم يتعلموا لغات الافرنج بشيء من الانفاظ
الاعجمية بل يتصدون المدارس لكونها هي الوساطة الوحيدة لتحصيل معرفة
الحفائض التي ذكرناها ليتوصلوا بها الى الكشف عن اسرار في الطبيعة تمكنهم من
ادراك غاياتهم التي يتصدون بها لا مجرد اتقان الصناعة فقط بل وايجاد وسائل
لسهولة عملها فترغب الناس فيها لرخص اثمانها وتعرض عن مصنوعات الهامة
نظراً للغلاوتها بحسب اكلافها وبذلك يحصلون هم على الغنى الذي يؤتم لهم اسباب
الرفاه في المعيشة على ما تقدم ولذلك قل ان وجد انسان صاحب صناعة
من اهالي اوربا غير مخرج في اتقان صناعته على المدارس المعدة لتعليمها كما

انه لا عالم ايضاً يستنكف من معاطاة الصناعة عند الاحتياج اليها
وهذه المقاصد نفسها هي التي جعلت الملوک يرغبون الناس في الاخذ باسباب
التبدين وبنشاطونهم بالجوانب وبعلامات الشرف والافتخار وبوضع صور مشاهيرهم
في الجامعات العامة لالتوفير الكفر بل لتوفير دواعي البحث عما يمكن ان ينفع جنسهم
ويجئ ذكرهم فتعمر ما لهم وتمتلى خزائهم بواسطة الصناعات واتساع دائرة
التجارات

ولذلك تكاثرت الفلاسفة في اوروبا حتى لاظنه يخفي من يقول انهم
صاروا اكثر عدداً من امي سوريا واخذوا بطرفون البرور والتجار ويتوغلون
في شوارع الاقطار ويرتكبون المشاق والاختار ليبحثوا في كل ما هو داخل دائرة
الوجود جليلاً كان او حقيراً غير مباليين في ازدياء المتبرزين الذين حتى الآن
نراهم يفتهمون عليهم ضحكاً عندما يرونهم في اغوار البلاد وانجادهما مشتغلين في
رصد حركات ما يقع تحت ابصارهم واو كان من ادنى الحيوانات وجمع ما هان
او رزّل في ابصارها الى الشرق من الاتربة والاحجار بل وادنى النبات او اقذر
الحشرات ولا سيما عندما يستمدون على قلة عقولهم بما يظنون انهم اغتفوه منهم
من الدراهم والدينارين وعضوهم عنه ما زعموا بان لا قيمة او لانفع له ما استخراجوه
بواسطة حفر الاراضي من الاحجار المشغولة او ما باعوه لهم بثمن مناسب من
الكتيب والمولفات فالبت القوم حتى سلبوا البلاد حلالها الثمينة وجميع ما كان
فيها من اثار معارفها القديمة ولسان حالهم يتثل بقول القائل

لو كنت تعلم ما اقول عذرتني او كنت اجهل ما تقول عذرتكما
لكن جهلت مقاتي فعذرتني وعرفت انك جاهل فعذرتكما

ويثل هذا الاجتهاد قد فاز السواح منهم ايضاً بفك طلاسم الامم القديمة اذ
عرفوا الحروف الهيروغليفية المصرية والفينيقية والاشورية والحميرية واستخرجوا
من دفائن الخرابات معارف قدماء الامة المصرية وهم الان يشتغلون في البحث

عن اثار يابل وبهاي واستخراجها من خراباتها العظيمة (بهاي بلدة في ايطاليا
 خربت ببركان بزوف) فاستخرجوا كثيراً من غرائب وتحف بحجر اللسان عن
 وصفها واستدلوا من فحصها على حالة تينك الماديتين الادبية والسياسية والعلمية
 والصناعية ولم يهتم عن عزمهم واقدامهم على ما يتصورونه وتحقق لهم عاومهم او
 ظنوتهم انهم ينالونه لوم الانداد ولا مقاومة الحساد ايضاً كما وقع للدكتور هنري
 شلين الجرمانى في الكشف عن الكوزاتى ذكرها اوميروس الشاعر اليونانى
 بانها دفنت مع الملك اغاممنون الذي غزا ترواده واخر بها ولما لم ترض معه
 دولة اليونان بان تساعد في مصاريف بحته عنها في خرائب مدينة مسيني قبل
 معها بان يصرف تلك المصاريف من ماله فسمعت له حينئذ ان يستخرجها
 بحيث تبقى للدولة اليونانية فلا يستولي على شيء منها فتخرج حينئذ مجرد نسبة
 اكتشافها له في سجالات البلاد واظهر من تلك الدفائن الثمينة ما يبهر العقول
 وتبهاى بالاستيلاء عليه تلك الملكة الصغيرة المنحلية بكثير من الآثار التي هي من
 هذا القبيل فانه يحكى بان دولة انكلترا ارادت ان تسمح لهذه الملكة بكل ما لها
 عليها من الديون في مقابلة بعض اثار قديمة رغبت فيها من الموجود عندها
 فلم تقبل ومن اعظم فوائد هذه الآثار عند الافرج وضعها في المعارض العمومية
 التي احدثوها لاجل المباهاة في الصنائع والاشغال فيحصل التنافس فيها ويزاحم
 بعضهم بعضاً على انقائها والفوز في اكتساب شهرة التقدم في اعمالها
 وقد بلغ من معارفهم وثقتهم في اصابة افكار عظمائهم ان يقدموا على عظام
 الامور التي يؤملون بانها تعود عليهم بالنفع ولذلك لم يتأخروا عن ان يقدموا
 موسيو دوليبس باموالهم لانجاز مشروعه في حفر ترعة السويس غير مائة الفين
 الى التوجهات التي كان يهددهم بها رقباؤه عن الطوفان الذي زعموا انه
 يحدث من اختلاط البحر الاحمر بالبحر الابيض ويقال بان في نية رجل اخر
 يقال له موسيو ماينير حفر ترعة مثلها تصل الاوقيانوس الانلانتىكي ببحر الروم
 وتعرف بترعة دوهيدى وكذلك في قصد جمعية امريكانية حفر ترعة تصل ببحر

قزین بالبحر الاسود وربما اعتنوا وصل نهر دون بنهر قولکا
 ولم يقتصر وافي البذل والسخاء على امور نظیر هذه بوملون اقله التمتع من
 حصة اسهام اشتراكهم فيها فضلاً عن رواج متاجرهم الخصوصية بل يبذلونها ايضاً
 في سبيل تقدم الصنائع على آية صورة كانت فانه يقال بان تاجرًا امريكانيًا
 وهب خمسين فدانًا من الارض وخمسين الف ريال لاقامة مدرسة عالية يُعلم
 فيها الطبخ على اصول وقواعد علمية في ولاية مسشستر من الولايات المتحدة
 وعقدت كذلك جمعية كياوية في الولايات المذكورة جل مقصدها تنشيط
 الكيماويين ومساعدتهم لترقية اسباب المعارف الكيماوية
 واقف خمّار من خمّاري دانيارك ٧ ملايين و ٢٨ الف غرش لاجل انشاء
 معامل لترقية العلم والصناعة بالبحث والتجريب وجعل على هذا المال ٥ من
 الوكلاء الامناء يبذلون قسماً من دخله السنوي في سبيل ما انشأه حديثاً من
 المعامل الكيماوية والفيسيولوجية ويبذلون القسم الاخر بعد وفاته ووفاته زوجته
 في سبيل العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفة والتاريخ وعلم اللغات
 واشتهر رجل من زوريك بفن الكيما فلما درت الحكومة بمبلغ علمه وبعد
 صيته وكبر نفعه منحة قطعة ارض واسعة و ٦٠ الف فرنك لبناء معمل كيماوي
 هناك ولما رأى اهل البلد صنيع حكومتهم تكفلوا هم ايضاً بتقدّم كل ما يقتضي له
 من النفقات فوق ما ذكر

فمن هذه المثالات ونظائرها نتحقق ما للصناعة من الشرف عند اهالي اورويا
 ومقدار اعتنائهم بها فلا نحصر المجد العظيم الذي لعلماء الطبيعة في مجرد اذلال
 العناصر وتطويعها لخدمتهم كتسخير المادة التي كان اقام لها اليونان الها من
 اولاد جوبيتير معبودهم ليهيء لاييه منها الصواعق فجعلوها هم بمنزلة البريد
 لايبصال مخابر انهم ولا في خرقهم حرمة تلك المفاسمة التي زعموا بانها جرت بين
 ذلك المعبود واخويه حيث سلبوا من ابلوطون السلطة على النار واستخدموها
 لامتطاء متون العواصف المائية والتميارات البحرية بل واصبحوا قادرين ايضاً

على ما يظن الجاهلون به بأنه من خوارق الطبيعة ويقرونه بعمل اصحاب الكرامات كما شي على وجه الماء والجلوس في وسط لهيب النيران على ما قد سبقت الاشارة اليه في الكلام على الاكتشافات العلمية والتقدمات الصناعية في هذا القرن الذي نحن بصدد تقدمات الصناعة فيه بل يلزمنا ايضاً ان نعرف ما لهم من ذلك الجهد في ما قد اتفاموا به من حقوق الصناعة ايضاً واتقانها حتى الاتقان حتى بلغ اصحاب المعامل في اوربا ان يعملوا اعمالاً لولا انهم بين اظهورنا لا برئنا الحكم عليها بانها من صنع الجان

حكى بان امبراطور المانيا الحالي دخل ذات يوم الى معمل من معامل الابري في ملكته يريد ان يعرف مبلغ الانسان من الدقة في الاعمال بالحرف التي يستعملها لها والآلات التي اخترعها لموتته وبينما هو يتنقل في المعمل وقع نظره على ابر دقيقة الى الغاية اذا وزن الوف منها ما زادت على الدرهمين او الثلاثة فاخذ العجب ولا سيما لما رأى عاملاً يثقها ونظره غير مستعين بالآلة فقال له العامل اني اري جالاتكم ما هو اعظم من ذلك وطلب منه شعرة من شعر راسه فاعطاه فوضعها تحت المثقب وللحال ناوله اياها وفي سهها خيط فخرج الامبراطور وهو يثني وقد اعترته دهشة مما رأى وكذلك ابرة اخرى عند الامبراطورة فكتوريا ملكة الانكليز الحالية اراد المناخرون ان يباهوا بها اعمال المتقدمين فنقشوا عليها نقوشاً كثيرة منقولة من حياة الملكة المشار اليها كما كان المتقدمون ينقشون على الاعمدة التي ينصبونها لمن يشتم منهم وكل ما هو منقوش على الابرة نافر على غاية ما يمكن من الدقة ولا يرى الا بمنظر مكبر والاعراب من ذلك ان ضمن الابرة ابراً ادق منها بعضها ضمن بعض وجميعها منقوشة كالابرة الكبرى هذا ما كان من امر اتقانهم النكاة الصناعية الدقيقة ونظير ذلك في الاشياء العظيمة المجرم ايضاً كنتك الساعة العظيمة المولة التي ذكرنا في ما مر انهم اقاموها في لندن عاصمة المملكة الانكليزية وقبة الجرس الحديد العجيبة التي اشرنا كذلك بانهم انشاوها لكاندرال روان في المملكة الفرنسية

واصطنعت كذلك في بارنر ساعة للمعرض متفنة الصناعة تدل على
الساعات والدقائق والثواني وايام الاسبوع واشهر السنة ووجه القمر وتغييرات
التيرموتر والبارومتر

وبلغ من تحسين عمل الساعات في سويسرا انهم اخترعوا لكتابة الارقام على
المنيا مادة تدير في الليل فتقرأ ايلاً كما نقرأ نهاراً وانما نحتاج ان ترى نور الشمس
ساعة من الزمان

وعلى هذا يمكننا ان نفيس باقي معمولاتهم الصناعية التي ادهشوا بحسنها
وانقانها اهم المشرق وسلبوا منهم الثروة والغنى سواء كانت من المعادن او غيرها
من الاتربة وسائر العناصر الارضية كانية الباور والمرائي وانواع الفخار الطريف
والبلاط فضلاً عن اواني الذهب والفضة وانواع الحلى التي منها ما برصعونه
بانواع الحجارة الكريمة وما يصنعونه من معادن الحديد والرصاص والتصدير
والتيك كاواني البيوت وخاصة ادوات الصنائع والاتيها للفخارين والمعمارية
والحلاقين والقوافين والآت العزف الموسيقية والآلات الهندسية والفلكية وما
تفنى فيه الالمان والفرنساويون من ادوات الحرب والاتيها المملكة التي اخترعها
واعلاها لمحاربتها الاخيرة من الطينجات المضاعفة وبواريد الابرة والصاشبي
ومدافع المترايوز والكروب ولاسيما المدفع المتخترع اخيراً بعد الحاربة المذكورة
وقد ذكرت صفاته في ما تقدم والرعادات المسماة بلغتهم توربيد او توربيل
المتخترعة لاجل اطلاق البوارج المصفحة واحراقها والآلة التي اخترعت في بلاد
الانكليز ضد ما وغير ذلك من الوسائط الفعالة المتكفلة بافناء الجنس
البشري ايضاً

وقد عرف كل فرد من اهالي بلادنا ما للقوم من البراعة في ما يصطنعونه
على الانوال ايضاً بمساعدة الآلات البخارية من اقمشة الكتان والقطن والصوف
والحرير على اختلاف انواعها ونقشها بالالوان الجميلة كيف لا وهي سبب تعطيل
حرفته وبيعته فقره وفاقتة ومنها انواع الغزل والمنسوجات الساذجة كالبنر

الابيض والمناديل والمخارم والشيت والندوبرات والكفوف والجوارب والبرميك
والنول والاناوين والاطلس والجوخ والحيوانات والحبال والخيوطان والبسط
والسجادات الرفيعة والشاش والدامسكو والشالات التي يقادون بها صناعة
الكثير وغير ذلك من الاقمشة الصوفية الساذجة الرفيعة لاثواب النساء
والثانله والمخل حتى الخمام المصبوغ والديمال والطرايش التي كان يجب ان
نستغلها نحن اقلما يكون لذواتنا اذ انهم هم لا يلبسونها

واخترعوا حديثا في باريس صناعة عمل الجوخ من ريش كافة الطيور البينية
والخاوية على ارفع منوال واعظم مثال على انه من ٧٠٠-٨٠٠ جرام ريش يمكن
استخراج متر مربع جوخ اخف من الجوخ الصوفي ٥ مرات ومدف عنه قدر
٣ مرات ويمكن صبغه بكافة الالوان

وبالاجمال نقول انهم لم يتركوا لنا شيئا فحتمل ثقله على من ضرورياتنا حتى
الذبالة التي نحتاجها لاسراج مصابيحنا لالزيت البترول المعروف عندنا بالغاز
الذي برسالونه لنا من بلادهم فقط بل وبالزيت الناتج من بلادنا ايضا فانهم
برسالوتها لنا مع الادوات النارية اللازمة لاشغالها عدا عما يلزمنا من الكراسي
والمناعد والطاولات وسائر الاشياء الخشبية

ولئلا يظن بعض مطالعي كتابنا بان الجبهية التي اشرنا قبلا الى اهتمامهم
بترتيبها وانعقادها حديثا لاجل تشييط الكيماويين في ترقية صناعتهم هي ناشئة
عن تأخر واقع فيها يتنضي ان ندرج هنا ما ورد في احدي جرائد المنتطاف
حيث نقول وقد بلغ الكيماويون (في اوروبا) درجة سامية في استغلال الذهب
والفضة ليس من معادن اخرى يحولونها الى هذين المعدنين كما يتوهم الطماعون
بل ما كان يطرح على الدم وتاباه الطبايع كرامة واشمازاما من قدره وكرامة
رائحة فانهم يستخرجون من الجبن المنمن وزيت الفوسيل والاوخام الجارية من
حظائر البقر العطورات الطيبة التي يتدهن بها الاشراف والعطاء وغيرهم من
رجال ونساء فيضعها التجار في انية مزخرفة ويلتقون لها اسماء تعجب كربت

الاجاص وزيت التفاح وزيت العنب وزيت اللوز المر وزيت الكنيك وماء الزهور. ومن قطع النصد بر التي تمساقط تحت مقص التنكاري والمخرق العتيقة وما يُشر عن حوافر الدواب الصباغات الزرقا ومن الانارات الحديدية الحبر. ويستعملون العظام في عمل الانصبه لآلات التقطع على اختلاف انواعها وفي اللون الاسود العظمي عند الملونين والطلالين بالثريش ولتنزيل الارض عند الفلاحين ولحاجات عند الصباغين ومتمهي الاقمشة ولعمل الشحيط المعروف بشحيط كونكريف بما بها من النصفور ولها منافع عديدة. ويستخرجون من المخرق الصوفية العتيقة نوعين من الغزل يغزلونها وينسجون منها الثياب. ويصطنعون من الثياب الصوفية الرثة البالية ورقا انعطية المحيطان ويتخذون حشوا للفرش ويستخرجون لونا ازرق يُعرف عند الملونين بالازرق البروسياني. وكذلك يتخذون مما يلي من الثياب المنسوجة من قطن وصوف مما تلبسه النساء صوفاً للاستعمال ثم يزيل الفلاح ارضه مما يبقى من تلك المخرق الصوفية ولا يصلح لان يستخرج منه نوعا الغزل المشار اليها. ويتفنن الكيماويون كل التفنن بانواع استعمال القرون والحوافر. ويصطنعون من دهن الكلاب زيت السمك المغشوش. ومن الاوساخ الباقية من تنقية الاصواف وغزلها شمعاً يُعرف بالاستيارين. ومن عيون السمك ازره للزهور المصطنعة. ومن المئانة والامعا اوتاراً الآلات العزف وصامات مانعة لنفوذ الهوا فيسد بها على الهوا وعلى ما يراد حفظه منه. ويستخرجون من ارجل العجول والغنم زيتاً عطراً الى الغاية. ويتخذون من السمك الممتن زبلاً جيداً للارض. ومن الروث صباغاً اسمر. وما يُلنقظ من فضلات القطن في المعامل والورش الشرشف واغطية الفرش الافرنجية وقرطاس المطابع ونوعاً من الورق الصلب. ومن اعشاب البحر الورد والورق واغطية سقوف البيت وحيطانها. ومن حبوب كثيرة علفاً للهواشي بعد ان يمتصروا زيتها او يستخرجوا المسكرات منها. ومن قشور العنب لونا اسود تصنع به احسن انواع الحبر واجلها. ومن رماد التبغ مسحوقاً للاسنان. ومن الثفل

الراسب في الخمير زينة الطرطير. ومن الفطران الفخمي الذي يوذ من معامل
الغاز الملح النشادرية وكبريتات النشادر وجبر المطابع والنور ومضادات
الفساد والبتول وشمع البارافين وكل انواع الانيلين الجميلة في الصباغ ونقش
الاقمشة . ومن مسامير نعال الدواب القديمة احسن حدائد البنادق المعروفة .
ومن قشور الحمص الارواح وهي تعطى ايضاً علناً للماشية ويستهلمون دم الثيران
في تنقية السكر وعمل الفم الحيواني والصباغ الاحمر المعروف بدم العفريت .
والنخالة في الدباغة ونقش الشيت وعمل صمغ الفلك . ويعلمون من حكاكة
الخيز المحترق مسحوقاً للاسنان وقد يستعملها الفرنسيون عوض القهوة .
ويتخذون ما يبقى في المدايح بعد الدبغ لتزويل الارض . وقطع الفلين او ما ينحاث
منه لحشو الامتعة ونحو ذلك وهي مرغوبة جداً عندهم . ويطحنون الجلود العتيقة
وما يقص منها قطعاً صغيرة عند المشتغلين بها ويعلمونها غراء . وتستهمل مرارة
الثور عند صابغى الالوان ومنظفي الاثواب . وعمايش الزبيب في ترويق الخل
وهي افضل شيء لذلك . ويصطنعون من دقيق الكستنا المعروفة بكستنا
الحصان الماكروني وهي طعام معروف . ومن البطاطا والارز والحنطة التي لحقتها
الفساد النشا . ومن النشارة الورق ويستفطرون منها الحامض الاوكساليك
ايضاً ويدخنون بها السمك ويحلمون بها المصاغ ويحشون اللعب ونحوها ولها ايضاً
فوائد اخر عديدة . ويستخرج اهل نروج زيتاً من كبك سمك يعرف عندهم
بالسمك الكلي ويستهلمون جلك بعد ان يجففوه لصقل الخشب والعاج . ومنه
نوع اخر يستخرج الفرنسيون من كبك زيتاً ايضاً يستعملونه للدوا ويكون
كزيت السمك الخالص في منفعته على ان كل ذلك كان مهملأ عندهم من قبل .
وقد عقد الفرنسيون شراكة في فرانسالجمع فضلات الملحمة التي تطرح
عندنا والكلاب والقطط الفاطسة والدهن الذي تدهن به السمك الحديدية
بعد استعماله ويعالجون ذلك جميعه بالبخار وضغط السائلات ويستهضرون منه
السيارين . ويطحنون القطع التي يقشرها الاساكفة عن الجلد في عمل الاحذية

ويعجنونها ثم يدونها جلدًا جديدًا يُسمى بالضببان يستعمل للنعال الداخلية واهل
امريكا يصنعونها على طريقة اخرى ويجمعون الجلود العتيقة وما يقطع الدباغ
من زعانف الادم وبغرونها حتى تصير على سمك قيراط ثم يكسونها بين محلاتين
كبسًا شديدًا جدًا فتخرج جلدًا جديدًا يُستعمل للكعاب والنعال الداخلية
والمفسيات . ويستخلص الذين يطبخون الجلود ما يكونون قد استعمالوه في طبخها
من زيت السمك والشحم بعد ان يكونوا قد قشروا تلك الجلود قشرًا رقيقًا
فيبيعون القشور لمن يشتريها اما الزيت فيصنعون منه صابون زيت السمك
المستعمل عند المشتغلين بالصوف لتنظيف الاقمشة واما الشحم فيصنعون منه
صابون الشحم ثم يصنعون من القشور التي تبقى بعد ما تبرد اقراصًا بوقدونها
لاستخراج الزيت والشحم من قشور غيرها وما زاد عن المطلوب يبيعهون وقيدها
او زبلًا . وكانوا فيما سلف يطرحون ما يتلف من الورق الذي يتشرب
الالبومين او يدن به استعمالوه في تصوير الشمس فانه يتلف منه كثير في مجرى
اصطناعه واما الآن فانهم يلونون الالبومين بالوان الانيلين على طريقة معروفة
عندهم فيتحول الى ورق كالرخام شكلاً . وكذلك كانوا يهلون كل سنة نحو
اربعمائة الف قنطار تبقى من القطن والكتان عند نسج الاقمشة واما الآن فلا
يهلون منها شيئًا بل ينتفعون بها كلها واذا زيد عليها ما ينتفع به في هذه الايام
من بقايا الصوف والحبر زادت قيمة المنفعة كثيرًا . وبطلي الفرنسيون
كيزان الصنوبر وعرائس الدر بعد نزع الحبوب عنها باية مادة كانت راتنجية
ويستعملونها لاشعال النار . وفي باريس توجد جمعية تشتري الفضلات النباتية
التي كانت تطرح خارجًا من ٢٥ مستشفى بها ويطبخونها على البخار ليعانفوا بها
الخنازير . ويستخرجون من الثفل الاسود الذي يبقى بعد تصفية بزر الفنت
ونحوه من نبات فصياتيه دهنًا ابيض حسنًا ويصنعون ما يبقى بعد معالجة ذلك
الثفل طلاءً رخيصًا . ويستخرجون الدهن الذي يبقى في اقراص الكسب
بوساطة كياوية ويجولونه الى ستيارين فاخر . ويشتررون الدفاتر القديمة

والمكاتب والسندات وكل الاوراق المكتوبة (لا المطبوعة) اني لا يُجتاح اليها
 ليزجوها بهوادٍ اخرى ويجولوها قرطاساً جديداً تُطبع عليه الجرائد الخمسة
 الاثمان . واقاموا في ايطاليا وورقة برج والولايات المتحدة الامر بكنانية وغيرها من
 البلاد معامل كبيرة لاصطناع القرطاس من اوساخ الفطن والورق العتيق
 والنش والعشبة الاسبانية والخبث عداً عن الخرق الفظنية والكنانية كما
 انهم يصطنعونه ايضاً من الخشب بواسطة طحن الخشب في دوالب خشنة كحجر
 الرحي ثم يعجنونه ويدونه على طريقة اصطناع الورق وفي بنسلفانيا في الولايات
 المتحدة عمل يعد كل يوم ٢٠ الف ليبرا من الخشب والنشارة واستعماله اخذ
 الآن في الاتساع ففي اكثر الجرائد الالمانية قليل منه ويقال بان جريدة
 ديلي تريبون في نيويورك يصنع ورقها من خشب البهبو وان ورق غيرها من
 الجرائد الامر بكنانية اكثره من ورق قصب بري يكثر على ضفتي نهر مسيسيبي
 ويستخلصون من الخشب بعد اصطناع الورق منه روحاً من الارواح يُنسب الى
 بعض الكيماويين الالمانيين ويصنعون من النشارة عاباً وصناديق مزخرفة
 توضع فيها الحلى وصانعها رجل فرنساوي . ويتخذون من البزير التي في حلب
 الفطن وقيداً للغاز زيتاً للصوف في القناديل وشيماً صلباً حسناً او ستيارينا للصابون
 والشمع ويستعملونها عوضاً عن زيت الزيتون وعلناً المباشية عوضاً عن اقراص
 الكسب . وكذلك يتخذون من ثقل الدبس المصنوع من سكر الشندور الكحول
 الكثيرة الاستعمال ومنه متبلوراً املاح البوتاسيوم . ومن خشب الصباغ بعد
 استخراج اللون منه وقيداً فان بعض اصحاب المعامل الواسعة بفرنسا يمزجه
 بدردي التطران ويجعله اقراصاً للوقود . ويتخذون من اوراق الصنوبر ما يعرف
 عندهم بالصوف الشجري ويستعملونه لحشو الارائك عوض الصوف وينسبون منه
 الثياب الداخلية كالفصان ونحوها وهم يشتغلون بها في قرانسا واسوج وهولاندا
 وغيرها وما بقي منها بعد ذلك كبسوه كوماً وباعوه وقيداً ويستخرجون منه المادة
 الراتنجية التي فيها الغاز واذا عالجوها معالجات اخرى استخلصوا منها زيتاً طياراً

يُستعمل في الروماتيزم والامراض الجلدية زيتاً اثيرياً يستعمل شافياً ومذوباً
وسائلاً يُستعمل في عمل غسل طبي. ولما فكر بعض الانكليز بان الفحم المذخور
في الاراضي لا يدوم الى الابد التفتوا الى ما يتلف منه من الدق والغبار على
فوهات المناجم ولا سيما لما اشتغلت بلجيوم بتدبير ذلك ومن ثم عقدوا جمعية
لتدبيره فيغربلونه الان ويزجون كل سنة جزء منه بقاينة اجزاء من القطران
النجسي ثم يحمونه بالنخار الى درجة ٢٠٠ حتى يصير في قوام العجين فيصنعونه
اقراصاً واساطين يستعملونها وقيداً للارنال ومراكب النار. ومن غريب ما يأتي
به الجدان البلدان التي يعوزها البلاط عندهم يفرشونها بالحديد وذلك انهم
يذيبون ثقل الحديد الذي يطرحه الحداد ويحرقونه الى حفرة قطر الواحدة منها
٨ او ٩ اقدام ويتركونه حتى يجحد صفائح رقيقة فيستعملونها عوض البلاط.
ويعالجون اباريق التنك والطناجر العتيقة البالية وغيرها من الاواني التي لم
تعد تصلح للاستعمال وما يقص من التنك في عمل الصمون فيستخرجون منه تنكاً
خالصاً وحديداً والنشادر والازرق البروسباني وقصديرات الصود يوم ومنافعها
كبيرة عند الانكليز واهل ولس حيث يصنع من الصمون ما يساوي مليوني
قنطار من التنك. وما يفيض من المواد في تلبس المعادن بالكهر بائية كالبورق
زايح جداً عند الماحصين وفي عمل الدهون للتصوير. وقد اكتشفوا منذ برهة
جزئية على طريقة استخراج السكر من الحشيش لان المادة السكرية توجد بكميات
مختلفة في كل نوع من النبات والبقول اما الحشيش الذي عليه معاش الخيل
وسائر الدواب في اوروبا ففيه مادة سكرية فضلاً عن باقي النبات وقد قرر
الذي اكتشف على هذه الطريقة انه قادر على استقطار ١٧ رطلاً سكرًا من
قنطار حشيش وقد عول ارباب الصنائع على اجراء هذا الامتحان في فرانسوا
واستتب للاستاذ بير من اساتيد مورنج ان يهل النيل عملاً وهذا بعد من
اعظم اثمار الكيمياء الا ان طريقة عمله لم تزل كثيرة النفقة وليس لهذا الاكتشاف
مثيل الا عمل الفوة الذي اكتشفه الاستاذان غراب وليبر في سنة ١٨٦٨ م

وأستعملت في الصباغ

(المتقطف والنحلة)

ومع كل ذلك ما فتئت همتهم ولافتت رغبتهم ولاخارت قواهم ولاضعف
اعتنائهم في البحث عن الاسباب والوسائل الموجبة لنمو الصنائع وتحسينها وتقدمها
وترويحها وأعظم الوسائل المتخارعة لهذا المنصد العظيم هي المعارض التي سبقت
الإشارة اليها في ما تقدم والمعارض جمع معرض وهو قصر عظيم من البلور
تجتمع فيه كل الانواع من البضائع والمحصولات والأوائل والكراتين وكل شيء
مصنوع بيد الانسان من جميع الممالك والقبائل البشرية وتنفذ ملوك الارض
وعظماؤها وكثير من الناس على اختلاف طبقاتها لاجل التفرج لان الذي يحضر
ذلك المحضر العظيم يكون كأنه زار المسكونة بنامها في يوم او اسبوع واحد
ويسمع كل انسان لغته ويرى كل انواع مصنوعات بلاده وينظر اناساً لايسين
ملايسه ويجد حوائث فيها كل نوع من المأكولات والمشروبات المناسبة لكل
شعب وامته ويرى ايضاً في تلك المكاتب العظيمة كل انواع الكتب الموجودة
في كل لغات العالم وداراً فيها خريطات رسم الارض ومساظر اصنام الوثنيين
من كل القبائل ونسخ من الكتب الوثنية ايضاً وبالجملة كل ما تشوق النفوس الى
رؤيته والاطلاع عليه ولا بد ايضاً من ان يكون بالقرب من هذا المعرض
معابد وقهاوي وحمامات تلام اغلب الطوائف الاجنبية التي تأتي للفرجة. وكان
اول معرض شرع بعلمه في مدينة لندن قصبة المملكة الانكليزية ونالها فيه
الدولة الفرنسية في عهد الامبراطور نابوليون الثالث ومن ثم اخذت باقي
الدول في متابعتها لما في ذلك من تقدم الصناعات بواسطة ترغيب اربابها
ليتنشطوا في اعمالهم ويزيدوا من الاعتناء باتقان اشغالهم وحسينها بهاتنا على ذلك
انه كان في جبهة ما يُعكث به منذ بضع سنين من محاصيل بلادنا السورية الى
المعرض العمومي في باريس حصّة من الدخان الناتج في قرية من قرى مقاطعة
الذكوره التابعة لجبل لبنان ومربوط عليها ورقة صغيرة تعلن اسم صاحبها واذا في

السنة التي بعدها طُلب الرجل المذكور الى بيت الدين مركز المتصرفية وسلمه دولة المتصرف وقتئذٍ وهو المرحوم فرانتو باشا اوراق شهادات وامتيازات ارسالت له من فرانسَا علامة على تقدمه وبراعته في زراعة الدخان فجعلها في محفظة وعلقها على ما قيل في صدره كعلامة امتياز يتباهى بها بين ائداده في عصر فكيف اذن لا يبذل بعد ذلك هو وامثاله بل وجميع من عرف ذلك من ارباب الصناعات مزيد الكد ونهاية الجهد بانقان ما يمارسونه من الاعمال الى ان يبلغوه درجة الكمال في الجودة

والكي أعلم شدة اعناء القوم في هذه المعارض ومقدار ما يبذلونه عليها من الاموال نذكر هنا ما قد حكى في الجزء الثامن من المتتطف ايضا بان الفرنسيون سيقومون معرضاً عمومياً في سنة ١٨٧٨م والمسموع انه سيكون من المعارض العظيمة جداً وقد عينوا برسم هندسته ٩٤ مهندساً من باريس فامتاز فيهم ستة نال كل منهم ٦٠٠ ريال امر يكاني جائزة وستة اخرون نال كل منهم ٢٠٠ ريال جائزة وستشغل ابنية المعرض ٦٨ فداناً من الارض ويصرف عليها ٧ ملايين من الريالات ويُعين للفرنساويين نصفها والنصف الاخر لسائر شعوب الارض وذكر ايضا في الجزء الثاني عشر من الجريدة المذكورة بانه سيصنع في هذا المعرض حوض للسماك يسع ٤٠٠ الف جالون من الماء و٤ ملايين ليبرا من السمك وسيصرف على اصطناعه ٤٠٠٠٠ و٤٠٠ ليبرا انكليزية وبرتبونه ترتيباً عجيباً جميلاً الى الغاية بحيث يقدر المتفرج ان يرى كل ما فيه من الحيتان والاسماك ويشاهد مساهمتها وحركاتها كما تكون في لبح الجبار وسيسيرون فيه سفينة محمولة نحو ٤٠ قنطاراً ويغرقونها في الماء ويرفعونها بالآلات فيتفرج الناس مطمئنين على ما يجري امامهم من الاهوال التي يميل الانسان الى رؤيتها (فلينايل اهالي بلادنا)

الفصل الثاني

في الكلام على المعارف في بلاد الدولة العلية العثمانية

لا يخفى بانه لما كانت مدينة القسطنطينية التي هي عاصمة المملكة الامبراطورية الرومانية الشرقية مؤسسة على صخر السعادة وقد اعتادت منذ حصلت في عالم الوجود على التراس والسيادة فلم تطلق الذل والنكال بعدما نشأت عليه من رونق العز والايهه والجلال ولذلك كان من امرها ما سبقت الاشارة اليه في خاتمة الجزء الاول من هذا الكتاب باوجز عبارة وهو انه لم يسعها الا ان تتخلص من ايادي قوم لم يراعوا قدرها ولا عرفوا كيف يحسنوا صيانة ثغرها ومن ثم ارتأت برايتها السديد ان تدخل في قبضة سيد تبليغ بسطوته القاهرة ما تشاء وتريد فخاطبت ذاتها بلسان المرشد الناصح ان المعول عليه في هذا الامر لا يكون الا السلطان محمد الفاتح فخرت للعين حصونها الحصينة على الاقدام وسلمت له ولذريته مقاليد امورها على الدوام وهو كذلك مدامساعتها على ما ارادت بك البهيم ولي نداء طالعها السعيد الهانف نحو جيوشه الجارة ادخلوها بسلام امين وجعلها كرسي مملكة العاية من سنة ٨٥٧ الهجرية الموافقة الى سنة ١٤٥٢ مسيحية فنالت بذلك ما كانت تمنناه اذ انها بقيت حافظة للزايا التي امتازت بها دون غيرها من العواصم بكونها كرسي مملكة عظمى وصاحبها له رتبة اولى بين ملوك الارض وسلطينها

وكان هذا الفاتح من العائلة العثمانية التي قد امتازت بفخر لا ينحصر في قدميتها وشرف اصحابها فقط بل من وجوه اخرى عديدة ايضاً منها انها لم تسد

بوسائط ردية كارتكاب نقيصة ضد ساداتها او خيانتة بحق مواليها بل استمرت على مراعاة حقوق السلطنة السلجوقية والخضوع لاوامرها منذ استولى سليمان شاه الجدد الاعلى لآل عثمان على بلاد ارمينية الكبرى في سنة ٦٢١ للهجرة (سنة ١٢٢٤م) الى ان انتقل زمام الملك اليها طبعاً من يد الدولة المشار اليها على ما ينضح ذلك من التفاصيل الآتية

ثانياً انه منذ استيلائها على تخت السلطنة الى الآن لم يتغلب عليها احد

اصلاً

ثالثاً ان جميع الدول التي سلفتها كالامويين والعباسيين والفاطميين لم تقدر ان تحافظ على خصائصها كما حافظت هي على ذلك ولا سيما من زمن السلطان سليم الاول الذي جلس على سرير الملك في سنة ٩١٧ للهجرة سنة ١٥١١م وفتح بلاد مصر والشام التي كانت وقتئذ بيد الجراكسة سنة ٩٢٢ للهجرة (سنة ١٥١٦م) وجمع بين الخلافة والسلطنة فصار هو وخلفاؤه امرأ المؤمنين واية المسلمين

وكان العثمانيون في الاصل من القبائل الرحالة النزالة جاءوا الى هذه البلاد من بلاد التتار وتملكوا في الاناطولي واول من تملك منهم الامير عثمان الغازي الذي اليه ينتسبون وكان ذلك في ايام سلطنة غياث الدين مسعود بن كيككوس السلجوقي وكان هذا الامير في اول الامر بوظيفة قائد العساكر السلطانية عند السلطان المشار اليه

ولما ارسل اليه هذا السلطان طلباً ونفيراً وعلماً وصلوا اليه في اليوم السابع عشر من شهر ذي القعدة سنة ٦٨٧ للهجرة (سنة ١٢٨٨م) وقت العصر فانصب حينئذ واقفاً على اقدامه وضربت النوبة بحضرته فمن ثم جرت العادة في ضرب هذه النوبة كل يوم وقت العصر ووقوف السلاطين عند ضربها الى ان بطل الوقوف في زمن السلطان محمد الثاني فاتح القسطنطينية الذي تولى على المملكة سنة ٨٥٦ للهجرة (سنة ١٤٥٢م) ثم بطلت عادة ضرب النوبة رأساً في زمن

السلطان محمود الثاني الذي تولى السلطنة سنة ١٢٢٢ للهجرة (سنة ١٨٠٨ م) ولما اتحف السلطان غياث الدين المشار اليه الامير عثمان بسكة ضرب المعاملة وامر ان يُخطب باسمه على المنابر ايضاً لُقِبَ من ذلك الوقت بلقب خان ثم لما تولى السلطنة السلطان علا الدين كينيد بن فرامر السلجوقي ارسل الى هذا الخان الجديد منشور السلطنة مع الطبل والعلم الابيض المخصوص بالسلطين السلجوقية تقيداً الى الجنكيزية فاستقر استقلاله من تاريخ هذا المنشور وكان ذلك في سنة ٦٩٢ للهجرة (سنة ١٢٢٥ م) ومن الاتفاق العجيب ان لفظ آل عثمان يواقع في حساب الامجدية عدد سني الهجرة المذكورة . ثم لما فر السلطان علاء الدين المذكور خوفاً من التار والتجي الى الامبراطور ميخائيل الباليولوجس قيصر القسطنطينية وتوفي هناك انقضت تائلته بموت فاروق حينئذ عثمان خان المشار اليه الى رتبة السلطنة في سنة ٦٩٩ للهجرة (سنة ١٢٩٩ م)

وجعل هذا السلطان كرسية اولاً في مدينة قرا حصار ثم بنى مدينة ودعى اسمها بكي شهر ومعناه المدينة الجديدة ونقل تخت المملكة اليها الى ان تولى السلطنة بعده ابنه ارخان في سنة ٧٢٦ للهجرة (سنة ١٢٢٥ م) فنقل كرسية الى مدينة بروسا ولما تولى السلطان مراد بن ارخان سنة ٧٦١ للهجرة (سنة ١٢٥٩ م) بنى سراية في ادرنه ونقل تخت السلطنة اليها فدامت على ذلك الى ان افتتح السلطان محمد الفاتح مدينة القسطنطينية وجعلها دار السلطنة الثانية حتى الان وكان لما افتتح هذا الفاتح هذه المدينة سمح ببعض كنائسها الى الامالي وجعل المعتبرات منها جوامع ومن ذلك كنيسة ايا صوفيا التي مر ذكرها في الفصل السابع من البحث الاول في الكلام على المعارف عند الرومانيين ولم يوقع بها تعبيراً الا ما كان مغايراً لاصول الدين الاسلامي فامر باخفاء ما على جدرانها من النقوش الذهبية بالكس ووضع لها منبراً ومحراباً وكرسيّاً وبقي ما عدا ذلك على حاله الاصلية غير ان بعض الموليين يقول بانها لما تولى السلطنة السلطان عبد المجيد الاول في سنة ١٢٥٥ للهجرة (سنة ١٨٤٩ م) امر بازالة الكس عن

تلك النفوش وتجدد ما انعدم منها لكي ترجع الى رونقها الاول (والعهد على الراوي)

ثم ان السلطان محمد الفاتح المشار اليه واخذ هو وخلفاؤه من بعده في ترميم ما كان خرب في مدة الحصار بينه المدينة من الابنية وتجدد غيرها ايضا وكان اول ما شرع به بناء جامع ابي ايوب الانصاري الذي كان قتل في اول هجوم هجرتي العرب على القسطنطينية في ايام خلافة يزيد بن معاوية الاموي سنة ٤٩ للهجرة (سنة ٦٨٨ م) ورجعوا عنها بلا طائل بعد حصار ٦ سنوات ولما تم بناؤه واقيت فيه الصلاة قلده شيخ الاسلام بيده سيفاً فجرت العادة منذ ذلك الوقت ان يذهب السلطان عند جلوسه على تخت الملائكة الى هذا الجامع ويتخذ فيه السيف فيكون له ذلك بمنزلة التتويج عند ملوك النصارى

ثم بنى بعد ذلك السلطان سليمان الثاني الذي تولى الملائكة سنة ٦٢٩ للهجرة (سنة ١٥١٩ م) مباني عظيمة جليلة ومدارس كثيرة من جملتها جامع السليمانية المشهور وكذلك السلطان احمد الاول الذي جلس على التخت سنة ١٠١٣ للهجرة (سنة ١٦٠٢ م) فانه بنى جامع الاحمدية ذا الست منارات ويقال بانه لما حُسِبَتْ نفقته وجد ان كل اوقية من الحجر كلفت درهماً من الفضة وبنى ايضاً بركة الطوبخانة وكذا السلطان احمد الثالث الذي تولى السلطنة سنة ١١١٦ للهجرة (سنة ١٧٠٢ م) فانه بنى الكاغذ خانه وهي قصر عظيم في مرجة خضراء تحيط بوجنة ظريفة مشحونة بانواع الزهور وفيها قناة الماء العظيمة الشهيرة ثم بنى السلطان مصطفى الثالث الذي تولى سنة ١١٧١ للهجرة (سنة ١٧٥٧ م) الجامع المعروف باللاللي ويدعى نوري عثمانية وانشا ايضاً جمعية علماء تعرف باسمه ومكتبة مشهورة وكان وزيره راغب باشا رجلاً بارعاً في العلوم والمعارف وله عدة تآليف ودبوان شعر ساه سفينته العلماء فانشا كذلك مكتبة شهيرة تعرف باسمه ومدرسة للعلوم ومطبخاً للفقراء وتربة جميلة بالقرب من مدرسته ثم بنى السلطان عبد المجيد الاول وقد مر ذكره طوياً بفتح الشهيرة قال بعض المؤلفين

انها من الاعمال العجيبة ويقال بانه صرف على بنائها نحو ٣٠ الف كيس وانشأت والدته بالقرب من ساحة هذا المحل مكانا لمعالجة المرضى مجاناً وافامت له مصاريف ومباشرين واطبا لمعالجة كل من يحضر اليه من المرضى فيمكنك فيه المريض الى ان يشفى بدون ان يتكلف شي من الادوية والاطعمة والخدمة وحيث لا يمكننا ان نستوفي هنا كل ما حدثه سلاطين آل عثمان من الابنية والعمارات في قصبة المملكة وخارجها فلا ينبغي ان نطيل الشرح باكثر مما ذكرناه من المحلات المشهورة داخل القسطنطينية بل نعدل الى ذكر اوصاف هذه الامة فنقول

ان العثمانيين هم شعبة من الاتراك الذين يسكنون في بلاد الخطا والختان ودشت وقبباق وهم بيض الالوان سود العيون والحوارب جفاة قساة ولذلك يطلق عليهم هذا الاسم (اي ترك) على الخايب ايضاً ومنه تسميتهم الفنا توركو چاغرمق وتفسيره الحرفي نداء المحبوب ومع كل ذلك هم ينفرون من هذا الاسم ويأبون ان يسموا اتراكاً لان هذا الاسم عندهم الان يرادف كلمة برايرة او خشنين فيماثلون في هذا المعنى كثيرين من الامم الذين ينفرون الآن من اسماهم القديمة التي كانت تطلق عليهم في زمان بربريتهم

وقال مطهرون بان لغتهم التركية يدومنها في قواعدها تشابه عظيم للسان التاروكادت تشعبي من العالم في بداهة امرهم لان كتابة ديوان السلجوقية وغيره من البلاد التي كانت تحت ساطة الاتراك والتار كانت باللغة الفارسية وكان لا يوجد من نفس الاتراك من يعرف القراءة فضلاً عن الكتابة حتى ان السلطان عثمان المتقدم ذكره هو ذاته كان أمياً مثل والده قال العلامة خير الله افندي انه لما اراد ان يتزوج بنت الشيخ اده بالي اوقف قرية يقال لها ايت بوروني (اي منغار الكلب) على والدها واولاده ولما لم يجد في قومه من يعرف الكتابة ليحرق له بها حجة الوافية اعطى الامير المشار اليه سيقاً ومشرية تذكراً لهذا الامر وقد بقيا محفوظين في عائلتي لحد القرن التاسع من الهجرة (الخامس عشر من المياد) ولذلك منع السلطان المشار اليه التكلم في اللغة

الفارسية وغيرها وأمريات جميع الخبرات والأوامر السلطانية وكل ما تازم
 كتابةً يتحرر باللغة التركية وهكذا الدفاتر والمحاسبات أيضاً فانها كذلك كانت
 تكتب بالعربية والفارسية لحد سنة ٦٧٦ للهجرة (سنة ١٢٧٧ م) فمن ثم اخذت
 هذه اللغة في الانتعاش من ابتداء هذا التاريخ اه وادخل فيها علماء ما كثيراً من
 الكلمات والتعابير الماخوذة من اللغتين المذكورتين اي لغة العرب واللغة
 الفارسية الجديدة وذلك كانت تُنَّسَبُ بالمفاتيح او المحجاة وما ادخلوه من هاتين
 اللغتين على ما ذكرنا نظموه على شكل الارجيز الشعرية ليسهل حفظه على
 الطلبة فلا يمكن لاحدٍ منهم ان يكون كاتباً او ينظم الشعر ما لم يدرس هذه الارجيز
 ويحفظها ليعرف معاني هذه الكلمات الغريبة كما انه لا يقدر ان يفهم قواعدها
 النحوية وتصريف الافعال فيها بل ولا سبك عباراتها الا من الممارسة باللغتين
 والاخذ من افواه الثمزين اذا كان لا يدرس قواعد اللغتين الاصلية حيث لم تكن
 لهم قبل الآن كتب تكفي في ذلك لحد زمن السلطان عبد المجيد الاول الذي
 في زمنه جُمعت هذه الكلمات الماخوذة من اللغتين المذكورتين في كتاب سموه
 منتخبات اللغات العثمانية وهو يحتوي على ١٨٨٩٧ لفظة عربية و ٦٧٦١ لفظة
 فارسية وطبع في المطبعة الحجرية سنة ١٢٦٩ للهجرة (سنة ١٨٥٢ م) وجعلوا في
 اوله مقدمة تشير الى معرفة بعض قواعد تازم معرفتها في استعمال هذه الالفاظ
 ثم اشهروا بعد ذلك مولفاً اخر مستوفياً للقواعد التي تازم معرفتها من نحو وصرف
 وغير ذلك يستحق مولفوه مزيد الشكر حيث سهلوا تحصيل هذه اللغة على الطلبة
 تسهلاً كافياً وقد ترجمه بعضهم منذ برهة يسيرة الى اللغة العربية فكافأتهم
 الدولة بنياشين من الرتبة المجيدية الرابعة

وبناء على ما ذكر كان نظم الشعر بمجرد اللغة التركية الاصلية ليس له رونق
 ولا بهجة كما يكون له في لغتي العرب والفرس ولم يتقدم عند العثمانية تقدماً يعتدُّ
 به ويعجب الاجانب بخلاف الانشا فانه بلغ عند فحول الكتبة منهم مبلغاً من
 المحسن واللفظ والرقعة والظرف ولا سيما بعد ان مارسوا تعلم اللغة الفرنسية

واستمدوا منها كثيراً من المعاني الرائقة والعبارة الراشقة وابتلوا ما كانوا يستعملونه قبلاً من الالفاظ المستهجنة والمعاني المتلونة والتكلفات التي لا طائل تخمها

وقال ملطبرون ان رجال الامة العثمانية يوصفون بالهية والوقار والشهامة والكبرياء غير ان كبرياءهم كانت شديدة منضية الى خشونة تأذى منها كثيرون من ارباب الاسفار وكانت كتابات السلاطين الى ملوك النصارى تحوي على شيء من الجس في قدرهم وإهانتهم فضلاً عن كوتهم لا يقبونها بالقب عالية حسب ما تنتضيه مراتبهم اه واحسن ما خوطب به ملك نصراني من سلطان عثماني ما كتب به من الالفاظ السلطان احمد الثالث الذي تقدم ذكره الى كرلوس الثاني عشر ملك اسوج عندما كان هارباً من وجه بطرس الأكبر سلطان روسيا ومنتجماً الى الدولة العثمانية وبالجملة فان اطلاق لقب امبراطور على من كان من ملوك الافرنج معروفًا به لا يتصل الا بوساطة صعبة متعبة فان السلطان احمد الاول وقد تقدم ذكره لما استرجع البلاد التي كانت اخذتها دولة النمسا من اسلافه بشرط ابطال الثلاثين الف دوكة (نوع من المعاملة) التي كانت تعطىها دولة النمسا الى العثمانية خراجاً سنوياً اشترط عليه وقتئذ بان تكون تجاربه لهذا الامبراطور محبوبة على الاعتبار والمحبة ككتاب ابيه لولده وان يلقبه بالقيصر الروماني عوضاً عن لفظة قرال (واظنها لفظة مصيصة عن غران لفظة افرنجية معناها كبير) وكذلك في ايام السلطان محمود الاول الذي تولى المملكة سنة ١١٤٣ للهجرة (سنة ١٧٢٠م) لما ترخص الروسيون ان يتجروا في البلاد العثمانية ويكون لدولتهم سفير ذو اعتبار في القسطنطينية نظير باقي الدول كان من جملة شروط الدولتين بان الدولة العثمانية تعطى كاترينا الثانية لقب امبراطورة حيث انها لم تحدد ذلك الوقت لم تلتزم بذلك على ان الدولة العثمانية لم تكن وقتئذ كدولة فرانسوا وغيرها من الدول التي تخشى نتائج هذا اللقب كطالب اصحابه تقدم موظفيهم على موظفي غيرهم من الملوك

في الدواوين الاجنبية او غير ذلك . قال بعض المولفين انه بانضمام مثل هذه الامور الى غيرها من الاسباب التي تشاكلها كانوا يوصفون الامة التركية بتامها الى التبرير والخشونة ومع ذلك يعترفون لها بالمخنولين بجانب نظراً لما يروونه من الرأفة التي تشمل الحيوانات ايضاً فان الكلاب والهرات في البلاد العثمانية تعيش بارغد عيش في حالة الشبع اكثر من فقراء البشر في بعض البلاد الافرنجية وبشاهد الحمام والطيور المائية التي تعمر شطوط خليج التسطنطينية تسرح وتمرح بدون ان يتعرض لها احد حتى ولا من الاولاد الصغار بالاذية

وكان العثمانيون في ما سلف يحافظون اشد المحافظة على اديهم واخلاقهم وعوائدهم التي كانت تميزهم عن غيرهم وكانوا ياكلون يسيراً من الغذاء الذي يكون معظمه من النباتات ولا يشربون الخمر الا النادر منهم ويعتادون على رياضة الجسم كركوب الخيل والتمرن على استعمال السلاح ويكرمون الضيف ويسلكون في ذلك سبيل الجهد والاحتمال واعطاء الرسوم عنها وكثرة الصمت ويسكنون في مساكن غير مزينة بدون هرج ولا كثير حركة ويتخذون بساكنين بسيطة منعزلة منفردة ولا يعرفون التقلبات والتلونات التي تكون في جمعيات الافرنج ولا المحركات والمبادرة في الامور ويتلذذون بشرب الدخان والقهوة بكثرة ومنهم من يتعاطى شيئاً من الافيون قال بعض المولفين لم يتبدى العثمانية بشرب الدخان في التسطنطينية الا في زمن السلطان احمد الاول لما جلبه اليها اهالي هولندا في سنة ١٠١٤ للهجرة (سنة ١٦٠٥ م) وعلمهم شربه فتولعوا به واعما شد بدا الى انه افضى الامر بان اخرج المنتهي فتوى بابطاله فهاج الشعب ولم يقبلها لكونه لا يعد من المسكرات

وكانت ملابس هذه الامة واسعة مثل ملابس العرب وكان السلطان عثمان الاول المقدم ذكره يتعم على برك خراساني من الجوخ الاحمر ويلبس فراجية من الجوخ المذكور ايضاً فلما تولى ابنه السلطان ارخان عقد مجلساً في بروسا لوضع بعض قوانين ونظامات فكان من جملة ما ترتب فيه ان البرك الاحمر

يكون للعساكر واما نفس السلطان وخواصه من الاعوان والانصار الذين يطلق عليهم لقب عثمانية فيكون البرك الذي يلبسونه ابيض فمن صار المتصفون بوصف عثمانية في الخدمات السلطانية لخصوصة يلبسون البرك الابيض واما العساكر المعروفون بالاقينجية والانراك والاكراذ فيلبسون البرك الاحمر ولكن ضباط العساكر يتعممون على اسكوف ذميب بعائم معقنة غير انه مع تمادي الزمان قسد زي تلك العائم وكذلك الاسكوف صار على نوع اخر. قال البكري في تاريخه ان البرك يضم الباء وسكون الراء يكون من اللباد الابيض ويشفي الى خاف سياه بذلك السلطان مراد الاول وهو اول من اتخذ اليكيرية اي المسكر الجديد من المالك اه اما العائم فتد قال العلامة خير الله افندي المورخ العثماني بانها كانت تعلن وتبين على نوع ما بانهم من شرقي اسيا وقد نظرت عائم مثل عائمهم هذه التي يتعمم بها اليوم اهل خراسان على روس النصارى التي توجد في خرابات مدينة تسمى جهل منار (اي الاربعين عموداً) كان افتمتها الاسكندر المكدوني في بلاد العجم قبل الميلاد باكثر من ثلاثة قرون وحاصل الامران هذا البرك كانت الروم تلبسه مذهباً ويتعممون عليه ولذلك ترتب له معامل مخصوصة في بلييك تصطنعه وتنسج ايضاً الشاش الذي يتعمون به عليه اه ثم لما ابطل السلطان محمود الثاني العساكر اليكيرية وغيرها من الوجاقات العسكرية القديمة على ما سوف يذكر ذلك في محله ابطل ايضاً ما كانوا يلبسونه الى عصرنا هذا من تلك الملابس الواسعة المذكورة وما كنا نراه من الفواقيق المضربة التي كانوا يضعونها على رؤوسهم اشبه بالتيجان والعائم التي كانوا يتعممون بها عليها من الشاش الابيض وما كانوا يتعممون به على الطرايش المحمر من الشالات الكشميرية والاغاباني وغير ذلك من الفراشيات والشخاير المحمر والعمال من التواسيم او البوايج والخفاف الصفر وما كانت تجمه الفواسه والجاويشية باياديه امام المحكام من الهصي المنفضة والجوكلانات ذوات الاجراس وما كانوا يتزينون بلبسه في ايام المراسم والاعياد والمواكب الحافلة من الكبايت

والسراويل المخمل الملون المقصبة والاسكوف المذهب وكان على شكل الكلاه اللباد الذي تابسه حتى الان الدراويش المولوية وشيخ اخر من اللباد يلبس في الراس ويثني الى الفنا منسداً من اعلى الراس الى قرب الاقدام وعرضه نحو شبر وازيد (ولعله البرك الماز ذكره) وابدل جميع ذلك بالملابس الاوربية الضيقة المعروفة بالساتري والبنطالون الملائية للرشاقة الحربية العسكرية ومن ثم اخذت سكان المملكة من تبعة الدولة العلية في التلبس بهذه الملابس ايضاً

ولحينما تولى السلطنة السلطان محمد الاول في سنة ٨٠٤ للهجرة (سنة ١٤٠١ م) وهو اول سلطان ارسل الى شريف مكة صرة من الذهب ليوزعها على فقراء الحرمين لم يكن شائعاً بين العثمانية استعمال الخلي والمصاغات والواني الثمينة واول من ابتدا بذلك كان هذا السلطان فانه جعل واني مائتة كلها من الفضة فانكر العلماء عليه ذلك لكونه مخالفاً للسنة فلم يعمل بعده احد من خلفائه مثله الى زمن السلطان بايزيد الثاني الذي جلس على تخت سنة ٨٨٧ للهجرة (سنة ١٤٨٢ م) فانه صنع نظيرها من الذهب والفضة ولما تولى التخت السلطان سليم الثاني في سنة ٩٧٤ للهجرة سنة (١٥٦٦ م) ارسل اليه شاه العجم هدية عن يد سفيره وهي اولونات وزن كل واحدة منها ٤٠ درهماً وياقوتة بقدر النفاحة الصغيرة فلما تولى السلطان محمد الرابع في سنة ١٠٢١ للهجرة (سنة ١٦٢٢ م) جعل معالف خيوله وسلاسلها وارسالها من الفضة واخوه السلطان ابراهيم الذي جلس على التخت سنة ١٠٤٩ للهجرة (سنة ١٦٤٠ م) جعل لنفسه زورقاً مرصعاً بمحارة من الماس وهكذا الى ان صار الترتين بالمجوهرات وترصيع سروج الخيل بالمحارة الكريمة من شعار الدولة العثمانية الى ان اخذ في تخفيض ذلك السلطان محمود الثاني وكان اول ما شرع به في هذا الباب ان اخذ كثيراً من حلي جواربه وفك ما كان من حجارة الماس على سروج خيوله ورضع بها علامات الامتياز ونياشين العساكر النظامية هذا ما كان من جهة السلاطين واما ما كان من جهة غيرهم فهو حيث كانت العادة بانها اذا مات

احد من الاتراك ولم يترك اولاداً فببرته السلطان واما اذا كانت له اولاد ذكور فيكون العشر من ممتلكاته فقط للسلطان يستولي عليه نائبة في الاحكام الشرعية وهو القاضي لكن المستخدمون من رجال الدولة وكبرائها عند ما يموت احد منهم فكان يرجع كل ما هو في يده الى الخزينة السلطانية ولذلك كان مثل هولاء الرجال يعنون باقتناء الحلى والمصاغات دون الاملاك والعقارات ليسهل على الورثة اخفاؤها والامن عليها من الضبط الهبري اوان يعمل الانسان منهم بها اوقافاً تعود الى احد المساجد بعد انقراض ذريته فتصير بذلك عقاراً ثابتاً لا ينزع من يده ولا من ايادي ورثائه من بعده

ويكثر الاغنياء والامراء من الثمانية تعدد الزوجات والتسري بالجواري بقدر ما شاءوا فيطربونهم بالغنا والرقص على نغم الآلات وقد يقع ان بعض النساء الغنيات يشترطن على ازواجهن بان لا يتزوجوا عليهن اصلاً وكانت السلاطين العثمانية في ابتداء امرهم يتزوجون من بنات قبيلتهم او من بنات ملوك النصرى كالسلطان ارخان فانه تزوج ثيودوره بنت الملك يوحنا كوتيا كوزين وابنة السلطان مراد تزوج ببنت سيهوند ملك الباغار والسلطان بايزيد الاول الذي تولى السلطنة سنة ٧٥٨ للهجرة (سنة ١٣٥٦ م) تزوج بنت لازار صاحب السرب والسلطان محمد الفاتح تزوج بقبلي بنت الملك ديميريوس الباليوغيوس اخي قسطنطين اخر قياصرة الروم ومن ثم بطلت هذه العادة وترتب قانون لا يجوز للسلاطين العثمانية ان يعقدوا زواجاً صحيحاً شرعياً كغيرهم من الناس وانما يقتصرون على التسري بالجواري الاقربا وهذا القانون هو حتى الآن من القوانين المعتبرة في هذه الدولة وبعده من الاسرار التي لا يعلم سببها واما بعض الاقربى فينسبونه الى ما وقع من تهوركك سنة ٨٠٤ للهجرة (سنة ١٤٠٢ م) في حق ديسينه زوجة السلطان بايزيد من الاساءة لما اسره واحضرها امام عسكره تكاد تكون عريانة وبعضهم يقول لا بد لذلك من سبب سياسي اهم من هذا وقال بعض الكتبة من المصريين في هذا العصر بانه

لما تثبت العثمانيون في بلاد أوروبا خافوا من ان يصير لدول الأفرنج في ما بعد
تأثير وكلمة في الدولة ودخل في احكامها فرتبوا هذا القانون الذي به انقطعت
المصاهرة بين سلاطين الاسلام وملوك النصارى

ومساكن النساء تكون عندهم منزهة لا يقربها انسان لاحترامها وتسمى
المحرم ولا تخرج النساء منها الا مستورات كسائر نساء الاسلام واعظم مسراتهن
وافراحهن يكون في الحمامات وخاصة اذا كانت تلك الحمامات في بيوتهن
ويشبهن الرجال في شرب القهوة والتدخين ولكنهن يتزينن باحسن الملابس
والاثواب الفاخرة الرفيعة وتجايلن بالآلي والجواهر النفيسة وحيث لم يكن
لاغلبهن نصيب بمعرفة القراءة والكتابة كانت الالغاز بواسطة باقات الزهور
التي يرتبها ترتيباً مخصوصاً نهوض عليهن ما فاتهن من ذلك وكما انهن لا يذهبن
الى الجوامع والمساجد بقصد العبادة اصلاً حيث ان الدين الاسلامي لا يوجب
على النساء صلاة الجماعة كذلك ليس من عاداتهن الرقص في المحافل كما يفعل
نساء الأفرنج بل الرقص نساء مخصوصات عندهم يسمين بالرقاصات يحضرونهن
متى شئن ليرقصن لهن والرقص الذي برقصنه مثل هولاء في البلاد العثمانية
لا بدان يكون مثلاً بالحيا كالغوازي في بلاد مصر الآتي برقصن في المراسح
العامة والشوارع وقد يكون بعضهن من الرجال يزيلون ما على وجوههم من
الشعر بعلاجات يصطنعونها لذلك ويتزينون بجلى النساء وملابسهن وما
يطلين به وجوههن ويشاركونهن في الرقص ويسمون الخول وقد خرج نابوليون
الاول من مصر متحسراً حيث لم تساعده مدة اقامته القصيرة فيها على ابطال هذا
الرقص القبيح منها

ولسراية المحرم المملوكي خدم يسمون بسماجية كانوا دائماً متقلد بين الاسلحة
كالمستعد بين القتال واما اغاوات المحرم فيكونون من الخصيان السود
وظيفتهم الخدمة وحراسة السراي ورئيسهم منهم يسمى قزارا غاسي ومعناه بالعربية
مولى البنات وهو غالباً مؤتمن سر السلطان وصغيرة وذوقبول عظيم في الدولة

وتنفيذ كلمته لا يكون لغيره اصلاً

ومن اصول الدولة العثمانية بان اولاد السلطان الجالس على تخت الملوكي هم وحدهم الذين يشهرون في المملكة وتعد ان اسماؤهم للناس بفراميت سلطانية فتزين البلاد وتظهر الامالي افراحها بهم لبقاء سلسلة هذه العائلة وظهور شهزادات منها لا بد ان يؤهل بعضهم يوماً ما للجلوس على كرسي السلطنة واما المولودون لغير السلطان ان كانوا من اخوتهم او اعمامهم سواء كانوا مشاوعين من السلطنة او شهزادات لازالوا ما ارتقوا على السدة الملوكية اذا امكن انهم بقوا في قيد الحياة فلا يمكن ان يعرفوا الا اذا قدر لآبائهم بعد ذلك ان يستولوا على التخت وحينئذ يصدر ابرهم فرمان البشارة بما كان ولد له من الاولاد مع التصريح باسماهم وتعيين تاريخ ولادتهم وكانوا يترهبون في السراية التي هي منشأهم مع غاية التشديد والنضيق تحت ادارة احد اغايات الحرم الذين سبقت الاشارة اليهم قال ملطبرون انه لا بد لاولاد السلاطين من حفظ القرآن حفظاً جيداً مع تعلمهم اعرابهم وتفسيرهم حتى يكون لهم اقتدار على شرح احكامهم ويجب ان يتعلموا تاريخ الخلفاء وتاريخ العثمانية والتاريخ العام والجغرافيا ومبادئ العلوم الرياضية واللغة التركية والعربية والفارسية ويتعلموا غالباً الموسيقى واللغة اللاتينية

وقولنا هنا اذا امكن انهم بقوا في قيد الحياة هو لكون ان المبايعة للسلاطين من هذه العائلة لا تكون الا على سبيل الانتخاب فيما لو توفي السلطان او خلع مثلاً وكان له اخوة او اولاد فكان اهل الديوان ينتخبون من كان صالحاً للحكم منهم فينتقى ان يولوا الاخ دون الابن او الصغير دون البكري بحسب ما يشاهدونه من حاله كل منهم قبل انتقال المنوف فلما ان تولى السلطان بايزيد الاول قتل اخاه يعقوب لكونه كان البكر وصاحب الاستمئاق في ارث السلطنة بعد ابيه ولما لامه على ذلك رجال دولته قال ان امير المؤمنين الذي هو ظل الله على الارض يجب ان يكون واحداً فيها كما ان الله واحد في السماء فمن ثم جرت العادة بين السلاطين العثمانية بقتل اخوة السلطان او سجنهم في حبوس معدة

لم تحت الحفظ وكذلك لما عزل السلطان مصطفى الاول الذي تولى السلطنة سنة ١٠٢٦ للهجرة (سنة ١٦٢٢ م) وحجروا عليه في مكانه الاول تربت العادة ايضاً في قتل الاولاد الذين يولدون لهم في مدة سجنهم وبقي ذلك مستمراً الى ان ابطاه السلطان عبد المجيد الاول كما ابطل جميع ما كان من مثل هذه العادات المكروهة

ومع ان اطلاق اللحي سنة ١٢٠٠ من سنن الديانة الاسلامية التي هي ديانة الدولة العثمانية فقد جرت العادة بان سلاطين هذه الدولة لا تطلق لحياتها الا عند جلوسها على تخت المملكة ولكن السلطان سليم فاتح مصر خالف هذه العادة ايضاً فكان هو اول سلطان لم يطلق لحيته

ولما كان السلطان بايزيد الثاني ذاهباً الى حرب الارنبود والسرب عن طريق مناسير لاقاه رجل من الدراويش فتقدم اليه واراد ان يضربه بخنجره فابتدره من كان حوله من الجنود وقتلوا ذلك الدراويش فصارت العادة من ذلك الوقت بان لا يدخل احد على السلطان بسلاحه اما احد مورخي العرب فيقول بان السلطان مراد الاول لاقاه في اثناء فتوحاته امير من امراء النصارى اسمه بلواش فتقدم ليقبل يده مظهراً له الطاعة ولما قرب منه ضربه بخنجر كان اعده في كفه فقتله فصار القانون العثماني من ذلك اليوم بان لا يدخل على السلطان سفيرا وغيره بسلاح وان تفتش ثيابه ويدخل على السلطان بين رجلين

ونشأ عن وجوب الوضوء والاغتسال كثرة السبل والمحنفيات والمغاطس والحمامات والمبضات في بلاد هذه الدولة ومن المبررات عندهم بناء المقابر العظيمة المحفوفة بالازهار ويظلمها شجر السرو فتتقي به حر الشمس في وسط النهار اما الصور والتماثيل فهي عندهم من المكروهات يحكي بانه لما افتتح السلطان سليمان الثاني فتوحاته العظيمة كان جاب وزيره ابراهيم باشا من بلاد الحجار ثلاثة تماثيل من الحجارة ونصبهم في ات ميدان تذكارا لفتح تلك البلاد فانكر عليه ذلك جماعة

ومنهم شاعر نظم قصيدة قال في احد ابياتها ما معناه ان ابراهيم الخليل قرص
 الاصنام وابراهيم هذا يريد اعادتها فلما بلغ السلطان ذلك امر بقتله . لكن في
 هذا العصر الذي نحن فيه قل في البلاد العثمانية من تغشى قريحتهم ظلمة
 الوسوس والاهام فلا يميز بين الحلال والحرام لان الانصاب رجس اذا اتخذت
 للعبادة وليس اذا كان القصد بها مجرد الزينة او التذكار والاستفادة ولذلك
 كانت صورة السلطان ورجال دولته العظام هي الآن موضوع حلية المنازل
 وزينة المجالس والمحافل منذ زمن السلطان عبد المجيد خان

ومع كثرة الاديان واختلاف المذاهب وتنوع المعتقدات الموجودة في بلاد
 هذه الدولة كان لا يباح في ما سلف التظاهر في التعبد بأي مذهب كان بل
 كما انه لا يجوز ان تظاهر سائر الفرق الاسلامية بغير مذهب السنة ومن
 تظاهر منها بغيره اُهرق دمه كذلك كان لا يجوز للنصارى ان يتظاهروا بأي
 مذهب كان من المذاهب المسيحية وخاصة المذهب الكاثوليكي حذراً من ان
 ينجرت تابعيه للانحياز لجهة الافرنج في الاغراض السياسية ايضاً ولذلك كانت
 الفرق الخاضعة الى الكنيسة الرومانية من الروم والارمن وغيرها تبقى تحت سلطة
 اساقفة كنائسها القديمة المعروفة من الدولة العثمانية لان السلطان محمد الفاتح
 لما استولى على القسطنطينية كان احضر جناد بوس سخولاريوس بطريرك الروم
 واقرّه على منصبه واعطاه بنفسه عكاز البطريركية وخاتماً كما كانت تفعل
 قياصرة الروم قبلاً ثم بلي هذا المذهب مذهب الارمن وكذلك القبط الذين
 عرفتهم الدولة منذ افتتح السلطان سليم البلاد المصرية فكانت من أتبع غير
 ذلك من المذاهب النصرانية او كان يهودياً وخرج عن الديانة اليهودية قتل
 ما لم يتخين دمه بقبول الدين الاسلامي ومع كل ذلك وانضمامه الى ما كان
 لبطاركة هذه الفرق المعروفة من الدولة ولكن كثير من روساها الروحانيين ورهبانها
 ايضاً من الامتيازات كالمعافية من الجزية وسائر التكاليف التي لم يُعفَ منها
 غيرهم ولم يكن للقضاة ايضاً دخل في تقسيم موارد ابناء مذاهبهم ولا في امر

نزويجهم او تضليق نساءهم وبعض امور اخرى لتغاق بمصالحهم كان لا يباح لآية
فرقة كانت من تلك الفرق ان تظهر شعائر دينها ولا ان ترمم ما تشعث من
معابدها فضلاً عن ان تجدد كنيسة الأ بصعوبات كآية وخسائر بايعة خارجة
عن تيمل اصحابها وكان لا يُسمع في المدن والتصبات بل ولا القرى المأهولة
بالاسلام صوت ناقوس يُضرب في الكنائس وبالاختصار لم تكن حرية هذه
المذاهب المعروفة التي ذكرناها الاً منحصرة في الترخيص لمن كان من ابنائها ان
يهاوب اذا سُئل عن ديانتهم بانهم روم او ارمني مثلاً لكن اذا كان ذاهباً الى الكنيسة
ليصلي وسُئل عن الغرض الذي هو قاصدهُ فالالتيق به ان لا يقول الى الصلاة
بل الى الكنيسة لان الصلاة ليست من شعائر اهل الكفر الذين يطلقون عليهم
لفظة كاور ومعناها في لغتهم كافر حتى ان الجزية التي ياخذونها منهم في كل سنة
فداء عن قطع الراس يسونها جزية كبران وهذه اللفظة معناها باللغة الفارسية
جزية الكفار ايضاً ولا يلاطفون احداً منهم باكثر من ان يلقبونه بهواجه بالهاء
فلا يقولون خواجا بالتحا لان هذه اللفظة تعادل عندهم لفظة افندي التي معناها
سيد واما بنادوته بلقب جوربه جي ومعناه مطعم الشوربا وهو من الالقاب
التي لا مزيد عليها في اكرام النصراني وكان قبل الآن من الالقاب المختصة
بالبيكرية وكانوا لا يكتبون اسم النصراني على صميمه بل اذا كان اسمه يوسف مثلاً
كتبوه ياسف او ابراهيم كتبوه ابرام وعبدالله عيضلاً واسحاق ايساق وهكذا الخ
واذا تكررت ذكره في الكتابة فيشيرون اليه بانف المسفور فلا يقولون المذكور
فضلاً عن الموما اليه او المشار اليه فان ذلك وامثاله لا يكون لقب اهل الاسلام
وخاصة العثمانية ويعتبرون من احوجتهم الضرورة الى استخدام من النصراني
كالاناء النجس الذي يضطرون الى اقتنائهم وكثيراً ما كانت تصدر اوامر
السلطين فضلاً عن نوابهم في الايالات باذلال النصراني فانه يقال بانه في زمن
السلطان احمد الثاني الذي تولى السلطنة في سنة ١١٠١ للهجرة (سنة ١٦٩٠ م)
منعت النصراني بتدبير وزيره احمد باشا من لبس الاثواب الملونة وقلابق

السور والبابوج الاصفر وركوب الخيل في المدن والزعم بلبس السواد وان يضعوا في اعتناقهم علامة تميزهم عن المسلمين وذكر بعضهم وقوع مثل ذلك في ايام السلطان مصطفى الثالث وبقي الحال على هذا المنوال الى عصر السلطان محمود الثاني الذي كان سلك هذا المسلك عينه في براءة امره وخاصة في ايام قيام اليونانيين وطلبهم الاستقلال لكنه اخيراً عدل عن تلك السياسة حتى ان ابنة السلطان عبد الحميد الاول منح منذ جلوسه على تخت المملكة حقوقاً متساوية لجميع الاديان فعرفت منذ ذلك الوقت المذاهب الكاثوليكية وبعدها ببرهتة وجيزة اعني في سنة ١٨٤٧م عرفت ايضاً الكنيسة الانجيلية المعروفة بالبروتستانتية واتيح التعبد بها فاستقل اصحاب المذاهب المذكورة من الروم والارمن وباقي الطوائف الشرقية وتحرروا من سيطرة اساقفة كنائسهم الاصلية وفي سنة ١٨٥٦م اعطيت الحرية التامة لمطلق الاديان والمذاهب من اي نوع كانت واتيح لاصحابها التظاهر في الشعائر وانواع الاحتفالات التعبدية جهاراً في الشوارع والاسواق واعتمدت الضمائر من قيود الاسترقاق فلم يبق حرج على من اراد ان يتظاهر بما استراح اليه خاطرهُ من الطرق التي يظن بها الفوز برضاة خالفه وصدرت كذلك الاوامر السلطانية بمنع الالفاظ المهينة التي جرت العادة بالتلفظ بها او بكتابتها بحيث يفي النصرانية وصار التشديد الكلي خاصة بمنع لفظه كاور واعفيت النصراني من الجزية ومن بعض الغرامات الخصوصية التي كانت مضرورية على كنائسهم تؤدى بها في كل سنة ومن تدكئة الاذن التي كان لابد للرجل منهم ان ياخذها من القاضي متى اراد الزواج اذنا الى التيسيس بان يعقد زواجه او ليدفن له ميتاً توفي من اقاربهِ وشرع في اعطاء المتوظفين في الخدمات الاميرية من النصراني وغيرهم من الاكابر انفاً نظير انفاً اندادهم من العثمانية ككاتب بك وافندي واغا واشركوهم معهم ايضاً في الخطابات الرسمية كتابة وفي النياشين المعتبرة على اختلاف مراتبها وتميزت روساؤهم الروحيون باعتبارهم يعهد نظيره من قبل ولاسيما منذ تولى السلطنة السلطان عبد العزيز في ختام

سنة ١٢٧٧ الهجرية (سنة ١٨٦١ م) فانه امر باقامتهم في مجالس ادارات الايالات والالوية عداء عن الاعضاء الموظفين رسماً من طوائف المسيحيين وحصل التساوي بين عموم تبعه الدولة في المحقوق والامتيازات الوطنية فارقت بعض النصارى الى المراتب العلية والوظائف السامية والمناصب الداخلية والخارجية من اية طبقة كانت ملكية او عسكرية بما فيها الوزارة ايضاً غير انهم اعفوا من الخدمة العسكرية بالفعل واكتفي باخذ بدل نقدي منهم عن الانفار التي يجب ان يقدموها وهذا البدل يوزعونه هم ذواتهم على انفسهم وبعد ان يحصلوه من محلاته يدفعونه الى صناديق الاموال عن يد روساء مناهبهم

وكانت عوام العثمانية في ما سلف تحضر المعارف المتعلقة بالتمدن والتحضّر والفنون النافعة وكذلك كان تقدم خاصتهم في مثل هذه الامور قليلاً ايضاً ولكن مع كل ذلك كان يوجد في الجوامع السلطانية الموجودة في ادرته واسلابول وبروسا مدارس يقصدها الطلبة من جميع اجزاء المملكة ليتعلوا فيها العلوم الشرعية من توحيد وفقه وحديث وتفسير وكانوا يستحسنون فيها فن وجد بينهم صالحاً للتدريس اجيز عليه وهذه المدارس أسسها عدة من السلاطين العثمانية واول مدرسة منها هي الجامع الذي بناه السلطان ارخان في ازنيق واعظم منه جامع السلمانية الذي ذكرنا في ما مر بان السلطان سليمان بناه في القسطنطينية ولهذا الجامعين ترتيبات تكفي لنحو ثلاثة الاف تلميذ وكانت تلامذتها بعد تعلمهم فيها يتقلدون وظائف القضا ونحوه او وظائف اخرى في خدمة الدولة وظهر بينهم بعض علماء مشهورين القوا مولفات معتبرة تتعلق بالعلوم العربية والفارسية والفلسفة والادب وعلم السير وجغرافية اقاليمهم ومنهم الحاج حسن الادرناي الذي كان قاضياً في بغداد فانه ألف كتاباً سماه بهجة الاسرار ترجمه رجل يقال له مردني الى اللغة العربية سنة ١٠٠٧ الهجرية (سنة ١٥٩٨ م) ومنهم رجل مورخ يقال له بلغيري الادرناي ايضاً ألف كتاباً في تاريخ ادرته والروم الي سماه انيس المسافرين وذلك سنة ١٠٤٥ الهجرية (سنة ١٦٣٥ م) واخر يقال له

شرف بن شمس الدين الكردي الف كتاباً في تاريخ السلطان محمد الفاتح وقره چايي زاده عبد العزيز الف كتاباً في تاريخ السلطان سليمان القانوني صاحب السلمانية ساه سليمان نامه وكثيرون غيرهم كشافجي محمد باشا الذي كان في عصر السلطان المشاريخ وصولاق زاده خواجه سعد الدين صاحب كتاب تاج التواريخ ونشري چايي صاحب التاريخ المسمى جهان نما وهناك تواريخ لم تنف على اسماء مولفها كدرر الاثمار وعالم اراء وغيرها ومنهم الشيخ ابوبكر بن بهرام التركي الذي ظهر في القرن الحادي عشر للهجرة المقابل للقرن السابع عشر للميلاد وكان جغرافياً فالف كتاباً في جغرافية البلاد العثمانية وتوفي قبل اتمامه فاكمله الحاج خليفة الشهير الذي الف ايضاً كتاباً في جغرافية ارمينية وسوريا والاراضي الواقعة بين النهرين الآن هذه المؤلفات التي الفوها بتدريسيها وجود بعض معارف صحيحة وفوائد مهمة ولم تكن تصل ابادي اغلب الناس الى اقتنائها لما ان الذين يتعیشون من نساخة الكتب كانوا يعارضون في طبعا ويساعدون على ذلك بعض العلماء لكن في ايام السلطان عبد الحميد الاول الذي تقدم ذكره ترتب في اغلب البلاد العثمانية مدارس تسمى بالرشدية لتعليم اللغة التركية ودرس بعض العلوم النافعة التي توهل الرعايا للنبول في الوظائف والمخدمات الاميرية وقد ترخص لهم والافرنج من اية مائة كانت بفتح مدارس لتعليم اللغات الشرقية والاروبية وغير ذلك من انواع العلوم فصار لكل طائفة من الطوائف النصرانية مدارس خصوصية وعمومية لتحصيل العلوم الرياضية واللغات المار ذكرها وفي ايام اخيه السلطان عبد العزيز كثرت المدارس في مدينة بيروت كثرة بالغة وانشئت فيها المدرسة الكلية الانجيلية التي اسستها جمعية خصوصية امر يكانية واقيم فيها بيت للرصد تحت ادارة الفاضل العلامة الشهبير بانواع العلوم والمعارف الدكتور كرتيانيوس قائدك وكثرت كذلك المطابع وانتشرت الجرائد والتراجم المنيفة بل والمؤلفات العظيمة في اغلب قصبات المملكة وخاصة القسطنطينية وبيروت ولم تنجز الحربة في ما يراد طبعة من المؤلفات والنشرات

بأنواع اللغات كالتركية والعربية والرومية والارمنية والفرنساوية وغير ذلك
 إلا ما كان منها بقصد تشويش الراحة العمومية او مغللاً بالامور السياسية والدينية
 والادبية او متعرضاً لامور خارجة عن وظائف العامة وأعلن باعطاء الامتيازات
 المشوقة والنجالية لرغبة ذوي البراعة في التآيف والاختراعات والاحداثات
 العلمية والصناعية المنيفة لخبر المملكة

وكان السلطان محمود الثاني احدث نياشين الافتخار فجدد ابنه السلطان
 عبد الحميد النياشين الحميدية واخوه السلطان عبد العزيز النياشين العثمانية ومن
 ثم اخذ سلاطين العثمانية وملوك الافرنج في اظهار علام المحبة المتبادلة بين
 الطرفين بواسطة انحف بعضها بعضاً بالنياشين الفاخرة وفي التكرم بها على
 كثيرين من تبعه الجانبين ايضاً غير ان سخاوة الدولة العلية الموقوفة على اغراض
 الولاة لم تقتصر في ذلك على من ظهرت صداقتهم وتحفقت امانتهم من الموظفين
 في الخدمات الاميرية والعسكرية وذوي البراعة من صنوف الرعية فقط

وكانت الفلاحة في البلاد العثمانية مطروحة في زوايا الخول والذبول
 والفلاحون لا يريدون ان يجيدوا زراعة الارض خشيةً على محصولها من ارباب
 الصيال على انه يوجد بينهم ارباب زراعة ماهرون واكث في ايام السلطان
 عبد العزيز اخذت في التقدم نوعاً نظراً للامنية التي حصلت في اكفاف البلاد
 وقطع دابر ارباب الصيال والفساد والرفق من جانب السلطان وحده باحوال
 الرعية ورغبة في تعديل الاموال الاميرية وحسن ترتيبها اذ انه وضع لذلك
 قوانين وخاصة لتقوية الزراعة ونموها وكيفية تصرف الامالي والاجانب في الاراضي
 الزراعية بالطا بوملك الفراسات والعمارات مع ما يوطد امنية الزراعين
 ويوجب راحتهم وثروتهم ونمو محصولات اراضيهم برفع ما كان عليها من المراتبات
 القديمة المضادة لاصول العدالة اذ انها كانت تؤخذ منهم مالا راتياً سنوياً
 سواء اقبلت زراعاتهم او امتلت ورتب عوض ذلك الاعشار الشرعية التي تؤخذ
 عن مقدار الناتج فقط عيناً ووضع كلاً من ذلك تحت قانون معتبر في غابة

الجودة لو لم يكن امر انناذء منوطاً برحمة المتزيمين واعتناء الولاية ومن دونهم من المحكّام

واما المهارة في اشغال المعامل والورش فانها مقصورة على عدّة مدن اعظمها التسطينية وياها في اسيا دمشق وحلب والموصل وانكورة وقسطوني وبروسا وازبير وفي اوروبا سالنيك وادرنه وروسيقي واصول ما يخرج من هذه المعامل السجا جيد والسفنيان واقمشة الحرير والقطن ومنسوجات قصب الذهب والفضة ونوع من السالك يسمى الافرنج خيط الترك والسلاح الابيض ومنهم من له براعة في الجوخ والاسلحة والديباغ وغير ذلك من بعض اشغال البلاد والشماس وصباغهم يعادل صباغ الافرنج اذ قد بلغوا فيه درجة كمال ويوجد فيهم خياطون واساكفة ونجارون ومعمارية بارعون في صنائعهم ويصنع في نواحي اورشليم وبيت لحم كثير من المسابح والصور من الصدف المسى بهرق اللؤلؤ الذي يجلبونه من البحر الاحمر وكثيراً ما ترصّع به اهل دمشق الاسرة والموائد وغير ذلك من الاواني التي يصطنعونها من الخشب المعتاد والابنوس ترصيعاً متنقلاً ويرسل من ذلك جانب عظيم الى ايطاليا وفرنسا وفي ايام السلطان محمود الثاني عمات في جبل لبنان معامل لتصفية الحرير على طريقة اوروبا وكذلك معاصر في اكثر المحلات لعصر الزيت مثل معاصرها ايضاً وكانت تجددت فبريقة لغزل القطن في الشام في زمن ابي السلطان عبد المجيد ولكنها لم تنجح كما نجت فبريقة النصب في بيروت ومعمل الورق في ازبير واولا غلط الاها لي برغبتهم الزائدة في مصنوعات اوروبا على اختلاف انواعها واو كانت ما يوجد نظيره من نوعه بل وامتن منه قاشاً من مصنوعات بلادهم لكانت الصناعات تتقدم في هذا العصر ندماً عظيماً ويستردون بواسطتها شيئاً من الثروة التي خطفتمها منهم ايادي الغرباء الذين لم يسميوا لهم بترك شيء يصطنعونه لانفسهم حتي ولا فتائل السرج ونظائرها مما يجنّالون على استجلاب رغبتهم فيه بالخرقة وسهولة المناولة على ما قد سبقتم الاشارة اليه في باب

وبناء على ما ذكر كان معظم استمداد التجارة وزيادتها في البلاد العثمانية
 منحصراً في نقل المحاصيل الغشمية وحملها منها لتباع في غيرها كالصوف والحرير
 والنطن والجلد والدخان وبعض المعادن ولا سيما النحاس والخبث والزيت
 والادمان والتين والتمر واللوز والزبيب وغير ذلك من انواع الفواكه والمخنة
 وسائر الحبوب التي تنقلها التجار الى البلاد الافرنجية وكذلك دودة الصباغة
 والعنص والشاب وعدة اطيان واثربة مخصوصة ولا سيما ما يُسمى بالطين المخنوم
 وزيد المجرثم منذ ترتبت شركات المراكب البخارية المسماة واپورات واستعدت
 لحمل البضائع ونقلها من الاساكن العثمانية الكائنة على شواطئ بحر الروم اتسعت
 دائرة هذه التجارة اتساعاً زائداً ولا سيما منذ عملت طريق المراكب البخارية في
 بعض انحاء هذه المملكة وتمدت طريق مراكب الخيل بين الشام وبيروت
 وامتد الموصل البرقي المعروف بالقطر في اقطار المملكة في زمن السلطان
 عبد العزيز امتدت كذلك هذه التجارة بنوع لم يسبق له مثال في هذه الاقاليم
 حتى صار العنب الزيني الشهير في دمشق يُنقل منها طريقاً الى الاساكن برسم
 التجارة وانواع الليمون تُنقل من طرابلس في المراكب البخارية الى اودسا على
 شواطئ البحر الاسود بكثرة بالغة فضلاً عن غيره من نواعه مع ان تجارة هذه
 المدينة الكثيرة الفواكه كانت مخصصة في الحبوب والحرير والدخان والسفنج
 والزيت والصابون الذي يُصطنع في معاملها اما فواكهها فكانت لخصوص
 اهلها كما في صيدا ويافا وسائر امثالها من الاساكن الشامية وبذلك تعوض
 عاينها ما كانت خسرتها قبلاً بواسطة تعطيل انوال منسوجاتها الحريرية وخاصة
 الزنار الشهير بالطرابلسي منذ ابدلت الدولة العلية ملابسها القديمة بالملابس
 الاوربية واتبعها الاهالي في ذلك

وقبل ان تتكلم عن تلك القوانين التي وضعت منذ زمن السلطان عبد الحميد
 وخلفائه لاصلاح الاحكام يلزم ان نبسط الكلام قليلاً على ما كانت عليه تلك
 الحكومة قبل ذلك فنقول ان الدولة العثمانية وان كانت مطلقة التصرف لكن

السلطان نفسه لم يكن يتباعد عما في الكتاب والسنة غير انه كان يقلد فقط المناصب المدنية والعسكرية لمن يربك ويصرفه في ذلك كيف شاء فكان غالباً يوجد بين ارباب المناصب من ليس هو املاً للوظيفة التي تقلدها ونظراً لعدم انتظام الاحكام السياسية التي كان عليها المعول وفتنة كان كل متوظف او صاحب منصب في الدولة يمكنه كذلك ان يعطي قدرته لاني انسان ارادة ليقوم مقامه مثال ذلك ان السلطان الذي هو خليفة صاحب الشريعة الاسلامية كان يعطي قدرته الى الوزير الذي هو نائبه في الاقليم الذي يولييه عليه ثم ان كل من ولاه ذلك الوزير على عمل من الاعمال كانت له قدرة ذلك الوزير نفسه في ذلك العمل وهكذا الى ما لا يمكن تناهي سلسلته الا بتناهي سلسلة التولية وحيث لم يكن هناك قوانين لهؤلاء الاحكام ثابتة غير متغيرة فكانت احكام كثيرين منهم احكاماً عسكرية شديدة الظلم اشبه بجيش منصور غالب حط في وسط امم مغلوبة منهزمة يعاملهم معاملة المدينة الماخوذة عنوة بجهد السيف وليس كما ينبغي ان تعامل الاحكام ابناء اوطانهم فصار كل ما يصدر عنهم من الجور والتعدي وسوء الاحكام ينسب عند الاجانب الى الشريعة الاسلامية كانتها هي التي تميزه او تامل به ولذلك انقوا من قبول احكامها حتى ان نفس الرعايا ايضاً نفرت وصار من يمكنه الانجاء الى الاجانب من ذوي الوجاهة منهم لا يتأخر عن ذلك ليحتمي من المظالم التي كان يجربها اولئك الاحكام الجائرون الذين كانت تعطى لهم الولايات اشبه بالتزامات في مقابلة بدل مقرر سنوي يدفعونه الى الخزينة السلطانية رأساً او ليصرفوه في عمل من الاعمال ثم ما فاض عن ذلك من ابرادات تلك المناصب فيكون لتولي الايالات من الوزراء الذين هم ايضاً يعاملون من كان ضمن دائرة حكوماتهم من متسلي البلاد وغيرهم بمثل هذه المعاملة عينها ولذلك كانت مناصبهم هناك كأنها مشتراة بالثمن ليشتمعوا بخيراتها وبما ان مدة حكوماتهم تكون في الغالب قصيرة ايضاً فكانوا يجرد ووصولهم الى مراكز ولاياتهم يبادرون بدون توقف الى اخذ ما كانوا قد صرفوه على تحصيل

مناصبهم من الرعايا بطريق البص والجرم او مصادرة اموال الناس لذنوب
 بخترعونها لهم. ومع ان السلطان نفسه لا يامر بقتل احدٍ بدون مراجعة الشريعة
 واعطاء فتوى بذلك من شيخ الاسلام كان المتسلون ومن دونهم من المحكام
 ايضاً فضلاً عن الولاة يسفكون دم من ارادوا قتله من الرعية بحض ارادتهم
 استناداً الى ذنبٍ صوره له او وشايةٍ صدرت من احدٍ بحته

وكانت مراتب هولاء الوزراء على انواعٍ بحسب اهمية مناصبهم فكان منهم
 من له ثلاثة انواعٍ ويسى وزيراً وبلاد بالتموغ اللواء وهو ربح طويل يعقد عليه
 شي من شعر الخيل ويعطى اللباساوات منه ثلاثة على ما ذكره في ايامهم علامة
 على الوزارة ومنهم من له توغان فقط ويسى بكركي ومعناه امير الامرا وكان
 هذا اللقب يُطلق سابقاً على وزيرين من وزراء الدولة احدها باشا الروم ابلي
 والثاني باشا الاناطولي ومنهم من يكون له توغ واحد ويقال له امير اللواء وكان
 لكل باشا عساكر على قدر حاله يهولم من اراد ولايته ورئيس هولاء الوزراء هو
 الصدر الاعظم اول وكلا الساطنة بل الوكيل المطلق للسلطان ومعه ختم المملكة
 وعليه تكون امارة الجيوش ايضاً ويتصرف في اموال الخزينة كيف شاء وبوجه
 جميع المناصب الملكية والعسكرية وعليه درك جميع ما يقع في الدولة من الخلال
 والقسط والحريق وانهمزام العساكر في الحروب وقيام الرعايا للعصاة وامثال
 ذلك من الضمانات التي جعلت قل ان يموت احد من اصحاب هذا المنصب
 حنق انه

وكان رئيس مشورة الدولة يسى رئيس افندي يعني الافندي المترأس
 على زمة الافندية ارباب الاقلام فان هذه الزمة كان لها كلمة نافذة في
 الدولة لكونها تحتوي على فضلاء الامة العثمانية واكثرها معرفة في الادبيات
 والسياسيات

اما العلماء اصحاب العلوم الشرعية فهم المحافظون على ناموس الشريعة
 الدينية في المملكة ويأتمون افندية ايضاً ويعلمون الناس امور دينهم ويفتقون في

مواد المعاملات والجنايات ورئيسهم هو شيخ الاسلام الذي يستفتيه السلطان في الامور الشرعية ولا يعقد حرباً او يضرب ضريبة على الرعية الا بفتوى منه وهو الذي يولي النضاة الذين يحكمون في الدعاوي بين الخصمين واحكامهم تكون مؤسّسة على ما يستدلون به من القرآن او يستندون اليه من الحديث او من كلام الفقهاء ولم ان يقيموا الحدود ويحكموا بقتل القاتل وترتيب جزاء السارق وغيره من ارباب الجنايات وقل ان حوكم جان نادب لجريرة او عرف سبب قصاصه الا اذا كانت جرت مما كتمه وترتب جزاؤه بمعرفة هؤلاء النضاة ولما كان في معسكر السلطان عثمان الاول بحري حكم النضاة في اقامة الدعوى نظير حكم مشورة عسكرية اهلها رحالة تراه لقب كل من الفاضلين العظييين في المملكة وها قاضي روم ايلي الذي هو قاضي بلاد الدولة التي في اقليم اوروبا وقاضي اناطولي الذي هو قاضي بلادها التي في اقليم اسيا بلقب قاضي عسكر مع اسمها في الحقيقة قضاة مدن ولبسا قضاة عساكر وقال بعض المولفين ان اول من جعل قضاة العساكر اثنين واحداً في الروم ايلي والاخر في اناطولي هو السلطان محمد الفاتح

وكما از شيخ الاسلام يعين النضاة الموما اليهم لابتداه كذلك من ان يخصص مفتياً لكل بلد من البلاد التي يعين لها قاضياً ويكون من المتضلعين بمعرفة الامور الشرعية لمراقبة ما يجر به ذلك القاضي من الاحكام الشاذة او ليستعين به القاضي في القضايا المشككة فلا يبرم فيها حكماً الا من بعد ان يستشيرهُ ويحصل على جواب ممضي ومختم منه مبني على نص شرعي يوثق به

اما نقابة الاشراف فهي وان تكن من الوظائف العلمية الا انه لم يبق لها من الاهمية ما كان في ازمنة الخلفاء من العرب لانتصارها في المحافظة على سلسلة انساب الذين ينتمون الى العصبة الهاشمية وكانوا يتوصلون بها الى الخلافة او الاستخفاف في بيت المال

وكان من اصعب الامور معرفة مقدار ايرادات الدولة ومصاريفها على

وجه الصحة والتدقيق بل ان ما يصل من الاموال الى السلطنة كان موكولاً الى
 الدفتردار الذي هو امين خزينة المملكة ويجمع تحت يد ما يتحصل من بيع
 تلك المناصب العظيمة وما يعطى اصحابها عند تقريرات الابقا في اول كل سنة
 وما يؤخذ من اصحاب الاقطاعات والملتزمين وما يتحصل من الخراج اي جزية
 الذميين والتزام بعض المكوس والكمارك وهناك شخص اخر غير الدفتردار الموما
 اليه يقال له وكيل الخزينة ويكون من النخعيان السود موكلاً بتقدير الخزينة
 السلطانية الداخلية التي تدخل فيها الاموال التي تضبط من اربابها بذنب من
 الذنوب والتي يرثها السلطان ومنها تكون مصاريف السرايا السلطانية وهذه
 الخزينة هي ايضا غير خزينة السلطان التي لاموال الخاصة فان تلك تكون تحت
 يد احد غلمان السرايا الذين ياتتهم ويُلَقَّب خازنها بلقب خزينة دار ويراها
 يكون من دار الضرب وتزيد دائماً بما يوفره فيها اغلب السلاطين

وايست معرفة مقدار ايرادات المملكة ومصاريفها كانت مجهولة فقط وغير
 محققة عند الدولة على ما ذكرنا بل ان كثيراً من المحلات والامكنة الملحقة الى
 الايالات ولم تكن اشغالها متصلة بكرسي المملكة كانت اما غير معروفة بالكلية او
 لم يكن لاسماها قيد على وجه الصحة في دفاتر الميري نظراً لما كان يقع بها مع
 مرور الازمنة من التصحيف الناشي من اقلام الكتبة كلها اوجب الامر تجديد
 قيودها. اما عدد نفوس الاهالي فلم يُلَفَّت اليه في هذه المملكة اصلاً الى ان
 جرى نظام قيد النفوس في زمن السلطان عبد العزيز

وكانت العساكر الخيالة في الزمن القديم معتبرة عند العثمانية اكثر من
 المشاة كما كان ذلك عند ملوك الافرنج ايضاً وكانوا يلبسون في رؤوسهم مغافر
 من الحديد ودروعاً منه على اقفيتهم ايضاً ويسمون اقينجية لكن في زمن السلطان
 ارخان اهتم اخوه علا الدين باشا بترتيب جانب من المشاة ورتب لكل نفر
 منهم افيجه واحدة علوفة في كل يوم (والافيجه ربع درهم شرعي) وكذلك كان في
 زمن السلطان المشار اليه قاضي عسكر يقال له قره خليل استحصل منه امرأ

بتعيين عساكر خيالة ومشاة من اولاد المسيحيين قاصداً بذلك اولاحماية النصارى من تعدي العساكر ثانياً اشتراكهم في خدمة الفتوحات مع احزاب الدولة واصحاب عصبيتها حذراً من ان تقرضهم الحروب فتضعف قواهم وتكثر شعوب النصرانية بولاية اعفاهم من الخدومات الحربية ثم املاً بان يكون ذلك مع تمادي الزمان واسطة لدخولهم في الديانة الاسلامية فكتب جانباً من اولاد المسيحيين عساكر ساهم ينكحروا وصار يعطى لمن يدخل منهم في الدين الاسلامي وظائف لاجل الترغيب فاسلم منهم في اول سنة مقدار الف نفر جعل منهم جماعة روساء عشرات ومئات وقواد الوف وارثى ارباب الاستعداد منهم الى مناصب سامية وكان من القواعد المرعية ايضاً اسلام الذين يؤسرون في الحروب فانضموا الى الذين اسلموا وكان يُعطي للنفر الواحد منهم في اوقات الحرب اقمحة عثمانية في كل يوم مثل العساكر الاقينية الذين مر ذكرهم . اما الذين يتفقون نصارى فكانوا يعافون من التكاليف الديوانية وجماعة الفرسان منهم كانت تخصص لهم اعشار الاراضي المزروعة تياراً بدل الوظائف والعلائف فاذا رجعوا من الحروب ذهب كل منهم الى محله وقيل ان العساكر الذين تعينوا بشرط ان يكونوا معافين من التكاليف الديوانية تسموا اولاد اسلام ثم قيل لهم اخيراً اسياحية وان هذه التسمية هي منشأ العداوة التي كانت بين اليكجورية والاسياحية حيث ان اليكجورية كانوا مرتين من النصارى وقال ملطرون ان وجاق اليكجورية تجدد في زمن السلطان مراد الاول (بن ارخان) واول من ساه بهذا الاسم رجل من الاوليا عندهم يقال له الحاج بكتاش اشهر بالكرامات والاخبار بالمغيبات لما ارسل اليه السلطان المشار اليه اول اربعة من هذه العساكر لكي يسي هذا الجيش باسمه ويعطيه لواء ويسأل الله له المعونة في غزواته فوضع هذا الولي كمة على رأس احد الروساء وقال سهوم ينكجورية (ومعناه العسكر الجديد) ثم اخذ في الدعاء لهم وكان ينتخب لهذا الوجاق خمس الاسرى ثم انضم الى ذلك عشر اولاد النصارى ولازال هذا القانون معمولاً به

الى زمن السلطان مراد الرابع الذي تولى السلطنة سنة ١٠٢٣ للهجرة (سنة ١٦٢٢ م) ثم صار لا يدخل به اخيراً الا العساكر الاسلامية وكثيرون من الناس الاغنياء كان ينتظم في سلك هذا الوجاق لاجل الحماية فقط بدون جامكية اه وقال اخرون ان السلطان سليمان الثاني المعروف بالقانوني كما انه ابدع تدبير الخزان في هذه الدولة وجعلها في صورة منتظمة احكم كذلك ترتيب العساكر فقسم الجيوش الى عساكر قايوقوي (اي حرس الباب) وهؤلاء هم الذين كانوا في الحقيقة ملازمين للخدمة العسكرية والظاهر انهم الحجاب واسمهم يدل على ذلك وكانت وظيفتهم المحافظة على التخت وفي زمن الصلح لا يشتغلون بالفنون العسكرية وكان عددهم قليلاً بالنسبة الى العساكر الاخرى المسماة سراناقوي وهي العساكر المعنى للمحافظة على الرساتيق (والرسناق البلاد المشتملة على قرى ومعاملات) وهؤلاء العساكر كان يجلبهم اصحاب الاراضي المسماة تيمارات وقد مر ذكرها وهي اراضي يعطيها السلطان على سبيل العهري (اي التمتع بها مدة حياة الانسان الذي تُعطى له) بشرط ان يخدموا في العسكرية ورتب في القانوننامة التي وضعها هذا السلطان مقادير هذه الاراضي في كل اقليم من اقاليم السلطنة وعدد العساكر التي يجب على صاحب الارض جلبها وبين معاش كل عسكري ما دام في الخدمة العسكرية فكانت هذه العساكر المرتبة على هذا الوجه الغريب الذي لا يوافق ولا يمازج اصول الصناعة العسكرية هي قوى الدولة التي بها افتتح السلاطين العثمانية فتوحاتهم وقال مطبرون ان هذا الوجاق اقدم عند العثمانية من وجاق اليكورية ويسمى وجاق الساقية واصحابه يقاثلون تحت رايات الزعاء واصحاب التيمارات ويرع العثمانية في فن تحصين الثغور حتى ان اهل ايطاليا تعلموا منهم هذا الفن ثم آل الامر الى انقراض هذه الوجاقات كلها وذلك لما انصلت شوكة اليكورية الى ان صاروا كالعساكر البريطوربانية في زمن القياصرة الرومانيين يعزلون سلاطينهم ويقتلونهم ويولون من ارادوه من العائلة السلطانية العثمانية وكان اول من اراد ابطال هذا الوجاق السلطان عثمان الثاني فنهأه العلماء عن

ذلك فلم ينته فادى ذلك الى عزله وقتله ثم في ايام السلطان عبد الحميد الاول الذي تولى السلطنة سنة ١١٨٨ للهجرة (سنة ١٧٧٤ م) اراد كذلك ابطالة وجانب الى مملكة صباطا فرنساوية ورتب فيها التعليمات العسكرية والسفن الحربية ووجد العساكر الطوبجية وطوبجية الفنبرة والرماة بالبندق لكن لما اراد خليفة السلطان سليم الثالث الذي تولى السلطنة سنة ١٢٠٢ للهجرة (سنة ١٧٨٩ م) ان يحدو حدوسالفه المشار اليه في هذا الامر ويرتب العساكر التعليمية صار ذلك سببا في عزله وقتله وخلاصة الكلام انه لم ينز هذا المقصد العظيم الا السلطان محمود الثاني الذي تولى بعده فانه هو الذي نجح في هذا المشروع بعد ان اباد وجاق اليكبرية المذكورين ودمره وازرة العلماء والاهالي لكونهم كانوا انقوا للفاية من رذائل هذا الوجاق الرديئة وقطع كذلك شاقفة العساكر المسماة باليتي التي كانت تمل اليهم والحق بهم الدراويش البكناشية ورتب العساكر التعليمية الجهادية الجديدة الموجودة اليوم وادخل فيها جميع الوجاقات العسكرية القديمة (يراد بالوجاق في اللغة التركية موقد للنار بينى بالطين والحجر لطبخ القهوة في القهاوي كان يوجد نظيره في مراكز روساء العساكر القديمة حيث يجتمعون للتشاور والمناكرات فيكون لكل فرقة منها مثل هذا الوجاق في مجال اجتماعاتها واحتفالاتها الرسمية لتطبخ عليه القهوة لاجل شرب انفارها فينتسب اليها ويقال اوجاق اليكبرية واوجاق الدالانية وهلم جرا ولذلك نسبت تلك الفرق بالوجاقات اخذا عنه كما كان يقال للاغا من اليكبرية چوريه جي يعني صاحب الشوربا او طعام الشوربا نسبة الى الشوربا التي كانت جارية المادة بطبخها في ايام رسمية معينة في قشلة (اي مشتا) العساكر اليكبرية لثورات هذا الوجاق وكان يرتب على نهد قلب مراجها المسماة بلغة الاتراك قرغانلر جمع قرغان الثورات العظيمة التي كانت تؤدى احيانا الى خلع السلاطين وقتلهم ولذلك جرى المثل على السنة العامة من اهالي البلاد بنولم فلان قلبوا له الفازان يعنون بذلك طرده من مسنك او تنكيسو بتد في منزله فلما ابطل

السلطان محمود المشار اليه العساكر المذكورة امر ايضاً بابطال عمل هذه
الوجاقات المعدة لطبخ القهوة من النهاوي بمدينة القسطنطينية أينسى ذكر
الوجاق من اصلاء فصاروا من ذلك الوقت لا يطبخون القهوة في النهاوي الأعلى
المناقل المعتادة)

وكانت آلات حروب السمانية في زمن السلطان عثمان الأول القوس
والنشاب والسيوف والسكاكين والحرايب وكانوا يضربون اسوار المداين والقلاع
بججارة كبار يضعونها في المنجنيقات ويطلقونها عليها فيهدمونها كما يضربون
داخلها بالمجارة الصغار في المقالع وكان احسن تلك الآلات القوس والنشاب
والسهام الثورية الكبار على العربانات مع ان الباروت كان ظهر في زمن هذا
السلطان الفاتح لكنه كان لازال ما اشتهر ولذلك لم يستقر حال ما تجدد
بعدئذ من معامل المدافع المسماة باغتيم طومخانات وورش البنادق وغيرها التي
شُرِع في انشاءها عدة مرات ثم تبطل باسباب الضرائب التي كانت تجدد لاجل
مصاريفها الا في زمن السلطان سليم الثالث

اما قوة العثمانية البحرية فكان تجديدها في زمن السلطان محمد الفاتح الذي
هو اول من رتب العساكر البحرية في هذه الدولة ثم عظمت قوتها وشوكتها في
زمن السلطان سليمان الثاني لكنها اخذت في الانحطاط منذ القرن الثاني عشر
الهجرة المقابل القرن الثامن عشر من الميلاد واخيراً اعتبروا في عمارتها طرق
الانكليز وقد وهم في ذلك على ما كان نواة السلطان سليمان الثالث الذي
جلس على تخت في سنة ١١٠٤ للهجرة (سنة ١٦٩٢ م) وبجربتها غالباً كانت
تكون من الاروام وقد اخذت في الرجوع الى ما كانت عليه من القوة في بداعة
امرها منذ زمن السلطان عبد العزيز الأول الذي البسها حلل الرنق والبهجة
بما زاده فيها من البوارج البخارية والشواني المصنعة الحديدية

ولم يكن عقد المجالس للتشاور ووضع القوانين الادارية مجهولاً عند الدولة
العثمانية في ابتداء امرها اذ قد سبقت الاشارة الى المجلس الذي كان عقد

السلطان ارخان في بروسا لما تولى السلطنة بعد ابيه السلطان عثمان الاول
لوضع بعض قوانين ونظامات تلائم احوالهم البدوية مع ظنطنة السلطنة والدولة
وكان ذلك المجلس مركباً من علاء الدين باشا اخي السلطان المشار اليه
والشهبزاده سليمان باشا والسلطان مراد وغيرهم من الاعيان والاكابر فرتبوا فيه
اولاً امر الملابس على ما سبقته الاشارة اليه في صحيفة ٥٢٦

ثانياً منعوا فيه تداول المعاملة التي كانت متداولة وقتئذ في ايادي الناس
من ضرب السلاطين السلجوقية وان تضرب معاملة جديدة غيرها باسم السلطان
ارخان وبعلامة الدولة فمن ثم ابتدئ بضرب السكة باسمه في محرم سنة ٧٢٨
للهجرة (سنة ١٢٢٧ م) وكتب عنوانها امير وساطان الروم وبقي يكتب عليها
هذا العنوان لحد زمن السلطان بايزيد الاول الملقب بيلدريم ومعناه في التركية
البرق لقب بذلك لخصته في الحروب وقيل ان السبب الاصلي فيه هو لكون ان
اسمه هذا الذي هو بايزيد لم يكن فيه حرف الميم خلافاً لما اعتاده آل عثمان
من الاسماء تيمناً بوجود الحرف المذكور فيها ولذلك لقبوه بهذا اللقب لوجود
هذا الحرف فيه ولم يقل اعتبار هذه العادة الا في زمن السلطان محمود الاول
وابنه السلطان عبد العزيزاه ولترجع الى ما كنا بصدده من امر السكة وضرب
العملة فنقول ثم تغير ذلك العنوان عن المعاملة بعد فتوح البحر الابيض والبحر
الاسود وكتب عوضه سلطان البرين و خاقان البحرين ثم لما افتتح السلطان
سليم الاول مصر و انجاز ضم الى ذلك خادم الحرمين الشريفين (يعني مكة
والمدينة) وكتب عليها احياناً سلطان سلاطين زمان ولا يازمننا استتراء كل ما
كُتِب عليها ولا مقدار انواعها وكيفية ما وقع من التغيير والتبديل في عباراتها
وارزائها بل ينبغي المدول الى ما هو اهم اعني الاصلاح العظيم الذي جرى فيها
في زمن السلطان عبد المجيد الاول فانه امر بضرب الليرات الذهبية والريالات
الفضية المنسوبات اليه خالصات من الزغل تحت عيار ووزن معلوم لا يتغيران
بقوته عادلة بحيث لا تزيد عن اثمان الذهب والفضة الخالصين الا بما قل في

نظير اجرة السك فقط واكتفى بوضع الطغراء السلطانية من الجهة الواحدة
ومحل ضربها ان يكن التسطنطينية او مصر او غيرها من النقصات المأذونة
بضرب المعاملة من الجهة الاخرى (والطغراء هي اسم السلطان يكتب بصورة
مخصوصة نظير العلامة)

وكان لم يترتب في مجلس بروسا الذي كنا بصدده من الامور المهمة غير
ما ذكرنا الا اقامة نواب من طرف السلطان للخطابة في الجوامع وقت صلاة
الجماعة يوم الجمعة نيابة عنه وان السلطان يامر بالمكافاة لمن يخدم بنصح
وبالمجازاة لمن كان بعكس ذلك وان تعين مراتب مخصوصة الى اصحاب
الخدمات السابقة الذين اوفوا خدماتهم في باب الدولة بالصدق والاستقامة
وان تحصل المبادرة بجميع العساكر الخيالة والمشاة وغيرهم وامثال ذلك من
القوانين التي جددوها باتفاق الراء لتظهر لهم حقوق دولية فيما بين السلاطين
والمموك المجاورة لهم

فلما تولى السلطنة السلطان سليمان الثاني وضع قوانين اخرى لقب بسببها
بالقانوني اخذت بعض احكامها من قوانين ملوك الروم مزوجة باحكام الشريعة
الاسلامية وانما لا توجد بها قوة لضبط ارباب المناصب ولا احكام تتكفل بتنفيذ
تلك القوانين

اما القوانين العظيمة والاحكام المتكفلة بانفاذها على وجه اتم واكمل بما فيها
من الاصول العادلة والترتيبات النافعة العائدة للدولة خصوصاً وللتبعية عمومًا
وقد ذكرت بعض نتائجها بالمناسبة في ما مر فان الفخر كل الفخر فيها للسلطان
محمود الثاني الذي هو اول شارع فيها منذ اعتق ملكته من ظلم اليكبرية
وغيرهم من تلك الوجاقات العسكرية المقهورة لجرورها وتصديها للسلاطين
ومنعها اياهم عن انفاذ ما رتبهم وتتميم مقاصدهم في اصلاح احوال الملكة ونقوية
شوكتها وسعادة اهاليها وراحتهم

وهذا العمل المبرور قد مهد الطريق لابن السلطان عبد المجيد الاول

الذي منذ جلوسه على التخت العثماني عاهد الله بقسم في حجرة المحرقه الشريفه على صيانة دماء الرعايا واعراضهم واموالهم وحفظ ناموسهم ثم انه اخذ هذا العهد عينه ايضاً بقسم على العلماء وجميع الوكلاء والوزراء وبعد ان أعلن ذلك بفرمان عال مورخ في ٢٦ شعبان سنة ١٢٥٥ للهجرة الموافق الى ٢٢ تشرين الاول سنة ١٨٢٩ م تلي في المحل المعروف بكلخانه في مدينة القسطنطينية وأرسلت صورته الى سفراء الدول الاجنبية ايضاً اخذت قوانين التسوية بين الرعايا والترتيبات التي سُميت بالتنظيمات الخيرية ان تظهر شيئاً فشيئاً في جميع اقطار هذه المملكة الواسعة بفرمان عالية واوامر سامية متتابعة

ولازال الحال على هذا المنوال الى ان ظهر دستور القوانين السلطانية وطبع مرتين في زمن اخيه السلطان عبد العزيز والطبعة الثانية كانت حاوية على كل ما نجز وضعه وترتيبه ليخرج من القوة الى الفعل ما قد ترخص به الوكلاء والمأمورون الذين قد أُنيط بهم هذا العمل الجيد سواء كان ذلك ما ورد في نصوص الفرمان العالي المشار اليه او في غيره من الاوامر الملوكية الصادرة في اوائل شهر جمادى الآخرة سنة ١٢٧٧ للهجرة او اخر كانون الثاني سنة ١٨٥٦ م وغير ذلك من التواريخ وثبتت اخيراً بالمخط الشريف السلطاني الصادر الى مقام الصدارة العظمى عقيب الجاوس الهابوني بتاريخ ٢٢ ذي الحجة سنة ١٢٧٧ للهجرة (٢٠ حزيران سنة ١٨٦١ م) وهما كملخص مضامينها العالية التي بها أُغيت احوال السياسة القديمة التي كانت الدولة مجبورة اليها في عصر تلك العساكر البربرية على ما هو مندرج في فاتحة الدستور المذكور وقد كتبت منذ مدة ترجمت منه مجلدين كبيرين وهما الاول والثاني الى اللغة العربية خدمة للدولة والوطن تقديماً الى دار السعادة عن يد صاحب العنق خليل افندي الخوري مدير المطبوعات ولازال العارفون بذلك يتوقعون سنوح الترخيص بطبعتها ونشرها ليعرف كل ما عليه وما له ما تكفأت لهم به الفصول الآتي ذكرها

اولاً ابطال ما كانت تجريه العمال من المظالم الآتي ذكرها وهي

- (١) البص وصادرة الاموال
- (٢) سفك الدماء بغير وجه
- (٣) العوائد والقوانين الخشنة القديمة
- (٤) حرم الورثة حقوقهم في اراث المتوفي من آية رتبة كانوا
- (٥) حجز محصولات المملكة واحتكارها بيد شخص واحد يتمتع بارباحها

وحده

- (٦) اخذ اقارب المذنب بجريته
- (٧) الالفاظ المهينة والعبارات الضعيفة التي كانت تستعمل لفظاً وكتابةً وخاصة بحق من كان على غير دين الاسلام
- (٨) حجز حرية الضمير في الامور التي بين الخالق والمخلوق

ثانياً اباحة مراحم اما كانت مخصوصة واما مفقودة بالكلية وهي

- (١) اباحة الحرية في استعمال الشعائر الدينية لاي مذهب كان
- (٢) اعطاء المناصب والمراتب الداخية الملكية والعسكرية لاصحاب اللياقة والاستحقاق من آية ملائ كانوا من الرعايا
- (٣) ترتيب المحاكم وتعيين المعاشات للفضاة على طرق خزينة الدولة
- (٤) ترتيب التاديبات لمن يرتكب الرشوة ووضع قوانين الجزاء لكل من سائر اصحاب الجرائم والقبايح بحسب استحقاقه
- (٥) ترتيب معاشات كافية للمأمورين وجميع مستخدمي الدولة بحيث لا يبقى لهم عذر في قبول الرشوة وابتلاع الاموال
- (٦) تشييد المحاكم بقوانين معتبرة يجرى عليها نصر فهم في كليات الامور وجزئياتها بحيث لم يترك شي لاجتهادهم الخاص

(٧) ربط هذه النظميات كلها بدواوين يجتمع فيها كبار البلاد ووجوهها ذوا الاعتبار من جميع التبعة على اختلاف مذاهبهم للنشاور والنظر في الامور الملكية والمالية والجزائية والاصلاحات البلدية والنضاي التجارية وكل منترعات الاحكام هذا عناء عن المجالس المختصة الموجودة في عاصمة المملكة لتنظيم القوانين النافعة والاحكام العادلة العائدة لخير الملك والشعب

(٨) وضع القوانين التي يلزم ان تجرى عليها عمية هذه المجالس في كل الامور والنضاي المحالة الى عهدتها اهتمام اعضائها بحيث ان كل حكم ابرم فيها غير مستند الى قانون صريح فلا يكون نافذا ولا يعمل به اصلاً بل لكل انسان حتى المدافعة عن نفسه بقوة هذه القوانين والاستناد اليها فاذا خسر احد حقه بجهل اياها فلا يكون لومه الا على ذات شخصه

(٩) ترتيب الاموال والعائدات الاميرية وكيفية تحصيلها على وجه السهولة وراحة الاهالي بحيث يكون توزيعها على كل شخص بقدر احتمالها بطريقة الاعشار الشرعية

(١٠) تخصيص الصناديق البلدية ببعض عائدات رسومية كانت تؤخذ الى خزينة الدولة لتصرف في الاصلاحات المحلية كتنهيد الطرق واصلاح القناطر والجسور واغنية الماء وغير ذلك من الامور الموجبة اصلاح احوال المدن ونظافتها

(١١) ترتيب المدارس الرشدية لتعليم الاهالي وتمهيدهم وتأهيلهم للقبول في خدمات الدولة ومناصبها السامية

(١٢) مساواة الاهالي على اختلاف مذاهبهم ايضاً بالاجانب الذين يحصلون على شيء من الامتيازات في الامور التجارية

(١٣) حفظ ناموس الرعية وتنع كل انسان منها بامواله واملاكه وسائر وجوه تنعماته بدون معارض

(١٤) تطهير الحبوس وتنظيفها ورعاية المسجونين والمحافظة عليهم ما

يوجب الاضرار على صحتهم والقيام بالتبوت اللازم لذوي الفاقة منهم الى غير ذلك من الامور التي لانسعنا تفاصيلها ومن هنا يعلم الفاري بان ما صدرت الارادة السلطانية بابطاله قد كان جارياً من ذي قبل وما ابحاثه قد كان اما مخصصاً واما ممنوعاً وما احدثته قد كان معدوماً بالكافية

ثم في زمن السلطان عبد الحميد الثاني الذي تولى العرش في سنة ١٢٩٢ للهجرة (سنة ١٨٧٦ م) وضعت النظمات الاساسية التي بها تكرمت الدولة بابطال السطوة الاستبدادية اي السطوة المطلقة الذي يتسلطه شخص واحد او اكثر ومُنحت الحرية والعدالة والمساواة لكل الطوائف المختلفة التي تتألف منها الهيئة الاجتماعية في بلاد الدولة العلية واعلنت بفرمان عال مؤرخ في ٧ ذي الحجة سنة ١٢٩٢ للهجرة (٢٣ كانون الاول سنة ١٨٧٦ م) وهي تحتوي على ١٢ فصلاً

- (١) يتعلق بالسلطنة العثمانية او بممالك الدولة العثمانية تبييناً لها وبمنازل بعض متعلقات الذات المملوكة وحقوقها وسائر السلالة العثمانية المملوكة
- (٢) حقوق تبعة الدولة العلية العمومية
- (٣) في وكلاء الدولة
- (٤) في المأمورين
- (٥) في المجلس العمومي
- (٦) في هيئة مجلس الاعيان
- (٧) في هيئة مجلس المبعوثين
- (٨) في المحاكم
- (٩) في الديوان العالي
- (١٠) في الامور المالية
- (١١) في الولايات
- (١٢) في مواد شتى ولا يسع هذا المختصر تبين تفاصيل المواد المدرجة

تحت هذه النصول بافرادها بل نقول على وجه الاجمال ان الدولة العلية منذ
 تولي السلطان عبد المجيد الاول الى زمن السلطان عبد الحميد الثاني الحامي لم
 تكف قط عن بذل السعي والاجتهاد في سبيل راحة الاهالي وترفيه احوالهم
 وسعادتهم وصيانة ارواحهم واعراضهم واموالهم ووقاية ناموسهم ولم يبق شيء
 ناقصاً الا ما كان عمارة من متعلقات القدرة الالهية الفادرة وحدها ان تحول
 اخلاق العمال المنوط بهم انفاذ القوانين عن بعض امور مثله في شرف النفس
 الى العمل بموجب النظمات السلطانية كما تمن علينا نحن ايضا بتحويل طباعنا
 عن التعصبات الدينية والاعراض المذهبية وعن صرف اوقاتنا مع الجدل
 والاجتهاد على الاتصاف بوصف اول لعيب حاذق مثلاً في اللعبة الفلانية الى
 الرغبة في اكتساب شرف الاتصاف بفضيلة من فضائل الاداب والمعارف
 الحقيقية

يقول مولفه الفقير نوفل بن نعمة الله بن جرجس نوفل هذا اخر ما امكني
 تعليقه في كتابي هذا الثاني المسى بزينة الصحائف في سياحة المعارف ما وصلت
 اليه يدي النقطاً من تلك الكتب والرسالات والنشرات التي
 اشترت اليها في مقدمة كتابي الاول ويليه الكتاب الثالث
 المسى بصناعة الطرب في تقدمات العرب
 والمحمد لله اولاً واخراً

اصلاح غلط

صواب	خطا	سطر	صفحة
على مقتضى	وعلى مقتضى	٨	٤
ابتدى	ابتدى	٢	٥
وتأليه	وتأليه	٢٤	١٠
منقطا	منقطا	١٠	٢٢
يجب بالوطن	يجب بالوطن	١٩	٢١
بعضهم زمن عمالها	بعضهم من عمالها	١٧	٧٢
انوبيس	ابونيس	٢	٧٤
انوبيس	ابونيس	٤	٧٤
فلاسفوس	فلاسفوس	٤	١٠٢

يوجد غلط في عدد الصفائف الآتي ذكرها وترويسها

صواب	خطا
المعارف عند اليونان ١٢٩	المعارف عند الرومانيين ١٢٧
١٣٠	١٢٨
المعارف عند اليونان ١٢١	المعارف عند الرومانيين ١٢٤
١٢٢	١٤٠
المعارف عند اليونان ١٢٢	المعارف عند الرومانيين ١٤١
١٢٤	١٤٢
المعارف عند اليونان ١٣٥	المعارف عند الرومانيين ١٤٣

صفاة	سطر	خطا	صواب
١٤٤			١٢٦
١٢٩			١٢٧
١٣٠			١٢٨
١٢١			١٢٩
١٢٢			١٤٠
١٢٢			١٤١
١٢٤			١٤٢
١٢٥			١٤٣
١٢٦			١٤٤
١٥٧	٢٤	بوقامون	بوتامون
١٦١	٧	اذان الدروديون	اذان الدروديين
١٧١	الترويس	الفياصرة الرومانيين	المعارف عند الرومانيين
١٧٨	٢١	ذلك وقت من	ذلك في وقت من
١٨٤	٢١	الرهبان كانوا	الرهبان لانهم كانوا
١٩٦	٢١	ولما اراد وان ايزينوا	ولما ارادوا ان ايزينوا
٢٠٨	١٢	على تقدمات	عن تقدمات
٢١٠	١٢	وكما ان	كما ان
٢١٥	الترويس	الامبراطورية الغريقية	الامبراطورية الغربية
٢٤٢	٨	بايطاليا	في ايطاليا
٢٤٤	٢٠	ورنغريد	ورنغريد
٢٥٢	١٩	ورنغريد	ورنغريد
٢٥٧	٢٢	وبولين واكيابا	وبولين داكيابا
٢٦٤	٢١	جيبلا انفس	جيبلا انفس

صواب	خطا	صفحة	سطر
٢٦٦	٢٢٦	٢٦٦	الترويس
بعد ان استولوا	بعد استولوا	٢٠	٢٦٧
سؤله	سواله	٧	٢٠٦
ميشيلود وميشيلوزي	ميشالوز وميشالوزي	١٢	٢٤٠
عسكر	عساكر	٧	٢٩٤
استدراجات مدنية	استدراجات امكانية	٦	٤٠٧
ديفرميان	ديفرميان	٣	٤٠٨
٤١٧	٤٢٥	٤١٧	الترويس
منذ قرن ما كان	منذ قرن ما كان	١	٤١٧
٤١٨	٤٢٦	٤١٨	الترويس
٤١٩	٤٢٧	٤١٩	"
٤٢٠	٤٢٨	٤٢٠	"
من بعض تاثيراتها الردية من	من تاثيرها الردي بعض		
الامور الآتية وهي	الامور الآتية وهي	١٢	٤٢٠
٤٢١	٤٢٩	٤٢١	الترويس
٤٢٢	٤٣٠	٤٢٢	"
٤٢٣	٤٣١	٤٢٣	"
٤٢٤	٤٣٢	٤٢٤	"
٤٢٥	٤١٧	٤٢٥	"
٤٢٦	٤١٨	٤٢٦	"
٤٢٧	٤١٩	٤٢٧	"
٤٢٨	٤٢٠	٤٢٨	"
٤٢٩	٤٢١	٤٢٩	"

صفحة	سطر	خطا	صواب
٤٣٠	"	٤٣٢	٤٣٠
٤٣١	"	٤٣٣	٤٣١
٤٣٢	"	٤٣٤	٤٣٢
٤٤٧	"	مدة القرن الثامن عشر	مدة القرن التاسع عشر
٤٥١	١٣	باديه	باويا
٤٥٥	الترويس	مدة القرن الثامن عشر	مدة القرن التاسع عشر
		في الفصل الثاني من	في الفصل الخامس من البحث
٤٦٤	١٩	البحث المذكور	الثاني صحيفة ٢٤٠
٤٦٦	١٣	افتتاح القرن الثامن	نهاية القرن الثامن
٤٧٥	١٧	(٢٧٥٥٧١)	(٢٨٥٥٧١)
		المعارف في بلاد الدولة	المعارف في بلاد الدولة العماية
		العماية	العثمانية منذ الفتوح الى القرن
٥١٩	٢		التاسع عشر
٥٣٤	١	تتعلق	تتعلق
٥٣٩	١٨	النصب	النصب